موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

تفسير القران الكريم

من سورة ابراهيم
حتى
سورة الاسراء

التفسير المطول - سورة إبراهيم 014 - الدرس (1-9): تفسير الآيات 1 – 5
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-09-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، سورة اليوم سورة إبراهيم أبي الأنبياء عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام .

(الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

الإنسان بين الظلمات والنور :

في هذه الآية مركز ثِقَل، الظلمات والنور، ربنا سبحانه وتعالى كَنَّى عن الهدى بالنور، وكنَّى عن الضلال بالظُلمات، فالكافر في ظلماتٍ بعضها فوق بعض ..

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة : من الآية 257)

لو أن الرجل دخل الأسواق وباع واشترى وليس له معرفة في الله فهو في ظُلُمات، أغلب الظن أنه يكسب مالاً حراماً، أغلب الظن أنه يُسيء للآخرين، فإذا كان مؤمناً، مهتدياً، متَّبعاً لكتاب الله فهو في نور، يكسب ماله كلّه حلالاً ..

((يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[الطبراني في المعجم الأوسط عن ابن عباس]

فحضور مجالس العلم ليس من باب أن نضيف إلى مُتعنا متعة جديدة، لا، حضور مجالس العلم فرضٌ لسلامتنا، وفرضٌ لسعادتنا، وفرضٌ لدخولنا الجنَّة، لأن الجاهل لا يستوي مع العالم ..

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر : من الآية 9)

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

الرجل الذي يتزوَّج ولا يعرف الله سبحانه وتعالى قد يُخْرِبُ حياته بنفسه، بيديه، لأنه جاهل لا يعرف كيف يعامل الزوجة، في ظلمات، لساعة غضب يحلف عليها يميناً بالطلاق، قد يتساهل في أشياء، ينشأ

اختلاط، تنشأ محبَّةٌ، تنشأ خيانةٌ، كل ذلك بسبب أنه في ظلمات بعضها فوق بعض، فالزوج المُنْقطِعُ عن الله عزَّ وجل في ظلماتٍ بعضها فوق بعض، والتاجر المنقطع عن الله عزَّ وجل في ظلماتٍ بعضها فوق بعض .

مهمة الأنبياء إخراج الناس من الظلمات إلى النور :

ما مهمَّة الأنبياء؟ كأنَّ الله سبحانه وتعالى في هذه الآية حدَّد مهمَّة النبي عليه الصلاة والسلام :

(لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

الضلال ظلمات، والهدى نور، الجهل ظلمات، والعلم نور، المعصية ظلمات، والطاعة نور، الانقطاع عن الله ظلمات، والاتصال به نور، هذه مهمَّة الأنبياء، وهذه مهمَّة النبي عليه الصلاة والسلام، وهذه مهمّة الدعاة الصادقين من بعده ..

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف : من الآية 108)

(لِتُخْرِجَ النَّاسَ)

والله الذي لا إله إلا هو ما من تشبيهٍ وتمثيلٍ أوضح من أن يُشبَّه العلم بالنور والضلال بالظلمات، المهتدي يُحِسُّ بأنَّ الجاهلَ في ظلمات، يتخبَّط خَبْطَ عشواء، ينفعل من دون سبب، يرضى من دون سبب، يسيء علاقاته مع الناس لأنه جاهل، فإذا كنت مهتدياً فأنت على بصيرة ..

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف : من الآية 108)

لذلك ربنا عزَّ وجل قال :

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة : من الآية 219)

((ما استرذل الله عبداً إلا حظر عليه العلم والأدب))

[ورد في الأثر]

أثمن شيءٍ يمنحك الله في الدنيا أن تعرفه وأن تكون أديباً معه ومع خلقه ..

((إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ))

[سنن الترمذي عن أبي هريرة]

أثمن شخصيَّةٍ في الحياة شخصية المؤمن لأنه عرف الله، سَمَتْ نفسه، تفتَّح عقله، تيقَّظ حسُّه، نمت

مشاعره، يرى ما لا يراه الناس، يسمع ما لا يسمعون، يحتكم إلى القِيَم، تحكمه القيم، هذه صفات المؤمن، المؤمن شخصيَّةٌ فذَّة، كلمة مؤمن لقبٌ علمي ..

((ما اتخذ الله وليّاً جاهلاً لو اتخذه لعلَّمه))

[ورد في الأثر]

((كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللَّهَ))

[سنن الدرامي عن مسْروق]

لقبُ مؤمنٍ لقبٌ جمالي، المؤمن سعيدٌ بالله عزَّ وجل، مطمئنٌّ إلى عدالته، راضٍ بقضائه، مستسلمٌ لقدره، مصدِّقٌ لوعده، يخاف من وعيده ..

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية : من الآية 21)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص : من الآية 61)

فلذلك :

(لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

هل أنت في نور؟ هل تُحسُّ أنَّكَ مهتدٍ؟ هل ترى الأشياء واضحة؟ هل ترى كيف تتخذ القرار في شأن زوجتك؟ في شأن عملك؟ في شأن أصدقائك، في شأن جيرانك؟ في شأن صحَّتك؟ ..

(كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ)

القرآن يخرج الناس من الظلمات إلى النور :

يا أيها الإخوة الأكارم ... كتاب الله بين أيدينا نقرأه، ونحفظه، ونستمع إليه، ونستطيع أن نستمع إلى تفسيره، إذاً هذه مائدة الله سبحانه وتعالى، يدعوكم الله إليها، هذا كتابه، هذه آياته، هذه كلماته، كتابٌ :

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت : من الآية 42)

(كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ)

الهدى ثمنه طاعة الله :

لأن الإنسان إن لم يأذن الله له بالهدى لا يهتدي، وإذن الله سبحانه وتعالى له قاعدة، القاعدة هي أنك إذا دفعت الثمن قبضت الجائزة، الهدى ثمنه طاعة الله عزَّ وجل، ثمنه أن تكون وَرِعاً ..

((ركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعة من مُخَلِط))

[الجامع الصغير عن أنس]

ثمنه أن تجاهد نفسك وهواك، جاهد تُشاهد، ثمن الهدى مبذولٌ للناس كلِّهم، فمن دفع الثمن قبض الجائزة، فضل الله سبحانه وتعالى واسع ..

(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ)

الهدى أمنٌ وسلامة:

من يشاء من العباد، يشاء يعود فاعلها على العباد ..

(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

(سورة البقرة : من الآية 105)

فالله سبحانه وتعالى لا يأذن إلا للصادق، لا يأذن للكاذب، لا يأذن للمنافق، لا يأذن للمُرائي، لا يأذن للفاسق، لا يأذن للمُخَلّط .. الفاسق، والمخلّط، والمُرائي، والفاجر، والمنافق هؤلاء جميعاً لا يأذن الله لهم بالهدى .. ولو قرؤوا كتب الثقلين، ولو حفظوها عن ظهر قلب، الثقافة شيء والهدى شيءٌ آخر، الثقافة تبقى في الدماغ، تُكْسِبُ صاحبها حَذْلقة لا قيمة لها بعد الموت، لكن الهدى يتغلغل في كل خليةٍ من خلايا جسدك، قلبُك مهتدٍ، جوارحك في طاعة الله، اهتماماتك في مرضاته، قلقك على رضاه، رغبتك في القُرْبِ منه، فالهدى سعادة، الهدى رؤية، الهدى انضباط، الهدى سموّ، الهدى خُلُق، الهدى تفاؤل، الهدى أمن، شعورٌ بالأمن ..

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

الفرق بين السلامة والأمن هو أن السلامة ألاّ تُصاب بمصيبة، ولكنَّ الأمن أثمن من السلامة وهو ألاّ تتوقَّع المصيبة ..

أنت من خوف الفقر في فقر، ومن خوف المرض في مرضٍ، وتوقُّع المصيبة مصيبةٌ أكبر منها .

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

فهذا الكتاب الذي بين أيدينا كتاب الله سبحانه وتعالى، منهجنا، دستورنا، فيه نبأ مَن قبلنا، ونبأ من بعدنا، حبل الله المتين، فيه نظامٌ لحياتنا، تقنينٌ لعلاقاتنا، توضيحٌ لمنهجنا في الحياة ..

الله عزيز لا يُذلُ من يطيعه :

(بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

اختار الله عزَّ وجل من أسمائه الحُسنى في هذه الآية اسم العزيز، العزيز الذي لا يُنال جانبه، أي أنك إذا كنت مع العزيز فأنت عزيز .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا)

(سورة فاطر : من الآية 10)

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة المنافقون : من الآية 8)

((إنه لا يذلُّ مَن واليتَ ولا يعزُّ مَن عاديتَ))

[أبو داود عن الحسن بن علي]

إذا كنت تبتغي العزَّةَ فإن العزَّةَ لله جميعاً ..

(إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ)

هو عزيز أيْ : منيع الجانب، لا تستطيع جهةٌ في الكون أن تصل إليه، ولا أن تنال منه، فإذا كنت معه فأنت أقوى الناس، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله، إذا أردت أن تكون عزيزاً فكن مع العزيز، كن في حماية العزيز، لُذْ بالعزيز ..

الله يُحمدعلى كل شيء :

(الْحَمِيدِ)

ومع أنه عزيز، ومع أن أحداً لا يستطيع أن ينال منه، ومع أن أحداً لا يستطيع أن يصل إليه، ومع أن أحداً لا يستطيع أن يعقّب على حكمه، ومع أن أحداً لا يستطيع أن يشركه في الحكم ..

(الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

هو حميد، أغلب الظن أن بعض الأشخاص الذين إذا قوي شأنهم لَمْ يبالوا أن يمدحهم الناس أو أن يذمُّوهم، لكن الله سبحانه وتعالى له الأسماء الحُسنى، فمع أنه عزيزٌ هو حميد، يُحْمَدُ على أفعاله كلّها، يُحْمَد على تصرُّفاتِه كلّها، ليس في الإمكان أبدع مما كان ..

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس)

يوم القيامة الله سبحانه وتعالى يكشف للرجل عن كل شيءٍ ساقه إليه في الدنيا، فلا يسعه إلا أن يقول : الحمد لله رب العالمين، يحمده على الضرَّاء، يحمده على الفقر، يحمده على فقد البصر، يحمده أن جعله

عقيماً، يحمده أن جعل له أولاداً إناثاً جميعاً، يحمده أن جعله فقيراً، يحمده أن جعله مريضاً، يحمده أن جعله مُعَذَّباً، لأن الله سبحانه وتعالى يكشف للمرء يوم القيامة عن كل شيء ساقه إليه فلا يسعه إلا أن يحمد الله عزَّ وجل، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله، هذه من كلمات الإسلام الكبرى، فأنت تقول في الصلاة :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الفاتحة)

إما أن تقولها بلسانك، وإما أن يقولها قلبك، فهل ترى أن كل شيءٍ ساقه الله لك يُحْمَد عليه؟ هل أنت راضٍ عنه؟ .. أعرابيٌّ يطوف بالكعبة ويقول: " يا رب ارضَ عني "، فقال له الإمام الشافعي وكان وراءه: " يا هذا هل رضيتَ عن الله حتى يرضى عنك؟ " . فقال : " سبحان الله مَن أنت؟ " . قال : " أنا الشافعي "، قال: " وكيف أرضى عنه وأنا أتمنَّى رضاه؟ " . قال : " إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله " ..

أن ترضى عن الله في الرخاء شيءٌ لا يكلِّف شيئاً، شيءٌ بديهي ولكن البطولة، ولكن الإيمان الصحيح أن ترضى عنه في الشدَّة، وعند الصدمة الأولى أن تقول : يا ربي لك الحمد، يا ربي لك الحمد على كل حال، النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا أصابته ضرَّاءٌ صَبَرْ ، وكان إذا أصابته سَرَّاءٌ شَكَرْ، وليس هذا لغير المؤمن ..

((إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ كَانَ ذَلِكَ لَهُ خَيْرًا وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ فَصَبَرَ كَانَ ذَلِكَ لَهُ خَيْرًا))

[مسند أحمد عن صهيب]

(صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

أي أنك إذا اهتديت بهذا الكتاب نقلك من الظلمات إلى النور، وبهذا النور رأيت الطريق إلى الله عزَّ وجل، والطريق إلى الله طريق الخلود، قبل أيَّام ذكرت في مجلسٍ خاص أن نعمة الصحَّةِ نعمة ثمينة جداً إلا أنها تنتهي عند الموت، فلو عاش الإنسان مائة وعشرين عاماً لا يشكو شيئاً يأتي الموت فيضع حداً لهذه النعمة، ولو كان غنيَّاً وأنفق طول حياته إنفاقاً هائلاً، وكان دخله أكبر بكثيرٍ من مصروفه، ومْا ذاق طعم الحاجة طِيلة حياته، ولا ذاق طعم الفقر، فلو عاش مائتي عام يأتي بعدها الموت فيضع حداً لهذه النعمة .

ولكن نعمة الهدى تستمرُّ إلى الأبد، إذا جاء ملك الموت وكنت مهتدياً فهنيئاً لك إنك في جنَّاتٍ ونعيم، إنك في مقعدٍ صدقٍ عند مليكٍ مقتدر، إنك في القُرب من الله سبحانه وتعالى، فلذلك نعمة الهدى أثمن نعمة ..

(صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(1)اللَّهِ)

اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

صاحب الأسماء الحُسنى، اسم الذات الأعظم ..

(اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

الكون كله لله ملكًا وتصرفا ومصيرا :

له، هذه اللام لام المُلكِيَّة، أي أنَّ ما في السماوات والأرض مِلْكٌ له، مُلكاً وتصرُّفاً ومصيراً، فكيف تعبد غيره؟ كيف تسعى إلى غيره؟ كيف يهمُّك رضاء غيره؟ كيف تخاف غيره؟ كيف تسعد بغيره؟ كيف تبذل عمرك الثمين من أجل غيره؟!

(اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

هذا ما ينتظر الكافر :

الويل هو الهلاك، كنت مرَّةً قد ضربت مثلاً : أن سائقاً يقود سيَّارته في طريقٍ هابطة وفيها انعطافاتٌ حادَّة، وعلى جوانب الطريق وديانٌ سحيقة، فجأةً اكتشف أن المِكْبَحَ قد تعطَّل وأن سرعته كبيرة، قبل أن يقع في الوادي يقول : قد هلكت، قد ينادي بويله، ما الويل؟ الهلاك المحقَّق، قد يقول هذا السائق : متنا، هو لم يمت بعدُ ولكن يقولها لأن الموت محقَّق..

(وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

موتهم محقَّق، هلاكهم محقَّق، شقاؤهم محقَّق، دخولهم النار محقَّق، فالمسألة مسأله وقت إلى أن يتوقَّف القلب عن الخفقان، إلى أن يأتي الأجل، إلى أن تُكْتَب النعوة، إلى أن تنتهي السنوات، والأشهر، والأيام، والسَّاعات، والدقائق، والثواني التي منحها الله للعبد، إن الحياة دقائقٌ وثوانٍ، أنت بضعة أيَّام كلَّما انقضى منك يومٌ انقضى بضعٌ منك ..

كل ابن أنثى وإنْ طالتْ سلامته   يوماً على آلةٍ حدباءَ محمولُ
فإذا حملتَ إلى القبور جنازةً   فاعلمْ بأنَّك بعدها محمولُ

العاقل يضع ساعة الموت أمامه :

أيها الإخوة الأكارم، العاقل مَن يضع هذه الساعة نُصْبَ عينيه، ساعة الموت، ساعة نزول القبر، ساعة دخول المسجد في نَعْشٍ، ساعة الصلاة عليك، لا أن تصلي في الناس، كل إنسانٍ لابدَّ من أن يدخل المسجد مرَّةً في حياته، كل إنسان مسلم يدخله ليُصلَّى عليه ..

(وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

ألا تصدِّق الله سبحانه وتعالى؟ ألا تخشى هذا اليوم؟ ألا تخشى هذا العذاب الشديد؟ ما بالك تخشى تهديد إنسان؟ ما بالك تصدِّق وعيد إنسان؟ لو أنَّك خشيت الله عزَّ وجل كما تخشى إنساناً تخاف منه وأنت تعلم أنه إذا قال فعل، لو خشيتَ الله عزَّ وجل كما تخشى إنساناً لدخلت الجنَّة، من هؤلاء الكافرون الذين توعَّدهم الله بالعذاب الشديد؟

(الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ)

الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ

هذه هي الدنيا التي يلهث الناس وراءها :

أرادوا الدنيا مع أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((خذ من الدنيا ما شئت وخذ بقدرها همًّا))

[ورد في الأثر]

((من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر))

[ورد في الأثر]

((الدنيا جيفة طلابها كلابها))

[كنز العمال عن علي موقوفا]

((الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لَا دَارَ لَهُ وَمَالُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ))

[أحمد عن عائشة]

قال عليه الصلاة والسلام : وَعَن ابْنَ عَبَّاسَ رضي الله عنهما قَالَ :

((مَرَّ رَسُولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بِشَاةٍ مَيْتَةٍ قَدْ أَلْقَاهَا أَهْلُهَا ، فَقَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا))

[أحمد]

عديّ بن حاتم أنه

((جاء النبي عليه الصلاة والسلام، فرحَّب به النبي وكان ملكاً في شمال الجزيرة، فلمَّا انفضَّ المجلس أخذ بيده إلى البيت، وهذا من إكرام النبي له، قال عدي: في الطريق استوقفت النبي الكريم امرأةٌ مسنَّةٌ ضعيفة فقيرة، فوقف معها طويلاً تكلِّمه في حاجتها، فقلت في نفسي: " والله ما هذا بأمر مَلِك، فلمَّا دخلتُ البيت ـ انتبهوا، النبي عليه الصلاة والسلام قمَّة المجتمع الإسلامي، هو في القمَّة ـ تناول وسادةً من أدمٍ محشوَّةً ليفاً وقال : " اجلس عليها "، قلت : " اجلس عليها أنت " قال: "بل أنت "، فجلست عليها وجلس هو على الأرض))

[ورد في الأثر]

لو كانت للدنيا قيمة لملكها الأنبياء :

إذاً: ليس في بيته كلّه إلا وسادةٌ واحدة، فلمَّا جلس عليها ضيفه جلس هو على الأرض، فهل للدنيا شأنٌ عند الله؟ لو أن لها شأناً لأعطاها لحبيبه، فلينظر ناظرٌ بعقله أن الله أكرم محمداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا؟ فإن قال : أهانه فقد كذب، وإن قال : أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا .

دخل عليه عمر رضي الله عنه فرآه نائماً على الحصير، وقد أثَّر الحصير في خدِّه الشريف، فبكى عمر، قال :

((... وَإِنَّهُ لَعَلَى حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرَظًا مَصْبُوبًا، وَعِنْدَ رَأْسِهِ أَهَبٌ مُعَلَّقَةٌ، فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ، فَبَكَيْتُ، فَقَالَ مَا يُبْكِيكَ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ : أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمْ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ))

[البخاري عن ابن عباس]

أما ترضون أيها الإخوة أن تكونوا في الآخرة من السعداء؟ أن تكونوا في الحياة الأبديَّة في الجنَّة؟ أن تكونوا في مَرْضاةِ الله عزَّ وجل، أن تكونوا في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر؟ أن تكونوا في ظلِّ الله يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه؟ أن تتمتَّعوا برؤية الله سبحانه وتعالى .. " ينظر المؤمن إلى الله عزَّ وجل نظرةً يغيب بها خمسين ألف عامٍ من نشوة النظرة

((أَفَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالْأَمْوَالِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى رِحَالِكُمْ))

[أحمد عن أنس]

أما ترضى أن يكون الله راضياً عنك؟ أما ترضى أن يكون نصيبك في الدنيا معرفة الله عزَّ وجل؟ أن تكون مستقيماً؟ ما لك تتمنَّى ما عند الناس ؟

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

(سورة النساء : من الآية 32)

ارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس .

((عبدي، خلقت لك ما في السماوات والأرض ولم أعْيَ بخلقهن، أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كل حين؟ وعزَّتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلِّطنَّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، لي عليك فريضة، ولك عليَّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك))

[ورد في الأثر]

أيها الإخوة الأكارم، كن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، انقل همومك كلها إلى الدار الآخرة ..

((مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ))

[ابن ماجه عن ابن مسعود]

((اعمل لوجهٍ واحدٍ يكفك الوجوه كلّها))

[ورد في الأثر]

(الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ)

لا تأخذ الفانية وتترك الباقية :

يريدُ الدنيا، يريد مالها، نساءها، مركباتها الفخمة، بيوتها الفخمة، يريد بيتاً فيه تدفئةٌ مركزيَّة، يريد بيتاً مكيَّفاً في الصيف، يريد أثاثاً فخماً، يريد فُرُشاً نفيسة، يريد طعاماً فاخراً، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام قال :

((نِعْمَ الإدام الجوع))

[ورد في الأثر]

كن جائعاً وكفى، أيُّ طعامٍ تأكله تَرَهُ طيّباً ..

(الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ)

فإذا حصَّلت بيتاً، وزوجةً، ودخلاً، ومركبةً من طريقٍ مشروع فذلك مقبول، أما أن تحصِّل الدنيا عن طريق المعصية، وعن طريق الكذب والنفاق والتزوير والتدليس، وعن طريق غش المسلمين، تُحَصِّل الدنيا بمعصية والدنيا فانية، تفنى الدنيا وتبقى المعصية، تحصَّل الدنيا بغضب الله، تذهب الدنيا ويبقى غضب الله .

فيا أيها الإخوة الأكارم ...

(الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ)

صفات الكفَّار أنهم يستحبُّون الحياة الدنيا على الآخرة، أما المؤمن فإن الدنيا تنتقلُ من قلبه إلى يديه، نعم تنتقل مِن قلبه إلى يديه، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((إن أكيسَكم أكثرُكم للموت ذكراً، وأحزمَكم أشدُّكم استعداداً له، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزوُّد لسكنى القبور، والتأهُّب ليوم النشور))

[ورد في الأثر]

(وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

هذا الذي أحبَّ الحياة الدنيا إذا رأى ابنه يصلي، ويغضُّ بصره عن محارم الله، وامتنع عن رؤية زوجة أخيه لأن القرآن يمنع ذلك، يقيم عليه النكير، ويريد أن يصدُّ ابنه عن سبيل الله، إذا رأى شريكه يترفَّع عن أكل مالٍ حرام، أو عن حسم السندات، أو عن البيع بسعرين، يقيم عليه النكير ليصدَّه عن سبيل الله، همُّه الأوحد أن يبعد الناس عن طريق الحق، أن يكرِّهُهُم بطريق الحق، أن يرغِّبهم في الدنيا، هؤلاء الكفَّار هم :

(الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا)

العوج عند أصحاب الدنيا :

في بيعهٍ عِوَج، يُدَلِّس، يكذب، يبالغ، في علاقته بزوجته عِوَج، يسلك الطريق غير المشروع، في علاقته بالناس يسلك طريق العِوَج، يكذب، ويدلِّس، ويحتال، ويختال، ويوهم ..

(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا)

فوصف ربّنا دقيق ..

(يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا)

الطُرُقُ المشروعة مغلقة، الطرق غير المشروعة مفتَّحة، أي أن صاحب العمل لا يسمح لك أن تأخذ حَقَّك، لكنَّك إذا غافلته وأخذت حقَّك وهو لا يدري بقي صامتاً راضياً، فلِمَ منعته الحق؟ ..

(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

الضلال البعيد :

قد تسير في طريقٍ خطأ، تسير فيه مائتي كيلو متر، نقول لهذا الذي ضلَّ الطريق: لقد ضلَّ ضلالاً بعيدا، وقد تكون لوحة كبيرةٌ توضِّح وجهة الطريق، مع أنّك قرأتها، ومع أنك رأيتها سرت في طريقٍ آخر، نقول: هذا ضلالٌ مبين، هناك ضلالٌ مبين، وهناك ضلالٌ بعيد، فالكفَّار لحبِّهم للدنيا، وإيثارهم

لها، وصدِّهم عن سبيل الله، وابتغاء العِوَجَ في علاقاتهم كلِّها، الكفَّار بهذا قد ضلوا ضلالاً بعيداً عن طريق الحق، عن طريق السلامة، عن طريق السعادة، عن طريق الخُلود ..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ

المعنى الأول :

المعنى الأول المستفاد من هذه الآية : أن كل نبيٍّ ينطق بلغة قومه وإلا فمستحيل أن يكون مع النبي مترجمون ليترجموا لأقوامه، مِن رحمة الله بعباده أن يجعل أنبياءَهُ ينطقون بلغتهم، هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني :

ولكن المعنى الآخر: أن " لغة القوم " تعني " قوَّة العصر " .

في عهد سيدنا عيسى عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام كان الطبُّ متقدِّماً جداً، فكانت معجزة هذا النبي الكريم أنه يُحْيي الموتى، وإحياء الميّت مستحيلٌ في الطب ..

إن الطبيبَ له علمٌ يدلُّ بــه إن كان للناس في الآجالِ تأخيرُ
حتى إذا ما انتهتْ أيَّام رحلَتِه حار الطبيبُ وخانته العقاقيــرُ

***

فمستحيلٌ في الطب أن يحيي الطبيب الميت، فجاء سيدنا عيسى وأحيا الميِّت ولكن بإذن الله، ليكشف الله لهم أن هذا رسول، هذا رسولٌ من عندي . وفي عهد سيدنا موسى كان السحر متقدِّماً جداً، فالذي جاء به موسى أنه ألقى العصا فإذا هي ثعبانٌ مبين ..

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ(46)قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ(47)رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ(48)قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة الشعراء)

الآيات طويلة، ولكن في نهايتها ..

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72)إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

إذاً: جاء موسى بلسان قومه أي بقوَّة العصا، وجاء النبي عليه الصلاة والسلام في عصر البلاغة، في عصر البيان، في عصر الشِعْر، كان الشاعر مرتبته بعد شيخ القبيلة، أي أن الشاعر له المنصب الثاني بعد المنصب الأول في القبيلة، وقد يكون شيخ القبيلة شاعرها لشدَّة رِفْعَةِ الشعر، المُعَلَّقات قصائد كُتِبَت بماء الذهب وعُلِّقَت على جدران الكعبة، جاء النبي عليه الصلاة والسلام ومعه كتابٌ فيه إعجازٌ في إيجاز، ما هو بشعر ولا هو بنثر إنه كالسحر، وهذا الكتاب على قدر ورعك، وعلى قدر استقامتك، وعلى قدر اتصالك بالله تنكشف لك حقائقه، إنه لا يَبلى، لا يَخْلَق على كثرة الترداد .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)

على الداعية أن يستوعب ثقافة عصره :

وفي هذا العصر يحتاج الداعية إلى الله عزَّ وجل أن يستوعب ثقافة العصر، أن يسلك المنهج العلمي لأن العلم مما يتميَّز به هذا العصر ..

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ(20)وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

(سورة الذاريات)

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(17)وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)

(سورة الغاشية)

هذه الآيات الكونيَّة تستطيع أن تشرحها وهي بابٌ واسعٌ تدخل منه إلى الله سبحانه وتعالى ..

(فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

الهدى الجزائي والضلال الجزائي :

من يشاء الهُدى يهديه الله سبحانه وتعالى، ومن يشاء الضلالة بمعنى أنه ينطلق في طريق الضلالة فلابدَّ من أن يصل إلى نهاية الطريق فيضلّه الله لأن هذا طلبه، وهذه رغبته، وهذه إرادته، وهذا كَسْبُهُ، الجامعة تأتي قيمتها لا من نجاح جميع الطلاب، لا، ولكن أن تأتي النتائج متوافقة مع المقدِّمات ..

(وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

الله عزيز حكيم ، أفعاله فيها حكمة وعزة :

عزيزٌ حميد، وعزيزٌ حكيم، لأنه حكيمٌ هو عزيز، لو لم يكن حكيماً لما كان عزيزاً، لأنه يضع الأشياء في مواضعها، ما من شيءٍ وقع إلا وفي وقوعه حكمة بالغة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((لا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[سنن ابن ماجة عن أبي هريرة]

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

هذه هي مهمة النبي عليه الصلاة والسلام، إنها مهمة كل نبي، بل ومن بعدهم مهمة العلماء أيضاً :

(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

إذاً: مهمَّة الأنبياء أن يخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، وسيدنا موسى عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام أيضاً أُمِرَ أن يُخْرِجَ الناس من الظلمات إلى النور، والعلماء من بعد النبي عليه الصلاة والسلام مهمَّتهم أن يُخرجوا الناس من الظلمات إلى النور .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ

ما هي أيام الله؟

أيَّام الله ؛ الأيَّام التي نصر الله بها قوم سيدنا موسى، فحين نجَّاهم من فرعون، حين صار البحر لهم طريقاً يبسا، هذه أيَّام الله لقوم موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

أيَّام الله للمؤمن قد تكون في امتحانٍ عصيب، وتدعو الله سبحانه وتعالى فيستجيب لك، هذا يومٌ من أيَّام الله .

قد يكون ابنك في مرضٍ عُضال، وتدعو الله سبحانك وتعالى فيستجيب لك ويشفيه، هذا يومٌ ثانٍ من أيَّام الله، قد تكون في ضائقةٍ ماديَّةٍ خانقة فيأتيك رزقٌ من حيث لا تحتسب، هذا يومٌ من أيَّام الله، قد تسأل الله الهدى فيجمعك برجلٍ على حق، هذا يومٌ من أيَّام الله .

قد تسأل الله زوجةً صالحة فيرزقك الله زوجة صالحة، هذا يومٌ من أيَّام الله .

قد تسأل الله بيتاً يؤويك فيهبك الله هذا البيت، هذا يومٌ من أيَّام الله، قد تقع في ورطة وترى الهلاك فيها فتدعو الله مخلصاً فينجّيك منها ومن كل كرب، هذا يومٌ من أيَّام الله ، فالمؤمن لا ينسى أيَّام الله، يذكرها

دائماً، يطأطئ رأسه تواضعاً لله، وكلّما ذكر أيَّام الله تزدد لله شكراً ..

((ألم تكونوا ضُلَّالاً ـ هكذا قال عليه الصلاة والسلام للأنصار ـ أما أنتم فلو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصُدِّقتم به : أتيتنا مكذباً فصدَّقناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فأغنيناك ـ هذا حق ـ لو قلتم هذا لصدقتم ولصُدِّقتم به، يا معشر الأنصار ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي ـ هذا يومٌ من أيَّام الله ـ ألم تكونوا أعداءً فألّف الله بينكم؟ ألم تكونوا عالة فأغناكم الله ؟))

[أحمد]

إذا فتح شخص دفتراً وكتب فيه أيَّام الله عنده، يوم نجَّاهُ الله عزَّ وجل من المرض الفلاني، يوم زوَّجه فلانة، يوم أعطاه هذا المحل التجاري، يوم هَيَّأ له هذا المنزل، يوم وقع في مشكلة كبيرة جداً فنجَّاه الله منها، فإن ذلك يحفزه على دوام الشكر، ذكّر نفسك بأيَّام الله .

كن عن همومك معرضاً و كِلْ الأمور إلى القضا

و أبشر بخيرٍ عاجـلٍ تنس به ما قـد مضى

فيا رُبَّ أمرٍ مُسخـطٍ لك في عواقبه رضـا

ولربَّما ضاق المضيق و لربَّما اتسع الفضـا

الله يفعل ما يشـــاء فلا تكونَنَّ مُعتــرضا

الله عوَّدك الجميـل فقس على ما قـد مضى

الله عوَّدك الجميل .. في تذكرك أيام الله يتراءى لك هذا الجميل

فكل واحدٍ منَّا مدعوٌّ إذا أمكن أن يكتب لنا على دفتر أيَّام الله، يذكّر نفسه بها، فالله أمرنا أمراً، فقال :

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

من أجل أن تحبَّه، من أجل أن تطمئنَّ له، من أجل أن تعرف أنَّ الذي أنقذك فيما مضى سيحفظك فيما هو آتٍ، فلا تقلق ..

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

الصبر من الإيمان :

الإيمان نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكرٌ، أما هنا فصبَّار، أي كثير الصبر عن المعصية، وعلى الطاعة، وعلى قضاء الله وقدره .

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة إبراهيم 014 - الدرس (2-9): تفسير الآيات 5 – 12
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-09-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في سورة إبراهيم إلى قوله تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

هذا تذكير بما سبق :

مهمة الأنبياء والدعاة إخراج الناس من الظلمات إلى النور :

بَيَّنْتُ في الدرس الماضي أن مهمة الأنبياء ومهمة العلماء من بعد الأنبياء أن يخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، من ظلمات المعاصي إلى نور الطاعات، من ظلمات البُعْدِ إلى نور القُرْب، من ظلمات الشقاء إلى نور السعادة ..

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

أيام الله :

وذكرت أن لبني إسرائيل مع ربهم أياماً، منها؛ كيف نجَّاهم الله من فرعون، كيف أورثهم الله الأرض من بعد فرعون، هذه من أيام الله، لكنَّ لكل مؤمنٍ يوماً أو أياماً من أيام الله، فحيثُما وقع المؤمن في ضائقةٍ، ودعا الله عزَّ وجل واستجاب الله له، فهذا يومٌ من أيام الله، ضائقة مالية، ضائقة أسرية، مشكلة اجتماعية، مرض عضال، حاجة ..

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

وتمنَّيت عليكم في الدرس الماضي أن تسجلوا على دفترٍ خاص بعض أيام الله، كلما ألقيتَ على هذا الدفتر نظرةً زادت محبتك لله عزَّ وجل، كيف أنقذك؟ كيف اختار لك هذه الزوجة؟ كيف يسَّر لك شراء البيت؟ هذه نعمٌ بمقياس الناس، ولكن أكبر نعمةٍ: كيف سَهَّلَ لك طريق معرفته؟ كيف عرفته؟ كيف جمعك مع أهل الحق؟ كيف أسمعك الحق؟ كيف اهتديت إليه؟ كيف طَبَّقْتَ أمره؟ هذه من أيام الله .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

منزلة الصبر في الإسلام :

الصبَّار على وزن فعَّال، صيغة مبالغة لاسم الفاعل، أي كثير الصبر، هناك صبرٌ على الطاعة، هناك صبرٌ عن المعصية، هناك صبرٌ عن الشهوة، هناك صبرٌ عمَّا لا يرضي الله، هناك صبرٌ على أمر الله، فالصبر أنواع والله سبحانه وتعالى يقول :

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة الزمر)

((الإيمان نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكرٌ))

[ورد في الأثر]

((الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان))

[ورد في الأثر]

((الصبر معرفة))

[ورد في الأثر]

إذا ذهبت إلى الطبيب، طبيب الأسنان وجلست على الكرسي ووضع لك إبرةً في اللثَّة تشعر بألمٍ شديد لكنك تصبر، لماذا تصبر؟ لأنك موقنٌ أن هذا لمصلحتك، وأن هذا الألم مؤقَّت ، وتتبعه راحة طويلة، إذاً تصبر وتشُدُّ بيدك على طرفي الكرسي، ولا تنبس ببنت شَفَة، بينما الطفل الصغير يصرخ ويبكي ويرفع صوته، فالصبر معرفة، إذا عرفت الله صبرت على أحكامه، والله سبحانه وتعالى يقول :

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

(سورة الطور: من الآية 48)

لو أن حكم الله وفق ما تريد، وفق ما ترتاح له، لا حاجة لأن يقول الله عزَّ وجل :

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

(سورة الطور: من الآية 48)

لكن حكم الله أحياناً لا ترضاه النفس، أو لا تقبله النفس الجاهلة، لكن المؤمن يقبل أمر الله، ويصبر عليه، ويرضى به، " وإذا أحب الله عبده ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن شكر اقتناه " ..

علامة معرفتك بالله عزَّ وجل أنك تصبر على حكمه .. وأنك ترى كما قال الإمام الغزالي : " أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان "، وأن هذا الواقع الذي تعيش فيه هو أنسب وأحكم واقع لك، وأن نفسك لا تسير إلى الله إلا بهذه الوسائل، فلذلك الصبر معرفة، إذا عرفت الله صبرت على أحكامه، فإن لم تعرفه لَجَجْتَ .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

الشكر يحفظ النعم :

وشكور أيضاً من صِيَغ مبالغة اسم الفاعل، أي كثير الشكر .

((أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا آل بيتي لحبي، قالوا : من هم آل البيت ؟ قال : كل تقي من آل البيت))

[ورد في الأثر]

فالشكر كما جاء في كتاب الله عمل، قال تعالى :

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)

(سورة سبأ)

آية أخرى :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

(سورة النساء : من الآية 147)

اتضح من هذه الآية أن الإيمان وحده لا يكفي، لابدَّ من أن يكون مع الإيمان شكرٌ حتى تكون في مَنْجَاةٍ من عذاب الله، لأن الشكر دليل رؤية النعمة، قال : " يا رب كيف شكرك ابن آدم ؟ "، قال : " عَلِمَ أنه مني فكان ذلك شكره "، فإذا أردنا أن نوزِّع الشكر في درجات فإنَّ أقلَّ هذه الدرجات أنْ تعرف أنَّ هذه النعمة مِن الله عزَّ وجل، وليست من جهدك، ولا من علمك، ولا من ذكائك، ولا من خبرتك، ولا من طول باعك في هذا الموضوع، الشيطانُ يقول : أنا، وأمَّا قارون فقد قال :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

(سورة القصص : من الآية 78)

لكن المؤمن هذه العبارة لا تفارق لسانه أبداً، "هذا من فضل الله عليّ " من فضل الله عليّ أنني فعلت كذا وكذا، من فضل الله عليّ أنه مكّنني من أن أعمل صالحاً، من فضل الله عليّ أنه هداني، كلمة : من فضل الله عليّ يجب ألاّ تفارق لسانك البَتَّة، لو فارقت لسانك ونسبت هذا الفضل إليك فهذا أحد أنواع الشرك ، ومَن اتكل على نفسه أوكله الله لها . إذاً :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

فالصبر نصف الإيمان، والشكر نصف الإيمان والصوم نصف الصبر .. إذاً صوم رمضان ربع الإيمان ..

((وَالصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ))

[سنن الترمذي عن جُرَيٍّ النهدي عن رجل من بني سليم]

((الإيمان نصف صبرٌ ونصفٌ شكرٌ))

[ورد في الأثر]

((والصبر من الإيمان كالرأس من الجسد فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان))

[ورد في الأثر]

كيف أصبر؟

لكن أقول لك، أو تسألني : كيف أصبر ؟ أريد الطريق، أقول لك: الصبر معرفة، إذا عرفت الله تصبر، كيف ؟ إن هذا المريض الراشد يصبر على ألم طبيب الأسنان لأنه يعلم أن هذا لمصلحته، والمؤمن من علامة إيمانه أنه يعلم أنه لا يقعُ شيءٌ إلا لمصلحته، إما أن تكون هذه المصلحة ظاهرةً أو خفيةً، لذلك بعض العلماء قال عند تفسير هذه الآية :

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

(سورة لقمان : من الآية 20)

النعم الباطنة هي المصائب، أنت بالمصيبة تعرف الله، بالمصيبة تستقيم على أمر الله، بالمصيبة تتوب إلى الله، ما كان لك أن تتوب لولا هذه المصيبة، ما كان لك أن تستقيم لولا هذه المصيبة، ما كان لك أن ترجع إلى الله لولا هذه المصيبة، لكن أرقى من ذلك أن تعرفه في الرخاء من دون مصيبة، أن تعرفه وأنت قوي، وأنت شاب، وأنت في أوج نجاحك في الحياة، أن تعرفه وتستقيم على أمره .

((تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ))

[مسند أحمد عن ابن عباس]

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

هذا ما فعله فرعون بقوم موسى :

هذا مما يسلطه العلى العباد :

فرعون حينما قتَّلَ أبناء بني إسرائيل واستحيا نساءهم أي أبقاهم أحياءً للخدمة، حينما ذبَّحَ أبناء بني إسرائيل واستحيا نساءهم كان بهذا مُسَلَّطاً عليهم من قبل الله تعالى .

((إذا عصاني مَن يعرفني سَلَّطت عليه مَن لا يعرفني))

[ورد في الأثر]

((أنا ملك الملوك، ومالك الملوك؛ قلوب الملوك بيدي، فإنِ العبادُ أطاعوني حوَّلت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإنِ العبادُ عَصَوْني حولت قلوب ملكوهم عليهم بالسُخْطَةِ والنِقْمَة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، وادعوا لهم بالصلاح، فإن صلاحهم بصلاحكم))

[ورد في الأثر]

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء : من الآية 90)

إذاً: هذا تسليطٌ من قبل الله عزَّ وجل .

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام : من الآية 65)

الصواعق، البراكين، الأمطار الشديدة .

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام : من الآية 65)

الزلازل، الانهدامات ..

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام : من الآية 65)

هذا من تسليط الله عزَّ وجل ..

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

المصائب لها هدف وحكمة :

لولا أن الإنسان عنده إمكانية الهدى وهو على وجه الأرض لكانت كل هذه المصائب التي يسوقها الله سبحانه وتعالى للعباد منذ أن خلق الأرض وحتى يوم القيامة، لكانت هذه المصائب عبثاً لا جدوى منها، وحاشا لله أن يسوق للعباد مصيبة من دون هدف، لعلهم يضَّرَّعون، لعلهم يذَّكرون، لعلهم يرجعون .

إذاً هذه المصائب كلها هادفة، اللهم أرنا نعمك بكثرتها لا بزوالها، يغفل الناس عن النعم فتقل هذه النعم، تقل مياه الأمطار، تَجِفُّ الآبار، تغيضُ الينابيع، يموت الزَرْع، هذا كلُّه تذكيرٌ وتحذير .

(وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ(6)وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ

بالشكر تدوم النعم :

هذه الآية أصلٌ في أن الشكر يستدعي المزيد من النِعَم، فإذا أردت أن تزيد النعم التي لله عليك فاشكرها، وقد قلتُ قبل قليل : أن الشكر درجات أقلها أن تعرف أن هذه النعمة من الله، وأوسطها أن تقابل هذه النعمة بعملٍ صالح تخدم به عباد الله، وأرْقاها أن ترى أن الشكر على النعمة في حد ذاته نعمةٌ تستوجب الشكر عليها .. اللهم ألهمنا الشُكر .

سيُدنا إبراهيم وصفه الله تعالى بقوله :

(شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورةالنحل)

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

(سورة النجم)

هل تشكر الله عزَّ وجل ؟ كان عليه الصلاة والسلام تَعْظُمُ عنده النعمة مهما دَقَّت، لو شربتَ كأس ماءٍ ورُويتَ به ثم خرج هذا الكأسُ من دون عمليَّات جراحية، من دون آلام، فهذه نعمةٌ لا يعرفها إلا من فقدها، نعمة شرب الماء، إذا وجدت في بيتك كأس ماءٍ عذبٍ فراتٍ باردٍ فهذه نعمةٌ سوف تُسْأل عنها، إذا دخلت إلى بيتك وأويت إليه هذه نعمةٌ لا يعرفها إلا مَن فقدها، إذا كانت لك زوجةٌ صالحة هذه نعمة لا تعرفها إلا إذا فقدّتها، فالأغبياء يرون النعم عندما تزول، والمؤمنون يرونها وهي موجودة، من دون أن تزول .

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ)

أي أعلمكم ربكم ..

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

عَوِّد نفسك أن تشكر الله عزَّ وجل على كل شيء، على نعمة الصحة، على نعمة البيت، على نعمة الزوجة، على نعمة الأولاد، على نعمة العقل، لك عقلٌ راجح تعيش به في الناس، على نعمة القوة، كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل الخلاء ثم خرج منه قال :

((الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني))

[ورد في الأثر]

لو أنَّ رجل شلَّت لديه عضلة المستقيم، كيف يخرج ؟ لا يستطيع، لابدَّ من إنسانٍ يأتي ليعينه على إخراج هذه الفضلات، مَن يرضى، كم مِن المبالغ يرضى كي يزيل هذه الفضلات ؟ هذه نعمة، نعمة

عضلة المستقيم، التي تعينك على إخراج الفضلات، هذه نعمة لا يعرفها إلا من فقدها، نعمة أن الرئة تتحرَّك بشكلٍ آلي، لو أن الله سبحانه وتعالى أوكلها إليك فلن تستطيع النوم أبداً، إذا نام هذا الإنسان فإنه يموت، يجب أن يبقى يقظان لتشغيل الرئة .

طبيبٌ في هذه البلدة أصيب بهذا المرض، هاتان الرئتان تخفقان بسبب مركزٍ في المُخَيْخْ، يأتيه غاز الفحم في الدم الراجع إلى الرئتين فينبِّه هذا المكان تنبيهاً نَوْبيًّا، لذلك هناك حركة للرئتين عفوية لا إرادية، هذه الحركة لو تعطَّلت! هناك حركة إرادية وهي الشهيق والزفير، لو تعطل هذا التحريك اللاإرادي لوجب أن تبقى يقظان طوال الليل، يقال مثلاً : إن هناك دواءً حديثاً جداً تأخذه كل ساعة، مفعوله ساعة، تأخذه الساعة ثمانية عند النوم، ثم تفيق الساعة التاسعة لتأخذه، ثم عند العاشرة تفيق لتأخذه، إحدى عشرة، اثنتا عشرة، الواحدة، وهكذا دواليك إلى أن تصير الساعة السادسة فتستيقظ، وقد أصيب طبيب بهذا المرض، مرض نادر، فاشترى أربعة منبهات، وإذا لم يفق يموت، إذا لم يستيقظ ويأخذ الدواء يموت، وكان ابنه مسافراً فلمَّا حضر سهر سهرة طويلة معه، ونام أهل البيت بما فيهم ابنه، ورغم أنه ربط المنبهات الأربعة فلم يفق على رنينها، ولمَّا استيقظوا صباحاً وجدوه ميتاً .

هذه نعمة أن الرئتين تخفقان من دون إرادةٍ منك، نعمة المثانة، نعمة الكليتين ..

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

(سورة إبراهيم : من الآية 34)

نعم الله لا يحصيها محصٍ ، ولا يعدُّها عادٌّ :

لِمَ لمْ يقل الله عزَّ وجل: وإن تعدوا نعم الله لا تحصوها، نِعَم لم يأتِ بها بصيغة الجمع، ولكن لماذا نعمة؟ النعمة الواحدة لو أمضيت حياتك كلَّها في معرفة فروعها لما كفت مدة حياتك لمعرفتها، فروع النعمة الواحدة لن تحصيها، فكيف بالنِعَم كلِّها ؟

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

(سورة إبراهيم : من الآية 34)

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا دخل الخلاء ثم خرج يقول :

((الحمدُ لله الذي أذْهَبَ عني ما يُؤذيني ، وأمْسَكَ عليَّ ما ينفعُني))

[ابن أبي شيبة عن طاووس]

وكان يقول إذا أكل الطعام :

((الحمد لله الذي أذاقني لذته ـ أي الطعام ـ وأبقى فيَّ قوته، وأذهب عني أذاه))

[الجامع الصغير]

إذاً: الخروج نعمة كبرى، الحركة، نعمة ثانية لا يعرفها إلا من فقدها، هناك نعم كثيرة لا تعرفونها أنتم، في بالدم كريات حمراء، كريات بيضاء، وفيه صفائح، وهناك بكل ميليمتر مكعب سبعمائة ألف صفيحة دموية، هذه الصفائح إذا حدث جرحٌ في مكانٍ ما تأتي وتسُدُّ هذا الجرح، لو فُقدتْ هذه الصفائح لمات الإنسان مِن ثقب إبرة، لو ثقب بعض شرايينه بإبرة ينزف دمه كله ..

أعرف شخصاً تعطّلت معامل نِقْي الدم عن تصنيع الصفائح الدموية، فلما ذهبتُ لعيادته وجدت على أنفه أربطة يكاد ثُخنها يبلغ عشرة سنتيمترا هكذا، قلت : لماذا هذا كله؟ قال: نزيف، رعاف مستمر، ليس عنده صفائح دموية، ومات بهذا المرض ..

حينما تتعطل معامل نِقْي الدم عن تصنيع الصفائح الدموية يموت الإنسان، وهناك أمراضٌ كثيرة لا نعرفها، فقر الدم اللامُصنِّع، يتعطل تصنيع كريات الدم الحمراء فيموت الإنسان، إذا استيقظت صباحاً وأنت متمتِّعٌ بقوتك فهناك مليون شرط متوافر في هذا الجسد .

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ)

الله لا ينتقم لذاته :

الله سبحانه وتعالى لا ينتقم لذاته، لا، بل يحرص على سعادتنا، فلذلك حينما نكفر يسوق الله لنا العذاب، سَوْقُ العذاب من أجل أن نشكره، فإذا شكرناه سعدنا بقربه، فشتان بين أن تظن أن الله يعذبنا إذا لم نشكره؟ لا، بل يعذبنا كي نشكره من أجل أن نسعد بقربه .

(وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ(7)وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ)

ربنا عزَّ وجل في حديثٍ قدسي طويل يقول :

((يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ

وَاحِدٍ مَا نَقصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر]

(وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ)

الله غني عن تعذيب الناس :

هو غني، غنيٌ عن عباده، واحدٌ أحد، فردٌ صمد، وجوده ذاتي ليس متعلقاً بجهةٍ خارجةٍ عنه، غني أما نحن لسنا أغنياء، نحن مفتقرون إلى الهواء، فلو مُنِعَ منا ثلاث دقائق لانتهت حياتنا، ومفتقرون إلى الماء، إلى الطعام، إلى الشراب، هناك حاجاتٌ كثيرة نفتقر إليها، فوجودنا ليس ذاتياً، فربنا عزَّ وجل غني، وأما حميد أفعاله كلها يحمد عليها، نَعَم أفعاله كلها، فما من فعل أياً كان إلا ويحمد عليه، ومعنى ذلك أنك إن سمعت عن زلزالٍ، أو عن كارثةٍ، أو عن وباءٍ، أو عن مرضٍ، أو عن بركانٍ، أو عن حربٍ فقل : الحمد لله، هذا كله بتقدير الله ولو كُشف الغطاءُ لاخترتم الواقع ..

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس)

والإمام علي كرم الله وجهه يقول : << والله لو كُشِفَ الغطاء ما ازدت يقيناً >>، يقينه برحمة الله قبل كشف الغطاء كيقينه برحمة الله بعد كشف الغطاء .

الله غني حميد :

الآن ربنا عزَّ وجل غني وحميد، الآن اجتماع هذين الاسمين معاً..

(لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ)

أي هو غنيٌ عنكم، ومع أنه غنيٌ عنكم لا يعاملكم إلا معاملة تحمدونه عليها، صار لدينا معنىً ثالث مأخوذ من اجتماع الاثنين معاً، غنيٌ عنا وحميد، وغنيٌ حميد أي غنيٌ عنا، ومع أنه غنيٌ عنا يعاملنا معاملة نحمده عليها .

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ)

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ

الحق كالشمس لا يخفى على أحدٍ :

الحق بَيِّن، واضح كالشمس ..

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ))

[ابن ماجه عن العرباض بن سارية]

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة يوسف)

فمن علامات الحق أنه بيِّنٌ ظاهر، أبْلَج كالشمس في رابعة النهار، هذا هو الحق، والباطل مِعْوَج، الباطل له مداخل ومخارج، فيه ثُرُّهات، فيه أغاليط، فيه تدليس، فيه إيهام، أما الحق واضحٌ كالشمس ..

(جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ)

بمثل هذا استقبل الكفار الحقَّ :

بعضهم قال : ردّوا أيديهم في أفواههم بمعنى أنهم أشاروا إلى الأنبياء أن يسكتوا، لا نريد هذا الكلام، لا نتأثّر به، لا يعنينا، لا يهمنا، لا نسمح لكم بالكلام به .

(فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ)

أي أن أيدي الكفار رُدَّت إلى أفواه الأنبياء كناية عن أنهم رفضوا هذه الدعوة، أعرضوا عنها، استخفّوا بها، أداروا لها ظهورهم، لم يعبئوا بها ..

(وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)

من عادة الكفار الشك في دعوة الأنبياء :

قال الكفار :نحن نشك بنواياكم، فأنتم تريدون أن تتفضلوا علينا، تريدون أن تكونوا زعماء لنا، الكفار إذا سمعوا الحق ردّوه على الشكل التالي : اتهموا الداعية بتهمٍ هو بريئ منها، اتهموه بالتسلُّط، اتهموه بابتغاء الرفعة بين الناس وبالغوا باتهامه، ولو كان كذلك لأسكته الله عزَّ وجل، لمنعه من أن يتكلم بكلمةٍ واحدة .

(فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)

نشك في حقيقة هذه الدعوة، نشك في جدِّيتها، نشك في دلالاتها .

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

الكون ينطق بعظمة الله :

أدعوكم لمن؟ لخالق هذا الكون، هذا الكون كله يشهد له بالعظمة، هذا الكون كله ينطق لكم بعظمة الله، ينطق لكم برحمته، ينطق بعلمه، ينطق بخبرته، ينطق بغِناه، ينطق بقدرته، فالعلماء الفلك: هناك ثقب أسود في الفضاء الخارجي.. وهذا الثقب اكتشفوه من فترة قريبة، منذ أقل من سنة.. الثقوب السوداء في الفضاء أماكنُ ضغطٍ عالٍ جداً، لو أن الأرض بكاملها دخلت في هذا الثقب لأصبح حجمها كحجم البيضة تماماً، بالوزن نفسه، تصور الأرض كم وزنها؟ عشرة آلاف مليون مليون مليون طن، هذا الرقم الكبير يصوِّره رقم عشرة وفوقها ثمانيةٌ وعشرونَ صفراً، هذه الأرض إذا دخلت في هذا الثقب تصبح كالبيضة تماماً في حجمها مع بقاء وزن الأرض على حالِهِ .

بعض المجرات سرعتها مائتان وأربعون ألف كيلو متر في الثانية، فهذه المجرات تقترب سرعتها من سرعة الضوء .

بعض المجرات كشفت حديثاً، بعدها عنا ثمانية عشرَ ألف مليون سنة ضوئية، مع أن القمر يبعد عنا ثانية ضوئية واحدة، والشمس ثماني دقائق، والمجموعة الشمسية ثلاثَ عشرةَ ساعة، والمجرة درب التبانة طولها مائة وخمسون ألف سنة ضوئية، نجم القطب أربعة آلاف سنة ضوئية بعده عنا، هذه المجرة ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئية، هذا الكون ينطق بعظمة الخالق وبوجوده .

الماء الذي نشربه، ماء، من منكم يصدِّق أنك لو وضعت ماءً في مكان مُحْكَم الإغلاق وضغطت هذا الماء ووضعت فوق الماء مليون طن، الماء غير قابل للانضغاط، لو وضعت فوق الماء مليون طن لا ينضغط ولا ميليمترا ، وإذا أراد الماء أن يتمدد لا شيء يستطيع أن يقف في وجهه، أشد أنواع المعادن تنشطر عند تمدد المياه، فكيف هذه الأرض تدخل في هذا الثقب الأسود فتصبح كالبيضة ؟

(أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هذا الحيوان .. الخروف الذي نأكل لحمه، مَن فطره هذه الفطرة، فهو وديع، مسالم، لا نخاف منه، مستأنس، مذلل، هكذا خلق ؟ أليس الله سبحانه وتعالى هو الذي فطره؟ مَن فطر الطفل الصغير على صفاتٍ معينة نحبه بها ؟ صفاؤه، ذاتيَّتُهُ، سرعة نسيانه، انفعاله السريع، براءته، لولا هذه الصفات لانعكس الأمر عنده، و لو أن طباع الكبار مركبة في الصغار لما أحب أبٌ ابنه، ولا ربَّاه أساساً .

(أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

مَن فطر هذه السماوات والأرض على هذا الشكل ؟ من أعطى هذه الشمس تلك الحرارة المعتدلة ؟ لو أنك في القمر لوجدت العَجَبَ العجاب، في النهار تصل درجة الحرارة إلى ثلاثمائة وخمسين درجة مئوية، في الليل تنخفض إلى مائتين وخمسين درجة تحت الصفر، ثلاثمائة وخمسون فوق الصفر في النهار، أيعاش على القمر؟ مستحيل، مَن جعل هذه الأرض بهذا الشكل ؟ من أخرج ماءها ومرعاها ؟ مَن جعل الجبال أوتاداً ؟ وجعل الجبال رواسي لئلا تميد بنا ؟ الله سبحانه وتعالى .

(أَفِي اللَّهِ شَكٌّ)

فلو كان شيء يحتاج إلى دليل وتوفَّرَ عليه دليلان لكانَ أقوى، وإذا توفَّر ثلاثة أدلّة كان أقوى، فكيفَ إذا عندك مليار مليار مليار دليل إلى الأبد فهي أدلةٌ على عظمة الله عزَّ وجل، وعلى أنه خالقنا، ومربينا، ومسيِّرنا، وإلهُنا، رحمنٌ رحيم، ملكٌ، قدوسٌ، سلامٌ، مؤمنٌ، مهيمنٌ، عزيزٌ، جبارٌ، متكبِّر ..

(أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ)

الله يدعو إلى المغفرة والسعادة :

يدعوكم لماذا ؟ ما لكم عنده ؟ ليس لكم عنده شيء، يدعوكم ليسعدكم، ليشفيكم من أمراضكم، ليطهِّركم من ذنوبكم، ليسعدكم في الدنيا والآخرة، ليمتِّعَكُم في الدنيا متاعاً حسناً، ويؤتي كل ذي فضل فضله، لماذا يدعوكم ؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال : من الآية 24)

أيْ أنَّ الكافر ميِّت حسبَ نص هذه الآية ..

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

(سورة فاطر)

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل : من الآية 21)

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنافقون : من الآية 4)

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)

(سورة الفرقان)

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

(سورة الجمعة : من الآية 5)

(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ(50)فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ)

(سورة المدثر)

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)

(سورة الأعراف : من الآية 176)

هذا هو الكافر ؛ تارةً كالخَشَب المُسَنَّدة، تارةً كالبهائم، تارةً كالأنعام، تارةً كالحمار، تارةً كالكلب، عديم الإحساس، عديم القِيَم .

(يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ)

لينقلكم من مرتبة الحيوان إلى مرتبة الإنسان، من الشقاء إلى السعادة .

أمَّا :

(يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ)

فائدة في (من)التبعيضية :

هذه مِنْ للتبعيض، أيْ أنَّ الله سبحانه وتعالى يغفر لكم الذنوب التي بينكم وبينه، أما الذنوب التي بينكم وبين العباد فلا تغفر هذه الذنوب إلا إذا سُوِّيَتْ مع العباد، إلا إذا صالحتَ عليها مع العباد، سوَّيتها مع العباد عندئذٍ يغفرها رب العباد، الذنب الذي بينك وبين الله عزَّ وجل يغفره الله مباشرةً، وأما ما بينك وبين العباد فلا يغفرها الله عزَّ وجل إلا إذا سُوِّيت العلاقة بينك وبين العباد .

(يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا)

النبي بشر كالبشر :

طبعاً ما كان للنبي إلا أن يكون بشراً مثلنا، لو كان ملكاً لقلت : أنت مَلَك يا أخي وأنا بشر، أول كلمة يقولها الإنسان إذا دعاه النبي إلى الهُدى وطلب إليه أن يغض بصره عن النساء فيجيبه قائلاً : أخي أنت مَلَك وأنا بشر، أنا أوْدَعَ الله فيَّ هذه الشهوة أمَّا أنت فملك . لذا لا يمكن أن يكون النبي إلا بشراً يحس بما نحس، ويغضب لما نغضب، ويرضى لما نرضى، ويشتهي ما نشتهي، ويكره ما نكره، ما قيمة النبي لو أن له جِبلَّة خاصة ؟

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة الكهف : من آية 110)

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ، وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ))

[صحيح مسلم عن أم أنس]

(قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

الكفار يطلبون الحجة على سبيل التعنت :

أي ائتونا بحجةٍ قاهرة، حجةٍ قاطعة، غَيِّروا معالم الأرض، فَجِّروا الأنهار، الكفارُ دعوا هؤلاء الرسل إلى تغيير خلق الله إثباتاً لرسالاتهم ..

(قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ)

جواب الرسل :

أي أن هذا لا نملكه، فنحن بشر، إذا أعطانا الله سلطاناً أيْ معجزةً فهذا مِن فضل الله علينا، هذا بإذن الله، ومِن صنع الله، وفيه بيانٌ لقدرة الله، أما نحن فلا نستطيع أن نفعل شيئاً .

(وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ)

وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا

كن عن همومك معرضاً و كِلِ الأمور إلى القضا
و أبشرْ بخيرٍ عاجـلٍ تنسَ به ما قـد مضى
فلربما أمرٌ مسخـطٌ لك في عواقبه رضـا
و لربما ضاق المضيق ولربما اتسع الفضـــا
الله يفعل ما يشـــاء فلا تكوننَّ معترضـــا
الله عودك الجمـــيل فقس على ما قد مضى

(وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا)

الله هدى عباده :

أي أنَّ الله سبحانه هدانا إليه في الأمور الكُبرى، أفلا نتوكَّل عليه في الأمور الصغرى ؟ ما دام قد هدانا إليه إذاً هو وَلِيُّنَا، هو ربنا، فمن باب أولى يجب التوكُّلُ عليه .

(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ)

معنى التوكل :

المتوكِّلُ هنا بمعنى ؛ أنَّك إذا أردت أن تتكل على جهةٍ ما فعلى الله توكّل فحسبُ، الناس قد يتوكّلون على إنسان، ولحكمةٍ بالغة لمجرد أن تتوكل على هذا الإنسان فإن الله سبحانه وتعالى يُلْهِمُهُ أن يخيِّب ظنَّك ..

((ما مِن مخلوقٍ يعتصم بمخلوقٍ دوني أعرف ذلك مِن نيَّته إلا جعلت الأرض هَوْياً تحت قدميه، وقطَّعت أسباب السماء بين يديه، وما من مخلوقٍ يعتصم بي مِن دون خلقي أعرف ذلك مِن نيَّته فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً))

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا

الآية الكريمة دقيقة جداً :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

(سورة الطلاق)

المعنى دقيق : أيْ أنك في ضائقة وأنه قد ضُرِبَ حولك نطاقٌ محكم، ليس لك مخرج، فإذا اتقيت الله عزَّ وجل فتح لك مخرجاً، أحياناً تكون في نِطاق من الضائقة المالية، الطُرُق كلها مسدودة، فإن تتق الله يجعل لك مخرجاً، تبحث عن زوجة مثلا فلا تجدها، كأنَّ يأسك من الزواج الشرعي نطاقٌ ضُرِبَ حولك، فإذا اتقيت الله عزَّ وجل يجعل لك مخرجاً، معنى مخرج : أيْ مضروب حولك نطاق محكم، ربنا عزَّ وجل أحياناً من أجل أن تلتجئ إليه يحكم حولك الحصار، تُحاصَر، الأبواب كلها مغلقة، الأصحاب كلهم يعتذرون، مَن كنت تثق بهم يخيِّبون ظنَّك، حتى تيأس مِن الخلق كلهم وتتجه إلى الله عزَّ وجل عندئذٍ يجعل لك مخرجاً ..

ضاقتْ فلما استحكمت حلقاتها ، ضاقتْ، مولاي ضاقتْ ..

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فُرِجتْ وكان يظنُّها لا تُفرج

***

أحياناً بالصحة، مرض شديد، أول طبيب قال لك: لا يوجد أمل، ثاني طبيب، ثالث طبيب، فلما يئست من الأطباء، ومن الطب، ومن الدواء، ولم تجد لعلتك شفاءً عندئذٍ تتجه إلى الله عزَّ وجل، لمجرد أن تتجه إلى الله سبحانه وتعالى يخلق لك مخرجاً، يأتي الشفاء على يد طبيب مغمور، متواضع، ويشفيك الله شفاءً تاماً، فلمَّا تكون أمور الإنسان مُعَسَّرة، والنطاق مضروب حوله، ويكاد يظن أنه لا أمل، حينما يرى المستقبل مظلماً، والتشاؤمُ يستحوذ على قلبه، فإذا اتجه إلى الله عزَّ وجل خلق له من الضيق فرجاً،

ومن الضعف قوةً، ومن اليأس أملاً، فلذلك ربنا عزَّ وجل خالق كل شيء، بمعنى أنَّ الخوفَ شيء، والله سبحانه وتعالى يخلقه في نفس الإنسان، والأمل شيء كذلك يخلقه في نفس الإنسان، واليأس شيء، والطمأنينة شيء، والأمن شيء، والقلق شيء، الله عزَّ وجل خالق الأشياء المادية كلّها، وخالق الأشياء المعنوية كلّها كذلك .

(ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ)

(سورة آل عمران : من الآية 154)

ألقى في قلوبهم السَّكينة، فالسَّكينة شيء يُخلَق ..

(وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة إبراهيم 014 - الدرس (3-9): تفسير الآيات 13 – 21

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-09-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في الدرس الماضي من سورة إبراهيم عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام إلى قوله تعالى :

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا

معركة الحق والباطل أزلية :

أي أن المعركة بين أهل الإيمان وأهل الكفر أزليّةٌ أبديَّة، معركةٌ قديمة، إنَّ هؤلاء الكفَّار وهم الأكثريَّة وأصحاب القوَّة خَيَّروا المؤمنين بما فيهم رسل الله الكرام الذين دَعَوْهُم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، خيَّروهم بين أن يعودوا في ملَّتهم أو أن يخرجوهم من أرضهم ..

(فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ)

مصير الظالمين الهلاك :

ليس في الكون إلا الله، والله سبحانه وتعالى يقول :

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ وإذا أردتَ أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله، حُسْبُكَ الله ونِعْمَ الوكيل ..

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة غافر : من الآية 51)

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج : من الآية 38)

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

(قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ)

(سورة الأنعام : من الآية 64)

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ)

مساومة ساذجة :

كلمَة تعودوا هنا لا تعني كنا وسنعود، بل هي بمعنى صار، أيْ : إمَّا أنْ تصبحوا على ديننا وَفق ملّتنا، أو لَنخرجَنَّكم مِن أرضنا، ورأيٌ آخر هو أن الكفَّار توهَّموا أن المؤمنين كانوا على ملّتهم فآمنوا فعليهم أن يعودوا لما كانوا عليه ..

(فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ(13)وَلَنُسْكِنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)

وَلَنُسْكِنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ

العاقبة للمتقين :

طبعاً ربنا سبحانه وتعالى ووَفْقَ سننه الثابتة يقول ..

(إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)

(سورة الأعراف : من الآية 128)

الأرض يرثها عبادي الصالحون ..

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

وللباطل جولةٌ ثمَّ يَضْمَحِل، فلذلك بعد إهلاك الظالمين ..

(وَلَنُسْكِنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ)

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور : من الآية 55)

هذا وعدُ الله الثابت .

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ(5)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص)

(وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)

وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ

معنى : استفتحوا

معنى استفتحوا: أن هؤلاء الرسل الكرام طلبوا مِن الله الفتح، أيْ طلبوا من الله النصر، إني مظلومٌ فانتصر يا رب لدينك ..

(فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ)

(سورة القمر)

الاستفتاح هنا طلب الفتح ..

(وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)

الجبار العنيد :

الجبَّار المتكبِّر عن طاعة الله عزَّ وجل، والعنيد هو المصرُّ على خطئه وعناده وكفره، الجبَّار العنيد صفتان تلازمان الكافر ؛ جبَّارٌ، مستعلٍ، عنيد : لا يتراجع عن خطئه .

(وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)

معنى : خاب

معنى خاب أي أخفق في مسعاه، رأى نتيجة عمله أمامه، وصل إلى نهاية أعماله ..

(وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ(15)مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ)

مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ

هذا هو شراب الكافرين والعياذ بالله :

الجروح أحياناً تَنِزُّ قيحاً، هذا الماء لا يستطيع المرء أن يفكِّر في قُبْحِهِ، أو قذارته، أو كراهيَّته، إن هذا الماء سوف يُسقى منه الكافرون ..

(وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ(16)يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ)

الحقيقة أنه لا موت يوم القيامة :

أيْ أنَّ هذه حالةٌ صعبةٌ جداً أن تتوافر كل أسباب الموت ولا موت، الموت مريحٌ أكثر من هذه الحالة ..

(وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ)

الآن، الآية الكريمة :

(مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ)

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ

انظر إلى هذا المثل القرآني العظيم :

هذا مِن أمثال الله البليغة : أهل الكفر الذين كفروا بربِّهم الذي يُمدُّهم بالحياة، يُمدُّهم بكل ما يحتاجونه، ربهم الذي خلقهم، والذي دعاهم إليه كفروا به بمعنى أعرضوا عنه، بمعنى لم يأبهوا لشرعه، لم يُقْبِلوا عليه، لم يُعْنَوا بكلامه، لم يبحثوا عنه، لم يسألوا عن منهجه، لم يَعْنِهم خلقُه ..

(مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ)

الكافر معرض عن ربه :

أيْ أنهم ازْوَرُّوا عنه، أعرضوا عنه، جعلوا كلامه وراء ظهورهم، فلم يبالوا بالإقبال عليه، وما هابهم الانقطاع عنه، ورغبوا في رضاه، كل هذا جعلوه وراء ظهورهم .

(مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ)

طبعاً الأعمال الساذجة، أو الأعمال التي لا شأن لها ولا قيمة الأعمال التافهة هذه لا تُذْكَر لا عند الناس ولا عند الله، ولكنَّ المقصود من هذه الآية أعمالهم الكبيرة، هذه الإنجازات الضخمة التي يزعمون أنها ضخمة .

(أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ)

أعمال الكافر كرماد في يوم عاصفلا يستقر منها شيء :

رياحٌ هوجاء تثير العواصف والأتربة، حفنةٌ من رماد وُضِعَت في مهبِّ الرياح، أين هي ؟ تلاشت، وربنا عزَّ وجل في آياتٍ أخرى يقول :

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)

(سورة الفرقان)

وفي آيةٍ أخرى :

(أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا)

(سورة النور : من الآية 39)

أيْ أنَّ هذه الإنجازات الضخمة التي يتبجَّح بها الكفَّار لا شأن لها عند الله، لا قيمة لها عند الله، لا تُسْعِدُ أصحابها يوم القيامة، يبحثون عنها فلا يجدونها .

مقياس الأعمال الحقيقي هو عند الله لا عند الناس :

لو أن طالباً وقف أمام امتحانٍ شفهي وطُرِحَ عليه سؤالٌ دقيق، فلم يملك الإجابة عنه ووَقَعَ في حرجٍ شديد، وصار مصيره بالنجاح مهدَّداً، ثم تذكَّر أنه البارحة تناول طعاماً طيِّباً، وأمضى في إعداده الساعات الطِوال، هذا العمل أو صنعه لهذا الطعام الطيِّب، واستهلاكه وقته الثمين في إعداد هذا الطعام، فهل يستطيع هذا العمل الذي قام به البارحة أن ينجِّيه مِن هذا المأزق الحرج؟ لا يستطيع، هؤلاء الكفَّار لهم أعمالٌ ضخمة بمقياس الناس، فالفراعنة الذين أشادوا الأهرامات أين هم؟ ما قيمة هذا الإنجاز الضخم إن كان صاحب هذا الإنجاز يُعَذَّبُ على أعماله السيئة؟

هناك أعمالٌ إنشائيَّةٌ ضخمة قام بها بعض الناس، سور الصين مضرب المثل، آثار الأنْباط، آثار التدمريين، المسارح التي أقامها الرومان أين هي ؟ وأين هم ؟..

(أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ)

(كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ)

(سورة النور : من الآية 39)

نابليون احتلَّ أوروبا بأكملها، ووصل إلى أعماق روسيا ثم تراجع وصار أسيراً في جزيرةٍ في البحر المتوسِّط، أين هي هذه الأعمال ؟ الأعمال الإنشائيَّة، وكذلك الأعمالُ الفنيَّة: فالذيَن تركوا مسرحيّاتٍ كثيرة، والذين تركوا قصصاً رائعة أين هم الآن؟ هذا يبقى في الدنيا ويذهبون ليلاقوا نتيجة أعمالهم، هذا الذي كان يملك أسطولاً من البواخر، وكان يمتلك بعض الجزر في سواحل إفريقيا أين هو؟ توفي .

(أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ)

الكفار أخسر الناس أعمالا :

هذه الدول الصناعيَّة التي تُتحِفُ الناس بالصناعات الراقية إذا مات أصحاب هذه المعامل أين هم ؟ ما قيمة هذه الأعمال؟ بقيتْ في الدنيا وانتهتْ، أي أن ربنا عزَّ وجل يقول: أنت في الدنيا في مهمَّةٍ خطيرة فإذا غابتْ عنك هذه المهمَّة فأنت في خسرانٍ كبير ..

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

(سورة الكهف)

بالأخسرين أعمالاً، هذا " نوبل " اخترع الديناميت، وبعد أن اخترع الديناميت شعر أنه اخترع شيئاً مؤذياً للبشريَّة، فكم من قتيلٍ في أطراف الأرض ؟ كم من قتيلٍ بريء؟ كم من طفلٍ؟ كم من امرأةٍ ماتت وقضت نحبها بسبب هذا المخترَع الذي اخترعه نوبل؟ هل يسمَّى هذا إنجازاً ضخماً ؟

(أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ)

قرأت مقالة قبل أسبوعين لكاتبٍ أرسل هذه المقالة وتوفِّي، كانت آخر مقالة يرسلها إلى إحدى المجلات، المقالة مطوَّلة عن أناسٍ يمشون على النار، فما قيمة هذا العمل؟ إذا تمرَّن الإنسان على المشي فوق النار، فماذا فعل؟ ماذا قدَّم للإنسانيَّة؟ كلامٌ دقيقٌ جداً أُحِبُّ أن أقوله: إن الأعمال التافهة لا قيمة لها لا عند الله ولا عند الناس، ولكنَّ الأعمال التي تبدو بمقياس الدنيا عظيمة إن لم تَعُد بالخير على البشريَّة لا قيمة لها يوم القيامة، وصلنا إلى القمر ماذا استفاد الناس مِن هذا الإنجاز الضخم؟ أيْ أن كل عملٍ لا يؤدي إلى نفع الناس، إلى هدايتهم، إلى تأمين حاجاتهم، إلى إسعادهم، إلى إقرار العدالة بينهم، إلى نشر الفضيلة فيما بينهم، كل عملٍ لا يعود بالنفع على الأمَّة هذا العمل لا قيمة له في الآخرة ..

(أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ)

المركبة التي وصلت إلى القمر، أول مركبة، كلَّفت أربعة وعشرين ألف مليون دولار، قال بعض الخبراء الماليين: " إنَّ دول العالم كُلَّها ساهمت في دفع هذه النفقات عن طريق التلاعب بأسعار هذه العملة الدوليَّة " ..

(أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ)

فالأعمال التافهة لا قيمة لها، والأعمال الكُبرى إن لم تَعُد بالنفع على الأمَّة لا قيمة لها يوم القيامة .

أعمال الكافر الإنسانية من أجل السمعة والشهرة والمال :

أما الأعمال الإنسانيَّة التي يقوم بها الكفَّار، مثلاً : نجحوا في زرع كليةٍ، ويتقاضون تكلفة هذه العمليَّة مليون ليرة، اضطُّر صاحب هذه العمليَّة أن يبيع بيته وأن يفتقر كي يدفع تكلفة هذا العمل، هذا عمل إنساني، لكن نظراً لثمنه الباهظ فقد دَمَّر هذا المريض، دمَّره ماليّاً، فإذا كان هناك بعض الأعمال التي تعود بالنفع على بعض الأفرادُ، فإنَّ أثمانها الباهظة جعلتها سلعة تجاريَّة يفعلها صاحبها بُغْيَةَ الربح الوفير، والذي لا يعرف الله سبحانه وتعالى يعمل أعمالاً قد تبدو إنسانيَّة ولكنَّه يبتغي منها السمعة، والشهرة، والسمعة الحسنة، وأن يكون نجمُهُ متألّقاً في سماء المعرفة، لذلك، فالأعمال إن لم تكن خالصة لوجه الله سبحانه وتعالى، وإن لم تعد بالنفع على الأمَّة..

(كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ)

كل إنسان له عمل فَليفحصْ عمله، بل أولاً لِيفحصْ نواياه من عمله، ماذا ينوي من هذا العمل ؟ ينوي مالاً، ينوي ربحاً، ينوي ثناءً، ينوي مديحاً، يبغي رفعة، يبغي مجداً، أم يبغي أن يرضَى الله عنه ؟ إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي ..

وما مقصودُهم جنَّات عدنٍ ولا الحور الحسان ولا الخيامْ

سوى نظر الحبيب فذا مـُـ ـناهم وهذا مطلب القوم الكرامْ

***

هذه الآية واللهِ وقفتُ عندها طويلاً، هناك أعمال ضخمة بذلوا من أجلها عشرات السنوات، دُفِعَت من أجلها مئات ملايين الليرات، وفي النهاية :

(كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ)

ما كان للدنيا لا ينفع يوم القيامة :

هذا الذي نجح في الزراعة، أو نجح في الصناعة، أو نجح في التجارة وحقَّق أرباحاً طائلة، عاش في بحبوحة وفي رفاهٍ عجيب، يأتي يوم القيامة فيقول الله له: ماذا فعلت مِن أجلي؟ ماذا فعلت من أجل هذه الحياة الأبديَّة ؟ بماذا خدمت العباد؟ ماذا قدَّمت لهم؟ يقول: يا رب، فعلت هذا العمل، فيقال له: هذا تقاضيتَ عليه أجراً باهظاً، أرهق الناس، ماذا فعلت من أجلي؟ هل رحمتهم؟ هل أنصفتهم؟ هل

أكرمتهم؟ هل كان قلبك رقيقاً لمآسيهم، أم أنك عشت وحدك؟ هذا كلُّه يوم القيامة، فالنتيجة خطيرة جداً، الإنسان لا ينظر لمظهر العمل، هناك أحاديث كثيرة :

((أندم الناس يوم القيامة عالمٌ دخل الناس بعلمه الجنَّة ودخل هو بعلمه النار))

[ورد في الأثر]

يرونه يوم القيامة فيقولون: ألستَ فلاناً؟ يقول بلى، ما الذي جاء بك إلى هنا في جهنَّم؟ يقول: كنت آمُرُكم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه، قضيَّة العمل قضيَّة من أخطر قضايا الإنسان، لا يوجد واحد منَّا إلا وله عمل، إذا كان عمله طالحاً فهو طالح، سيئ سيُحَاسَب عليه، أما المشكلة إذا كان صالحاً، حتى العمل الصالح يحتاج إلى إخلاصٍ لله عزَّ وجل .

((مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَيُجَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، وَيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ جَهَنَّمَ))

[سنن ابن ماجة عن أبي هريرة]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ: ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ))

[مسلم]

الآن عن الأعمال الصالحة، الأعمال السيئة مفروغ منها، هذه سيحاسب عَلَيهْا الإنسان، الأعمال التي تبدو للناس طيّبة ما النوايا التي وراءها؟ ما الباعث الذي وراءها؟ فلذلك ربنا عزَّ وجل يقول :

(مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ)

لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ

كيف إذا كانت الأعمال طالحة؟

هذا إذا كانت الأعمال صالحة، فإن كانت طالحة فقال عليه الصلاة والسلام :

((مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا عَبَثًا عَجَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْهُ يَقُولُ: يَا رَبِّ، إِنَّ فُلَانًا قَتَلَنِي عَبَثًا، وَلَمْ يَقْتُلْنِي لِمَنْفَعَةٍ))

[مسند أحمد عَنْ الشَّرِيد]

يؤتى بالعصفور يوم القيامة وله دويٌ كدوي الرعد يقول هذا العصفور: يا رب، سله، يقصد مَنْ صاده، سله لمَ قتلني؟ أقتلني لمأكلةٍ أم قتلني عبثاً؟ العصفور الذي صاده الصيَّاد لغير مأكلةٍ يأتي يوم القيامة وله دويٌ كدوي الرعد يقول: يا رب سله لمَ قتلني ؟

((دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[صحيح البخاري عن ابن عمر]

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

(سورة الزلزلة)

فيا أيها الإخوة الأكارم ... العملُ مَطِيَّتُك إلى الله عزَّ وجل، والقبر صندوق العمل، وقيمة العمل تَنْبُعُ من شيئين: أن يكون ذا نفعٍ عام، وأن تكون نواياه خالصة لوجه الله عزَّ وجل، هناك انحرافٌ حتى في الأعمال الصالحة، قد يتعلَّم الإنسان العلم ليقال عنه عالم، قد يخدم الإنسان الناس لينتزع ثناءهم واستحسانهم وتشجيعهم، هنا النوايا مشوبة، فلذلك الأعمال التافهة تافهة، والأعمال الجليلة لابدَّ لها من شرطين؛ أن تعود بالنفع على الناس، وأن يكون الذي فعلها إنما فعلها تقرُّباً إلى الله عزَّ وجل، فدعاء العارفين بالله: " إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي " .

(لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ)

العمل للدنيا ينتهي بالموت:

أيْ أنَّ هذا العمل لأنه لم يكن عملاً قيِّماً، لأنه لم يُعُد بالنفع على الناس، لأنه تافه، لأنه كان للدنيا، وقد انتهى بالموت، أو لأن نيات صاحبه كانت ليست خالصة لله عزَّ وجل، يأتي يوم القيامة يبحث عن هذا العمل فلا يجده، وإذا وجده فلا يقدر أن يُقْبِل به على الله سبحانه وتعالى لسوء نيته، وإذا وجده فنيَّته السيئة أَحْبَطَتْهُ، أذهبت مفعوله، أَبْطَلَتْ عمله، أذهبت قيمته، فتَّته، أزالته عن مكانته ..

لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ)

ولكنَّ هذا العمل كلَّفك الجهد الكبير، والمال الوفير، وتأتي يوم القيامة ولا تجده، وإذا وجدته وجدت نواياه السيئة قد أحبطته وأبطلت قيمته وجعلتهمع الأعمال السيئة .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ

أَلَمْ تَرَ

كلمة ألم ترَ تعني أنَّ هذه الآية تحت بصر الناس كُلّهم، في متناولهم، ألم ترَ، قد أقول لواحدٍ من الناس: ألم تر أن الشمس ساطعة؟ هل يقال هذا القول في الليل؟ هل يصحُّ هذا القول في الليل؟ أو هل يصحُّ هذا القول للأعمى؟ ما دام هذا الإنسان الذي أمامي له عينان، وما دامت الشمس ساطعةً في كبد السماء، عندئذٍ إذا قلت له: ألم تر الشمس ساطعة، فمعنى قولي: ألم ترَ الشمس ساطعةً أيْ أنَّ الشمس ساطعةٌ، ويستطيع أن يراها، فربنا سبحانه وتعالى يقول :

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

انظر إلى مخلوقات الله تر أن الكون مخلوق بحقٍّ وحكمة ودقة :

أي أن الأرض حَجْمُها بالحق، حجمُها حدَّد جاذبيَّة الأشياء إليها، نحن في القمر ينقص وزننا ستَّة أمثال، وإذا كنَّا في كوكبٍ آخر يصبح وزن الإنسان خمسة آلاف كيلو تقريباً، أما حجم الأرض فهو حجمٌ مناسب، حجم اليابسة إلى البحر حجمٌ مناسب، تركيب الهواء مناسب، طبقة الأوزون التي تمنع الأشعَّة القاتلة مناسب أيضاً، نحن على الأرض حواسُّنا لها عتبة، هذه العتبة مناسبة ..

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

(سورة القمر)

أي أن كل شيءٍ بلغ من الحكمة غايتها، ومن دقَّة الموضع غايته، وليس في الإمكان أبدع مما كان، طعامنا، شرابنا، النبات الذي من حولنا، نظام الأسرة، نظام البذور، أيُّ نظامٍ تراه عيناك فهو على أبدع ما يكون، هذا معنى بالحق، أحياناً تُحَرِّك العدسة إلى أن تصبح الصورة واضحةً جداً هذا الموضع الدقيق بالحق، لو غيّرت مكان العدسة لأصبحت الصورة ضبابية، لو قرَّبتها أو بَعَّدّتها، في هذا المكان الدقيق الدقيق نقول: هذا المكان بالحق، أي أنه يعطي الصورة واضحة أمامنا، فكل شيءٍ خلقه الله عزَّ

وجل من صغير المخلوقات إلى كبيرها، من جليلها إلى حقيرها أخذ وضعه الكامل .

فبالحق تعني كمال كل شيء ودقته، أي أن كل شيءٍ لو غيّرت صفاته الفيزيائيَّة أو الكيميائيّة لاضطرب الأمر مثلاً .

لو أن الحديد لا يصدأ ليس بالحق، إذاً صدأ الحديد بالحق، عدم صدأ الذهب بالحق، لينُ الرصاص بالحق، كون الهواء على نسبٍ ثابتة بالحق، قُدْرَة العين على الرؤية بالحق، عين الصقر تزداد قدرة رؤيتها ثمانية أضعافٍ بالحق، أي شيءٍ خلقه الله بالحق، معنى بالحق أي بالوضع الأكمل، بالحكمة البالغة، بالدرجة المناسبة، بتقدير العزيز العليم، معنى بالحق أي ليس في الإمكان أبدع مما كان ..

(أَلَمْ تَرَ)

لَوْ أنَّ الماء إذا بَرَد كغيره من عناصر الأرض يتجمَّد، وإذا تجمَّد انكمش أي قلَّ حجمه، وزادت كثافته، فَلَوْ أن هذه الظاهرة المفترضة على كل عناصر الأرض كانت بالماء لما كنَّا في هذا المكان، لما كان على وجه الأرض إنسان، الماء لو جَمَد وقلَّ حجمه وازدادت كثافته غاص في أعماق البحار، معنى هذا أن البحار بعد سنين لا ندري كم هي تنقلب إلى بحارٍ متجمِّدةٍ من سطحها إلى أعماقها، وإذا تجمَّدت انعدم التبخُّر، وإذا انعدم التبخُّر انعدمت الأمطار فمات النبات، مات الحيوان، مات الإنسان، فهذا الماء من درجة ثلاثين أو أربعين إذا بردَّته ينكمش إلى درجة زائد أربع، عند هذه الدرجة يحصل تطوُّر عجيب في الماء، تنعكس خواصُّه فإذا جَمَّدَّته يزداد حجمه، فإذا ازداد حجمه قلَّت كثافته، إذا قلَّت كثافته طفا على سطح الماء، فالبحار المتجمِّدة الشماليَّة التجمُّد سطحي فقط، أما أعماق البحار فمياهٌ دافئة تجوب بها الأسماك من كل حدبٍ وصوب، إذاً تجمُّد الماء بالحق .

هذه العين أودع الله فيها مادةً مضادَّةٌ للتجمُّد، لو ذهبت إلى فنلاندا أو إلى ألاسكا، أو إلى القطب الشمالي وكانت البرودة تزيد عن سبعين درجة تحت الصفر ماذا يحصل ؟ تحس ببردٍ شديد، لا شكَّ أنك ترتدي معطفاً سميكاً وقفَّازاتٍ صوفيَّة، وغطاءً للرأس، وواقية للأنف، بقي العينان، هل تستطيع أن تغطيهما بشيءْ صوفي ؟ كيف تمشي في الطريق؟ لابدَّ من أن تبقى العينان معرَّضتين للهواء مباشرةً، فإن لم تكن فيهما هذه المادَّة المُضادَّة للتجمُّد معنى ذلك أن كل إنسانٍ هبطت الحرارة في بلده، أو في بيته، أو في بيئَتِهِ عن الصفر تجمَّد ماء العين وفقد البصر، فهذه المادَّة التي أودعها الله في العين والتي تمنع التجمُّد، يعني أن الله سبحانه خلقها وأودعها للعينْ بالحق .

رؤية الإنسان محدودة، لو أنَّك ترى كل شيء كالميكروسكوب لما أمكنك أن تشرب كأس الماء لأنك ترى الكائنات، والبكتريات، والديدان، والعصيَّات تجري فيه فتعاف نفسك شرب الماء، فدرجة النظر مقدرة ومحسوبة بالحق .

لو أن هذه الأذن تسمع أكثر مما تسمع لما أمكنك أن تنام الليل، ولسمعت صوتَ اصطدام الهواء بجسمك، لو أن الأمواج الصوتيَّة لا تتخامد لما أمكن الحياة على وجه الأرض، أصوات المعامل كلّها من شتَّى بقاع الأرض في أذنك، أصوات الأمواج الصاخبة في شتَّى بحار الأرض في أذنك، الضجيج، لكن هذه الأصوات من نعمة الله بعد ثلاثين، أربعين، خمسين متراً تتخامد فينعدم الصوت، بالحق إذاً، أي أنَّ تخامد هذه الموجات بالحق .

وبعدُ فهذه الآية، واللهِ الذي لا إله إلا هو، لو أَلّفنا عليها آلاف الكتب لما كَفَتْ، كل شيء تراه عينك بالحق، أيُّ شيءٍ تقع عينك عليه بالحق، هذه البعوضة التي إذا وقفت على يدك قتلتها .

هل تعرف هذه البعوضة التي قتلتها ماذا فيها؟ فيها جهاز رادار، إذا كنت نائماً على وسادة وكان الظلام دامساً، وكانت في أعلى الغرفة تطير إلى جبينك مباشرةً من دون أن تخطئ الهدف، والظلام دامس، فيها جهاز تحليل دم، تحلّل هل هذا الدم يناسبها، ينام أخوان على فراشٍ واحد، يقوم أحدهما وقد لدغه البعوض طوال الليل، ويقوم الآخر ولا شيء، ما تفسير ذلك ؟ تملك هذه البعوضة جهاز لتحليل الدم فإذا وقعت على الجلد خَدَّرت الموضع، جهاز تخدير، من أجل ألا تقتلها قبل أن تأخذ الدم، والدم له لزوجة لا تعينها على امتصاصه، فتفرز مادَّةً لتمييع الدم، جهاز رادار، وجهاز تحليل، وجهاز تخدير، وجهاز تمييع، وجناحا البعوضة يَرِفَّان في الثانية الواحدة أربعة آلاف رَفَّة، عندئذٍ يصبح صوتها طنيناً تسمعه في أذنك، ولهذه البعوضة ثلاثةُ قلوب : قلبٌ مركزي، وقلبٌ لكل جناح، وإذا وقفت البعوضة على سطحٍ أملس فلها محاجم تعتمد على تفريغ الهواء، وإذا وقفت على سطح خشن لها مخالب تعينها على الوقوف على مكان خشن ..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة : من الآية 26)

ولغاية حكيمة ذكرها الله عزَّ وجل في القرآن، " هذا خلق الله "، ومهما دققت النظر فإنَّك :

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

(سورة الملك : من الآية 3)

فيا أيها الإخوة المؤمنون ... " كلمة بالحق " . والله الذي لا إله إلا هو تنقضي السنوات ولا ينقضي الحديث عنها، بالحق، لو أن هذا الظُفْر له أعصاب حس، إلى أين أنت ذاهبٌ يا أخانا ؟ والله إلى المستشفى لأجري تخديراً موضعيَّاً لكي أقلّم أظافري، لا يوجد غير هذا الحل، إلى أين أنت ذاهبٌ ؟ إلى المستشفى، لماذا ؟ لأجري تخديراً حتى أقصَّ شعري، لو أن للشعر أعصاب حس، أو للأظفار أعصاب حس لكن هذا الخلق عندئذٍ ليس بالحق .

لو أن شعر الأنف في الفم لكان هذا ليس بالحق، لو أن العين هنا على الجبين، لما نجا من العمى إلا واحد بالألف، لكنَّها في حصنٍ حصين، العين في المحجر، والدماغ وهو أخطر عضوٍ في الإنسان في الجمجمة، وبين الدماغ والعظم سائل لامتصاص الصدمات، والجمجمة لها مفاصل ثابتة على شكل خط مُنْكَسِر، هذه المفاصل الثابتة إذا وقع الطفل على الأرض هذه المسافات البينيَّة الدقيقة تمتصَّ الصدمة، بالحق، والقلب وسط القفص الصدري، بالحق، والنخاع الشوكي وسط العمود الفقري، والرحم وسط الحوض، وأخطر معملٍ في الإنسان .. معمل الكريات الحمراء .. داخل نِقْي العظام، بالحق، هذه الآية تمضي السنوات ولا ينتهي شرحها، بالحق .

فكِّر، العلم حرف والتكرار ألف، ليكن لك جولاتٌ في هذا الكون، هذا البطيخ الذي نأكله كيف نقطفه ؟ هل نُكَلِّف صاحب الحقل أن يمسك هذه البطيخة ويغزُّها ويضربها ليعرف ما إذا كانت ناضجة أو لا؟ خيطٌ من النبات، بعد مكان انفصالها بأمِّها، على شكل حلزون إذا نضجت تراه يابساً، فإن كانت فجَّةً تراه طريَّاً، بالحق، الله قال :

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

(سورة النحل)

موسم الفواكه يكون في الصيف، فلو أنَّهُ نضج الكرزُ، والمشمش، والتفَّاح، والأجاص، والدرَّاق، والتوت في يومٍ واحد، ماذا نفعل؟ كيف نجني هذه الفاكهة؟ كيف نوَضِّبها؟ كيف نسوِّقها؟ كيف نبيعها؟ كيف نستهلكها؟ مستحيل، كل أسبوعين أو ثلاثة مواسم، أول شيء الكرز، وبعد ذلك المشمش، بعده الدرَّاق، ثم الأجاص، والتفَّاح، أي خلال أربعة أشهر وعلى التوالي .. وبعد هذا يأتي موسم العنب ..

وقبلها الزيتون، توزُّع هذه المحاصيل وهذه الفواكه على فتراتٍ مديدة كل ذلك بالحق، الفاكهة الواحدة لو أنها تنضج في يومٍ واحد، هل نأكل في اليوم مائة كيلو مشمش؟ نأكل هذه الفاكهة خلال شهر تقريباً، كل يوم نأكل كيلوينْ، معقول، هذه الفواكه تنضج بالتسلسُل .

قال لي بعض الأشخاص: ضمنت حقلاً للبطيخ، قال: والله قطفت منه تسعين قطفة كل يوم قطفة، كل يوم أملأ شاحنة، مَن جعل هذا المحصول ينضج على التدريج ؟ بالحق .

لو أن القمح ينضج بالتدريج لكان نضجه بالباطل، وعندئذٍ تمسك كل سنبلة فتنظر إذا كانت نضجت، فتصبح عملية انتحار، لكنَّ المحاصيل تنضج في يومٍ واحد، وتحصدها في يومٍ واحد، بالحق، هذه السنبلة ساقها يعدُّ غذاءً أساسياً للحيوان، مهما اشتريت للحيوان علفاً يبقى التِبْنُ سيِّد العلف بالنسبة للحيوان، مَن جعل هذا النبات ثماره للإنسان وساقه للحيوان؟ بالحق .

هذا الشجر " الحور الطويل " الذي نستخدمه كجسور، قال العلماء: جذره ليفي، له كمية جذور قليلة جداً لأن يُزْرَع كي يُقْلَع، ليُسْتَفَاد من خشبه، أما أشجار الزيتون، الأشجار المثمرة التي تُعَمِّر مديداً هذه

تبقى جذورها ضاربةً في أعماق الأرض، بالحق .

أيها الإخوة الأكارم ... فكّروا، هذا الفكر الذي وهبه الله لنا، وهذا الكون المعجز الذي أكرمنا الله به من أجل أن نعرف الله من خلاله، لا من أجل أن نأكل كما تأكل الأنعام ..

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)

(سورة محمد)

(أَلَمْ تَرَ)

أيها الإنسان ألم ترَ بعدُ ..

(أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ(19)وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)

بين إثبات القدرة والتهديد :

هذه الآية بعضهم قال: " إنها تثبت قدرة الله على بعث الإنسان بعد الموت " .

وبعضهم قال: " إنها تهديدٌ لهذا الإنسان الضال كي يعود إلى رشده .

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ)

من مشاهد يوم القيامة :

الحقيقة هذه الآيات تمثّلاً مشهد رهيباً خطيراً واقعاً من مشاهد يوم القيامة ساقه الله قبل أن يقع رحمةً بنا، فلو أن عملاً من الأعمال التي يقوم بها إنسان تُعرض عليه فيلماً يصوِّر له مصير هذا العمل ..

مثلاً: حينما كنَّا في التدريس أُخِذَ الطلاَّبُ إلى إحدى الثانويَّات، وأطلعوهم على أفلامٍ علميَّةٍ تبيِّن آثار التدخين، فرأى الطلاب إنساناً وقد فُتِحَت رئتاه، وكيف بدا الورم السرطانيُّ في رئتيه بسبب التدخين..

هذا الذي يدخِّن نريه نتائج التدخين، هذا من باب التمثيل، والله سبحانه وتعالى يعرض يوم القيامة مواقفَ يقع بها الناس اليوم ليريهم سوء أفعالهم قبل أن يحين موعد هذا المشهد .

ربنا عزَّ وجل صوَّره لنا قبل أن يقع لكي نستخلص العبرة مسبقاً ونحتاط لأنفسنا ..

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا)

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا

الخلق كلُّهم ؛ صغيرهم كبيرهم، قويهم ضعيفهم، صحيحهم مريضهم، من كان ذا شأنٍ منهم من كان ضعيف الشأن ..

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا)

حوار بين الضعفاء والمستكبرين :

يقول الضعفاء : نحن قلّدناكم، قلّدناكم في معتقدكم، قلدناكم في مذهبكم، قلدناكم في أفكاركم، قلدناكم في قيَمِكُم، قلدناكم في نماذج حياتكم، قلدناكم في عاداتكم، قلدناكم في تقاليدكم، قلدناكم في احتفالاتكم، قلدناكم في كل شيء ..

(إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)

بحثوا عن الذين استكبروا فوجدوهم في النار، النار مثواهم، هؤلاء الذين تبعوهم أين هم ؟ تعالوا إنَّا اتبعناكم في الدنيا، قلدناكم، كنَّا ضعفاء، أين أنتم ؟ خلّصونا من هذه الورطة ..

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ)

المستكبرون يتبرؤونمن الضعفاء يوم القيامة :

قال الذين استكبروا : كنَّا ضالّين مثلكم، ولو كنَّا مهتدين لهديناكم، كنَّا ضالين فكان الضلال على يدنا ..

(لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ)

الحقيقة هذه الآية دقيقة جداً، لكن هؤلاء الضعفاء من جعلهم ضعفاء؟ إذا كان الله قد جعلهم ضعفاء، وجعل معهم أقوياء، فالأقوياء استعبدوا الضعفاء، فقلّدوهم، أو حملوهم على تنفيذ رغباتهم، فهؤلاء الضعفاء لماذا يُحَاسَبون؟ وكيف يحاسبهم ربهم؟ هذا السؤال لن أجيب عنه اليوم، أجيب عنه في الدرس القادم ..

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا)

الأصح أن أقول لكم ما معنى الضعيف؟ من هو الضعيف؟ الذي لا قوَّة له؟ الذي لا شأن له؟ الذي لا مكانة له؟ إذا عرفتم معنى الضعيف تُحَلُّ المشكلة، لغز هذه الآية يُحَل إذا عرَّفتم أو عرفتم معنى الضعف، هل هو من صنع الله عزَّ وجل أم من صنع الإنسان؟ من هو القوي ومن هو الضعيف؟

والضعف بماذا؟ وما أسباب الضعف هل هو كسبيٌّ أم فطريٌّ ؟

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا)

أيْ : استعْلَوْا ..

(إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ)

وجاء رأس الفتن والمصائب !!!

وجاء الشيطان، جاء الشيطان ليلقي على الناس الضالين الذين أضلّهم موعظة في التوحيد، وبعد أن وَسْوَسَ لهم في الدنيا إذا هو الآن يُلقي عليهم المواعظ ..

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

لماذا تلعن الشيطان بعدما استجبت لدعوته؟

أي أنك لا ترى إنساناً يقع في غلط إلا ويقول : لعن الله الشيطان، فيا أخي إنَّ الشيطان ليس له علاقة، الشيطان قال كلمة، وأنت لأنَّك اتبعته بها فأنت المسؤول، الشيطان له ليس عليك من سلطان أبداً، ما كان الله ليجعل للشيطان علينا سلطاناً، فهذا مستحيل، فهناك ضلال في العقائد، فكلما غلط الإنسان أو عصى تجده يقول: الله يلعن إبليس، الأصح أن يلعن العاصي نفسه، إبليس دعاه فاستجاب له، العاصي ينبغي أن يلعن نفسه، وأن يعزو الخطأ إلى نفسه لا إلى الشيطان، هذا هو الموقف الصحيح، الشيطان سيتكلّم يوم القيامة الحق :

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي)

(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ)

من سلاح الشيطان التخويف بالفقر :

الشيطان يخوِّف الإنسان، يعده بالفقر، يأمره بالفحشاء ..

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

هذا الكتاب كتاب خالق الكون، كلٌّ ما فيه من كلام هو الحق الصرف، وإنَّ الحقَّ الذي لا محيدَ عنه هو هذا الكلام، فعلى الإنسان أن يراقب أعماله، يراقب تصرُّفاته، يراقب أقواله في أثناء الأسبوع وعلى الدوام، فقد تكون أقواله خلاف هذه الآيات، فصار هذا باطلاً وحاشى لله أن يكون باطلاً، فلذلك أدعوكم إلى التأمُّل فيها .

والسؤال الدقيق: إذا كان الله قد خلقنا ضعفاء وخلق غيرنا أقوياء، فبحكم قوتهم وضعفنا اتبعناهم، فما ذنبنا ؟ لهذا السؤال جوابٌ دقيق أجيب عنه إن شاء الله تعالى في الدرس القادم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة إبراهيم 014 - الدرس (4-9): تفسير الآيات 21 – 30
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-10-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

صورٌ حية من مشاهد يوم القيامة :

البروز لله تعالى ، والقيام بين يديهللسؤال والحساب :

أيها الإخوة المؤمنون، وصلنا في سورة إبراهيم إلى قوله تعالى :

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا)

الخلائق كلهم منذ آدم وحتى يوم القيامة ..

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا)

أي أن لا شيء يستر أحداً من الخلائق عن الحِساب، فإنهم وقفوا على أرضٍ ممهدة، لا شيء يسترهم، لا مكان يختبئون فيه، لا شجرة يتوارون خلفها.

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا)

كل واحد منا سوف يبرز لله، وتعرض عليه أعماله التي اقترفها في الدنيا عملاً عملاً، وكأنها شريط .

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا)

فهذا الموقف يغفل عنه الناس، هذا الموقف حينما يقوم الناس لرب العالمين، حينما يقف الناس ليحاسبوا عن كل أعمالهم ..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

يسأل الذي ظلم لم ظلمت؟ ويسأل الذي عصى لم عصيت؟ ويسأل الذي طغى لم طغيت؟ ويسأل الذي تجاوز الحدود لم تجاوزت ؟

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا)

لا حجة لك في اتباع الأقوياء والمستكبرين، فأنت حر في اختيارك:

لكن هناك في هذا الموقف الرهيب خصومة بين الضعفاء وبين الأقوياء، وإذا فهمنا الضَعف في هذه الآية ضعفاً مادياً فهذا الفهم ينقلنا إلى متاهات، ولكن الضعف في هذه الآية ليس هو الضعف المادي بل هو ضعف النفس، وتخلي الإنسان عن الحرية التي وهبه الله إيَّاها، خلقنا الله سبحانه وتعالى سواسيةً كأسنان المشط، وهب الله كلاً منا فكراً يميز به الخير من الشر، والحق من الباطل، والصالح من الطالح، حينما يُعَطِّلُ الإنسان فكره ويجمده، أو يسئ استعماله، ويتبع الأقوى بعقيدته، وتفكيره، وقيَمِهِ يكون قد تخلى باختياره عن حرية الاعتقاد التي منحه الله إيَّاها، وليس في الأرض كلها جهةٌ تستطيع أن تلزمك على أن تعتقد بعقيدةٍ ما، لأن هذه الجهة مهما قويت لا تستطيع أن ترى ما في فكرك من عقيدة.

أعطاك الله سبحانه وتعالى حرية الاعتقاد، وجعل ما تعتقده مستوراً عن كل الخلق، فإذا تخلَّيت أنت باختيارك وبإرادتك عن هذه الحرية الثمينة التي وهبك الله إيَّاها، وعطَّلت تفكيرك الذي جعله الله ميزاناً تزين به الأمور، عطَّلت هذا التفكير وقلَّدت في العقيدة الكُبراء، بأفكارهم، بمزاعمهم، بمعتقداهم، بقيمهم، بعاداتهم، بتقاليدهم فأنت هنا الضعيف، ليس الضعف هنا ضعفاً مادياً ولكن الضعف هنا ضعف الإنسان أن يعتقد الحقيقة التي أراه الله إياها، والتي منحه الله من أجل أن يعتقد بها حرية لا يطّلع عليها أحد .

إذاً خلق الله سبحانه وتعالى الخلق سواسيةً كأسنان المشط، ولم يجعل لأحدٍ في الأرض سلطاناً على أحد في العقيدة ..

(إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ)

(سورة النحل : من الآية 106)

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

(سورة البقرة : من الآية 256)

الذي تعتقده لا يستطيع بشرٌ في الأرض مهما أوتي من قوةٍ أن يطَّلِعَ عليه فضلاً عن أن يُغَيِّرَهُ، هكذا منحنا الله سبحانه وتعالى حرية الاعتقاد، وحرية الاختيار، ومنحنا إرادةً حرة، هؤلاء الضعفاء تخلَّوا بإرادتهم، وباختيارهم عن حريتهم في الاعتقاد وقلَّدوا الكبراء، قلدوا الأقوياء، في عقائدهم، وفي تفكيرهم، وفي مذاهبهم، وفي قيَمِهم، وفي منطلقاتهم، وفي أهدافهم، وفي عاداتهم، وفي تقاليدهم، وفي أنماط سلوكهم، فكانوا مقلدين من هنا اتُّخذت هذه الآية أصلاً في أنه لا يجوز التقليد في العقيدة، لا يجوز أن تقلّد إنساناً في العقيدة .

لا علاقة للضعف المادي بالآية :

أما لو أن معنى الآية أن الضعفاء بمعنى الضعفاء مادياً، هذا الضعف المادي لا علاقة له بالإيمان، إن كنت قوياً أو ضعيفاً تستطيع في كلا الحالين أن تؤمن بالله عزَّ وجل وأن تطيعه على كلا الحالين، وإذا ضاقت الأرض التي تسكن بها فبقية الأرض واسعة ..

(أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا)

(سورة النساء : من الآية 97)

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72)إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

آمن سحرة فرعون بالله وأطاعوه، ولم يستطع فرعون أن يفعل بهم إلا شيئاً ..

(إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

الحياة أبدية، لذلك حينما قال الله تعالى :

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا)

استمع إلى هذا الحوار وانتفع به قبل أن يصيبك :

وقفوا أمام الله عزَّ وجل، وقفوا موقفاً للحساب ..

(فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا)

للكبراء، للأقوياء ..

(إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا)

نحن آمنا كما آمنتم، واعتقدنا بما اعتقدتم، وصدقنا ما قلتم، وسلكنا سلوككم، وذهبنا مذهبكم ..

(إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)

نحن اتبعناكم، أين أنتم ؟ تعالوا خلصونا، تعالوا خففوا عنا العذاب، تعالوا ادفعوا عنا العذاب ..

(إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا)

قلدناكم في أفكاركم، في عقيدتكم، في مذهبكم ..

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ)

أي نحن كنا ضالين، كنا ضالين مضلين، ضللنا وأضْللنا، فسدنا وأفسدنا، كنا معكم، كنا مثلكم، لو هدانا الله لهديناكم ..

(سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ)

سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ

في هذا الموقف يستوي فيه الضحك والبكاء :

نعوذ بالله من هذه المواقف، حينما يقترف الإنسان في الدنيا جريمة، ويحاكم على هذه الجريمة، ويصدر قرارٌ بإعدامه، ويصدَّق هذا الحكم، ويساق هذا المجرم ليشنق في إحدى ساحات المدينة، ويصعد درجات المشنقة، وهو على إحدى درجات المشنقة سواءٌ عليه أبكى أم ضحك، سكت أم صاح، استجاب، استنجد، استغاث، أي شيءٍ يفعله، إن أي شيءٍ يفعله لا ينجيه من حبل المشنقة ..

(سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا)

إن جزعنا لا ننجو، وإن صبرنا لا ننجو، إن استغثنا لا ننجو، إن سكتنا لا ننجو، هذا موقفٌ عظيم .
أيها الإخوة الأكارم، ما دام هذا القلب ينبض فباب التوبة مفتوح، باب الإصلاح مفتوح، كل شيءٍ له حَل ما دام في الحياة بقية، فإذا جاء ملك الموت وخُتِمَ العمل أنت رهن عملك ..

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38)إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(39)فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ(40)عَنْ الْمُجْرِمِينَ(41)مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ(42)قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ(43)وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ(44)وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ)

(سورة المدثر)

أي كنا مع التيار العام، ارتدى النساء في أوروبا هذا الزي، نرتديه نحن هذا هو الرقي، أن ترتدي ما يرتديه الناس في أوروبا ..

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ))

[مسند الإمام أحمد]

هذا التقليد الأعمى، كأن هذه الآية تنبِّه المسلمين إلى التقليد الأعمى وإلى أخطاره، أنت مسلم كيف تسمح لزوجتك أو لأختك أن ترتدي ثياباً تثير مشاعر الناس، وأنت مسلم ؟ تقول : هكذا الثياب، هذه الأيام أهذا جواب ؟! أتستطيع أن تجيب بهذا الجواب يوم القيامة ؟ إذاً :

(جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ)

فسَّره بعض المفسرين : " لو سلكنا طريق الهدى لهدانا الله " ..

(سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ)

ما لنا من محيص، ما لنا من نجاة، وقعنا وانتهى الأمر .

لا تقلّد الأقوياءفإن الله أعطاك عقلا تميز به :

إذا وهبك الله فكراً تستطيع أن تُمَيِّزَ به الحق من الباطل، والخير من الشر، والصالح من الطالح، فلا تقلّد يا أخي، لا تقل : أنا مع الناس، إن أحسنوا أحسنت، وإن أساءوا أسأت، هذا هو الإمَّعة، قال الشاعر الجاهلي ..

وما أنا إلا من غزيةٍ إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

إذا سألت أكثر الناس اليوم : لم تفعل هذا ؟ يقول لك : هكذا يفعل الناس جميعاً، لم تغش يا أخي ؟ هكذا الناس كلهم عندي أولاد، لم تأكل مالاً حرام ؟ هكذا الناس جميعاً، التقليد ضارٌ في كل الحالات، أما التقليد في العقيدة فهو خَطِرٌ، لأن المُقلّد قد يكون ضالاً، قد يكون المُقَلَّدُ منحرفاً، قد يكون أعمى، فإذا قلَّدته كنت مثله، والتقليد يعني أن يتخلّى الإنسان بملء حريَّته عن حرية الاعتقاد التي منحها الله له، هذا هو التقليد، أي أن الله سبحانه وتعالى منحك حرية الاعتقاد وها أنت تتخلّى عن هذه الحرية، هذا هو الضعف، وليس الضعف أن تكون مستضعفاً ..

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)

(سورة الواقعة)

((رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ))

[من صحيح مسلم : عن " أبي هريرة]

ليس الضعيف الذي لا يملك قوةً، ولكن الضعيف هو الضعيف نفسياً الذي عطّل فكره وقلّد الكبراء في معتقداتهم، هذا هو الضعيف، إذاً الضعف هنا جريمة، جريمة يحاسب عليها الضعيف يوم القيامة لأنه اختار ..

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

أعطاك ميزاناً دقيقاً، عطّلته وقلّدت الكافرين، قلدت الضالّين، قلدت المنحرفين، صدَّقت ما يقولون، اعتقدت ما يعتقدون، ذهبت مذهبهم، قلدتهم في عاداتهم، في تقاليدهم، هذا الضعف إذاً كسبيٌّ، وما دام كسبياً فهو من اختيارك، وما دام هذا الضعف باختيارك سوف يحاسب عليه الضعيف حساباً عسيراً، كما تنطق هذه الآية ..

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ)

لو سلكنا طريق الهدى لهدانا الله ..

(لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ)

ما لنا من نجاة ..

أيها الإخوة الأكارم، نعوذ بالله أن نصل إلى هذه النقطة، الطريق المسدود، إن جزعت، وإن صبرت، وإن استغَثْتَ، وإن فرحت، وإن حزنت، كل هذه الأحوال سواء..

(سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ)

ومن أشَدِّ الأشياء إيلاماً للنفس شماتة العدو، وهاهو ذا الشيطان أعدى أعداء الإنسان يقف ليشمت بالذين أضلَّهم .

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ)

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ

معنى : قضي :

معنى قضي الأمر أي أن أهل الجنة دخلوا الجنة، وأهل النار دخلوا النار ..

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ)

(سورة الزمر : من الآية 70)

بعد أن يحاسب الإنسان حساباً دقيقاً، ويوفى جزاء عمله يأتي الشيطان ليشمت بالذين أضلَّهم ..

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ)

وعدُ اللهحقّ ووعد الشيطان سراب وباطل :

كان وعده حقاً، وكان وعد الله مأتيًّا ..

(إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا)

(سورة مريم)

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

(سورة التوبة : من الآية 111)

الوعد الذي جاء في كتاب الله في حكم الواقع .

لا تحسد أهل الدنيا :

أيها الإخوة الأكارم ... الذي وعدنا الله به كأنه وقع، كيف أصبحت يا فلان ؟ " قال : " أصبحت كأني بعرش ربي بارزاً، وكأني بأهل النار يتصايحون، وبأهل الجنة يتمتعون "، قال : " عبدٌ نوَّر الله قلبه بالإيمان عرفت فالزم "، هذه هي الرؤية .

إذا رأيت إنساناً منحرفاً وهو يتقلّب في أنواع النعيم، فمن العمى أن تحسده على نعيمه، والبصر أن ترى مصيره الأسود، هذا هو الإيمان أن ترى الشيء قبل أن تصل إليه، أن تخترق بصيرتك ظواهر الأشياء فتصل إلى نتائجها، لو أن سارقاً سرق وقتل، وظن أنه نجا، وأنت أيقنت أنه في قبضة العدالة، وأنه مراقب، وأنه سيلقى القبض عليه بعد قليل، ألا ترى نتيجته وهو معلقٌ على حبل المشنقة؟ البطولة أن تصل إلى النتائج قبل أن تصل إليها، هذه الرؤية الصحيحة، الناس نيام، يفرح الناس بالمال، والمال ظلٌ زائل، يفرح الناس بالجاه، يفرح الناس ببيتٍ فخم، مع أن هذا هو بيتٌ مؤقَّت، واقرؤوا النعي: " وسيشيَّع إلى مثواه الأخير " .

إذاً: هذا البيت الفخم الذي يسكنه مثوى مؤقَّت، يفرح الناس بالمال ولو كان من طريقٍ غير مشروع، ستحاسب عنه درهماً درهماً .

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلاهُ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَا وَضَعَهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ ؟))

[سنن الدارمي عن عن معاذ بن جبل]

((اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ))

حينما أرى في المسجد شاباً والله أغبطه لأن الشباب فيه قوة، فيه حيوية ..

((اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ))

[الحاكم عن ابن عباس]

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ)

كلام الشامتين ..

(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ)

فوفَّى لم يقل الله: فوفى هذا الوعد، لأن أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، فكلمة فوفَّى لا معنى لها، حشوٌ لا طائل منه ..

(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ)

وها أنتم قد رأيتم بأمِّ أعينكم كيف أن وعد الله قد وقع ..

(قالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)

(سورة يس)

إله يعرف، أليس لك ثقة بوعده؟! إلهٌ خالق السماوات والأرض يعدك بالجنة إن أحسنت، وبالنار إن أسأت، ولا تعبأُ بهذا الوعد والوعيد؟ تصدق إنساناً ضعيفاً لئيماً ..

(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ)

تمعَّن بدقة :وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ

لم يقل: وعدتكم بالباطل، لأن وعد الشيطان لم يقع إذاً هو باطل، الإعجاز في الإيجاز ..

(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ)

وها أنتم قد وجدتم وعده حقاً ..

(وَوَعَدْتُكُمْ)

طبعاً بالباطل ..

(فَأَخْلَفْتُكُمْ)

وعدتكم أنه لا جنة ولا نار، وها هي ذي الجنة والنار، وعدتكم أن لا حساب، وهذا هو الحساب، وعدتكم أنه لا إله، هذه عقائد الضعفاء في الدنيا، هذه غيبيات نحن في غنى عنها، المادة كلُّ شيء، وما الإنسان إلا مظهرٌ معقدٌ للمادة، وعدتكم أن هذه المعتقدات تخدِّر الناس ..

(فَأَخْلَفْتُكُمْ)

هذه الأفكار التي يعتقد بها بعض الناس تنطبق عليها هذه الآية ..

(وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ

ليس للشيطان سلطان على أحد:

هذا كلام رب العالمين، وأية قصَّةٍ، وأي تفسيرٍ، وأي كلامٍ يتناقض مع هذا القول فهو باطل، الشيطان ليس له سلطانٌ على الإنسان، ومعنى السلطان شيئان إما الحجة وإما السلطة .

ضربت سابقاً مثلاً يوضِّح هذه الآية ذكرته كثيراً وها أنا ذا أعيده توضيحاً لهذه الآية:

لو أن إنساناً يرتدي ثياباً أنيقة جداً، وقع في حفرةٍ فيها مياه آسنة سوداء، وكان إلى جانبه رجل، فانطلق

إلى مخفر الشرطة ليشتكي على إنسانٍ يدعي أنه هو السبب، فلما سأله المحقق أدفعك إلى هذه الحفرة دفعاً ؟ قال له: لا، قال هل أمسكك ووضعك فيها؟ قال له : لا، قال: هل شَهَرَ عليك سلاحاً وأمرك أن تنزل فيها؟ قال له : لا، قال : لم تشتكي عليه إذاً؟ قال: لأنه قال لي : انزل فنزلت!! هذا يحتاج إلى مستشفى للمجانين ..

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي)

بطاقة دعوة واستجابة سريعة :

هذا كل ما في الأمر، لذلك لا ينبغي للرجل إذا وقع في معصية أن يلعن إبليس، عليه أن يلعن نفسه فقط، ليس لإبليس دخل في الأمر، قال لك : اعص الله، لم استجبت له، ما دام الشيطان ليس له علينا سلطان، ليس معه حجة، وليس معه سلطة، فإذا اتبعته فهذا الذي يتبعه هو ضال، وهو مسؤول وسيحاسب عن عمله، ولا يعفى من المسؤولية بحجة أن الشيطان وسوس له، طبعاً وسوس، أنت في تعاملك مع القوانين والأنظمة، إذا قال لك شخص : خالف القانون، وتعلم أن جزاء هذه المخالفة السجن، هل تستجيب له؟ ترفض هذه الدعوة، يقول لك: أنا أعرف ما لا تعرف، لماذا في أمور الدنيا لا نستمع إلى شيءٍ يضر بنا وفي أمور الدين نستمع إلى ما يضرنا؟

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

هذه الآية يجب أن تبقى في أذهانكم طوال الحياة ..

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

ألق اللوم على نفسك قبل أن تلقيه على إبليس :

كلما فعل معصية لعن إبليس، مع أنه ليس لإبليس دخل في الموضوع أنت المؤاخذ، إبليس وسوس لك، لم استجبت له ؟ ليس له عليك من سلطان ..

(إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)

إذا أعطاك شخص دواء وقال لك: هذا الدواء يفيدك، وأنت لا تعرف الشخص، قد يكون مؤذياً، قد يكون مغرضاً، قد يكون عدواً، قال لك : مفيد، تأخذه رأساً ؟ اسأل طبيباً، اسأل خبيراً، اقرأ نشرته، لاحظ هو مختوم أم لا (من صنعه؟ ما استطباباته؟)، فكيف تأخذ الدواء بسرعة ؟ قد يكون سُماً قاتلاً، أتتعامل أنت في الدنيا بهذه الطريقة ؟!

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)

أي أن الشيطان لن يستطيع أن يضل أحداً إلا أن يكون الذي أضله ضالاً في الأصل ..

(مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ)

الشيطان لا ينقذ أحدا ولا ينقذه أحد :

أي أنا لا أستجيب لكم إذا صرختم، وأنتم لا تستجيبون لي إذا صرخت ..

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

(سورة المدثر)

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام : من الآية 164)

(إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

التفنن الشيطاني في البراءة من أتباعه :

هذا الذي يصدِّق الشيطان ويستجيب لوساوسه أشركه مع الله عزَّ وجل، وها هو ذا الشيطان يكفر بهذا الشرك ..

(إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

هذه الآية أصلٌ في حقيقة الشيطان، يوسوس ولكنه لا سلطان له على الإنسان، فالذي يستجيب لوساوس الشيطان إنما يستجيب لهوى نفسه، في الحقيقة يستجيب لهوى نفسه لا لوساوس الشيطان، بل إن الأصح من ذلك أن هوى نفسه تطابق مع وساوس الشيطان، فاستجاب له، لا يستجيب الرجل إلى وساوس الشيطان إلا إذا توافقت هذه الوساوس مع هواه ..

(وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)

وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

الصورة المقابلة لأصحاب الجحيم :

هذا العطاء له ثمن :

هذه الصورة المقابلة، هؤلاء الذين استعملوا حريتهم في العقيدة، واستعملوا حريتهم في الإرادة، وعرفوا ربَّهم، وأطاعوه، ولم تأخذهم في الله لومة لائم، هؤلاء الذين وحَّدوا ربَّهم، هؤلاء الذين رأوا أن كل من في الدنيا لا يستطيع أن يدفع عنهم ضُراً ولا أن يجلب لهم نفعاً، هؤلاء الذين رأوا أن يد الله فوق أيديهم، هؤلاء الذين رأوا أنه لا إلهه إلا الله، ولا معبود بحقٍ إلا الله، ولا رافع ولا خافض، ولا مُعِزَّ ولا مُذل، ولا مانع، ولا معطي، ولا قابض، ولا باسط إلا الله، جعلوا همَّهم هماً واحداً فكفاهم الله الهموم كلها .

((مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ))

[الترمذي عن أبي سعيد]

هؤلاء الذين عرفوا الله في الدنيا، هذا جزاؤهم يوم القيامة ..

(وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)

تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ

الجنة سليمة من كل منغِّص :

أي ادخلوها بسلامٍ آمنين، سلامٌ من كل نغص، سلامٌ من كل قلق، من كل هم، من كل حزن، من كل ما يخيف الناس في الدنيا، لا قلق على صحةٍ، ولا على دخلٍ، ولا على مالٍ، ولا على أولادٍ، ولا على زوجةٍ، هم في سلامٍ من كل منغصات الدنيا ..

(تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)

والسلام اسمٌ من أسماء الله سبحانه وتعالى ..

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً)

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً

الكلمة الطيبة فروعها طيبة :

الكلمة الطيبة مضمونها طيِّب، وطيبها يأتي من أنها توافق عمل صاحبها، ومؤدَّاها طيب، معناها طيب، تطابقها مع العمل طيبٌ، نتائجها طيِّبة، هذه الكلمة الطيبة، دعوت إنساناً إلى الله عزَّ وجل، دعوته إلى طاعة الله، دعوته إلى إحقاق الحق، وإبطال الباطل، دعوته إلى طاعة الله بغض البصر عن محارمه، دعوته إلى تحرير دخله من الشبهات، دعوته إلى أن تكون زوجته وبناته محجَّبات، دعوته إلى ترك سماع الغناء، دعوته إلى ما يرضي الله عزَّ وجل .

شيءٌ ملخصٌ أقوله لكم : ليس في الكون إلا الله، وكل شيءٍ يوصلك به فهو حق، وكل شيءٍ يبعدك عنه فهو باطل، فالكلمة الطيبة هي الكلمة التي توصلك بالله عزَّ وجل عن طريق آياته، عن طريق طاعته، عن طريق العمل الطيب ..

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً)

من طيب الكلام تقريب الناس من الله وتعريفهم بنعمه :

الكلمة الطيبة أن تتكلم كلاماً يقرِّب الناس من الله عزَّ وجل، " يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك؟ "، قال: يا موسى أحب عبادي إلي تقي القلب نقي اليدين، لا يمشي إلى أحدٍ بسوء، أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقي "، فقال موسى: " يا رب، إنك تعلم أني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك؟ " قال: " يا موسى ذكِّرهم بآلائي ونعمائي وبلائي " .

هذه الكلمة الطيبة أن تذكرهم بآلاء الله، بعد انحباسٍ طويل في هطول الأمطار الله سبحانه وتعالى لا كما يقولون : منخفضات آتية من القطب الشمالي، تفضَّل الله سبحانه وتعالى علينا بهذه الأمطار، هذه كلمة طيبة، إذا عزوت الأمطار إلى الخالق هذه كلمة طيبة، فإذا عزوتها إلى شيءٍ آخر هذه كلمة تبعد الناس عن الله سبحانه وتعالى، أين أنتِ أيتها المنخفضات ؟ تعالي، ولو من القطب الشمالي، أهي آلهة ؟

(وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)

(سورة النحل : من الآية 65)

فالكلمة الطيبة، ذكِّرهم بآلائي، ونعمائي، وبلائي، أي كلامٍ يقرِّب الناس من الله، يزيدهم معرفةً به، يزيدهم حباً به، يزيدهم استقامة على أمره، يزيدهم بذلاً من أجله، يزيدهم اتصالاً به، أي كلامٍ يؤدي إلى إقبال الناس على الله عزَّ وجل هو ما تعنيه هذه الآية: كلمةٌ طيبة، وهذه الكلمة الطيبة .

(أَصْلُهَا ثَابِتٌ)

من صفات هذه الكلمة الطيبة :

أَصْلُهَا ثَابِتٌ

أي مبنية على حقائق ثابتة، مبينة على واقعٌ راهن، مبنية على منطق، أصلها ثابت .

إذا قلت : المعادن تتمدد بالحرارة، هذا قانون علمي، هذا قانون ثابت، لا يتبدَّل، ولا يتغير، ولا يعدل، ولا يُعطل، فالكلمة الطيبة في أساسها منطلقة من حقائق، من واقع، من منطق، من شيءٍ تقبله النفس، يرضاه العقل، فالأديان تنطلق من أصلٍ ثابت ..

(وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ)

وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ

أصلها ثابت وفرع هذه الكلمة في السماء، أي أن الكلمة الطيبة تنتج عملاً طيباً بسموه ورفعته هذا الإنسان المستقيم على أمر الله عمله في السماء، مشاعره في السماء، أعماله في السماء، أقواله في السماء، فالسماء كناية عن السمو، والثبات، والأصل الثابت كناية عن أن هذه الكلمة الطيبة تنطلق من حقائق، من واقع، من منطق ..

تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ

(أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(24)تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ)

(وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا)

(سورة المائدة : من الآية 32)

إذا هدى الله على يديك واحداً، هذا الواحد يهدي آخراً، والآخر يهدي آخراً، فإذا أنت بعد مدةٍ يسيرة كنت سبباً في هداية مجموعة كبيرةٍ من الناس، لهذا قال الله عزَّ وجل :

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

(سورة المائدة : من الآية 120)

والنبي صلوات الله عليه أمة، ألف مليون مسلم، هو واحدٌ ..

(تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ)

أنت اهدِ واحداً، وانظر كيف أن هذا الواحد هدى زوجته، وهدى أولاده، وهدى جيرانه، كان واحداً فصار عشرة، والعشرة عشرين والعشرين خمسين ..

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ)

السماء رمز السمو، أي أن هذا المهتدي مشاعره سامية، أقواله طيبة، أعماله طيبة، مستقيم، لا يغش، لا ينمِّق، لا يكذب، لا ينحرف، لا يباع، ولا يشترى، صاحب مبدأ، يخاف الله يطيعه في كل أمر .

(أَصْلُهَا ثَابِتٌ)

حق، الباطل مهتز ..

(تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(25)وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ)

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ

خطورة الكلمة الخبيثة على صاحبها :

تجده يقول : أعلمني من مات، ورجع، وقال لك: إن هناك آخرة؟!! هذه كلمة خبيثة، أخي ضع رأسك بين الرؤوس وقل: يا قطّاع الرؤوس، مثلك مثل الناس، الناس كلهم يغشون، وكن أنت مثلهم، هذه كلمة خبيثة،

(وامش بجنازة ولا تمش بزواج)

((أفضل الشفاعة أن تشفع بين اثنين في النكاح))

[ورد في الأثر]

((من مشى في تزويج رجل بامرأة كان له بكل كلمةٍ قالها، وكل خطوةٍ خطاها، عبادة سنةٍ، قام ليلها وصام نهارها))

[ورد في الأثر]

الغيبة كلمة خبيثة فرّقت بين اثنين، والنميمة كذلك فرقت بين شريكين، بين أمٍ وابنتها، بينٍ أخٍ وأخ، بين صاحبٍ وصاحب، بينِ جارٍ وجاره، الغيبة والنميمة تجعل المجتمع مفتتاً، أعداء، خصومات، حقد، كلمة خبيثة، إذا قلت لأختك : ماذا قدَّم لكِ زوجك في هذا العيد ؟ وكان زوجها ضيِّق ذات اليد لم يقدم لها شيئاً، فحزنت، وارتبكت، وندبت حظها، فهذه كلمة خبيثة، إذا حمَّرت الوجه بكلمة فهذه كلمة خبيثة .

((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ))

[البخاري عن أبي هريرة]

((إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفا))

[الترمذي]

عَنْ أَبِي حُذَيْفَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا، تَعْنِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ))

[الترمذي ، أبو داود]

كلمة خبيثة، أحزنته على نفسه، سألته عن دخله، قلت له : قليل، أهذا هو دخلك فقط؟ هذه كلمة خبيثة، أسخطته على ربه، سيدنا عمر يقول: << من دخل على الأغنياء خرج من عندهم وهو على الله ساخط >>، يحزنونك على حالك، لا يوجد عندك شيء، بيتك صغير، دخلك قليل، لا يوجد عندك شيء ثمين، وعندهم شيء فخم وثمين، فالكلمة الخبيثة كلمة تبعد عن الله، تجعلك تحب الدنيا، تجعلك تفعل المعصية من أجل هذه الكلمة، كل كلمة تورث في نفسك سخطاً على الله عزَّ وجل فهي كلمة خبيثة .

(وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ)

من صفات الكلمة الخبيثة :

ليس لها جذور :

ليس لها جذور، شجرة خبيثة مقطوعة، ثمرتها خبيثة كالحنظل، ولا جذور لها، الباطل ليس له أصل، يبنون نظرية على عدم وجود إله، كل شيء مبني على هذا المبدأ باطل، غير صحيح، الكلمة الخبيثة ليس لها أصل، أي ليس لها حقيقة تستند إليها، الواقع لا يصدقها، المنطق لا يناصرها، لا منطق، ولا واقع، ولا حقيقة، باطل، ومعنى باطل لابدَّ من أن يَبْطل، أي أن يتلاشى، الحائط الباطل هو المائل، لابدَّ من أن يقع، ليحق الله الحق ويبطل الباطل، الباطل هو الشيء الذي لابدَّ من أن يزول، لا يستقر، لا يقوم على قدمين، فهذه الكلمة الخبيثة لا أصل لها لا من واقعٍ، ولا من حقيقةٍ، ولا من مضمون ..

سريعة الزوال ليس لها قرار :

(مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ)

سريعاً ما تزول ..

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ

ما هو القول الثابت ؟

ما هو القول الثابت؟ كتاب الله عزَّ وجل، ما الذي يثبتنا على دين الله؟ وعد الله ووعيده، ما الذي يجعلك تستقيم؟ قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت : من الآية 30)

إلهٌ عظيم يَعِدُ المستقيم بالسعادة ..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : من الآية 97)

هذا القول الثابت، وعد الله بالحياة الطيبة، وعد الله بالسعادة، وعد الله بالتوفيق، وعد الله بالفوز، بالنصر، هذا هو القول الثابت ..

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

القول الثابت هو قول الله عزَّ وجل لأن الخالق أزليٌ أبدي ..

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)

(سورة القصص : من الآية 88)

قول الله أثبتُ شيءٍ :

ما من شيءٍ في الكون أثبت من قول الله عزَّ وجل، أما الإنسان قد يقول أقوالاً كثيرة، هذه الأقوال مرتبطة به، فإذا زال الإنسان زالت أقواله وبطل مفعوله، لكن الله حيٌ على الدوام، هو الحي الباقي على الدوام، فكلامه ثابت، وعده ثابت، وعيده ثابت، أي شيءٍ قاله في كتابه ثابت، لماذا يكون المؤمن مطمئناً؟ لأنه يتعامل مع أشياء ثابتة، مشاعر الكافر المقلقة بسبب تعامله مع أشياء غير ثابتة، ربط مصيره بإنسان، ربط مصيره بكتاب، الكتاب قد لا ينشر، قد ينشر، قد يظهر كتاب آخر ينقض ما فيه، أما المؤمن ربط مصيره مع القرآن، والقرآن قول ثابت، وعده صحيح، وعيده صحيح، قوانينه صحيحة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((لا يحزن قارئ القرآن))

[ورد في الأثر]

تعامله مع أشياء ثابتة، في كل مكان، في كل زمان، في كل مجتمع، في كل بيئة، في كل ظرف، في كل سِن، وعده ثابت، وعيده ثابت، قوانينه ثابتة، كلماته ثابتة، لا تعدَّل، لا تغيَّر، لا تبدل، لا تجمَّد، لا تعطل .

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ)

قال الله تعالى :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة : من الآية 276)

الله عزَّ وجل يرخي الحبل، تربح، ثم بعد ذلك ضربة واحدة، أين؟ هذا القول الثابت ..

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة : من الآية 276)

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف)

قول ثابت، أية خيانةٍ لا تفلِح ولا تنجح ولا تسعد صاحبها ..

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف)

أي إساءةٍ تعود على صاحبها، أية خيانةٍ تعود على صاحبها، أي مكرٍ يعود على صاحبه ..

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

(سورة الأنفال)

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

(سورة النساء : من الآية 142)

أي خداعٍ يعود عليه، هذا قول الرب الثابت ..

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ(88)إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء)

إن كنت ذا قلبٍ سليم فهنيئاً لك، هذا القول الثابت، اقرأ كتاب الله كلَّه، اقرأ ما فيه من قوانين قطعية الثبوت قطعية الدلالة، قطعيُّ الثبوت قطعيُّ الدلالة، فالمؤمن أحد أسباب سعادته أنه يتعامل مع كلام الخالق والخالق كلامه قطعي، حقٌ ثابت .

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ)

فإذا وعدك الله عزَّ وجل بحياة طيبة ما من ظرف يعطل هذه الآية لا يوجد ظرف صعب، ولا أزمة خانقة، ولا قهر، ولا أي ظرف معين في الأرض يعطِل هذا الوعد الإلهي .

((لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

[من صحيح مسلم : عن " أبي ذر]

((وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ))

[الترمذي عن ابن عباس]

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر : من الآية 2)

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد : من الآية 11)

هذا القول الثابت، اقرأ القرآن كله قول ثابت، تعامل مع هذه القوانين، ترتاح وتريح، لم يبق قلق، ولم يبق حقد، لا هم، لا حَزَن لا خوف، لا وَجَل، إله يعدك، خالق السماوات والأرض يعدك بالنصر، والتأييد ..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج : من الآية 38)

هذا القول الثابت، اقرأ كتاب الله فهو كله قولٌ ثابت، جرِّب، ما من وعدٍ وعده الله إلا وقع، وما من وعيدٍ توعد الله به إلاّ وقع، فالمؤمن يتعامل مع القول الثابت، وأما قول البشر فقولٌ باطل، وهذه هي القاعدة : هذا الشيطان :

(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ)

قولٌ باطل، وها هم الكبراء :

(إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)

قولٌ باطل، معتقدٌ باطل، قِيَمهم باطلة، أفكارهم باطلة، مذهبهم باطل، فالمؤمن عليه أن يرتبط بالقول الثابت، لا بأهل الباطل، لأنه إذا كان مع أهل الباطل هلك مثلهم .

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ)

الظالم لنفسه، من عمل موجبات الضلال ..

(وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ(27)أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ(28)جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ

وإنْ كنت مسؤولا عن عشرة أشخاص :

فكل إنسان له إشراف على مجموعة أشخاص، كالأب مثلاً إذا سيَّر أسرته في طريق باطل، علَّمهم على المعصية، وعلى التهتك، وعلى الاستهتار بالقيم الجميلة، وأقنعهم أن الدنيا هي كل شيء، وأن عليهم أن يأخذوا حظهم منها، وأعطاهم الحرية المطلقة، إذا فعل هذا فسيحاسب حساباً خاصاً يوم القيامة، لأنه بدَّل نعمة الله كفراً وأحل من تبعه دار البوار..

(وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ(28)جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ(29)وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : من الآية 77)

قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ

سيدنا إبراهيم قال :

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

(سورة البقرة: من الآية 126)

قال الله عزَّ وجل :

(قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

(سورة البقرة: من الآية 126)

(قُلْ تَمَتَّعُوا)

إذا كان أحدهم ذا مال حرام، منحرفاً أخلاقياً، وكافراً بالله عزَّ وجل، ورأيته جالساً وله مظهر فخم، إياك أن تقول : هنيئاً له ..

(قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)

الطريق معروف، أركبت واحداً سيارة فخمة جداً وهو ذاهب إلى المشنقة، أتقول : هنيئاً له ؟ .

(قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)

المصير واضح معروف، فالمؤمن هو الذي يسعد بهذا الوعد الإلهي.

أقم الصلاة تعرف الحق من الباطل :

وفي درس قادمٍ إن شاء الله عزَّ وجل نبدأ بقوله تعالى :

(قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

حتى لا يقع الإنسان في الضلال ويتعامل مع القول الباطل، عليه أن يقيم الصلاة ويؤمن بالله عزَّ وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة إبراهيم 014 - الدرس (5-9): تفسير الآية 31

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 10-10-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في الدرس الماضي وفي سورة إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام إلى قوله تعالى :

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)

قُلْ : إشارة إلى مقام الرسالة :

أما كلمة قل فتشير إلى مقام الرسالة، أو مقام التبليغ، فهناك مقام النبوَّة، وهناك مقام الرسالة، والنبوَّة مقامٌ يرى فيه النبي الحق، يتنبَّأ به، وأما الرسالة فهي مقامٌ فيه تكليفٌ بالتبليغ ..

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة : من الآية 67)

وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ))

[مسلم عن أبي هريرة]

المؤمن مكلّف بالتبليغ :

فأنت مؤمن مكلَّفٌ بنصِّ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلَّم إذا فهمت آيةً، إذا فهمت حديثاً، إذا فهمت حكماً شرعيَّاً مكلف أن تبلّغه للناس، لأنه ما من صدقةٍ أفضل عند الله من قول الحق، وقد مرَّ بنا في الأسبوع الماضي كيف أنَّ الكلمة الطيّبة ..

(كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ)

(سورة إبراهيم)

وأنه من أحياها أي النفس الإنسانيَّة فكأنَّما أحيا الناس جميعاً ..

((وما أحدث رجل أخاً في الله إلا أحدث له الله درجةً في الجنَّة))

[ورد في الأثر]

((ومن أسلم على يديه رجل وجبت له الجنَّة))

[ورد في الأثر]

فمقام التبليغ مكلَّفٌ به كل مؤمن، علّم بالقدر الذي تعلّمت ..

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

[البخاري عن عثمان]

(وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الذاريات)

((ليس مني إلا عالمٌ أو متعلِّم))

[ورد في الأثر]

((كن عالماً أو متعلّماً أو مستمعاً أو محبّاً، ولا تكن الخامسة فتهلك))

[ورد في الأثر]

فالنبي عليه الصلاة والسلام مأمورٌ أن يبلِّغ رسالة ربِّه، ونحن إذا قمنا بزيارته المشرَّفة تقول أمام مقامه الشريف: " يا سيدي يا رسول الله، أشهد أنك بلَّغت الرسالة، وأدَّيت الأمانة، ونصحت الأمَّة، وكشفت الغمَّة، ومحوت الظُلمة، وجاهدت في الله حقَّ الجهاد، وهديت العباد إلى سبيل الرشاد " .

مقامك عند الله بحجم عملك الصالح :

فالإنسان المستمع فقط هذا مستهلك، أما الإنسان الداعية إلى الله عزَّ وجل فهذا منتج، إن مقامك عند الله بحجم عملك الصالح، ما من رجلٍ إلا وله عند الله مقامٌ معلوم، وهذا المقام المعلوم حجمه بحجم عمله الصالح، قال تعالى :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأحقاف : من الآية 19)

الدعوة إلى الله أعلى مقاماتالعمل الصالح :

فأنت لك عند الله مقام، هذا المقام يتحدَّد بمقدار عملك الصالح، وإذا سلسلنا الأعمال الصالحة تقع هداية الخلق في رأس القائمة، أي ما من عملٍ صالح يفوق أن تنقذ إنساناً من الظلمات إلى النور، من الضياع إلى الهدى، من الشقاء إلى السعادة، ما من عملٍ صالح يفوق هذا العمل، والله سبحانه وتعالى شاكرٌ عليم، يشكرك وهو ربُّ العزَّة على أنك دعوت إليه، وعلى أنك وجَّهت الناس إلى طاعته ..

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة : من الآية 67)

معنى يعصمك من الناس أي يحفظك، ولن يستطيع أحدٌ أن يصل إليك لأنك بأعيننا، ولكل مؤمنٍ من هذه الآية نصيب، إذا كنت مخلصاً لله عزَّ وجل تولّى الله سبحانه وتعالى حفظك من كل مكروه، ما دامت النيَّة طيّبة وما دام العمل مخلصاً لله عزّ وجل فأنَّى لأحدٍ أن يصل إليك ؟!

من صفات الداعية الصادق :

وصف ربنا عزَّ وجل الدعاة الصادقين فقال :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ)

(سورة الأحزاب : من الآية 39)

يُبَلِّغُها ..

(وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب : من الآية 39)

هذه الصفة في الدعاة جامعة مانعة، لأن الداعية إذا خشي غير الله لن يستطيع أن يقول ما يرضي الله، عندئذٍ يقول ما يرضي هذا الإنسان الذي خشيه من دون الله، فإذا قال الباطل إرضاءً لمن خشيه من دون الله، وسكت عن الحق خوفاً من هذا الذي خشيه من دون الله فليت شعري ماذا بقي من إبلاغ رسالات الله ؟ لم يبق شيء، إذاً ربنا سبحانه وتعالى حينما يصف وصفه جامعٌ مانع .

(قُلْ لِعِبَادِيَ)

دقِّق :قُلْ لِعِبَادِيَ

لِمَ لَمْ يقل الله عزَّ وجل: قل للمؤمنين؟ قل للناس، قل لهؤلاء، قل لمن حولك، قل لقريش ..

(قُلْ لِعِبَادِيَ)

الفائدة من إضافة العباد إلى الله :

عبادي فيها كلمتان : عباد جمع عبد وياء المتكلِّم، كأن الله سبحانه وتعالى أضاف العباد إليه، أضاف العباد إلى ذاته إضافة تشريف لا إضافة تعريف، حينما قال :

(قُلْ لِعِبَادِيَ)

شرَّفهم بأنه أضافهم إلى ذاته، كأن تقول لإنسانٍ : أنت ابني، أو أنت أخي، أضفته إليك إضافة تشريف، حينما تقول لرجلٍ أمامك يعرف أن هذا الطفل ابنك، تقول له: هذا ابني، هل أنت بهذا القول تُعَرِّفه أنه

ابنك؟ لا والله، إنَّك تقول له: انتبه هذا ابني، أحْرَصُ عليه، أحبُّه، أدافع عنه، فلو أن في القلب إحساساً رقيقاً، لو أن في القلب شفافيَّةً وسمع العبد هذه الكلمة :

(قُلْ لِعِبَادِيَ)

العباد سواسية ، مكرَّمون مكلَّفون :

نحن عباد الله ..

(قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

كل الخلق عبادٌ لله عزَّ وجل، الناس سواسية كأسنان المِشط .

((يا سعد لا يغرَّنَّك أنه قد قيل : خال رسول الله، فالخلق كلُّهم عند الله سواسية ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له))

[ورد في الأثر]

باب الله مفتوح .

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف)

باب اللقاء مع الله مفتوحٌ لكل الخلق بشرط أن يدفعوا الثمن، والثمن هو العمل الصالح، فمن كان عمله صالحاً قبِلَهُ الله عزَّ وجل وتجلَّى عليه ورَحِمَهُ ..

(قُلْ لِعِبَادِيَ)

فإذا كنت عبداً لله عزَّ وجل وسمعت هذه الآية تُحِسّ أن الله سبحانه وتعالى كرَّمك ..

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)

(سورة الإسراء : من الآية 70)

بنو آدم مكرَّمون عند الله، سخَّر لهم ما في السماوات وما في الأرض، ودائماً المسخَّر له أكرم من المسخَّر، إذا سُخِّر شيءٌ لك فأنت أكرم من هذا الشيء بآلاف المرَّات ..

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

(سورة الجاثية : من الآية 13)

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

(سورة لقمان : من آية 20)

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

(سورة الإسراء)

إذاً :

(قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا)

تقييد العباد بالإيمان والفائدة منه :

لم يقل : قل لعبادي (دون أن يحددهم بقوله : الذين آمنوا)، لأن العبد إذا لم يعرف الله عزَّ وجل لا يأتمر بأمره، ولا ينتهي بنهيه، لذلك يجب أن نعرف الآمر قبل الأمر، فإذا سلك الدعاة في تعريف الناس بأمر الله عزَّ وجل قبل أن يسلكوا معهم طريق معرفة الله عزَّ وجل فالمحصِّلة أن هؤلاء لا يطيعون الله عزَّ وجل، يجب أن تعرف ما عنده من سعادةٍ إذا أقبلت عليه، ويجب أن تعرف ما عنده من شقاءٍ إذا أدبرت عنه، فلذلك :

(قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا)

أسئلة تطرح نفسها :

الذين آمنوا هم الذين يسمعون، هم الذين يستجيبون، وأما الذين آمنوا، فكلمة آمنوا فعل وهذا الفعل يدلُّ على حدوث عمل، فإذا قلت : إنك قد آمنت، متى؟ متى آمنت؟ إذا كان الإيمان خارج اهتماماتك؟ إذا ولدت من أبوين مسلمين وكنت مسلماً بحكم العادة، وتلقَّيت الإسلام بشكلٍ عفوي، فلمَّا كبرت وتيقَّظت الشهوات فيك سرت مع شهواتك، فأيُّ إسلامٍ هذا؟! أي إيمانٍ هذا؟ فالمؤمن هو الذي آمن، والإيمان فعل وحدوث عمل، هل جلست تفكَّر في آيات الله عزَّ وجل حتى يقال إنك قد آمنت .

هل فكَّرت في خلقك حينما كنت نطفةً في بطن أمِّك؟ هل فكَّرت في طعامك وشرابك؟ هل فكَّرت في هذه الحيوانات التي ذلَّلها الله لك؟ هل فكَّرت في الشمس والقمر؟ هل فكرت في البحار؟ هل فكَّرت في الأنهار؟ هل فكرت في كأس الماء الذي تشربه؟ هل فكرت في المحاصيل؟ هل فكرت في الأشجار المثمرة؟ هل فكرت في الفواكه والثمار؟ هل فكَّرت في الخضراوات؟ هل فكَّرت في المجرَّات؟ متى آمنت؟

هل قرأت كتاب الله؟ هل حضرت مجالس العلم؟ هل سألت؟ هل بحثت؟ هل تأمَّلت؟ متى آمنت؟ أخي فلان مؤمن، متى؟

(قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا)

معنى الذين آمنوا أي تحقَّقوا بوجود الله عزَّ وجل، وتحقَّقوا بأسمائه الحُسنى، و " الإيمان ليس بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدَّقه العمل " ، هذا هو الإيمان، أي أنك لمجرَّد أن تعصي الله

عزَّ وجل كأنَّك لا تعرف الله عزَّ وجل، لو عرفته لما عصيته، فكأنَّني أقول لكم : يجب أن نؤمن والدليل قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا ..

(آمِنُوا بِاللَّهِ)

(سورة الحديد : من الآية 7)

يا من تظنُّون أنفسكم مؤمنين آمِنوا بالله، يا من تلقيتم الإيمان عن طريق الوراثة، بحكم العادة، عن طريق التقليد آمِنوا بالله، لأن الإيمان الذي تأخذه بفعل الوراثة لا يصمد أمام الشهوات، لا يصمد أمام الضغوط ولا أمام الإغراءات، الإيمان الذي يصمد والذي لا تزحزحه الضغوط مهما كَبُرَت، ولا المُغْريات مهما تألَّقت هو إيمانٌ بني على بحثٍ ذاتي، أما الإيمان الذي تأخذه عفواً من دون تفكُّر، من دون بحث، من دون تأمُّل فهذا الإيمان لا قيمة له و ..

من أخذ البلاد بغير حربٍ   هان عليه تسليم البلادِ

****

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا)

يا محمَّد أنت رسول ..

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا)

هؤلاء عبادي ..

((لو يعلم المعرضون عني انتظاري إليهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطَّعت أوصالهم من حبّي ولماتوا شوقاً إلي، يا داود هذه إرادتي في المعرضين عني فكيف إرادتي في المقبلين علي ؟))

[ورد في الأثر]

((خلقت لك السماوات والأرض، ولم أعي بخلقهن أفيعيني رغيفٌ أسوقه لك كل حين ؟))

[ورد في الأثر]

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا)

يا رسول الله أتلقي هذه المرأة بولدها إلى النار ؟ فَقَالَ :

((لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا))

[صحيح البخاري عن عمر ابن الخطَّاب]

((إني والإنس والجنَّ في نبأٍ عظيم أخلق ويُعْبَد غيري، وأرزق ويُشكر سواي، خيري إلى العباد نازل وشرُّهم إليَّ صاعد، أتحبَّب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغَّضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيءٍ إليّ، من أقبل عليَّ منهم تلقَّيته من بعيد، ومن أعرض عني منه ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودَّتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنِّطهم من رحمتي إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهِّرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها

وأزيد، والسيِّئَةُ بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأمِّ بولدها، عبدي وحقّك إني لك محب فبحقّي عليك كن لي محبّاً))

[ورد في الأثر]

إذاً :

(قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

منزلة الصلاةفي الإسلام :

ما قيمة الطعام النفيس إن لم تتذوَّقه؟ ما قيمة البيت الفخم إن لم تسكنه؟ ما قيمة السيَّارة الفارهة إن لم تستعملها؟ ما قيمة الإيمان بالله عزَّ وجل إن لم تُقْبِل عليه؟ الله ذاتٌ كاملة مسعدة، أية نفسٍ أقبلت عليه سَعِدَت إلى الأبد، فإذا آمنت بوجوده، ولم تسعد بقربه فما قيمة هذا الإيمان؟

(قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

((الصلاة عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين))

[ورد في الأثر]

((لا خير في دينٍ لا صلاة فيه))

[ورد في الأثر]

((الصلاة ميزان، فمن وفَّى استوفى))

[ورد في الأثر]

((الصَّلَاةُ نُورٌ))

[سنن ابن ماجة عن أبي مالك الأشعري]

((الصلاة طهور))

[ورد في الأثر]

((أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟ قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا))

[مسلم عن أبي هريرة]

إذاً :

(قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

بين الصلاة وإقامة الصلاة فرق :

لم يقل : قل لهم يصلّوا، أي أن وضع شريط حريري وقصَّه عمليَّة سهلة جداً، لكن قبل أن يوضع هذا الشريط، ويُقَص يستغرق هذا المشروع عملاً طويلاً، وجهداً بالغاً، وسنواتٍ طويلة، وأموالاً طائلة عندئذٍ يضعون الشريط الحريري ويقصُّونه، يا أخي قصَّ هذا الشريط، إنَّ قصَّه سهل، أن تذهب إلى المغسلة وتتوضَّأ، وتقف وتقرأ الفاتحة وسورة، وتركع وتسجد فهذه قضيَّة سهلة جداً، لكن ربَّنا عزَّ وجل لم يقل : قل لعبادي ليصلُّوا، بل إنه قال :

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

أي أنك إذا استقمت على أمره، إذا تعرَّفت إليه، إذا طبَّقت أمره، إذا ضحيّت من أجله، إذا نهيت نفسك عن الهوى من أجله عندئذٍ تذهب لتصلي فإذا أنت مصلٍّ، فإذا أنت تتصل، فالعبرة لا أن تقف لتصلي، بل العبرة أن تقيم الصلاة، وإقامة الصلاة أن تستقيم على أمر الله، من إقامة الصلاة أن تفعل الخيرات، من إقامة الصلاة أن تنهى نفسك عن الهوى، من إقامة الصلاة أن تتفكَّر في خلق السماوات والأرض ..

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

يا من ضيع الصلاة واتبع الشهوات :

قل لهم: ليقيموا الصلاة، ليتصلوا بي كي يسعدوا، هذا الأمر العظيم، هذا الأمر الكبير، هذا الأمر الأوَّل في الإسلام ضَيَّعَهُ المسلمون ..

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

(سورة مريم)

لا أدري أهم قد ضيَّعوا الصلاة لأنهم اتبعوا الشهوات أم اتبعوا الشهوات، لأنهم أضاعوا الصلاة؟ كِلا الحالين صحيح، لماذا اتبعوا الشهوات؟ لأنهم أضاعوا الصلاة، لماذا أضاعوا الصلاة؟ لأنهم اتبعوا الشهوات ..

(فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

(سورة مريم)

وهؤلاء الذين أضاعوا الصلاة يلقون غيَّا تحت سمعنا وبصرنا، يكفي أن يتألَّم الإنسان، يكفي أن يقول لك : إني مظلوم، يكفي أن تضيق به الدنيا، يكفي أن يرى المصائب تأتيه من كل مكان ..

(فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

(سورة مريم)

جاء الغي .. " يا رب كم عصيتك ولم تعاقبني "، قال :" يا عبدي كم عاقبتك ولم تدر" ..

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

(سورة مريم)

لو أنَّنا أحكمنا الصلاة الصحيحة لكانت حالنا غير هذا الحال، لكنَّا في سعادة، لكنَّا في سرور، لكنَّا أعِزَّة، لكانت الحاجات متوافرة، الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة، فإذا حرمنا الله منها فحرمانه حرمان تأديب لا حرمان عَجْزٍ، ولا حرمان بخلٍ إنما هو حرمان تأديب ..

(قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

سبحان الله! كيف يقيمون الصلاة؟ كيف تستطيع أن تقيم الصلاة؟ جاء التفسير :

(وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ)

إنما رزقك الله لتنفق :

الأصل أن الله سبحانه وتعالى رزقك من أجل أن تُنْفِقْ، يفهم الناس اليوم أن هذا المال الذي تكسبُه هو من أجل أن تنفقه على رفاهيِّتك، المالُ من أجل المتعة، الزواج من أجل المتعة، الدخل الكبير من أجل البحبوحة والترف، البيت الفخم من أجل التباهي، السيَّارة من أجل تحقيق المُتعة، لذلك في آخر الزمان قيمة الرجل متاعه، في آخر الزمان يستمدُّ الرجل قيمته من متاعه فقط، من موقع بيته، من مساحة بيته، من أثاث بيته، من نوع مركبته، من ثمن الحِلِي التي تضعها المرأة على صدرها، لا أخلاق، ولا علم، ولا قيم، ولا تعاطف، ولا تراحم، ولا مروءة .

من علامات آخر الزمان أن يذهب الحياء من وجوه النساء، وترفع النخوة من رؤوس الرجال، وتنعدم الرحمة من قلوب الأمراء، لا رحمة في القلوب، ولا حياء في الوجوه، ولا نخوة في الرؤوس، هذا من علامات آخر الزمان .

فالإنفاق في سبيل الله أعطاك الله سبحانه وتعالى المال كي تنفقه في طاعته، أعطاك هذه الزوجة كي تأخذ بيدها إليه، أعطاك هذا الابن كي تربّيه تربية صالحة، أعطاك هذا العلم كي تنفقه، أعطاك هذه الخِبْرَة كي تخدم بها المسلمين فترقى عند الله عزّ وجل، يقول لك الآن: هذه العمليَّة تكلّف ثمانين ألفاً، وهذه ثمانمائة ألف، أين أَجْرُهُ عند الله؟ تقاضى ثمنها أضعافاً مضاعفة حتى أنهك المريض، وحتى جعله يبيع بيته، (أخي الطب عمل إنساني)، عمل إنساني إذا كان أجره معقولا، أما إذا كان المريض سيضطَّر إلى بيع بيته من أجل إجراء عمليَّةٍ يأخذها الطبيب ليضيف رقماً فوق ثروته، لم يعد هذا الطبُّ

عملاً إنسانيًّا، بل صار ابتزازاً، وكذلك كل المهن الراقية التي يسمّيها الناس راقية إن لم يكن علمك مسخَّراً لخدمة الخلق تقرُّباً إلى ربِّهم فهذا العلم لا أجر لك به، هذه حرفة تحترفها وتصبح من خلالها غنيًّا مُتْرَفاً، فالإنسان بلا عمل صالح لا قيمة له في الدنيا، لا شأن له عند الله، صغيرٌ في عين الله، أخذ عن كل حركةٍ وسكنةٍ وكلمةٍ مبلغاً طائلاً، يسأل يوم القيامة: يا رب ما لي عندك؟ يقول الله له: ما لك عندي شيء، هل فعلت شيئاً من أجلي؟ أبداً، فلذلك :

(وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ)

الصلاة تكتمل بالإنفاق :

لن تستطيع أن تصلي إلا إذا أنفقت، الاستقامة تُمَهِّدُ لك الطريق، إذا استقمت على أمر الله أزلت كل العقبات من طريقك، فكل معصيةٍ هي عقبة تحول بينك وبين الإقبال على الله عزَّ وجل، كل معصيةٍ عقبةٌ كَؤود تسدُّ عليك الطريق إلى الله، تجد أن الطريق إلى الله ليست سالكة بل فيها حواجز، أما إذا استقمت على أمر الله فقد أزلت كل هذه العقبات هل انتهى الأمر ؟ لا لم ينته الأمر، لابدَّ من السير، لابدَّ من التحرُّك، التحرُّك هو العمل الصالح، والعمل الصالح يرفعك، والعمل الصالح يدفعك، العمل الصالح محرِّك والاستقامة تعبيد الطريق، إذا عُبِّدَ الطريق، ودار المحرّك وصلت إلى الهدف ..

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ)

حرفتك تستطيع أن تصل إلى الله :

ما من واحدٍ منَّا إلا وله حرفة يستطيع من خلال حرفته أن يصل إلى الله عزَّ وجل عن طريق إتقانها، وعن طريق نصح المسلمين، وعن طريق إسعادهم، وعن طريق الإخلاص لهم، هذه الخبرة التي أعطاك الله إياها كن صادقاً فيها، لا تكذب، لا تغش، لا تدلّس، لا تخادع، لا تحلف كذباً، لا يكن همُّك جني المال، ليكن همُّك نصح المسلمين، خدمتهم، إذاً بالعمل الصالح أنت ترقى وهذا هو نصيبك من الدنيا ..

(وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا)

(سورة القصص : من الآية 77)

أما الكفَّار فيقال لهم يوم القيامة ..

(أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا)

(سورة الأحقاف : من الآية 20)

أنتم استهلكتم هذا الذي جعلتكم فيه خلفاء، بالمال ترقى، استهلكته على متعتك الرخيصة، بالزوجة ترقى وتدخل إلى الجنَّة استخدمتها لمتعتك الشخصية، ولم تبال بدينها، أصلَّت أم لم تصلِّ، أتحجَّبت أم لم تتحجَّب، أعرفت ربَّها أم لم تعرفه، المهم أنها في خدمتك وتحقق رغبتك في الحياة، إذاً ضيَّعت الزوجة وكان من الممكن أن تكون سبباً لك إلى الجنَّة، ضيّعت المال وأنفقته في المعاصي، وكان من الممكن أن يكون سبباً لك في دخول الجنَّة، لذلك:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

(سورة الفجر)

هذه مقالة العبد، والله سبحانه وتعالى لم يوافق عليها، يقول بعدئذٍ: كلا ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، إنما عطائي ابتلاء، وحرماني دواء، إذا ضاقت عليك الدنيا لا تظنُّ أن هذا إهانة لك حاشا لله، إذا ضيَّق الله عليك ..

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ(155)الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(156)أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ)

(سورة البقرة)

.. مريضٌ سأل النبي عليه الصلاة والسلام : " يا رسول الله ادعُ الله أن يرحمني "، فتوجَّه النبي عليه الصلاة والسلام إلى الله عزَّ وجل وقال: " يا ربِّ ارحمه "، فقال الله عزَّ وجل في الحديث القدسي :

((كيف أرحمه مما أنا به أرحم؟ وعزَّتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحبُّ أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيِّئَةٍ كان عملها سُقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبةً في ماله أو ولده حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شدَّدت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

الله سبحانه وتعالى لا ينسى أحداً من فضله، وهو المعطي لا يسأل، وهو الغني لا يبخل، وهو الحليم لا يعجز، إذاً :

(وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ)

أنفق ينفق الله عليك :

أنفِق أُنفِق عليك، عبد أنفِق أُنْفِق عليك ..

أنفق بلالاً ولا تخش من ذي العرش إقلالاً

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً)

(سورة البقرة : من الآية 245)

ربُّ العزَّة في عليائه يسأل عبده أن يقرضه لا عن حاجة، ولكن عن تفضّلٍ عليه، أقرضني يا عبدي، اجعل هذا العمل خالصاً من أجلي، ارحم المسلمين، وفِّر لهم حاجاتهم، تلطَّف بهم، خفِّف من آلامهم، ارفع عنهم مآسيهم، اقرض الله قرضاً حسناً، افعل المعروف مع أهله، ومع غير أهله فإن أصبت أهله أصبت أهله، وإن لم تصب أهله فأنت أهله ..

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)

(سورة القصص : من الآية 77)

اجعل علمك في طاعة الله، ابذل علمك للناس، ابذل خبرتك، ابذل مالك، ابذل جاهك، الناس أحياناً بحاجةٍ إلى جاهك، إلى مكانتك، إلى قوَّتك، ابذلها في طاعة الله، انصر الضعيف بها ..

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا)

(سورة البقرة : من الآية 245)

هل تغيث الملهوف؟ دخل رجلٌ على حجرة النبي عليه الصلاة والسلام كُتِبَ في هذه الحجرة من الداخل حديثه الشريف :

((أفضل المعروف إغاثة الملهوف))

[ورد في الأثر]

أفضل أنواع المعروف، هل تغيث الملهوف ؟ هل تتقرَّب إلى الله عزَّ وجل بخدمة خلقه من دون أن تعرفهم من هم، من هم ؟ هذا الذي أمامك من خلق الله، الله خلقه، يحبُّه، هو عبده ولو كان مجوسيَّاً، اخدمه فلعلَّه يُسْلِم ..

(وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ)

الإنفاق مطلق، انفق من مالك، من علمك، من قوَّتك، من جاهك، من مكانتك، من خبرتك .

(سِرًّا وَعَلَانِيَةً)

الإنفاق في السروالعلانية :

لأن هذا الذي تعطيه عبدٌ لله عزَّ وجل وكرامته على الله غالية فإذا أعطيته علانيَّةً فقد جرحته، أنفق سرَّاً صوناً لكرامة الإنسان، وأنفق علانيَّةً إذا كان هناك مشروع، بناء مسجد مثلاً، قد يفكِّر أحدهم في دفع خمسين ليرة فلمَّا دفعت أنت ألف ليرة يقول: لا، عليّ أن أدفع أكثر من ذلك، إذا كان الدفع لا يمسُّ إنساناً ليكن هذا الدفع علانيَة، وإذا كان الدفع يمسُّ إنساناً ليكن هذا الدفع سرَّاً، أنفق سرَّاً وعلانيَّةً .

كيف هو الإنفاق سرا وعلانية :

بعضهم قال : " الفرض يؤدَّى علانيَّة، والنفل يؤدَّى سرًّا "، أي أن الزكاة تؤدَّى علانيَّة، أما الصدقة تؤدَّى سرّاً .

بعضهم قال : " الإنفاق في السر يُطْفِئ غضب الرب "، صدقة السر تطفئ غضب الرب ولكن لماذا؟ لأنها تؤكّد إخلاصك لله عزَّ وجل .. لا تعلم شمالك ما أنفقت يمينك ..

(وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً)

من قبل أن يأتي الموت ..

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)

اعمل قبل أن يأتي يوم لا عمل فيه :

الآن نحن في الدنيا كل شيءٍ له حَل، لو أنَّ لك ذنوباً بلغت عَنان السماء وقلت : يا رب، يقول لك الله عزَّ وجل : " لبّيك يا عبدي "، يا رب أنا قد تُبْت، فيقول لك: " وأنا قد قبِلْت ، يا ربي قد ندمت، " وأنا قد عفوت " ..

((وإذا رجع العبد إلى الله عزَّ وجل نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنِّئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

والله الذي لا إله إلا هو لو تمَّ الصلح مع الله لكنتم في سعادةٍ لا توصف، إذا تُبْتَ إلى الله توبةً نصوحاً، وعاهدته على الطاعة التامَّة عندئذٍ يتجلَّى على قلبك، وإذا تجلَّى على قلبك ليت شعري ماذا خسرت؟ يا رب ماذا وجد من فقدك، وماذا فقد من وجدك؟ الذي وجدك ماذا ضاع منه؟ ضاع منه بيتٌ في الطابق الثالث، لم يضع فيه شيء، تأتيك الدنيا وهي راغمة ، يتجلَّى الله على قلبك فتنسى الدنيا وما فيها، قال أحد العارفين: " لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف " ..

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضا من أحبَّنا

ولذ بحمانا واحتمي بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

***

فما القرب والإبعاد إلا بأمرنـا فلو شاهدت عيناك من حسننـا

الذي رأوه لما ولّيت عنَّا لغيرنا ولو سمعت أذناك حسن خطابنا

***

خلعت عنك ثياب العُجب وجئتنا ولو نسمت من قربنا لك نسمة

لمتَّ غريباً واشتياقاً لقربـــنا ولو ذقت من طعم المحبَّة ذرَّةً

***

لو يعلم الإنسان ما عند الله لزهد في الدنيا، من عرف الله زهد فيما سواه، هؤلاء الذين عرفوا الله وأفنوا عمرهم في طاعته، وفي محبَّته، وفي التقرُّب إليه كانوا هم الرابحين، والذين التفتوا إلى الدنيا وحسَّنوها، وزيَّنوها، وزخرفوها، وانغمسوا في مباهجها هم الخاسرون..

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا)

(سورة الفرقان)

فالشيء الوحيد الذي يندم عليه المرء عندما يموت هو أنه في الدنيا لم يتخذ إلى الله سبيلاً مع الرسول، أثمن ما في الدنيا أن تكون في طريق الحق بصحبة عارفٍ بالله، بصحبة دليلٍ على الله عزَّ وجل، تُحَلِّل وتُحَرِّم وحدك، تفكِّر تفكيراً شخصياً فتقول: هذه حلال ليس فيها شيء، فإذا هي تقطعك عن الله عزَّ وجل، قد تحرِّم ما أحلَّ الله لك، وقد تحلّل ما حرَّم الله عليك، وقد تتيه في الأرض، لكنَّك إذا كنت بصحبة عالمٍ كبير، قال الله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة)

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الكهف : من الآية 28)

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ(27)ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً(28)فَادْخُلِي فِي عِبَادِي)

(سورة الفجر)

((الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ))

[مسند أحمد عن النعمان بن بشير]

أي أن هذا الدرس الأسبوعي يشحن الإنسان بالإيمان، تجد المؤمن بعده يوم السبت، الأحد، الاثنين مثلاً يندفع إلى الصلاة، يغضُّ بصره ، يحرِّر دخله، يخدم الناس، يدعو إلى الله، يوم الاثنين تبدأ الهمَّة بالفتور الثلاثاء، الأربعاء، الخميس، يأتي يوم الجمعة لأخذ شحنةٍ جديدة، فإذا تُركَت الجمعة مرَّتين نكتت نكتةٌ سوداء في قلبه ثم يكون الران، حافظوا على هذه المجالس، وهذه المجالس مائدة الله سبحانه وتعالى، هذه مائدتي، كتاب الله سبحانه وتعالى، وليس من شيءٍ أثمن في الأرض من أن تعرف كلام الله عزَّ وجل .

(قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ)

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8)فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(9)عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

(سورة المدثر)

الموت أقرب شيء للإنسان :

الموت والله الذي لا إله إلا هو أقرب إلى الإنسان من لمح البصر، كنت مع رجل من أهل العلم جلس إلى جانبي .. رحمة الله عليه .. وتحدَّثت معه وبعد أقل من أربعين دقيقة كان ميتاً، بأكمل صحَّةٍ، وأكمل وضعٍ، وأكمل هيئةٍ، كنَّا في مكان تحادثنا ثم خرج إلى البيت، وصل إلى البيت فشعر بضيقٍ فاضطَّجع على سريره، ذهبوا لإحضار الطبيب فلما عادوا إذا هو قد فارق الحياة، لا مرض ولا شيء إطلاقاً .. الموت أقرب إلى أحدكم من شِراك نعله ..كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

[صحيح البخاري من قول سيدنا أبو بكر الصديق]

قد يكون الإنسان في أوجّه ويأتيه ملك الموت، فعلى الإنسان أن يستعد، عليه أنه إذا أصبح أن يقول : قد لا أمسي، وإذا أمسى قد لا أصبح، وإذا خرج قد لا أعود، وإذا دخل قد لا أخرج، وإذا اشترى بيتاً قد لا أسكنه .

حدَّثني صديق يبيع غرف نوم قال لي: جاءني رجل يريد شراء غرفة نوم من أعلى نوع، سمع أن خشب الجوز أحسن شيء، ذهبنا واشترينا الخشب، وعتَّقهم سنتين حتى نشفوا، وظل ستَّة أشهر ينتقي نماذج حتى وجد نموذجاً جميلاً جداً، وكان يزورني في الأسبوع مرَّة أو مرَّتين يتفقَّد الشغل، قال لي: انبطح مرّة تحت الغرفة مخافة أن يكون في الأرجل عقدة من الداخل، بعدما انتهت صار على الغرفة طلب لأنها جميلة جداً، تعال خذها يا فلان، إنني أُدَهِّن الغرفة، دهَّن الغرفة، وركَّب ستائر، تعال خذها، أمهلنا يومين آخرين، بعد هذا الموعد اتصل النجار هاتفياً يوم الخميس فسمع في البيت وضعاً غير طبيعي، فلمَّا أصرَّ، قيل له: مات صاحبها، ثلاث سنوات يهيئ غرفة نوم، ما تمكَّن أن ينام عليها ليلة، قال لي: انبطح انبطاحاً لكي ينظر هل هناك عقدة في الرجل من الداخل؟ أين هو؟ الموت أقرب لأحدنا من شِراك نعله، يجب أن يستعد الإنسان، يستعد بالعمل الصالح، بالاستقامة التامَّة، بتحرير الذمَّة، بإعطاء الناس حقوقها وإلا يكون حسابه عندئذٍ عسيراً ..

((من حاسب نفسه حساباً يسيراً كان حسابه يوم القيامة عسيراً، ومن حاسب نفسه حساباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيرا))

[ورد في الأثر]

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)

معنى : الخلال :

الخلال أي المودَّة، أحياناً يقع الإنسان في ورطة كبيرة ويكون له صديق قوي بمقياس أهل الأرض يتدخَّل فينقذه من هذه الورطة، هذه خلال، وقد يقع في ورطة فيدفع مبلغاً كبيراً فتزاح عنه، إذاً قد تُحَلُّ المشكلات في الدنيا إما بالصداقات وإما بالمراهم أي الدراهم، وأما في هذا اليوم لا بيعٌ فيه ولا خلال، لا وساطة، ولا أن يقال لك: هذه تكلّفك عشرة آلاف هل ستدفعها؟ لو كانت الأرض كلُّها لك، وافتديت بها لا تنجو من عذاب الله عزَّ وجل، فكلمة :

(لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)

تعني الشيء الكثير، لا المال ينفع ولا الصداقات تنفع، لا خلَّة ولا شفاعة ..

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ)

(سورة البقرة : من الآية 254)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة إبراهيم 014 - الدرس (6-9): تفسير الآية 32

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-10-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في الدرس الماضي في سورة إبراهيم عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام إلى قوله تعالى :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنهَارَ (32)وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ(33)وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)

إذا قرأت في الكون عرفت الله :

أيها الإخوة الأكارم ... خلق الله سبحانه وتعالى الكون، وبثَّ فيه آياتٍ دالَّةً على عظمته، فإذا قرأت في هذا الكون عرفت الله عزَّ وجل، والكون بسمائه، وأرضه، وشمسه، وقمره، وليله، ونهاره فيه بابٌ واسعٌ كبير من أبواب معرفة الله سبحانه وتعالى، هذا الكتاب يقرؤه كل إنسان، صفحاته كبيرة، كلماته كبيرة، حروفه كبيرة، أينما تحرَّكت، حيثما ذهبت تُطالِعُكَ آيات الله عزَّ وجل .

ربنا سبحانه وتعالى في هذا المقطع من سورة إبراهيم يذكِّرنا ببعض الآيات الدالَّة على عظمته، فهو سبحانه وتعالى يقول :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

السماوات والأرض (الكون):

فكلمة السماوات والأرض تعني الكون كلَّه، لأننا على الأرض وما سوى الأرض سماء، هذا الكون أو هذه الأرض التي نحن عليها ما حجمُها؟ تعلمون أنَّ اليابسة هي قارَّاتٌ خمس، إفريقيا، وآسيا، وأمريكا، وأوروبا، وأستراليا، هذه القارات الخمس لا يزيد حجمها جميعاً على خُمُس الأرض، والبحر أربعة أخماس، وحجم الأرض بالنسبة إلى الكون كذرَّةٍ في هواء غرفة، لو أنَّك كَنَسْتَ غرفةً في الشتاء، وكانت أشعَّة الشمس داخلها ترى بعض الذرات العالقة في سماء الغرفة، ما حجم الأرض بالنسبة إلى الكون إلا كحجم هذه الذرَّة التي لا وزن لها بالنسبة إلى بيتك أو إلى مدينتك ؟

استقرار الأرض بكل معانيه نعمة عظيمة :

هذه الأرض التي نحن عليها جعلها الله قراراً بمعنى أنَّ الأشياء مرتبطة بها، لولا نظام الجاذبية لما استقرَّ شيءٌ على الأرض، من فضل الله سبحانه وتعالى العميم أنه جعلها قراراً .

وشيءٌ آخر أنه جعلها مستقرة استقراراً تاماً بحيث تبني عليها البيت فوق البيت فوق البيت، وترتاح وتطمئن إلى سكونها، وما الزلازل التي تحدث في بعض بقاع الأرض إلا دليلٌ على استقرارها، لو أن الأرض مهتزةٌ كالزلزال لاستحال العيش عليها .

يعرفنا الله سبحانه وتعالى بعض النعم بأضدَّادها، وبضدِّها تتميَّز الأشياء، لولا أن الأرض تهتز هزاً عنيفاً مما (يقوِّض كل ما عليها)لما عرفت نعمة سكونها التام واستقرارها .

والله سبحانه وتعالى جعلها قراراً بمعنى ثالث، وهو أن الله بث فيها جميع الحاجات إليها، أنت محتاجٌ إلى الهواء، وإلى الماء، وإلى معادن، وإلى طعام، وإلى شراب، وإلى حيوانات، وإلى مواد، وإلى سهول، وإلى جبال، الله سبحانه وتعالى جعلها قراراً تستقر أنت عليها لتوافر كل الحاجات فيها، وجعلها قراراً بمعنى أنها مستقرة، وجعلها قراراً بمعنى أن كل شيءٍ عليها مُنْجَذِبٌ إليها .

شكل الأرض :

شيءٌ آخر .. أما شكل الأرض فهو شكلٌ كروي وهو الشكل الوحيد الذي تمتد عليه الخطوط من دون أن تقف، أي ليس للأرض حروف، المكعب له حرف، والهَرَم له حرف، والمتوازي المستطيلات له حروف، لكن الأرض بشكلٍ دائري، قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ)

(سورة الرعد : من الآية 3)

أي جعلها ممتدة، جعلها متصلة، أينما سرت تعود إلى نقطة البدء .

حركة الأرض :

وشيءٌ آخر جعل ربنا سبحانه وتعالى الأرض متحركة حركاتٍ عدة، يقول ربنا عزَّ وجل :

(وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً)

(سورة الحج : من الآية 5)

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ)

(سورة النمل : من الآية 88)

تدور حول نفسها، وتدور حول الشمس، ويدور محورها المائل حول نفسه في كل خمسة وعشرين ألف عام، ويدور مستوى دورانها حول نفسه، وقد أحصى العلماء لها دوراتٍ عديدة لا نعرف إلا بعضها، فربنا سبحانه وتعالى خلق الأرض التي نعيش عليها، وقال في آيةٍ أخرى :

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

(سورة طه)

إذاً أودع الله سبحانه وتعالى تحت الثرى ثرواتٍ ثمينةً وكثيفةً وهائلة، والله سبحانه وتعالى يقول :

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

(سورة فاطر : من الآية 41)

أي أن الأرض لها مسارٌ حول الشمس، لا تحيد عن هذا المسار، بقدرة قادر، لولا أن الله سبحانه وتعالى يحرِّكها بقبضته لخرجت عن مسارها، ولو أنها خرجت عن مسارها لانتهت، لارتطمت بكوكبٍ آخر وانتهت الحياة من على ظهرها .

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

(سورة فاطر : من الآية 41)

حتى إن مسار الأرض حول الشمس يأخذ شكلاً إهليلجياً، هناك بعدٌ أصغر وبعدٌ أكبر، وفي البعد الأصغر يزيد جذب الشمس للأرض، ولولا أن الله سبحانه وتعالى يزيد من سرعتها كي ينشأ من هذه السرعة قوةٌ نابذةٌ تكافئ القوة الجاذبة، لانجذبت الأرض إلى الشمس ولانتهت الحياة من على ظهرها، ولو أن الأرض انجذبت إلى الشمس كما يقول بعض العلماء ودخلت فيها لتبخَّرت في ثانيةٍ واحدة، من الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا؟ معنى تزول أن تخرج عن مسارها، ومنه زوال الشمس عن كَبِدِ السماء، ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

(سورة فاطر : من الآية 41)

هل عرفته ؟

العناصر الصلبة والغازية والسائلة في الأرض :

شيءٌ آخر، نحن على سطح الأرض نستنشق الهواء، ونستعمل الماء ونشربه، ونبني على الأرض الصُلبة، إذاً في الأرض عناصر صلبة، وعناصر سائلة، وعناصر غازية، من الذي جعل العناصر التي خلقها الله في الأرض متفاوتة في درجة انصهارها؟ لو أن العناصر كلها متساويةٌ في درجة انصهارها لكانت الأرض كلها إما جسماً صلباً، وإما سائلاً، وإما غازاً، الأرض منوَّعة فيها أجسام صلبة، فيها صخر، فيها حديد، فيها أجسام سائلة، فيها عناصر غازية، هذا أيضاً من فضل الله عزَّ وجل ..

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً)

(سورة الحج : من الآية 63)

أما رأيت هذه الآية أيها الإنسان؟ ويقول الله سبحانه وتعالى يقول :

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ)

(سورة الإسراء : من الآية 44)

انتبه إلى هذه الحقيقة : الأرض لها نفس تسبِّح :

أي أن الأرض نفسٌ تُسَبِّحُ لله عزَّ وجل ..

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ)

(سورة الإسراء : من الآية 44)

أما يستحي الإنسان أن يكون الجماد أعقل منه؟ أما يستحي الإنسان أن يكون الجماد أقرب إلى الله منه ؟

شيءٌ آخر مما يؤكد أن الأرض نفسٌ، قال تعالى :

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ)

(سورة الدخان : من الآية 29)

الأرض تتبارك بالمؤمن، فإذا مات غير المؤمن ما بكت عليه السماوات ولا الأرض، و السماوات هي ما سوى الأرض .

قلت لكم قبل قليل: إن السماوات والأرض تعني الكون، وهذه العبارة وردت في كتاب الله مئات المرَّات، وكأن الله سبحانه وتعالى يعني بالسماوات والأرض الكون، والكون ما سوى الله، كان الله ولم يكن معه شيء، فالكون مُحْدَثٌ من قِبَلِ الله عزَّ وجل .

شيءٌ آخر، قال تعالى :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

(سورة الواقعة)

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ

العلماء فهموا هذه الآية على ثلاثة مستويات :

المعنى الأول :

مواقع النجوم هذه الفراغات، هذا الفضاء الخارجي الذي لا يعلم إلا الله إلى أين يمتد، أحدث معلوماتٍ

عرفها الإنسان عن مجرةٍ بعدها عن الأرض ثمانية عشرة ألف مليون سنة ضوئية، مع أن القمر يبعد عنا ثانيةً ضوئية واحدة، والشمس تبعد عنا ثماني دقائق، وقطر المجموعة الشمسية كلها ثلاث عشرة ساعة، ودرب التبَّانة، وهي المجرة التي نحن فيها طولها كلها مائة وخمسون ألف سنةً ضوئية، أما هذه المجرة التي عثر عليها علماء الفلك فهي تبعد عنا ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئية، ومعنى أنها تبعد عنا ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئية، أي أن ضوءها قد وصل إلينا الآن، وكانت قبل ثمانية عشر ألف مليون سنة ضوئية في هذا المكان الذي رأيناها منه، قال ربنا عزَّ وجل :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

(سورة الواقعة)

هذا الفراغ، وهذا الفضاء الخارجي لا يعلم إلا الله أين ينتهي، لا يعلم إلا الله كم يمتد، كلما تقدم العلم عرف العلماء بعض المجرات الجديدة، بل إن بعض المجرات لا تُرى بالتلسكوبات، وإنما تعرف ببعض الإشعاعات الصوتية التي تلقَّتها بعض الأجهزة .

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

(سورة الواقعة)

المعنى الثاني :المعنى الثالث :

المعنى الثاني أن مواقع النجوم، هذه النجوم الكبيرة، لها مواقع كبيرة، فنجم قلب العقرب حجمه بحجم الشمس والأرض مع المسافة بينهما، وهناك نجومٌ في السماء يزيد حجمها على حجم شمسنا آلاف المرات .

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

(سورة الواقعة)

والمعنى الثالث أنها مواقع، وليست موقعاً واحداً، إن هذه النجوم لها مساراتٌ تسير وفق نظامٍ دقيق، ما من نجمٍ في السماء إلا وينطلق في مساره حول كوكبٍ آخر، وهذه آيةٌ كبرى لأن الله سبحانه وتعالى جعل هذا الكون متجاذباً فيما بينه وفق قانونٍ دقيق تحكمه المسافة والكتلة، أو مربع جداء الكتلتين، هذا القانون .. قانون التجاذب .. لولا حركة النجوم لتجمع الكون كله في كتلةٍ واحد وانتهت الحياة، تنشأ بالدوران القوى النابذة التي تكافئ القوى الجاذبة، ويبقى الكون على ما هو عليه بفضل الدوران الدائم .

الله سبحانه وتعالى حينما وصف السماء قال :

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

(سورة الطارق)

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ

أي أن كل كوكبٍ في السماء ينطلق في مسارٍ ويرجع إلى نقطة البدء، إذاً جميع المسارات دائرية أو بيضوية ..

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

(سورة الطارق)

لولا هذه الحركة الدائبة من النجوم لأصبحت النجوم كلها كتلةً واحدة .

حجم الكون :

شيءٌ آخر، حجم الكون لا يعلمه أحد، فإذا سأل سائل: من خلق الله عزَّ وجل؟ نقول له : أأحطت أنت بالكون أولاً؟ أعرفت نهاية الكون؟ أوصلت إلى حدود الفضاء الخارجي؟ أعرفت عدد المجرَّات التي خلقها الله عزَّ وجل على سبيل الحصر؟ أوصلت إلى نهاية الكون حتى تطرح هذا السؤال؟ الكون الذي يبدو لنا لا نهاية له، له نهاية لأنه مخلوق، ولكن فيما يبدو لنا لا نهاية له .

فلذلك قال بعض العلماء : إن في الفضاء الخارجي ثقوباً سوداء فيها ضغطٌ مرتفعٌ جداً، لو دخلته الأرض لأصبحت كالبيضة بالوزن نفسه، ووزن الأرض الذي لا يعقل لو دخلت الأرض في بعض هذه الثقوب السوداء لأصبح حجمها كحجم البيضة بالوزن نفسه، فلا يحيط بهذه الآيات إلا الله سبحانه وتعالى، ولو أمضينا الساعات الطوال، والأيام والشهور، والسنوات والحِقَب لا نستطيع أن نصل إلى تعداد آيات الله التي بثها الله في الأرض، ولكن إعطاءُ القليل خيرٌ من ترك الكثير يقول الله سبحانه وتعالى :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

أي هل عرفته ؟ هل عرفت أن السماوات والأرض من خلق الله عزَّ وجل ؟ هذا الذي يدعوك لعبادته، يدعوك لطاعته، يدعوك لجنةٍ عرضها السماوات والأرض، هو الذي خلق السماوات والأرض، أما قوله تعالى :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

تقديم لفظ الجلالة في الآية يفيد الحصر والقصر :

له معنى دقيق، فهناك اختلاف كبير، لو أن الله سبحانه وتعالى قال : خلق الله السماوات والأرض، وبين قوله تعالى :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

مسافة شاسعة، إن تقديم لفظ الجلالة في هذه الآية يعني أن الذي خلق السماوات والأرض هو الله وحده تقديمٌ على سبيل القصر والحصر .

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

وخلق السماوات والأرض هو نعمة ذكرها العلماء ألا وهي نعمة الإيجاد، وفي آيةٍ أخرى :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام : من الآية 1)

نحن موجودون لهذه النعمة التي أوجدها الله عزَّ وجل، شيءٌ آخر..

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

خلقاً أولياً، وسوف يعيد الخلق مرةً ثانية لقوله تعالى :

(اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

(سورة الروم : من الآية 11)

خلق السماوات والأرض فحقق أسماءه الحسنى، جَسَّدَ أسماءه الحُسنى في خلق السماوات والأرض، وفي إعادة الخلق سيتحقق العدل المُطْلَق، فالفقير والغني، والقوي والضعيف، والصحيح والمريض كل هؤلاء سينالون جزاء أعمالهم بالتمام والكمال .

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً)

وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً

نعمة الماء :

أما إنزال الماء من السماء فهذه نعمةٌ أخرى يتفضل الله بها علينا وهي نعمة الإمداد، أوجدنا وأمدنا، أمدنا بِنِعْمَةِ الطعام والشراب، ونعمة الطعام والشراب أساسها أنه :

(وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ)

الله سبحانه وتعالى الذي خلق السماوات والأرض هو نفسه أنزل من السماء ماءً، الذي خلق أمد، الذي خلق رَزَقَ .

(وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً)

وإنزال الأمطار من السماء موضوعٌ دقيقٌ جداً، تدخل فيه أشعة الشمس، ويدخل فيه تبخُّر ماء البحر، وتشبُّع الهواء ببخار الماء، وتجميع السحاب، وتحريك السحاب، وتفاوت السحاب، وعصر السحاب ..

(وَأَنزَلْنَا مِنْ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا)

(سورة النبأ)

يتم إنزال المطر عن طريق اختلاف درجات الحرارة، وعن طريق اختلاف الشحنات الكهربائية بين السحب، إن إنزال المطر من السماء موضوع معقد جداً، لكن في الآيات شيء يُلْفِتُ النظر هو أن الله سبحانه وتعالى ثبَّت أشياء في خلق السماوات والأرض وحرَّك أشياء، فدورة الأرض حول نفسها ثابتة منذ أن خلقت، ودورتها حول الأرض ثابتة منذ أن خلقت، وحركة الشمس ثابتة، وأشياء تَثْبُت لا تتغير ولا تتبدَّل، هذا الثبات من أجل انتظام الحياة، ولكن في الأرض أشياء أخرى حرَّكها الله سبحانه وتعالى، منها إنزال المطر .

عملية إنزال المطر دليل القدرة :

عملية إنزال المطر عملية بالغة التعقيد، ولكنك أيها الإنسان لا تعرف متى تنزل المطر، قد تشِحُّ السماء بالماء، وقد تنزل الأمطار كأفواه القِرَب، وقد ينزل في ليلةٍ واحدة ما يهْطل في عامٍ بأكمله، هطل قبل أربعة أسابيع في ليلتين ما يساوي نصف أمطار العام الماضي حصراً، إذاً الأشياء التي ثبَّتها الله عزَّ وجل من أجل انتظام الحياة في الأرض، والأشياء التي حركها من أجل أن يبقى الإنسان معلّقاً بالله عزَّ وجل، لو أن الله سبحانه وتعالى ثبَّت هطول الأمطار على الأرض لاستغنى الإنسان عن ربه وشقي باستغنائه، ولكن الله سبحانه وتعالى رحمةً بالعباد لم يجعل للأمطار نظاماً ثابتاً، تكون الأمطار غزيرة في عام، وفي عامٍ آخر تَشِحُّ السماء من أجل أن يتضرع الخلق إلى الله عزَّ وجل .

خصائص الماء :

الماء، هذا الماء الذي أنزله الله من السماء، ماءٌ طاهر، لا لون له، لا طعم له، لا رائحة له، هذا الماء يتبخَّر بدرجاتٍ متدنية، فهو يتبخر في الدرجة أربعة عشر، ولولا هذه الدرجة إذا نظّفت أرض البيت بالماء يبقى هذا الماء طوال الشتاء، ولكن رحمة الله سبحانه وتعالى جعل تبخُّر الماء في درجاتٍ دُنيا، وجعلته يغلي في درجة مائة، وهذا من فضل الله عزَّ وجل كي نستعين به على إنضاج طعامنا، والله سبحانه وتعالى جعله يتبخَّر، ولولا تبخُّرُهُ لما أُشْبِعُ الهواء ببخار الماء، والهواء فيه نسبةٌ من الرطوبة، وهذه مهمةٌ جداً في إنبات النبات، النبات لا ينضج إلا بثلاثة شروط، توافر الرطوبة، والحرارة، والضوء، تبخُّرُ الماء أي تشبع الهواء ببخار الماء هو الذي يعين على إنبات النبات .

شيءٌ آخر تعلمون أننا إذا برَّدنا الماء ينكمش، إلا في الدرجة (4+)فما دون إذا برَّدْنَاهُ يزداد حجمه،

ومن ازدياد حجمه تقل كثافته، إذاً يطفوا الماء المتجمد على سطح البحار وبذلك تبقى البحار دافئة، وتبقى الأسماء حية، وعندما يذوب هذا الجليد السطحي تعود البحار إلى وضعها السائل، وتعود عملية التبخر كما كانت، ولولا هذه الظاهرة لانعدمت الحياة من على سطح الأرض، وهي ظاهرة أن الماء إذا بلغ درجة (4+)يزداد حجمه إذا برَّدته .

والماء كما تعلمون لا ينضغط، وإذا تمدد فلا شيء في الأرض يقف في وجهه، إنه يستطيع أن يشُقَّ أقسى أنواع الفولاذ، لذلك يستخدمون الماء الآن في بعض مقالع الرُخام فيبرِّدونه فيتمدد فيشقُّ الرخام، بهذه الطريقة يستفيدون من هذه الخاصَّة بقلع الرخام من الجبال .

شيءٌ آخر، هذا الماء الذي لا طعم له ولا رائحة له ولا لون له، هذا الماء الذي لا ينضغط، والذي إذا تمدد لا يقف عند حد، هذا الماء له صفة النفوذ، ولولا هذه الصفة لما عاش النبات، إن الماء يمرُّ من أدقِّ المسامات ومن أدق الأوعية والماء أيضاً له صفاتٌ أخرى .

(وَأَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ)

بالماء يخرج النبات :

هذه الباء كما يقول العلماء للسببية .

(فَأَخْرَجَ بِهِ)

لذلك الله سبحانه وتعالى جعل لكل شيءٍ سبباً، فالنبات لا ينبت إلا بالماء أخرج به، إنه دَلَّكَ على الأسباب، ثم أمرك أن تتوكَّل على رب الأرباب، دلك على الأسباب ..

(فَأَخْرَجَ بِهِ)

مبدأ السببية :

الفكر البشري لا يفهم الأشياء بلا سبب، ولا يفهمها بلا غاية، ولا يقبل أن تكون متناقضة، وهذه المبادئ الثلاث هي مبادئ العقل البشري ؛ مبدأ السَبَبِيَّة، مبدأ الغائيَّة، مبدأ عدم التناقُض، إنك لن تستطيع أن تسكت عن مصباح متألقٍ في بيتك إذا عُدْتَ إلى البيت بعد أن خرجت منه وأطفأت بنفسك كل المصابيح، فإذا عُدت إلى البيت ورأيت مصباحاً متألِّقا فمعنى هذا أن إنساناً دخل إلى البيت وأشعل هذا المصباح، لا يستطيع عقلك أن يفهم تألُّقَ المصباح إلا بسبب، كما أنك إذا اشتريت آلةً لا تستطيع أن تفهم بعض أجزائها إلا بالغاية التي صنع من أجلها، هكذا طبيعة الإنسان، يقول الله سبحانه وتعالى :

(وَأَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ)

باء السببية ..

(مِنْ الثَّمَرَاتِ)

نعمة تنوّع الثمار وكمياتها الاقتصادية :

أنواع الثِمار، هذه الثمرات التي خلقها الله سبحانه وتعالى، أولاً كما يقول علماء الاقتصاد : اقتصادية، بمعنى أن شجرة التفَّاح، مثلاً لو أنتجت أربع تفاحات في العام هذا الإنتاج لا يكفي، لا أحد يزرع الأشجار، لابدَّ من أن يكون عدد الثمار عدداً اقتصادياً يغطي كل نفقات المزرعة، فمن منا فكَّر في هذه الناحية .

إن حجم إنتاج أشجار التفاح، أشجار الكرز، أشجار الدُرَّاق، العنب، حجم اقتصادي، بمعنى أن الفلاح يَدْأَبُ ويتعب ويجني بعد هذا أرباحاً معقولةً تجعله متفرِّغاً لهذا العمل.

لو أن الدجاجة باضت في العام بيضة، لكان ثمن البيضة خمسمائة ليرة، أو مائة ليرة، لا أحد يشتري هذا البيض بهذا السعر، إذاً كون الدجاجة تبيض كل يومٍ بيضة هذا اسمه في علم الاقتصاد إنتاج اقتصادي، بعد قليل سيمرُّ معنا أن في كل كيلومتر مكعب من البحر أربعة كيلوات من معدن الذهب، إذا كان ثمن كيلو الذهب ثلاثمائة ألف، فمعنى ذلك أن لدينا في كل كيلومتر مكعب من البحر، مليون ليرة أو أكثر، ولكن لا تستطيع استخراج غرام واحد من الذهب إلا إذا عالجت مائتين وخمسين مليون لتر من ماء البحر، ومعالجة هذا الماء بهذه الكثافة أغلى من ثمن غرام الذهب، إذاً ربنا عزَّ وجل جعل هذه الثمرات بكميةٍ اقتصادية .

لو فكَّرت في هذه الأشجار لوجدت الله :

شيءٌ آخر .. لو أن هذه الشجرة تموت كل عامين، إلى أن تصبح شجرة تحتاج إلى سبع سنوات، تثمر عامين وتموت، قضية غير اقتصادية، لكن أشجار البلح أو التمر تعيش سبعة آلاف عام، وأشجار الزيتون تعيش أربعة آلاف عام، وهناك أشجارٌ كثيرة معمِّرة، وأقل أنواع الأشجار عمراً تعيش عشر سنوات أو عشرين سنة أو ثلاثين سنة، وأيضاً عمر الشجرة متناسب مع حاجة الإنسان .

شيء آخر .. سهولة الإشراف عليها، تزرع الشجرة وتسقيها وانتهى الأمر، ما يجري في داخلها من نمو الخلايا وتفرُّع الجذور، ولكل جذر جذير وله قلنسوة، وله مواد تذيب الصخر الذي أمامه، وكيف تأخذ الشجرة غذاءها من التُراب، وكيف تأخذ حاجتها من الهواء عن طريق الأوراق، وكيف تنمو إلى الأعلى، وكيف تتفرَّع، وكيف تنعقد الأزهار، وتنعقد الثمار، هذا شيءٌ لا دخل لك به .

حدَّثني رجل مختص بالزراعة قال لي: الشيء الذي يلفت النظر ما الذي يحدث إذا امتنع البستاني عن ريِّ الشجرة بالماء ؟ تستهلك الشجرة أول ما تستهلك ماء أوراقها، أول شيء، لذلك بعد أيامٍ عِدَّة أو بعد أسابيع تَذْبُلُ أوراقها، وهذا تنبيهٌ لصاحبها، كأنها تقول له : أنا عطشانة من ذبول أوراقها، فإذا لم يسقها البستاني استهلكت ماء أغصانها الصغيرة، فأغصانها الكبيرة، ففروعها، فجِذْعِها، وآخر ماءٍ تستهلكه الشجرة ماء الجذور، وهذا عكس ما يتبادر إلينا، إذا امتنع البستاني عن ري الشجرة بالماء، بحسب المنطق يجب أن تأخذ ماء الجذور، فلو استهلكت ماء الجذور ويبسَت الشجرة تموت فوراً، لكن رحمة الله بالإنسان جعل هذه الشجرة تسلُك طريقاً عكسياً، تستهلك ماء الأوراق أولاً، ثم ماء الأغصان، وماء الفروع، وماء الجذع، وآخر شيءٍ تستهلكه ماء الجذور، فإذا استهلكته يبسَت وماتت، أي أن البستاني يستطيع أن يتلافى أمره في كل هذه المراحل عدا المرحلة الأخيرة .

(وَأَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ)

انظروا إلى الثمار حجمها وطعمها ولونهاونوعها :

وحجم الشجرة وحجم الثمرة حجمٌ منطقي ومعقول، انظر إلى حجم التفاحة لو أنه أكبر، لو أن التفاحة كالبطيخة، قطعت نصفها وتركت نصفها الثاني لليوم الثاني، فإذا هو مُسْوَد، ذهبت شهيَّتك، حجم التفاحة يمكنك من أكلها في دفعةٍ واحدة، انظر إلى حجم كل ثمرة، إلى حجم الزيتون، إلى حجم التفاح، إلى حجم الدُراق، إلى حجم العنب، لو كان العنب كالبطيخ بهذا الغشاء الرقيق مستحيل أن نأكلها، كيف نأكل العنب؟ جعل الله سبحانه وتعالى كل فاكهةٍ بحجمٍ مناسب، ولو كان حجم البطيخ كالجوز مثلاً، كيف تأخذ بأصبعك اللب الداخلي، مستحيلة، أنظر إلى الحجوم، تجد أن الحجوم مناسبة جداً .

شيء آخر غلاف الثمار، غلاف الدُراق، غلاف الإجاص، غلاف التفاح، غلاف البطيخ غلافٍ قاسٍ، يضعون في السيَّارة ما يزيد على خمسة طن من البطيخ، هذا الذي في الأسفل يبقى سليما بفضل قساوة هذه القِشرة، البطيخ ماء مجمَّد، البطيخ ماء مجمّد في شرايين، لو عصرت البطيخ لكانت نسبة الماء ثمانية وتسعين بالمائة، جعل لها هذه القشرة الصُلبة لتحفظها، موضوع القشور وحده يحتاج لمجلدات كاملة .

موضوع ارتباط الفواكه بالأم، بحث قائم بذاته، لو أمسكت عنقود العنب، وتعلقت به لا ينقطع، فإذا حرَّكته بعكس اتجاهه ينقطع، من المُصَمِّم؟ تمسك التفاحة بكل قوَّتك لا تنقطع، فإذا نضجت ما أن تضع يدك عليها حتى تصبح في كفك، ما الذي أضعفها ؟ الله سبحانه وتعالى .

لو أن الله عزَّ وجل خلق كل هذه الفواكه ولم يخلق البذور ما كنا أحياء إلى هذه الساعة، لو خلق مع

الإنسان كميَّاتٍ ضخمة من الطعام والشراب، لنفدت، أما البذور فهي لاستمرار الحياة، والبذور لها وضعٌ اقتصادي .

حدثني رجل أن غراماً من بذور البندورة يُنْبِتُ طناً من البندورة، الغرام ينبت أضعاف مضاعفة، فالحقيقة فعالم النبات يحوي آيات لا يصدِّقها العقل.

ثم إن طعم هذه الفاكهة، لو كان طعماً كريهاً لا نأكلها، لو كان شكلها قبيحاً لا نأكلها، لو كانت لها رائحة كريهة لا نستخدمها، لو كانت ذات شكلٍ جميل وطعمٍ طيب ورائحة فوَّاحة وليس فيها غذاء كيف نتحرَّك، أين الطاقة؟ ما الذي جمع في الفاكهة الطعم والشكل والرائحة والقِوام والغذاء؟ وهذه المواد التي نطرحها من الفواكه مواد مفيدة جداً، لذلك يُخْطِئ من يتناول الفاكهة عصيراً ، لأن هذا التفل مفيدٌ جداً في امتصاص أكثر ما في الأمعاء من مواد دهنية وكوليسترول، أي يجب أن نأكلها كما خلقها الله عزَّ وجل لا ينبغي أن نغيِّرَ خلق الله عزَّ وجل .

(وَأَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ)

وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ

شيءٌ آخر :

(وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ)

نعمة الفلكوسيرها في البحر بأمر الله :

أي ما الذي جعل هذه البواخر التي تمخُر عباب البحار تطفو على سطح البحار؟ إنها من الحديد، أمسك قطعة من الحديد وألقها في الماء ترسب في أسفله، ما الذي جعل الباخرة تطفو؟ إنه القانون الذي كشفه بعض العلماء، وهو أن في الماء قوةً تدفع الأشياء نحو الأعلى، فإذا أزاحت السفينة ماءً أكبر من حجمها طفَت على وجه سطح الماء، من خلق قوة أكبر الدفع التي في الماء نحو الأعلى ؟ لولا أن الله خلقها لما رأيت سفينةً على البحار، ولكانت البحار أماكن قطْع بين القارَّات بينما هي الآن هَمْزاتُ وصل، إن أجدى الطرق في العالم هي الطرق المائية، لا تعبيد، ولا تزفيت، ولا صيانة، ولا عناية، ولا تحديد، ولا مسارات، إذا صنعت السفينة تمخُرُ في عبابه حيثما تريد، فالبحار لها وظيفةٌ، وهي همزة اتصالٍ بين القارات إذاً :

(وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ)

ماذا عن البحر؟!

أذكر لكم بعض الأرقام عن البحر : يوجد في الكيلو متر مكعب من مياه البحر خمسة وثلاثون مليون طن من مِلح الطعام، ولا يزال العلماء حتى الآن في حيرةٍ في تفسير سبب ملوحة مياه البحر، كما يوجد في مياه البحر ما يزيد على ثمانية وستين معدناً من هذه المعادن؛ الكبريت، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والفسفور، واليود، والحديد، والألمنيوم، والرَصاص، والقصدير، والنحاس، والذهب، بمئات الأطنان في كل كيلومتر مكعب، ما هذه الآية الكبرى التي خلقها الله عزَّ وجل، مياه البحار؟

جعل الله سبحانه وتعالى الأرض متفاوتة في ارتفاعها، ولو سوِّيَت لغمرتها البحار من كل جانب لم يبق على وجه الأرض قطعةٌ يابسة، لو سويت هذه المرتفعات مع المنخفضات، ولكن الله سبحانه وتعالى جعل مرتفعاتٍ، ومنخفضات، ووديانا، وسهولاً، وما شاكل ذلك .

(وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ)

لا تظن أيها الإنسانأن الفلك يجري بقانونك وذكائك :

سخرها، لكن بأمره، فإذا ظن الإنسان أنها تجري بأمره هو غرقت، صنعت في القرن التاسع عشر باخرة من أضخم بواخر العالم، وقد زوِّدَت بأحدث ما في الحضارة الغربية، من أثاث، ومن ثريات، ومن فخامة، وفي أول رحلةٍ لها من بريطانية إلى أمريكا غرقت، ولم تزوَّد هذه الباخرة بقوارب للنجاة، غرقت لأنهم قالوا حينما صنعوها: إن القدر لا يستطيع إغراق هذه الباخرة ..

(لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ)

فإذا ظن الإنسان أنها تجري بأمر الإنسان غرقت .

صنعوا قاعدة استخراج نفط في بحر الشمال والمشروع يفوق حد الخيال لضخامته، مدينةٌ فوق سطح البحر، وظنوا أن هذه المدينة صامدة، جاءتها عاصفةٌ بحريةٌ فكسَّرتها، كلما قال الإنسان: أنا، حَجَّمَهُ الله سبحانه وتعالى، هذه الباخرة التي غَرقتْ كان غرقها درساً من السماء إلى أهل الأرض ..

(وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنهَارَ)

اعرف قيمة الأنهاروما فيها :

والحضارات نشأت مع الأنهار، ما قيمة الشام بلا مياه بردى والفيجة؟ ما قيمة مصر بلا نهر النيل؟ ما قيمة أوربا بلا نهر الدانوب؟ ما قيمة أمريكا بلا نهر الأمازون؟

(وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنهَارَ)

مياهٌ عذبة، أين مستودعاتها ؟ مستودعاتها تفوق حد الخيال .

إن الجبال تحوي أنواعاً منوعة من الصخور، يقولون: هذه مياه معدنية، فيها كالسيوم، فيها مغنيزيوم، فيها بوتاسيوم، فيها أملاح، فيها مواد، فيها يود، فيها كلور، لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى حينما خَزَّنَ مياه الأنهار في الجبال حَلَّ فيها بعض الصخور من أجل أن تغدو هذه المياه صالحة للشرب .

في بعض دول النَفْط يكررون مياه البحار ويحلّونها، ويكلّف اللتر الواحد من هذه المياه ما يزيد على ثلاث ريالات، أي أكثر من اثني عشر ليرة سورية، هذه المياه ليست صالحة للشرب، لأنها مياه مقطَّرة، أما مياه الآبار، مياه الأنهار، مياه الينابيع فهي مياه معدنية، فيها يود من أجل الغدة الدرقية، فيها كلور من أجل الأسنان، فيها كالسيوم من أجل العِظام، يقول لك: مياه معدنية، فهذه المياه آية من آيات الله عزَّ وجل، والله سبحانه وتعالى يقول :

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

(سورة الحجر)

هذا الماء ما أنتم له بخازنين :

أي إن تخزين الماء آيةٌ أخرى، لو أن الله سبحانه وتعالى وَكَلَ إلينا تخزين مياهنا عن كل عام، لاحتجنا إلى مخازن بحجم بيوتنا، ولكن الله من رحمته تولَّى هو تخزين هذه اليماه، وقال تعالى :

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

(سورة الحجر)

فعذوبة الأنهار، والمعادن المنحلة فيها، وطولها كلها آيات دالة على عظمة الله، فنهر النيل من أطول أنهار العالم، ونهر الأمازون من أكثف أنهار العالم، ثلاثمائة ألف متر مكعب في الثانية، هذه كثافة نهر الأمازون، والله سبحانه وتعالى بَثَّ في كل مكانٍ أنهاراً كي يعيش الناس من حولها .

والجُزُر التي خلقها الله، في كل جزيرةٍ ينبوع ماء، وهذا الينبوع لابدَّ من أن تكون خزَّاناته في مكانٍ آخر غير الجزيرة، ولابدَّ من أن تكون المياه تسير في أقنيةٍ تحت البحر، هذا كلامٌ قطعي، جزيرةٌ منبسطة فيها ينبوع ماء لابدَّ من أن يكون هذا الماء يسير إليها من تحت سطح البحر من خزانٍ مرتفع يقع في اليابسة، في بعض الدول أربعة آلاف جزيرة، في كل جزيرة ينبوع ماءٍ يتناسب مع حجمها، هل هذه قشرة تبرَّدت أم هو خلق محكم ؟ إنها تسخير من قبل الله عزَّ وجل

خاتمة استنتاجية :

على كلٍ الذي أرجوه أن الله سبحانه وتعالى ذَكَرَ في هذا الكتاب الكريم آياتٍ كثيرة، ما ذكرها باطلاً إنما ذكرها كي نفكِّر فيها، والتفكُّر في هذه الآيات عبادةٌ من أرقى العبادات، إن أوسع الأبواب لمعرفة الله عزَّ وجل باب الكون، والآيات التي تدلُّك عليه موجودة حولك، حيثما تحركت، أينما جلست، كيفما التفت تجد الآيات تحيط بك من كل جانب، قال تعالى :

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات)

عوِّد تفكيرك أن يجول في ملكوت السماوات والأرض، عوِّد نفسك أن تعرف الله من خلال آياته، لأنك إذا عرفته عَظَّمْتَهُ، وإذا عظمته استقمت على أمره ..

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر : من الآية 28)

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ

(190)

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

لا عبادة كالتفكُّر، تفكر ساعةٍ خير من عبادة ستين عاماً ..

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر : من الآية 67)

أردت من هذا الدرس أن تكون هذه الحقائق بين أيديكم نموذجاً لتفكُّرنا في خلق السماوات والأرض، فخلق السماوات والأرض، المطر، النبات، البحر، الأنهار هذه آياتٌ بيِّناتٌ دالةٌ على عظمة الله سبحانه وتعالى .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة إبراهيم 014 - الدرس (7-9): تفسير الآيات 32 – 34
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-10-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... وصلنا في الدرس الماضي في سورة إبراهيم إلى قوله تعالى :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنهَارَ(32)وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ(33)وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)

وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

هل قابلت هذا الإكرام بتعظيم الله؟

الشمس على عظمتها، والقمر على عظمته مُسَخَّران للإنسان، أيهما أعظم عند الله مكانةً المُسَخَّرُ له أم المُسَخَّر؟ إنه المُسَخَّرُ له، الله سبحانه وتعالى جعل كل ما في الكون مسخراً من أجلك أيُّها الإنسان، أنت ماذا فعلت؟ كيف قابلت هذا الإكرام؟ هل قابلت هذا الإكرام بالطاعة أم بالمعصية؟ هل قابلت هذا الإكرام بالشكر أم بالجحود؟ هل قابلت هذا الإكرام بالعمل الصالح أم بالعمل السيئ؟ هل قابلت هذا الإكرام بذكر الله أم بالغفلة عن الله؟ كيف قابلت هذا الإكرام؟

(وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ)

لا حياة إلا بالشمس :

ما من واحدٍ منَّا إلا وهو يعلم أنه لا حياة من دون الشمس، إنها تَهَبُ الأرض ومن على الأرض الحرارة، ولولا الشمس لأصبحت الحرارة على وجه الأرض أقلَّ من مائتين وخمسين درجة تحت الصفر، ولأصبحت الأرض كوكباً متجمِّداً لا حياة فيها، والشمس تهب الأرض الضوء، والنبات لا ينبت إلا بالضوء، ولولا ضوء الشمس لما أكلت شيئاً، إذا مات النبات مات الحيوان وتبعه الإنسان .

(وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ)

تستنيرون بضوئها، وتدفئون بحرِّها، والشمس تقتل البكتريات، لأن الكائنات الضارَّة لا تعيش إلا في الظلام فإذا جاءت الشمس طهَّرت كل شيءٍ يؤذيك، والشمس كما تعلمون تبعد عن الأرض مائة وستاً

وخمسين مليون كيلو متر، يقطعها الضوء في ثماني دقائق، والشمس أكبر من الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرَّة، أي مليون وثلاثمائة ألف أرض توضع في الشمس، والأرض انظر إليها، تأمَّل حجمها، تأمَّل أبعادها .

وتزيد حرارة الشمس السطحيَّة على ستة آلاف درجة، بينما تزيد حرارة نواتها على عشرين مليون درجة، ولو وُضِعَت الأرض في الشمس لتبخَّرت في ثانيةٍ واحدة، ويقدِّر العلماء عمر الشمس بخمسة آلاف مليون سنة .وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

الشمس والقمر مُسَخَّران للإنسان، ربنا عزّ وجل قال على لسان سيدنا إبراهيم حينما خاطب النمرود، قال :

(فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ)

(سورة البقرة : الآية 258)

كأنك تنفخ في الرماد :

هل تستطيع قوَّةٌ على وجه الأرض أن تغيّر مسار الشمس ؟ أو أن تعطِّل شروقها ؟ أو أن تمنع غروبها؟ أو أن تغيِّر توقيتها ؟ .

(فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ)

معنى : دائبين

أما معنى قوله تعالى :

(وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ)

شيءٌ دقيقٌ جداً هو أن الله سبحانه وتعالى لحكمةٍ أرادها ثَبَّتَ أشياء وحَرَّكَ أشياء، شروق الشمس، وغيابها، وتوقيتها، ومسارها، وفلكها ثابتٌ لا يتغيَّر، ولا يتبدَّل، ولا يتحوَّل، ولا يُعَدَّل، ولا يُعطَّل، هكذا أراد الله عزّ وجل من أجل أن تنتظم حياتنا، لولا شروق الشمس في أوقاتٍ منتظمة لاضطربت حياتُنا، ثبَّت الله عزَّ وجل أشياء كثيرة، لا أحد يقلق أن يستيقظ في اليوم التالي والشمس لم تُشْرِق، وليس في الشرع دُعاء الشروق، هناك دعاء الاستسقاء ولكن لا يوجد دعاء الإشراق، لأن الله عزَّ وجل جعل الشمس هكذا، وأرادها أن تكون ثابتة، ودائبة من أجل استقرار حياتنا، من أجل انتظام حياتنا لأن حركة الشمس، وحركة الأرض، وحركة القمر يتبعها نظام الزمن، فكلمة :

(وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ)

بمعنى استمرار الحركة، عدم تغيُّر الحركة، ثبات نظام الشمس هذا من نِعَم الله عزَّ وجل، ثبَّت ربنا أشياء كثيرة، ثبَّت البذور، إذا زرعت بذر التفَّاح ينبت التفَّاح، ما أحد في تاريخ البشريَّة زرع بذراً ونبت نبات آخر، ثبات إنتاج البذور هذه من نعم الله عزَّ وجل، وهناك أشياء حرَّكها، حرَّك الأمطار، السماء قد تُمْطِر وقد لا تُمْطِر، قد تأتي سنواتٌ خصبة وقد تأتي سنواتٌ شحيحة، لو أن الله سبحانه وتعالى ثبَّت كل شيء بما في ذلك الأمطار، بما في ذلك أجهزة الجسم لاستغنى الإنسان عن ربِّه، وباستغنائه عن ربِّه يشقى بهذا الاستغناء .

تثبيت الأشياء وراءه حكمة بالغة :

دقِّق، وراء الأشياء التي ثبَّتها الله عزَّ وجل حكمةٌ بالغة، ووراء الأشياء التي حرَّكها حكمةٌ بالغة، ثبَّت الشمس والقمر دائِبَيْن، البشريَّة لم تقلق ولا تقلق ولن تقلق من جهة الشمس لأنها مسخَّرة، لكن :

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

(سورة يس)

لكل بداية نهاية :

لابدَّ من يومٍ تنتهي به وظيفة الشمس ..

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)

(سورة التكوير)

الإنسان الغافل يستضيء بنور الشمس، وينعم بدفئِها، ولكنَّه لا يعرف الله من خلالها، إذاً استمتاع الإنسان الغافل بالشمس كاستمتاع البهيمة بالشمس، ولكنَّ المؤمن إذا نظر إلى الشمس رأى الله من خلالها، دَلَّته على الله لأن الشمس آيةٌ من آيات الله الدالَّة على عظمته ..

(لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ)

(سورة فصلت : من الآية 37)

انتقل من المخلوق إلى الخالقفإن المخلوق مسخَّر :

الأقوام السابقة الغافلون عن الله عزَّ وجل عبدوا الشمس، لماذا عبدوها؟ لِمَا رأوا من خيراتٍ ناتجةٍ عنها، لو دقَّقوا، وتأمَّلوا، وفكَّروا لانتقلوا منها إلى خالقها ..

(فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ)

(سورة الأنعام)

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ)

إلى أن قال :

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة الأنعام)

انتقل سيدنا إبراهيم من الشمس إلى الله، والمؤمن ينتقل من كل شيءٍ إلى الخالق، لذلك استمتاع المؤمن بالشمس استمتاعٌ بحقيقتها، واستمتاعٌ بموجِدِها، أي حينما يتأمَّلها ينتقل منها إلى موجدها فيخشع قلبه، فإذا خشع قلبه، انهمرت دموعه، وأقبل على الله عزَّ وجل وعرف أن الشمس كانت دليلاً له إلى الله عزَّ وجل ..

(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ)

(سورة النحل : من الآية 12)

الآية الثانية :

(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ)

أي كل ما في السماء ..

(مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ)

مسخَّراتٌ للإنسان بأمر الله، تأتمر بأمر الله، تتحرَّك، تشرق، تغيب، لها فلكٌ دقيق بأمر الله عزَّ وجل . يقول الله عزَّ وجل في آية أخرى :

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا)

(سورة يونس : من الآية 5)

الشمس ضياء، ضوءها شديد، ضوءها كشَّاف، لكن القمر نور فقط الإنسان يرغب أحياناً إذا أوى إلى فراشه أن يبقى في الغرفة بصيص ضوءٍ يريه معالم الأشياء، كذلك ربنا سبحانه وتعالى من رحمته بنا..

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا)

(سورة يونس : من الآية 5)

أي جعل القمر (نواصة)في الليل .. إذا أطللت من نافذتك إلى الحقل الذي جانب غرفتك ترى معالم الأشياء بضوء القمر ..

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى)

(سورة الزمر : من الآية 5)

أي إن هذا السير له حَدْ، هذه الشمس وسيلة إيضاح إلى أن يأتي يوم الامتحان تُرفع هذه الوسائل، ويُمتَحن الإنسان، ويظهر عمله . شيءٌ آخر :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ)

(سورة الفرقان : من الآية 45)

الظل دليل على الشمس وحركتها :

هذه آية من آيات الله عزَّ وجل، تكون جالساً في بستان فترى ظلَّ الشجرة، يتحرَّك، يكون أصغر من الشجرة بُعَيْدَ الظهر، ثم يمتدُّ الظل إلى أن يصبح في طولٍ مثل طول الشجرة، إلى أن يصبح قدر طولين أي ضعفي طولها، إلى أن يصبح ممتدًّا إلى مسافاتٍ بعيدة، من الذي حرَّك هذا الظل ؟ حركة الأرض الحقيقيَّة أو حركة الشمس الظاهرة، هذه آية، يجب أن تستنبط أنَّ هناك حركة، هناك شيء يتحرَّك، الإنسان الساذج ينظر بعينيه، لكن الإنسان المفكِّر يرى بفكره أشياء لا تراها عينه، هذه العين لا ترى حركة الأرض، ولا ترى حركة الشمس، لكنَّها ترى حركة الظل، وما دام الظل متحرِّكاً فلابدَّ من حركةٍ ما من قِبَل الشمس أو من قِبَل الأرض .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا)

(سورة الفرقان : من الآية 45)

سكون الظل يعني وقوف الأرض عن الحركة، أو وقوف الشمس عن الحركة ..

(ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا)

(سورة الفرقان : من الآية 45)

لولا أشعَّة الشمس لما عرفت حركة الأرض ..

(ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا)

(سورة الفرقان : من الآية 45)

الشمس دليلٌ على الحركة .

(لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

(سورة يس)

هذا الكون بعظمته يسير بنظام عال لا يحيد عنه :

أي أنه تنظيم، الآن لابدَّ للطائرات من قيادةٍ حكيمة في أبراج المطارات، هذه الطائرة تُعطى الخط الأول، خط دمشق باريس مثلاً ، هناك خطوط في الجو، لو أن موظَّفي الأبراج في المطارات أخطئوا وأعطوا طائرتين خطّاً واحداً لكانت كارثة مروِّعة، وهذا ما حدث من قبل، طائرتان كل طائرة فيها أربعمائة راكب تحطَّمتا، ومات جميع ركَّابها، لماذا؟ لأن موظَّف البرج أعطى طائرتين خطَّاً واحداً، لا تستطيع الطائرةُ أن تُقلِعَ من المطارِ إلا بعد أن تأخذ خطاً من برج إقلاعها وبرج وصولها، هذا الخط تستقلُّ به، فإذا طارت طائرةٌ أخرى تُعْطى خطاً آخر أعلى أو أدنى، كم طائرة موجودة في الأرض؟! لنفرض أنهم خمسة آلاف طائرة، أو خمسين ألف طائرة، عدد الموظفين في كل مطار الذين

يعملون على تنظيم حركة هذه الطائرة؟!

كل مجرَّة فيها مليون مليون نجم، وفي الكَوْن العدد الأولي التقريبي حتى الآن التقدير مليون مليون مجرَّة، أي مليون مليون ضرب مليون مليون، أي اثني عشر صفر باثني عشر صفر، أي واحد أمامه أربعة وعشرين صفر، ولم يحدث أن ارتطم نجمٌ بنجم ..

(لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

(سورة يس)

كل نجمٍ له فلكه، كل نجمٍ له مساره، هناك آية أخرى توضِّح هذا المعنى :

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

(سورة فاطر : من الآية 41)

معنى تزول أي أن تخرج عن خطِّ سيرها ..

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

(سورة فاطر : من الآية 41)

أي أن تبقى الأرض في مسارها، والشمس في مسارها، والقمر في مساره، والنجوم في مسارها هذه آيةٌ كُبرى من آيات الله عزَّ وجل، لو أن قطاراً خرج عن سِكَّتِهِ لكانت كارثة كبرى، لو أن قطاراً يمشي على طرف وادٍ سحيق وخرج عن سكَّته لكان كل من في القطار ضحايا، ماذا يحدث؟ لو أن الأرض خرجت عن خطِّ سيرها ودخلت في خطٍّ آخر وارتطم النجمان، لا يبقى على وجه الأرض شيء من عِظَم الصدمة .

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

(سورة الرحمن)

هناك حسابٌ دقيق، قال العلماء: " حدثت بعض الانفجارات في الشمس، فارتفعت حرارتها، وذابت الكتل الجليديَّة في القطبين، لارتفع البحر إلى مسافة ثلاثةٍ وتسعين متراً فوق مستواه الحالي"، ولغَمَرَ ثُلُثَي اليابسة، لو أن انفجاراً حدث في الشمس أذاب هذا الانفجار الجبال الثلجية في القطبين، لارتفعت مياه البحر ثلاثة وتسعين متراً، ولانغمر من الأرض أو من اليابسة ثُلُثاها .

إذاً :

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

(سورة الرحمن)

الآن بعد الشمس عن القمر، بعد الأرض عن الشمس، بعد الأرض عن القمر، بعد القمر عن الشمس، هذه كلُّها وَفْق حساباتٍ دقيقةٍ دقيقة، يقول الله عزَّ وجل في آيةٍ أخرى :

(وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)

(سورة نوح)

الشمس مُتَألِّقة، القمر عاكس ..

(وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)

(سورة نوح)

أي آن الأوان أن ينطلق هذا الفكر من عِقاله، آن الأوان أن يجول هذا الفكر في ملكوت السماوات والأرض ليتعرَّف إلى عظمة الله، ليخشى قلبه، ليستقيم على أمره، ليعمل الصالحات تَقَرُّباً له، ليسعد في الدنيا والآخرة .

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر : من الآية 28)

(وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ)

الشمس والقمر، لا حياة من دون الشمس، لا ضوء، ولا دفء، ولا تعقيم، الحياة تنتهي، فالشمس مسخَّرةٌ لنا .

(وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)

وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

قال ربنا عزَّ وجل :

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ)

(سورة الإسراء : من الآية 12)

سُبْحَانَ اللَّهِ! أَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ ؟

يستمتع أهل الدنيا بالنهار المُشْمِسْ في أيَّام الربيع والخريف، فينطلقون إلى النُزُهات، يستمتعون بالليلة القَمْراء، ينطلقون إلى السَهَرات، إنهم يستمتعون بالليل والنهار كما تستمتع البهائم، ولو أن الإنسان فكَّر في الليل والنهار لرأى الله من خلالهما، لذلك:

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً)

سيدنا النبي اللهمَّ صل عليه كان يقول :

((سُبْحَانَ اللَّهِ! أَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ ؟))

[أحمد]

تجد ظلاماً دامساً، الأشياء لا تُرى، قلق، خوف، إذا سار الإنسان في غابةٍ ليلاً يرى آلاف الأشباح، ينخلع قلبه من الخوف أحياناً، فإذا سار في هذه الغابة نهاراً اطمأنَّ قلبه .

((سُبْحَانَ اللَّهِ! أَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ ؟))

[أحمد]

عندما تكون مسافراً والشمس مشرقة يكون الطريق واضح المعالِم، وأنت مطمئن، فإذا جاء الليل بدأت تُبَحْلِقُ في الطريق، وتتوهَّم أن هذه المركبة قادمةٌ نحوك، وهذه تبتعد، والطريق من اليمين، أين النهار إذا جاء الليل؟ يقول ربنا عزَّ وجل :

(وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة المؤمنون)

اختلاف لها معنيان، إما أن الليل يَتْبَعُ النهار، اختلاف الليل والنهار، وإما تفاوت الليل والنهار في الطول والقِصَر، من جعل الليل يطول في الشتاء والنهار يطول في الصيف ؟ من جعل اختلاف الليل والنهار ؟ إنه الله سبحانه وتعالى، قد يستمتع الإنسان في الشتاء بالليل، يؤذِّن العشاء في وقتٍ مبكِّر، وكما قال عليه الصلاة والسلام :

((الشِّتَاءُ رَبِيعُ الْمُؤْمِنِ))

[مسند أحمد عن أبي سعيد]

((طال ليله فقامه، وقصر نهاره فصامه))

يأتي الصيف حيث النهار الطويل، إن كنت في عملك في الصيف ترى أن الوقت ممتد والليل قصير، وفي الشتاء ترى أن النهار قصير والليل مُمْتَد، فلذلك :

(وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة المؤمنون)

هذا عائدٌ له، من تقديره وحكمته .

الحكمة من إيلاج الليل في النهار :

(تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ)

(سورة آل عمران : من الآية 27)

أَوْلَجَ بمعنى أدخل، انظر ساعة الغروب كيف أن الليل يأتي من هاهنا، والنهار يُدْبِر من هاهنا، إذا نظرت إلى الأفق الغربي ترى أثر ضوء الشمس، ترى الشفق الأحمر، فإذا نظرت إلى الأفق الشَرقي ترى الظلام، تنعكس الآية عند الفجر إذا نظرت إلى الأفق الشرقي ترى خيطاً أبيض، فإذا نظرت إلى الأفق الغربي ترى الظلام دامساً، فربنا عزَّ وجل يقول :

(تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ)

(سورة آل عمران : من الآية 27)

وإيلاج الليل في النهار من أعظم الآيات، ما قولك لو أن الشمس غابت فجأةً ؟ ففي بعض القرى حيث محرِّكات الكهرباء تدور وتتوقَّف في الساعة الثانية عشر ليلاً، تنطفئ الكهرباء قبل الساعة الثانية عشر بعشر دقائق لدقيقةٍ واحدة ثم تعود، إشعاراً إلى أنه قد قَرُبَ وقت انقطاع النور فهيِّئ نفسك للنوم، كذلك لو أن الشمس تنطفئ فجأةً لوقع الإنسان في متاهة، أغراضه مُبَعْثَرَة، أغنامه متفلّتة، حاجاته لم تجتمع بعدُ، أولاده، لكن الشمس تغيب بالتدريج، يغيب قرص الشمس وتبقى الأرض مُنيرة لساعةٍ وربع تقريباً، إلى أن يغيب الشفق الأحمر فهذا هو العشاء، كذلك الشروق، لو أن الشمس تُشْرق فجأةً لحدث انبهار للعيون، لكن حكمة الله عزَّ وجل حينما تشرق الشمس وحينما تكون على مستوى النظر أن تكون الشمس حمراء اللون لا تؤذي شبكيَّة العين، فإذا ارتفعت في السماء أَبْيَضَّ قُرص الشمس وصار النظر إلى الشمس يؤذي العين، حينما تكون الشمس فوق الرأس تكون متوهِّجة، فإذا كانت مقابل العينين كانت الشمس لطيفة، هذه آية من آيات الله عزَّ وجل .

(تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ)

(سورة آل عمران : من الآية 27)

(وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا)

(سورة الأنعام : من الآية 96)

الليل سكنٌ وراحة :

الليل سكون، ترى السكون قد خَيَّمَ على أشدُّ البيوت ضجيجاً في الساعة الثانية ليلاً، لا ترتاح أعصاب الإنسان إلا بالسكون، وسُمِّي المسكنُ مسكناً لأن الإنسان يسكن فيه، ترتاح أعصابه في بيته .

الفضل لله عزَّ وجل في أنه جعل في الأرض نظاماً موحَّداً، حينما تغيب الشمس تأوي المخلوقات إلى أوكارها، والإنسان إلى بيته، والنبي عليه الصلاة والسلام كَرِهَ السهر إلا في حالاتٍ نادرة في طلب العلم، أما أن يسهر الإنسان يمضي هذا الوقت الذي أعَدَّه الله لراحته، أعدَّه الله لاسترجاع نشاطه، أعدَّه الله لصحَّته، يمضي هذا الوقت في حديثٍ فارغ، وفي علاقاتٍ ساذجة لا قيمة لها هذا مخالفٌ للسنَّة، كان النبي عليه الصلاة والسلام لا يتكلَّم بعد العشاء أبداً إلا في حالاتٍ نادرة، لكنَّ هذه الإنارة الشديدة وهذه الأجهزة في البيوت تدعو الناس إلى أن يصبحُ نهارهم ليلاً وليلهم نهاراً، لا يستيقظ قبل الساعة الحادية عشرة، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا))

[مسند أحمد عن علي]

و ..

((ساعةٌ في أوَّل الليل لا تعدلها ثلاث ساعاتٍ في آخره))

[ورد في الأثر]

(وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا)

(سورة الأنعام : من الآية 96)

قرأت ذات مرَّة مقابلة مع طبيب وهو أستاذ في الجامعة، أعرف أن هذا الطبيب ليس له أيُّ اتجاهٍ دينيٍّ إطلاقاً، إلا أنه قال:

[من عاداته التي يصرُّ عليها النوم باكراً والبعد عن السهر حفاظاً على صحَّته]

لو أن الإنسان ألْزَمَ نفسه أن ينام باكراً لذاق طعم الحياة، لأن ..

((لَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لأتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا))

[صحيح البخاري عن أبي هريرة]

((لا تعجز عن ركعتين قبل الشمس أكْفِكَ النهار كلَّه))

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا)

(سورة المزمل)

(أَقِمْ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا(78)وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا)

(سورة الإسراء)

(يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ)

(سورة الرعد : من الآية 3)

يأتي الليل كالغشاء يُغَشّي الأرض ..

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا(1)وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا(2)وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا(3)وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا)

(سورة الشمس)

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا)

(سورة يونس : من الآية 67)

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ)

(سورة الإسراء : من الآية 12)

الليل راحة ..

(وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا)

هذه لام التعليل ..

(لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا)

(سورة الإسراء)

تصورَّ يا أخي لو لم يكن هناك ليل ولا نهار، ألغيت الحسابات كلّها، كم عمرك يا أخي؟ أي عُمُرٍ هذا ؟ لا يوجد عمر، لا أدري، لو أن الشمس مشرقة دائماً لا توجد حركة ..

(لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)

لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ

اختلاف الليل والنهار من أجل معرفة الفصول والشهور والأيام :

لولا دورة الأرض حول نفسها لما كان ليلٌ ولا نهار، لو أنها دارت على مستوىً أفقي لما كان ليلٌ ولا نهار .. لو دارت هكذا والشمس من هنا لصار هذا النصف مشرقاً إلى الأبد، وهذا النصف الآخر مظلمٌ إلى الأبد، لو دارت هكذا .. لا يكفي أن تدور، لابدَّ من أن تدور على محمورٍ غير محور دورانها، إن كان محور الدوران مطابقاً لمستوى محور دورانها حول الشمس يبقى الليل سرمديَّاً والنهار سرمديَّاً ولكنَّها إذا دارت على محورٍ عمودي على مستوي الدوران يكون ليلٌ ونهار، ولكن لا يختلف الليل والنهار، النهار بطول الليل تماماً وتنعدم الفصول .

ما الذي يجعل الفصول ؟ إن محور الأرض مائلٌ هكذا، فالشمس تأتي عموديَّةً على نصف الكرة الشمالي فيكون الصيف، وتأتي مائلةً على نصف الكرة الجنوبي فيكون الشتاء، فإذا دارت الأرض حول الشمس هكذا جاءت الشمس عموديَّةً على نصف الكرة الجنوبي فكان الصيف، وجاءت مائلةً على نصف الكرة الشمالي فكان الشتاء، لولا ميل هذا المحور لما كان صيفٌ ولا شتاء، ولا ربيعٌ ولا خريف، لولا دوران الأرض لما كان ليلٌ ولا نهار، لو دارت على محورٍ أفقيٍّ موازٍ لمستوى دورانها لألغي الليل والنهار، إذا كان المحور مائلاً كان الليل والنهار، وكان اختلاف الليل والنهار، وكانت الفصول الأربعة، تصميم من ؟ هندسة من ؟ ترتيب من ؟ تنظيم من ؟ الله سبحانه وتعالى .

(وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ)

(سورة الإسراء : من الآية 79)

الليل راحة من مشقة النهار :

من نعمة الليل أن الإنسان في أثناء النهار يكون في محلّه، في عمله، في وظيفته، في معمله، في تجارته، مشكلة وراء مشكلة، وراء مشكلة، وراء قضيَّة، وراء قضية، في عملٍ دائب، لولا الليل لكان الإنسان في عملٍ دائب إلى أن يموت، يأتي الليل، يعود إلى البيت، يجلس، يبدأ التأمَّل، يبدأ التفكير، أين

كنت؟ وإلى أين المصير؟ من خلقني؟ قال ربنا عزَّ وجل :

(وَمِنْ اللَّيْلِ)

حيث السكون، الأولاد نائمون، الزوجة نائمة، الأعمال معطَّلة، المحل مُغْلق، الهاتف لا تستعمله، الأمور كلُّها ساكنة ..

(وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ)

(سورة الإسراء : من الآية 79)

بعض الليل للتهجد والعبادة :

كأنَّ الله عزَّ وجل قد خلق الليل من أجل التَهَجُّد، من أجل التأمُّل، من أجل العبادة، لذلك :

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)

(سورة القدر)

لم يقل في نهار القدر، النهار فيه عمل ..

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)

(سورة القدر)

(يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)

(سورة النور : من الآية 44)

حياتنا منوَّعة ؛ فيها ليل، فيها نهار، فيها صيف، فيها شتاء، فيها ربيع، فيها خريف.

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا)

(سورة الفرقان : من الآية 47)

الليل سُبات :

الليل سُبات، هذا الجهاز العصبي يُستَهلك في النهار، فإذا جاء الليل واستراح، وتباعدت الخلايا العصبيَّة، وانقطعت السيَّالة الكهربائيَّة، نام الإنسان، يستيقظ وكأنه لم يتعب من قبل، استعاد كل نشاطه .

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا)

(سورة الفرقان : من الآية 47)

حدَّثني أخ سافر إلى بلد أوروبي أنه فقد النوم دون أن يدرس ما السبب، أول يوم، ثاني يوم، في اليوم الثالث، الرابع، قال لي : عشرين يوماً ما ذُقْتُ طَعْمَ النوم، ذهب إلى الطبيب الأول، فالطبيب الثاني، إلى مستشفى، حاروا في أمره، فاضطرَّ أن يعود إلى بلده، في أول ليلةٍ عاد إلى بلده نام نوماً عميقاً، شيءٌ يحيِّر !!

لو أن الله سبحانه وتعالى سلب الإنسان النوم، وهذا الكلام لا يعرفه إلا من سُلِبَ هذه النعمة، لأن الأرق لا يُحْتَمِل، يكاد الإنسان ينفجر، هذا الذي يذهب إلى فِراشِه ويضع رأسه على الوسادة وينام هذه نعمةٌ لا يعرفها إلا من فقدها .

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا)

(سورة الفرقان : من الآية 47)

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً)

(سورة الفرقان : من الآية 62)

أنت في أثناء النهار في عملك، بالليل في بيتك، بالنهار هناك نشاط وبالليل همود ..

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا)

(سورة الفرقان : من الآية 62)

هذا الذي قلته قبل قليل، حكمة الليل أن تذكر الله فيه، والآية الدقيقة جداً :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ)

(سورة القصص)

أرأيت لو كان الليل سرمديًّا؟!

لو أن الله سبحانه وتعالى أعطى الأمر إلى الأرض وهي بأمره، أن تقف عن الدوران، فبقي الليل مستمرًّا، ماذا يفعل سكّان الأرض؟ لو اجتمعوا واتخذوا قراراً ماذا يفعلون؟ هل تستطيع أقوى جهةٍ على وجه الأرض أن تأمر الأرض بالحركة ؟

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ)

(سورة القصص)

(وَآَيَةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ)

(سورة يس)

شيء دقيق جداً، الأصل هو الظلام، الفضاء الخارجي مظلمٌ ظلامٌ دامس، والشمس استثناءٌ من هذه القاعدة . إذاً :

(وَآَيَةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ)

(سورة يس)

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ)

(سورة الفجر)

الليل يسري، يتحرَّك ..

(هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ)

(سورة الفجر)

ما من ثانيةٍ على وجه الأرض إلا وقد دخل فيها الليل تواً، أبداً، ما من ثانية، الأصحُّ من ذلك أن كل مكانٍ على وجه الأرض له توقيتٌ خاصٌّ للشروق والغروب، ما دامت الأرض كرةً والشمس من هاهنا والأرض تدور إذاً النهار تدريجي والليل تدريجي، ربنا عزَّ وجل قال :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنهَارَ(32)وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)

لا تنسوا كلمة لكم، أي أن الليل والنهار صُمِّما خصيصا لكم أيُّها البشر، هل أنتم شاكرون ؟ هل أنتم ذاكرون ؟ هل أنتم طائعون ؟

(وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)

وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ

هل أنتم سألتموه معشر البشر حتى أعطاكم الكون ؟

قال العلماء: " آتاكم من كل ما سألتموه وما لم تسألوه "، فهل أنتم سألتموه النجوم؟ هل سألتموه المجرَّات؟ هل سألتموه الشمس والقمر؟ هل سألتموه أنواع الأطعمة المنوَّعة؟ هذه الدابَّة تأكل نوعاً واحداً طوال حياتها، هل عرفتم قبل أن تُخلَقوا أن هناك أنواعاً منوَّعة من الطعام سألتموه إيَّاها؟ لا، استنبط العلماء من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى ابتدأنا بالنِعَم من دون أن نسأله إيَّاها، فلمَّا خُلِقنا على وجه الأرض سألناه بعضها ..

(وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ)

ما دام توجد "من" للتبعيض، ومن كل ما لم تسألوه .

هل هذا السؤال بلسان الحال أم بلسان المقال ؟

شيءٌ آخر، هذا السؤال يا تُرى بلسان الحال أم بلسان القال؟ الإنسان أحياناً يسأل الله عزَّ وجل مثلاً: يا رب ارزقني، عملاً صالحاً أتقرَّب به إليك، يا رب ارزقني زوجةً صالحة تُعينني على أمر ديني، هذا

دعاء، يا رب ارزقني بيتاً آوي إليه، ارزقني ولداً ينفع الناس من بعدي، ارزقني مالاً حلالاً أتقوَّى به على طاعتك، هذا سؤال، لكن الإنسان أحياناً لا يسأل، فإذا ربنا سبحانه وتعالى ييسِّر له حاجاته، هو محتاج إلى شيء يقيه البرد، خلق له الصوف، مهما كان البرد شديداً ترتدي هذا اللباس الصوفي فتشعر بالدفء، فجسمك يسأل الله عزَّ وجل بلسان الحال لا بلسان المقال، يأتي الصيف تشعر بالحر فتشتهي فاكهة مفعمة بالماء، يأتي البطيخ، يأتي الشتاء تشتهي الدفء، خلق الله لك الوقود، الحَطَب، أو الوقود السائل، حينما تدخل غرفة تشتعل فيها المدفأة وكنت في بردٍ شديد تُحِسُّ بالنعيم وتقول: والله النار فاكهة الشتاء، هذا الجسد يحتاج إلى الدفء فخلق الله له ما يسدُّ هذه الحاجة، قد يحتاج الرجل إلى إنسانٍ يسكن إليه له تفكير، وله مشاعر .

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(فسألتموه)

إما أن تسأله بلسان الحال وإما أن تسأله بلسان المقال، إذا رأى الأب الرحيم ابنه محتاجاً إلى معطف والشتاء قد اقترب، من دون أن يدري الابن، من دون أن يسأل، يأتي هذا الأب الرحيم بمعطفٍ لابنه قُبيل فصل الشتاء، فالابن لم يسأل لكن حالته تقتضي معطفاً ..

(وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ)

سألتموه بلسان الاستعداد :

شيءٌ آخر، قال بعض المفسِّرين : " وآتاكم من كل ما سألتموه بلسان الاستعداد " .

أحياناً يكون لدى الإنسان إمكانيَّات عالية يجد شيئاً يسدُّ هذه الإمكانات، أحياناً يتوقُ إلى المعرفة فيجد من العلوم ما يسدُّ هذه الحاجة، سألتموه إما بلسان القال، أو بلسان الحال، أو بلسان الاستعداد، أحياناً يوجد عند مخترع شوق إلى أن يخترع شيئاً، فالله سبحانه وتعالى يلهمه الاختراع، لذلك الشيء الثابت أن كل المخترعات الحديثة التي كشفها الإنسان إنما هي في الحقيقة إلهامٌ من الله عزَّ وجل، لأن هذا المخترع عنده استعداد، فجاء الله سبحانه وتعالى وآتاه سؤلَهُ .

سُئل أحد المخترعين واسمه أديسون عن الاختراع فقال: "الاختراع تسعٌ وتسعون بالمائة عرق، بذل جهد، وواحد في المائة إلهام "، أي أن الله سبحانه وتعالى ألهم المخترعين فكرة الطائرة، وفكرة أي جهازٍ يخترعونه، والدليل قوله تعالى :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل)

مَن طلب شيئا بصدق نال مراده :

ألهم الفكرة، وخلق المواد، وخلق الوقود، إذاً تُعْزَى إليه، إذاً إنك تسأله بلسان المقال، أو تسأله بلسان الحال، أو تسأله بلسان الاستعداد .

مثلاً: لو أن الطالب صدق في حلِّ مسألة عويصة في الرياضيّات لألهمه الله حلّها، كأنني أنتقل بهذا الموضوع إلى موضوع الاختيار، أي حينما خلق الله الإنسان على وجه الأرض تَعَهَّد الله عزَّ وجل أن يؤتيه سؤلَهُ، لو أن إنساناً طلب من الله أن يطير في الأجواء لألهمه وسائل هذا الطيران، لو أنه طلب أن يغوص في أعماق البحار آتاه سؤله، لو أنه طلب أن ينقُل صورةً من قارَّةٍ إلى قارَّة لألهمه سؤله، فأي شيءٍ تقع عليه عينك في هذه الأرض إنما هو إلهامٌ من الله عزَّ وجل، ولكن على حسب الطلب، ليس على حسب الطلب غير الصادق بل على حسب الطلب الصادق، أي اصدق في أي شيء تنله، هذا ملخَّص الملخَّص، أيّ شيءٍ إذا صدقت فيه يمكن أن تناله ..

طفل في قرية من القرى النائية حيث العلم معدوم هناك، صار في مستقبل أيَّامه رئيساً للجامعة، انتقل مشياً من قريته إلى أقرب مدينة، عمل في مدرسةٍ بطعامه فقط كي يصبح فيها مدرِّساً، تقلَّب من مدرسة إلى مدرسة إلى أن نال أعلى الشهادات وصار رئيساً للجامعة، لماذا صار كذلك؟ لأنه طلب من الله ذلك..

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا(18)وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا)

استمعوا :

(كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاء وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)

(سورة الإسراء)

أقول لكم : اصدقوا في طلب أي شيء فلابدَّ من أن يحقَّق لكم، أما الشيء الذي لم تصل إليه فلست صادقاً في طلبه، الشيء الذي وصلت إليه أنت صادقٌ في طلبه، والذي لم تصل إليه لست صادقاً في طلبه .

(وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

إنْ كنت عاقلا فاسأل الله الجنة :

إذاً اطلب من الله ما شئت ولابدَّ إن كنت صادقاً في طلبك من أن يحقّق الله طلبك، لكنك إذا كنت عاقلاً فاسأله نعيماً مقيماً، اسأله الدار الآخرة، اسأله شيئاً لا ينتهي بالموت، أي شيءٍ في الدنيا ينتهي بالموت

إلا معرفة الله عزَّ وجل، لذلك لم يسمّ الله سبحانه وتعالى الدنيا عطاءً، إنها أحقر من ذلك ..

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاء))

[سنن الترمذي عن سهل بن سعد]

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَرَّ بِالسُّوقِ دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ فَتَنَاوَلَهُ، فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟ فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ : أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ ؟قَالُوا: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ، لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ : فَوَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ))

[مسلم]

اسأله ما شئت، أي شيءٍ تسأله إيَّاه بصدقٍ يحقّقه لك، ولكن إن كنت عاقلاً اسأله ما لا يفنى، إذا سألته ما يفنى فقد استهلكت هذا العطاء الكبير في أمدٍ يسير، لكنك إذا سألته ما يبقى سعدت بهذا العطاء إلى الأبد .

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا

شيءٌ آخر .

(وَآَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

الفائدة من إفراد لفظ النعمة :

نعمة، بعض المفسِّرين قالوا : الله لم يقل نعم الله، ولكنه قال :

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ)

أي وإن تعدوا الخيرات من نعمةٍ واحدة وهي البصر لا تحصوها، لا تعدُّ خيرات نعمة السمع، لا تعد خيرات نعمة الزوجة، نعمة الأولاد، نعمة الصحَّة، نعمة الخَلْق .

مَن لا يحصي النعمَ عدّاً لا يبلغها شكرا :

شيءٌ آخر في الآية، إن كنتم لا تستطيعون إحصاءها فهل تستطيعون شكرها ؟ أنتم عاجزون عن إحصائها فما بالكم في شكرها، أنتم عاجزون عن إحصائها فقط لا النعم كلها، نعمة واحدة، يعجز البشر جميعاً مجتمعين ومتفرّقين عن إحصاء خيرات نعمة واحدة، فكيف بكل الخيرات؟ وكيف بالشُكر؟ أي

نحن عاجزون عن إحصاء خيرات نعمة واحدة ..

فمثلاً المثانة، لو لم تكن المثانة لكانت حالة الإنسان صعبة جداً، لو كانت ولم تكن مزوَّدةً بالعضلات لكانت حالة الإنسان صعبة جداً، نعمة طَرْح الفضلات، كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا أكل طعاماً يقول :

((الحمد لله الذي أذاقني لذّته، وأبقى فيَّ قوّته وأبعد عني أذاه))

[ورد في الأثر]

نعمة طرح الفضلات، نعمة أن الرئتين تعملان وحدهما بتقدير عزيزٍ عليم، لو أن الله عزَّ وجل أوْكَل هذا العمل لك لما وُجِدَ النوم أبداً تنام فتموت، نعمة ضربات القلب ليست إراديَّة، وإلا ما بقي أحد حياً يقف قلبه لأي سبب فيموت، القلب لا يأتمر بأمرك، هذه نعمة، أي أن نعمة الله لا تحصى ..

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)

الإنسان ظلوم لنفسه كفّار يجحد خالقه :

حينما يغفل عن ربِّه، وحينما يغفل عن آخرته، وحينما يغفل عن المهمَّة التي جاء من أجلها، وحينما يغفل عن معاده، إنه ظلوم يظلم نفسه، وكفَّار يجحد خالقه، أي يظلم نفسه ويجحد نِعَمَ خالقه ..

(إِنَّ الْإِنسَانَ)

إذا غفل عن هذه النِعَم، إذا غفل عن الله، إذا غفل عن الآخرة، إذا انغمس في الدنيا ..

(إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)

يظلم نفسه، وظلمُ النفس أشدُّ أنواع الظلم، ويكفر ربَّه، وليس من جريمةٍ أبشع من أن يكفر الإنسان بربه الذي خلقه من قبل ولم يكن شيئاً .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة إبراهيم 014 - الدرس (8-9): تفسير الآيات 35 – 46
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-10-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

المقطع الأخير : دعاء إبراهيم :

أيها الإخوة المؤمنون ... المَقْطَعُ الأخير من سورة سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام مؤلف من مجموعة أدعيةٍ لهذا النبي العظيم، أبي الأنبياء .

الدعاء هو العبادة :

وقبل الحديث عن مضامين هذه الأدعية لابدَّ من وقفةٍ سريعة في موضوع الدعاء ، فالدعاء كما قال عليه الصلاة والسلام :

((الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ))

[الترمذي عن أنس]

أي أن أبرز ما في العبادة الدعاء، أصل العبادة الدعاء، جوهر العبادة الدعاء، والدعاء صلاة، والصلاة دعاء، إذا دعوت الله عزَّ وجل من كل جوارحك فأنت تصلي بنوعٍ من أنواع الصلاة، وإذا صلَّيت صلاةً صحيحة فأنت تدعو ..

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(سورة غافر : من الآية 60)

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

(سورة البقرة)

إجابة الله دعاء العبد بعد استجابة العبد لربه :

إذا آمن العباد بربِّهم واستجابوا له بطاعته ثم سألوه فلابدَّ من أن يجيبهم، إلا إن كانت الإجابة ليست في صالحهم، عندئذٍ يدَّخِرُ الله لهم ثواباً في الآخرة ..

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

(سورة البقرة)

إلى الدعاء الصحيح .

إن الله عزَّ وجل يحب الملحِّين بالدعاء، إن الله عزَّ وجل يحب من العبد أن يسأله شسع نعله إذا انقطع، من لا يدعني أغضب عليه، فالدعاء كما قال عليه الصلاة والسلام :

((الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ))

[الترمذي عن أنس]

والدعاء صلاة، والصلاة دعاء، وإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله .

((ولا ينفع حذرٌ من قدر ، ولكن ينفع الدعاء))

[ورد في الأثر]

مهما كنت ذكياً، مهما أخذت الاحتياطات المشددة ..

((ولا ينفع حذرٌ من قدر ، ولكن ينفع الدعاء مما نزل ومما لم ينزل))

[ورد في الأثر]

ما هدف الدعاء؟

سؤالٌ دقيق أعرضه عليكم : الأب الرحيم إذا رأى ابنه بحاجةٍ ماسة إلى شيء، هل ينتظر الأب من ابنه أن يدعوه، أم أنه يلبي حاجته قبل الدعاء؟ الله سبحانه وتعالى رحيم، وسميعٌ وبصير، ويعلم السر، وأخفى فلماذا يطلب منا أن ندعوه؟ من هنا يستنبط أن هدف الدعاء ليس قضاء الحاجة، ولكن هدف الدعاء هو انعقاد الصلِةِ مع الله عزّ وجل قد يجعلك الله سبحانه وتعالى مفتقراً إلى الحاجة من أجل أن تدعوه، فإذا دعوته واتصلت به، وسعدت بقربه لبَّى حاجتك لقد جعل الله الحاجة وسيلة لاتصالك، الأصل في الدعاء ليس قضاء الحاجة ولكن الاتصال بالله عزَّ وجل، لذلك :

((ولا ينفع حذرٌ من قدر ، ولكن ينفع الدعاء مما نزل ومما لم ينزل ، فادعوا الله عباد الرحمن))

[ورد في الأثر]

فالدعاء مخ العبادة، نحن مع هذا النبي العظيم أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم ..

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا)

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا

نعمة الأمن في البلاد :

نعمة الأمن لا يعرفها إلا من فقدها .

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

الأمن نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها، ولا يعرفها إلا من فقدها، والأصحُّ لا يعرفها إلا من فقدها .

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

(سورة قريش)

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

ما هو الأمن ؟

نعمة الأمن هي عدم توقُّع المصيبة، تعريف الأمن : عدم توقع المصيبة، لأن توقُّع المصيبة مصيبةٌ أكبر منها، أنت من خوف المرض في مرض، أنت من خوف الفقر في فقر، توقع المصيبة مصيبة أكبر منها، نعمة الأمن لا يعرفها إلا المؤمن، إن الله يُعْطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين، أنزل الله على رسوله السكينة، السكينة أيضاً هي الأمن، هي الشعور بالطمأنينة .

لو أن الإنسان عاش حياةً خالية من المصائب، لكن هذه الحياة لا تطاق إن كانت مفعمةً بالقلق، ينبغي أن تكون السلامة مُرافقةً للأمن، والأمن من عطاءات الله الثمينة للمؤمن، ولكن المؤمن إذا ظَلَمَ قَيْدُ أنمُله يفقد هذه النعمة الكبيرة، ألا وهي نعمة الأمن .

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ)

(سورة الأنعام)

قانون الأمن : لا تظلم :

هل تريد قانوناً للأمن : إيَّاك أن تظلم تشعر بالأمن، فإذا ظلمت الناس، فإذا ظلمت من هم دونك، فإذا ظلمت زوجتك، فإذا ظلمت زبائنك نَزَعَ الله عزَّ وجل من قلبك الأمن، يصبح الفؤاد فارغاً، يصبح قلقاً، يخاف من كل شيء، يتوهم الخوف .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا)

من الأدعية المأثورة :

((اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، وآمنا في أوطاننا، واجعل هذا البلد آمناً سخياً رخاءً وسائر بلاد المسلمين))

[ورد في الأثر]

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ)

وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ

نعمة التوحيد :

هذا دعاءٌ آخر، نعمة التوحيد، يخاف هذا النبي العظيم الشرك بالله إذا عبد الأصنام كائنة ما كانت، الأصنام القديمة تلك التماثيل التي عكف القُدامى على عبادتها، والمال صَنَم القرن العشرين، والشهوة صنم، وكل شيءٍ تعبده من دون الله صنم .

الأصنام أنواع :

إن الله عزَّ وجل يقول :

(أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الجاثية : من الآية 23)

هذا الذي يتبع هوى نفسه يعبد الهوى، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ))

[صحيح البخاري عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

أي جهةٍ تعبدها من دون الله كائنة من كانت، شيئاً مادياً أو معنوياً أو شهوةً خفية، قال عليه الصلاة والسلام :

((إنَّ أخْوَفَ مَا أتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الإِشْرَاكُ باللَّهِ، أمَا إنِّي لَسْتُ أقُولُ: يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلا قَمَرًا وَلا وَثَنًا، وَلَكِنْ أعْمَالا لِغَيْرِ اللَّهِ وَشَهْوَةً خَفِيَّةً))

[ابن ماجة عَنْ شَدَّادِ بْنِ أوْسٍ]

الشهوة صنم، حب الظهور صنم يعبد من دون الله، حب المال صنم، حب العلو في الأرض صنم، الشهوة صنم، الهوى صنم .

(وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ)

افتقر إلى الله تكن أغنى الناس :

لك إلهٌ واحد لا إله إلا هو، هو الحقيقة الكبرى في الكون ولا حقيقة سواه، هذا النبي العظيم يُبدي افتقاره إلى الله عزَّ وجل، إذا افتقرت إلى الله عزَّ وجل فأنت أغنى الأغنياء، وإن استغنيت عن الله عزَّ وجل فأنت أفقر الفقراء ..

ومالي سوى فقري إليك وسيلةٌ　　فبالافتقار إليك فقري أدفع

ومالي سوى قرعي لبابك حيلة　　فإذا رَدَدتَّ فأي باب أقرع

افتقر إلى الله عزَّ وجل يجعلك الله عزَّ وجل أغنى الأغنياء، استغن عن الله يجعلك أفقر الفقراء، من اتكل على نفسه أوكله الله إليها ليعَرِّفَهُ قدرها .

الشركظلمٌ وشقاء :

هذا النبي الكريم يرجو الله عزَّ وجل أن يجنِّبه عبادة الأصنام، لأن فيها شقاءً كبيراً، لأن فيها شقاء الدنيا والآخرة، الإنسان لا يشقى إلا إذا عبد غير الله، لأن غير الله لا يملك له شيئاً، لا نفعاً، ولا ضراً، ولا حياةً، ولا موتاً، ولا نشوراً، ولا تجلياً، ولا إسعاداً، إطلاقاً.

(يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

(سورة لقمان)

أشد أنواع الظلم أن تشرك بالله عزَّ وجل، فالأمن نعمة الدنيا، والتوحيد نعمة الدنيا والآخرة .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ(35)رَبِّ إِنَّهُنَّ)

رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ

هذه الأصنام ..

(أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ)

الأصنام بجميع أنواعها تضل الإنسان :

يحسب الإنسان أن المال كل شيء، يفني حياته في جمع الدِرهم والدينار، ثم يكتشف في آخر الحياة، وفي خريف العمر، وبعد فوات الأوان أن المال ليس كل شيء، إنما هو شيء، وهناك أشياء كثيرة أثمن منه، وليس بالخبز وحده يحيى الإنسان، وليس بالمال وحده يحيى الإنسان، إذا تجلّى الله على قلبه كان أسعد الناس، وإذا حرمه نعمة التجلّي كان أشقى الناس .

(رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ)

أي إن هؤلاء الناس المتهافتين على الدنيا، على شهواتها، على زينتها، على بهرجها، على نسائها، على أماكن العلو فيها، هؤلاء الناس الغارقون في الهوى إنهم ضالون مضلون .

(رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي)

فَمَنْ تَبِعَنِي

الخطيئة والذنب والسيئة والمعصية :

من تبعني ووحَّدَكَ فهو مني، ومن عصاني وأشرك بك فإنك غفورٌ رحيم تغفر له، كيف ؟ المغفرة شفاء النفس من الذنب والتكفير أن تنسى السيِّئة، والعفو أن يعفو عنك الذي اقترفت بحقه الذنب، فرقٌ دقيق بين العفو، والتكفير، والغُفران، كل سيئةٍ لها أثرٌ في النفس، أثر داخلي، هذا الأثر هو الحجاب بينك وبين الله، إذا غفر الله لك هذه السيئة، أو هذا الذنب محا عنك هذا الأثر، وأما السيئة هذا العمل الذي يسوءك، قد يرزقك الله عملاً صالحاً تنسى به هذه السيئة، هذا هو التكفير، من عمل سيِّئَةً كيف يكفِّرها الله عنه؟ يرزقه عملاً صالحاً يجعله ينسى هذه السيئة ..

كمن شتم إنساناً، ثم رآه في اليوم التالي قد غرق في نهرٍ، وهو يستغيث فألقى بنفسه وأنقذه، إنقاذه من الموت المُحقق ينسي هذا الإنسان شتيمة الأمس، هذا هو التكفير، أن يهبك الله عملاً صالحاً تنسى به العمل السيئ، كفر عنهم سيئاتهم، أما السيئة نفسها فلها أثر داخلي في النفس، والمغفرة حينما يأتي نور الله عزَّ وجل، ويشفي هذه النفس من هذا الأثر السيئ الذي يُقِضُّ مضاجع الإنسان، أما العفو فهو أن يعفو عنك الذي ارتكبت الإثم بحقه، أما الشيء الأخير وهو الخطيئة فهو سلوكٌ أخطأ الطريق إلى السعادة، طريق السعادة من هنا فأخطأت الطريق، وسرت باتجاهٍ آخر، فالخطيئة شيء، والذنب شيء،

والسيئة شيء، والمعصية شيء، السيئة تُكَفَّر، والذنب يُغْفَر، والسيئة يُعْفَى عنها، والخطيئة تُصَحَّح .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ)

هذه العلاقة التي قدَّسها الله عزَّ وجل، يقول الله سبحانه وتعالى في بعض الآيات الكريمة :

(فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا)

(سورة البقرة : من الآية 200)

منزلة الأبوة :

كم للأب من مكانة عند الله عزَّ وجل، كأن الله عزَّ وجل يريد منا أن نذكره كما نذكر آباءنا، والعرب في ماضي عهودهم كانوا إذا أرادوا أن يسبوا رجلاً قالوا له: لا أبا لك، إذاً العلاقة المقدسة بين الآباء والأبناء أقرَّها الله سبحانه وتعالى، من علامات قيام الساعة أن يَعُقَّ الرجل أباه ويَبَرَّ صديقه، مع صديقه ملاك ومع أبيه شَرِس، من كان مع أبيه شرساً ومع أصدقائه ملاكاً فهذه علامة من علامات قيام الساعة، يكون الولد غيظاً، والمطر قيظاً، ويفيض اللئام فيضاً، ويغيضُ الكرام غَيْضاً .

(وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ(35)رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي)

(قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)

(سورة هود : من الآية 46)

المخالف لطريق النبي ليس من أهله ولو كان ابنَه :

ابنه .. ليس من أهلك ..

((سلمان منا آل البيت))

[ورد في الأثر]

((أنا جد كل تقي ولو كان عبداً حبشياً))

[ورد في الأثر]

هذه علاقات النسب الدينية، أنت منسوبٌ إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم ما دُمت تقياً، فإن لم تكن كذلك :

((يا فاطمة بنت محمد، أنقذي نفسك من النار أنا لا أغني عنك من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

(قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)

هذه هي العلاقة الواضحة في الإسلام، سيدنا عمر رضي الله عن عمر قال: << يا سعد لا يغرَّنك أنه قد قيل: خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له >> .

الطاعة وحدها تدنيك، والمعصية تبعدك، وقد سُئِلَ الجنيد رضي الله عنه: " مَن ولي الله، أهو الذي يطير في الهواء أم الذي يمشي على وجه الماء؟ قال: " أن تجده عند الحلال والحرام "، فالولاية هي الالتزام .

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال : من الآية 72)

الأصل العمل .

(رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي)

((أنا جَدُّ كل تقي ولو كان عبداً حبشيا))

[ورد في الأثر]

من تبعني فإنه مني ..

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)

(سورة آل عمران : من الآية 31)

(وَمَنْ عَصَانِي)

باب التوبة مفتوح :

فتح هذا النبي الكريم باب التوبة ..

(وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

((أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم))

[ورد في الأثر]

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله عزَّ وجل نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئِّوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

((لو جئتني بملء السماوات والأرض ذنوباً غفرتها لك ولا أبالي))

[ورد في الأثر]

((إذا قال العبد : يا رب وهو راكع، قال : لبيك يا عبدي، فإذا قال : لبيك وهو ساجد قال : لبيك يا عبدي، فإذا قال : يا رب وهو عاصٍ قال الله عزَّ وجل : لبيك لبيك لبيك))

[ورد في الأثر]

((لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ أَضَلَّ رَاحِلَتَهُ بِفَلاةٍ مِنَ الأَرْضِ، فَطَلَبَهَا فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهَا، فَتَسَجَّى لِلْمَوْتِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةَ الرَّاحِلَةِ حِينَ بَرَكَتْ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، فَإِذَا هُوَ بِرَاحِلَتِهِ))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد والعقيم الوالد والظمآن الوارد))

[ورد في الأثر]

(فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

تخلقوا أيها الإخوة الأكارم بهذا الخلق النبيل، إن رأيت إنساناً على معصية فلا تيأس منه، كن حليماً، تأكد أنه إذا رجع إلى الله عزَّ وجل أنسى الله حافظيه والملائكة وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه، إذا رجع العبد إلى الله عزَّ وجل عفا الله عنه، عفا الله عما سلف، الإسلام يهدم ما كان قبله .

(رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ)

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ

هذه هي مكة أول مرة :

مكة المكرمة وادٍ غير ذي زرع، لا نبات فيها، ولا أنهار، ولا شلاَّلات، ولا غابات، ولا جبال خضراء، ولا وديان، ولا سهول خصبة.

(بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ)

لماذا كانت مكةُ واديًا غير ذي زرع؟

يا رب ما حكمة ذلك ؟ لو أن هذه البلد الطيب، لو أنك جعلت مكة المكرمة بلاداً جميلة؛ جبالاً خضراء، ودياناً سحيقة، بُحَيْرات، أنهاراً، شلاَّلات، لأمها الناس جميعاً، ولكن لا يعرف عندها السائح من الحاج .

(رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ

الشيء الوحيد هناك هو الاتصال بالله عزَّ وجل، هذا الذي تتمناه من جمال المكان يُعيق الصلة، يحجُزَكَ عن الصلة .

إذاً: المبالغة في زخرفة المساجد ليس مستحباً، لأن الزخرفة الكثيرة والرائعة قد تصرف المصلي عن صلاته .

(رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

هذا البيت بيتك، وهذا الحَرَم حرمك، وهذه الأرض أرضك .

(رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

إذاً: أثمن ما في حياة الإنسان أن يقيم الصلاة، أن يتصل بالله عزَّ وجل، لذلك البلد الحرام أحب البلاد إلى الله عزَّ وجل، لأن العباد في هذا البلد يُقيمون الصلاة، فإذا ذهب الحاج إلى هناك وكان تائباً، مستقيماً، مُخْلصاً، وأقام الصلاة، وقال: لبيك اللهم لبَّيك، تجلى الله على قلبه فأذاقه حلاوة الإيمان، أذاقه حلاوة القُرْب، أذاقه حلاوة المعرفة، يعود الحاج من هذه الأمكنة الحارة الجرداء، والتي لا نبات فيها، ولا ماء، وقد أفعم صدره سعادةً، ما هو السر ؟

(رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

من ذاق عرف، هل طفت البيت؟ قال: يا سيدي طفت بالبيت ولم أطف برب البيت، قال له أستاذه : لم يصح حَجُّك، في مرة الثانية طاف برب البيت ونسي الأشواط التي طافها، فقال : يا سيدي طفت برب البيت ولم أطف بالبيت، قال : لم يصح حجك يا ولدي، إلى أن قال له: يا سيدي طفت بالبيت وربِّ البيت.

(رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

حكمة بالغة، هذه الأماكن لا يرتادها إلا المؤمنون، لا يبتغيها إلا المخلصون، لا يرجوها إلا الذين يرجون رحمة الله عزَّ وجل .

(فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)

فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ

ليس الخبرُ كالمعاينة :

من ذهب إلى بلد الحرام يعرف معنى هذه الآية .

(وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ)

أي أن ثمرات الأرض كلها تأتيهم، استجاب الله دعوة أبينا إبراهيم إلى نهاية الدوران .

(وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ)

ما من حاجٍ إلا ويذكر لك أنه رأى فاكهةً لم يرها في حياته، أنواع الفواكه التي تُجْبَى إلى هذه البلد هي استجابة الله عزَّ وجل لدعاء أبينا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

(فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ(37)رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ)

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ

قل ما شئت ، وافعل ما شئت فإنك تحت نظر الله :

نفس الإنسان صفحة مكشوفة أمام الله عزَّ وجل، أيَّةُ حركةٍ، أية سكنةٍ، أي خاطرٍ، أي تفكيرٍ، أي هدفٍ، أي طموح، أي صراع، أي مناقشةٍ، أي رغبةٍ، أي نيتةٍ مكشوفةٌ لله عزَّ وجل .

(إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ)

قل ما شئت، هذا الذي تقوله يَعْلَمُهُ الناس، ولكن الذي لا تقوله يعلمه الله عزَّ وجل، من عرف أن الله عزَّ وجل مُطَّلِعٌ عليه طَهَّر سره كما يطهر علانيته، من عرف أن الله مطلعٌ على قلبه طهر علانيته وفق الشرع وطهر سره وفق الحقيقة، هناك الشريعة وهناك الحقيقة، الشريعة تُعْنَى بتطهير الجوارح والاستقامة على شرع الله، والحقيقة تعنى بتطهير النفس من الشوائب ومما سوى الله عزَّ وجل، أوجه تفسيرٍ قاله المفسرون في قوله تعالى :

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(2)وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

(سورة المؤمنون)

اللغو كل ما سوى الله ..

ألا كل شيءٍ ماخلا الله باطل وكل نعيمٍ لا محالة زائل

***

دقات قلب المرء قائلةٌ له إن الحياة دقائقٌ وثواني

***

يمكن أن تُحصى دقائق الإنسان، من عاش ستين عاماً يمكن أن تحصى دقائقه وثوانيه، إذاً كل دقةٍ يدق بها قلبك مضت من حياتك، ما مضى فات، والمؤمَّل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها .

(رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ)

هناك أشخاصٌ لهم موقفٌ حقيقي ولهم موقفٌ مُعْلَن، العبرة بالموقف الحقيقي والله يعرفه .

(وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)

وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ

أصغر شيءٍ في الكون يُسَمَّى شيئا، وهذه من حرف جر زائد .

(مِنْ شَيْءٍ)

أي أن ساق النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء لا تخفى على الله، ليست النملة بل ساق النملة .

(وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

هذا الذي لا يخفى عليه شيء، ولا من شيء، وبيده كل شيء، وإليه مصير كل شيء، وهو أول كل شيء، ألا تعبده ؟ ألا تتعرف إليه ؟ ألا تخشاه ؟ ألا تطيعه ؟

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ

قدرة التصنع النتائج :

على الكِبَر، الله عزَّ وجل على كل شيءٍ قدير، الأسباب أيها الإخوة في علم التوحيد لا تصنع النتائج، إنما قدرة الله عزَّ وجل ومشيئته تصنع النتائج، والأسباب ما هي إلا أشياء رافقت حصول النتائج، لذلك يمكن أن يهبك الله على الكبر غلاماً، ويمكن أن يشفى المريض من مرضٍ عضال، كل شيءٍ على الله هين، هو على الله هين .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ)

إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ :

أيها الإخوة الأكارم ... ما من مؤمن صادق إلا وله مع الله خِبْرةٌ في هذا الموضوع، يدعوه من كل جوارحه، يسأله فيستجيب الله له ليعرفه أنه استمع إلى دعائه، وأجابه، وهو بيده كل شيء، هذه هي حكمة الدعاء أن تعرف أن الله معك، حاضرٌ، ناظرٌ، سميعٌ، قريبٌ، مجيبٌ، وحينما يستجيب لك من أجل أن تحبه، من أجل أن تثق به، من أجل أن تكون معه، من أجل أن تخافه وحده ولا تخاف من دونه أحداً.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ(39)رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ)

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ

تواضع الأنبياء :

هؤلاء الأنبياء العظام على علو قدرهم متواضعون، ماذا قال سيدنا يوسف :

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

(سورة يوسف)

سيدنا إبراهيم :

(رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ)

يقع الإنسان أحياناً بذنب خطير جداً، هو ذنبٌ، وليس بذنب في نظره، إنه العُجْبُ، " رُبَّ معصيةٍ أورثت ذلاً وانكساراً خيرٌ من طاعة أورثت عزاً واستكباراً "، " لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أكبر .. ما الذي يا رب هو أكبر من الذنب؟ العجب .. "، فالأنبياء بمعرفتهم بعظمة الله عزَّ وجل ورؤيتهم الصحيحة متواضعون، مفتقرون، موحِّدون .

(رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي)

ألا تقرؤوا في الفاتحة كل يوم :

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة)

استعن على عبادة الله بالله، استعن على طاعة الله بالله، استعذ من معصية الله بالله، لا ملجأ منك إلا إليك، كن له مفتقراً .

(رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ(40)رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ)

رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ

التقى أحد الصحابة النبي عليه الصلاة والسلام وقد توفي والداه فقال :

((يا رسول الله، هل بقي علي شيءٌ من بر والدي؟ قال: " نعم أربعة أشياء أن تدعو لهما ـ هذا هو الدعاء، رب اغفر لي ولوالدي، رب ارحمها كما ربياني صغيرا ـ وأن تصلي عليهما ـ صلاة الجنازة ـ وأن تنفذ عهدهما ـ إن عهدوا إليك بشيء ـ وأن تصل صديقهما، وأن تصل الرحم التي لم يكن لها صلة إلا بهما، فهذا الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أنس]

(رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ(41)وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ

أيها الظالم لا تغفل ، فهناك من ينتقم منك :

لو أن إنساناً ظلم زوجته وهو في أوج قوته، وفي أوج بأسه، ونشاطه، وغناه، هو يظن لجهله أن الله عزَّ وجل غير مطّلع عليه أو لن يحاسبه، هذا هو الحمق بعينيه، ولكن الحبل مُرخى له، فإذا آن الأوان شُد الحبل فكان في قبضة الرب، عندئذٍ أذاقه العذاب ضعفاً، والذُل أضعافاً، والفقر أضعافاً .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

أحياناً الإنسان لضعف ثقته بالله عزَّ وجل، لضعف يقينه، لضعف توحيده يظن أن الأمور هكذا، لا حساب .

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

(سورة المؤمنون)

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36)أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى)

(سورة القيامة)

لا شيء يُترك سدى :

مستحيل، جامعةٌ ضخمة، أبنية شاهقة، قاعات للمحاضرات، مكتبة ضخمة، حدائق، ملاعب، ولا امتحان، هكذا، أي إنسان دخل لهذه الجامعة يمنح شهادتها، أم لابدَّ من امتحان ؟ والإنسان هكذا .

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

أيعامل المحسن كالمسيء؟ والبخيل كالكريم؟ والشجاع كالجبان؟ واللئيم كالحليم؟ ومن كان في طاعة الله كمن كان في معصية الله؟ من أمضَّى الليل متهجداً كمن أمضَّاه في معصية الله؟ من أمضى الليل متهجداً كمن أمضاه على طاولة حمراء أو خضراء؟ هذا كهذا؟

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ)

(سورة الجاثية : الآية 21)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

يروى أن رجلاً كان مع امرأته يأكلان دجاجاً، طرق الباب طارق قال لزوجته : افتحي الباب، فتحت فإذا بالباب سائل، يقول: من مال الله، همَّت أن تعطيه من هذا الدجاج، فنهرها زوجها وشتمها وطرده، كبراً، وعتواً، وظلماً، واستعلاء، ما هي إلا أشهرٌ وسنوات حتى دَبَّ الخصام بينهما وطلَّقها، وانتظرت في بيتها عدة أشهر إلى أن خطبها خاطب، وتزوَّج بها، وكان غنياً ولطيفاً وحليماً، وكانا يجلسان على مائدة، وطرق الباب طارق، فقال لها زوجها الجديد: افتحي الباب، فتحت وعادت مُضطربة، فقال: ما بك؟ قالت: لا شيء؛ سائل يسأل، قال: ما بك؟ قالت: أتدري من السائل؟ إنه زوجي الأول .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

قال : أتدرين من أنا؟ أنا السائل الأول .

أحياناً الزوج يستعلي، ويُطلّق لأتفه سبب، هو أحمق، لو يعلم أن الله سبحانه وتعالى سوف يقتص لهذه المرأة المظلومة، وسوف يذله، وسوف يفقره، وسوف يجعل من نصيبه امرأةٌ تنسيه طعم السعادة، تُريه النجوم ظهراً كما يقولون لتأخذ حق الأولى .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

قف على هذا أنت، الظُلم ظلمات يوم القيامة، اظلم من شئت، لو أن الإنسان آذى حيواناً ظُلماً وعدواناً، قد يفقد بصره، قد يُدهس تحت سيارةٍ فيُنَكّلُ الله به .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

حدثني .. صديق لي توفيت أمه، ورآها في المنام بحالةٍ سيئة، قلِقَ من أجلها، رآها خلال ثمانية أعوام بحالةٍ لا ترضي، مُقَطِّبَةِ الجبين مزعوجة كأنها تحترق، إلى أن رآها في المنام بحالةٍ طيبة، فقال: يا أُمَّاه ما فعل الله بكِ؟ قالت: كوب الحليب يا ولدي، هو يعرف هذه القصة، كان له أخ من أبيه وكانت تسقي

ابنها من زوجها كوب حليب وابن زوجها نصف كوب حليب وتضيفه ماءً، هذا ظلم، ابنها يجب أن يشرب كوب حليبٍ بأكمله، ابن زوجها نصف كوب، والباقي ماء، ثمانية أعوام كانت تعذَّب في البرزخ إلى أن غفر الله لها .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

كم من امرأةٍ تظلم زوجة ابنها، تظلمها، تُحَمِّلُها ما لا تطيق، تقسو عليها، وكم من زوجٍ يظلم زوجته، وكم من امرأةٍ تظلم زوجها، وكم من أخٍ يظلم أخاه، وكم من بائعٍ يظلم المشتري إذا كان صغيراً أو مسترسلاً، أي (غشيم).

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ(42)مُهْطِعِينَ)

معنى : مهطعين

أي مسرعين ..

(مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ)

مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ

فؤاده هواء أي فارغ من شدة الخوف، وبصره مُسَمَّرٌ في الأرض من شدة خجله وخوفه .

(وَأَنْذِرْ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعْ الرُّسُلَ)

وَأَنْذِرْ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ

.. هذا الموقف العصيب، هذا الموقف الذي سيقفه الإنسان يوم القيامة

(رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعْ الرُّسُلَ)

استجب قبل أن تدعو الله بتأخير الأجل فلا تُجاب :

وها أنتم أيها الإخوة الأكارم تُدْعَوْنَ إلى الله عزَّ وجل، تدعون إلى الله ورسوله واتباع سنته، فإن لم

تفعلوا قلتم هذا القول يوم القيامة :

(رَبَّنَا أَخِّرْنَا فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعْ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ)

الكافر يظن أنه خالد في الدنيا ولا يرى اليوم الآخر :

كأن الكافر سبحان الله يظن أنه مُخَلَّدٌ في الدنيا لا يزول عنها، يعتني ببيته إلى درجة كأنه سيعيش فيه ألف عام، يقول لك: (هذا مواتي)، يعتني بحاجاته كأنه لن يفارق الدنيا .

(أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ)

كنتم تقسمون أنكم في الأرض، ولن تزولوا عنها، هكذا قلتم، وها أنتم أولاء تركتم دنياكم، وتركتم ما خلّفتم وراء ظهوركم، تركتم البيت، والزوجة، والمال، والمركبة، والمتجر، والمكانة، والأولاد، وهذه الليالي التي كنتم تمضونها في معصية الله، كل هذا تركتموه وراءكم ظهرياً .

(أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ(44)وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ)

وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

ابتعد عن مساكن الذين أهلكهم الفهي للعظة والعبرة :

بدل أن نتعظ نقول: هذا مُدَرَّج روماني، ماذا يعني ذلك ؟ هذه آثار التدمريين، ماذا يعني ذلك ؟ هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم فدمَّرهم الله، ألم تتعظوا بهم ؟ الأنباط مدائن صالح، قوم عاد، قوم ثمود، الأهرامات، هذه الآثار تركت لحكمةٍ بالغة من أجل أن نتعظ بمن قبلنا.

خاتمة :

لا تسخو نفسي أن أقرأ الآيات المتبقية من هذه السورة الكريمة فهي آياتٌ مهمةٌ جداً، وسأعود لها إن شاء الله في الدرس القادم بدءاً من قوله تعالى :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ(42)مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ(43)وَأَنذِرْ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعْ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا

أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ(44)وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ(45)وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46)فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ(47)يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(48)وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ(49)سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ(50)لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(51)هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ(52))

هذه الآيات أواخر السور دائماً فيها تلخيصٌ دقيقٌ للسورة كلها، فأرجو الله عزَّ وجل أن يمكننا في الدرس القادم من شرح هذه الآيات بالتفصيل .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة إبراهيم 014 - الدرس (9-9): تفسير الآية 42 – للآخر
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-11-07

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علما، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ

أيها الإخوة المؤمنون ... يقول الله سبحانه وتعالى :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

ما الحكمة من هذا النهي؟

هذه اللام ناهية، والإنسان متى يَنْهَى؟ متى تنهى أخاك عن القلق؟ إن رأيته قلقاً، هذا النهي يعني أن هناك أناساً كثيرين يظنون أن الله غافلٌ عما يعمل الظالمون، لأن هناك أناساً كثيرين يظنون ويتوهمون أن الله غافلٌ جاء قوله تعالى :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا)

إذاً النهي في هذه الآية يقتضي أن هناك من يظن أن الله غافلٌ عما يعمل الظالمون .

كيف يظن الإنسانُ أن الله غافل؟

كيف ظنَّ هذا الإنسان أن الله غافلٌ؟ فكيف تظن أن فلاناً نائم؟ إن رأيته قد أغمض جفنه، لابدَّ أن هذا الذي ظننته نائماً بدا لك منه شيءٌ توهَّمت من خلاله أنه نائم، فإذا أغمض الرجل عينيه وتوهَّمته نائماً فقال لك: لا تحسبني نائماً، فربنا عزَّ وجل ما دام ينهانا عن أن نظنَّه غافلاً عما يعمل الظالمون، هناك أناسٌ كثيرون يتوهَّمون خطأً، يظنون خطأً أن الله غافلٌ عمَّا يعمل الظالمون .
ما الذي بدا لهم من الله حتى توهموا أنه غافل؟ يبدو أن الذي بدا لهم من الله حتى توهموا أنه غافلٌ أنه أَمَدَّ الكفار بالمال والبنين والقوة، يقول ربنا سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران)

يؤكد في آياتٍ كثيرة الله جل جلاله أنه يمدُّ للظالمين مدا، أيضاً، يقول سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام :

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

(سورة البقرة)

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

إذاً: آياتٌ كثيرة في كتاب الله تؤكّد أن الله سبحانه وتعالى يُمِدُّ للكافر، يمده بالصحة، يمده بالقوة، يمده بالمال، يمده بالبنين، لا يزال الله يمد الكافر بالحياة، والقوة، والمال، إلى أن يظن هذا الكافر أن الله سبحانه وتعالى غافلٌ عنه، أو أن الله سبحانه وتعالى لن يحاسبه، و هذا هو الغَلَطُ الكبير .

لماذا يمدّ اللهُ الكافرَ بالقوة وأسباب الرفاه؟

الآن سؤال دقيق: لماذا يمد الله الكافر بالقوة والمال وأسباب الرفاه إلى أن يظن هذا الكافر أن الله غافلٌ عنه؟ إذا كان عندك صانعٌ في محلك التجاري، وأنت من عادتك أنك تأتي هذا المحل في الساعة الثامنة تفتحه بيدك، وتجلس خلف الصندوق حتى نهاية الدوام، ولا يستطيع هذا الصانع أن يقترب إلى الطاولة التي أنت عليها ولا ثانيةٍ واحدة، هل تستطيع أن تكشف ما إذا كان خائناً أم أميناً ؟ لا، مستحيل، لم تتح له فرصة كي يكشف حقيقته، لكنك إذا تغافلت عنه يظهر ما إذا كان أميناً أو خائناً، لا تظهر أمانته، لا يظهر معدنه إلا إذا تغافلت عنه، فهذا التغافل تربوي، ربنا عزَّ وجل يتغافل بمعنى يُمِدُّ الكافر بالمال والبنين والصحة ليمتحنه، هذا المعنى الأول، أي أنه ما كان لهذا الكافر أن يظهر على حقيقته، ما كان لهذا الكافر أن يُكْشَفُ معدنه إلا إذا شعر أن الله غافلٌ عنه، لو أن الله سبحانه وتعالى عاقب العباد على كل غلطةٍ بعقابٍ مباشرٍ تواً وفوراً لما ظهر صدق الصادق ولما ظهر كذب الكاذب، ولما عصى إنسانٌ الله سبحانه وتعالى، لا يعصونه لا خوفاً ولا حباً، ولكن ابتغاء السلامة من العقاب السريع، ربنا سبحانه وتعالى :

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة الملك : من الآية 2)

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون)

علّة الخلق الابتلاء، والابتلاء لا يكون إلا إذا ظننت أن الله غافلٌ عنك، مع أن الله ليس بغافلٍ عن أحد .

إنها كلمة سبقت من الله إلى أجلها :

شيءٌ آخر، آيةٌ ثانية تلقي ضوءاً على هذه الآية، يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

(سورة طه)

أي كان لزاماً إهلاك العصاة، كان لزاماً إهلاكُ الكافرين، كان لزاماً تدمير المنحرفين .

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

(سورة طه)

ما هذه الكلمة التي سبقت من الله عزَّ وجل ؟ أنه خلقنا ليسعدنا، فمدير الثانوية الناجح الذي يتمتع بقلبٍ كبير، وحرصٍ بالغٍ على مصلحة الطلاب، لا يتخذ قراراً بفصل الطالب لأول سببٍ أو لأول ذنبٍ يرتكبه، ليس القصد فصله، القصد تهذيبه وتعليمه، لذلك يتأخَّر في إنزال العقوبة القانونية بالطالب المقصر، لأنه حريصٌ على مستقبله، هذا مثل .

لو أن العبد ارتكب ذنباً يستحق الهلاك، فأهلكه الله لمات كافراً ولدخل النار إلى الأبد، ولكن هذه الكلمة؛ وهي أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليسعدهم، هذا الذي يؤخِّر العقاب، هذا الذي يجعل الكافر يتوهَّم أن الله غافل، الله ليس بغافل، ما من شيءٍ، ما من حركةٍ، ما من سكنةٍ، ما من لفظٍ إلا والله سبحانه تعالى عليه رقيبٌ وشهيد .

حينما يتوهَّم الإنسان أن الله غافلٌ يكون قد ارتكب حماقة ما بعدها حماقة، حينما يظن الإنسان أن الله غافلٌ عن عمله يكون قد وقع في خطأٍ كبير، حينما يتوهَّم الإنسان أن الله لن يحاسب أحداً، ولن يعاقب أحداً، لأنه يرى أن الله يعطي فلاناً صحة ومالاً وجمالاً وذكاءً، وهو يزداد كفراً وفسقاً وفجوراً، إياك أن تستنبط من هذا أن الله غافل، إياك أن تستنبط، أن الله إذا أعطى الإنسان قوةً ومالاً وجمالاً وذكاءً هو غافلٌ عنه .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

إياك أن تظن أن الله غافل :

يقول ربنا سبحانه وتعالى :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا)

(سورة الأنعام : من الآية 11)

معنى ثم هذه على التراخي .

(كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

أي أن هذا المكذّب قد يمده الله بالمال، وبالقوة، وبالذكاء، وبالجمال، ويزداد علواً في الأرض، وينغمس في الملذات والشهوات، ولكن بعد حين تأتي البَطْشَةُ الكبرى، يقول الله سبحانه وتعالى :

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

فمن البلاهة، والغباء، والحُمْق أن يتوهم الإنسان أن الله غافل :

(لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ)

(سورة البقرة : من الآية 255)

(وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا)

(سورة الأحزاب)

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

(سورة المجادلة)

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

(سورة غافر)

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

(سورة ق)

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ)

(سورة الأنفال : من الآية 24)

نفسك صفحةٌ مكشوفةٌ عند الله عزَّ وجل، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، إن الله يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمَّاء في الليلة الظلماء .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

إذا ظلمت إنساناً، وظننت أن الله غافلٌ فهذا هو محض الحُمْق، هذا الذي يظلم زوجته، يظلم شارياً من دكانه، يبيعه بضاعة فاسدة، يبيعه بضاعةً قد انتهى مفعولها، يوهِمه أنها من مصدرٍ وهي من مصدر آخر، ويظلمه بهذا، ويظن أن هذا ذكاء، وهذا بيعٌ وشراء، وهكذا التجارة، فهو في حمقٍ شديد، سيدفع

الثمن غالياً، سيكال له الصَّاعُ صاعين .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

هذا الذي يظلم زوجته، يُرْهِقُها بما لا تطيق، يظلمها بالنفقة، يظلمها بالعمل، ويظن أن هذه الزوجة لا أحد من أقرباء يستطيع أن يدافع عنها فقد وقع في غَلَطٍ كبير .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

والقِصَصُ على هذه الآية لا تعدُّ ولا تحصى، وقد سمعت عن إنسانٍ عَذَّبَ حيواناً لسببٍ تافه، وبعد عشرين عاماً عُذِّبَ هذا الإنسان بالطريقة نفسها التي عَذَّبَ بها الحيوان، كيف مات هذا الحيوان على يديه كانت موتة هذه الإنسان على يد إنسان آخر بالطريقة نفسها .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، قَالَ: فَقَالَ: وَاللَّهُ أَعْلَمُ: لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا، وَلَا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا، وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[البخاري]

لو أنك تلبَّسْتَ بظلم هِرَّةٍ فالله سبحانه وتعالى لا يغفل عنها، لا يغفل عن هذا الظلم .

((يا عبادي، إني حرَّمت الظلم على نفسي، وجعلته محرماً بينكم فلا تَظَّالموا))

[مسلم عن أبي ذر]

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا)

(سورة النساء)

(وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

(سورة الأنبياء)

(فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

(سورة الروم : من الآية 9)

مستحيل أن يظلمهم الله عزَّ وجل ..

(وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

إذاً: هناك من يتوهَّم أن الله غافلٌ عما يفعل الإنسان، إذا عاملت حيواناً، إذا عاملت هرةً، إذا عاملت طفلاً، إذا جاءك طفلٌ يشتري حاجة، هذا الطفل لا يستطيع أن يحاسبك، إذا ظلمته فسيأتي من يقول لك كلاماً ترتعد له فرائصك، هذا الذي يأتيك، وأنت في غفلة يقول لك: أين وثيقة هذه البضاعة، أين

هويَّتك؟ هذا قد يأتي بعد أن تكون قد تلبست بظلمٍ .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

في بيعك، وشرائك، في بيتك، في طريقك، في أية حركة، في أية سكنة، في أية علاقة، في أية معاملة، إياك أن تظن أن الله غافلٌ .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

ضع يوم الحساب نصب عينيك قبل أن يشخص بصرك فيه :

هذا هو اليوم الموعود، يوم الحساب .

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة يس)

هذا اليوم يوم الدين، يوم الدينونة، يوم يدين الإنسان للحق سبحانه وتعالى ..

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ(99)لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة المؤمنون)

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ(104)أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ(105)قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ(106)رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(107)قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ)

(سورة المؤمنون)

(إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

شخوص البصر كِناية عن شدة الخوف، من شدة الخوف يَشْخُصُ بصره .

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ(1)وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ(2)عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ(3)تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً(4)تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ(5)لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ)

(سورة الغاشية)

إذاً ..

(إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

لذلك الإمام علي كرَّم الله وجهه قال: << الغنى والفقر بعد العرض على الله >> .

تُبقبل أن يُغلق الباب فلا يُفتَح :

البطولة أن تقف في هذا اليوم وأنت قد زُحْزِحْتَ عن النار :

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران)

ليست البطولة أن تدخل مع خصمك في المحاكم حتى تنتزع منه البيت وتقول : أنا بطل، لا، البطولة أن تنجو غداً من عذاب الله، أن تنجو غداً من نار جهنم، أن تقف بين يدي الله عزَّ وجل ولا شائبة عليك.

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ)

(سورة الحجر)

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِي(19)إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِي(20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24)وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِي(25)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِي(26)يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ(27)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي(28)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيه)

(سورة الحاقة)

أيها الإخوة الأكارم، نحن أحياء جميعاً، وما دمنا أحياء فباب التوبة مفتوح، باب الإصلاح مفتوح، أيُّ ذنبٍ مهما عظم يُغْفَر ما دام في القلب نبضٌ، ما دام قلبك ينبض فأكبر ذنبٍ يغفر، أما إذا جاء ملك الموت فلا توبة عندئذٍ ..

(وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ)

(سورة النساء : من الآية 18)

(أَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس : من الآية 91)

قال فرعون آمنت برب هارون وموسى .

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس : من الآية 90)

قال :

(أَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس : من الآية 91)

هذا إيمانٌ جاء بعد فوات الأوان، لا فائدة منه، البطولة أن تؤمن وأنت صحيحٌ شحيح، وأنت في أوْج شبابك، وأنت في أوج قوتك، وأنت في بحبوحة، وأنت في صحة، وأنت في سلام، هذا هو الإيمان العظيم، ما دام القلب ينبض فباب التوبة مفتوح .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ(42)مُهْطِعِينَ)

انظر إلى حال الكفار يوم الحساب :

مسرعونإلى الحساب كرهًا :

أي مسرعين إلى تلبية نداء ربِّهم بالحساب، ليس هناك تلكُّؤ، قد تدعى أنت في الدنيا لحسابٍ ما، تدعي أنك مشغول، تتهرَّب من التبلغ، تقول: لست متفرِّغاً لهذا الحساب، هذا يحدث في الدنيا، أما يوم القيامة حينما يُدعى الناس للمثول بين يدي الله عزَّ وجل لا يستطيعون التخلُّف، ولا التأخُّر .

(مُهْطِعِينَ)

بمعنى مسرعين ..

رافعون رؤوسهم من شدة الخوف :

(مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ)

أي رافعي رؤوسهم من شدة الخوف .

(لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ)

تطرف أعينهم خوفا :

أعلى درجات الخوف ألا تطرُف عين الإنسان .

(لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ)

قلوبهم فارغة :

هذا وصفٌ دقيق، معنى هواء أي فارغة، وهذا يؤكد أنه لا فراغ تام في الأرض، أي فراغ يشغله الهواء مباشرةً، أي فراغ يشغله الهواء .

(وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ)

بمعنى أنها فارغة، خائفة، وجِلة .

(وَأَنذِرْ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعْ الرُّسُلَ)

وَأَنذِرْ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ

هذه مقولة الكسالى :

هذا الذي يقع فيه الناس في المستقبل، قولتُهم المشهورة كما يقول الطُلاَّب الكُسالى في الصف إذا جاء وقت الامتحان: يا أستاذ أخِّر لنا الامتحان، لا يطالب بتأخير المذاكرة إلا الطالب الكسول، وهؤلاء يوم القيامة يطلبون عبثاً :

(رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعْ الرُّسُلَ)

الإخبار بهذا المشهد من رحمة الله بالعباد :

هذه رحمة الله، فقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى قبل فوات الأوان عمَّا سيكون قبل أن يكون، ما قولك بإنسان أعطى الأسئلة قبل الامتحان، أي استعد لها، والله سبحانه وتعالى من رحمته أخبرنا ونحن في الدنيا عن المفاجآت الصاعقة التي سوف يُصْعَقُ لها الناس يوم القيامة، أما قول الظالم الذي ظَلَمَ من حوله، أما قول الكافر :

(رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعْ الرُّسُلَ)

لابد من اتباع الرسل :

إذاً لابدَّ من اتِّباع الرُسُل، يجب أن تجيب دعوة الله بالإيمان به والتعرُّف على أسمائه، وأن تتبع الرسول فيما يأمرك به ..

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر : من الآية 7)

(نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعْ الرُّسُلَ)

الجواب الإلـهي :

يأتي الجواب من قِبَل الحضرة الإلهية :

(أوَلَمْ تَكُونُوا أقسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ)

لسان حال ومقال أهل الدنيا : الدنيا كلُّ شيء :

يقول أهل الدنيا: الدنيا هي كل شيء، السعيد فيها من كان غنياً، والشقي من كان فقيراً، من الذي مات، ورجع فأخبرنا أن هناك آخرة وحساب وعقاب؟ هذه هي الدنيا، هي كل شيء ..

(مَا هِيَ إلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا)

(سورة الجاثية : من الآية 24)

(وَقَالُوا إنْ هِيَ إلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

(سورة الأنعام)

(أوَلَمْ تَكُونُوا أقسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ)

أي أنَّكم تتصرفون في الدنيا وكأنَّكم خالدون فيها، أعمالكم، بيوتكم، مشاريعكم تُنْبئ أنكم فيها مخلَّدون، وأنه لا موت، وكأن الموت على غيرنا كُتِبْ، إذا مات إنسان قلنا: مسكين لماذا مات؟ ما المرض الذي أصابه؟

لابد من ساعة الموت :

من لم يمتْ بالسيف مات بغيره تنوَّعت الأسباب والموت واحدُ

لابدَّ من الموت .

****

الليل مهما طال لابدَّ من طلوع الفجر والعمر مهما طال لابدَّ من نزول القبر

****

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلةٍ حدباء محمولُ

فإذا حملت إلى القبور جنــازةً فاعلم بأنَّك بعـدها محمولٌ

****

لابدَّ من ساعةٍ يُسَجَّى فيها الإنسان على طاولةٍ من خشب يغسَّل عليها، لابدَّ من خروج من هذا البيت بشكلٍ أفقي مرَّةً واحدة في الحياة، لابدَّ من أن تأخذ على جواز سفرك تأشيرة خروجٍ بلا عودة، وبشكل

إجباري، لابدَّ من مفارقة الزوجة مهما راقت لك، لابدَّ من الخروج من هذا البيت مهما بالغت في تزيينه، لابدَّ من ترك هذه المكانة الرفيعة مهما جهدت في دعمها، لابدَّ من ترك هذا المال الوفير مهما حَرِصْتَ على زيادته .

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيه وسَلَّم: قَالَ لِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ :

((يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ لاَقِيهِ))

[البيهقي في شعب الإيمان]

(أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ(44)وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا)

ألم تذهبوا إلى بعض الآثار؟ ألم تذهبوا إلى تدمر ؟ هذه آثار التدمريين، أين هم الآن ؟ تحت أطباق الثرى، ألم تذهبوا إلى بعض المدارج الرومانيَّة ؟ هذه آثار الرومان، أين هم ؟ تحت أطباق الثرى، ألم تشاهدوا الأهرامات ؟ هذه آثار الفراعنة، أين هم ؟ تحت أطباق الثرى ..

(وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ)

أي أن الله سبحانه وتعالى لحكمةٍ بالغة جعل هذه الآثار باقية لتكون درساً بليغاً، وموعظة بليغة لنا ..

(وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ)

وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ

في السابقين قصص للاعتبار :

وفي حياتنا جميعاً كل إنسان بحسب محيطه لابدَّ من شخصٍ في حياته؛ قريب، صديق، جار، قد تجاوز الحد المعقول فبطش الله به، هذا ما من واحدٍ منَّا إلا ويعرف قِصَصَاً عديدة عن أناسٍ تجاوزوا الحدَّ المعقول، طغوا وبغوا فأنزل الله بهم العقاب السريع .

(وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ(45)

(سورة النحل)

هذه أمثالٌ باقية، أمثالٌ حيَّة، أي أن هناك مصحفاً ينبئك بالحقائق، وهناك كونٌ ينبئك بالحقائق، وهناك حوادث يوميَّة تنبئك بالحقائق، الكون بما فيه من آياتٍ بيِّنات، والقرآن بما فيه من آياتٍ بيِّنات، والحوادث اليوميَّة بما فيها من آياتٍ بيِّنات كلُّها تتطابق وتؤكِّد لك أن الله عزَّ وجل ليس غافلاً عمَّا يعمل الظالمون .

(وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ(45)وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ

مكرُ الكافرين مذ بدأ لم ينته :

أي أن هؤلاء الكفَّار منذ القِدَم، وحتى يوم القيامة يجهدون في المكر والكيد للمؤمنين، إيَّاك أيُّها الأخُ الكريم أن تتفاجأ بأنَّ الكافر يَمْكُرُ بك، هذه سنَّة الله في الخَلق، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى أعطى كل مخلوقٍ سؤْلَهُ، وأعطى كل مخلوقٍ خياراً في أن يفعل حقاً أو باطلاً، خيراً أو شرّاً، أن يمشي سوياً على صراطٍ مستقيم، أو أن ينحرف في سلوكه، فكل عملٍ له عند الله جزاؤه، والله سبحانه وتعالى يبلو بعضنا ببعض، ويمتحن بعضنا ببعض، فلذلك :

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ)

وقد قيل : " لا يكْمُل إيمان الرجل حتى يُبْتَلى بأربع، بطعن الجهلاء، وبلوم الأصدقاء، وبشماتة الأعداء، وبحسد العلماء ... "، فلابدَّ من طعن الجهلاء، ولابدَّ من شماتة الأعداء، ولابدَّ من حسد العلماء، ولابدَّ من .. لوم الأصدقاء، والنبي عليه الصلاة والسلام عانى من قومه ما عانى.

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ)

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

(سورة الأنفال)

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ)

المكر قوته في كتمانه :

دائماً وأبداً يجهد أهل الكفر في المكر بالمؤمنين، ولكنَّ هذا المكر قوَّته في كتمانه، قوَّة المَكر في كتمانه، لو أن ملكاً عنده قائدٌ لجيشه، فإذا أراد هذا القائد أن يمكر بالملِك متى تنتهي قوَّته؟ إذا كُشِفَت خطَّته، المكر قوته في كتمانه، وما دام الله لا يخفى عليه شيء ..

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ)

أيها المؤمن اطمئن كل تخطيطات الكفار معروفة عند الله :

أي أن المكر الذي يمكرونه هو عند الله معروف، معلوم، مكشوف، واضح، الله مطلع عليهم وهم يفكرون، الله مطلع عليهم وهم يمكرون ويكيدون .

((يا صفوان بن أميَّة، لولا ديونٌ ركبتني، ولولا أولادٌ أخشى عليهم العَنَت لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه "، كان يقول هذا خارج مكَّة المكرَّمة أي في ظاهر المدينة، لا أحد يسمعه، فقال صفوان: " أما أولادك فهم أولادي ما امتدَّ بهم العمر، وأما ديونك فهي عليَّ بالغةً ما بلغت فامض لما أردت "، مضى هذا الرجل وهو عمير بن وهب إلى المدينة وفي نيَّته أن يقتل النبي عليه الصلاة والسلام فقد ضمن أولاده بعد موته، ضمن ديونه جعلها على عاتق صفوان، أسقى سيفه السُم، ركب راحلته وتوجَّه بها إلى المدينة، رآه عمر رضي الله عنه بفِراسته قال : عدوُّ الله عمير جاء يريد شراً"، قيَّده بحمَّالة سيفه وقاده إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقال : " يا رسول الله هذا عدو الله عمير جاء يريد شرّاً "، قال النبي: ابتعد عنه يا عمر " ابتعد عنه، " أطلقه " فأطلَقه، " ادن مني يا عُمير " اقترب منه، " اجلس "، جلس، " سلِّم علينا "، قال : عمت صباحاً يا محمَّد، قال : " قل السلام عليكم " قال : لست ببعيد عهدٍ بالجاهليَّة، قال : " ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ " قال: جئت أفدي أخي، قال : " وهذا السيف التي على عاتقك ؟ " قال : قاتلها الله من سيوف وهل نفعتنا يوم بدر ؟ قال : " ألم تقل لصفوان بن أميَّة لولا ديونٌ ركبتني، وأطفالٌ أخشى عليهم العنت، لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه ؟ " فوقف وقال : أشهد أنَّك رسول الله، قلت هذا القول ولا أحد يسمعني إلا الله وصفوان ..))

[ورد في الأثر]

ليس هذا هو القصد، القصد أن صفوان بن أميَّة أمضى أياماً في نشوةٍ عارمة، لماذا؟ لأنه ما هي إلا أيام وحتى يأتي نبأ مقتل محمد عليه الصلاة والسلام، فكان يقول لكفَّار قريش: " انتظروا خبراً سارَّاً "، مضى يومٌ ويومان، وأربعة أيَّام، وأسبوع ولم يأت هذا الخبر السار، إلى أن صار يقف في ظاهر مكَّة يتلقَّى الركبان، فسألهم : " ما فعل عُمَيْر " ؟ قالوا: " أسلم عمير " ..

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ

المعنى الأول :

أي أن هؤلاء الكفَّار يضعون مكراً تزول منه الجبال لشدَّته، ولعنفه، ولقسوته، ولخطورته .

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ)

هذا المعنى الأوَّل، أي لو أن إنساناً أعدَّ خطَّةً على ورقةٍ ليكيد لعدوِّه، هذه الورقة خلال ساعة كانت عند عدوِّه وهو أقوى منه، فمكر هذا العدو كان عند العدو ..

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ)

أي أنهم مكروا وهذا المكر مكشوف عند الله عزَّ وجل .

المعنى الثاني :

وعند الله جزاء مَكْرِهِم، قد يقول قائل : لك عندي حساب، لك عندي جزاء، لك عندي عقاب، لك عندي ثواب .

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ)

أي أنهم عند الله سوف يُحاسبون على مكرهم ..

(وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46)فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ)

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ

هناك من يظن أن الله أخلف وعده رسله :

هذه آيةٌ ثانية، إذاً هناك من يظن أن الله قد أخلف وعده، فالنبي عليه الصلاة والسلام في معركة بدر انتصر على أعدائه، في أحد انتصر بنوعٍ من الانتصار، جاءت معركة الخندق، جَيَّشَ الكفَّار أكبر جيشٍ عرفته الجزيرة، عشرة آلاف مقاتل أحاطوا بالمدينة، حُفِرَ الخندق، ظهر المسلمون قد فُتِحَ عليهم، نقض اليهود وهذه عادتهم عهدهم مع النبي وتواطؤا مع الكفار على أن يأتي الكفار من خلف ظهور المسلمين، أحدق بهم الخطب، احلولكَت الأيَّام، بدا اليأس على بعض المسلمين ..

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)

(سورة الأحزاب)

حتى قال قائلٌ منهم: " أيعدنا صاحبكم أن تُفتَح علينا بلاد قيصر وكسرى وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته؟! "، أي أن هناك من كفر بمحمَّد، هناك من رأى وعوده لا معنى لها .

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)

(سورة الأحزاب)

تأخير النصر لحكمة ربانية بالغة :

ربنا عزَّ وجل لحكمةٍ بالغة يؤخِّر النصر، ليكشف الناس على حقيقتهم، هذا يكفر، هذا يقول : " ما وعدنا إلا غروراً "، هذا يقول: الدين شيء خرافي، هذا يقول : أين الله لِمَ لا ينصرنا ؟ كل إنسانٍ يظهر حسن ظنِّه بالله، أو سوء ظنه، وهذه حكمة أخرى، لابدَّ من تأخير النصر ..

(حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا)

(سورة يوسف: من الآية 110)

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ)

لا يتخلف وعد الله أبدا :

والله الذي لا إله إلا هو زوال الكون أهون على الله من أن يُخْلِفَ وعداً وعده لمؤمن، إذا وعدك بالحياة الطَيِّبة فأبشر لابدَّ من أن تحيا حياةً طيِّبة، إذا وعدك بالتوفيق لابدَّ من أن تُوَفَّق، إذا وعدك بالنصر لابدَّ من أن تُنْصَر، إذا وعدك بجنَّةٍ عرضها السماوات والأرض لابدَّ من أن تصل إليها .

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ)

عليك بحسن الظن باللهوالثبات في الابتلاء والامتحان :

إيَّاك أن تحسب هذا، هذا سوء ظنٍّ بالله، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((حسن الظنِّ بالله ثمن الجنَّة))

ورد في الأثر]

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ)

أنت مستقيم، دخلك قليل والله عزَّ وجل وعدك بالحياة الطيبة في الدنيا، إيَّاك أن تزيغ عيناك، إياك أن تزلَّ قدمك، إياك أن تقول: أين هذا الدخل الكبير الذي وعدني الله به؟ أين هذا التوفيق في التجارة؟ الأسواق باردة، أين التوفيق في الزواج، لا أعثر على زوجة؟ أين هذا الوعد الإلهي؟ إياك أن تستبطئ

وعد الله، إياك ..

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ)

لابدَّ من أن يؤخِّر الله وعده من أجل أن يمتحنك ماذا تقول ؟ ما الذي يخطر في بالك؟ أترتدُّ كما كنت؟ أتنكص على عقبيك؟ أتُسيء الظن بالله عزَّ وجل؟ أتقول: أين الله؟ لِمَ لا ينصرني؟ لِمَ لا يرزقني؟ أين وعده؟ تأخير النصر ابتلاءٌ للإنسان، وامتحانٌ له، وكشفٌ لحقيقته النبي عليه الصلاة والسلام انتصر على أعدائه، ولكن متى؟ بعد أن صبر، قال في الطائف :

((يا رب، أشكو إليك ضعف قوتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس، يا ربَّ المستضعفين، إلى من تكلني ؟ إلى غريبٍ يتجَهَّمني أم إلى عدوٍ ملَّكته أمري، يا رب، إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى لكنَّ عافيتك أوسع لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

قد ينزل مرضٌ بالمؤمن، هذا المرض لكي يُمْتَحن به، أيقول : أين الله؟ لماذا أمرضني ؟ ماذا فعلت معه ؟ سقط بالامتحان، أم يقول الحمد لله على كل حال ؟ يا رب أنا راضٍ عن فعلك، راضٍ بقضائك، ماضٍ فيَّ حكمك، سارٍ فيَّ قضاؤك ..

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ

انتقام الله من الكافر من لوازم عزَّته :

لابدَّ من أن ينصر رسله، سبحانك إنه لا يذلُّ من واليت ولا يعزُّ من عاديت، مستحيل أن يعزَّ من عاديت، ومستحيل أن يذلَّ من واليت..

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة المنافقون : من الآية 8)

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا)

(سورة فاطر: من الآية 10)

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

لو لم ينتقم الله من الكافر المجرم الذي طغى وبغى ما كان الله عزيزاً، هو عزيز لأنه ذو انتقام، وترى المجرمين ..

(يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ)

مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة :

تغيُّر الأرض والسماوات :

هذا يوم الدين، يوم الجزاء، يوم الدينونة ..

(يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ)

لا جبال فهي قد نُسِفَت، البحار قد سُجِّرت، والوحوش قد حُشِرَت ..

(وَالسَّمَاوَاتُ)

لا شمس فهي قد كوِّرت، ولا نجوم قد انكدرت ..

(يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ)

وصفٌ لهذا اليوم الذي تُعَطَّلُ فيه السنن الأرضيَّة، تعطَّل فيه دورة الأرض حول نفسها وحول الشمس، تُنْسَفُ جبالها ..

(فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا)

(سورة طه)

تُكَوَّرُ الشمس، يُخْسَفُ القمر، تنكدر النجوم، تُفْتَحُ السماء ..

(يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)

البروز لله تعالى :

سبحان من قهر عباده بالموت، مهما علا الإنسان لابدّ من أن يموت، قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((سبحان الله إن للموت لسكرات))

[الطبراني في المعجم الكبير]

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)

معنى البروز بين يدي الله :

معنى برزوا أي ظهروا على حقيقتهم، قد يخفي الإنسان في الدنيا شيئاً ويظهر شيئاً، قد يخفي عملاً قبيحاً ويُظْهِراً عملاً جيِّداً، هذا في الدنيا أما في الآخرة لابدَّ من أن يظهر الإنسان على حقيقته ..

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(48)وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ)

المجرمون مربوطون بالأصفاد :

الأصفاد هي القيود، مقرَّنين أي جُمِعَ بعضهم إلى بعض، الزناة مجموعة، شاربوا الخمر مجموعة، المرابون مجموعة، المُفسدون مجموعة، النمَّامون، المغتابون، آكلوا المال الحرام مُقرَّنين، قرناء ..

(الْأَصْفَادِ(49)سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ)

جلود المجرمين مصابة بالجرب مطلية بالقطران :

أي أن جلودهم أصابها الجَرَب وهو من أبشع أمراض الجلد، ودواء الجَرَب القطران وهو من أسوأ الأدوية، له ريحٌ نتن ومنظرٌ قبيح ..

(سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ)

تعلو وجوههم النار :

النار في القرآن تطلع على الأفئدة، على القلوب، أي أن أشرف عضوٍ باطني هو القلب، تصله النار، ويصاب الوجه وهو أشرف عضوٍ ظاهري، قد تصاب يد الإنسان بمرض الموات فتُقْطَع، تصاب رجله فتقطع، أما إذا أُصيب رأسه هل يُقْطَع؟ إذا قُطِعَ رأسه انتهى، لأن الله سبحانه وتعالى جعل في الرأس أشرف الأجهزة؛ الدماغ، والسمع، والبصر، والنطق، هذا العضو المُكَرَّم تلفحه النار ..

(وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ)

ولا ينكر عذاب النار إلا كافر، عذاب النار العذاب المادي ..

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ)

(سورة المؤمنون)

(وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ)

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ)

(سورة النساء : من الآية 56)

أما قوله تعالى :

(وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ(49)سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ(50)لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ)

لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ

لابد من الحساب :

هذه اللام لام التعليل، أي لابدَّ من الجزاء، إن لكل سيئةٍ عقاباً، ولكل حسنةٍ ثواباً .

(لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ)

((إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم، ثم أوفِّيكم إياها، من وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه))

[مسلم عن أبي ذر]

(إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

معنى :ِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ

سريع الحساب لها معنيان :

المعنى الأول :

أن الله عزَّ وجل إذا حاسب العباد فهو سريع الحساب، لا يشغله عبدٌ عن عبدٍ، لا يشغله حسابٍ عن حساب، أما المُحاسب فقل له: أعطني كشف حساب لفلان، ينهمك في كتابة الكشف، قل له: أعطني لفلان أيضاً، يقول لك: انتظر، أنا الآن مشغول بهذا الموضوع، الإنسان يشغله شيءٌ عن شيء، لكنَّ الله سبحانه وتعالى سريع الحساب، يحاسب العباد كلَّهم دفعةً واحدة، لا يشغله شيءٌ عن شيء، ولا حسابٌ عن حساب، هذا المعنى الأول أي أنه إذا حاسب العباد فهو سريع الحساب، ولا يتذوَّق هذه الآية إلا المحاسبون لأنهم يرون أعباء المحاسبة فوق طاقتهم ..

(إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

المعنى الثاني :

أنه إذا فعل الإنسان عملاً قد يقصمه الله عزَّ وجل مباشرةً، قد يحاسبه في الدنيا حساباً سريعاً، قد تمتد يده للحرام فتُقْطَع، قد يتحدَّى القُدرة الإلهيَّة فيُقضى عليه ..

(إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

إذاً: إما أنه سريعٌ في محاسبة الخلائق إذا حاسبهم، أو أن العقاب قد يأتي إثْرَ المعصية مباشرةً، قد يحلف الإنسان يميناً غموساً فيُشَلُّ فوراً ..

(إنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

تأخير العقاب الدنيوي وتعجيله كلٌّ لحكمة ربانية :

لدينا آيتان: الأولى :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة النمل)

الفاء هنا للترتيب مع التعقيب، وهناك آية أخرى :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا)

(سورة الأنعام : من الآية 11)

قد تقتضي حكمة الله أن يؤخِّر الحساب، هذه على ثم، الحساب إما على معنى الفاء للترتيب مع التعقيب أو على معنى ثم .

(إنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(51)هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ)

هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ

معنى بلاغ لها معنيان :

المعنى الأول :

إما من البلوغ وإما من التبليغ ..

(هَذَا بَلَاغٌ)

أي أن الله عزَّ وجل قد أبْلَغَ الخلق في الوقت المناسب قبل فوات الأوان، أبلغ الخلق أن هناك جنَّة، وأن هناك ناراً، وأن هناك حساباً، وأن مع الحياة موتاً، وأن مع العزِّ ذُلاً، وأنه لكل شيءٍ رقيب، ولكل شيءٍ حسيب، هذا بلاغ .

المعنى الثاني :

أن الله سبحانه وتعالى جعل هذا القرآن الكريم بُلْغَةً للناس، أي يكفيهم، وإذا أردت أن أوضِّح هذا المعنى فوالله الذي لا إله إلا هو إن الآية الواحدة من هذا الكتاب تكفي الإنسان طوال حياته .. جاء أعرابيٌّ النبي عليه الصلاة والسلام قال : " يا محمد عظني وأوجز"، قال :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

(سورة الزلزلة)

قال : " لقد كُفيت "، هذه تكفيني طوال حياتي، فقال عليه الصلاة والسلام :

((فقُهَ الرجل))

ورد في الأثر]

هذه الآية تكفي وحدها ..

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

(سورة النساء)

تكفي وحدها ..

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

تكفي وحدها ..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : من الآية 97)

تكفي وحدها ..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا)

(سورة طه : من الآية 124)

تكفي وحدها ..

(هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاس)

هذا بلاغ للناس، إما أنه من التبليغ أو من البلوغ ..

(هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجر 015 - الدرس (1-9): تفسير الآيات 1 – 3

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-11-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الحجر :

بسم الله الرحمن الرحيم

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ)

الكتاب جنس لجميع الكتب السماوية:

فالكتاب كما قال بعض العلماء ينطبق على كل كتاب سماوي، مطلق الكتب المنزلة على أنبياء الله سبحانه وتعالى، الله سبحانه وتعالى خلق الخلق، وأرسل الرسل، وأنزل عليهم الكتاب، خلقهم، وأنزل إليهم منهاجهم، فلذلك تأتي كلمة الكتاب في القرآن الكريم لتشمل كل الكتب السماوية .

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ)

الآية هي العلامة :

الآيات جمع آية، والآية هي الدليل والعلامة، فاصفرار الفاكهة علامة نضجها، وظهور بعض السحب في السماء علامة المطر الكثير .

لكل شيء آية :

ربنا سبحانه وتعالى جعل لكل شيء علامة، وقال :

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

(سورة النحل)

البلوغ له علامة، والنضج له علامة، واقتراب الشتاء له علامة، واقتراب فصل الربيع له علامة، وكل شيء له علامة، هذه علامات على أشياء، فما الدلائل أو العلامات الدالة على الله سبحانه وتعالى ؟

الآيات كونية وتكوينية وقرآنية :

الآيات التي تدل على الله سبحانه وتعالى على ثلاثة أنواع :

الآيات الكونية :

هناك الآيات الكونية، خلقُك دليل على أسماء الله الحسنى، هذا القلب الذي بين جوانحك يضخ في كل نبضة سبعين سنتيمتراً مكعباً، اضرب هذه السبعين في ستين مرة كي تعرف كم ينبض في الدقيقة، اضرب هذا الرقم في ستين كي تعرف كم يضخ في الساعة، اضرب الناتج الأخير في أربع وعشرين كي تعرف كم يضخ في اليوم، بعضهم بدأ يضرب إلى أن ضرب الرقم الأخير بعمر تقريبي، فكان حجم الدم الذي يضخه القلب طيلة عمر الإنسان شيء لا يصدق، الرقم لا يصدق، هذا القلب، هذه الآلة التي بين جوانحنا لا تفتأ عن الضخ، ولا تكل، ولا تتعب، القلب آية من آيات الله سبحانه وتعالى .

اللسان آية، وكل حرف ينطق به اللسان تسهم في هذا النطق سبع عشرة عضلة، فالكلمة المؤلفة من خمسة حروف كم عضلة تسهم في حركتها ؟ والدرس الذي يلقى خلال ساعة كم مرة تحركت العضلات بشكل أو بآخر حتى جعلت هذا الكلام يلفظ فيسمعه الناس .

فالآيات على ثلاثة أنواع، آيات كونية، أي شيء حولك ينطق بعظمة الله، حيثما التفت، وأينما نظرت، إلى السماء، أو إلى الأرض، وإلى الجبل، إلى أي شيء نظرت، إلى الماء، الماء كما قال بعض العلماء لا ينضغط، ولأنه لا ينضغط فله وظائف كثيرة يؤديها، الماء إذا بردته إلى درجة +4 يزداد حجمه، ازدياد حجم الماء تتوقف عليه الحياة على وجه الأرض، لولا أن حجم الماء يزداد عند التبريد لما كنّا وإياكم في هذا المكان، فازدياد حجم الماء في هذه الدرجة بالذات دليل وآية على عظمة الله عز وجل .

فحينما وصلت إلى كلمة :

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ)

الآيات على ثلاثة أنواع :

الآيات الكونية، كأس الماء آية كونية، رغيف الخبز آية كونية، البذور آية كونية، النبات آية كونية، تخزين الماء آية كونية، الأنهار آية كونية، الينابيع آيات كونية، هذه عناوين موضوعات للتفكر .

المؤمن الصادق لا يمر على هذه الآيات مراً سريعاً، بل يقف عندها، يتأمل فيها، يتعرف إليها، يستنبط أن لها خالقاً عظيماً، هناك من يأكل كما تأكل الأنعام، هناك من يتعامل مع المخلوقات كما تتعامل الأنعام مع بعضها، همه أن يأكل، وأن يشرب، وأن ينام، ولا يعرف أن هذا الصوف الذي ينام عليه من خلق الله سبحانه وتعالى، وأنه خلق خصيصى له، ولا يعرف أن هذا الثوب الصوفي الذي يقيه البرد إنما هو

من خلق الله سبحانه و تعالى، وأن شعرة الصوف صنعت بشكل عجيب، صنعت مجوفة، وبطول محدود، يعين على غزلها، فإذا غزل الصوف بهذا الطول له فوائد يعرفها الخبراء بالخيوط، لذلك فإن الخيوط الصناعية التي يمكن أن تنتج مستمرة تقطع إلى أطوال تساوي أطوال الصوف الطبيعي، من أجل أن تكون لها ميزة في غزلها، فماذا أقول لكم ؟

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

***

هذا الموضوع لا حد له، لا يحصر بكلمات، لكن الذي يعنينا منه أن كل مؤمن مدعو إلى التفكر في آيات الله الكونية، ليتفكر بعينه، هذه العين، جميع خلايا الجسم البشري تتغذى عن طريق الشعيرات الدقيقة، إلا قرنية العين يتم غذاؤها بطريقة عجيبة، بطريقة الحلول، الخلية الأولى تأخذ الغذاء، فينتقل غذاؤها وغذاء جارتها عبر الغشاء الخلوي إلى الخلية الثانية، كل هذا من أجل الرؤية الصافية .

العين في شبكيتها مئة وثلاثون مليون مخروط، الذي عد هذه المخاريط نال جائزة نوبل في عام 1967، مئة وثلاثون مخروطًا، وسبعة ملايين عصية من أجل استقبال المؤثرات الضوئية، ونقلها إلى الدماغ كي تنقلب إلى صور، فالعين آية، العصب البصري مؤلف من أربعمئة ألف عصب .

السمع آية، الشم آية، اللمس آية، القلب آية، جهاز الهضم آية، جهاز التنفس آية، جهاز الدوران آية، جهاز التصفية آية، الجهاز التناسلي آية، العضلات آية، والعظام آية، قال لي طبيب : إن عظم الجمجمة مشدود إلى الداخل بحيث لو تمكنا من بعض سطوح الجمجمة، وأردنا أن نسحب هذه السطوح إلى الخارج لاحتجنا إلى قوة تزيد على أربعمئة كيلو غرام، هذه السطوح الثلاثة التي ركبت بشكل مفصل متداخل مسنن هذا التركيب مشدود إلى داخل الجمجمة، ولا يفك إلا بقوة كبيرة، وذلك إذا استطعنا أن نمسك ببعض هذه السطوح، لذلك في عمليات فتح الجمجمة للوصول إلى الدماغ أهون على الطبيب أن ينشر العظام نشراً من أن يفك هذه المفاصل، وهذه المفاصل عند الولادة تتداخل بعضها ببعض، فإذا لم تتداخل لا يوجد جهة حتى الآن تستطيع أن تصنعها، سطوح مسننة تتداخل مع بعضها تتعشق كما يقول الميكانيكيون، وإذا تعشقت كانت مفصلاً ثابتاً، ما فائدة هذا المفصل الثابت ؟ لمص الصدمات، حينما يسقط الطفل على الأرض تسمع رنين رأسه على البلاط بشكل واضح، ما الذي يقي هذا الرأس من أن ينكسر ؟ هذه المفاصل الثابتة .

(ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

(سورة الأنعام)

والله الذي لا إله إلا هو لو بقينا سنوات متصلات نتحدث عن آيات الله لما توصلنا إلا إلى شيء قليل جداً .

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)

(سورة الإسراء)

لكنني والله الذي لا إله إلا هو، وأنا ناصح لكم أدعوكم إلى التفكر في آيات الله، لماذا كان غضروف الأنف في الطفل قاسياً؟ وبعدئذ يصبح غضروفاً ليناً، لماذا كان عظم الأنف إلى هنا وسط الأنف، والقسم الباقي غضروفي؟ هذا السؤل أجب عنه وحدك .

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ(190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

هؤلاء المتقون، هؤلاء المؤمنون يتفكرون في خلق السماوات والأرض، هذا الكأس من الماء التي تشربها كان ماؤها ملحاً أجاجاً فصار عذباً فراتا، قدرة من حولته من هذه الحال التي تمجها النفس إلى تلك الحال التي تستسيغها النفس ؟ الله سبحانه وتعالى .

هذا القسم الأول هو الآيات الكونية، وربنا عز وجل ذكر بعضها، وترك لنا التفكر بالباقي، وأما الآيات الثانية فهي الآيات القرآنية .

الآيات القرآنية :

هناك آيات كونية، وهناك آيات قرآنية، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، هل يوازن خالق بمخلوق ؟ كذلك لا يوازن كلام الله بكلام الناس، فالذي يمضي حياته في دراسات تتعلق بكلام الناس فقد ضيع عمره سدىً، والذي يمضي حياته بفهم كلام الله والتعرف إلى دقائقه، ومدلولاته، واستنباط القواعد الثابتة، ومعرفة طريق سعادته فهو من السعداء، آيات القرآن الكريم آيات دالة على عظمة الله سبحانه وتعالى، حتى إن بعض العلماء قال : القرآن كون ناطق، والكون قرآن صامت، وبعض العلماء يقول : إن لله في أرضه كتابين، إن لله في خلقه كتابين، الكون كتاب، والقرآن كتاب .

الآيات التكوينية : الحوادث :

وأما الآيات ذات النوع الثالث فهي الحوادث، الحوادث أيضاً آيات دالة على عظمة الله سبحانه وتعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

تتبع إنساناً مؤمناً، تتبع حياته الخاصة، تَتَبَّع حياته العامة، تَتَبَّع حياته النفسية، تَتَبَّع حياته الاجتماعية، تَتَبَّع علاقاته العامة تر أنه سعيد، تَتَبَّع حياة المنحرف العاصي الشقي تر أنه في جحيم لا يطاق .
فهذه الحوادث التي يصنعها الله سبحانه وتعالى قرآن ثالث، قرآن مطبق، أيّ آية في كتاب الله هناك ما يدل عليها في الكون تَتَبَّع، وهناك ما يدل عليها في الحياة .

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

(سورة الزخرف)

هذه آية قرآنية، لو تتبعت الحياة الاجتماعية لوجدت أن الله موجود مع الناس يحاسبهم، ويقضي بينهم بالحق، ويجزي المحسن منهم، ويعاقب مسيئهم، من كان ماله حراماً أتلفه الله، ومن كان ماله حلالاً رزقه الله، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ))

[البخاري]

فهذه الآيات مطبقة أيضاً في الأرض .
عودة إلى هذه الآية، الآية هي العلامة، التفاح يكون أخضر اللون، فإذا اصفر وشح بلون أحمر فهذا الاصفرار، وهذا الوشاح دليل أنه قد نضج، فعلامة نضجه اصفراره، فالاصفرار علامة أو هو دليل على نضجه .
الآيات الدالة على عظمة الله سبحانه وتعالى، آيات الله في الكون المجرات، المجموعة الشمسية، الشمس والقمر، النجوم، الأرض ... إلخ، القرآن آيات، وأفعال الله في الأرض آيات .

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ)

معنى : مبين :

معنى مبين مِن أبان أي : وضّح، فالآيات واضحات، عَنْ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ : وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ :

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنِفِ حَيْثُمَا انْقِيدَ انْقَادَ))

[أحمد]

عَن النُّعْمَان بْن بَشِيرٍ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((الْحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاس، فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ))

[متفق عليه]

الحلال بين، الحرام بيّن، الشرع بيّن، ما أمر الله به، وما نهى عنه بيّن، هذا القرآن بيّن، حينما قال الله عز وجل :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

(سورة الزلزلة)

آية واضحة كالشمس، قال :

((يا رسول الله، عظني وأوجز، فقال له الرسول الكريم:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

قال الأعرابي: قد كفيت، فقال عليه الصلاة والسلام: فقه الرجل))

أنا أؤكد لكم أن آية واحدة تكفيكم جميعاً طوال الحياة، آية واحدة هي :

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

من اتبع هدى الله عز و جل فهو في ضمان الله عز وجل، ضمان من الله خالق الكون ألاّ يضل عقله، ولا تشقى نفسه، ومن منا لا يتوق إلى هاتين المرتبتين، ألاّ يضل، وألاّ يشقى .

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ(1)رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ)

رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ

معنى (رُبَّ):

أقف قليلاً عند كلمة: (رُبَّ)، لأن بعض الناس إذا تعلموا العربية في المدارس تعليماً ناقصاً يتوهمون أن كلمة : (رُبَّ)تفيد التقليل، أينجح فلان ؟ فيجاب : ربما ينجح، هذا العلم ناقص، فرجعت إلى كتب النحو حول كلمة (ربّ)، ربّ من حروف الجر، وهذا الحرف كما جاء في أوسع كتاب للنحو يفيد

التكثير كثيراً، ويفيد التقليل قليلاً، وكلمة (ربّ)تشابه كم الخبرية، كم كتاب عندي، يعني ما أكثر الكتب التي عندي .

فربنا سبحانه وتعالى قال :

(رُبَمَا)

بالتخفيف، والأساس (ربّ)بالتشديد، (ربّ)لا تدخل إلا على الأسماء، ربّ ضارة نافعة، فإذا أردنا أن ندخلها على الأفعال تحتاج إلى (ما)، تقول : ربما قام فلان، ربما سافر فلان، لكن ربّ لا تدخل على الفعل المضارع أبداً إلا في كتاب الله، لماذا أدخلت في كتاب الله على الفعل المضارع؟ لأن المضارع في القرآن كالماضي تماماً، من باب تحقق الوقوع، فإذا وعدك الله بوعد في المستقبل فكأنه قد وقع، فقد يعبر الله سبحانه وتعالى عن شيء سيقع يوم القيامة بالفعل الماضي، وتوجيه هذا التعبير أنه من باب تحقق الوقوع .

فربنا سبحانه وتعالى يقول :

(رُبَمَا)

والأكثرون على تشديدها (ربّما)، وبعضهم (ربما)بالتخفيف، لكنها في قراءة عاصم جاءت مخففة .

(رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ)

هذه الآية أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يوفقني إلى توجيه مدلولاتها .

المعنى الأول : يود الكافر في الدنيا لو كان مسلما :

وهذا يعني كثيراً ما يتمنى الذين كفروا لو أنهم كانوا مسلمين، وبعض العلماء قال : هذا التمني في الدنيا، يعني الكافر الذي جمع المال الحرام، وأتلفه الله في ساعة خيبة الأمل، وفي ساعة الإحباط، وفي ساعة المصيبة، وفي ساعة الندم يتمنى لو كان مسلماً، فكسب المال الحلال، وبارك الله له فيه، وعاش حياة سعيدة رغيدة .

قد يتزوج الكافر امرأة تعجبه، ولا يبالي بدينها، فإذا اقترن بها، ورأى من فظاظتها وانحرافها ما أقضّ مضجعه عندئذ يتمنى لو كان مسلماً، فيهيئ الله له زوجة صالحة مثله يسعد بها، هذا المعنى الأول .

كلما وقع الكافر في مصيبة في ماله إن كان حراماً، في بيته إن كان اختياره للزوجة على أساس غير ديني، لأنه من تزوج المرأة لجمالها أذله الله، ومن تزوجها لمالها أفقره الله، ومن تزوجها لحسبها زاده الله دناءة، فعليك بذات الدين تربت يداك .

فهذا الكافر كثيراً ما يتمنى لو أنه مسلم، لو كان مسلماً لكانت حياته طيبة :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة النحل)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية : 21)

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم : 35- 36)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه : 124)

إذاً: الكافر وهو في الدنيا حينما يرى نتائج عمله ونتائج المال الحرام الذي كسبه، وكيف دمره الله، ودمر أولاده، وحينما يرى نتائج الزواج الفاسد، حينما يرى نتائج الخوض فيما لا يعنيه، حينما يرى نتائج الكذب يتمنى لو كان مؤمناً، بل كثيراً ما يتمنى لو كان مؤمناً .

(رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ)

المعنى الثاني : يود الكافر يوم القيامة لو كان مسلما :

قيل: هذا في الحياة الدنيا، ويوم القيامة ربما يتمنى الكافر أن يكون مسلماً، حينما يعرض على النار، قال تعالى :

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنعام)

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا(27)يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا)

(سورة الفرقان)

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ(99)لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ(104)أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ(105)قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ(106)رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(107)قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون)

(سورة المؤمنون)

الكافر حينما يعرض على النار، وحينما يرى مصيره يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقتهم، والكافر أيضاً يتمنى لو كان مسلماً، وهو على فراش الموت يختم عمله ، ويطلع على ما أعد الله له من عذاب أليم، لذلك أهل الكفر حينما يأتيهم ملك الموت يضطربون ويصيحون ويستغيثون، ولكن لا مغيث. هذه فرصة أعطيت لنا، هذا الكلام يقال، ونحن في بحبوحة، ونحن كلنا قلب ينبض، ما دام الإنسان حيًّا فكل شيء له حلّ .

(رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ)

المعنى الثالث : رُبَّ طاعم في الدنيا جائع يوم القيامة ...

والمعنى الآخر لهذه الآية قال عليه الصلاة والسلام :

((يا ربّ نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، يا ربّ نفس جائعة عارية في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة، يا ربّ مكرم لنفسه وهو لها مهين، يا ربّ مهين لنفسه وهو لها مكرم، يا ربّ متخوض فيما لا يعنيه ما له في الآخرة من خلاق))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أبي البجير]

المعنى الرابع : حين يصيح الكافر من عذاب النار :

شيء آخر في معنى كلمة (ربما)، النبي عليه الصلاة والسلام بين لنا أن أهل النار وهم يصيحون فيها قد يجتمع فيها المشرك بمن آمن بالله، ثم انحرف عن طريق الحق، آمن، ولم يستقم على أمر الله، آمن وفعل السيئات، قد يشمت هذا المشرك بهذا المؤمن، يقول له: ما نفعك إيمانك شيئا، فبعض الآثار تروي أن الله سبحانه وتعالى بعد حقب طويلة جداً يخرج المؤمن من النار، ويدخله الجنة، عندئذ يتمنى الكافر أنه لو كان مسلماً في الدنيا، ولو بنوع ما من الإسلام، لأنه صح في الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((يُخْرَجُ مِنْ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ الْإِيمَانِ))

[الترمذي وأحمد]

ولكن متى؟ لا يعلم إلا الله، بعد مليون سنة مثلاً، الله أعلم، لكن في النهاية يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، حتى هذه الذرة من الإيمان يتمناها الكافر، وهو في النار، هذا هو المعنى الرابع .

(رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ)

المعنى الخامس : الآية بشارة للنبي عليه الصلاة والسلام :

والمعنى الخامس: في هذه الآية بشارة للنبي عليه الصلاة والسلام، أي: يا محمد، لا تثريب عليك، لا بدّ من أن يأتي اليوم الذي ينصرك الله فيه نصراً عزيزاً، وعندئذ يتمنى الكفار لو كانوا مسلمين . عكرمة بن أبي جهل أهدر النبي عليه الصلاة والسلام دمه، فلما فتحت مكة هام على وجهه، وتمنى لو كان مسلماً، صفوان بن أمية، كذلك هند التي كادت للنبي عليه الصلاة والسلام تمنت يوم فتح مكة أنها لو كانت مسلمة، الكفار الذين كادوا للنبي عليه الصلاة والسلام، وأخرجوه من بلده مكة، وعذبوا أصحابه، وائتمروا على قتله عندما فتحت مدينتهم، وكانوا في قبضة النبي عليه الصلاة والسلام تمنوا لو كانوا مسلمين .

المعنى السادس : الكافر يتمنى لو أسلم مبكِّرا :

المعنى الذي بعده : أن الكافر الذي أسلم، وحسن إسلامه يتمنى لو أنه أسلم في وقت مبكر، يعني هذا الذي أسلم، وعرف الله، واستقام على أمره، وهو في ريعان الشباب فأفنى عمره في طاعة الله، وأفنى وقته في العبادات والقربات وحضور مجالس العلم، هو الذي أحرز الخير كله، أما الذي عرف الله في سن متأخرة، عرف الله في الأربعين، في الخمسين يتمنى دائماً وأبداً لو كان قد أسلم في سن مبكرة، فيحظى بشرف الإسلام في الشباب .

فيا أيها الشباب، إن كنتم كما يريد الله عز وجل فاشكروا الله، فالإيمان في سن مبكرة لا يعدله شيء، لكن من بلغ الأربعين، ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار، لأنه من شبّ على شيء شاب عليه طوال حياته، ألِف أن ينظر إلى النساء، وفي سن الخمسين أصبح من الصعب أن يغض من بصره، أما إذا نشأ الشاب على غض البصر فبعد سنوات يصبح هذا السلوك بنية من بناه النفسية، وانتهى الأمر، ومن شاب على شيء مات عليه، بل من مات على شيء حشر عليه، ألِف طوال حياته لعب الطاولة، وسهر الليالي فعلى هذا ماذا استفاد ؟ في الأربعين إذا قيل: اذكر الله، واقرأ القرآن، يقول: النبي قال : ساعة لك، وساعة لربك، هذا ليس حديثاً، ومن قال لك: إن هذا الكلام حديث ؟

فمن بلغ الأربعين، ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار، فهذا الذي يسلم في وقت متأخر يتمنى

طوال حياته لو أنه أسلم في وقت مبكر، لأن سبعة يظلهم الله ظله يوم لا ظلّ إلا ظله، ومنهم شاب نشأ في طاعة الله، إن الله ليباهي الملائكة بالشاب المؤمن يقول: انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي، ما من شيء أحب إلى الله من شاب تائب مستقيم، والتوبة شيء حسن، لكن في الشباب أحسن، أبواب رحمة الله مفتحة على مصارعها، الدنيا مطية الآخرة .

النبي الكريم عليه الصلاة والسلام نهانا عن أن نسبّ الدنيا، لماذا؟ لأنها مطية المؤمن إلى الله عز وجل، بها ترقى إلى رضوان الله، بهذه الشهوة التي أودعها الله فيك إن كبَحْت جماحها فإنك ترقى إلى الله، بحبك للمال تنفقه في طاعة الله ترقى حينما تنفقه على الفقراء والمحتاجين، بحبك للنساء تغض البصر عنهنّ ترقى، فتتزوج وفق ما أمرك الله .

(رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ)

المعنى السابع : الآية تثبيت للنبي عليه الصلاة والسلام :

والمعنى الذي بعده : أن هذه الآية تثبيت للنبي عليه الصلاة والسلام، أيها النبي لا بدّ من أن ينصرك الله عز وجل، وهذا الكلام لنا الآن، أيها المؤمن لا تهن، ولا تضعف، ولا تيأس، ولا تقنط، النبي عليه الصلاة والسلام حينما التقى عدي بن حاتم قال :

((يا عدي، لعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، أي : من فقر هؤلاء المسلمين، وايم الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالمرأة البابلية تحج هذا البيت على بعيرها لا تخاف، ولعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البابلية مفتحة للعرب))

[كنز العمال]

فهذه الآية تثبيت لك إن كنت مسلماً، فأبشر بأنه سيأتي على الناس ساعة يتمنون أن يكونوا مثلك، أنت من النوع النادر، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَطَلَعَتْ الشَّمْسُ، فَقَالَ :

((يَأْتِي اللَّهَ قَوْمٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُورُهُمْ كَنُورِ الشَّمْسِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَحْنُ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لَا، وَلَكُمْ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّهُمْ الْفُقَرَاءُ وَالْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، وَقَالَ : طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، فَقِيلَ : مَنْ الْغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : نَاسٌ صَالِحُونَ فِي نَاسِ سَوْءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ))

[أحمد]

هؤلاء الذين يحبهم رسول الله عليه الصلاة والسلام سمّاهم أحبابه، وصفهم فقال: القابض منهم على دينه كالقابض على الجمر، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ))

(الترمذي، وأحمد)

لو أن الشاب المؤمن أراد أن يقيم أمر الله في بيته من يعارضه؟ أقرب الناس إليه، أمه تقول: ما ألفنا هذا الدين، هذا تزمت، يا أمي هذه آية في كتاب الله، لا، لا تشذ عن قواعد الأسرة، من يعارضه؟ أبوه، جاره، صاحبه، زميله، قريبه .

(رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ)

إن كنت مسلماً حقاً فأبشر، لأن هؤلاء الناس الذين تقع عينك عليهم لا بدّ من أن تأتي عليهم ساعة، ويا هول تلك الساعة، يتمنون لو كانوا مسلمين .

(رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ)

الكافر يتمنى أن يكون مسلماً في الدنيا حينما يفشل في زواجه، وحينما يدمر ماله، وحينما يصاب بمرض عضال يجعله مفتقراً لكل إنسان، ويتمنى أن يكون مسلماً عند الموت، حينما تلوح له نهايته الحزينة، ويتمنى أن يكون مسلماً حينما يعرض على الله عز وجل، وحينما يعرض عمله على الله عز وجل، ويتمنى أن يكون مسلماً حينما يعرض على النار .

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا)

(سورة غافر 46)

وهذه الآية بشارة للنبي عليه الصلاة والسلام، ولكل مؤمن في هذا الزمان، أبشر، واصبر، واثبت، فلا بدّ أن يأتي على الذين يخاصمونك ويعادونك ساعة يتمنون أن يكونوا مسلمين .

(رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ(2)ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمْ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمْ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

ذَرْهُمْ : تهديد ووعيد :

معنى (ذرهم)هذا تهديد، تقول أحياناً لابنك : افعل ما تريد، هل تأمره أن يفعل ؟ لا والله، إنك تهدده، ذرهم يا محمد، دعهم يأكلوا ويختاروا أطيب الأطعمة، دعهم يجلسوا في أجمل الأماكن، ويأكلوا في هذه الأماكن ما لذّ وطاب، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، هم يحسبون أنهم قد أفلحوا، وقد فازوا، وقد تفوقوا، وقد نجوا من الفقر .

(ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا)

بنسائهم اللائي يحللن لهم، أو باللاتي لا يحللن لهم، يتمتعوا بكل شيء بالمناظر الخلابة، بالشهوات الدنيئة، بالانحرافات بكل شيء، ذرهم يأكلوا، ويتمتعوا .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

(ذرهم)، اتركهم، فقد وعظتهم ما فيه الكفاية .

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة : 272)

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص : 56)

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

(سورة الغاشية)

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا(11)وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا(12)وَبَنِينَ شُهُودًا(13)وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا)

(سورة المدثر)

اتركه، دعه لي، أنا أتولى معالجته، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ، وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ))

(البخاري)

دعهم يأكلوا، ويتمتعوا بالدنيا، بمباهجها، وبزينتها، برحلاتها الطويلة، بفنادقها الفخمة، ذرهم يتمتعوا بهذه الحياة، ذرهم يسبحوا مختلطين، يتمتع بعضهم ببعض .

(ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمْ الْأَمَلُ)

الكافر ذو أمل طويل في الدنيا :

ولو شققت على خاطر كل منهم لوجدت نفسه مفعمة بالآمال، هذا ينام على مخطط لبيت جميل على مقصف جميل، يحلم به طوال سنوات طويلة، كيف سيجعل أرضه؟ كيف سيجعل التبريد فيه؟ كيف سيجعل التدفئة في الشتاء لو أنه ذهب إلى هذا البيت شتاءً ينبغي أن يكون دافئاً، كيف يفعل هذا؟ كيف ستكون الحديقة أمام البيت ؟

(ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمْ الْأَمَلُ)

النبي عليه الصلاة والسلام له في موضوع الأمل أحاديث شريفة، قال عليه الصلاة والسلام :

((أربعة من الشقاء، جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا))

(الديلمي في الفردوس عن أنس، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : أخرجه البزار)

إذا جلست في فراشك ما الذي يخطر في بالك؟ هذا يحلم ببيت، وذاك يحلم بمتجر في شارع جيد، والآخر يحلم بعمل يدر عليه أرباحاً طائلة يعينه على التمتع بالدنيا، وكل هذه آمال، الأمل مرض خطير، أن يعيش الإنسان لوقت قد لا يدركه .

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

***

جلست مرة مع شخص خلال ساعة قال لي بالحرف الواحد: سئمت هذه الوظيفة، وسأطلب إعارة إلى البلد الفلاني، إلى الجزائر، وسأمضي فيه خمس سنوات، أما في الصيف فلن آتي إلى هنا، سأمضي كل صيف في بلد أوربي كما يحلو لي، سأمضي صيفاً كاملاً في فرنسا أتمتع بها بمناظرها بمقاصفها، وأطلع على الحياة الاجتماعية هناك، وفي الصيف الذي بعده سأمضيه في إيطاليا، وهكذا، وحينما أعود إلى بلدي أقدم استقالتي من وظيفتي، وأتقاعد، وأكون قد جهزت مبلغاً معقولاً أفتح به محلاً تجارياً أبيع فيه التحف والهدايا، لأن هذه لا تكسد، وأجلس في هذا المحل، ويكون أولادي قد كبروا فيعملون معي في هذا المحل، وعندئذ أمضي حياة سعيدة أنا وزوجتي ... والله هذا الذي يقول هذا الكلام مثقف ثقافة عالية، وله اختصاص، تركته، وذهبت إلى البيت، وبعد قليل نزلت إلى البلد لشأن من شؤوني، وفي طريق عودتي والله الذي لا إله إلا هو وجدت نعيه على الجدران .

هذه نتيجة الأمل، وذلك آمال عشرين سنة إلى الأمام، وعشية نام في القبر .

(ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمْ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

صاحب الآمال الدنيوية سيعلم يوم القيامة جسامة خطئه :

سوف يعلمون أنهم كانوا مخطئين، وسوف يعلمون أنهم كانوا مغبونين، وسوف يعلمون أنهم لن يفلحوا، لأنهم لم يكونوا أذكياء، والله الذي لا إله إلا هو لو اطلعت على حياة أغنى أغنياء العالم كيف يأكل، وكيف ينام ؟ كيف ينتقل من جزيرة إلى جزيرة ؟ كيف يمضي الليالي الحمراء ؟ لو اطلعت على حياة أحد هؤلاء الأغنياء في العالم لرأيت أن أفقر مؤمن في الأرض أسعد منه وأذكى منه، لماذا ؟ لأن هذا الغني المترف يسير في طريق مسدود ينتهي بالموت، وما أدراك ما بعد الموت من عذاب مقيم، وأما هذا المؤمن الفقير فيمشي في طريق مفتوح إلى الأبد، خطه البياني صاعد، فالبطولة أن تكون مؤمناً،

ليس من يقطع طرقاً بطلاً   إنما من يتق الله البطــل

***

هذا هو البطل، أن تعرف الله قبل فوات الأوان، وفي الوقت المناسب، لأن الإنسان إذا توفته الملائكة غافلاً عرف كل شيء، ولكن عرف كل شيء بعد فوات الأوان .

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق : 22)

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24)فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ(25)وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

(سورة الفجر)

قال عليه الصلاة والسلام :

((صلح أمرُ أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل))

[البيهقي في شعب الإيمان، والسيوطي في الجامع الصغير عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده]

من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت، إذا قال: غداً سأشتري معطفاً إن شاء الله، وقال: إن شاء الله فهو مؤمن طبعاً، أما إذا قال: غداً أشتري معطفاً، وهو موقن أنه سيعيش إلى الغد فقد أساء صحبة الموت .

سيدنا الحسن رضي الله عنه يقول : << ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل >> .

فكلمة (ذرهم)فيها معنى التهديد، وفيها معنى الترك، أي : دعهم لا تشغل نفسك بهم، هؤلاء ليسوا في مستواك، لن يقتدوا بك دعهم .

أبو الدرداء رضي الله عنه أقام في الشام، وذات مرة خطب بأهل الشام فقال: << يا أهل دمشق، ألا تسمعون من أخ لكم ناصح؟ إنه من كان قبلكم جمعوا كثيراً، وبنوا مشيداً، وأملوا بعيداً، فأصبح جمعهم بوراً، وبنيانهم قبوراً، وأملهم غروراً >> .

النبي عليه الصلاة والسلام قدم عليه وفد الأزد، فعن علقمة بن يزيد بن سويد الأزدي قال حدثني أبي عن جدي قال: وفدت سابع سبعة من قومي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما دخلنا عليه، وكلمناه أعجبه ما رآه من سمتنا وزيّنا (السمت الهدوء والوقار، والزي النظافة والأناقة)فقال: من أنتم؟ قلنا: مؤمنون ورب الكعبة، فتبسم النبي عليه الصلاة والسلام وقال : إن لكل قول حقيقة، فما حقيقة قولكم؟ (مؤمنون ما البرهان؟ ما كان النبي عليه الصلاة والسلام يرضى أن يأخذ الأمور هكذا)، فقلنا: خمس عشرة خصلة، خمس منها أمرتنا رسلك، أن نؤمن بها، وخمس منها أمرتنا أن نعمل بها، وخمس تخلقنا بها في الجاهلية، فنحن عليها إلا أن تكره منها شيئاً، فقال عليه الصلاة والسلام: ما الخمس التي أمرتكم بها رسلي؟ قلنا: أمرتنا رسلك أن نؤمن بالله وملائكته ورسله وكتبه، والبعث بعد الموت، فقال عليه الصلاة والسلام: وما الخمس التي أمرتكم أن تعملوا بها؟ قلنا: أمرتنا أن نقول: لا إله إلا الله، وأن

نقيم الصلاة، وأن تؤتي الزكاة، وأن نصوم رمضان، وأن نحج البيت إن استطعنا إلى ذلك سبيلاً، فقال عليه الصلاة والسلام: وما الخمس التي تخلقتم بها في الجاهلية؟ فقلنا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء والرضا بمر القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء، فقال عليه الصلاة والسلام: حكماء عقلاء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، ثم قال عليه الصلاة والسلام: وأنا أزيدكم خمساً فتتم لكم عشرون خصلة، إن كنتم كما تقولون فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غداً زائلون،

((يمضي سبع عشرة سنة في المحاكم من أجل دكان، وبعد ذلك يموت قبل أن يصدر القرار الأخير)، واتقوا الله الذي أنتم إليه ترجعون، وعليه تعرضون، وارغبوا فيما عليه تقدمون، وبه ستخلدون، فانصرفوا، وقد حفظوا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعملوا بها))

[ورد في الأثر]

ملخّص الآية :

ملخص هذه الآية : إياكم وطول الأمل، فإنه يفسد العمل، دع خواطرك لمّا تجلس مع نفسك في حديث داخلي، هذا الحديث الداخلي اجعله في طاعة الله، كيف أكون في مرتبة أعلى من هذه المرتبة ؟ كيف أحفظ كتاب الله، وكيف أعمل به ؟ كيف أتقرب إلى الله عز وجل ؟ كيف أهدي الناس ؟ اجعل خواطرك من هذا النوع، أما إذا جعلتها كما فعل الأعرابي الذي اضطجع تحت شجرة، وإلى جانبه قدر عسل، وقال : غداً أبيع هذا القدر، وأشتري به غنماً، وهذا الغنم يتوالد، ثم أصبح غنياً، فأشتري بيتاً، وأتزوج، وإن أغضبتني زوجتي ضربتها بعصاي هذه، فرفع العصا فكسر قدر العسل .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجر 015 - الدرس (2-9): تفسير الآيات 4 – 15
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-11-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة الحجر، ووصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ(4)مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ)

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ

حينما يصل إلى علمنا أن قرية أهلكها الله عز وجل بأيّ نوع من أنواع الإهلاك، قد تهلك القرية بزلزال، وقد تهلك ببركان، وقد تهلك بمجاعة، وقد تهلك بحرب .

(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ)

المعنى الأول : الإهلاك ليس بالصدفة :

المعنى الأول : لهذه الآية أن هذا الإهلاك مقدر بزمن معلوم من قِبل الله عز وجل، وأن هذا التقدير له أساس، والله سبحانه وتعالى من أسمائه الحكيم، ومن أسمائه العليم، ومن أسمائه السميع البصير، ومن أسمائه القوي، فهذا الأجل الذي أجلها الله إليه بتقدير عزيز عليم .

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[أحمد]

كل شيء بقضاء وقدر، والإيمان بالقضاء والقدر يذهب الهمّ والحزن .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((... احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[مسلم]

هذا هو المعنى الأول: أي: إن هذا الإهلاك لم يكن صدفة، لم يكن من غير حكمة، لم يكن من غير علم، لم يكن تعسفاً، إنما هو إهلاك بتقدير عزيز عليم، في الوقت المناسب، وفي المكان المناسب، وللأسباب

المناسبة .

(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ)

المعنى الثاني : لكل إنسان كتاب فيه عمله :

المعنى الثاني : كيف أن لكل إنسان أو لكل موظف في الذاتية إضبارة فيها حسناته وسيئاته، إنجازاته وعقوباته ومكافآته، كل حركة كل سكنة، كل عمل طيب، كل عمل سيئ مسطر في هذا الكتاب، يؤيد هذا المعنى قوله تعالى :

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا(13)اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

(سورة الإسراء)

وقال سبحانه :

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)

(سورة الكهف)

والمقصود به كتاب الأعمال .

هذه القرية إن كانت تتعامل بالربا، إن كانت تستبيح المحرمات، إن كان الفقير فيها مظلوماً، إن كان الغني فيها بخيلاً، إن كان الأمير فيها قاسياً، هذه القرية إن كان كسبها حراماً، إن أباحت المنكرت، إن فعلت الفواحش، إن اضطهد الفقير، واستعلى الغني، هذه القرية لها عندنا كتاب معلوم، أعمالها، انحرافاتها، تقصيراتها، معاصيها، تجاوزاتها، كل هذا في الكتاب المعلوم .

(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ)

أهلكت بموجبه، وبموجب أعمالها المسطورة في هذا الكتاب، فإذا سمعت عن كارثة، أو عن زلزال، أو عن فيضان، عن خسف، عن بركان، عن قهر، هذا إهلاك من الله عز وجل، والإهلاك له كتاب معلوم .

هذه القرية، أو هذا المجمع السكاني هذه المدينة لها عند الله كتاب معلوم يتقرر إهلاكها في ضوء هذا الكتاب، تستحق الهلاك في ضوء معطيات هذا الكتاب، في ضوء ما سطر عليها في هذا الكتاب .

الإهلاك إذاً ليس عشوائياً، ولا صدفة، ولا مزاجياً، ولا مرتجلاً، إنما إهلاك بتقديرٍ من عزيز عليم .

(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ(4)مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ)

لكل أمة أجل ووقت مسمًّى :

إذا رأيت أمة أو مجتمعاً يزداد قوة واستعلاء، ويزداد معصية انحرافاً وفجوراً فلا تقل : لمَ لم يهلك الله هذه القرية؟ إن لها عند الله كتاباً معلوماً، هذا المعنى الثالث، فلا تستبطئ إهلاك القرية الفاسدة الفاجرة المنحرفة، فإن لها عند الله كتاباً معلوماً .

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

(سورة طه)

إن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليسعدهم، ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً إهلاكهم في أجل مسمى، فلكل أمة أجل .

(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ(4)مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ)

الإهلاك له قانون :

الحقيقة : هناك من يستنبط من المفسرين أن إهلاك القرية أو إهلاك الأمة له عند الله قانون، مادام فيها ذرة من خير فالله سبحانه وتعالى يبقيها، فلعل هذا الخير ينمو، ولكن متى تستحق الأمة الهلاك ؟ إذا أصبحت عاتية عن أمر ربها، ولا خير فيها، ولا مثقال ذرة من خير فيها، إذا شردت عن الله شرود البعير، إذا عصت، واستعلت في عصيانها، إذا عصت، ورأت أن المعصية هي الصواب، وأن الدين شيء لا يصلح لهذا الزمن التي هي فيه، وأنه غيبي، وأن العلم هو كل شيء، إذا بلغت الأمة هذا المبلغ فلا خير فيها، لا خير يرجى من أبنائها، إذا استنفد الله كل أسباب الهداية، وشردوا على ربهم شرود البعير عندئذ تستحق الأمة الهلاك، ولا يهلك إلا هالك .

فلا تقل: لو حينما تهلك الأمة، أو تهلك القرية، فلا خير يرجى منها، قال :

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ(31)قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ(32)لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ(33)مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ(34)فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(35)فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة الذاريات)

أخرجنا هذا البيت، وأهلكنا الباقين، إذاً يمكن أن نستنبط من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى لا يهلك قرية إلا بعد أن يستنفد كل أسباب الهداية، حينما ترد الحق، حينما يضطهد الفقير، حينما يستعلي القوي، حينما يأكل القوي الضعيف، حينما تفجر فإنها تستحق الهلاك .

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا)

(سورة الإسراء)

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)

(سورة هود : 102)

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ(12)إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)

(سورة البروج)

(وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ)

وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ

هذا قول الملأ من قريش :

من الذين قالوا هذا؟ كفار قريش، زعماء الشرك، علية القوم، الملأ من قريش، أصحاب الحول والطول، الأغنياء المترفون، هؤلاء قالوا تهكماً واستهزاءً، واستخفافاً : إنك تزعم أنه نزل عليك الذكر، هذا بزعمك، بل إنك لمجنون، يبدو أنهم غارقون في ملذاتهم، في حفلاتهم، في حياتهم الدنيا، غارقون في مآكلهم، ولبس أجمل الثياب، يأكلون الربا، ويفعلون الموبقات، نظروا إلى هذا النبي الكريم عليه الصلاة والسلام فوجدوه عازفاً عن الدنيا، بعيداً عن شهواتها، مترفعاً عن حطامها، وجدوه حسب قيمهم الزائفة أنه مجنون .

لذلك مرَّ في بعض الأحاديث في الجامع الصغير قوله صلى الله عليه وسلم :

((اطلعت على أهل الجنة فوجدت عامة أهلها من البله))

[البزار، والسيوطي في الجامع الصغير]

قد يقع الإنسان في حيرة، كيف يكون المؤمن أبلهَ، وهو الكيس الفطن الحذر؟ لا بدّ أن يكون أبلهَ في نظر الناس، إذا أتيح لإنسان أن يأخذ مليوناً من الليرات بحركة بسيطة، بملاحظة يكتبها، بغض بصر يغضه عن مخالفة ما، فإذا ترفع، ورفض، ورضي بدخله اليسير مؤثراً هذا الدخل اليسير على هذا المال الوفير، لأنه من حرام، إن هذا الإنسان الورع النزيه ذا القيم، ذا المبادئ، يتهم في نظر زملائه ومن حوله بأنه مجنون أو أبله، نعم إنه أبله في نظر البله، ويا حبذا أن يكون المؤمن أبله في نظر أهل الدنيا .

هذا هو المعنى : هم غارقون في دنياهم الرخيصة، ونظروا إلى هذا النبي النظيف العفيف، الطاهر الحامد، المحمود، نظروا إليه نظرة شهوانية، نظرة منطلقة من قيمهم الأرضية، من خلودهم إلى الدنيا، فقالوا :

(وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ)

لابد من الصبر :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَطَلَعَتْ الشَّمْسُ، فَقَالَ :

((يَأْتِي اللَّهَ قَوْمٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُورُهُمْ كَنُورِ الشَّمْسِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَحْنُ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لَا، وَلَكُمْ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّهُمْ الْفُقَرَاءُ وَالْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، وَقَالَ : طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، فَقِيلَ : مَنْ الْغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : نَاسٌ صَالِحُونَ فِي نَاسِ سَوْءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ))

[أحمد في المسند]

وهؤلاء الأحباب أحباب رسول الله صلى الله عليه وسلم نوّه لهم النبي عليه الصلاة والسلام، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ))

(الترمذي)

مثلاً: حينما يزمع التاجر أن يطبق شرع الله في تجارته يصبح أضحوكة بين الناس، مجنونا، أتبيع بضاعة نسيئة بسعر غير نسيء؟ أي: كما تبيع نقداً، إذا أراد التاجر أن يكشف عيب البضاعة يصبح أضحوكة بين زملائه، إذا أراد الرجل ألا يأخذ مالاً حراماً، وهو متاح له فهو عند الناس يعد مجنوناً .

(وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ)

وقال تعالى :

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ(1)مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

(سورة القلم)

الله يدفع عن نبيه فرية الجنون :

إذا منحك الله رحمة عميت على من حولك، هم في وادٍ، وأنت في واد، هم لهم أذواق، وأنت لك ذوق، هم يسعدهم الطعام والشراب، وأنت يسعدك القرب من الله سبحانه وتعالى، هم تسعدهم الدنيا، وأنت يسعدك العلم بالله، ورتبة العلم أعلى الرتب .

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ(1)مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

النبي عليه الصلاة والسلام فيما جاء في الأثر أنه رأى في الطريق مجنوناً، فقال أصحابه رضي الله عنهم : هذا مجنون، فقال عله الصلاة والسلام :

((لا تقولوا هكذا، بل هذا مبتلى، المجنون من عصى الله))

[ورد في الأثر]

هذا هو المجنون :

المجنون من باع الآخرة الباقية بالدنيا الفانية، المجنون من آثر دنياه على آخرته فخسرهما معاً، والعاقل من آثر آخرته على دنياه فربحهما معاً، المجنون من سار في طريق مسدود ينتهي بالموت، والعاقل من سار في طريق الإيمان الذي يوصله إلى روضات الجنان .

العقل أصل الدين، كما قال عليه الصلاة والسلام، ومن لا عقل له لا دين له، من لا دين له لا عقل له، وأرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، فتبارك الذي قسم العقل بين عباده أشتاتاً، إن الرجلين ليستوي عملهما وبرهما، ويختلفان في العقل كالذرة إلى جانب أحد، وما قسم الله لعباده نصيباً أوفر من العقل واليقين، وإن أكيسكم أكثركم للموت ذكراً، وأحزمكم أشدكم له استعداداً، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزود لسكنى القبور، والتأهب ليوم النشور، فازداد عقلاً تزدد من ربك قرباً .

الشيء الوحيد الذي يميز الإنسان عن الحيوان عقله، سيدنا خالد حينما أسلم قال عليه الصلاة والسلام :

((عجبت لك يا خالد، أرى لك فكراً))

[ورد في الأثر]

لمَ لم تستخدمه؟ العقل أن تصل إلى الشيء قبل أن يصل إليك، فالمجنون من التفت إلى الدنيا على حساب الآخرة .

فالإنسان أحياناً حينما يسلم، حينما يسير في طريق مستقيم، حينما يلتزم الإسلام التزاماً صحيحاً قد يثور عليه أهله في البيت، قد تتعبه زوجته، قد يتعبه أبناؤه، قد يعارضه أبوه، قد تعارضه أمه، تقول له: غيرت خطة حياتنا، نشأنا على غير هذا، فرقت الأسرة .

أم سعد قالت لابنها سعد: يا بني، إما أن تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وإما أن أصوم حتى أموت، فقال: يا أمي، لو أن لك مئة نفس فخرجت واحدة واحدة ما كفرت بمحمد صلى الله عليه وسلم، فكلي إن شئت، أو لا تأكلي .

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة لقمان)

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

(سورة الكهف 28)

(وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ(6)لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

مسلك التعجيز : أرنا الملائكة :

أين الملائكة؟ الآن الآيات سلكت مسلكاً خاصاً، فهؤلاء الكفار إن لم يؤمنوا باختيارهم فلن يؤمنوا، ولو شاهدوا كل شيء، الإنسان مخير، ولن يؤمن إلا إذا أراد الهدى .

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى)

(سورة البقرة 148)

ما دمت يا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ تزعم أن ملكاً اسمه جبريل يأتيك بهذا الكتاب فأين هذا الملك؟ دعنا نراه كي نؤمن بك،(لو)بمعنى لولا أداة حَضّن .

(لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

يروى أن إنساناً معه ثروة كبيرة أراد أن يضعها عند شخص أمين بشرط أن يأكل ملعقة من الملح، هذه قصة يرويها الناس، فجاء رجل فقال: أنا آكل كل هذه الملعقة، قال: تفضل، وضع إصبعه في فمه، ولعق لعقة واحدة من الملح، وقال: أكلتها، قالوا: كيف؟ قال: من لم يؤثر به القليل لن يؤثر فيه الكثير .

الآيات مبثوثة في الكون فلماذا رؤية الملائكة؟

ملايين الآيات: الشمس آية، القمر آية، النجوم آية، المجرات آية، الأرض والجبال آية، الصحارى، السهول، الوديان، الأغوار، الأنهار، الينابيع، الأسماك، الأطيار، المواشي، الأنعام، الوحوش، زوجتك ابنك، السحاب، الأمطار، كل هذه الآيات الدقيقة أين هي ؟ ما فكرت فيها، تريد أن ترى الملك الذي يأتي بالوحي، وجاء بهذا الكتاب، إذا كنت في عمىً عن كل هذه الآيات فلن تؤمن بالله حتى لو رأيت الملائكة كلهم أجمعين .

هذه المثانة تتسع للتر ونصف من البول، من جعلها بهذا الحجم ؟ من الممكن أن تمضي ثماني ساعات في عمل دون أن تحتاج إلى أن تفرغها، هذا يحفظ لك شأنك بين الناس، يحفظ لك مكانتك، علماً أن الكليتين تقذفان في هذه المثانة في كل دقيقة نقطتين، فلولا المثانة لكانت حالة الإنسان لا تطاق، ولكانت كرامته مهدورة، من زود هذه المثانة بالعضلات ؟ لو لم يكن فيها عضلات والماء، إن لم يكن فوقه ضغط هوائي لا ينزل، والدليل مستودع الوقود لو كان محكم الإغلاق من أعلى الصنبور، فإنه لا يسمح

للوقود أن ينزل من أسفله، فهذه المثانة لولا هذه العضلات لا تفرغ .

هذه المثانة كيف يتم تفريغها ؟ هناك أعصاب في جدرانها تتحسس بالضغط، فإذا امتلأت بالبول ضغط البول على جدران المثانة، فتنبهت أعصاب الحس، فأرسلت إشارة إلى النخاع الشوكي أن قد امتلأت، يأتي النخاع الشوكي فيعطي أمرين، أمراً لعضلات المثانة بالتقلص، وأمراً للفتحة التي في أسفلها المضبوطة بعضلة بالاسترخاء، هذه العضلات تتقلص كي تدفع البول، وهذه العضلة المحكمة تسترخي كي تفتح الصنبور .

ومن ثم، فهل هذا الفعل منعكس شرطي، يعني أنه يتم في النخاع الشوكي ؟ الجواب : لا، فلو كان كذلك لفتح الصنبور، وهو لا يشعر، وهو في أحرج الأوقات، لا، هذا الأمر بإفراغ المثانة لا يتم إلا إذا صدق من المراجع العليا من الدماغ، في منطقة الوعي والمحاكمة والإدراك، وتأتي الموافقة على إفراغها في الوقت المناسب، أما إذا تعنتت هذه المراجع العليا، ولم توافق على إفراغها، وأصرت على قرارها عندئذ يقع الإنسان في خطر التسمم بالبول، يعود البول من الحالبين إلى الكليتين، فيختلط بالدم عندئذ تكون المصيبة الكبرى، في هذه الحالة المركز العصبي في النخاع الشوكي يعطي أمراً بإفراغ المثانة من دون أن يرجع إلى المراجع العليا فتفرغ المثانة.

تصميم من؟ هذه آية، القلب آية، المعدة آية خمس، فيها ثلاثون عصارة هاضمة، العين آية، فيها مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط في الشبكية، العدسة آية، العدسة مرنة يزداد تقعرها وتحدبها من أجل أن يبقى الخيال على الشبكية، وهذه العملية المعقدة تسمى المطابقة، هذه آية، الدماغ آية، الجمجمة مشدودة إلى الداخل بقوة تعادل أربعمئة كيلو، لو أنك أردت أن تفتح هذه الجمجمة فتحاً، أن تفكها من مفاصلها، وتمكنت من أحد سطوحها لاحتجت إلى أربعمئة كيلو كي تشدها بها، من جعل بين الجمجمة والدماغ سائلاً يقيه الصدمات، يوزع هذا السائل الصدمة على كل السطح على مبدأ الهيدروليك تماماً ؟ يأتي الضغط من جهة فيوزع على كامل السطح فلا يؤذي الدماغ، هذه كلها آيات .

هذه الأصابع آيات، هذه الخطوط والتجاعيد في الجلد آية، لولا هذه التجاعيد لما كان بإمكانك أن تثني أصابعك، كون بطن كف اليد خال من الشعر آية، لو كان الشعر هنا لكانت الحياة لا تطاق، لاضطررت أن تحلق ذقنك وباطن كفك كل يوم من الشعر، ليس في الفم شعر، هذه آية، ليس في الشعر أعصاب حس، هذه آية، لو أن في الشعر أعصاب حس لاضطررت أن تذهب إلى المستشفى كل يوم تحلق فيه ذقنك ليجريَ لك تخديراً، وبعد التخدير يأتي الحلاق ليحلق لك .

كل هذه الآيات التي لا تعد ولا تحصى، ألم يرها الإنسان فيأخذ منها العبرة ؟ بل يقولون : أين الملك الذي ينزل عليك يا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى تؤمن لك ؟ إن لم تؤمن بكل هذه الآيات فلن تؤمن بخرق العادات، إن لم تؤمن بهذه الآيات المعجزات فلن تؤمن بخرق قوانين الكون .

(لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ(7)مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ)

مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِين

لا تنزل الملائكة إلا بالعذاب في حينه :

الملائكة تنزل مرة واحدة بالعذاب، وبعد العذاب ينزل البلاء والهلاك، فلا عودة، ولا رجوع، ولا توبة، ولا توقف، لو أن الملائكة نزلت على قوم لنزلت بالعذاب المبين، وحينما تنزل الملائكة :

(مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ(8)إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون

اطمئن فإن القرآن محفوظ لا يُغيَّر :

هذه الآية تطمئننا أن هذا الكتاب تولى الله سبحانه وتعالى حفظه رغم كيد الكائدين، رغم تزوير المبطلين، محاولات تلو المحاولات جرت لتحريف هذا الكتاب، كل هذه المحاولات كشفت في وقت ولادتها، وانتهت .

المستعمرون حينما كانوا هنا في سوريا طبعوا خمسين ألف نسخة من كتاب الله، وحذفوا كلمة واحدة مؤلفة من ثلاثة أحرف، قال تعالى :

(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ)

(سورة آل عمران)

حذفوا كلمة(غير)، العملية كشفت في وقتها، وأتلفت المصاحف، وأحرقت .

شيء عجيب، إذا تولى الله سبحانه وتعالى حفظ هذا الكتاب فإنه يوفر له أناساً مخلصين يحفظونه، ويهتمون بدقائقه، وبمحكمه بمتشابه وبآياته، فربنا عز وجل تكفل حفظ هذا القرآن .

طبعاً هناك قصص كثيرة حول هذا الموضوع، يروى أن أحد الخلفاء التقى رجلاً من أهل الكتاب، وكان يهودياً، فدعاه إلى الإسلام فأبى، بعد عام رآه، وقد أسلم فقال : يا هذا ما حملك على إسلامك ؟ قال: أخذت التوراة، ونسختها، وبدلت، وزدت، وأنقصت، وبعتها في كنُس اليهود، فاشتروها مني، وقبلوها، وجئت بالإنجيل، وحذفت، وبدلت، وبعته في كنائس النصارى فاشتروه مني، وقبلوه مني، ثم جئت بالقرآن، فحذفت، وبدلت فيه، وغيرت، ولما أردت أن أبيعه للوراقين تصفحوه، فعرفوا كل ما

فعلت فيه، فردوه، ولم يشتره أحد :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

إذا تولى الله سبحانه وتعالى حفظ الكتاب فلا تستطيع جهة في الأرض أن تنتقص منه جزءاً، ولا حركة، ولا علامة وقف، ولا أن تزيد فيه، هذا الكتاب تولى الله حفظه، ماذا فعل الكائدون للإسلام ؟ كادوا في تفسيره، لذلك قال :

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

(سورة يونس : 39)

احذروا الإدلاء بالرأي في آيات القرآن :

إذاً: ليحذر الإنسان من أن يقرأ تفسير آية أو حديث لمغرض، كادوا الكيد في تفسيره، كان في الكتاب الإسرائيليات وهي قصص اليهود عن أنبيائهم ما أنزل الله بها من سلطان تتناقض مع كتاب الله تناقضاً كبيراً، فمن افتراءاتهم أن سيدنا داود مثلاً أحب تسعاً وتسعين امرأة، وتزوجهن، ثم علم أن أحد قواده له زوجة جميلة فدفعه إلى القتال، وطلب منهم أن يقدموه كي يموت فيأخذ زوجته، هذه بعض الإسرائيليات.

ربنا عز وجل ينفي عن نبينا هذه القصص، تقوّلوا على سيدنا يوسف أقوالاً هو منها بريء، تقوّلوا على سيدنا موسى، على سيدنا عيسى، كذلك، ولهذا حفظ الله نص القرآن، أما في تفسيره فيجب أن يكون الإنسان حذراً لئلا يدخل عليه من تفسير المغرضين والكائدين للإسلام والمسلمين .

انتبهوا إلى الأحاديث فمنها ما هو موضوع غير صحيح :

أمّا الحديث الشريف فهناك وضّاعون كثر وضعوا في الحديث مئات الألوف من الأحاديث الباطلة، وضعوها فحرموا بها الحلال، وحللوا بها الحرام، لذلك يجب أن ننتبه انتباهاً جيداً حينما نقرأ الحديث، أهو متواتر، أهو صحيح، أهو حسن، أهو ضعيف، أهو موضوع ؟ أما أن نقرأ الحديث هكذا من دون تصحيح، من دون تخريج، فهذا قد يدخل على الإسلام ما ليس فيه .

باب التبديل والتغيير في كتاب الله مغلق :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

بقي الباب مفتوحاً للتأويل وللحديث وضعاً وتأويلاً .

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(9)وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ(10)وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ(10)وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ

تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام :

هذه الآية تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام، هذا شأن المنافقين، وشأن الكفار يستخفون بالحق، يستخفون بالدعاة، يستخفون بالرسل، ويستهزئون بهم .

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ(14)اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة البقرة)

(كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ

المعنى الأول : الكفار كذبوا بالقرآن عن علم به :

هذه الآية دقيقة جداً، وأوجه تفسير وجدته لها أن الله سبحانه وتعالى كما أنه أفهم المؤمنين كتابه الكريم كذلك سلك القرآن في قلوب المجرمين، فقد وضح لهم الحق، فإذا كذبوا به فقد كذبوا به عن علم .

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)

(سورة فصلت 53)

هذا الكافر مستهدف من الله عز وجل، ومطلوب منه أن يؤمن، لو يعلم المعرضون انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي، ولماتوا شوقاً إليّ، يا داود هذه إرادتي في المعرضين، فكيف إرادتي في المقبلين ؟

(كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

يعني أن الله عز وجل يضع المجرم في ظرف، ويسمعه الكتاب، ويسمعه تفسيره أحياناً، فإذا أصرّ على كفره فقد تولى أن يسمعه هذا الكتاب، ورغم ذلك كابر، وعاند، هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني : المجرم غارق في شهواته :

المعنى الثاني : أن المجرم الغارق في شهواته، لو قرأ القرآن يفهمه فهماً معكوساً، لأن فيه قيوداً وحدوداً يرفضها، لذلك إذا قرأ الظالم القرآن كان عمىً عليه .

(أَقِمْ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا(78)وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا(79)وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا)

(سورة الإسراء)

وقال سبحانه :

(وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا)

(سورة الإسراء)

الظالم لنفسه البعيد الشهواني المنحرف، لو قرأ القرآن لوجده عمىً عليه، يفهمه فهماً معكوساً، ويزيده ضلالاً، هذا المعنى الثاني، هكذا يستخفون به .

(كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ(12)لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)

لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ

سنن الله وقوانينه نافذة في خلقه :

قوانين الله نافذة، فإما أن تؤمن بها فتنجو، وإما أن تسخر بها فتهلك، لو كلفنا إنساناً أن ينزل من الطائرة، وهو في الجو، فالهواء له قوانين، والسقوط له قوانين، الثقالة لها قوانين، إما أن يفهم هذه القوانين، ويتأدب معها، ويحترمها، فيستخدم المظلة، فينزل إلى الأرض سليماً، وإما أن يستخف بها، ويحتقرها، ويهزأ منها، فلا يستخدم المظلة، فينزل إلى الأرض مكسراً، القوانين نافذة، قوانين السقوط نافذة، لن تعطل، ولن تبدل، القرآن الكريم قوانينه نافذة .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

شيء قطعي، إما أن تؤمن بهذه الآية فتذكر الله عز وجل، فتسعد بقربه، وإما أن تتجاهلها فتشقى .

(لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)

خلت يعني مضت .

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ)

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ

لو أن السماء فتحت، وصعد هؤلاء إليها، ورأوا ما لا عين رأت، ورأوا ملكوت السماوات والأرض، ورأوا كل شيء :

(لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ

إن لم يكن الإيمان نابعاً من اختيارك، من إرادتك، فإن الإيمان القسري لا فائدة منه .

لو أن الله سبحانه وتعالى فتح لهم السماء، وعرجوا فيها، ورأوا ملكوت السماوات والأرض ما آمنوا، ماذا يقولون ؟

(لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

الهدى أن تأتي مطيعا لله :

منعنا عن النظر، رأينا خيالات ليست حقائق، هذه الآية دقيقة جداً، لو أن هذا يجعلهم مؤمنين لفعله الله سبحانه وتعالى، ولكن هذا لا يجدي، ولا ينفع، الهدى أن تأتي إلى الله طائعاً .

آيات كثيرة تبين أنه لن يهتدي الإنسان إلا إذا سلك الطريق الذي رسمه الله سبحانه وتعالى، فإذا اقترح هذا الإنسان على الله طريقاً للهدى فإن هذا الطريق لا يجدي، هم اقترحوا، وقالوا :

(وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ(6)لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ)

هم الذين اقترحوا أن يروا الملائكة، الله سبحانه وتعالى يجيبهم : ولو أننا فتحنا السماء أبواباً، وعرجوا فيها، ورأوا كل الملائكة دفعة واحدة، بل رأوا ملكوت السماوات والأرض :

(لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

لذلك نعود لقوله تعالى :

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

(سورة الأنفال)

القرآن لا يهتدي به إلا المستقيمون :

أما معنى قوله تعالى :

(كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

يعني هذه الكتاب لا يهتدي به إلا المطهرون .

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ(77)فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ(78)لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

(سورة الواقعة)

لا يهتدي به إلا المستقيم، أما المنحرف فإن الله سبحانه وتعالى يسلكه في قلبه كما يسلكه في قلوب المنافقين .

(كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ(12)لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ(13)وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ(14)لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

كلمة حول قوله تعالى :

(كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

المعنى الدقيق للآية :

المعنى دقيق : أن ربنا عز وجل من رحمته بعباده حتى الكافر والمعرض مستهدف من قِبل الله عز وجل، مدعو للإيمان، مدعو لمعرفته، كيف قال تعالى :

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(43)فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

(سورة طه)

معنى أول للآية : كلّ إنسان مستهدف من الله :

إذاً: كل إنسان على وجه الأرض مهما يكن كافراً، مهما يكن منحرفاً، مهما يكن مجرماً فهو مستهدفٌ من قِبل الله عز وجل، فلا بدّ من أن يتوضح لهذا المجرم بشكل أو بآخر حقيقة هذا الكتاب، بعد أن يعرف الحقيقة هو، فإما أن يستجيب أو لا يستجيب، وإن لم يستجب، وبعد أن عرف الحقيقة، فالحجة قائمة عليه، وليست له، هذا التفسير وجدته في كتاب محاسن التأويل .

والمعنى الأول : أن المجرم لإجرامه ولبعده وانغماسه في شهواته وإصراره على معاصيه إذا سمع آيات القرآن يستهزئ بها، لماذا ؟ لأنه إن لم يستهزئ بها حاصرته نفسه، ووقع في حرج داخلي، فهو يخطط أن يعيش في الدنيا فقط، الدنيا عنده كل شيء، فإذا سمع آيات القرآن تنقله للآخرة، وما فيها من

عذاب أليم، ومن نعيم مقيم يختل توازنه الداخلي، فيرد على هذا الاختلال بإنكاره هذا الكتاب أو الاستخفاف به، المعنيان دقيقان .

إما أن الله سبحانه وتعالى الفعل فعله والكسب كسب العبد، كأن تقول : رسب المعلم الطالب، الفعل فعل المعلم، والكسب كسب الطالب، تنفيذ الترسيب كان من قِبل المعلم .

(كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

معناه أن هذا المجرم لبعده عن الحق، وانغماسه في الشهوات بعيد عن أن يفهم كتاب الله، ولو فهمه لاختل توازنه، يرد على هذا الاختلال بالاستهزاء به، هذا هو المعنى الذي عند أكثر المفسرين .

معنى آخر للآية :

أما في تفسير محاسن التأويل يرى أن الله سبحانه وتعالى يسلك هذا القرآن في قلوب المجرمين كما يسلكه في قلوب المؤمنين، يوضح لهم كل شيء، يعني أن المنحرف يوضع في ظرف يستمع إلى الحق، ويكون مدعواً إلى حفلة كتاب مثلاً، حفلة قران، يقوم شخص، ويتكلم كلمة، الله يسمعه الآيات وما فيها من الإنذار والوعيد، ويسمعه أن هناك آخرة بعد الحياة الدنيا، فالآية تحتمل المعنيين .

(كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

وأما أن تفهم من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى منعهم من الهدى، ثم أدخلهم النار خالدين فيها فهذا المعنى لا يقبله ذو عقل سليم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجر 015 - الدرس (3-9): تفسير الآيات 16 – 19

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-11-28

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة الحجر، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ(14)لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ(15)وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ)

العلاقة بين الآيتين :

فما العلاقة بين هاتين الآيتين؟ الآية الأولى كما فسرت في الدرس الماضي أن الله سبحانه وتعالى يقول: لو أن الله عز وجل فتح لهؤلاء الكفار المعاندين باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون في السماوات السبع، ومن خلال عروجهم في السماوات السبع، ورأوا آيات الله كلها :

(لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ(15))

خرق نظام الكون لا يفيد الكافر في شيء :

إنّ خرق نظام الكون لا يفيد الكافر شيئاً، المعجزات التي تعتمد على خرق لنظم الكون لن تحمل الكافر الذي أصر على كفره، والذي أراد أن ينقاد لهوى نفسه لن تحمله على الإيمان، ما الذي يحمله على الإيمان؟ أن يفكر في خلق السماوات والأرض ابتداءً .

فالعلاقة بين الآيتين :

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ)

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ

بدل أن تطلبوا الملائكة، أو أن تعرجوا في السماء، أو أن يعود الميت حياً فيتكلم، بدل أن تطالبوا النبي عليه الصلاة والسلام بالمعجزات فكروا في خلق السماوات والأرض، الطريق أن تفكر في ملكوت السماوات والأرض، في الكون آلاف المعجزات خلق السماوات والأرض معجزة، وحسبك الكون معجزة .

فربنا عز وجل يقول :

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا)

دورة الأرض حول الشمس :

كلكم يعلم أن الأرض تدور حول نفسها في أربع وعشرين ساعة تقريباً تدور دورة واحدة، والأرض تدور حول الشمس في ثلاثمئة وخمسة وستين يوماً وربع، هذه الأرباع تجتمع فتكون السنة الكبيسة، يعني يكون شباط تسعةً وعشرين يوماً، والأرض لها دورات كثيرة حول نفسها، وحول الشمس، ومحورها المائل يدور حول نفسه في كل خمسة وعشرين ألف سنة دورة، وفي أثناء دورته يشكل أقواساً صغيرة، كل قوس يستغرق ثمانية عشر عاماً، وهذا المحور المائل تتغير درجة ميلانه من أربع وثلاثين إلى اثنتين وعشرين درجة في كل أربعين ألف سنة مرة، ودورة الأرض حول الشمس تشكل مستوى، هذا المستوى يدور حول نفسه في كل ألف ومئة عام دورة، وهناك دورات لا تعد ولا تحصى. يعنينا من هذه الدورات دورة الأرض حول الشمس، في كل شهر يظهر لسكان الأرض برج من الأبراج، فربنا عز وجل يقول في سورة أخرى :

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

(سورة البروج)

الانتقال من برج إلى برج :

هذه السماء الدنيا التي نحن بصددها حينما تدور أرضنا حول الشمس تنتقل عبر دورتها من برج إلى برج، فهناك برج الحمل، وبرج الثور، وبرج الجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، سميت هذه الأبراج بهذه الأسماء لأن هذا البرج يشبه العقرب، وهذا البرج يشبه الثور، وهذا البرج يشبه الحوت، وهذا البرج يشبه الميزان، فربنا عز وجل قال :

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

لو أن الإنسان له إلمام بالفلك، أو له رغبة في تحديد الأبراج لعرفها من خلال بعض الكتب، بعض الكتب ترسم لك البرج، وأنت ما عليك إلا أن تنظر إلى قبة السماء في الشهر الفلاني فترى البرج كما صوره القدماء بهذا الشكل الذي سموه به . فربنا عز وجل جعل السماء ذات أبراج، والأرض تدور حول الشمس، وتمر على هذه الأبراج برجاً بُرجاً في كل شهر برج .

ما هي الأبراج؟

وبعضهم قال: الأبراج هي المجموعة الشمسية، عطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشتري، وزحل، هذه النجوم التي تشكل بمجموعها المجموعة الشمسية، عطارد، يومه ثمانية وثمانون يوماً من أيام الأرض، يدور حول نفسه في ثمانية وثمانين يوماً، لو أن الأرض كذلك، يعني أن النهار أربع وعشرون ساعة ضرب ثمان وثمانين ماذا نفعل طوال النهار؟ كم مرة سوف ننام؟ كيف ننظم حياتنا؟ من يعمل ومن لا يعمل؟

عطارد يومه ثمانية وثمانون يوماً أرضياً، الزهرة يومها غير معروف، لكن سنتها مئتان وأربعة وعشرون يوماً، أما المريخ فسنته ستة وثمانية وثمانون جزءاً بالمئة، حوالي سنتين تقريباً، المشتري يومه تسع ساعات، وسنته أحد عشر عاماً، إلى أن يدور المريخ حول الشمس دورة يستغرق أحد عشر عاماً، وزحل يومه عشر ساعات، وسنته تسعة وعشرون عاماً، أورانس يومه عشر ساعات، وسنته أربعة وثمانون عاماً، فإذا قام إنسان أربعة وثمانين عاماً على أورانس يحصل هناك ربيع واحد، وصيف واحد، وشتاء واحد، وخريف واحد فقط، إذا عاش أربعين سنة يقول : ما رأيت ربيعاً، بل سمعت به .

هذا من فضل الله علينا، وليبتون يومه خمسة عشر يوماً، وسنته مئة وأربعة وستون عاماً، وأما بلوتون فسنته مئتان وثمانية وأربعون عاماً، وهي مدّة دورة هذا النجم حول الشمس .

بعضهم قال: الأبراج هي نجوم المجموعة الشمسية، وبعضهم قال: بل هي الأبراج المعروفة التي عرفها الفلكيون من قبل وصوروها، وسموها بأسماء مشابهة للحيوانات التي سميت بها، ربنا عز وجل قال :

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ)

الزينة مبدأ مطّرد في الخلق :

الزينة مستهدفة من قِبل الله عز وجل .

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل : 8)

أحياناً يركب الإنسان فرسه فيتباهى به، يركب فرسه لا لينتقل من مكان إلى مكان، بل ليظهر أمام الناس بهذه الزينة .

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ)

(سورة الملك)

فكلمة (زينة)في السماء وفي الأرض، تعني أن الجمال مستهدف من الله عز وجل، كأن الله يحب العبد النظيف، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّكُمْ قَادِمُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ، وَأَصْلِحُوا لِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِي النَّاسِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ))

[أبو داود عن سهل بن الحنظلية]

كأن الله سبحانه وتعالى يحب من العبد أن يكون مطهراً، أو طاهراً نظيفاً ذا رائحة طيبة، هندامه حسن، ثيابه أنيقة، عندما أقول : أنيقة فلا أعني غالية الثمن، لا والله، إذا اشتريت ثياباً فاجعلها مقبولة، سيدنا عمر نهى عن لبستين، نهى عن لبسة مهجورة، ونهى عن لبسة مشهورة، فكلمة :

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ)

منظر السماء منظر بهيج، منظر جميل، منظر ممتع، هذه المتعة مستهدفة من قِبل الحق جلّ وعلا .

لماذا حياتك فيها فوضى أيها المسلم ؟

إذاً: لعلك عرفت لماذا يعيب الكفار على المسلمين فوضوية محلاتهم التجارية، لماذا لا يكون محلك التجاري منظماً، مرتباً، نظيفاً، فيه نظام، وفيه توزيع نوعي للبضاعة ؟ كما عرفت أيضاً لماذا يعيب الكفار على المسلمين بيوتهم غير المرتبة؟ فالترتيب والتنظيم والتزيين في الحدود المعقولة هذا من واجبات المسلم .

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ(17)إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ)

وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ(17)إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ

طبعاً هذا من اختصاص الله سبحانه وتعالى شؤون السماء، وشؤون الملائكة، وشؤون الجن، هذا شيء لا نعرفه إلا بالقدر الذي ذكره الله لنا فيه .

مثلاً: في الكون قال تعالى :

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا(1)وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا)

(سورة الشمس)

لكن الكون فيه مجرات أخرى، فيه درب التبانة، فيه المرأة المسلسلة، فيه مجرة ماجلان، هذه لم تذكر، الله عز وجل ذكر شيئاً، وترك لك بقية الأشياء، ذكر لك آية على وجه المثال لا على سبيل الحصر .

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآَيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة يونس 101)

أمرك أن تنظر ماذا في السماوات والأرض، ذكر الزيتون، وذكر النخل، وذكر الرمان، ولم يذكر التفاح، مثلاً، هل أنت مكلف أن تفكر في التفاح ؟ نعم .

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس)

في الكون ذكر لنا الله شيئاً، وترك لنا الأشياء، ذكر لنا هذا الشيء لا على سبيل الحصر، بل على سبيل المثال، لكنه في شؤون الغيب الذي ذكره هو المصدر الوحيد لمعرفة ما في السماوات والأرض، هذه شؤون مغيبة عنّا، مصدرها الخبر الصادق،

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا)

(سورة النساء : 87)

الشهب :

الشهب لها تفسير علمي لا يتناقض مع التفسير القرآني، كوكب هش انتهت حياته، وخرج من مداره، وصل إلى جو الأرض، فاحتكاكه بطبقة الهواء جعلته يتشهب، ثم يتلاشى، هذا التفسير العلمي للشهب . والعلماء فرقوا بين الشهب والنيازك، إن النيزك تصل كتلته إلى الأرض، بينما الشهاب يتشهب، ويتلاشى في جو السماء، ولا يصل منه شيء إلى الأرض، إن وصل فهو نيزك، وإن لم يصل فهو شهاب، هذا التفسير العلمي يتكامل مع التفسير الديني، كالزلزال مثلاً، ربنا عز وجل قال :

(فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ)

(سورة الحجر :74)

يعني أن الله عز وجل أهلك قوم لوط بهذه الطريقة، لكن الزلزال له تفسير علمي، والتفسير العلمي يتكامل مع التفسير الديني .

الجن يُمنع عنهم بلوغ أخبار السماء :

فربنا عز وجل فيما يبدو من هذه الآيات ذكر أن الشياطين شياطين الجن والإنس، بل شياطين الجن على وجه الخصوص محظور عليهم أن يصلوا إلى السماء، مجال عملهم الأرض، أما السماء فموطن الملائكة، والملائكة من نوع، والجن من نوع آخر، لذلك لا يسمح للجن أن يصلوا إلى السماء، فيسترقوا السمع، الله عز وجل جعل السماء محفوظة من أن يصل الجن إليها، وبما أن الجن مخلوقات تتميز

بسرعة الحركة، فقد تحدّى الله عز وجل الجن والإنس فقال :

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)

(سورة الرحمن)

بدأ بالجن في هذه الآية، لأنها أقدر على خرق السماوات والأرض، وحينما قال الله عز وجل :

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)

(سورة الإسراء)

بدأ بالإنس في آية الإسراء، لأنها أقدر على صياغة اللغة .

إذاً: الجن لهم طبيعة، هذه المخلوقات لها طبيعة تتحرك بموجبها بسرعة، قال تعالى :

(قَالَ عِفْرِيتٌ مِنْ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ)

(سورة النمل)

يبدو أن الجن لو أراد أحدهم أن يصعد إلى السماء ليسترق السمع، وليعرف أسباب الوحي، وأسرار الملائكة، ومهمات الملائكة لما استطاع، لأن هذا ممنوع عنه، و لو أنه حاول لأتبعه شهاب ثاقب وأحرقه، العلماء قالوا : هذا الشهاب يتبعه، وقبل أن يحاول، قبل أن يستمع، وبعضهم قال : بعد أن يستمع، بعضهم قال : هذا الشهاب يميته، وبعضهم قال : بل يحرقه، على كلٍّ لا نملك في هذا الموضوع إلا هذه الآيات المحدودة التي ذكرها الله عز وجل .

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16)وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ(17))

معنى : رجيم

ومعنى رجيم بمعنى مرجوم، وزن فعيل في اللغة بمعنى مفعول، تقول : جريح بمعنى مجروح، قتيل بمعنى مقتول، فهذا الشيطان رجيم بمعنى مرجوم، ومعنى مرجوم أي : مبعد عن حضرة الله سبحانه وتعالى .

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

(سورة المطففين)

أكبر عقاب يناله الإنسان المسيء أن يطرد من رحمة الله، أن يبعد عن ذات الله المقدسة، البعد هو الشقاء، والقرب هو النعيم، فلذلك هذا الشيطان رجيم، أي : مرجوم، أي : مبعد عن الله سبحانه وتعالى، وكفى بهذا شقاءً للشيطان .

(وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ(17)إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ(18))

إن حاول أحد الجن أن يسترق السمع حينما يسمع إلى الملأ الأعلى والملائكة الذين أوكلهم الله بمهمات هذه المهمات لا يستطيع الجن أن يسمعوا إليها، لو فعلوا ذلك لأتبعهم شهاب مبين فأحرقهم .

مسالك اليقين أربعة :

إن مسالك اليقين أربعة مسالك، مسلك اليقين الحسي، ومسلك الاستدلال العقلي، ومسلك اليقين الإخباري، ومسلك الإشراق الروحي، فاليقين الإخباري هذا مسلك صحيح، فأنا أؤمن بالجن والملائكة، وأن هذه الشهب حينما يصعد أحدهم إلى السماء يأتيه شهاب فيحرقه، من خلال اليقين الإخباري الذي أخبرني الله به في هذا الموضع، وفي مواضع أخرى من كتاب الله .

لا تنسوا أن من هذه الأبراج برج العقرب يشبه العقرب تماماً، وأن في هذا البرج نجماً أكثر تألقاً، وأميل إلى اللون الأحمر سماه علماء الفلك قلب العقرب، وأن قلب العقرب قدر علماء الفلك حجمه بحجم الأرض والشمس مع المسافة بينهما .

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16)وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ(17)إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ(18))

هذا هو البديل لطلب المعجزات من النبي عليه الصلاة والسلام.

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ(14)لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ(15))

هذا الطريق مسدود، ذا الذي تعرض عليه المعجزة، وهو لا يريد الهدى فلن يؤمن بها، رغم عرضها عليه، لكن الذي يريد أن يهتدي فإن في الأرض والسماء آيات لا تعد ولا تحصى للموقنين .

لو تركنا السماء بنجومها، وكواكبها، وأبراجها، وشمسها، وقمرها، ومذنباتها، وكويكباتها، ومجراتها الكبيرة، والسماء بثقوبها السوداء، هذا الموضوع الذي كشفه العلماء حديثاً، مناطق ذات ضغط يفوق حدّ التصور، لو أن الأرض بأكملها دخلت في هذا الثقب الأسود لأصبحت بحجم البيضة مع بقاء وزنها كما هو .

مواقع النجوم :

بعضهم قال : البروج هي مطلق النجوم، وبعضهم قال : البروج مواقع النجوم، والله سبحانه وتعالى يقول :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(76))

(سورة الواقعة)

مواقع النجوم هي المسافات البينية بين النجوم، بعض المسافات ثلاثة عشر ألف مليون سنة ضوئية، أحدث مجرة اكتشفت اليوم تبعد عنا ثلاثة عشر ألف مليون سنة ضوئية، علماً بأن الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانية، فالقمر يبعد عنّا ثانية ضوئية واحدة، والضوء يجتاز المسافة بين الأرض والقمر في ثانية، الشمس في ثماني دقائق، قطر المجموعة الشمسية ثلاث عشرة ساعة، أقرب نجم إلينا نجم القطب أربعة آلاف سنة ضوئية، وهناك مجرات تبعد عنا مسافة مليوني سنة ضوئية، وهناك مجرات تبعد عنا ثلاثة عشر ألف مليون سنة ضوئية، واللهِ هذه آية كبيرة، إذاً :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(76))

ما من نجم في السماء إلا وله فلك يسير خلاله، لذلك ربنا عز وجل وصف السماء بوصف جامع مانع فقال :

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ(11))

(سورة الطارق)

الرجع يعني أن أيّ نجم يدور دورة، ويرجع إلى مكان انطلاقه، ثم يدور دورة، وهكذا، وفي عام 1910 رأى سكان الأرض مذنب هالي، وفي عام 1986 رأى سكان الأرض مذنب هالي مرة أخرى، إذاً هذا المذنب ينطلق من مكان ما ليرجع إلى المكان نفسه .

فمعنى مواقع النجوم أي: الأماكن المتعددة التي تمر بها خلال دورتها حول أحد الكواكب .

الآن إذا انتقلنا من السماء إلى الأرض نقرأ قول الله تعالى :

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا)

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا

الخطوط على الأرض كلّها ممدّدة :

يا سبحان الله! الخطوط كلها على الأرض ممددة، أينما سرت رأيت الطريق أمامك مفتوحاً، لو سرت إلى جهة الغرب رأيت البحر، ولو ركبت سفينة لوجدت الطريق مفتوحاً تصل إلى أوربة، ثم إلى أمريكا، وبعدها تصل إلى المحيط الهادي، ثم إلى شرق آسيا، الطرق كلها ممددة، ولا تتوافر هذه الخاصة إلا في شكل هندسي واحد، وهو الكرة، أي شكل هندسي آخر الخطوط تنتهي، ففي متوازي المستقيمات تنتهي الخطوط، في الموشور تنتهي الخطوط، في الأسطوانة تنتهي الخطوط، في القطع الناقص تنتهي الخطوط، في الهرم تنتهي الخطوط، أما في الكرة فالخطوط كلها متصلة، وهي الشكل

الهندسي الوحيد الذي لا تنقطع فيه الخطوط، وربنا عز وجل قال :

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا)

بعض العلماء ـ سامحهم الله ـ ظنوا أن هذه الآية ردّ على من زعم أن الأرض كروية، هكذا قرأت في التفسير، مع أن هذه الآية برهان على أن الأرض كرة .

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ)

وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ

الجبال من آيات الله العظيمة :

هذه الجبال آية من آيات الله سبحانه وتعالى، والأرض التي تدور حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلو مترًا في الثانية .

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

(سورة النمل)

الآن المجموعة الشمسية تدور حول نفسها في المجرة بسرعة 250 كم/ثا، الشمس، والأرض، وعطارد، والزهرة، والمريخ، والمشتري، وزحل، ولبيتون، وبلوتون، وكل الكواكب هذه تشكل المجموعة الشمسية، وهي كتلة واحدة تدور حول مركزها في المجرة بسرعة 250 كم/ثا .

درب التبانة مجرتنا الضخمة هذه المجرة تسير في الفضاء الكوني بسرعة 240,000 كم/ثا، سرعة المجرات تقترب من سرعة الضوء، الأرض ثلاثين كيلو مترًا في الثانية، الشمس والمجموعة الشمسية 250 كم/ثا، المجرة 240,000 كم/ثا، هذه حقائق تدرس في الجامعات على أنها مسلمات، هذه أشياء تجاوز العلم البحث في صحتها، ولكن هذا السكون الدائم من لطف الله عز وجل، وكذلك الاستقرار والجدران هي هيَ، بينما الحركة مذهلة .

الجبال ضمان لاستقرار الأرض :

قال بعض العلماء : هذا بفضل الجبال، فمثلاً العجلة إذا حركتها بسرعة اضطربت، فتوزن بميزان دقيق، ويوضع في بعض الأماكن قطعة من الرصاص لئلا تضطرب على السرعة العالية، الجبال التي جعلها الله على الأرض رواسي من أجل أن تدور الأرض حول نفسها، وحول الشمس والشمس، حول

مركز المجرة والمجرة في الفضاء الكوني أربع دورات، كل هذه السرعات، وأنت تجد أن المحصلة سكون تام بفضل هذه الجبال التي وضعت في أماكن محددة، وبحجوم محددة، بحيث يصبح المآل استقراراً

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ)

تأمّل في قوله : ألقينا

أما كلمة (ألقينا)فهل يلقى الجبل إلقاءً ! يا سبحان الله، معظم الجبال البركانية تشكلت من إلقاء الحمم من أعماق البراكين، كلمة (إلقاء)تعني أن الجبل ألقي إلقاءً، وهذا ينطبق على الجبال البركانية والرسوبية .

(وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ)

هذا تفسير .

الجبال أوتاد :

الجبال أيضاً ذكرها الله عز وجل في آيات أخرى بأنها أوتاد، لأن الأرض مجموعة طبقات، وهذه الطبقات متفاوتة في الكثافة، لو أن كل طبقة في الأرض دارت فإن لها عطالة خاصة، ومعنى عطالة أي: إنها تستجيب للحركة بسرعة بحسب كثافتها، فلولا الجبال لاضطربت الأرض في دورانها، أما الجبال فقد جعلها الله أوتاداً، فالجبل يربط طبقات الأرض بعضها ببعض، فيجعلها كتلة واحدة، والجبال كالبيضة التي تديرها، فهي قبل أن أسلقها تضطرب، لأن فيها بياض، وفيها صفار، وفيها قشر، كل طبقة في البيضة لها عطالة خاصة، فإذا أدرتها تضطرب، وتقع، أما إذا سلقت فإنها تدور كالبلبل، وهذا دليل أنها تجانست . فهذا الجبل كالوتد، يجعل طبقات الأرض كلها متجانسة،

(وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَانًا)

(سورة النحل : 81)

الجبال مصدَّات للريح :

أي : مصدات للرياح، الله عز وجل جعل مناطق دافئة بفضل جبال تكون كالمصدات، فتمنع الرياح الشرقية أو الغربية، في بعض المنافذ على البحر كحمص مثلاً الأشجار كلها مائلة بسبب النافذة التي فتحت بين سلاسل الجبال، فالجبال جعلها الله عز وجل أكناناً كالمصدات، في يوم شديد الرياح الغربية

اصعد إلى جبل قاسيون، وانتقل إلى الجهة الشرقية منه ينعدم الهواء كلياً . ربنا عز وجل عن طريق الجبال نوع مناخات الأرض، الجبل مصد، ففي سفح الجبل منطقة دافئة، وفي قمته منطقة باردة، يقصد الناس الجبال في أيام الصيف، ويسكنون في سفوحها في أيام الشتاء .

الجبال خزّان للمياه :

والجبال أيضاً جعلها الله عز وجل خزانات للمياه، لا أدري إلى أين تنتهي حدود نبع الفيجة، بعضهم قال : إلى مشارف حمص شمالاً، وإلى سيف البادية شرقاً، وإلى أواسط لبنان غرباً، وبعضهم قال : يمتد جوف هذا النبع إلى مناطق شاسعة شرقاً، قد تصل إلى إيران، من جعلها خزانات لهذا الماء الذي نستعمله كل يوم ؟ فربنا عز وجل قال :

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)

وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ

كلّ شيء موزون :

والله الذي لا إله إلا هو كلمة (موزون)أردت أن أفصل فيها، ولكن والله هذه الكلمة لا يكفي عام بأكمله كي يفصل في هذه الكلمة، شيء موزون، موزون مع ماذا؟

النبات موزون، سكان الأرض كم طنًّا من القمح يحتاجون في العام، الله عز وجل ينبت لهم من القمح ما يكفي حاجتهم .

القمح موزون :

هذا القمح مادة أساسية في الحياة، معنى موزون قال العلماء : هناك ثلاثة عشر ألف نوع من القمح، يجب أن ينبت في الجبال، وفي السهول، وفي السواحل، وفي أعماق الأرض، وفي المنطقة الحارة والباردة والمعتدلة، وفي كل أنحاء الأرض، لأنه غذاء أساسي للإنسان، لذلك فالله عز وجل جعله بكميات تكفي حاجة سكان الأرض، وجعله بأنواع منوعة تغطي كل المناطق المختلفة .

القمح كما يقول بعض العلماء: فيه العجب العجاب، لو أخذنا قمحة لها غلاف خارجي يزن تسعة بالمئة من وزنها، ولها غلاف داخلي يزن ثلاثة بالمئة من وزنها، وفي داخل القمح مادة نشوية تزن خمسة

وثمانين جزءاً من المئة من وزنها، والرشيم يزن أربعة بالمئة من وزنها، أودع الله في قشرة القمحة الخارجية فيتامين (ب1، ب2، ب6)وفيتامين (o)، وأودع في القشرة الخارجية الفسفور والحديد والكالسيوم واليود والبوتاسيوم والصوديوم والمغنيزيوم، ونحن متحضرون ننزع عن القمحة قشرتها، ونأكل اللب فقط وهو النشا، والفائدة كلها في قشر القمحة.

(مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)

هذا الفيتامين من أجل تنشيط حركة الأمعاء، هذا الفيتامين من أجل قوة البصر، هذا الفيتامين من أجل ليونة الأوعية والشرايين، هذه النخالة ندعها، ونأخذ لب القمح، ونأكله، وهو كالغراء كما قال بعض الأطباء، ربنا قال :

(مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)

هذه القمحة متوازنة توازناً دقيقاً مع حاجة الإنسان، تحتاج إلى فيتامين ب1 من أجل حركة الأمعاء، تحتاج إلى فيتامين ب2 من أجل شبكية العين، تحتاج إلى فيتامين ب6 و فيتامين ب ب، وفيتامين o، والفسفور كغذاء للدماغ والأعصاب، كما نحتاج إلى الحديد غذاء لكريات الدم الحمراء، إلى الكالسيوم غذاء للعظام، إلى السليكون، إلى اليود غذاء للغدة الدرقية، للبوتاسيوم غذاء لبعض الغدد الصماء في الجسم، إلى الصوديوم غذاء لمصل الدم، إلى المغنيزيوم، هذا كله ندعه جانباً، ونأخذ لب القمح، ونأكله .

هذا معنى موزون، أي : إن خالق الإنسان هو ذاته خالق القمح، فتركيب القمح يتناسب تناسباً دقيقاً معجزاً مع تركيب الإنسان .

اللفت موزون :

اللفت على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، أحد النباتات التي تحتوي على أكبر كمية من الكالسيوم، من يشكو ضعف وتقوس وهشاشة العظام فهذا النبات فيه أكبر كمية من الكالسيوم، وفيه كمية من المغنزيوم تقيه الأورام السرطانية، وفيه آزوت ينقي الدم، ويحصن العضوية، وفيه بوتاسيوم يجنب العضوية تراكم الشحوم، وفيه زرنيخ يسهم في تكوين الكريات البيض، وفيه فسفور يقوي الخلية العصبية، وأوراق اللفت غنية بالحديد والنحاس وباليود وبالفيتامين A ,B,C، وعصير اللفت يسهل تفتيت الحصى في الكليتين، ومغلي اللفت يطهر المجاري التنفسية، ويقي من الدمامل والخراجات والبثور الجلدية .

فربنا عز وجل خلق اللفت موزونًا، وهذه الآية تفسيرها لو اطلعت على كتب الطب كلها أو كتب الأغذية، ودرست كل غذاء ماذا يحتوي لكان هذا الموضوع تفسيراً متواضعاً لهذه الآية :

التمر موزون :

التمر مثلاً فيه فيتامين A، هذا يساعد على نمو الأطفال، وعلى ازدياد أوزانهم، ويحفظ رطوبة العين وبريقها، ويعين على الرؤية الصحيحة، ويقي العمى الليلي، فيه مادة تترسب على الشبكية، هذه المادة تقي العين من العمى الليلي، وهذا الفيتامين يقوي الأعصاب، ويساعد على السكينة والدعة، كله من هذا الفيتامين الموجود في التمر .

لا أستطيع إلا أن أورد بعض الأمثلة، أكثر كلمة تثير الإعجاب كلمة (موزون)، هذا النبات الذي خلقه الله لنا وصفه بأنه موزون، يتناسب تناسباً دقيقاً جداً مع خلق الإنسان وبنيته وحاجيته.

في مصر، وفي بعض القرى أقام طبيب ثلاث سنوات، ولم يجد حالة واحدة من أمراض القلب، تعجب، فإذا هذه القرية تأكل الترمس، وعندما حلل العلماء هذا النبات وجدوا فيه مادة مميعة للدم .

الملوخية الغذاء الوحيد المرمم للغشاء المخاطي في الأمعاء .

الثوم خافض للضغط مطهر للأمعاء .

البصل موزون :

البصل، قال أحد الباحثين إنه أجرى دراسة على مئة وخمسين صنفاً للنباتات القاتلة للجراثيم، فتبين له أن البصل في مقدمة هذه النباتات، يفوق التفاح في قيمته الغذائية، فيه كالسيوم عشرين ضعفاً عما في التفاح، فيه فسفور ضعفا ما في التفاح، فيه حديد وفيتامينات وكبريت، فيه مادة تعادل الأنسولين، هذه المادة الهامة جداً في الوقاية من أمراض السكر، في البصل مقوية للقلب وللدورة الدموية، فيه مادة مدرة للبول والصفراء، فيه مادة ملينة للأمعاء، فيه مادة مقوية للقدرة الحيوية، شيء موزون، البصل موزون هكذا طبيعة تركيبه، الثوم موزون، السبانخ فيها حديد، العدس فيه حديد، الترمس فيه مادة مميعة للدم، الملوخية فيها مادة مرممة للغشاء المخاطي في الأمعاء، هذا غيض من فيض .

لو أردت أن أعرض ما في هذا الموضوع لاستغرق تدريسه سنوات، كل مادة بنيتها تركيبها فوائدها الغذائية والعلاجية فسبحان الله ! .

فكلمة (موزون)لو أن العلماء في الأرض اجتمعوا على دراسة النباتات واحداً وَاحداً وتحليلها ما زادوا بعد كل هذه الدراسات على أنهم فسروا هذه الكلمة .

(وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)

الحليب موزون :

الحليب موزون، حليب البقر موزون، حليب الغنم موزون، التفاح موزون، هذا المعنى الأولي، معنى بنية الفاكهة أو النبات .

معنى آخر : الحجم الكلي موزون، لو كانت كل شجرة من أشجار التفاح تنبت خمس تفاحات، فهذا الإنتاج غير موزون، ولا يتناسب مع حجم الأرض، فكلمة (موزون)تعنى كمية الفاكهة، وتعني أيضاً نوعية الفاكهة، هناك عنب للعصير، وعنب يكون فاكهة نفيسة جداً، وعنب للزبيب، وعنب بلا بزر، أنواع منوعة، ما من نوع من أنواع الفاكهة والخضار إلا ولها أنواع منوعة، البصل الأبيض طيب، لكن لا يُموَّن، هذا يؤكل مباشرة، أما للتموين فالأصفر هو الأجود، هذه المعلومات تحتاج إلى خبراء .

كلمة (موزون)كم من أنواع فاكهة الموجودة ؟ كم نوعًا من الخضراوات ؟ كم نوعًا من المحاصيل ؟ كميات الأنواع وعدد الأنواع، التفاحة مثلاً الشكل موزون، واللون بهيج جذاب، الحجم موزون، لو كانت التفاحة بحجم البطيخ لأكلنا قسماً واسودَّ الباقي، لو كان البطيخ بحجم العنب و نصفها قشر لكان هناك إشكاليات كثيرة، العنب له حجم، والكمثرى لها حجم، والقمح له حجم موزون، لو كان القمح ينضج تباعاً كبقية الفواكه لعُدَّ غير موزون، إذاً المحاصيل من القمح ونحوه تنضج في يوم واحد، والفواكه تنضج تباعاً، وهذا حقاً شيء موزون، فسبحان الله الذي أحسن كل شيء خلقه، وقدره تقديراً !.

الشيء الذي يخزن أغلب الظن ينضج في يوم واحد، والشيء المستهلك ينضج تباعاً، فكلمة (موزون)يمكن أن تفكر فيها لسنوات، هذا الطعام الذي تأكله كله موزون .

(وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)

عندنا موضوعات عن التمر والثوم والبصل والفجل، وموضوعات عن بعض الفواكه والثمار، والمعلومات لا يتسع لها درس في المسجد ولا ساعة من ساعات دروس التفسير، لكن المؤمن يمسك بطرف الخيط يتابع البحث، لو أتيح لك أن تقرأ عن الفواكه والثمار فلا تتردد، اقرأ تعرف المزيد مما يعنيه قوله تعالى :

(وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ(21)وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ(22)وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ)

هذه الآيات إن شاء الله تعالى نحاول أن نفسرها في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجر 015 - الدرس (4-9): تفسير الآيات 20 – 23

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-12-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة الحجر .

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ(17)إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ(18)وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ(19)وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ(21)وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ(22)وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ)

مظاهر الإعجاز في المخلوقات

ترون معي أن هذه الآيات بمجملها تتحدث عن مظاهر الإعجاز في الخلق، وكيف أن التفكر في الآيات الكونية هو الطريق إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، ثم إن الله سبحانه وتعالى قال قبْل هذه الآيات :

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ(14)لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

خرق النظم الكونية لا يجدي فتيلاً، ولكن التفكر في الآيات الكونية هو الطريق لمعرفة الله سبحانه وتعالى، وقد تحدثنا في الدرس الماضي عن بعض الآيات في السماء، ثم أتبعها الله سبحانه وتعالى بآيات في الأرض، كيف أن :

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)

وقفنا عند هذه الآية، لكن توضيحاً لآية سبقت لابد منه، وهي قوله تعالى :

(وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ(17)إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ)

عالَم الغيب لا يدرك بالحواس بل بالخبر الصحيح :

في درس العقيدة أشرت إلى أن الشيء إذا ظهرت عينه أدركناه بحواسنا، وأن الشيء إذا غابت عينه، وبقي أثره أدركناه بفكرنا، أما إذا غابت عينه وأثره فلا يمكن أن نعرفه إلا بالخبر الصادق، فالشمس ظاهرة للعيان، هذه ندركها بحواسنا، والروح تبدو لنا آثارها، فنستدل على وجود الروح في الإنسان

بحركته ونطقه وسمعه وبصره، وأما الشيء الذي غابت عنا عينه، وغابت عنا آثاره فلا سبيل إلى معرفته إلا عن طريق الخبر الصادق .

عالم الجن مغيب عنا، والدليل قوله تعالى :

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ)

(سورة الأعراف 27)

إذاً عالم الجن مغيب عنا، السبيل إلى معرفة هذا العالم هو الخبر الصادق، والله سبحانه وتعالى أخبرنا أن الجن مكانهم في الأرض، والملائكة مكانهم في السماء، فإذا أراد الجن أن يجاوزوا الحدود ليسترقوا السمع، وليعرفوا أخبار السماء يأتي شهاب ثاقب فيحرق هذا الجني الذي سولت له نفسه أن يسترق السمع، كل ما نملك من معلومات حول هذا الموضوع هي هذه الآيات، لذلك لا أنا ولا غيري يستطيع أن يزيد عليها شيئاً، إلا أن الذي قلته في الدرس الماضي هو أن الشهب لها تفسير علمي، وهذا التفسير العلمي لا يتناقض مع كتاب الله بل يتكامل معه .

الشهب كويكبات خرجت من مدارها، فسقطت في جو الأرض، في أثناء احتكاكها بطبقة الجو تشهبت وتلاشت، النيازك تصل إلى الأرض، لكن الشهب تتشهب في جو السماء، هذا هو التفسير العلمي للشهب، وهذا لا يمنع أن يكون الشهاب هو شهاب ثاقب يرصده الله سبحانه وتعالى لكل من أراد من الجن أن يتجاوز الحدود .

على كلٍّ، هذا الموضوع لا نملك فيه إلا ما قال الله عز وجل، موضوع الجن، موضوع الملائكة، موضوع عالم الأزل، موضوع عالم الآخرة، هذه العوالم مغيبة عنا بذواتها وبآثارها، إذاً لا تعرفها إلا من طريق الخبر الصادق، لكنك إذا فكرت في الكون فإنه تحت سمعك وبصرك، المجال في التفكر والدرس والتأمل والتبحر والاستقصاء والمشاهدة والاستنباط والملاحظة مجال واسع جداً، وفي الأثر : تفكروا في المخلوقات ولا تفكروا في الخالق فتهلكوا.

التفكر في ذات الله باب محظور :

باب آخر محظور علينا الدخول فيه، وهو التفكر في ذات الله، لأن العبد عبد والرب رب، لا يعرف الله إلا الله، نحن سمح لنا أن نتفكر في الكون لكي نتعرف إلى طرف من أسماء الله الحسنى، أما أن نفكر في ذاته كيف يرى ؟ كيف يسمع ؟ كيف يحاسب الناس دفعة واحدة ؟ هذا من باب التفكر في ذات الله وقد نهينا عنه . أما بقية الآيات الدالة على عظمة الله سبحانه وتعالى، والتي وردت في هذه السورة الكريمة فقوله تعالى:

(وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ)

وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ

ما هي المعايش ؟

المعايش جمع معيشة، والمعيشة تحتمل معاني عدة، وجعلنا لكم فيها هذه الهاء تعود على الأرض، لقوله تعالى :

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ(19)وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ)

المعنى الأول : في الأرض ثروات لا يعلمها إلا الله :

فيها أي : في الأرض، وأما وجعلنا لكم أي : هذا الذي ذكره الله سبحانه وتعالى خلق خصيصى لكم، من أجلكم وتكريماً لكم .

(وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ)

يعني أن الله سبحانه وتعالى أودع في الأرض ثروات لا يعلمها إلا هو .

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

(سورة طه)

المعادن:

جعل في الأرض المعادن : الحديد، النحاس، الفضة، الذهب، القصدير، الرصاص، وجعل أشباه المعادن، هذه كلها يستخرجها الإنسان، ويصنعها ليعيش بها وعن طريقها، يعيش بها أي : تصبح هذه المعادن وأشباه المعادن وسيلة للعمل .

الأخشاب :

خلق الله الأخشاب، واستخدم الإنسان الخشب لصناعة الأبواب، وصناعة الأثاث، وصناعة ما لا يحصى من المصنوعات، لولا الخشب لتوقفت كل الصناعات المعتمدة عليه، لولا الحديد لتوقفت كل النشاطات البشرية المعتمدة على الحديد .

(وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ)

الأخشاب عالم، كما قال لي بعضهم : أكثر من ألف نوع للخشب، هناك حاجات لا يصلح لها إلا خشب خاص، النوافذ معرضة للحر والقرّ والشمس والمطر، أيّ خشب آخر لو وضع مكان الخشب الذي تصنع منه النوافذ لساء الأمر، وهناك خشب يستخدم للأثاث، وهناك خشب يستخدم كجسور للبيوت، وهناك خشب يستخدم للصناعات الخفيفة، وهناك خشب يستخدم كدواء .

أنواع الخشب لا يعلمها إلا الله، ولكل نوع خصائص، هناك خشب يستخدم كقاعدة تحت الآلات، لأن أليافه تجمع بين المرونة والليونة، فألياف هذا الخشب بمرونتها تمتص الصدمة، فالخشب معايش، والحديد والنحاس والقصدير، وكل هذه الثروات الباطنة التي أودعها الله في الأرض إنما جعلت مجالات للعمل .

النباتات :

أما النباتات، فهناك نباتات دوائية، وهناك نباتات تزيينية، وهناك نباتات غذائية، والغذاء أنواع محاصيل، وخضراوات وفواكه، لكل نوع من هذه النباتات مواسم وخصائص وأشياء دقيقة جداً يتعامل بها الإنسان، عالم النبات من المعايش .

الأسماك :

وعالم الأسماك من المعايش، كم من البشر يعيش على صيد الأسماك! كم من البشر يعيش على تصنيع الثروة البحرية! كم من الناس يعيش على النباتات! كم من البشر يعيش على المعادن !

الله سبحانه وتعالى جعل الأرض بجبالها وبسهولها، بمعادنها بثرواتها بحيواناتها بأطيارها بأسماكها، بكل شيء أودعه فيها جعلت هذه الأشياء معايش، يعني مجالات للعمل .

هكذا يكسب الناس رزقهم ، بعضهم من بعض :

ارتفاع الحرارة، كم من البشر يكسب رزقه من التبريد، والمكيفات والمراوح والألبسة الحريرية والمرطبات والثلج، كم من البشر يكسب رزقه من التدفئة، المدافئ والبسط والسجاد والألبسة الصوفية والطعام الذي يناسب الشتاء .

(وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ)

كم من البشر يعيش أو يكسب رزقه من خلال طول شعر الإنسان، كم من البشر يعيش بفضل حشرة خلقها الله عز وجل يكافحها المزارعون، وتصنع لها الأدوية، يختص لها المختصون، وتنشأ لها المعامل

لصناعة هذه الأدوية، ثم تنقل هذه الأدوية، ولها مكاتب تجارية وسيارات وشحن، يعني كم من إنسان عمل في نقل الدواء وتصنيعه وبيعه وتوزيعه بسبب هذه الحشرات التي خلقها الله سبحانه وتعالى .

كم من البشر يعيش على وسائل رعاية صحة الإنسان، لولا المرض كم مليوناً يموتون جوعاً ؟ بناء المستشفيات وتأثيثها، الموظفون الإداريون، الأطباء، الممرضون، كم من البشر يعيش على موضوع المرض، فالمرض سبب للرزق، والحرارة سبب للرزق، والبرودة سبب للرزق، والحشرات النباتية سبب للرزق، والمعادن التي أودعها الله في الأرض سبب للرزق، وأشباه المعادن والعناصر والأسماك والأطيار والحيوانات والجراثيم والعصيات والفيروسات، إذاً فالله عز وجل أودع في الأرض كل شيء وجعل هذه الأشياء مجالاً للعمل، وهذا الموضوع لا ينتهي في هذا الدرس، هذه نماذج يعني فكّر ملياً وانظر وتأمّل .

أحياناً الرياح العاتية تكسب الناس أرزاقهم، أحياناً بعض النكبات مصائب قوم عند قوم فوائد، سبحان رازق العباد، سبحان الله كيف يرزق عباده، هذه معايش .

المعنى الثاني : في الإنسان إمكانات لكسب الرزق :

الشيء الثاني، والأخطر أن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان إمكانات كسب الرزق، أعطاه الفكر، أعطاه قدرة على التعلم، أعطاه قدرة على أن ينمي قدراته، التعلم والخبرات والمعارف والمهارات والأعمال اليدوية ذات الصناعة الفائقة، هذا كله من فضل الله سبحانه وتعالى، كلما شاهدت إنساناً يتقن عمله، أقول في نفسي: سبحان من أعان كل امرئٍ على صنعته**!** يبدو لك هذا العمل مستحيلاً، لكنه بالنسبة لصاحبه فسهل جداً، هذا يعمل في الأقمشة، وهذا يعمل في اللحوم، وهذا يعمل في الخياطة، وهذا يعمل في الحلاقة، وهذا يعمل في المناجم، وهذا يعمل في تقطيع الرخام، وتقطيع الرخام من الجبال هذا أمر يكاد يكون مستحيلاً، لكن على أصحابه وأربابه شيء سهل، وهذا يغوص في أعماق البحر ليصطاد اللؤلؤ، وهذا يطير في الجو، وهذا يخترع، وهذا يكتشف، سبحان الله**!** فإنه أعطى الإنسان قدرات عامة، وقدرات خاصة، وإمكانات التعلم، وإمكانات الاستفادة من التجارب، أعطاه القدرة على الإبداع، هذا كله من فضل الله سبحانه وتعالى، وهذا يدخل في قوله تعالى :

(وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ)

المعنى الثالث : الله هو خالق الرزق :

شيء آخر، خلق الله الرزق، هذا هو المعنى الثالث، المعايش جميع المواد التي يتعامل معها الإنسان التي يكسب بها قوته، والمعايش الإمكانيات التي أعطاها الله للإنسان، بئر للنفط في بعض البحار، تصور كيف غاص الإنسان، وعرف النفط في هذا المكان؟ وكيف وصل إليه؟ وكيف أنشأ هذه البئر في قاع البحر؟ وكيف استخرجه؟ من أعطاه القدرة على ذلك؟ الله سبحانه وتعالى .

لذلك حتى هذه الإمكانيات التي زود الله بها الإنسان هي من خلق الله سبحانه وتعالى، ومن توفيق الله، ومن إلهام الله، حتى الفكرة التي يكتشفها العلماء هي إلهام من الله عز وجل يعترف بهذا جميع الناس، جميع العلماء يقولون: إشراق، قفزة في المجهول، اكتشاف .

المعنى الثالث للمعايش: أن الله خلق هذا النبات لتأكله، خلق القمح، خلق الشعير، خلق العدس، خلق كل أنواع المحاصيل، خلق كل أنواع الخضراوات، خلق كل أنواع الفواكه بشكل وحجم وطعم ورائحة وقوام مناسب للإنسان، وقد فصلنا في الدرس الماضي في قوله تعالى :

(وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ)

كل شيء بحجم ولون وشكل وطعم :

فالله سبحانه وتعالى جعل هذا الرزق بحجمه وبكميته ولونه وشكله وطعمه وطريقة الوصول إليه، وطريقة نقله، وطريقة حفظه، وطريقة فساده كذلك، فساد المحاصيل نعم من نعم المولى، لولا فساد المحاصيل لاحتكرت المحاصيل، ولكن السوس يفسد هذه المحاصيل فلا بدّ من بيعها في الوقت المناسب، وإلا تفقد قيمتها، كل شيء له آية تدل على أنه واحد، فهذه المعايش هي ما خلقه الله في الأرض، وما تحت الأرض، وما على سطح الأرض، ومن المعايش كذلك الإمكانيات التي زود الله بها الإنسان .

كيف يقطع الحديد؟ كيف ينحت الصخر؟ كيف يصنع القماش؟ كان قطناً كيف غزله؟ كيف جعله خيوطاً؟ كيف نسجه كيف صبغه؟ إمكانات أعطاها الله للبشر .

كل حاجة في الإنسان لها ما يقابلها في المخلوقات :

الله خلق الطعام والشراب، وخلق الماء، وخلق لكل حاجة في جسمك شيئاً في الأرض، قد تحس أن هناك مغصاً معوياً خلق لك الكمون، قد تحس أن هناك التهاباً في حلقك خلق لك الزهورات، قد تحس أن

هناك كتماً في أمعائك، خلق لك الملينات، هناك مواد تهدئ، ومواد تلين، ومواد تسكن، وما هذه الأدوية التي تراها عينك في الصيدليات قد يسبق الوهم إلى خاطرك أنه من صنع البشر، لا والله، إن تعليبها من صنع البشر، ولكنها مواد خلقها الله في الأرض، اكتشفها الإنسان، وعرف خصائصها، وعرف استطباباتها، وصنعها، وحفظها، وباعها .

الصيدلية على اتساع أنواع الأدوية فيها، إن هذه الأدوية كلها أساسها مواد نباتية أو كيميائية، خلقها الله سبحانه وتعالى، هذه المادة توسع الشرايين، هذه المادة تنظم ضربات القلب، هذه المادة تعين على إدرار البول، هذه المادة تغلف المعدة من الداخل بغلاف يمنع عنها التقرح، هذه المادة تهدئ الأعصاب، هذه المادة مرممة لقرنية العين، سبحان الله اقرأ نشرات الأدوية تجد من ميزات هذه المادة الفعالة كذا وكذا، من أودع فيها هذه الميزات ؟ الله رب العالمين، كل شيء تراه عينك ينطق بحمده، ويسبح بعظمته، هذه معايش .

هذا البلد الأمين كل شيء فيه، فأنت بحاجة إليه قد تحتاج إلى شجرة تظلك أمام البيت، هناك أشجار مهمتها الوحيدة أن تكون مظلة لك، أوراقها دائمة الخضرة وحجمها مناسب منظرها جميل، هناك أشجار مهمتها أن تعطيك عود الأراك كي تنظف به أسنانك، سبعون مادة أودعها الله في السواك، معطرة، ومطهرة، ومقوية للثة، إلى ما لا يعد ولا يحصى، هناك نبات خلق كي تنظف به ما بين أسنانك، وهو الخلة، هناك نبات خلق من أجل أن تنظف بثماره جلدك، هذا هو الليف الطبيعي، هناك نبات جعل لك من أجل إمتاع العين، أنواع الأزهار، أنواع الأبصال، ألوان تأخذ بالألباب، أنواع لا تعد ولا تحصى نبات يعيش في الصالونات من أجلك، إذا جلست في غرفة الجلوس فهناك نباتات خاصة لهذه الغرفة من أجل أن تمتع عينيك بها، وتسبح الذي خلقها، وهناك نباتات تعيش في الصحراء، ونباتات تعيش في الأنهار وفي البحار، وفي كل مكان هناك نباتات لها طباع تتآلف مع جو الأرض، هذه معايش .

ينتهي الحبر ولا تنتهي كلمات الله :

والله الذي لا إله إلا هو هذا غيض من فيض، أحس أن قدرة اللغة عاجزة عن توضيح كل شيء، وأن ضيق الوقت لا يكفي لتوضيح كل شيء، وأن كل كلمة في كتاب الله مشحونة بطاقات تعبيرية لو أمضينا كل حياتنا لما استنفذناها، وهذا يؤكده قوله تعالى :

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)

(سورة الكهف)

بحار الأرض، البحار المحيطة والمحاطة، البحار في الأرض أربعة أخماس مساحة الأرض، وما القارات الخمس إلا خمس الأرض، وهذه البحار تزيد أعماقها في بعض الأماكن على اثني عشر كيلو مترًا تحت الأرض، لو أن البحار كلها ومثلها أيضاً كانت مداداً أي حبراً لكلمات الله سبحانه وتعالى ما نفدت .

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)

(وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ)

وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ

كل دابة على الله رزقها :

قال بعض المفسرين : إنها الحيوانات التي يتولى الله سبحانه وتعالى رزقها، في الأرض حيوانات، وفي الجبال حيوانات، في أعماق البحار حيوانات، في كل مكان حيوانات تسبح ربها، ويتولى الله رزقها.

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

(سورة هود)

الدابة جاءت نكرة، وهذا التنكير تنكير الشمول، و(من)لاستغراق أفراد كل نوع على حده، ما من دابة إلا على الله رزقها حصراً، وعلى الله تعني : على سبيل الإلزام، لأن كلمة(على)إذا اقترنت بلفظ الجلالة فهي تعني أن الله سبحانه ألزم نفسه .

كل أعضاء الإنسان على الله رزقها :

هذه الأعضاء التي في جسدك الله يرزقها، البنكرياس له رزق خاص يأتي به الدم، وقرنية العين لها رزق خاص، وخلط العين الزجاجي له رزق خاص، والأشعار لها رزق خاص، والعظام لها رزق خاص، والعضلات لها رزق خاص، والأمعاء لها رزق خاص، والغدة النخامية لها رزق خاص، وكل عضو وكل جهاز وكل غدة في جسدك لها رزق خاص يأتيها عن طريق الدم وأنت لا تدري .

(وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ)

هل تعرف كيف يتغذي دماغك؟ لا والله، هل تعرف كيف تتغذي أعصابك؟ لا والله، هل تعرف كيف يتغذى الجنين عن طريق المشيمة ؟

(وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ)

هل تعرف كيف تتغذى الأسماك في البحار؟ لا والله .

(وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (20)وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

أي شيء يخطر في بالك فخزائنه عند الله، لكن هذا التقنين الذي تراه عينك ما هو تقنين عجز، وإنما هو تقنين حكمة، وتقنين تأديب .

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ

كل شيء بقدر وحكمة :

هذا القدر هو القدر المناسب بحسب علم الله، وبحسب حكمته، والله سبحانه وتعالى يقول :

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ)

(سورة الشورى)

(وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

وهذا من علم الله وحكمته، ويجب أن يعلم المؤمن علم اليقين أن الرزق من عند الله وأن هذا القدر المعلوم الذي نزله إنما هو في منتهى الحكمة، لذلك عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ))

[ابن ماجه]

اللهم أغننا بحلالك عن حرامك، اصبر عن الحرام يأتك الحلال .

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

لا يعرف مدلول هذه الآية إلا من كان عمله بمواد يفتقدها أحياناً، يتمنى لو أن هذه المادة متوافرة، يتمنى لو أن لهذه المادة سيولة لا تنقطع، لكن اختناقات المواد الأولية تجعل فهمنا لهذه الآية فهماً دقيقاً .

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

التقنين الإلهي بحكمة ولحكمة وتأديب :

يجب أن تعلم علم اليقين أن التقنين الإلهي يختلف اختلافاً جذرياً عن التقنين البشري، التقنين الإلهي بسبب علم وحكمة وتأديب، وأما التقنين البشري فبسبب عجز فقط .

في ليلة واحدة نزل من الأمطار ما يعادل أمطار سنة كاملة في منطقة دمشق، بل إن في بعض المناطق في الجنوب نزل في يومين أو ثلاثة مئتا ميليليتر، أي: ما يعادل ما نزل في دمشق مرتين في العام الماضي، نزل في منطقة دمشق ثمانون ميليليترا .

إذاً :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

لو أن الله سبحانه وتعالى رفع نسبة الفواكه الناضجة لأصبحت بلا ثمن، هناك أدلة أحياناً تشير إلى أن بعض النباتات تنتج محاصيل فوق التوقع، ذات مرة قبل سنوات عدة أنبتت الأرض من القمح ما لا تتسع له كل المستودعات في القطر، فاضطرت الدولة إلى بناء مستودعات إضافية تستوعب هذه الكمية.

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

قبل عامين أنتجت أشجار الفواكه من المشمش ما جعل سعره يفوق حد التصور، أو يقل عن الحد الأدنى بسبب وفرة الإنتاج، وفي العام الماضي كان إنتاج البطاطا يزيد على حاجة القطر بثلاثة أمثال فبيع بثمن بخس .

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

كن فيكون :

((لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

[مسلم عن أبي ذر]

ذلك لأن عطائي كلام، وأخذي كلام :

((فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

هذا يشتهي الذكور ، وعنده تسع بنات، فلان عنده ثلاثة عشر ذكراً، وذاك عقيم، هذا نصيبه البنات فقط، هذا الذكور فقط، أما ذاك فقد زوجهم الله ذكوراً وإناثاً، يجب أن تعلم إذاً أن الله على كل شيء قدير، وأن هذا الذي تراه عينك من تقنين في الأمطار أو في المواد ما هو إلا بسبب حكمة بالغة لو

اطلعت عليها لذابت نفسك شكراً لله .

لذلك من اتكل على حسن اختيار الله له ما تمنى حالة إلا الحالة التي هو فيها، لأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، أي ليس في إمكانك أيها الإنسان أبدع مما أعطاك الله سبحانه وتعالى .

(وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ

أرأيتم إلى هذا الماء ، ما أنتم له بخازنين :

نهر الأمازون غزارته في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف متر مكعب في الثانية الواحدة، أين الخزانات لهذا النهر ! أي جبال تتسع لهذه المياه !

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

وللإيضاح أذكر أنه أنشئ خزانان متواضعان جداً يشبهان إلى حد ما طريقة التخزين الإلهية، بعمق أربعمئة متر تحت سطح الأرض لكل خزان، ويتسع لاستهلاك دمشق ليومين أو ثلاثة، هذا كلف ألف مليون، خزان متواضع جداً كي يسد الحاجة لأيام عدة كلف ألف مليون، أين خزان نهر التايمز مثلاً؟ خزان نهر الدانوب؟ خزان نهر النيل؟ أين هذه الخزانات؟ إذا كان خزان نبع الفيجة يمتد من دمشق إلى حمص، ومن وسط لبنان إلى سيف البادية، هذا خزان نبع الفيجة الذي غزارته ستة عشر متراً مكعباً في الثانية، فإلى أي مدى تصل خزانات الأنهر المذكورة قبل قليل ؟

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

هذه رحمة الله بالعباد في الماء :

لو أن الله سبحانه وتعالى ألغى الينابيع والأنهار، وجعل الأنهار وحدها طريقة لتخزين المياه، واضطررنا أن نجمع مياه الأمطار، ونخزنها في بيوتنا لكي نستهلكها على مدار العام، كيف نصنع هذه الخزانات؟ إن كل بيت يحتاج إلى مثل مساحته، ومثل حجمه خزاناً، ولا يخفى عليكم أن هذه المياه تفسد بعد أسبوعين، تنبت فيها الطحالب، وتتولد فيها الجراثيم، والحيوانات والكائنات الدقيقة، إلى أن يصبح ماؤها آسناً لا تستطيع أن تنظر إليه، فضلاً عن أن تشرب منه .

(وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ)

وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ

الرياح تلقح السحاب فينزل الماء :

قال بعض المفسرين : تلقح السحابة ببخار الماء، إذ يساق بخار الماء إلى السحب، فتشحن به، ثم تلاقي هذه السحب سحباً أخرى ذات شحنة كهربائية معاكسة، ويأتي ارتفاع الضغط وانخفاضه ليجعل بخار الماء الذي تحمله السحب ماءً طهوراً ينزل على الأرض الميتة فيحييها .

(وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ)

هل إذا شربت كأس الماء تقول: الحمد لله رب العالمين؟ هل إذا شربت كأس الماء ترى فضل الله عليك بكأس الماء ؟ وإن بعض الخلفاء سأله وزيره : يا مولاي بكم تشتري هذه الكأس من الماء إذا منعت عنك ؟ قال بنصف ملكي، قال فإذا منع إخراج فضلاتها، قال : بنصف ملكي الأخر، فقال : أيها الخليفة: إن ملكك كله يعدل كأساً من الماء .

انظر إلى نعمة الله ، ثم اشكرها قولا وعملا :

الآلام التي يعانيها من تعطلت كليتاه عن إفراز البول فيرتفع الأوريه في الدم فيصاب الإنسان بأمراض لا توصف، يصبح شرساً كالوحش، ارتفاع الأوريه في الدم يسبب اضطرابات نفسية، واضطراباً في السلوك لا يوصف، قد يضرب كل شيء، قد يحطم كل شيء إذا ارتفعت نسبة الأوريه في الدم، حتى الذين تتعطل كليتاهم عن العمل الأوريه ويذهبون للمستشفى من أجل الغسيل في الأسبوع مرتين ، وتبقى نسب قليلة من الأوريه في الدم لا تستطيع المصافي الصناعية أن تصفيها ، وهذه النسبة الضئيلة تغير نفسياتهم وأمزجتهم .

هذه الكأس من الماء ماذا تفعل إذا منع إخراج فضلاتها، من آلام حصر البول لا توصف، آلام الكليتين لا توصف، آلام انسداد المستقيم لا توصف، لذلك :

(وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

لا تستطيعون خزن الماء، هذا يفوق طاقتكم، هذا فوق إمكانياتكم .

إن تحلية الماء فقط، كما بلغني أن لترًا من الماء الذي يحلى من مياه البحر يكلف الدولة أربعة ريالات ضرب ستة، يعني كل لتر ماء يحلى من مياه البحر يكلف ما يقارب خمسًا والعشرين ليرة، فهذه الكأس من الماء كم يكلف ؟ بعض السذج يتوهم أنه دفع ثمن الماء، هذا الذي تدفعه لمؤسسة مياه عين الفيجة

هذا ليس ثمن الماء، هذا ثمن بعض الخدمات، مها حفظ هذه الينابيع وإيصالها إلى المدينة، ثمن الماء لا يقدر بثمن، فإذا شربت كأس ماء فقل: الحمد لله رب العالمين، لو أن الماء كله ملح أجاج ماذا نفعل .

(فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ(22)وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ)

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ

الأرض ومن عليها لله ، وهو الوارث :

لا تقل : هذا بيتي، هذا البيت ليس لك، إن الله يرث الأرض، ومن عليها، ومن فيها، ليس هذا البيت بيتك، وليس هذا المحل محلك، وليس هذا المال مالك، إنها عارية مستردة، أحد الأعراب كان يقود قطيعاً من الإبل، سئل : لمن هذا القطيع، قال : هو لله في يدي .

(وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ)

هذه الأرض ثمانية وثمانون دنماً، وثلاثمائة دنم لا أبيعها بخمسة ملايين، هي لك ملكاً مادام القلب ينبض، فإذا توقف عن النبض فهي ليست لك، بل يملكها غيرك .

لابد من التفكر في آيات الله :

أيها الإخوة، هذه الآيات التي ساقها الله سبحانه وتعالى لتكون دالة على عظمته يجب أن نفكر فيها، يجب أن نتدبرها، لما قال ربنا عز وجل :

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

يجب أن نفكر في هذه الآية، أن نتأمل فيها، أن ندرك أبعادها، لأنك إذا عرفت الله سبحانه وتعالى عن طريق الكون، فإن هذه المعرفة تصمد أمام الإغراءات وأمام الضغوط، أما المعرفة التقليدية فإنها تلقي الأفكار من دون تأمل، من دون بحث، ومن دون تدقيق، هذا التلقي لا يصمد أمام الضغوط ولا أمام المغريات، إذا عرفت الله من خلال الكون قال تعالى :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر : 28)

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

(سورة يوسف)

آيات الله بين تعامل البهائم وتعامل الإنسان العاقل :

هناك من يتعامل مع الآيات تعامل البهائم، وهناك من يتعامل معها تعامل الإنسان، الحيوان يشرب الماء، والإنسان يشرب الماء، فإذا شرب الإنسان الماء، ولم يفكر من الذي أنزله من السماء ماءً طهوراً؟ من الذي أودعه في الجبال ؟ من الذي فجره ينابيع ؟ من الذي جعله أنهاراً ؟ هذا الذي يشرب، ولا يشكر، ولا يعرف هو كالبهيمة .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)

(سورة محمد)

فكلمة :

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

آية، وكلمة :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

وبعد؛ يجب أن تعلم علم اليقين أن هذه الآيات الكونية إنما خلقت من أجل أن ترى الله من خلالها، وتزداد يقيناً .

وفي درس قادم إن شاء الله تعالى نتابع هذه الآيات .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجر 015 - الدرس (5-9): تفسير الآيات 24 – 44
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-12-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة الحجر، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ(23)وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ

للمفسرين في هذه الآية ثمانية اتجاهات :

المعنى الأول : المخلوقون وغير المخلوقين :

أن الله سبحانه وتعالى علم الذين خلقوا من قبل، ويعلم الذين لم يخلقوا بعد، كما قال الإمام علي كرم الله وجهه: << علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون >>.
والله سبحانه وتعالى من أسمائه العليم، كل ولد حتى هذه اللحظة يعلمه الله عز وجل، والذين لم يخلقوا بعد يعلمهم أيضاً .

(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

المعنى الثاني : الأموات والأحياء :

أن الله سبحانه وتعالى علم الأموات، وهم المستقدمون، وعلم الأحياء وهم المستأخرون، هذا الاتجاه الثاني .

المعنى الثالث : المتقدمون من الأمم والمستأخرون :

علم الله سبحانه وتعالى من تقدم من الأمم عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ويعلم من يتأخر عن هذه الأمة من الأمم، وأنه يأتي بعد أمة هذا النبي أمم وشعوب وحضارات، وحروب وفتن، ودنيا مبهرجة وصراعات، ومصائب، هذا الذي سيكون يعلمه الله سبحانه وتعالى .

المعنى الرابع : المستقدمون في الطاعة والمستأخرون عنها:

الله سبحانه وتعالى يعلم المستقدمين في الطاعات والخيرات، فلان تقدم إلى الطاعة والخير، وفلان تأخر عن الطاعة، وتأخر عن الخير، فوقع في المعصية والضرّ والأذى، التقدم إلى الطاعة و الخير يعلمه الله، والتأخر عن الطاعة إلى المعصية وعن الخير إلى الشر يعلمه الله سبحانه وتعالى، وهذا هو المعنى الرابع .

المعنى الخامس : المتقدمون في الجهاد في سبيل اللهوالمستأخرون ::

وأما في صفوف الحرب فالله سبحانه وتعالى يعلم المتقدمين الذين يضعون أرواحهم على أكفهم، ولا يهابون الموت، والذين يبيعون أنفسهم في سبيل الله، ولقد علمنا المستقدمين منكم في الحرب، ولقد علمنا المستأخرين الذين يخشون الموت .

هذا الصحابي الجليل سيدنا عبد الله بن رواحة حينما جاء دوره في قيادة الجيش، يعني صاحباه قتلا فلما جاء دوره يبدو أنه تهيب، فتردد ثلاثين ثانية، فقال :

يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت

إن تفعلي فعلهما رضيت وإن توليت فقد شقيــت

***

فركب فرسه، وقاد الجيش، وحمل الراية، وقاتل بها حتى قتل .

(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

قال عليه الصلاة والسلام وهو في المدينة :

((أخذ الراية أخوكم زيد فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى مقامه في الجنة، ثم أخذ الراية أخوكم جعفر، فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى مقامه في الجنة، ثم سكت النبي عليه الصلاة السلام، فقلق أصحابه على أخيهم عبد الله بن رواحة، فقالوا : يا رسول الله : ما فعل عبد الله ؟ قال : ثم أخذ الراية أخوكم عبد الله، فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى في مقامه ازورارا عن صاحبيه))

يعني هبط مقامه درجة بهذا التردد .

[القصة بلفظها وتمامها في السيرة النبوية لابن هشام]

(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

أحياناً يعرض عليك عمل صالح تقول: دعني أفكر، وتتردد، وأحياناً يعرض على آخر عمل صالح، فيبادر دون تردد .

(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

فمن معاني هذه الآية : المستقدمين في الطاعة والخير، والمستأخرين عن الطاعة إلى المعصية، وعن الخير إلى الشر، ولقد علمنا المستقدمين في صفوف الحرب، والمستأخرين المتقاعسين عن لقاء العدو .

المعنى السادس : المستقدمون في الصلاةوالمستأخرون عنها :

والمعنى السادس : ولقد علمنا المستقدمين في الصلاة، هذا الذي يلبي نداء المؤذن، ويصلي الصلاة في أول الوقت، أو هذا الذي يصلي في أول صف، أو هذا الذي يصلي قرب الإمام، فمن أدرك الصلاة في أول الوقت، وفي الصف الأول، وقرب الإمام فقد حاز ثلاث فضائل : فضيلة تلبية النداء، والصلاة في أول الوقت، وفضيلة الصلاة في الصف الأول، وفضيلة الدنو من الإمام .

(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

المعنى السابع : أول الخلق وآخرهم :

والمعنى الأخير: أن المستقدمين هم أول الخلق، والمستأخرين هم آخر الخلق، كما قال الإمام علي كرم الله وجهه: << القرآن حمال أوجه >>، القرآن ذو وجوه .

لكن مرة قال لي أحدهم: لم لا تذكر لنا بعضاً من أسباب النزول؟

أنا أتمنى أن أقدم لكم أجمل ما في الكتب، وأوجه ما في الكتب، لكن سبباً من أسباب النزول إن لم يصح سنده، ولم تثبت روايته، ربما أفسد المعنى، فإني لا أذكره، فمثلاً جاء في أسباب نزول هذه الآية أنه كانت امرأة تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي امرأة حسناء من أحسن الناس وجهاً، تصلي خلف رسول الله، وخلف صفوف الرجال، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها، ويتأخر بعضهم حتى يكون في صف الرجال المتأخر، حتى إذا ركع نظر من تحت إبطه، فأنزل الله عز وجل :

(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

هذا شيء لا يصح في حق أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، هؤلاء العلماء الحكماء الذين كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، مع أن الفقهاء اتفقوا جميعاً على أن المرأة إذا حاذت الرجل فسدت الصلاة، ولتكن الزوجة، أو لتكن الأخت، فكيف تصلي هذه المرأة الحسناء التي هي من أحسن الناس وجهاً خلف رسول الله بين الصحابة، وصحابي يتقدمها لئلا يراها، وصحابي يتأخر بنية أنه إذا ركع نظر إليها من تحت إبطه، هذا لا يليق بأصحاب رسول الله، ولعل هذه الرواية لا تصح، أو لم تثبت من

حيث السند، أو أنها قد دست في هذا الكتاب، على كل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضوان الله عليهم كانوا علماء حكماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، كانوا ورعين .

(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

أفضل أوقات الصلاة أول الوقت :

شيء آخر، تدل هذه الآية على أن أفضل وقت الصلاة أن تصلى في أول الوقت، وقد قرأت حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه من أخر الصلاة عن وقتها أذهب الله البركة من عمره، فإن كنت غير مشغول فالأولى أن تصلي الصلاة في أول الوقت، أن تلبي نداء المؤذن، يقول لك: حي على الصلاة، حي على الفلاح، أي: أقبل، حي اسم فعل أمر، معناه أقبل، يعني أيها الإنسان أقبل على الصلاة، أقبل على الفلاح، الله سبحانه وتعالى يدعوك كي تقف بين يديه لتتصل به، وتقبل عليه .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا))

[متفق عليه]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثَلَاثًا، وَإِيَّاكُمْ وَهَيْشَاتِ الْأَسْوَاقِ))

[مسلم]

هؤلاء الذين يجلسون في الصف الأول يجب أن يكونوا من النخبة، ومن صفوة القوم، لأن هذا المكان القريب له أهله، من هنا يروى أن سيدنا عمر رضي الله عنه كان يقول لفلان: تقدم، ولفلان تأخر .

(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ(24)وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ

لابد من المحشر :

وبعد؛ فلا بدّ من المحشر كما أخبر الله سبحانه وتعالى، فلو أن الإنسان مات غرقاً، أو مات حرقاً، أو مات في الجو، يقال مثلاً: الطائرة سقطت، وقد مات جميع ركابها، يعني احترقوا في الجو، إن الإنسان كيفما تكون ميتته فلا بدّ أن يحشره الله سبحانه وتعالى، قال تعالى:

(وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس   وإن تمنعت بالحجاب والحــرس
فما تزال سهام الموت نـــافذة   في جنب مدرع منها و محتـرس
أراك لست بوقاف ولا حـــذر   كالحاطب الخابط الأعواد في الغلس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكــها   إن السفينة لا تجري على اليــبس

***

(وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

عملك مسجل صورة وصوتاً، وبالألوان الطبيعية، وسوف يعرض عليك يوم القيامة، فإن كان هذا العمل كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، والقبر صندوق العمل، اعمل ما شئت فإنك مجزي به، من هو الفائز ؟ الذي له عمل يرضي الله عز وجل، من هو الشقي ؟ الذي له عمل يسخط الله سبحانه وتعالى، ولأن يسقط الإنسان من السماء فتنكسر أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله .

(وَإِنَّ رَبَّكَ)

مدلول كلمة الرب :

كلمة (رب)الذي أمدك بالحياة، الذي أمدك بكل شيء، أمدك بزوجة وبنين، أمدك بهذا الفكر تعيش به، أمدك بهذه القوة، أمدك بهذه المحاكمة، أعطاك الخبرة، أعطاك إتقان عمل تعيش به، الذي أمدك، والذي عالجك في الدنيا، وكلما انحرفت قوم انحرافك .

(وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

الرب يعلم كلَّ شيء :

يعني يعلم السر وأخفى، قد يحشر الإنسان لإنسان، ولكن هذا الذي حشر إليه لا يعلم ماذا اقترف، هو يحشرهم إنه حكيم عليم، يعلم ما يكون، وما كان، يعلم خائنة الأعين، يعلم كل شيء .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ

آدم أول البشر ، ومحمد عليه الصلاة والسلام أفضلهم :

الإنسان في هذه الآية المقصود به سيدنا آدم، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ، وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ، وَلَا فَخْرَ))

[الترمذي]

النبي عليه الصلاة والسلام أول خلق الله رتبة في الفضل، وأن آدم عليه السلام يليه في المرتبة، يعني سيدنا آدم أفضل الناس كلهم إلا النبي عليه لصلاة والسلام، النبي في الأول، وسيدنا آدم بعد النبي، آدم ومن دونه تحت لوائه يوم القيامة ولا فخر .

وسمي آدم آدمَ لأنه خلق من أديم الأرض، وأديم الأرض ترابها .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ)

المقصود بالإنسان آدم عليه السلام .

الصلصال والحمأ المسنون :

والصلصال هو الطين اليابس .

(مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

والحمأ هو الطين الحر الأسود، والمسنون المتغير، وإليكم بعض ما قاله العلماء حول معنى كلمات هذه الآية :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

الصلصال الطين الحر، خلط بالرمل، فصار يتصلصل إذا جف، معنى يتصلصل: يرن، ويحدث صوتاً كالصلصال، فإذا طبخ في النار فهو الفخار، من حمأ، وهو الطين الأسود، المسنون المتغير، هذا شيء مغيب عنا، ولا سبيل إلى معرفته إلا الخبر الصادق، والله سبحانه وتعالى وهو خالقنا وخالق آبائنا وأجدادنا، وخالق أبينا آدم عليه السلام يقول :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ

في رأي بعض المفسرين أن الجان هو أبو الجن، كيف أن آدم عليه السلام هو أبو الإنس، والجان هو أبو الجن .

(وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ)

الجن مخلوق قبل الإنس :

يعني أن الله عز وجل خلق الجن أولاً، ثم خلق الإنسان ثانياً، لذلك لما ربنا عز وجل قال :

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ)

(سورة البقرة :30)

كيف عرفوا ذلك ؟ معنى ذلك :

(وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة :30)

معنى ذلك أن الجن خلقوا قبل الإنس، وأن الملائكة قاسوا على الجن .

(وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ)

من نار السموم :

والسموم الريح الحارة التي تحرق كل شيء، أو النار التي لا دخان فيها .

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ(28)فَإِذَا سَوَّيْتُهُ)

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ

اللهُ خَلَقَ كل شيء في أحسن تقويم :

خلقته على أحسن مثال، خلقته في أحسن تقويم، خلقته خلقاً لا يحتاج إلى تعديل، ولا إلى تبديل .

(إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ(1)وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ(2)وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ(3)وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ(4)عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ(5)يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ(6)الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ(7)فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)

(سورة الانفطار)

معنى تسوية الخلق :

معنى سويته يعني أن الأيدي مسواة، المفاصل في الأماكن المناسبة، هذا الرسغ مكانه مناسب، وحركته مناسبة، وهذا المفصل يقف عند هذا الحد يقفل هنا، أما الركبة فتقفل نحو الأمام، خلقك فسواك، الرقبة تدور 170درجة، وهناك حكمة بالغة من دورنها 170 درجة لا 180درجة، وكيف أن العمود الفقري، وهو الذي يحوي النخاع الشوكي عبارة عن فقرات متمفصلة تمفصلاً جزئياً حيث يستطيع الإنسان أن ينحني .

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ)

كيف أن الجمجمة قد خلقت على شكل سطوح منحنية متداخلة بعضها في بعض، وأن هذه المفاصل الثابتة تقي الإنسان كسر الجمجمة، لأن الضربة الشديدة تجعل هذه المفاصل تتداخل، هذا التداخل هو امتصاص للصدمة، خلقك فسواك .

كيف أن هذا الفك الأسفل يتحرك، لو أن هذا الفك الأسفل ثابت مع الرقبة، والذي يتحرك هو الأعلى لكان منظراً بشعاً وقبيحاً، الأنف في مكانه الصحيح، وفي الطول المناسب، والمقدمة غضروفية، لو أن العظم ينتهي إلى هنا، يعني إلى مقدمة الأنف فلا بدّ عندئذٍ من كسر بشكل أو بآخر، لكن المنطقة الحساسة التي يمكن أن تصطدم مؤلفة من مادة غضروفية خلقك فسواك .

وأن هذه العين جعلها الله في مغارة، حصن حصين، لو تلقى الإنسان ضربة، أو وقع على الأرض فعينه في مأمن، هذه العين خطيرة الشأن جداً جعلها الله في مأمن، وهذا الدماغ خطير جداً جعله الله في مأمن وبينه وبين الجدار سائل يمتص الصدمات .

وهذا القلب البالغ الأهمية جعله الله في القفص الصدري، وهذا النخاع الشوكي الخطير جداً جعله الله في العمود الفقري، وهذا الرحم الخطير جداً جعله الله في الحوض في مكان مكين، ومعامل كريات الدم الحمراء خطيرة جداً جعلها الله داخل العظام .

وعظام الفخذ تنتهي برقبة، هذه الرقبة تتحمل مئتين وخمسين كيلوًا ضغط، والإنسان يتحمل نصف طن ضغطًا من الأعلى، ولا تنكسر هذه العظام، هذه الغضاريف، هذه المفاصل، محافظ المواد السائلة الهلامية، الروابط، العضلات .

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)

هل بلغكم أن الإنسان طرأ على خلقه تعديل، صنع الإنسان آية كبرى على عظمة الله سبحانه وتعالى، انظر إلى سيارة أول ما صنعت، شيء يضحك أن العجلات من الخشب، وأن الإضاءة عن كطريق الفوانيس، وأن لهذه السيارة حركة واحدة بطيئة، ولها صوت يملأ الدنيا صخباً، وانظر إلى سيارة

صنعت في عام 1986، الإنسان صنعته تتكامل، لكن الله سبحانه وتعالى هو المطلق، فخلق الإنسان كامل لم يطرأ عليه لا تغيير، ولا تبديل، ولا تعديل، ولا إضافة، ولا حذف .

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين)

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة النمل 88)

إتقان الصنعة دليل على وجود الله عز وجل .

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

للإنسان روح :

هذا الإنسان من عظام ولحم، ودم وشرايين، وأوردة وأجهزة، ما الحياة ؟ كيف يمشي ؟ كيف يتكلم ؟ كيف يفكر ؟ كيف يرى كيف يدرك ؟ كيف يحاكم ؟ كيف يسمع ؟ إلى أخره هو الحياة، هذا الذي فقد روحه ماذا فقد ؟ لم يفقد أي شيء مادي، لكن الروح فقدت فأصبح جثة هامدة، الإنسان يملأ البيت أنساً وجمالاً، فإذا مات يتمنى أقرب الناس إليه أن يخرجوه من البيت، وأن يدفنوه قبل أن تتفسخ جثته . حدثني أخ عن بيروت أيام الحوادث أن شخصاً توفي في بيته، والطرقات كلها مقطوعة، والقنص على أشده، والحركة واقفة، تحمّله أهله يومين، ثم ألقوه من الشرفة إلى الأرض، أب يملأ البيت أنساً وسعادة، فلما سحبت منه الروح، ماذا فعل أقرب الناس إليه من زوجته وأولاده؟ قرروا أن يلقوه من الطابق الرابع، هكذا على الأرض، لأن الطرق مقطوعة، لم يتحملوا رائحته بعد الموت .

(يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ(6)الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)

(سورة الانفطار)

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة النمل 88)

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)

الروح تكريم للإنسان :

هذه الروح من أوجه التفسيرات أنها هي الحياة، الله سبحانه وتعالى نفخ فينا من روحه، أما كلمة (من روحي)فهذا تكريم للإنسان، وتشريف له، واصطفاء له، نسب الروح لذاته .

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)

هو مكرم، لقد قبل أن يحمل الأمانة، قال تعالى :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب)

فلما حملها الإنسان استحق أن يكون مكرماً .

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

(سورة الإسراء)

أنت مكرَّم فاعرف شأنك وقدرك :

أنت مكرم، ليتك تعرف نفسك، ليتك تعرف شأنك عند الله، ليتك تعرف المهمة التي خلقت من أجلها، ليتك تعرف أنك ابن عمرٍ، فكيف تمضيه ؟ وليتك تعرف طريقة لتمضي بها هذا العمر، وأن هذا الوقت وهو عمرك سيحدد مصيرك، إما إلى جنة يدوم نعيمها، أو إلى نار محرقة تنضج الجلود، وتلفح الوجوه، لا ينفد عذابها، ليتك تعرف من أنت ؟

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

***

طهرت منظر الخلق سنين أفلا طهرت منظري ساعة ؟.

(نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)

(سورة الحشر : 19)

أنساهم الله أنفسهم، يعني لما نسيت الله فقد جهلت نفسك من أنت؟

قد يقول لك قائل: الإنسان حيوان ناطق، من قال لك: إن الإنسان حيوان؟ الإنسان إنسان مكرم، هذه الحيوانات أمام عينيك، نوع القردة، نوع الدواب هل تغيرت حياتهم؟ هل أعطوا هذا الفكر الذي أعطيته؟ هل طوروا حياتهم؟ هل سكنوا في البيوت؟ هل ارتدوا الثياب؟ هل نظموا حياتهم؟ الإنسان ليس حيوانًا ناطقًا، وليس حيوانًا اجتماعيًّا، الإنسان إنسان .

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

أمر الله للملائكة والجن بالسجود لآدم سجود تحية :

العلماء قالوا : هذا السجود سجود التحية والتكريم، وليس سجود العبادة .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((خُلِقَتْ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ))

[مسلم]

والإمام علي كرم الله وجهه يقول: << ركب الحيوان من شهوة بلا عقل، وركب الملك من عقل بلا شهوة، وركب الإنسان من كليهما، فإذا سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإذا سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان >> .

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

إن الإنسان إذا عرف الله عز وجل فاق بهذه المعرفة الملائكة المقربين، ما من مخلوق يفوق الإنسان المؤمن، فإذا هوى كان في أسفل سافلين .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ(6)إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة)

إما أن يكون الإنسان خير البرية، وإما أن يكون شر البرية، والإنسان إما أن يكون براً تقياً كريماً على الله، وإما أن يكون فاجراً شقياً هيناً على الله .

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

يعني أمر بالسجود، سجود التكريم لعلمه بأسماء الله الحسنى .

(فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ)

فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ

من قال لكم: إن الشيطان من الملائكة فقولوا له: ليس كذلك، والدليل هذه الآية :

(فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(30)إِلَّا إِبْلِيسَ)

هذا الاستثناء يسميه علماء النحو استثناءً منقطعاً، يعني أن الملائكة وإبليس اشتركا في أمر السجود، ولم يشتركا في طبيعة الخلق، كأن تقول: حضر الطلاب إلا المدرس، فالمدرس ليس طالباً، المعلم معلم، والطالب طالب، إلا أنهما اشتركا في الحضور، فاستثنيت المعلم استثناءً منقطعاً .

(فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(30)إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ(31)قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ(32)قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

هذا هو الوهم الذي جعل إبليس يأبى السجود :

توهم إبليس الذي خلقه الله من النار أن النار أشرف من الطين، لذلك كبره واستعلاؤه ونظره لذاته حجبه عن حقيقة آدم، فأبى أن يسجد له، هذا الكلام ماذا يفيدنا؟

لا ينبغي للمؤمن أن يجعل بينه وبين الحق حجابا :

أحياناً يكون مال الإنسان حجاباً له عن اتباع الحق، هذا الذي يتكلم فقير، وأنا غني، أيعقل أن أجلس في مجلسه ؟ هذا الذي يتكلم ضعيف، وأنا قوي، أيعقل أن أستمع له، لا تجعل المال والجاه حجاباً يحجبك عن الحق، إبليس ما الذي أهلكه؟ أنه نظر إلى النار وتوهمها أنها خير من الطين، فكيف يعقل أن يسجد له؟ أما المؤمن فلا يجعل شيئاً يحجبه عن الحق .

فهذا سيدنا العباس عم رسول الله، سئل مرة : أيكما أكبر أنت أم رسول الله ؟ فقال رضي الله عنه : هو أكبر مني قدراً بلا شك، وأنا ولدت قبله.

المؤمن الصادق لا يجعل من السن حاجزاً، ولا من المال حاجزاً، ولا من الجاه حاجزاً، ولا من النسب حاجزاً، ولا من القوة حاجزاً، اسمعوا، عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((اسْمَعُوا، وَأَطِيعُوا، وَإِنْ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ))

[البخاري]

أنت عبد للحق، أينما كان الحق فأنت تابع له .

في بعض الأحيان يرى الإنسان عُلوَّ نسبه، ويقول : أنا منسوب، لكن عملك غير طيب .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ :

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا، فَعَمَّ، وَخَصَّ، فَقَالَ :

((يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا))

[مسلم]

هذه الآية مغزاها أن الإنسان قد يهلكه نسبه، أو ماله، أو علمه، يحمل شهادة عليا، هذه الشهادة جعلته يتوهم أنه أعظم الناس، وهو ليس كذلك، شهاداته أو نسبه أو أمواله أو وظيفته أو قوته، هذه كلها أقنعة مزيفة .

عَنْ المَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ : لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

((يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ ...))

[البخاري]

هذه جاهلية، أن تعتد بنسبك، أو بمالك، أو بقوتك، أو بصحتك، أو بشكلك، أو بمنصبك، أو باختصاصك، هذه كلها حجب .

ربنا عز وجل ذكر حجاباً واحداً، وعلى هذا فقس، ذكر حجاباً واحداً، وأنت قس على هذا الحجاب كل الحجب، ويا عبد الله، إياك أن تغترّ بهذه الأقنعة المزيفة، هذه كلها تنتهي عند الموت .

لا تقل : أصْلي وفصلي أبداً ٍ إنما أصل الفتى ما قد حصل

ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتقي الله البـــطل

***

(قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ(32)قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ(33)قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)

معنى : رجيم :

معنى رجيم أي : أنت في الأرض، ولن تستطيع أن تصل إلى السماء، فإذا سولت لك نفسك أن تصعد إلى السماء جاءك شهاب ثاقب فأحرقك، إذاً ابق في الأرض، السماء محرمة عليك، هذه للملائكة، ولعبادي المؤمنين .

(قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ(34)وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ)

معنى اللعنة :

اللعنة تعني البعد، والله الذي لا إله إلا هو لو أنك حصلت الدنيا بأكملها، وأبعدك الله عن حضرته فأنت أشقى الأشقياء، ولو خسرت الدنيا كلها، وقربك الله إليه فأنت أسعد السعداء .

(قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ(34)وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ(35)قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(36)قَالَ فَإِنَّكَ مِنْ الْمُنْظَرِينَ(37)إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ(38قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ

المقولة الإبليسية على لسانسفهاء الإنس :

من يقول : إن الله أغواه فشيخه في هذه المقولة إبليس، لأن إبليس ماذا فعل؟ نسب غوايته إلى الله عز وجل .

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا)

(سورة الأنعام 148)

و هذا إبليس يقول : بما أغويتني، مع أن الله سبحانه وتعالى خلقنا ليسعدنا .

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود 119)

خلقنا ليرحمنا .

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

ليعبدوني، ليتعرفوا عليّ فيستقيموا على أمري، فأسعدهم .

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ)

معنى الإغواء :

يعني أغريهم في الدنيا، أجعل أحلامهم كلها في الدنيا، يحلم ببيت فخم مزين، يحلم بسيارة فاخرة، بزوجة جميلة، بمنصب مرموق، بجاه عريق، بنزهات بحفلات بسهرات، بأماكن الاصطياف الجميلة، يعني يحلم بالدنيا .

(لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

هذا هدف الشيطان، أن يحبب الدنيا إلى الناس، وأن يغريهم بها، وأن يغشهم بها، مع أن الدنيا تغر وتضر وتمرّ، أوحى ربك إلى الدنيا أن تكدري، وتمرري، وتضيقي على أوليائي حتى يحبوا لقائي، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا))

وَفِي رِوَايَةٍ :

((كَفافًا))

[مسلم]

هذه دعوة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

أيها الإخوة الأكارم، كلمة(بما أغويتني)لا بدّ من توضيحها بمثل .

طالب في صف مدرسي يقصر، لا يدرس، ولا يكتب، ولا يذاكر، ولا يحفظ، يأتي الامتحان فيأخذ علامة الصفر، إذاً يستحق الرسوب، فيأتي المعلم، ويكتب على جلائه : رسب في صفه، من الذي رسبه؟ المعلم، لماذا رسبه ؟ لأنه كسول، فالرسوب كسب من الطالب وفعل من المعلم، فإذا قال الطالب للمعلم : لقد رسبتني فكلامه صحيح، والمعلم هو الذي رسبه، ولكن لماذا رسبه ؟ لأنه كسول .

فكل شيء ينسب إلى الله فعلاً، من فعل هذا ؟ الله سبحانه وتعالى، لماذا فعله ؟ وفق العدل والاستحقاق، هذا أوضح مثال يفسر هذه الآية .

(رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي)

الغواية فعلاً، كأن يقول: لمَ رسبتني؟ قصر في الدراسة، فاستحق الرسوب، فرسبه المعلم، فقال للمعلم: بالذي رسبتني به سأغري جميع الطلاب ليكونوا كسالى مثلي .

(قَالَ فَإِنَّكَ مِنْ الْمُنْظَرِينَ(37)إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ(38)قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(39)إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ)

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ

هؤلاء المخلصون لا أستطيع أن أفعل معهم شيئاً، المخلَص اسم مفعول، والمخلِص اسم فاعل، المؤمن مخلِص ومخلَص، لأنه مخلص لله عز وجل، أقبل عليه، فطهر نفسه من كل أدرانها، فصار مخلصاً من كل شائبة، أخلص من أجل أن تخلص، كن مخلِصاً من أجل أن تكون مخلَصاً، إذا أخلصت في طاعتك أقبلت على ربك، فإذا أقبلت عليه فإن نوره طهر قلبك، فأصبح قلبك مخلَصاً له اسم مفعول .

(إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ(40)قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ(41)إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ

الفائدة من إضافة العبد إلى الله :

أيضاً عباد الله الذين عرفوه، وعبدوه، وانقادوا له، نسب العبد إلى الله نسبة معرفة بعبوديته، ونسبة طاعة له، ونسبة محبة له، ونسبة اهتداء بهديه، إن عبادي هؤلاء الذين عبدوني هؤلاء الذين عرفوني، هؤلاء الذين استقاموا على أمري، هؤلاء الذين أقبلوا علي، هؤلاء الذين تقربوا إلي بالأعمال الصالحة .

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

لن تستطيع إن تفعل معهم شيئاً .

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

(سورة إبراهيم 22)

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ)

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف : 5)

غوى فاتبع الشيطان، إذاً الشيطان لا يضل أحداً، لا يضل إلا الضال، إذا ضل الإنسان عن الله عز وجل يأتي الشيطان فيضله، بمعنى يزين له الدنيا، ويغريه بالسيئات والمعاصي، لا يستطيع الشيطان أن يصل إليك إلا إذا كنت ضالاً من قبل .

(إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ(42)وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ(43)لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ)

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ(43)لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ

معنى الأبواب السبعة :

من التفاسير اللطيفة أن هذه الأبواب ليست على مستوى أفقي واحد، لا، بل فوق بعضها بعضاً، مثل الفرن، له أبواب بعضها فوق بعض، أعلى النار باب جهنم، وفوق جهنم في الأسفل، (الرتب في النار متنازلة لا متصاعدة) ، وفوقها الحطمة، وفوقها سقر، وفوقها الجحيم، وفوقها اللظى، وفوقها السعير، وفوقها الهاوية، سبع دركات، وليست درجات، الدرجات في الجنة، والدركات في النار .

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ)

(سورة النساء 145)

(لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ)

وفي الدرس القادم إن شاء الله نتحدث عن المتقين الذين وصفهم الله بقوله :

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(45)ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (46)وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (47)لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (48)نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجر 015 - الدرس (6-9): تفسير الآيات 45 – 77
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-12-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السادس من سورة الحجر، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(45)ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آَمِنِينَ(46)وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ(47)لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ(48)نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(49)وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ

ربنا سبحانه وتعالى لحكمته كلما ساق لنا وصفاً أو مشهداً من أهوال يوم القيامة ساق لنا صورة مشرقة من أحوال أهل الجنة، فكما أن هناك صورًا مخيفة مرعبة فهناك صور مشرقة محببة.
ففي الدرس الماضي ربنا سبحانه وتعالى وصف أحوال أهل النار، وفي هذا الدرس يقول ربنا عز وجل

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

المتقون على نورٍ من ربهم :

من هم المتقون ؟ اتقى الشيء أي : تجنبه، كيف تتقي الأخطار ؟ لا بدّ من نور يكشف لك الطريق حتى تتقي به الأخطار، وهذا النور هو نور الله سبحانه وتعالى، قال عليه الصلاة والسلام :

((الصَّلَاةُ نُورٌ))

[مسلم عن أبي مالك الأشعري]

إنك إذا اتصلت بالله سبحانه وتعالى قذف الله في قلبك النور، بهذا النور تنكشف لك الحقائق، ترى الخير خيراً والشر شراً، الحق حقاً والباطل باطلاً، الضر ضراً والنفع نفعاً، قال تعالى :

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

(سورة الحج)

هناك البصر، وهناك البصيرة، فمن وهبه الله سبحانه وتعالى بصيرة فقد سعد في الدنيا والآخرة، قال تعالى :

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة : الآية 269)

المتقون عندهم رؤية صحيحة :

من أين تأتي الحكمة؟ من الرؤية الصحيحة، لماذا قال يوسف عليه السلام :

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف : 23)

لأنه كان يملك الرؤية الصحيحة، من أين جاء بهذه الرؤية الصحيحة؟ من الله سبحانه وتعالى عن طريق الصلاة :

((الصَّلَاةُ نُورٌ))

[مسلم عن أبي مالك الأشعري]

كيف يقف الإنسان في الدنيا مواقف مشرفة؟ كيف يكون عفيفاً؟ كيف يترفع عن المال الحرام؟ كيف يستقيم على أمر الله؟ كل هذا بسبب رؤيته الصحيحة، من أين جاءت هذه الرؤية الصحيحة؟ من النور الذي قذفه الله في قلبه، من أين جاء هذا النور؟ من الصلاة، كيف اتصل بالله عز وجل؟ لأنه استقام، كيف استقام؟ لأنه فكر، تفكر فإنك تهتدي إلى أن لك رباً عظيماً، وهذا أمره، تستقيم على أمره، وتعمل الصالحات فتقبل عليه، فإذا أقبلت عليه قذف الله في قلبك نوراً، بهذا النور ترى الحق من الباطل والخير من الشر، عندئذ تصبح متقياً، المتقي هو الذي اهتدى بنور الله .

مرتبة التقوى فوق مرتبة الإيمان :

مرتبة التقوى فوق مرتبة الإيمان، يا من أقبلت على الله ارتقوا إلى درجة أعلى ألا وهي الرؤية .

(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ)

(سورة الأنعام)

(وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا)

(سورة الإسراء)

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا(125)قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى)

(سورة طه)

إذاً ... المعول عليه أن تمتلك رؤية صحيحة، وهذه الرؤية الصحيحة تحتاج إلى نور إلهي .

أيها الإخوة الأكارم، كيف أن هذه العين ثمينة جداً، ولكن ما قيمتها من دون هذا الضوء، لو أنك تملك عينين براقتين حادتين من أعلى مواصفات العين جيدة جداً، ودخلت إلى غرفة مظلمة ما قيمتها !، كذلك

الفكر ما قيمته إن لم يكن معك نور من الله عز وجل، الفكر وحده يضل، ويزل، أما الفكر إذا دعمه النور الإلهي فإنه يرى الحق حقاً والباطل باطلاً .

فهؤلاء المتقون الذين تعرفوا إلى الله في الدنيا، وفكروا في ملكوت السماوات والأرض، فكروا في خلقهم، فكروا في طعامهم وشرابهم، فكروا في كل شيء حولهم، فاهتدوا إلى الله عز وجل، طبقوا أمره، وأقبلوا عليه فقذف الله في قلوبهم النور بهذا النور رأوا الحق حقاً، والباطل باطلاً، فصاروا متقين .

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

مثلاً: كيف أن المجرم حينما يقدم على قتل رجل في هذه اللحظة يكون أعمى، لو أنه رأى أنه لا بدّ من أن يقبض عليه، وأن يساق إلى المشنقة ما أقدم على هذا العمل، إذاً هو في عمى، وعلى هذا فقس، ما من معصية يقترفها الإنسان إلا بسبب عمىً في قلبه، وما من طاعة يفعلها الإنسان إلا بسبب من الله سبحانه وتعالى قذف في قلبه النور .

فمواقف الإنسان خطيرة جداً، البشر جميعاً من بنية واحدة، ومن طبيعة واحدة، مفطورون على حب الكمال والسلامة، مفطورون على طلب السعادة، ولكن الأعمى منهم يضل سواء السبيل، والذي اهتدى بنور الله يرى الخير خيراً، والشر شراً، فلذلك :

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

إنها جنات وليست جنة واحدة :

من معاني الجنات : أنها ليست جنة واحدة، لو أن الجنة التي وعدنا الله إياها جنة واحدة تمل، ما من شيء مهما بلغ مرتبة الإتقان الأمر يمل منه، لأن النفس الإنسانية تواقة إلى التجديد، فربنا عز وجل قال:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

جنة تلو جنة، وحالة فوق حالة، وسعادة بعد سعادة، هناك تطور، وتجدد مستمر، لولا هذا التجدد في الجنة لانقلبت الجنة جحيماً .

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

كيف أن جهنم لها سبعة أبواب، الجنة لها عيون، عين الماء، عين ماء فرات عذب، وأنهار من عسل مصفى لذة للشاربين، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، أنهار من أنواع متباينة، ومختلفة، وفوق هذا كله نظرة إلى وجه الله الكريم، لذلك قال تعالى :

(وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن)

من دون هذه الحالة الراقية جنة في الدنيا وجنة في الآخرة .

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45)ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ)

معنى : ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ

تلقي السلام :

ادخلوا الجنة بسلام، بعضهم قال: يسلّم عليكم، يتلقون السلام من السلام، والسلام اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى، الله عز وجل يلقي عليهم السلام .

السلامة من كل عيب :

وبعضهم قال :سالمين من كل عيب، لو أن فيهم عيباً لجعلهم في النار، لا يدخلون الجنة إلا إذا سلمت نفوسهم من السوء .

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ(88)إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء)

حالة السلام التي في أنفسهم هي حالة لا توصف، والأمن .

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ)

أهل الدنيا إذا حصلوا منها ما يشاءون فإن في أعماقهم قلقاً ووجلاً، إن في أعماقهم خشية من أن تزول عنهم الدنيا، من أن يموتوا يخافون الموت، ويخافون زوال هذه النعم، ويخافون أن يزحزحوا عن مكانتهم، ويخافون أن يفقدوا هذا الدخل الكبير، ويخافون أن تصاب زوجاتهم بأمراض وبيلة، إن قلقاً عميقاً في نفوسهم، ولكن الله سبحانه وتعالى حينما يسمح للمؤمنين الأتقياء بدخول الجنة يدخلونها بسلام آمنين، ونعمة الأمن لا يعرفها إلا من فقدها .

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ

لا شيء يعكر صفو أهل الجنةلأن الصحبة صافية قلوبها :

الغل هو الحقد، مما يعكر صفاء الدنيا المشاحنات والبغضاء، والحسد والغيبة، والنميمة والحقد، هذه كلها صفات تجعل من الدنيا شقاء، أما في الجنة :

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ)

إن الإنسان أحياناً يسعد بنزهة، لا لأن المكان جميل، ولا لأن الطعام جيد، ولكن لأن الذين معه محبّون، الإنسان يسعد بصفاء إخوانه، وصدق طويتهم ومحبتهم، فمن فضل الله على المؤمنين في الجنة إضافة إلى عيون وجنات تجري من تحتها الأنهار، ومن متع لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، إضافة إلى كل ذلك هؤلاء الذين هم في الجنة نزع الله ما في قلوبهم من غل، فلا حسد ولا غيرة، ولا حقد ولا شحناء، ولا استعلاء ولا ترفع، ولا بغضاء، كل هذه الأمراض التي يعاني الناس منها في الدنيا، وتنغص عليهم عيشهم فأهل الجنة في الجنة مبرؤون منها .

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا)

حتى إنك إذا سعدت في الدنيا فبسبب أن الذين من حولك يحبونك، وتحبهم ويثقون بك، وتثق بهم، ويؤثرونك على أنفسهم، وتؤثرهم على نفسك، هذا من أبرز أسباب السعادة في الدنيا، أما في الآخرة فهذه محققة تحقيقاً كاملاً .

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)

نعمة التقابل في الجنة :

في الدنيا هناك مراتب، قد يكون هذا أعلى من هذا، إن فرق المرتبة تسيء للصغير، وتعطي الكبير حجماً فوق حجمه، لكن المؤمنين في الجنة يحتلون مناصب أو مراتب متساوية، أحوالهم في داخلهم، مراتبهم في إقبالهم ، وإقبالهم في الجنة بعضهم على بعض :

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)

حتى إن بعض المفسرين قال : لا يرى بعضهم ظهور غيرهم، دائماً متقابلين، هذا الوجه المقبل الوجه المشرق الوجه المنير هو الذي يواجه الأخ في الجنة .

(لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ)

لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ

لا تعب في الجنة :

ليس هناك تعب، أي أنواع التعب منفي عن أهل الجنة، في الدنيا لو أن الإنسان حقق نجاحاً في الدنيا قد يقول : والله قد بذلت جهداً كبيراً، وكنت أسهر طوال الليل على إجراء الحسابات، لا بدّ من بذل الجهد حتى مع النجاح في الدنيا، لا بدّ من النصب لا بدّ من التعب، هكذا طبيعة الحياة الدنيا، لكن الجنة لا نصب فيها ولا تعب، حتى أبسط أنواع المس ملغي في الجنة .

(لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

لا خروج من الجنة :

عندما يكون الإنسان في مكان جميل فإنه يقلق حين يتركه ويغادره، أما أهل الجنة إذا دخلوا الجنة فما هم منها بمخرجين، هذه طمأنينة ما بعدها طمأنينة.

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا)

(سورة الإنسان)

الله عز وجل سمى الجنة التي ينالها الإنسان ملكاً كبيراً، بفضل طاعته لله في الدنيا، دفع ثمن الجنة، فاستقامته في الدنيا، وعمله الطيب هو ثمن الجنة، لذلك قال الإمام علي كرم الله وجهه : " طلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب " .

من السفاهة طلبُ الجنة من غير عمل :

من الذنوب أن تطلب الجنة من غير عمل، والمسلمون اليوم يتمنونها بالأمل، والله سبحانه وتعالى يقول:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

(سورة النساء 123)

ليست الجنة بالتمني ولكنها بالعمل :

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل : 32)

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

لكن لا ينبغي لكم أن تفهموا من كلامي هذا أن الجنة ليست برحمة الله، إنها بالعمل وبرحمة الله في وقت واحد، فالتوفيق بين المعنيين بسيط، فإذا وعد الأب ابنه أن يشتري له دراجة ثمينة إذا نجح بدرجة أولى، فإن مجرد النجاح لا يكفي للحصول على الدراجة، لو أن هذا الابن أمسك الجلاء، وذهب إلى بائع الدراجات هل يعطيه البائع دراجة لأنه نجح ؟ لا بدّ من أن يدفع الأب الثمن، فهذه الدراجة باجتهاد الابن وبفضل الأب، والمعنيان لا يتناقضان .

إذا قلت في بعض الدروس : ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون، فهذا لا يتناقض مع قول النبي عليه الصلاة والسلام، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لَا، وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ))

[متفق عليه]

يعني ادخلوا الجنة بفضل الله، واقتسموها بأعمالكم، العمل والفضل يتكاملان، ولا ينقض أحدهما الآخر، إذاً :

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ(46)وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)

سر سعادة المؤمنين في الدنيا كونهم إخوانا :

يستنبط من هذه الآية أن سرّ سعادة المؤمنين في الدنيا أنهم إخوان، هناك أخوة بينهم ومحبة، وإخلاص وتضحية ومودة، الإنسان قد يواجه متاعب الحياة كلها عن طريق مودته مع إخوانه المؤمنين، وقد تقسو الحياة على أحدهم ولو كان في بحبوحة إذا كان وحيداً مشرداً، لا يعرف قيمة الأخوة بالله إلا من ترك إخوانه المؤمنين، وسافر إلى بلد بعيد يحس بوحشة ما بعدها وحشة، يحس أن أثمن ما في الدنيا أخ في الله يمحضك المحبة والمودة، ثم يقول الله عز وجل :

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

الغفور يغفر ويشفي من الأمراض النفسية :

الحقيقة أن الغفور الرحيم اسمان من أسماء الله سبحانه وتعالى، الاسم الأول أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يشفي النفس من أمراضها، فإذا كان الإنسان يعاني من أمراض نفسية يقول لك: أنا أحقد، أنا فوق

الناس، أنا أحب كل شيء لنفسي هذه الأعراض، هذه الأمراض لحسد الغيرة الاستعلاء الكبر الأنانية، لو أقبلت على ربك لشفاك منها، فهو الغفور يغفر لك، ويشفيك منها شفاءً أصيلاً .

الرحيم يتجلى على المؤمن بالنور :

أما الرحيم فيتجلى عليك بأنواره فتغدو من أسعد الناس، لا بدّ من أن تقول إذا كنت مؤمناً حقاً : أنا أسعد الناس إلا أن يكون أحد أتقى مني، فإن لم يكن أحد أتقى مني، فأنا أسعد الناس .

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

الإقبال على الله تطهير للنفس من كل مرضقلبي :

هذه النفس إذا ابتعدت عن ربها امتلأت شهوات خبيثة، تمتلئ أمراضاً وبيلة، لو أنك اطلعت على إنسان مقطوع عن الله هذا إنسان مريض، حقده مرض، استعلاؤه مرض، حسده مرض، كبره مرض، قسوة قلبه مرض، هذه كلها أعراض الإعراض، إذا أقبلت على الله غفر لك هذه الأمراض، وشفاك منها، وإذا أعرضت عنه ظهرت أمراض ما بعدها أمراض .

لذلك لو كان المرء ذكياً، لو كان في بحبوحة فإذا حاككته ترى البخل ترى الشح ترى الأنانية والاستعلاء، وترى الكبر، فإذا أقبل الإنسان على الله عز وجل طهره من كل هذه الأمراض .

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

أقبل تر، أقبل تطهر، أقبل تسعد :

إلى متى وأنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول .

***

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

يقول: أنا الرحيم، أتجلى على قلوب عبادي المتقين فيذوقون طعم القرب، ومن ذاق طعم القرب عرف، والله لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف .

ألا تقولون في صلاتكم على النبي الكريم: اللهم صلِّ على أسعدنا محمد، هو أسعد الخلق قاطبة، وكلما اقتربت منه سعدت، والسعادة تتناسب طرداً مع إقبالك على الله، وإقبالك على الله يتناسب طرداً مع استقامتك وعملك الصالح، واستقامتك وعملك تتناسبان طرداً مع معرفتك، اعرف طبق أقبل تسعد .

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

كل هذه الأحوال السيئة، تكون بسبب البعد عن الله سبحانه في بعض الأحيان تجد الإنسان يعيش بوحشة متشائماً سوداوي المزاج، يرى الشر في كل شيء، يرى الدنيا مظلمة، يرى المستقبل مغلقاً بسبب البعد عن الله عز وجل، لو أنه عرف الله لما تشاءم، لو أنه عرف الله ما كان سوداوي المزاج .

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

أغفر لهم ذنوبهم أي : أشفيهم منها، وأرحمهم أي :أتجلى عليهم فيسعدون، وإذا تجلى الله على الإنسان اصطبغ بصبغته، وفي الأثر: " تخلقوا بأخلاق الله " .

المقبل على الله يشتق من أسمائه :

فكما أن الله عز وجل من أسمائه الرحيم لا بدّ للذي يقبل عليه من أن يشتق شيئاً من هذه الرحمة، علامة المصلي رحيم، إذا أقبلت على الكريم لا بدّ من أن تكون كريماً، إذا أقبلت على الحليم لا بدّ من أن تكون حليماً، إذا أقبلت على اللطيف لا بدّ أن تكون لطيفاً، إذا أقبلت على العدل لا بدّ من أن تكون عدلاً، فلذلك الإيمان ليس بالصلاة والزكاة، ولكن بالخلق الرفيع الذي يشتقه المصلي من جناب الله سبحانه وتعالى .

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

(سورة العنكبوت)

الصلاة تنهى، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً))

[الطبراني في المعجم ، والسيوطي في الجامع الصغير]

الصلاة في جوهرها تطهر النفس من أدرانها، وتزكيها إلى خالقها، ولكن يا ترى هذا الرب الكريم الغفور الرحيم ماذا يفعل بعباده المعرضين الذين ابتعدوا عن جادة الصواب، الذين أداروا ظهورهم لهذا القرآن الكريم، الذين نبذوه وراء ظهورهم، الذين سخروا من دين الله سبحانه وتعالى، الذين اقترفوا المعاصي، ماذا يفعل الله بهم ؟ قال تعالى :

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(49)وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ

ائت طوعا قبل أن تأتي كرها :

إما أن تأتيني طوعاً فأغفر لك ذنوبك، وأطهرك، وأتجلى على قلبك، وأسعدك، وإلا فلا بدّ من أن أحملك على أن تأتيني، إما أن تأتيني طوعاً، وإما أن تأتيني كرهاً، إما أن تأتيني في سلام، وإما أن تأتيني بعد العذاب الأليم، إما أن تأتيني، وأنت معافى، وإما أن تأتيني بعد المصيبة الأليمة .

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

لكنك أيها العبد إن لم تأتِه طواعية، إن لم تأتِه من تلقاء نفسك، إن لم تأتِه مبادرة منك، إن لم تأتِه كذلك حملك على أن تأتيه .

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

من الممكن أن يصاب الإنسان بمرض عضال يجعله يتوب توبة نصوحاً، ممكن أن يفقد الإنسان ماله الحرام فيحمله على التوبة، ممكن أن يقذف الله في قلبه الخوف فلا ينام الليل، ممكن أن يصيبه بأعز أولاده، إن لم تأته طوعاً أتيته كرهاً .

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(49)وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

أيها الإخوة الأكارم، والله الذي لا إله إلا هو إن الله عز وجل عنده من الأدوية ما لا يعد ولا يحصى، ملايين من الأدوية، يعني كل شيء بيده، ممكن جهاز بأجهزتك يعطل ليس له حل، يمكن لحياتك الزوجية أن تفسد، دخلك يقل إلى درجة دون الخط الأحمر، كل شيء بيده، إذا تعطل شيء في الدماغ، وبينما أنت سائر في الطريق تفقد توازنك، تحذر من أن تمسك آلة لأنه لو جاءتك هذه النوبة والآلة في يدك قتلت نفسك، هناك أمراض وبيلة تصيب القلب والشرايين والدماغ والعضلات والأجهزة جميعها، أمراض تصيب من حولك من أفراد أسرتك، وأنت عنهم مسؤول .

وكذلك بالعمل، وبعلاقتك، بمن فوقك، ومن دونك من الزملاء، فالله عز وجل أدويته ناجحة وفعالة، الدواء دائم ومتوافر، فلما الإنسان ينحرف يأته الدواء من الله عز وجل .

(وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

هذا معنى الآية، عذاب الله عز وجل عذاب أليم بمنزلة الدواء لمن أعرض عن الله عز وجل .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

(وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ)

وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ

الآن ربنا عز وجل سوف يورد لنا مجموعة من القصص، كل هذه القصص تؤكد أنه غفور رحيم، وأن عذابه هو العذاب الأليم .

(وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ(51)إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ)

إبراهيم مع ضيفه :

ضيف إبراهيم امتنع عن الأكل:

طبعاً هذه القصة وردت في أماكن أخرى، في سورة هود وردت بالتفصيل، دخلوا عليه فقدم لهم طعاماً فلم يأكلوا، لما امتنعوا عن الأكل، وجل منهم، واضطرب من حالهم .

(إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ)

خوف إبراهيم منهم :

أي : خائفون، لماذا لم تأكلوا ؟ قالوا :

(قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ)

بشرى الملائكة لإبراهيم بالولد :

سيدنا إبراهيم بلغ من الكبر عتياً، بلغ سناً في المألوف والعادة لا ينجب فيها الأولاد، وبلغت زوجته سناً لا تنجب فيها الأولاد، ومع ذلك بشروه بغلام عليم، هو يتعجب فقال :

(قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ)

تعجب إبراهيم من هذه البشرى :

هذا استفهام مع تعجب، يعني كيف يكون ذلك ؟ أنا تجاوزت السن التي أنجب فيها الأولاد، وامرأتي كذلك فكيف تبشرونني بغلام عليم ؟

(قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ(54)قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ)

الله على كل شيء قدير :

ربنا عز وجل الذي خلق الأجهزة التناسلية في الإنسان هو الذي جعل لها حداً، هو نفسه قادر على أن يرفع لها هذا السقف، وربنا عز وجل وضع في مبيض المرأة عدداً معيناً من البيوض كل شهر تنطلق بيضة من المبيض، وتشكل الدورة الشهرية إلى أن يأتي سن اليأس تنقطع الدورة، ما معنى انقطاع الدورة ؟ أن هذه البيوض التي في مبيض المرأة قد انتهت، وهذا من حكمة الله سبحانه وتعالى، لو أن للمرأة بيوضاً تتوالد كالرجل تماماً إذاً لأنجبت في أية سن، تصور امرأة في سن تسع وتسعين سنة حامل، لكن ربنا عز وجل لحكمة بالغة ورحمة منه بالأمهات جعل في مبيض المرأة عدداً محدوداً من البيوض، هذا العدد يستهلك في سن معينة، وسطياً في الأربعين تنتهي البيوض، فيقال: إن المرأة وصلت إلى سن اليأس، الذي خلق هذه البيوض قادر أن يخلق مزيداً في أية سن .

فبالعقل القضية سهلة، ويمكن عقلاً أن الذي صمم هذا التصميم أن يغير هذا التصميم، والذي رسم هذه الخطة أن يعدلها، قالوا :

(قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ)

هذه والله آية لو عقلناها لسعدنا، هي قول الله سبحانه وتعالى على لسان سيدنا إبراهيم :

(قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ)

قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ

لا تلتفت إلى كلام المثبطين :

وأنا أقول لكم هذا الكلام: أي إنسان يقول لك: الأمور صعبة، ونحن مقبلون على أزمات، العالم كله مقبل على كساد، مقبل على ارتفاع أسعار، مقبل على تضخم نقدي، هذا كلام بكلام، ولكن الله عز وجل يخلق من الضعف قوة، ومن الضيق فرجاً .

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا

وربنا عز وجل قال في آية دقيقة المعنى واضحة الدلالة :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

(سورة الطلاق)

كلمة(مخرجا)معناها كان الأمر مغلقاً، إذا كان هناك أبواب مفتحة تقول: أين المخرج؟ متى تقول: أين المخرج؟ إذا كانت الأبواب كلها مغلقة، فربنا عز وجل لحكمة بالغة أحياناً يغلق لك الأبواب كلها، من أجل ماذا؟ من أجل أن تقرع باب السماء، أن تقرع الأرضي هناك نزعة أرضية، هناك شرك خفي فتغلق الأبواب إلى أن تقول: الأبواب كلها مغلقة، عندئذ تنظر إلى السماء، تقول : يا رب، ليس إلا أنت.

يروى أن رجلاً راود امرأة عن نفسها، وغلق الأبواب، فقالت له كلمة جعلته يخر مغشياً عليه: إن هناك باباً لا تستطيع أن تغلقه، إنه باب السماء، الله مطلع عليك .

فربنا حباً بنا يغلق الأبواب الأرضية كلها في وجوهنا من أجل أن نفتح بأيدينا باب السماء، من أجل أن نصطلح معه، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، إن العباد أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن هم عصوني حولتها عليهم بالسخط والنقمة .

(يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

(سورة الطلاق)

كلمة (مخرجا)تعني أن هناك شيئًا مغلقًا، الطرق كلها مسدودة، والآمال كلها معدومة، إلى أن تقول: يا رب، فيقول لك الله : لبيك يا عبدي، لذلك إذا رجع العبد إلى الله عز وجل نادى مناد في السماوات والأرض : أن هنئوا فلاناً، فقد اصطلح مع الله .

أيها الإخوة الأكارم، والله الذي لا إله إلا هو لو كان الصلح مع الله على مستوى ، أيّ واحد منكم لو أنه اصطلح مع الله تماماً، فتخلى عن كل المخالفات والمعاصي، وأخلص قلبه لله لحلت كل مشكلاته الأرضية، لقوله تعالى :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

(سورة النساء)

لمصلحة من يعذبك الله عز وجل ؟ لا لمصلحة أحد إذا كنت على أمره مستقيماً، أبى الله إلا أن يجعل رزق عبد المؤمن من حيث لا يحتسب .

وربّ نازلة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج

نزلت فلما استحكمت حلقاتها فرجت و كان يظنها لا تفرج

***

كن عن همومك معرضاً وكِلِ الأمور إلى القضا

وابشر بخير عاجــل تنسَ به ما قد مضى

فلرب أمر مسخــــط لك في عواقبه رضا

ولرب ما ضاق المضيق ولرب ما اتسع الفضا

الله يفعل ما يشـــاء فلا تكن معـــترضا

الله عودك الجمـــيل فقس على ما قد مضى

****

حوار بين إبراهيم عليه السلام والملائكة :

(قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ(56)قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ)

إبراهيم عليه السلام يسأل عن مهمة الملائكة عنده :

ما مهمتكم؟ ما شأنكم ؟

(قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ)

مهمة الملائكة إنجاء لوط وإهلاك قومه :

أرسلنا إلى قوم مجرمين لنهلكهم، لندمرهم عن آخرهم .

(إِلَّا آلَ لُوطٍ)

هؤلاء المؤمنون سيدنا لوط ومن حوله من أتباعه الذين آمنوا معه، واستقاموا على أمر ربهم هؤلاء مستثنون من هذا البلاء، وهذه عقيدة أصيلة ينبغي أن تعتقد أن الله سبحانه وتعالى إذا أرسل بلاء عاماً، وكنت مستقيماً على أمره ينبغي أن تعلم أن الله سوف ينجيك من هذا البلاء .

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأنبياء)

الله ينجي المؤمنين في كل مكان وزمان :

قاعدة مطردة، مبدأ ثابت، الله عز وجل ينجي المؤمنين من كل كرب، كن مع الله تر الله معك، هذه الآيات القرآنية التي تأخذ شكل قواعد ثابتة وعامة، هذه الآيات مطبقة في كل مكان وزمان، مجتمع فيه اختناقات، وفيه أزمات فالمخرج تقوى الله سبحانه .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة النحل)

وعد إلهي، الوعد الإلهي هل يعطل؟ أو يلغى؟ أو يؤجل هذا مستحيل، الوعد الإلهي محقق في كل مكان على وجه الأرض، كن في أي مكان شئت لا بدّ من تنفيذ وعد الله .

قالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ)

تشح السماء بالأمطار، فتنشأ نظريات مضحكة، هناك تصحر، هناك انتقال لخطوط المطر، تأتي أمطار فتسمع من يقول : سبحان الله، لم يأتِ كانون الثاني بعد، ولا موسم الثلوج والأمطار، إنهم نسوا أن الأمر بيد الله، أين هذه التوقعات السوداوية ؟ أين هذا التعديل لنظرية الأمطار ؟ كلها تلاشت .

(قالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ(57)قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ(58)إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ(59)إِلَّا امْرَأَتَهُ)

قوم لوط سيدمرون عن آخرهم، إلا آل لوط، لأنهم عرفوا ربهم، واستقاموا على أمره .

(إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ(59)إِلَّا)

هناك استثناء في النجاة :

استثناء مركب، لك عندي عشرة دراهم إلا ثلاثة دراهم، إلا درهم، كم لك عندي؟ لك عندي ثمانية دراهم، لأن الاستثناء الثالث من الثاني، فامرأة لوط مدمرة مع قومها لماذا ؟ أعمال هؤلاء أعمال الفاحشة الشاذة، فما علاقة امرأة لوط، إنها لا ترضى هذا العمل بحكمها امرأة ؟ قال إنها تعاطفت مع قومها، ودافعت عنهم وأحبتهم، لذلك كل نفس تحشر على هواها، فمن هوي الكفرة حشر معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً، ومن أقام مع المشركين فقد برئت منه ذمة الله .

إذا كان قلبك معلقًا بالكفار وهاوياً لهم، مشيداً باختراعاتهم، تراهم أناساً يستحقون الحياة، إذا كان هذا حالك فهذا حال خطير، انظر إلى انحطاطهم الخلقي، انظر إلى انتشار الفاحشة عندهم، إلى تبادل الزوجات فيما بينهم، انظر إلى الخمور إلى المخدرات، إلى تفسخ العلاقات الاجتماعية، إلى انهيار الأسرة، انظر إلى الوجه الآخر من الصورة لا تكتفي بالأبنية الشاهقة والمواصلات والمعامل والسيارات انظر إلى شيء آخر، انظر إلى الوجه الآخر من الصورة .

إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ

لهذا السبب حقّ عليها العذاب :

لذلك امرأة لوط استحقت الهلاك، لا لأنها تفعل فعل قوم لوط، إنها امرأة، وهذا يتناقض مع طبيعتها، بل لأنها أحبت قومها، ودافعت عنهم، وأحبتهم، ووالتهم، وانتمت إليهم فاستحقت الهلاك معهم .

(إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ)

معنى الغابرين يعني : أصابها غبار قومها، تقول : هذا شيء غابر، أي قديم، من أين جاء هذا المعنى؟ جاء هذا المعنى من أن الشيء القديم يعلوه الغبار، فإذا رأيت شيئاً يعلوه الغبار فهذا شيء قديم .

من أحَبَّ قوما ظالمين أصيب بغبارهم :

المعنى المستنبط من هذه الآية: أن محبتها لقومها جعلتها تصاب بغبارهم، لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا آكِلُ الرِّبَا فَمَنْ لَمْ يَأْكُلْ أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ))

[أحمد]

هناك غبار للربا، يقول بعضهم لك : ليس هناك بركة، لأن غبار الربا أصاب الناس جميعاً، العلاقات أكثرها ربوية .

(فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ(61)قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ)

حوار لوط مع الملائكة :

لوط لم يعرف أن ضيفه الملائكة :

معنى منكرون أي: ما عرفنا من أنتم، لأنهم لم يأكلوا ما عرف هويتهم .

(قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ)

الملائكة تخبر لوطا بوعيد الله لقومه :

نحن أتينا لنحقق الوعيد الإلهي الذي وعدهم به، وكانوا منه يضحكون، والآن تعد المرابي بهلاك ماله فيضحك، ويسخر من هذا الوعيد، وحينما يأتي هلاك المال يعرف أن الله حق .

(قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ)

هذا الوعيد الذي أو عدتهم به على لسان الله سبحانه وتعالى كانوا به مستهزئين، كانوا به ممترين .

(وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

وهلاكهم حق، والوعد صادق .

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطَعٍ مِنْ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ)

الملائكة تأمر لوطا بالخروج مع أهله ليلا :

سر بهم بعض الليل، سر وراءهم، واحفظهم، ولاحظهم، ولا تدع أحداً يفوتك منهم .

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطَعٍ مِنْ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ)

إياكم أن تلتفتوا إلى أرضكم إنها سوف تدمر عن قريب .

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطَعٍ مِنْ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ(65)وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ)

الله عز وجل أطلعه على أن قوم لوط سوف يهلكون عن آخرهم مصبحين، مع أول خيوط الفجر، عندما أقرأ مقالات عن تدمير هيروشيما فهذا شيء مذهل، مدينة مطمئنة ساكنة لمع في السماء ضوء خفيف قضى على ثلاثمئة ألف شخص في ثماني ثوانٍ .

(وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ)

الشذوذ عند قوم لوط :

قوم لوط أسرعوا إلى بيته لإيذاء ضيفه :

تروي كتب التفسير أن امرأة لوط حينما رأت الملائكة على شكل شبان جميلي الصورة ممشوقي القوام أرسلت إلى قومها تدعوهم إليهم .

(وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ(67)قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ)

جاءوهم ليفترسوهم .

لوط يذكّر قومه بحق الضيف :

قال :

(قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ)

والضيف مقدس حقه في الضيافة، وحقه الوفادة .

تهديد قوم لوط له :

(قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ(68)وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي(69)قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنْ الْعَالَمِينَ)

ألم نحذرك من أنها يجب أن تحول بيننا وبين ما نريد .

(قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ

هذه الآية بين الفهم السقيم والفهم الصحيح :

الحقيقة هناك أشخاص أساءوا فهم هذه الآية، لا يعقل لنبي كريم أن يقدم بناته ليفجر بهن أناس فجار فسقة، هذا شيء مستحيل لا يليق بالأنبياء، لكن العلماء حملوا هذه الآية على أن هناك بديلاً مشروعاً، يعني من أراد هذه الشهوة من طريق منحرف فهذا عمل إجرامي، هناك طريق مشروع، وهو طريق الزواج، الخالق الذي أودع في الرجال هذه الشهوة جعل لها طريقاً نظيفاً، وهي الزوجة، أما هم يريدون طريقاً آخر طريقاً قذراً منحطاً مخجلاً .

(قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

نكاح المرأة هو الطريق المشروع لإرواء الشهوة :

بمعنى أن المرأة هي الطريق المشروع لتحقيق هذه الشهوة، الزواج يهن وهذا ما تعنيه الآية الكريمة، وبعضه يقول عن هذه الآية : إن النبي الكريم يحس أن كل النساء في مجتمعه بمثابة بناته، يعني توبوا إلى الله، واستقيموا على أمره، ثم تزوجوا من النساء الطيبات المؤمنات، إما أن الآية حملت على معنى

أن كل فتيات قوم لوط هن بمنزلة بنات هذا النبي الكريم فتزوجوهن، أو أن كلمة بناته كناية على أن المرأة الزوجة هي الطريق المشروع لتحقيق هذه الشهوة، وهذا أمر فطري مشروع، وأما ما يريده قومه فهو طريق منحرف ينحدر بالإنسانية أغواراً في مهاوي الخنا ومسارب السَّفه .

(قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

عندئذ جاء القسم الوحيد في القرآن الكريم قال الله عز وجل :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ

الله يقسم بعمر النبي :

خالق السماوات والأرض يقسم بعمر النبي صلى الله عليه وسلم، هذا العمر الثمين الذي ما ضيع منه ثانية واحدة، انظروا إلى أعمارنا هناك أعمار تافهة، هناك أوقات طويلة يمضيها الناس في اللهو، في كلام لا طائل منه، قال عليه الصلاة والسلام :

((إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها ودنيها))

(ورد في الأثر)

العلماء قالوا: ما من مخلوق، وما من نبي في القرآن كله أقسم الله بعمره إلا النبي عليه الصلاة والسلام، من هنا استنبط بعضهم أن هذه إشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم هو سيد الخلق وحبيب الحق .

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

أهمية العمر :

الواحد منا ألا يغار؟ هذا العمر كيف تمضيه؟ هل تسهر إلى الساعة الثانية في الليل تلعب النرد؟ هذا هو العمر الثمين ! لا والله، هل تمضي أياماً طويلة في مشاحنات لا طائل منها ؟ هل تدخل مع مسلم القضاء لتمضي ثماني سنوات في الخصام السفيه من أجل أن تمرغ أنفه في التراب؟ أهذا هو الإسلام! أهذا هو العمر الثمين! هل تقرأ قصة لا طائل منها؟ هل تقرأ كتاباً لا يقدم، ولا يؤخر، مثلاً تاريخ الإغريق؟ اقرأ عن تاريخ أصحاب رسول الله، هناك كتب غير مجدية، وعلم لا ينفع، إن رسول الله عليه الصلاة والسلام دخل إلى مسجده، ورأى الناس متحلقين حول رجل فقال :

((من هذا؟ قالوا: هو نسابة، فقال: وما نسابة؟ قالوا: هو رجل يعرف أنساب العرب، فقال عليه الصلاة والسلام : ذلك علم لا ينفع من تعلمه، ولا يضر من جهل به))

[ورد في الأثر]

وكان يدعو ويقول :

((اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن عين لا تدمع، ومن أذن لا تسمع، ومن نفس لا تشبع))

[أبو داود عن أبي هريرة]

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

العاصون في سكرتهم يعمهون :

لو أنك رأيت إنساناً مندفعاً بدراجة في طريق منحدر، وفي نهاية الطريق حفرة سحيقة مليئة بالوحوش، هل تقول : هنيئاً له على هذا الاندفاع ؟ لا، تقول : الويل له .

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

هؤلاء العصاة، هؤلاء المنحرفون، هؤلاء المقصرون،هؤلاء الزناة، هؤلاء المرابون، هؤلاء شاربو الخمر :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

أمامهم يوم تشيب لهوله سود النواصي، أمامهم يوم تشيب لهوله الولدان، البطولة أن تصل إلى هذا اليوم وأنت معافى .

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران)

والله إنه كلام يؤثر في الإنسان، هذا العمر كيف تمضيه؟ لك صلاتك، ولك وردك، ولك ذكرك، ولك قراءة القرآن، هل تمضي وقتاً في معرفة الله ؟ هل تفكر في آيات الله ؟ هل تدعو إلى الله ؟ ماذا تعمل ؟ نخوض، ونلعب كما يخوض الناس ويلعبون .

(قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ(71)لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(72)فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ(73)فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ)

بداية النهاية :

كل يوم نسمع بمثل هذه القصص :

لا تقل: هذه قصص ما سمعناها، تسمعها كل يوم، ثار بركان، واندفع ببولونيا فمات خمسة وثلاثون ألف إنسانٍ في ليلة واحدة، ثار البركان، وذابت معه الثلوج، وتشكلت الفيضانات والحمم تتساقط من أعلى، إما أن يموت المرء غرقاً أو حرقاً، بين الحين والحين نسمع أخبار الفيضانات والبراكين والزلازل والصواعق وما شابه ذلك، وربنا عز وجل قال :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(72)فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ(73)فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ)

من شابه قوم لوط عوقبوا بمثل عقابهم :

لذلك فإن الفقهاء استنبطوا أن من يفعل فعل قوم لوط يجب أن يقتل بهذه الطريقة، و في كتب الفقه كلها أحكام مشابهة لهذا، فالذي يفعل فعل قوم لوط يلقى له من شاهقة، أو يلقى فوقه حجارة كما جاء في هذه الآية .

(فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (74)إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ)

الذين يبحثون عن الحق، ويتوسمون الحق، فهذه آيات دالة على الحق يجدون فيها بغيتهم .

(وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ(76) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ(77)وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ)

وأصحاب الأيكة نتحدث عنهم في الدرس القادم إن شاء الله تعالى .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجر 015 - الدرس (7-9): تفسير الآيات 72 – 84
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-12-1986

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة الحجر، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ(67)قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ(68)وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ(69)قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنْ الْعَالَمِينَ(70)قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ(71)لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ

هذه الآية كلام معترض بين آيتين، في سياق القصة قال الله عز وجل مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم مقسماً بعمره الثمين :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

كيف يمضي الإنسان عمره الثمين ؟

فهذا العمر الذي يعيشه الإنسان ستون أو سبعون عاماً، هذا العمر الذي كتبه الله لهذا الإنسان كيف يمضيه ؟

الأنبياء أمضوا هذا العمر في هداية البشرية، في نقلهم من الضلالة إلى الهدى، من الشقاء إلى السعادة، في تخليصهم من عقائد الوثنية، من ضلالات الشرك، من وحول الشهوات، من الخرافات والخزعبلات، وهناك أشخاص منهم هتلر مثلاً عاش عمراً، وانتهى هذا العمر، وترك وراءه خمسين مليون قتيل في الحرب العالمية الثانية، إذا كان لكل قتيل أقرباء يزيدون على خمسة فمئتان وخمسون مليونًا من البشر قد أعطبهم، هذا عمر، فبم يذكر؟ وعمر النبي عليه الصلاة والسلام بهذه السنوات الثلاث والستين التي عاشها أنقذ الناس خلالها من الظلمات إلى النور، من الضلال إلى الهدى، من الانحراف إلى الاستقامة، من الشقاء إلى السعادة، لذلك استحق أن يقسم الله رب السماوات والأرض بعمره الثمين .

وهذا الكلام لنا علاقة به، هذا العمر الذي وهبنا الله إياه، وأحياه كيف أمضيه؟ ما الموضوعات الكبرى التي تستغرقه؟ كسب المال، تأمين الحاجات، الرفعة بين الناس، أم لك في الحياة رسالة تؤديها؟ ما رسالتك؟ ما الذي يعنيك في الحياة؟ هناك أناس لا تزيد اهتماماتهم على تأمين حاجاتهم، لذلك أحد

الشعراء في عهد سيدنا عمر قال بيتاً من الشعر نال به من كرامة بعض الناس فأدبه عمر رضي الله عنه وأدخله السجن بسببه، إذ قال لأحد الأشخاص متهماً إياه باستغراق وقته في الطعام والشراب مجرداً عن المحامد :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

***

من كان اهتمامه لا يزيد على تأمين الطعام والشراب وتامين حاجاته والخلود إلى الراحة والزينة، وما إلى ذلك فإن هذا العمر فارغ وتافه، عش سبعين أو ثمانين أو تسعين، هذه السنوات كلها لا تعني شيئاً إلا إذا كانت عامرة بالخير، إن الله يحب معالي الأمور، ويكره سفسافها ودنيها، اسأل نفسك يا أخي هذا السؤال: أن ماذا فعلت؟ سؤال حرج، حجمك عند الله بحجم عملك، ما العمل الذي تستطيع أن تلقى الله به؟ ما العمل الذي تستطيع أن تعرضه على الله عز وجل ؟ ماذا فعلت ؟

لا أنسى مرة حينما حضرت فيها جنازة، وقام أحد العلماء ليؤبّن الميت، فقال: فلان مؤذن فقط، ما تمكن أن يضيف كلمة واحدة، مع أنني أعرف فلاناً رحمه الله كان يحضر معنا أحياناً، كانت حياته مرفهة، وكان دخله كبيراً، وكان يحب أهل العلم، وكان، لكن ماذا فعل ؟ هل هدى واحداً؟ هل أنقذ إنساناً؟ هل خلف علماً؟ هل خلف ولداً صالحاً ينتفع الناس به ويدعو له؟ هل ترك صدقة جارية؟ كان على المؤبّن في كلمته أن يذكر قبل هذه الأعمال إن وجدت .

هذا العمر لفت نظري في هذه الآية كلمة(لعمرك)، الله سبحانه وتعالى في عليائه يقسم بعمر هذا النبي الثمين .

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

أردت أن أفصل في شرح هذه الآية، هناك عمر تافه، من العمل إلى البيت، يجمع المال، وينفقه على أهله من دون توجيه ولا تربية، ومن دون تأدية رسالة، دينه الدرهم والدينار، فهذا دينه الشهوات، أما هذا فدينه النفع في الأرض، وما إلى ذلك، لذلك فهذا الشخص الذي لا يفعل خيراً لا يساوي عند الله شيئاً، لا تعجب بهؤلاء الفارغين من فعل الخير لا بأموالهم، ولا بأولادهم، ولا ببيوتهم، إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الحياة الدنيا، ولكن اعجب من الذي أمضى حياته في طاعة الله، وفي هداية الخلق، وفي التقرب إلى الحق .

عمر النبي كله خير :

النبي عليه الصلاة والسلام عاش هذا العمر، ما من كلمة نطق بها، وما من تصرف، وما من سكوت إلا كان له به هدف، حتى إن سكوته تشريع اللهم صلِّ عليه، إذاً نطقه تصرفاته سكوته كله خير ونفع وبر .

عرَّف علماء الحديث الشريف بأنه أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وإقراره، فمثلاً: لو أنه نظر إلى صحابي يفعل شيئاً، وسكت فسكوته تشريع، لأنه إذا سكت فمعنى ذلك أنه أقره على هذا العمل .

امرأة من خلف الستار كانت تمدح زوجها المتوفى في حضرة النبي عليه الصلاة والسلام، فَعَنْ أُمِّ الْعَلَاءِ امْرَأَةٍ مِنْ الْأَنْصَارِ بَايَعَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ اقْتُسِمَ الْمُهَاجِرُونَ قُرْعَةً فَطَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ، فَأَنْزَلْنَاهُ فِي أَبْيَاتِنَا فَوَجِعَ وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ، وَغُسِّلَ، وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ ؟ فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ؟ فَقَالَ: أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي؟ قَالَتْ: فَوَ اللَّهِ لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا))

[البخاري]

ما سكت عليه الصلاة والسلام، ولو سكت لكان قولها صحيحاً .

إذاً: هذا النبي الكريم أقواله أفعاله سكوته تصرفاته كلها كانت تشريعاً، جاء إلى الحياة وغادرها، وما أخذ منها شيئاً، لأن الدنيا جيفة طلابها كلابها، والدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له .

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[الترمذي]

العمر أثمن شيء :

هذا الزمان الذي تمضيه هو أثمن ما تملك، فإذا انتهى فلا تملك شيئاً، وحينما تجلس على طاولة في الامتحان العام في صف التخرج، ويتوقف على تخرجك تحقيق آمال عريضة، إن هذه الساعات الثلاث هي وقت مصيري، فإذا أمضيت هذه الساعات في بعض الرسوم التي لا علاقة لها بالسؤال فهذا تضييع للوقت، لأن أثمن ما تملك هو الوقت، وهذا الكلام لكم أيها الإخوة، لأن أثمن شيء تملكونه هو الوقت .

أحد الصالحين كان يمشي في الطريق فرأى مقهى، ورأى أناساً يقبعون فيه يلعبون النرد، فقال : يا سبحان الله لو أن الوقت يشترى من هؤلاء لاشتريته منهم، المؤمن يتمنى أن يكون النهار خمسين ساعة حتى يحقق طموحه، يتمنى أن يتعلم كل شيء، يتمنى أن يخدم الناس جميعاً، يتمنى أن يصلي كل ليلة قيام الليل، يتمنى أن يحفظ القرآن غيباً، يتمنى أن يفهم التفسير فهماً كافياً، يعني نية المؤمن خير من عمله يحتاج هذا إلى وقت .

فالوقت أيها الإخوة، أثمن ما تملكونه، بل إن رابعة العدوية رضي الله عنها سئلت : ما الإنسان ؟ فقالت: هو بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه .

وأنت بين أيام ثلاثة، يوم انقضى لا يعود، ويوم مقبل مغيب عنك، ويوم تعيشه،

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

***

لك هذه الليلة، والليلة السابقة ليست لك، إن كانت في خير أو كانت في شر، إن أطعت الله فيها مضت، وإن عصيته فيها مضت، لا تندم على ما فات، ولا تقل : غداً، غداً لا تملكه فهو غيب، لا تملك إلا اليوم الذي أنت فيه، لذلك كلما استيقظ الإنسان صبيحة يخاطبه هذا اليوم فيقول : أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني لا أعود .

وكلما استيقظ الإنسان من نومه يجب أن يأتي على خاطره ما يلي : لقد سمح الله لي أن أعيش يوماً أخراً في حياتي، ما دام قد استيقظ، فقد سمح الله به .

أيها الإخوة الكرام، لي صديق ذهب إلى فراشه الساعة الحادية عشرة، زوجته في الساعة الثانية بعد منتصف الليل مست يدها يده، فإذا هي باردة، فانتفضت من الفراش، فإذا هو ميت .

إذا استيقظ الإنسان من نومه صباحاً يجب أن يخطر على باله هذا الخاطر: لقد سمح الله لي أن أعيش يوماً آخر، أضيف إلى عمري هذا اليوم ماذا أفعل به؟ راقب نفسك كيف تمضي هذا اليوم؟ قد يمضي بأشياء تافهة، بمشاحنة فارغة، بخصومة سخيفة، بأعمال لا جدوى منها، بحديث فارغ، بجمع مال، بالحديث عن الدنيا وعن حطامها، هذا إذا لم يكن هناك معصية، هذا إذا أمضيت اليوم فيما لا يغضب الله عز وجل فأنت خاسر، فكيف إذا أمضيت اليوم في معصية؟ كيف إذا كنت غافلاً؟ كيف إذا كنت منحرفاً ؟ كيف إذا تجاوزت حدك إلى ما لا يرضي الله عز وجل؟ لذلك في الدعاء: لا بورك لي في يوم لم أزدد فيه من الله قرباً، ولا بورك لي في يوم لم أزدد فيه علماً، والمغبون من تساوى يوماه، ومن لم يكن في زيادة فهو في نقصان .

لا تفوِّت فرصة عمل صالح :

هذا التوجيه هادف، ولا ينبغي أن ينتهي مع نهاية الدرس، يجب أن تبقى هذه المعاني معكم طوال الأسبوع، هذه شحنة، غداً السبت استيقظت إن شاء الله، ماذا سأفعل اليوم من عمل يرضي الله عز وجل؟ ماذا سأفعل من عمل أدخره لآخرتي، ولما بعد الموت؟ إذا جاء ملك الموت فلسان حالك يقول: يا رب، قدمت هذا العمل، عدت هذا المريض لوجهك، عاونت هذا الفقير رغبة في مرضاتك، جلست في مجلس العلم حتى أتعرف إليك، قرأت القرآن، بررت أمي، خدمت والدي، دعوت إلى الله، أمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، إذا استيقظت من منامك فانتبه أن هذا اليوم يوم جديد أضيف إلى عمرك، ولن يعود، أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني لا أعود، أمسك سيدنا عمر تفاحة فقال : أكلتها ذهبت أطعمتها بقيت .

ركبت سيارتك، ورأيت إنساناً يحتاج إلى أن توصله إلى مكان بعيد، ومعك وقت، هذه فرصة لعمل صالح لا تفوت، لك جار مريض عدته، وجدته بحاجة إلى طبيب، فأتيت له بالطبيب، وجدته بحاجة إلى الدواء، فأحضرت له الدواء، هذا عمل تدخره لما بعد الموت .

اعمل لما بعد الموت :

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

معظم الناس يعملون لما قبل الموت، والمؤمن يعمل لما بعد الموت، إذا كان عملك لما قبل الموت عظيماً فينتهي بالموت، مهما كان عملك عظيماً ينتهي بالموت، مهما تركت من ثروة طائلة تنتهي بالموت .

يا أهلي يا، ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حله وفي غير حله، فالهناءة لكم، والتبعة عليّ .

فهذا النبي الكريم كما قال عن نفسه صلى الله عليه وسلم :

((إنا معشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا))

[الجامع الصغير عن عطاء]

((أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني))

[الترمذي عن أنس]

ما غفل عن الله لحظة، ما نامت عينه، دائم الذكر، دائم الالتجاء، دائم الدعاء، دائم الرجاء، دائم التوكل، دائم التفويض، دائم التسليم، دائم الصبر دائم الشكر، هذا حال النبي عليه الصلاة والسلام، لذلك استحق

أن يقسم الله بعمره الثمين .

معلوم لدى الجميع أن النبي عليه الصلاة والسلام بلغ سدرة المنتهى، وبلغ المقام المحمود، وكان أكرم الخلق على الحق، لا يحتاج إلى اعتراف بهذا المقام هو غني عن هذا، ولكننا نحن المحتاجون، إذا قلت: إنه أقسم بعمره الثمين فإنك لا تضيف شيئاً إليه، هو هكذا، هذه مرتبته وهذا مقامه، وقد فاز ونجح وكان سيد الخلق وحبيب الحق وانتهى الأمر، لن تضيف شيئاً بكل ما تقول، ولكن الذي يعنيني أنت الذي تعيش، الذي بين جوانحك قلب ينبض، أنت المعني كيف تمضي هذا العمر ؟ كيف أتحضر مجالس العلم! أمجلس العلم أغلى عليك من كل شيء ! معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى عظيم عندك .

أيها الإخوة الأكارم، هناك عمر تافه، وهناك عمر مليء بالشر والتجاوزات والطغيان، وهناك عمر مليء بالخيرات . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ ؟ قَالَ : مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ))

[الترمذي]

الذي أحب أن أقوله لكم، والحقيقة مرة دائماً، والأسئلة محرجة: اسأل نفسك: ما هو عملي الذي ألقى الله عليه؟ ما هو عملي الذي أدخره لآخرتي؟ ما العمل الذي يمكنني أن أعرضه على الله عز وجل؟ إذا كان مقامي عند الله عز وجل بحجم عملي فما هو عملي؟ هل تظن أنك إذا حضرت مجلس العلم، ولم تكن في مستواه أنك فعلت شيئاً عظيماً! ولكن ماذا فعلت من أجلي؟ هكذا في الحديث الشريف، هل واليت في ولياً؟ هل عاديت في عدواً؟ ماذا أنفقت من مالك من أجلي؟ ماذا أعطيت، هل منعت من أجلي؟ هل أعطيت من أجلي؟ ماذا فعلت من أجلي ؟

((يا رسول الله : جئت لتعلمني من غرائب العلم، قال : وماذا صنعت في أصل العلم، قال : وما أصل العلم، قال : هل عرفت الرب ؟ قال : ما شاء الله، فقال : ماذا فعلت في حقه ؟ قال : ما شاء الله، قال : هل عرفت الموت ؟ قال : نعم، قال : فماذا أعددت للموت ؟

[مسند الربيع عن ابن عباس]

هذا كله مستوحى من قوله سبحانه وتعالى :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

معنى : سكرتهم :

أما معنى سكرتهم : قال أحد الشعراء :

سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى أفاقت من به سكران

السكر أنواع :

والسكر أنواع فبعض أنواع السكر أن يشرب الإنسان الخمر فتسكره، وبعض أنواع السكر أن يهوى شيئاً فهو سكران في محبته، وحبك الشيء يعمي ويصم، وحب الدنيا رأس كل خطيئة، هذا سكران بحب الدنيا، وهذا سكران بحب متاعها وشهواتها، وللسكر نوع ثالث .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ(1)يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

(سورة الحج)

الناس أحياناً يسكرون بالعذاب، لشدة الهول يذهلون عن أنفسهم وعن أعز الناس عليهم، والهوى سكر، وهؤلاء قوم لوط سكارى بهذه الشهوات المنحرفة .

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ)

هم الآن سكارى، الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا .

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

قال ابن عباس رضي الله عنه : ما خلق الله، وما ذرأ، وما برأ نفساً أكرم على الله عز وجل من محمد صلى الله عليه وسلم، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره .

السكرة هي الضلال :

أما سكرتهم، فقال بعض المفسرين : ضلالهم .

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

هم في ضلال ويلعبونى .

السكرة هي الحيرة :

وبعضهم قال : سكرتهم أي : حيرتهم، و يعمهون يترددون، إنهم لفي حيرتهم يترددون .

السكرة هي الشهوة المنحطة :

وبعضهم قال : سكرتهم أي : شهوتهم المنحطة هم سكارى بها، وقد تلتقي بإنسان سكران بشهوة ما، غائب عن كل شيء لا يرى سواها، لا يتحدث إلا عنها، لا يعنيه إلا أخبارها، لذلك الشهوات إذا

استحوذت على القلوب حجبتها عن علام الغيوب، والله سبحانه وتعالى يقول :

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

(سورة فاطر)

وبعضهم فسر هذه الآية بأن هذه القبور هي قبور الشهوات، والإنسان قد يدفن في الحياة الدنيا في قبر شهوته، فإذا هو أعمى .

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)

(سورة البقرة)

إنه مدفون في قبر الشهوة، هذا بالنساء، وهذا بالمال، وهذا بالعلو في الأرض، وهذا بمباهج الدنيا، وهذا بمتعها الرخيصة، وهذا بقصورها، وهذا بأسواقها .

كلّ شيء أقسم الله به فهو عظيم :

شيء آخر، هذا يقودنا إلى موضوع القسم، الله سبحانه وتعالى أقسم بعمر النبي صلى الله عليه وسلم، وبعض العلماء فهم هذا القسم فهماً دقيقاً فقال : ما من شيء أقسم الله به إلا وهو ذو شأن، فإذا أقسم الله عز وجل بعمر النبي صلى الله عليه وسلم فهل أقسم الله بشيء أعظم منه، لا، الإنسان حينما يقسم يقول: والله العظيم، فالإنسان إذا أقسم يقسم بشيء أعظم منه، لكن الله إذا أقسم فقسمه له معنى آخر .

قال بعض العلماء : ما من شيء أقسم الله به إلا ليدل على فضله على ما يدخل في عداده، يعني من يدخل في عداد المصطفى ؟ البشر كلهم لأنه بشر، فإذا أقسم الله بحياته فليدل بقسمه هذا على أن هذا الإنسان متميز على سائر البشر، إذا قال :

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ)

(سورة التين)

على هذا المعنى هناك أشجار كثيرة، لكن التين والزيتون يقعان في المقدمة، أشجار معمرة، وتؤدي غايات كثيرة، ولها منافع جمّة، وكذلك في السماء نجوم كثيرة، فإذا أقسم الله قال :

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

(سورة الشمس)

فهذا القسم ليلفت نظر عباده إلى السماء، وأقرب النجوم لنا الشمس، فإذا أقسم الله بشيء فليدل على أنه أفضل مما يدخل في عداده، هذا بعض توجيه الأقسام الإلهية .

توجيه قسم الله بالمخلوقات :

وبعضهم قال : إذا أقسم الله بالشمس فهو يقول : ورب الشمس، ورب القمر، ورب السماء، ورب محمد، ورب هذا العمر الثمين، إما أن توجه القسم بإضافة كلمة (رب)

وإما أن القسم يفيد أن هذا الشيء الذي أقسم الله به يفوق كل ما دخل في عداده، وإما أن يقسم الله عز وجل بشيء هو بالنسبة لنا عظيم، لكن إذا قيس بالله عز وجل فو لا شيء، بالنسبة إلينا يقسم بالنسبة إليه لا يقسم، يقول :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(38)وَمَا لَا تُبْصِرُونَ)

(سورة الحاقة)

الكون كله دخل فيه .

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

(سورة الواقعة)

فهذا توجيه ثالث، إذا أقسم بشيء فهذا الشيء بالنسبة إلينا، وإذا لم يقسم بشيء فهذا الشيء بالنسبة إليه، وإذا أقسم فليدلل أن كل ما دخل في عداده دونه، أو لك أن تضيف مع الأقسام الإلهية كلمة و (رب)، هذه ثلاثة توجيهات للقسم الإلهي في القرآن الكريم .

على كلٍّ، ما من شك أن جميع العلماء اتفقوا على أن المقصود بهذا القسم هو عمر النبي صلى الله عليه وسلم، وأن هذا تشريف وتعظيم لعمر النبي صلى الله عليه وسلم، وتأكيد، أي : أيها الإنسان اقتدِ بهذا النبي العدنان، أمض عمرك بهذه الطريقة في طاعة الله .

إذا عاش الإنسان سنوات طويلة، ونظر إلى الماضي، ورأى أن هذه السنوات أمضاها في طاعة الله، وفي عمل الصالحات، وفي تعلم العلم، ونشره والله الذي لا إله إلا هو عندئذٍ تعمر قلبه سعادة ما بعدها سعادة، فإذا شعرت أنك أمضيت هذا العمر في طاعة الله، فمن أسعد منك وأهنأ، لذلك عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ، عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ ؟ وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ ؟))

[ترمذي]

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(72)فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ)

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ

صيحة واحدة، مشرقين، أي : وقت شروق الشمس، وهذا أن الإنسان لا يدري متى يأته الأجل، حالة الوفاة غريبة، مع شروق الشمس، مع طلوع الفجر، فالإنسان يستعد كراكب القطار، قد يأتي موظف، ويمسك بيده، ويقول له : انزل، هكذا جاء الأمر، فالراكب الذكي يستعد ويهيئ أمتعته، وهو ينتظر هذه اللحظة، فإذا قيل له : تفضل، يقول أنا جاهز، هكذا المؤمن تائب من كل الذنوب راض لله عز وجل عمله مستقيم قائم بعبادته يتعلم العلم وينشر العلم فإذا جاء ملك الموت يقول: مرحباً بلقاء الله، واكربتاه يا أبت، قال : لا كرب على أبيك بعد اليوم، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه، والذي لا إله إلا الله تأتي على قلب المؤمن ساعة عند الموت لا تسعه الدنيا وما فيها من شدة الفرح، أهله يبكون ويندبون حظهم وهو في روضات الجنات .

(قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(26)بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ)

(سورة يس)

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(72)فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ(73)فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ)

هي صيحة واحدة، فإذا عاليها سافلها، وهذه نعرفها، كم من زلزال أحال مدينة في أوج ازدهارها ونشاطها إلى أكوام من الأنقاض، أغادير في ثلاث دقائق أصبحت قاعاً صفصفاً، فيها فندق ثلاثون طابقاً غاص كله في الأرض، وبقي الطابق الأخير مع اسم الفندق على مستوى الأرض .

(فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا)

الآن نسمع، ونشاهد عن زلازل دمَّرت المدن بدقائق محدودة .

(فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ)

معنى : حجارة من سجيل :

لهذه الكلمة معنيان :

المعنى الأول :

أن السجيل هو الطين اليابس .

المعنى الثاني :

أن السجيل من السجل، حجر سجل عليه اسم صاحبه، بمعنى أنه في ملكوت السماوات والأرض ليس هناك شظية طائشة، فكل حجر عليه اسم صاحبه الذي يستحقه من سجيل، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[أحمد]

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ)

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ

من هم المتوسمون ؟

من هم المتوسمون؟ روى الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، تفضل علينا رسول الله، وفسر هو نفسه هذه الكلمة، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ، ثُمَّ قَرَأَ :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ)

قَالَ أَبُو عِيسَى : وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ)

قَالَ : لِلْمُتَفَرِّسِينَ .

[الترمذي]

أي : الذي يتفرس الحقيقة، ويتعرف إليها، ومن ملامح العقلاء، وأصحاب العقول أنه يكشف الحقيقة .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ)

لذلك فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ))

[الترمذي]

وينطق بتوفيق الله .

بعض المفسرين أضاف إلى هذا فقال: المتفرسون هم المتفكرون .

وبعضهم قال: للناظرين .

وبعضهم قال: للمتبصرين .

من علامات العاقل النظر والتبصر والتفرّس :

من علامة العاقل أنه يتبصر، يتفكر، يدقق، يحقق، يتريث قبل أن يقبل، قبل أن يتهافت، قبل أن يلقي نفسه في جحيم هذه الشهوة ينتظر هل ترضي الله أم تغضبه؟ هل عملي صحيح؟ ينطبق على الشرع، هل فيه مخالفة؟ هل توعد الله من فعل هذا بعذاب أليم؟ قبل أن تأكل الربا هل قرأت قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنْ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ(278)فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة : 279)

قرأت هذه الآية، العاقل هو الذي يقف عند كتاب الله، سيدنا عمر كان وقافاً عند كتاب الله، لا تتسرَّع، قبل أن توقع العقد مع شريكك هل تعلم أن هذه البضاعة فيها مادة حرام يحرمها الشرع، قبل أن تأخذ هذا المبلغ هل علمت أن هذا المبلغ قد يكون حراماً، قبل أن تطلق هذه الزوجة هل تعلم أن هذا الطلاق يرضي الله عز وجل، أم أن فيه سخط الله عز وجل، قبل أن تتزوج هل اخترت المرأة الصالحة، من تزوج المرأة لجمالها أذله الله، من تزوجها لمالها أفقره الله، من تزوجها لحسبها زاده الله دناءة، قبل أن تسجل اسمك في هذه الرحلة هل تعلم ما في هذه الرحلة من معاصٍ وانحرافات، هل أنت تملك نفسك في هذه الأماكن، قبل أن توافق كن متوسماً، توسم الحقيقة قبل أن تصل إليها، العاقل هو الذي يصل إلى الشيء قبل أن يصل إليه، يصل إليه بفكره قبل أن يصل إليه بجسمه .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ)

هذا أيضا من المتفرّسين :

قال بعضهم : المتوسم هو الناظر إليك من فرقك إلى قدمك، هذا متوسم يتفرس، المؤمن كذلك يتفرس، إنسان يكلمك كلاماً قد يكون مغرضاً، قد تكون له نية سيئة، قد يكون يحاول خداعك، كن متوسماً .

دخل رجل إلى مجلس سيدنا عثمان رضي الله عنه فقال : أيدخل أحدكم إلى المجلس وعليه آثار الزنا، فقالوا : يا خليفة رسول الله أوحي بعد رسول الله ؟ قال : لا، ولكنها فراسة صادقة .

والتوسم كما قال العلماء : التثبت والتفكر، لذلك ورد في الأثر أن الحزم سوء الظن، وسوء الظن عصمة، واحترس من الناس بسوء الظن، وكان عليه الصلاة والسلام يحذر الناس، ويحترس منهم من غير أن يطوي بشره عن أحد، كان بشره للجميع، ولكن يحذر أحياناً .

شروط التوسم والفراسة :

والعلماء قالوا : التوسم يحتاج إلى شروط : إلى جودة القريحة، وحدة الخاطر، وصفاء الفكر، وتفريغ القلب من حشو الدنيا، وتطهير النفس من أدران المعاصي، وفضول الدنيا، هذا المتوسم قلبه شفاف فارغ من حب الدنيا، فارغ من شهواتها وحطامها، المتوسم إنسان حاد الفكر والخاطر، صافي النفس، بعيد عن المعاصي، مطهر عن الدنس، إذا كنت كذلك يؤتيك الله هذه الفراسة الصادقة .

والسادة الصوفية قالوا : التوسم هو الكرامة، كرامة الله لهذا الصوفي يعطيه هذه القدرة على كشف الحقائق، أحد أحوال الصوفية الكشف، ينظر إلى الشخص فكأنه يعرف ما يخبّأ له .

وقال بعضهم : التوسم هو الاستدلال بالعلامات، إما علامات ظاهرة، أو علامات باطنة .

وبعضهم عدّ التوسم إدراكاً دقيقاً جداً عن طريق استدلال دقيق، سيدنا الصديق رصي الله عنه حينما سمع قوله تعالى، أو حينما نزلت هذه الآية صار يبكي، قال تعالى :

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(1)وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا(2)فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا)

(سورة النصر)

صار يبكي، البكاء ليس له معنى، فقد عرف أن في هذه الآية نعيًا للنبي صلى الله عليه وسلم، انتهت رسالته، حقق الهدف، عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ :

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي بِأَنَّهُ مَقْبُوضٌ فِي تِلْكَ السَّنَةِ))

[أحمد]

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ(75)وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ)

وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ

وإن آثار هؤلاء القوم في طريق العرب من مكة إلى بلاد الشام، ديار لوط على طريقهم، وكيف جعل الله عاليها سافلها، وإن هذه الآثار تنطق بظلم هؤلاء، تنطق بما فعلوا، والسبيل هو الطريق، كما أن

أهرامات الفراعنة شواهد عليهم، وعلى حضارتهم، وكيف دمروا، وأهلكهم الله عز وجل .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ(77)وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ)

وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ

من هم أصحاب الأيكة ؟

أصحاب الأيكة أصحاب البساتين، والأيكة هي الشجرة العظيمة ملتفة الأغصان، وأصحاب الأيكة هم قوم سيدنا شعيب .

(فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ)

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ

يعني آثار قوم لوط، وآثار قوم شعيب أمام المسافرين جيئةً وذهاباً على طريق مكة الشام .

(فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ(79)وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ)

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ

من هم أصحاب الحجر ؟

وأصحاب الحجر بعضهم قال : الذين نحتوا بيوتهم من الصخر، هؤلاء الأنباط إذا زرت مدينتهم، ولا تزال قائمة حتى الآن، إنها مدينة رائعة، بيوتها محفورة في الصخر، بيوت غرف نوافذ أماكن للتهوية، حماماتهم أماكن لهوهم، بيوت أمرائهم، أنا رأيتها بأم عيني .

(وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ(80)وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)

أحياناً وصدفة في أثناء تقليب الإذاعات يسمع الذي يدير هذا الجهاز القرآن الكريم، فسريعاً ما يزيح الإبرة عنه، فهو لا يريد أن يسمع القرآن، بل يريد الغناء، لو أنك نصحته لتثاءب أمامك، فإذا حدثته عن الدرهم والدينار، وعن المشاريع تراه أذناً مصغية، إذا قبض المال كان يقظاً، فإذا استمع إلى مجلس علم تأخذه سنة من النوم، هل رأيت في حياتك كلها إنساناً يقبض الآلاف وهو نائم! لا ينام، بل هو في كامل الصحوة والنشاط واليقظة، فربنا عز وجل قال :

(وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ(80)وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)

وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ

شأن المقبل على الدنيا الإعراضُ عن آيات الله :

الآيات جعلوها وراء ظهورهم، ولم يلتفتوا إليها، يقول قائل : هذا الموضوع لا يعنينا، هذا الموضوع عفا عليه الدهر، يقول لك : حدثنا عن الدرهم والدينار، حدثنا عن الشهوات، حدثنا عن شيء نتوق إليه، ودعنا من شيء لا يعنينا الآن.

(فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ(81)وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِين)

وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِين

ظنوا أنهم بهذه الطريقة يأمنون من جائحات الزمان، أو يأمنون من الموت، أو أن هذه المدينة محصنة، إن الطريق إليها ممر إجباري بين جبلين لا يتسع إلا لفرس أو فرسين، إذاً أي عدو يصل إليهم يحاصرونه .

(وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ(82)فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ)

نهاية أصحاب الحجر : فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ

أخذتهم الصيحة، صاح الله بهم فدمروا عن آخرهم .

(فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ(83)فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

لا يغني عن عذاب الله شيء من الدنيا :

هذه المدينة، وهذه البيوت، وهذا المسارح، حتى إن البيت الكبير هو لمن يدير شؤونهم، مساحته ثلاثون متراً في ثلاثين متراً في ثلاثين متراً عمقاً، نُحت من الصخر في لب الجبل، وعلى مدخل هذا القصر الأعمدة والتيجان والأقواس، شيء لا يصدق .

(وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ(82)فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ(83)فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

والآن لو أن الإنسان أشاد بناءً، لقال: أنا اعتنيت بالكسوة اعتناءً تاماً، كنت أنتقي أحسن أنواع المواد من البلاط والطلاء والأثاث وغيره، فإذا جاء ملك الموت يدعه كما هو، ثم يحملونه إلى المثوى الأخير، والله الذي لا إله إلا هو لو تبصر الناس بما كتب على النعي لارتعدت فرائصهم، اقرأ النعي: وسيشيع فلان إلى مثواه الأخير، إذاً: هذا البيت الذي يسكنه ماذا يسمى؟ مثوى مؤقتا، بيتا مؤقتا، اعتنِ به ما شئت، سنوات معدودة، ثم ترحل عنه .

أعرف رجلاً مضى عليه وهو يكسو بيته سنتان لشدة وسوسته، وشدة حرصه على أن يكون بيته مثالاً في الجمال والذوق، بعد أن سكنه بشهرين توفيت زوجته، وبعد ستة أشهر توفي هو، إذاً عمل سنتين، ثم لم يسكن فيه إلا سبعة أشهر، فلذلك :

(فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

ابن بيتاً في الآخرة، ادفع من مالك في سبيل الله، ادفع من مالك للفقراء والمساكين، أحسن إلى الخلق يحبك رب العالمين .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ

المقرون بالمحبوب محبوب والمقرون بالمبغوض مبغوض :

روى الإمام البخاري رحمه الله عَن ابْنِ عُمَرَ قَالَ :

((نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّاسِ عَامَ تَبُوكَ نَزَلَ بِهِمْ الْحِجْرَ عِنْدَ بُيُوتِ ثَمُودَ، فَاسْتَسْقَى النَّاسُ مِنْ الْآبَارِ الَّتِي كَانَ يَشْرَبُ مِنْهَا ثَمُودُ، فَعَجَنُوا مِنْهَا، وَنَصَبُوا الْقُدُورَ بِاللَّحْمِ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَهَرَاقُوا الْقُدُورَ، وَعَلَفُوا الْعَجِينَ الْإِبِلَ، ثُمَّ ارْتَحَلَ بِهِمْ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ عَلَى الْبِئْرِ الَّتِي كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْهَا النَّاقَةُ، وَنَهَاهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ عُذِّبُوا، قَالَ : إِنِّي أَخْشَى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ))

[البخاري، مسلم ، أحمد]

العلماء استنبطوا من هذا الحديث الشريف الصحيح أنه لا يجوز دخول مقابر الكفار، وأنه لا يجوز استعمال هذه الأماكن، وأن يطعم فيها الإنسان ويشرب، كما أنه يجوز أن تعلف الناقة أو الحيوان الشيء الذي ينبغي ألا نأكله نحن، لأن الإبل والبهائم لا تكليف عليها .

أما الاستسقاء من بئر الناقة فكان هذا على سبيل التبرك بآثار الأنبياء الصالحين، لكن الجمادات غير

مؤاخذة، إلا أن المقرون بالمحبوب محبوب، والمقرون بالمبغوض مبغوض .

أحب لحبها السودان حتى أحب لحبها سود الكلاب

***

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار و ذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

***

هناك استنباطات لطيفة، إن أماكن اللهو والفجور حتى ولو كانت خالية من المعاصي لا ينبغي أن تقف فيها، أحياناً نجري حفلة عقد قران في نادٍ، هذا النادي تشرب فيه الخمور، وتقام فيه الحفلات الراقصة، لكن في هذه الساعة لا يوجد شيء من المنكرات، بل فيه منشدون، وقراءة، قرآن، لا، هذا المكان ما دامت تقام فيه المعصية لا ينبغي أن تجلس فيه، هذا الاستنباط الذي أردت منه هذه الحقيقة .

وقد منع العلماء الصلاة في هذا المكان دار سخط وبقعة غضب، وقد منع العلماء الصلاة في المزبلة والمقبرة والمجزرة وقارعة الطريق والحمام، وفوق بيت الله الكعبة، وفي الدار المغصوبة، والكنيسة، والبيت الذي فيه تماثيل، أو في موضع تستقبل فيه وجه أدمي، أو جدار عليه نجاسة، وقد روي : أخرجوا من الموضع الذي أصابتكم فيه الغفلة.

مكان أصابتك فيه غفلة، أو وقعت فيه في معصية وانحراف، هذا المكان لا ينبغي أن تعود إليه، لأنك إذا عدت إليه ذكرك بالمعصية، وربما ساقك إلى معصية ثانية، فالأماكن التي غفل منها الإنسان، أو أخطأ، أو عصى الله عز وجل لا ينبغي أن يقربها، النبي عليه الصلاة والسلام من هذه الأحاديث أرشد إلى أن أماكن الفجرة والكفار وأماكن المعاصي والفجور لا ينبغي أن ترتادها، ولو في وقت الصباح، فمثلاً قد تدخل إلى مكان صباحاً ولا أحد، ولكن مساءً كانت فيه معاصٍ، إن للمعاصي رائحة تفوح منه .

مثلاً كأس ماء في مكان موبوء، هذه الكأس قد يوضع فيها الخمر، فإذا شربت فيه ماء فهذه الكأس فيها آثار الخمر، لا ينبغي أن تكون في هذه الأماكن.

الإمام الجنيد رحمه الله سئل: " من ولي الله؟ إذ قيل له: هل ولي الله الذي يطير في السماء، قال لهم: لا، قالوا: هل ولي الله الذي يمشي على وجه الماء، قال لهم: لا ثم قال: الولي الذي يتوقف عند الحلال والحرام " .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجر 015 - الدرس (8-9): تفسير الآيتان 85 – 86
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-01-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة الحجر، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ

هذه الآية فيها كلمة هي مركز الثقل وهي كلمة(بالحق)، فما معنى قوله تعالى :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

معنى : بالحق

بعض المفسرين يفسر القرآن بالقرآن، في القرآن الكريم آيتان:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا)

(سورة ص 27)

فالحق هنا ضد الباطل .

وفي آية أخرى :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

(سورة الأنبياء)

فكلمة (بالحق)يقابلها بالباطل، أو لاعبين، فالحق ليس باطلاً، والحق ليس لعباً، فالباطل كل شيء طارئ، كل شيء زائل،

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

(سورة الإسراء)

الحق شيء ثابت ، والباطل زائل :

من صفات الباطل الثابتة التي تترابط معه ترابطاً وجودياً أن الباطل زاهق، فالجدار الذي يبنى بشكل مائل هذا جدار باطل، لأنه لا بدّ من أن يقع، والتنظيم الذي فيه إجحاف لإنسان هو باطل وزائل، فلو أن تركة وزعت بين أربعة أولاد، وكان هذا التوزيع مجحفاً بحق بعضهم فهذا التوزيع باطل، بمعنى أنه لن

يطبق، ولن يستمر، ولن يعترف به، ما دام هذا التوزيع فيه إجحاف لولدين، ومحاباة لولدين فهو توزيع باطل، والشيء الباطل لا يستمر ولا يستقر .

الباطل الشيء الذي يزول، لأن فيه خللاً، وضعفاً، وظلماً، وفيه نظرة من جانب واحد، الباطل هو الشيء الذي يزول، فالحق هو الشيء الثابت على مرّ العصور والدهور، على اختلاف الأزمان والأوقات، في كل الأمصار والأصقاع، في كل البيئات والظروف، عند كل الناس، لأن الحق حق، وهو الشيء الثابت الذي لا يتزحزح .

فمن معاني الحق أنك إما أن تكون متبعاً للحق، وهو الشيء الثابت، وإما أن تكون متبعاً للباطل، وهو الشيء الزائل، الحق ثابت، لأنه بني على قواعد صحيحة، ثابت لأنه بني على العدل، ثابت لأنه بني على المنطق، ثابت لأنه استند إلى حقيقة، وهذا باطل، لأنه بني على خرافة، أو على كذب، أو على تزوير، أو على ظلم، أو على بغي، فالشيء الباطل هو الشيء الزائل لخلل فيه، والشيء الحق هو الشيء الثابت، لأنه يستند إلى حقيقة، إلى واقع، إلى دعم من الله رب العالمين، هذا المعنى الأول .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

الحق يتنافى مع الباطل، لو أن الله عز وجل خلق السماوات والأرض، وخلقنا على هذه الأرض، وعاش الناس كما تعرفون ستين عاماً أو سبعين عاماً، هذا عاش فقيراً، ومات فقيراً، ولم يتح له من متاع الدنيا شيء، هذا عمر عمراً طويلاً، هذا ما استوفى دراسته حتى وافته المنية بحادث، فهذه الحياة القصيرة، أكلّ هذا الكون لحياة قصيرة مليئة بالمتاعب، ألهذا خلقنا ؟ لا بدّ أن الله سبحانه وتعالى خلقنا لهدف كبير، خلقنا بالحق، والحق هو الشيء الدائم، الشيء الثابت المستقر، لا بدّ من أن خلق السماوات والأرض كان لحياة أبدية سرمدية دائمة .

أما أن يحيا الإنسان حياة يعد نفسه خلالها للعمل، فما إن يتسلم عمله حتى يموت بعد سنوات، هذا الشيء لا يتناسب مع عظمة الكون، لا بدّ من حياة أخرى ينصف فيها الإنسان، يؤخذ على يد الباغي، وينصر فيها المظلوم، لا بدّ من حياة يتحقق فيها معنى العدالة . إذاً:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

إذاً هذا المعنى الأول .

الله تعالى منزّه عن العبث :

والمعنى الثاني مستنبط من الآية الثانية وهي :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

(سورة الأنبياء)

اللعب هو العبث، الإله جل شأنه لا يعقل أن يعبث بالخلق، خلقه ليس عبثاً .

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

(سورة المؤمنون)

العبث هو العمل الذي لا يتوخى منه صاحبه هدفاً، من تعاريف اللعب : هو عمل آني، ليس له هدف، الغرض تمضية الوقت، فالله سبحانه وتعالى جلّ عن أن يعبث .

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

هكذا، من دون حساب، من دون مسؤولية، من دون تدقيق، إذاً :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

الحق هو الحكمة الثابتة :

شيء آخر، جاء في بعض التفاسير أنه بالحق أي: بالحكمة الثابتة، يعني هناك حكمة ما بعدها حكمة، هناك حكمة من خلق السماوات والأرض حكمة ثابتة لا تقبل التغير، قد ترتئي أنت، وأنت الإنسان الضعيف أن هذا العمل هو أحكم ما يكون، وبعد أن تكبر ترى أن هذا العمل أخرق، وأن الحكمة عكس ذلك، لكن خلق السماوات والأرض كان بالحق، بمعنى أن هناك حكمة ثابتة من خلق السماوات والأرض، ما هي هذه الحكمة؟ قالوا: هي الاستدلال بالسماوات والأرض على صانعها، أيعلى خالقها، آيات تدل على الخالق، السماوات والأرض بدءًا من الذرة، وانتهاء بالمجرة، السماوات وما فيها والأرض وما فيها، وما بين السماوات والأرض، كل الكون مخلوق ليجسد أسماء الله الحسنى .

إذاً: الهدف الأول أن تعرفه من خلال الكون، ما هي الحكمة الثابتة التي خلق الكون من أجلها؟ أن يكون هذا الكون دليلاً على الواحد القهار، أن يكون هذا الكون دليلاً للإنسان على خالقه، هذه هي الحكمة الثابتة .

لماذا جعله الله دليلاً على ذاته؟ لأنك إذا عرفت ذاته عبدته، وإذا عبدته سعدت بقربه إلى الأبد، وهذا هو الهدف من خلق السماوات والأرض .

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق فعرفتهم بي، فبي عرفوني .

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود 119)

يجب أن تعرف الهدف الذي خلق الله من أجله الكون :

شيء مهم جداً أن تعرف لماذا خلق الله السماوات والأرض؟ وما من شيء يعلو على هذا الهدف، لماذا أنت على وجه الأرض؟ من أنت؟ أين كنت؟ وإلى أين المصير؟ لماذا هذه السماء وما فيها من مجرات؟ لماذا الشمس والقمر؟ لماذا الأرض؟ لماذا الجبال؟ لماذا هذا التنويع الهائل في المخلوقات؟ لماذا هذا الجمال في الأرض؟ لماذا تنويع الغذاء؟ لماذا الحياة والموت؟ أسئلة كبيرة .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

معنى الحكمة الثابتة :

والحق هو الحكمة الثابتة، ومعنى الحكمة الثابتة أن هذا الكون خلق من أجل أن يكون دليلاً على الواحد القهار، والله سبحانه وتعالى لا نستطيع أن نراه في الدنيا لا تدركه الأبصار، ولكن الأبصار ترى خلقه، والعقول تستنبط من هذا الخلق أسماءه الحسنى وصفاته .

إذاً الحكمة الثابتة أن نستدل على الله بالسماوات والأرض، وماذا يعني أن نستدل على الله بالسماوات والأرض؟ إذا عرفته عبدته، وقادتك هذه المعرفة إلى تطبيق أوامره ونواهيه، وهذا هو الإسلام .

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)

(سورة آل عمران 19)

يعني أن تنقاد في كل أقوالك وأفعالك وتصرفاتك إلى أمر الله سبحانه وتعالى، هذه هي حقيقة العبادة، إذاً :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

الكون كله تعريف بالله :

أي: خلق الكون لعلة المعرفة، كي تعرف الله سبحانه وتعالى، هذا ملخص الملخص، هذا الكون من أجل أن تعرفه، فإذا عرفته عبدته، فإذا عبدته سعدت بقربه إلى أبد الآبدين، إذاً الهدف الأكبر من خلقك أيها الإنسان أن يسعدك الله سبحانه وتعالى سعادة، لا تزول، ولا تحول، ولا تتناقص، سعادة مستمرة متزايدة .

هذا الهدف النبيل العظيم، وهو أن يكون الكون أداة لتعريفك بالله، وتعريفك بالله طريق لعبادته، وعبادته طريق إلى سعادتك الأبدية، هذا الهدف النبيل لا يتناسب مع الفساد في الأرض، لا يتناسب مع

الانغماس في الشهوات، وترك معرفة رب الأرباب، لا يتناسب هذا الهدف النبيل مع الركون إلى الدنيا، والاستمتاع بها .

إرسال الرسل داخل في الحكمة الثابتة :

لا بدّ أن يرسل الله سبحانه وتعالى رسلاً مبشرين ومنذرين ليحذروا الناس من غفلتهم، وسقوطهم في وحول الشهوات، فإرسال المرسلين بالحق يعني انسجاماً مع الحق الذي خلق الله الكون من أجله، هذا الحق أي : هذا الهدف العظيم هو الذي يدعو إلى إرسال الأنبياء والمرسلين، وهو الذي يدعو أيضاً إلى إهلاك الفجرة الفاسقين .

إذاً: خلق السماوات والأرض بالحق، وإنزال الكتب بالحق، وإرسال الرسل بالحق، وإهلاك الأقوام الطاغية كذلك بالحق .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

معنى الباء في قوله : بالحق:

هذه الباء في كلمة : (بالحق)قال عنها العلماء : هي للمصاحبة والملابسة، يعني خلق السماوات والأرض صاحَبَه هذا الهدف العظيم دائماً وأبداً، خلق السماوات والأرض متلبس بالحق، الحق مواكب لخلق السماوات والأرض .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

الدليل على خلق الكون بالحق : وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ

والدليل أنها خلقت بالحق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، هذه الساعة التي تلقى فيها جزاء عملك، هذه الساعة التي ينصف فيها المظلوم، هذه الساعة التي يحاسب فيها الإنسان عن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيمَ أنفقه ؟ هذه الساعة التي يفصل الله فيها بين الخلائق .

إن الذي يكمل خلق السماوات والأرض أن الساعة آتية لا ريب فيها، لو لم تكن هناك ساعة آتية لتعطلت بعض أسماء الله الحسنى، وهو أن الله حق، وقد يكون في الأرض باطل، وقد يكون في الأرض البغي والعدوان، لو لم يكن هناك ساعة آتية لتعطلت أسماء الله، أو بعض أسماء الله سبحانه وتعالى، فالذي يؤكد أن خلق السماوات والأرض بالحق هو أن الساعة آتية، هذه الساعة يفصل الله بها بين

الخلائق، يعطي كل إنسان جزاء عمله، إن خيراً، فخير وإن شراً فشر، وإن الساعة آتية، وكل متوقع آت، وكل آت قريب .

نحن الآن في هذا عام جديد مثلا، وما هي إلا فترة لا نحس بمرورها حتى يأتي العام التالي، والعام الذي يليه، ثم يأتي الموت، وينسى هذا الإنسان، ويلقى عمله، ويحاسب عليه .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ)

هذا يؤكد آية أخرى :

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ)

(سورة الروم 27)

بدءُ الخلق تجسدت به أسماؤه الحسنى، وإعادة الخلق يتحقق بها اسم الحق، لأن الحق لا يتحقق إلا يوم الدين .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(2)الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ(3)مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

(سورة الفاتحة)

يوم يدين كل الخلق لله عز وجل، يخضع الخلق له خضوع الرجل أمام القاضي، لم فعلت كذا؟ لمَ لم تفعل؟ لم قلت كذا، ولمَ لمْ تقل؟ ماذا عملت بكتابي؟ هل طبقته؟ لمَ لم تطبقه؟ وهكذا .

(وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيل

الفرق بين العفو والصفح :

العلماء قالوا : هناك فرق بين العفو وبين الصفح، فالعفو أن تتجاوز هذا الذنب فلا تعاقب عليه، لكن الصفح أن تنساه كلياً، أن تعفو عن صاحبه، ولا تعاتبه إطلاقاً، فربنا عز وجل أمر النبي عليه الصلاة والسلام قائلاً له :

(فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

بعض علماء اللغة يقول : الصفح ترك التثريب، والتثريب هو اللوم، وترك التثريب أبلغ من العفو، فقد يعفو المرء ولا يصفح، قوله: عفوت عنه أي: لم يصفح عنه، لقد أساء إلي فعفوت عنه، ولم أعاقبه، هذا تثريب، فهذا تذكر أنك لا تنسى هذا العمل، فعفوت عنه، ولكن تذكر ذنبه وعفوك عنه، فهذا ليس صفحاً جميلاً .

(فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

ما هو الصفح الجميل ؟

الصفح الجميل، أي: أن تعرض عن صفحة ذنبه، هذه صفحة ذنبه تطويها، وانتهى الأمر، هذه هو الصفح، أو أن تفتح له صفحة جديدة في تعامله معك، والصفح هو العفو مع ترك التثريب، وترك الملامة والذكر والامتنان .

النبي عليه الصلاة والسلام يأمره الواحد الديان أن يصفح الصفح الجميل، اصفح، فتخلّقوا عباد الله بأخلاق الله .

(فاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

كأن الله عز وجل يقول: ما دام الله بصيراً بحالهم، وسيحاسبهم على أعمالهم، لأن الساعة آتية، فاصفح عنهم الصفح الجميل، يعني هذا الذي أساء إليك لا بدّ من أن يقف يوم القيامة ليحاسب على إساءته، ولا بدّ من أن يندم على فعلته، ولا بدّ من أن يلقى جزاءه، إذاً أنت فاصفح عنهم .

إذا ارتكب رجل مخالفة، وكتب فيه ضبط، وأحيل إلى القضاء، فلماذا أنت مهموم؟ لا بدّ من قاض حَكَمٍ فصلٍ يحكم في هذه القضية، لذلك قال بعض الشعراء :

حر ومذهب كل حر مذهبي   ما كنت بالغاوي ولا المتعصب
يأبى فؤادي أن يميل إلى الأذى   حب الأذية من طباع الـعقرب
لي أن أرد مساءة بمـساءة   لو أنني أرضى ببرق خـلب
حسب المسيء شعوره ومقاله   في سره يا ليتني لـم أذنـب

***

(فاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

مَن أَحَبَّ الله فليطبق هذه الآية :

من أحب الله سبحانه وتعالى يطبق هذه الآية، إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، إنسان أساء، وأنت عفوت عنه، شيء جميل، ولكن أرقى من العفو عنه أن تنسى هذا الذنب كلياً، ثم تقلب صفحة، و تطوي صفحة ذنبه، وتفتح له صفحة جديدة، وكأنه ما فعل معك شيئاً

(فاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

وما دام الله بصيرًا بحالك، فلتكل الأمر إلى الله تعالى، فإن الله بصير بالعباد .

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (17))

(سورة الإسراء)

بصير بحالهم، سيحاسبهم على أعمالهم، وأنت اصفح عنهم الصفح الجميل .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

الحق، يعني معنى مهمًّا جداً، خلقت كي تسعد به، اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإذا فُتُّك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء، يا رب ماذا وجد من فقدك ؟ وماذا فقد من وجدك ؟ خلقت لتسعد بقربه، ولا تسعد بقربه إلا إذا عبدته، ولا تعبده إلا إذا عرفته، ولا تعرفه إلا إذا تأملت في خلق السماوات والأرض، لذلك :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

خلقت السماوات والأرض كي تعرف الله من خلالهما .

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

(سورة الطلاق : 12)

الكون وسيلة إيضاح :

العلم هو علة خلق السماوات والأرض، خلق الله السماوات والأرض لتعلم أن الله على كل شيء قدير، آيات كثيرة تؤكد أن علة خلق السماوات والأرض أن تعرف الله سبحانه وتعالى، لذلك لو رأيت حاجة من حاجات الدنيا ولو أنك لم تقتنِها .

مثلاً: لو أنك لم تذق العسل في حياتك، لكنك قرأت عنه وعن فوائده، وعن نظام النحل، وعن هذا النظام المعجز في خلق هذه الحشرة، وخشع قلبك، وانهمرت دموع عينيك فقد تحقق الهدف لديك من خلق هذه النحلة، وهو أنك عرفت الله من خلالها، مع أنك لم تذق طعم العسل، فأن تذوق طعم العسل شيء ثانوي بالنسبة لمعرفة الله من خلال الكون، لأنك إذا عرفته فسوف تدخل الجنة، وفي الجنة أنهار من عسل مصفى، وأنهار من لبن، إذاً النحلة خلقت من أجل أن تعرفه، وهذه الوردة وجدت من أجل أن تسبحه، وهذا البحر من أجل أن تمجده، وهذه الجبال من أجل أن توحده .

إذا عرفت أن الكون خلق من أجل أن يكون وسيلة إيضاح، وأداة تعريف، فقد حققت الهدف من خلقك، فإذا استمتعت بالدنيا، وملكت الأموال الطائلة، وانغمست في نعيمها، وفي شهواتها، وفي زينتها، ولم تعرف الله سبحانه وتعالى، فكأنك عطلت علة خلق السماوات والأرض .

هذا الذي يشتري كتاباً، ويجلده، ويكتب عليه اسمه، ويوقع تحت الاسم، ولا يقرأ فيه، ماذا فعل ؟ عطل الهدف من تأليف الكتاب، الكتاب حينما ألف من أجل أن تقرأه، أنت افتخرت باقتنائه، ووضعته في مكان بارز في مكتبتك، وطبعت عليه اسمك بماء الذهب، ولم تقرأه، فأنت إذاً عطلت الهدف من تأليفه .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ(85)إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ

(خلاّق) صيغة مبالغة مبيّنة لإعادة الخلق والبعث :

هذه الآية بالسياق، الله سبحانه وتعالى خلاّق، وهذه الصيغة صيغة مبالغة، يعني قادر على أن يخلقك مرة ثانية، لو أن إنساناً احترق في طائرة، وأصبح ذرات من الهباب، لو أنه غرق في البحر، لو أن جثته حرقت في الهند، وبعثرت في أنحاء الأرض، هكذا في الهند، يحرقون الجثة، ويبعثرون رمادها في أطراف الدنيا، ومع ذلك :

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

لا يعجزه في إعادة خَلقك شيء، ولا بدّ من أن تخلق مرة ثانية لتلقى جزاء عملك، لتحاسب على ما قدمت وما أخرت، لتدفع الثمن باهظاً عن كل المخالفات .

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

(خلاّق) صيغة مبالغة مبيّنة لأطوار المخلوقات :

وإذا نظرنا إلى هذه الآية وحدها من دون السياق، فلها معنى آخر، يعني انظر إلى خلق النبات، انظر إلى الشجرة كيف تكون حطباً يابساً في الشتاء، فيأتي الربيع فتزهر، وتنعقد الثمار، وبعد أسابيع ترى حبيبات صغيرة قد خلفتها الأزهار، هذه هي الثمار، ثم تكبر، وتكبر إلى أن تصبح تفاحة شهية، من خلقها لك ؟ أأنت خلقتها، انظر إلى هذه الفواكه، انظر إلى هذه المحاصيل، انظر إلى هذه الأشجار، إلى هذه الخضراوات كيف يخلقها الله عز وجل .

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

هذه النقطة من ماء مهين، بعد تسعة أشهر تصبح طفلاً وزنه ثلاثة كيلوات، لحم، فيه معدة، ومريء، وأحشاء، وأمعاء، هذا الجسم مليء بالأجهزة المتنوعة، حيوان منوي واحد دخل في بويضة، وبعد تسعة أشهر إذا هو طفل يستجيب للضوء والصوت، يأكل ويشرب، يمص ثدي أمه، ينام يستيقظ، إذا كَبُر قليلاً يسلك سلوكاً معيناً، يرفض يتكلم، يضحك ويبتسم، ثم هو يتعلم بعض الآيات، وبعض السور، ثم هو يفكر، ثم هم يؤدي الامتحان، ثم هو يصبح شاباً، ثم ينمو حتى يصبح وزنه ثمانين كيلواً، ثم يغدو

شخصية مهمة جداً .

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

مَن خلقه ؟

(أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الواقعة)

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

هذا الإنسان في خلقه ونموه، ومثله الحيوان كذلك، اشترِ بقرة تجدها عُشراء، وبعد فترة تلد عجلاً صغيراً يكبر، ويصبح بقرة، كل يوم أتعطي ثلاثين كيلوًا من الحليب تقريباً .

الدجاجة تعطي البيض، الله هو الذي خلق البيض، من خلق الحليب في ثديي البقرة ؟

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

خلق الكواكب، خلق الثمار، خلق الأزهار، خلق الأطيار، خلق الأسماك، خلق كل شيء على هذه الأرض، خلقك ولم تكن من قبل شيئاً .

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

قال لي شخص: خلال أيام العيد جاء أقربائي، بناتي، وأولادهن، وأولادي وأولادهم كان مجموعهم خمسة وعشرين شخصاً، قال لزوجته: قبل خمس وعشرين سنة كنا اثنين، والآن أصبحنا سبعة وعشرين، طيب هؤلاء من أين أتوا؟

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

هذا الطفل الصغير الذي وزنه ثلاثة كيلو، في الثامنة عشرة صار وزنه ستين كيلواً، هذا الوزن عضلات، وعظام، وأجهزة، من أين هذا ؟

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

راقب نمو النبتة، راقب نمو الخضراوات، بذرة خيار هذه تنتج خمسة وعشرين كيلوًا، غرام البذر من بعض الخضراوات ينتج طناً، أي: مليون ضعف وزناً .

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

هذه السماوات والأرض، هذه الأمطار، سبعين مليليتر، هل تعلم ماذا يعني هذا الرقم؟ يعني ما هطل في ليلة واحدة من الأمطار شيء كثير، إن الإنسان أحياناً يضطر أن يسافر فيشاهد المنخفض الجوي يغطي القطر كله، وهو المطر الذي سيعم القطر كله .

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

فهذه الآية وحدها لها معانٍ كثيرة، وأما في السياق :

(وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ(85)إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

لو أن ذرات هذا الجسد أصبحت هباء منثوراً، لو أنها صارت ملقاة في الصحراء، لو أن الإنسان احترق في الجو، غرق في البحر، أكله السمك،

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

يخلقه ثانية ليقف بين يديه، ويحاسب على أعماله كلها، فإن كانت هذه الأعمال كريمة أكرمه الله، وإن كانت سيئة حاسبه الله .

الاشتغال بهموم الدنيا تضييع لحقائق الآخرة :

الحقيقة عندما ينهمك الإنسان في هموم الدنيا، ويغيب عن هذه الحقائق يكون قد ضيع كثيراً، وفي الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ))

[الترمذي]

خلقت لك ما في السماوات والأرض، ولم أعي بخلقهن، أفيعييني رغيف خبز أسوقه إليك كل حين؟ لي عليك فريضة، ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضة لم أخالفك في رزق، وعزتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك، ولا أبالي .

إذا غاب الإنسان عن هذا الهدف النبيل، لماذا أنا في هذه الدنيا؟ الناس في غفلة، الناس نيام، إذا ماتوا انتبهوا، نذهب إلى أعمالنا، ونعود إلى البيت، نأكل، وننام، ونستيقظ على بعض المعاصي، نلهو، نسهر، ثم ننام متأخرين، نستيقظ بلا صلاة، نذهب إلى أعمالنا إلى أن يأتي الموت فجأة، فيكتب النعي على الجدران، ويدفن هذا الإنسان في التراب، ولا يدري ماذا حل به بعد الموت، إلى أين ذهب؟ كيف سيحاسب؟ متى يلغى وجوده؟ لا يلغى وجوده أبداً .

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)

(سورة الزخرف)

كيف يستسيغ الإنسان حياة قصيرة مليئة بالمتاعب، ويضيع من أجلها حياة أبدية وعدنا الله بها ؟ ثمة قول وجدته لبعض الصحابة رضوان الله عليهم يتعلق بالموت، قال هذا الصحابي: << ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت، ثم لا يستعدون له كأنهم له شاكون >> .

هل بقي أحد من الأولين؟ هل بقي نبي من الأنبياء؟ فالنبي يموت، الغني يموت، الصحيح يموت، المريض يموت، والشك حال معظم الناس، موضوع الموت خارج كل اهتمامه، يريد أن يدهن البيت والديكور والفرش، ولكني أذكرك بالموت، هذه الرحلة الأبدية، هذه التأشيرة على جواز السفر، تأشيرة خروج بلا عودة، ما موقفك منها ؟

أواخر السورة ملخص لها :

أيها الإخوة الأكارم، الملاحظ أن أواخر السور فيها آيات كأنها ملخص السورة كلها، فنهاية سورة الحجر :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ(85)إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ(86)وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ(87)لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88)وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ(89)كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ(90)الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ(91)فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93)فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ(94)إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ(95)الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(96)وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ(97)فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ(98)وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

أتمنى على الإخوة الأكارم التأمل في هذه الآيات في هذا الأسبوع، يعني ما هي السبع ؟ وما هي المثاني ؟ وأي أزواج هؤلاء ؟ من هم المقتسمون ؟ ما معنى :

(الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ)

ما معنى :

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ(99))

لديك أسئلة مهمة جداً فلتجبْ عنها، أرجو أن تتأملوا في هذه الآيات، لأنكم إذا تأملتم، وتوقفتم فهذا يعين على أن ترسخ المعاني في نفوسكم، وأن تنقلب إلى مواقف، إذا انقلبت المعاني إلى مواقف فهذا أكبر مردود من قراءة القرآن، إن تقرأ القرآن، وتتفاعل معه، وتتأثر بمعانيه، ثم تطبقه في حيلك اليومية فقد سعدت به طيلة عمرك، وفي الحديث الصحيح عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

[البخاري]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحجر 015 - الدرس (9-9): تفسير الآيات 87 – 99
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-01-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع من سورة الحجر، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ(87)لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

علاقة الامتنان بإتيان القرآن مع الأمر بالصفح الجميل :

قال بعض العلماء : لما أمر الله سبحانه وتعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يصفح الصفح الجميل ذكره بالنعمة العظمى التي أنعمها عليه، فإذا كنت في نعمة عظمى كان سهلا عليك الصفح الجميل ، فربنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ(85)إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ(86)وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ

ما هي المثاني ؟

ما المثاني ؟

قال العلماء: المثاني القرآن كله .

وقال بعضهم: المثاني كتب الله كلها، يؤيد هذا المعنى قوله تعالى :

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ)

(سورة الزمر : 23)

إذاً المثاني هي القرآن العظيم، ولمَ سمي القرآن العظيم مثاني ؟

أولاً: المثاني جمع مثنى، من الثني والاثنين، وهذا المصدر يشير إلى العدد، أو لمطلق التكرار .

ما معنى التكرار في القرآن الكريم ؟

ما معنى التكرار في القرآن الكريم ؟ كتاب الله سبحانه وتعالى كتاب هداية، لذلك من أجل أن تتوضّح الحقائق، وأن ترسخ المعاني، وأن يتعظ الإنسان، وأن يهتدي به ربما جاء المعنى الواحد في المواضع المتعددة، وهذه صفة من صفات القرآن الكريم، قصة سيدنا موسى وردت في كتاب الله سبع عشرة مرة، معانٍ عديدة وردت في مواضع متعددة، فالتكرار في القرآن الكريم له هدف تربوي،

مقالة السفهاء : تصنيف القرآن بحسب الموضوعات :

قد يقول قائل: لماذا لا نصنف آيات القرآن تصنيفاً موضوعياً؟ فالآيات التشريعية في فصل، وآيات القصص في فصل إلى آخره، هذا قول سادج، لأن القرآن ليس كتابا علمياً يحتاج إلى تبويب وتقسيم، إنه كتاب هداية .

هذه النفس البشرية تأتي بعض آيات فتصف لها عظمة الله سبحانه وتعالى، وآيات تقص عليها أحوال الذين عرفوا الله، وكيف أكرمهم الله في الدنيا والآخرة، ثم الذين أعرضوا عن الله عز وجل، ثم طريق الإيمان إلى الله عز وجل، فهناك حركة نفسية، وهناك تموَّج نفسي، لا بدّ من آية كونية تعظم بها المولى جلّ وعلا، ولا بدّ من قصة تجسد لك هذه القيم، ولا بدّ من تحذير يبين لك مغبة الانحراف عن كتاب الله.

فالقرآن الكريم فيه تنويع آيات كونية، مشاهد من يوم القيامة، قصص، وعبر، وأمثال، تشريعات، قوانين، ومبادئ، فالذي يقول : ليت القرآن الكريم قد بُوّب أو جمعت موضوعاته بحسب أنواعها، فالجواب : لا، لأن القرآن الكريم كتاب هداية، وكذلك لو قال قائل : إن هذه القصة وردت في أماكن عدة: أولاً: وردت في أماكن عدة كي تفعل هذه الأماكن العدة فعلها في نفس القارئ، فترسخ المعني، وتثبت القيم .

وثانياً: من أدراك أن هذه القصة كلما وردت في كتاب الله عرضت من زاوية خاصة ؟ ولو ذهبت لتوازن بين طريقة عرض القصة في كل موضع لأخذك العجب العجاب .

إن القرآن الكريم سماه الله سبحانه وتعالى مثاني، من التثنية أو التكرار، والتكرار له هدف تربوي .

كلُّ كتاب إلى زوال سوى القرآن :

شيء آخر، أيّ كتاب يؤلف فلا بدّ من أن يندثر، أو أن ينقطع، أو أن يهمل، لكن هذا الكتاب، القرآن

الكريم فيه صفة الاستمرار والتجدد، ومعنى الاستمرار والتجدد مما توحي به كلمة المثاني، يعني يتكرر ويتجدد، وكلما زدته ذكراً زادك معنىً، لا يبلى على كثرة التكرار، عَنْ الْحَارِثِ قَالَ: مَرَرْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ يَخُوضُونَ فِي الْأَحَادِيثِ، فَدَخَلْتُ عَلَى عَلِيٍّ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَلَا تَرَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ خَاضُوا فِي الْأَحَادِيثِ؟ قَالَ: وَقَدْ فَعَلُوهَا؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ، فَقُلْتُ: مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ)، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ))

[الترمذي وأحمد]

كلما قرأته رأيته جديداً، كلما قرأته عرفت منه معاني لم تكن تعلمها من قبل، وهذه صفة ثابتة في كتاب الله سبحانه وتعالى، آياته لا تندثر، ولا تنقطع، ولا تنسى، ولا تلغى، ولا تعطل، هو كلام مستمر متجدد، كلما قرأته رأيته جديداً، أي شيء آخر اقرأه مرات عديدة تمل منه، وتسأم وتضجر منه، أي كتاب أعجبك لمؤلف من بني البشر اقرأه مرتين تشعر أنك قد أشبعت منه، اقرأه ثلاثاً تضجر منه، أما كتاب الله لو تلوت آياته آناء الليل وأطراف النهار طوال حياتك فلا تمل منه، لأنه مثاني، كلما زدته قراءة زادك معنىً، كلما عدت إليه انكشفت لك معانٍ لم تكن تعرفها من قبل، إنه مستمر متجدد، لا ينقطع، لا يتعطل، لا يلغى .

من معاني المثاني : التجدد حالا بعد حال :

شيء آخر، قال بعض العلماء : من معاني المثاني أنه يتجدد حالاً بعد حال، كلما جدّ ظرف جديد، أو مشكلة جديدة، أو موضوع خاص رأيت آية في كتاب الله تغطي هذه الحالة، كلما سمعت خبراً، أو ألمت بك ملمة، أو ظهر حدث في العالم وجدت في القرآن الكريم ما يغطي هذا الحدث، إنه يغطي كل جديد .

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل : 8)

الآن في الدنيا طائرات، وفيها سفن ضخمة جداً، وقطارات سريعة جداً، ومركبات فخمة، قال :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل : 8)

هو متجدد، كلما زدته ذكراً زادك معنىً، ويغطي كل جديد.

(لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

(سورة يس)

قال العلماء : هذا وصف لنظام ينتظم الكون كله، بدءاً من الذرة وانتهاء بالمجرة .

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

(سورة يس)

اكتشف العلماء أن في الفضاء منطقة تعيد الأمواج الكهرطيسية إلى الأرض، قال تعالى :

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

(سورة الطارق)

واكتشف العلماء أيضاً أن كل كوكب في الكون له مدار ومسار وفلك، وهذا الفلك بيضوي أو دائري، إذاً في حركته لا بدّ من أن يعود إلى مكانه الأول، وهذه صفة تنتظم الأجرام السماوية كلها، قال تعالى :

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

(سورة الطارق)

كلما زدته ذكراً زادك معرفة، لا تبلى جدّته، ولا يُمحى لا ينسى، يغطي كل جديد، لذلك قال الإمام علي كرم الله وجهه : << في القرآن الكريم آيات لما تفسر بعد >>، مع تقدم العلوم قد يكتشف العلم تفسيراً دقيقاً لهذه الآيات .

إذاً: من معاني المثاني التكرار، والتجدد والاستمرار، والانتقال من حال إلى حال .

المثاني : تكرار الألفاظ والمواعظ و القصص :

بعضهم قال : تتكرر ألفاظه ومواعظه وقصصه، كل هذا الكلام يؤخذ من قوله تعالى :

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي)

المثاني : الانثناء :

والمعنى الآخر للمثاني : هو الثني والانثناء، يعني كل آية تنثني على أختها لتوضحها، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، يوضح بعضه بعضاً، يدعم بعضه بعضاً، هذه خاصة في كتاب الله، مثلاً :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

(سورة الحجر : 85)

ما هو الحق ؟

ما تعريف الحق ؟ من آية أخرى :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

(سورة الأنبياء)

إذاً الحق ضد اللعب .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا)

(سورة ص : 27)

إذاً الحق ضد الباطل، الباطل الشيء المؤقت الطارئ الزائل الزاهق، واللعب الشيء الذي لا جدوى منه، فآيتان فسرتا هذه الآية .

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

قد ينصرف ذهن القارئ إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام كأنه يتمنى ما عند أهل الدنيا، الآية نفسها في سورة الحجر :

(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ)

هو لا يتمنى أن يكون مثله، بل هو يحزن عليهم، هذه الآية وضحت هذه الآية، وضربُ الأمثال حول هذا الموضوع أمر يطول، لكنه من صفات كتاب الله عز وجل أنه مثاني، يعني كل آية تنثني على أختها، توضحها، وتبينها، وتزيل الغموض عنها .

من معاني المثاني : الثناء :

المعنى الثالث : هو الثناء، إما من التثنية التكرار، أو من الانثناء والليّ والانعطاف، أو من الثناء .

قال بعض المفسرين: يظهر منه، أي: من القرآن الكريم ما يدعو إلى الثناء عليه، تقرؤه فتثني على هذا الكتاب، وعلى من يتلوه، وعلى من يتعلمه، وعلى من يعلمه، وعلى من يعمل به، فإن قرأته، إن تعلمت أحكامه، إن علمته، إن عملت به، أي علاقة لك به تصبح موضع ثناء بين الناس، أهل القرآن أهل الله عز وجل .

القرآن ثناء على الله :

معنى آخر مشتق من المعنى الثالث: وهو أن في القرآن الكريم ثناء على الله سبحانه وتعالى :

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة الملك)

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

(سورة الرحمن)

مثني فيه على الله بما هو أهله من صفاته العظمى وأسمائه الحسنى، فكلما قرأت هذه الآية :

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي)

فإما من التكرار، التكرار التربوي والتجدد، وأنك لا تمل قراءته، ولا يبلى، ولا تسأم منه، ولا تنتهي معانيه .

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)

(سورة الكهف)

خلاصة معاني المثاني ؟

من أوجه تفسيرات هذه الآية يعني شرح الكلمات، الكلمات محدودة في هذا الكتاب، لكن شرح آيات الله لو أن البحر كله كان حبراً لشرح كلمات الله لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي .

إذاً : مثاني، لا تسأمه، بل يتجدد، وتأتيك معانٍ لم تكن تعرفها، ويغطي كل جديد، هذا أول قسم .

المعنى الثاني: أن كل آية تنثني على أختها لتوضحها، وقد ضربت لكم بعض الأمثلة .

والمعنى الثالث: أن كل من قرأه، أو جوده، أو تلاه حق تلاوته، أو علمه للناس، أو تعلمه، أو عمل به فهو موضع ثناء من الله عز وجل، ومن الخَلق، أو أن الله سبحانه وتعالى أثنى به على نفسه .

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي)

ما هي السبع المثاني ؟

1 ـ الآيات السبع من سورة الفاتحة :

من أوجه تفسيرات السبع الفاتحة، لأنها سبع آيات بما فيها البسملة :

(بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ(1)الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(2)الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ(3)مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ(4)إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(5)اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(6)صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

سبع آيات، قال بعض العلماء: جمع القرآن في الفاتحة، وجمعت الفاتحة في :

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

خلاصة الخلاصة: خلقك كي تعبده، ويؤكد هذا المعنى قول النبي عليه الصلاة والسلام، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ))

[البخاري]

وفي رواية الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((الْحَمْدُ لِلَّهِ ـ أي الفاتحة ـ أُمُّ الْقُرْآنِ، وَأُمُّ الْكِتَابِ وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي))

النبي عليه الصلاة والسلام يشرح السبع المثاني :

((الْحَمْدُ لِلَّهِ أُمُّ الْقُرْآنِ، وَأُمُّ الْكِتَابِ وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي))

2 - الأمر والنهي الوعد والوعيد والأمثال والأنباء والبشارة والنذارة:

وبعضهم قال : السبع المثاني ما في القرآن الكريم من أمر ونهي، وتحذير وتوعد، وأمثال، ونعم وأنباء، لكن التفسير الأول هو أوجه التفسيرات .

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي)

سبعُ آياتٍ جمع القرآن كله فيها، والمثاني صفة لكتاب الله الكريم .

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمْ الْقَرْحُ

(وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)

هذه الواو ليس لعطف المتغايرين، بل لعطف الصفة على الموصوف .

(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى)

(سورة البقرة)

لعطف الصفة على الموصوف .

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي)

وهذه المثاني هي القرآن العظيم، عطف الصفة على الموصوف .

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ(87)لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88)وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ)

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ

هذه في الحجر، أما في طه :

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

مقتضى الصفح الجميل عدم الالتفات إلى الدنيا :

قال بعض العلماء : يقتضي الصفح الجميل ألا تنظر إلى حياتهم، وإلى ما عندهم، وألا تحزن عليهم، وأن تكون نذيراً لهم، وأن تخفض جناحك للمؤمنين .

في هذه الآية أمران ونهيان، وقد فسرت معنى الصفح الجميل، الصفح الجميل يقتضي :

(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88)وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ)

هذا بعض أقوال العلماء في تفسير هذه الآية .

بين مدِّ العين ومدّ البصر :

وقال بعضهم: ولا تمدن عينيك، الإنسان يمد بصره، أما أن يمد عينه فصورة غريبة، صورة وعبرة فيها خيال، لا تمدن عينيك، تصور أن رجلاً خرجت عيناه من مكانهما تتبعان شيئاً، هذا منتهى الاهتمام.

(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ)

قال بعضهم: هذا نهي عن أصل النظر، بالإضافة إلى مدّ النظر،

قال عليه الصلاة والسلام :

((إياك وفضول النظر فإنه يبدر الهوى))

[ورد في الأثر]

وهو التأمل فيما عند الناس من بيوت ومركبات ومحلات من بساتين من حدائق .

(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ)

النهي عن مد البصر دليل على عدم التعلق بالدنيا :

قال بعضهم : عدم التعلق، والرغبة بما في أيدي الكفار كالمال والشوكة، أي : القوة، والسمعة، أي: الصيت، وفي الآية نهي الرجل أن يتمنى ما عند صاحبه .

ملخص الآيـة :

ملخص الآية أن الله عز وجل ينهانا نحن من خلال خطابه لنبيه عليه الصلاة والسلام، وهذه الطريقة فيها مغزى، لكيلا تظن أنك متهم كان هذا النهي عن طريق النبي صلى الله عليه وسلم، كيف أن السيدة عائشة رضي الله عنها تكلم الناس في حقها، وهي بريئة، لتكون مثلاً وأسوة وتسلية لكل امرأة تأتي بعدها يتكلم الناس عنها بالباطل، وهي بريئة، كذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن ينهانا عن أن يتمنى أحدنا ما عند صاحبه .

أيها المؤمن بهذه الآية منهي أن تقول: ليت عندي مثل هذا البيت الذي لفلان، ليت لي مثل هذا المحل التجاري، ليت لي مثل هذه المركبة، ليت وليت، نهي قاطع أن يتمنى أحدنا ما عند صاحبه، هذا هو الأدب، ليس بالإمكان أبدع مما كان، ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني، هذا الذي أقامك الله فيه هو عين الكمال بحقك، ولو كنت أستحق فوق ذلك لأعطاني الله عز وجل، ولكن الله حكيم وعادل في الوقت نفسه.

(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ)

المتعة شيء طارئ زائل :

أما الأزواج، أما ما متعنا به، الآية دقيقة جداً، ليس ما أعطينا هو عين العطاء، لأن عطاء الله لا يسلب، الله ما سماه عطاء، بل سماه متعة، والمتعة الشيء الموقت .

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة الحديد)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة)

كلمة (متعة) تعني الشيء الطارئ، الشيء السريع الزوال، وشيك الانقلاب والتحول، سنوات معدودة.

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ)

(سورة الكهف)

اسأل نفسك كيف أمضيت هذه السنوات الثلاثين؟ تقول: ما شعرت كيف مضت، وهذه الدنيا متاع الغرور، لا يستمتع بها إلا المغرور، إلا الساذج، إلا المحدود ضيق الأفق، الغبي يراها شيئاً ثميناً .

(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ)

معنى أزواجا منهم :

(أزواجاً منهم)، لها معانٍ عديدة، أوجه هذه المعاني أن هذا الإنسان لشدة تعلقه بالدنيا صار زوجاً لها وهي زوجة له، هذا متعلق بالمال، فهما زوجان، المال يسري في دمه، وفي هواجسه وخواطره وخططه، إذاً هو زوج للدنيا، وهي زوجٌ له، وهما زوجان، وهذا يتعلق بالملذات الرخيصة، فهي كل شيء في حياته، وهذا يتعلق بنسائها، وهذا يتعلق بشوكتها، وهذا بسمعتها، على كل أزواجاً منهم .

(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ)

أنت كونك مؤمنًا فهذه الآية لنا، إذا رأيت بيتاً فخماً، أو أثاثاً فخماً، أو رأيت محلاً تجارياً في موقع ممتاز، وله أرباح طائلة، إياك أن تقول في نفسك : ليتني مكان فلان، هذا التمني يتناقض مع إيمانك .

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(79)وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)

(سورة القصص)

لذلك :

(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ)

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ

المعنى الأول :

لا تحزن على عدم إيمانهم :

لا تحزن عليهم يا محمد إن لم يؤمنوا، السبب لأنهم اختاروا هذا، ولأنهم مخيرون، اختيارهم ليس خاضع لاختيارك، هم مستقلون عنك بالاختيار، ولا تحزن عليهم هذا الذي أرادوه .

المعنى الثاني :

لا تحزن عليهم إذا واجهوا العذاب :

المعنى الثاني : ولا تحزن عليهم إذا واجهوا العذاب، لأن عذاب الله لهم مما تقتضيه عدالته، فإذا قتل رجل رجلاً ظلماً وعدواناً، وسيق إلى المحاكمة، وحكم عليه بالإعدام، وسيق إلى المشنقة هل تحزن عليه ؟ هذا مما تقتضيه العدالة، لا تحزن عليهم إن لم يؤمنوا، ولا تحزن عليهم إن عذبهم الله عز وجل، فهذا العذاب مما تقتضيه عدالة الله سبحانه وتعالى .

يقول عليه الصلاة والسلام :

((من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد حقر ما عظم الله))

[ورد في الأثر]

إذا منّ الله عليك بحضور مجالس العلم، وتعرفت إلى الله خالق السماوات والأرض، وعرفت أسماءه الحسنى، عرفت كتابه، عرفت القواعد الثابتة التي يعامل بها خلقه، واستقمت على أمره، وسعدت بقربه، ثم تقول : ليس عندي بيت أسكنه، فهذا ليس لك، يا سبحان الله ! .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ))

[متفق عليه]

التغني من معانيه الخاصة الذي يستغني بكتاب الله عز وجل عن كل شيء، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((القرآن غنىً لا فقر بعده))

[السيوطي في الجامع الصغير عن أنس]

إذا وعيت القرآن فإنك لا ترى أحداً أسعد منك، ولا ترى أحداً أوتي خيراً مما أوتيت، ولا ترى أحداً أفضل منك إلا أن يكون أتقى منك، أتشتهي أن يكون عندك ما عند أهل الدنيا من متع من مال عريض ؟ لا والله، لأنك وعيت القرآن، واغتنيت به، هذا حال المؤمن الحق،

((القرآن غنىً لا فقر بعده))

[السيوطي في الجامع الصغير عن أنس]

لو جمعت مال الدنيا، ولم تعرف كتاب الله، أو لم تهتدِ إلى الله فهذا ليس غنىً .

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

(سورة الفجر : 15)

هو قال هذا، كلا ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، إنما عطائي ابتلاء، وحرماني دواء، لذلك لا ينبغي للمؤمن أن يهتم بما عند أهل الدنيا، أن يسأله : من أين اشتريت هذه ؟ وكم ثمنها ؟ يا الله ما

أجملها ! ليس هذا من أخلاق المؤمن، أنت فوق ذلك، هناك شيء يعنيك فوق ذلك، لا ينبغي أن يهتم بما عند أهل الدنيا وألا يستجمل ما عندهم، ولا أن يتمنى ما عندهم، لأن ما عندهم ظل زائل، وعارية مستردة، وما دام هذا القلب يخفق فهذا البيت لهم، فإذا توقف القلب عن الخفقان فإن مصيرنا جميعاً إلى القبر، والقبر نستوي فيه جميعاً، أغنى الأغنياء يستوي في القبر مع أفقر الفقراء، لا تطمع بزخارف الدنيا، وعندك معالم الموالى، كلام الله تحفظه، وتفهمه، وتطبقه، وتعمل به، وتعلمه، وتقول : ليس عندي هذا .

إن من صفات الأولياء الصالحين ما قرأته عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط، يقول الواحد منا : ما اشتريت بيتاً، فلانة خطبتها، وترددت، ثم أخذها غيري، والله كانت خير زوجة، بقيت حرقة في قلبي إلى الموت، لا تقل هذا، فإن من صفات الأولياء الصالحين أنه ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((... احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[مسلم]

ليس في قاموس المؤمن كلمة(لو)، فإن كلمة لو تفتح عمل الشيطان، لا تحزن عليهم، يا محمد :

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة 272)

لا تحزن عليهم إن عذبهم الله عز وجل، لأن هذا العذاب مما تقتضيه العدالة .

إذاً: الله سبحانه وتعالى في هذه الآية نهانا عن أن نتمنى ما عند غيرنا من خلال نهي النبي عليه الصلاة والسلام تطييباً لخواطرنا .

وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

قال عليه الصلاة والسلام :

((تواضعوا لمن تعلمونه))

[السيوطي في الجامع الصغير]

لابد من التواضع للمؤمنين :

يجب أن تخفض جناحك لهم، يجب أن تحبهم، يجب أن يعنيك ما يعنيهم، يجب أن تقلق لمصابهم، يجب أن تعيش مشكلاتهم، يجب أن تسعى لرفعتهم، يجب أن تكرمهم إذا أردت أن تهديهم إلى الله عز وجل، أما أن تحدثهم فقط فهم شبعوا كلاماً، وأما أن تلقي عليهم مواعظ فقط، وأنت لا تتعظ بها فإنهم يكشفونك على حقيقتك

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

كن متواضعاً لهم، زر مريضهم، صِل مسكينهم، أعِن ضعيفهم .

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ :

((أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ : هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

[ابن ماجه]

كان مع أصحابه في مكة، فأرادوا أن يذبحوا شاة، قال أحدهم :

((علي ذبحها، وقال الثاني: علي سلخها، وقال الثالث: علي طبخها، وقال عليه الصلاة والسلام: وعلي جمع الحطب، فقيل له: يا رسول الله، نحن نكفيك ذلك، قال: أعرف ذلك، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أحد من أقرانه))

[ورد في الأثر]

يوم غزوة بدر الرواحل قليلة فأعطى النبي عليه الصلاة والسلام أمراً أن يركب كل ثلاثة على راحلة، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ :

((كُنَّا فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ كُلُّ ثَلَاثَةٍ مِنَّا عَلَى بَعِيرٍ، كَانَ عَلِيٌّ وَأَبُو لُبَابَةَ زَمِيلَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا كَانَ عُقْبَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَا: ارْكَبْ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَتَّى نَمْشِيَ عَنْكَ، فَيَقُولُ: مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى عَلَى الْمَشْيِ مِنِّي، وَمَا أَنَا بِأَغْنَى عَنْ الْأَجْرِ مِنْكُمَا))

[أحمد]

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

إذا أردت أن تهديهم، إذا أردت أن تفتح قلوبهم فاخفض لهم جناحك وواسهم، اسألهم عن مشكلاتهم، عن أعمالهم، عن أولادهم، كيف يعنيك ما يعنيهم وأنت بعيد عنهم؟

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

خفض الجناح كناية عن التواضع والرأفة والرحمة :

هذا كناية عن التواضع، عن الرأفة، عن الرحمة، جاءته فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ :

((تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ، وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ تَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ:

(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ)))

[ابن ماجه]

إذا لم تحس بمشكلات إخوانك المسلمين فلست مسلماً، امرأة تشكو إليه زوجها، ووقف النبي عليه الصلاة والسلام يستمع إليها .

استوقفته امرأة في الطريق فوقف معها طويلاً يستمع إليها .

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

ليس في الإسلام استعلاء، وليس في الإسلام كبر ولا انزواء، الإسلام دين الفطرة، دين المحبة، دين التعاون

(وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ)

وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ

لأن الناس منحرفون عن طريق الحق، وهنا لم يقل: إني أنا البشير، بل قال :

(وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ)

لأن الانحراف يقتضيه الإنذار .

(كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ)

كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ

الاقتسام على مخالفة الأنبياء وإطفاء نور الحق :

هؤلاء الذين أقسموا، واتفقوا على القسم على أن يخالفوا الأنبياء، اجتمعوا، واتفقوا على أن يطفئوا نور

هذه الدعوة، في كل زمان ومكان .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

(سورة الأنعام)

المقتسمون الذين أقسموا فيما بينهم على أن يطفئوا دعوة الحق في كل عصر .

(كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ)

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ

معنى (عضين)ودلالته :

عضين جمع، ومفرده عضة، يعني قطعوه، وقالوا : هذا سحر، وهذه أخبار مأخوذة عن بني إسرائيل، وهذا كهانة، وهذا نرفضه، وهذا نقبله، هذا يعجبنا، وهذا لا يعجبنا، هذا لا يتناسب مع هذا العصر، كل من يقبل منه شيئاً، ويرد منه شيئاً فقد جعله عضين، مثل الإنسان الذي يقول: أنا أريد الرأس فقط، لما قطعت الرأس انتهى ومات،هناك علاقة عضوية، علاقة حيوية بين أجزائك.

فهؤلاء المقتسمون الذين أقسموا أن يطفئوا نور الله عز وجل، أن يطفئوا هذه الدعوة، هؤلاء فرقوا هذا الكتاب، هذا القرآن فيه أخبار مأخوذة من فلان، فيه قصص مأخوذة من بني إسرائيل، هنا فيه سحر، هنا فيه كهانة . وقال بعضهم: الذين آمنوا ببعضه، وكفروا ببعض هم الذين جعلوه عضين .

بعضهم: اليهود والنصارى، قسموا كتبهم، وحوروها، وغيروها، وبدلوها .

العضة هو البهتان والكذب :

وقال بعضهم : العضة الكذب والبهتان، الذين كذبوا به كلياً، وقالوا: هذا ليس من كلام الله، هذا من كلام البشر، هذا من اختراع البشر، هذا من كلام محمد عليه الصلاة والسلام ، محمد عليه الصلاة والسلام عبقري .

(الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ)

وقالوا : هذه الآية معقولة، وهذه غير معقولة، ولا تتماشى مع هذا الزمان .

هؤلاء المقتسمون الذين أقسموا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، هؤلاء أنفسهم جعلوا القرآن عضين، إما أنهم جعلوه خرافة، وسحراً، أو بهتاناً، وكذباً، وإما أنهم فرقوا بين آياته، فقبلوا

بعضها، ورفضوا البعض الآخر .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ

لا يخفى عليكم أنه مما يقتضيه السؤال الجزاء، سؤال مع الجزاء .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

الموقف العظيم : سؤال الله لعبده يوم القيامة عن كل شيء :

قال عليه الصلاة والسلام: يقول الله عز وجل للرجل يوم القيامة :

((ماذا غرك مني بي ؟ ماذا عملت فيما علمت ؟ ماذا أجبت المرسلين ؟))

[ورد في الأثر]

الآن هناك تسريب أسئلة، هناك أسئلة سوف نسأل عنها: ماذا أجبت المرسلين؟ ماذا عملت بما علمت ؟ ما الذي غرك بي ؟ قلت : إن الله لا يحاسبني، ما الذي جعلك تغتر بي ؟ الشيطان أم الدنيا، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ، عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟ وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ؟))

[الترمذي]

لا بدّ أن تسأل: لم فعلت؟ ولم لم تفعل؟ الشيء الذي فعلته لَمَ فعلته؟ الذي لم تفعله لِمَ لمْ تفعله؟ الله عز وجل لن يسألك: هل فعلت هذا؟ لأنه يعلم ما فعلت، هذا السؤال غير موجود، سيدنا عمر قال: >> هل صحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح؟ الإنسان يسأل: أفعلت هذا أم لم تفعل؟ لكن الله عز وجل يعلم ما نفعل، سؤاله فقط: لِمَ فعلت هذا ؟

إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه، حتى عن كحل عينيه، وعن الفتيل، فإذا سحب الرجل خيطاً من قماش يتسلى فَنَسَله فيسأل: لِمَ نَسَلَه ؟

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ :

((بَعَثَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاعِيًا ثُمَّ قَالَ : انْطَلِقْ أَبَا مَسْعُودٍ، وَلَا أُلْفِيَنَّكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَجِيءُ وَعَلَى ظَهْرِكَ بَعِيرٌ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ لَهُ رُغَاءٌ قَدْ غَلَلْتَهُ، قَالَ : إِذًا لَا أَنْطَلِقُ، قَالَ : إِذًا لَا أُكْرِهُكَ))

[أبو داود]

فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ

النبي عليه الصلاة والسلام يتمثل هذه الآية :

كان عليه الصلاة والسلام يتمثل هذه الآية :

(فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ)

اجهر بالحق، ولا تأخذك في الله لومة لائم، لا تنظر إليهم، ولا تخف منهم، ولا يشغلك أمرهم .

(فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ(94)إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ)

إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ

المستهزئ بالدين مآله القصم :

هذا الذي يستهزئ بدين الله عز وجل لا بدّ من أن يقصمه الله عز وجل، وهذا في كل زمان ومكان . ، فنزلت عليه صاعقة فأحرقته وحدهεيروى أن رجلاً أراد أن يستهزئ بدين الله فسمى ابنه الله، وقعت هذه الحادثة في عهد النبي .

(إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ)

إياك أيها العبد أن تكون في صف المستهزئين، لأن المستهزئ يقصمه الله عز وجل، ويجعله عبرة لمن يعتبر .

(إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ(95)الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

المعبودات من دون الله لا تملك نفعا ولا ضرا :

يعبد بعضهم بعضاً، يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، يعزون النفع والضر إلى بعضهم، مع أن النافع هو الله، والضارّ هو الله، يضر لينفع، ويمنع ليعطي، ويخفض ليرفع، ويذل ليعز، هو الضار النافع، المعطي المانع، الرافع المذل، الذي لا إله إلا هو .

(الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(96)وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ)

ماذا تفعل إذا ضاق صدرك بقول الكفار ؟

إذا قعد الإنسان مع منكِر كافر عنيد يستمع إلى حديثه السخيف الذي فيه اعتراض على الله عز وجل، فيه استهزاء بالقيم الدينية، وفيه تعالٍ وتطاول، فإنه يضيق ذرعاً به، فماذا يفعل عقب ذلك ؟

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ(97)فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ)

1 ـ تسبيح الله :

كلما ضاق صدرك يا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ سبح بحمد ربك، لذلك عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ :

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى))

[أبو داود، أحمد]

هذه سنة، سمعت خبراً مزعجاً، إنسان دس في قلبك شيئاً، رأيت شبح مصيبة قادماً عليك فبادر إلى الصلاة، اسجد ، وقل : يا رب، ليس لي إلا أنت، أنت وليّي في الدنيا والآخرة، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين .

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ)

2 ـ الصلاة :

لماذا سمَّى الله الصلاة سجودا ؟

بعضهم قال : كن من المصلين، لكن الله عز وجل سمى الصلاة سجوداً، لأن أشرف جزء في الصلاة هو السجود، ما أوحى الله إليه أن اجمع المال، وكن من المترفين، بل أوحى إليه أن :

(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ)

إذاً: كن من المصلين، غير الفرائض الخمسة، كلما ضاق صدرك مما يقولون بادر إلى الصلاة، وكن من الساجدين . لكن آخر آية :

وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

المعنى الأول : اليقين هو الموت :

بإجماع العلماء أن اليقين هو الموت، لمَ لمْ يقل الله عز وجل : واعبد ربك حتى يأتيك الموت ؟ كلمة اليقين التي تعني الموت، وهي أبلغ من كلمة الموت، سمي الموت يقيناً لأنه متيقن وقوعه، ولا ينجو منه أحد، لا بدّ من أن يموت الإنسان، كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت .

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

(سورة آل عمران 185)

المعنى الثاني : عند الموت تعرف اليقين :

المعنى الثاني لليقين : أنك عند الموت تعرف اليقين، تتيقن من كل هذا الذي سمعته في الدنيا، في الدنيا كان الذي سمعته خبراً فصار عياناً، كان الذي سمعته في الدنيا غيباً فصار شهوداً .

أحياناً بعض الناس يقول المهندس لرجل: في سقف بيتك شق خطير، هذا يسبب انهيار البناء، إذا انهار البناء صار يقيناً، انقلب كلام المهندس إلى يقين، يقول طبيب لمريض: إن هذا الدخان يسبب جلطة في الدم، فإذا وقعت هذه الجلطة صار كلام الطبيب يقيناً .

سمي الموت يقينًا لأنه متيقن وقوعه، ولأنه به تنتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهود، ومن عالم الظن إلى عالم اليقين .

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ(1)حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ(2)كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(3)ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(4)كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(5)لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ(6)ثُمَّ لَتَرَوْنَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ(7)ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ)

(سورة التكاثر)

عند الموت :

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق : 22)

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24)فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ(25)وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

(سورة الفجر)

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا(27)يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا)

(سورة الفرقان)

هذا هو اليقين، فاليقين من نوعين لا بدّ من الموت، الموت يقين، وفي الموت أي : عند الموت يظهر اليقين، لكن في الآية دقة بالغة :

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

اليقين هو الذي يأتيك ، ولا تعلم له وقتا :

اليقين هو الذي يأتيك، أكثر الناس يتوهم أن الموت في التسعينيات، اليقين يأتيه هو، قد يأتيه في الثلاثين، قد يأتيه في العشرين، قد يأتيه وهو يأكل، واليقين يأتيه على أي حال، ليس حتى تأتي اليقين، بل حتى يأتيك اليقين هو يأتيك، ولكن متى؟ لا نعرف، ليلاً أو نهاراً، وأنت في البيت، أو خارج البيت، في شبابك أو في شيخوختك، بعد الزواج أو قبل الزواج، بعد السكنى في البيت، رجل عمّر بيتاً فخماً، وكان مسافراً عاد إلى البيت، فقال : أنا متعب، أرجأ النظر في أجزائه الداخلية إلى أن يستريح، فكانت منيته في هذه الاستراحة، لم ير بقية الغرف .

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

إياك أن تظن أنك ذاهب إلى الموت في السبعينيات، لا هو آتٍ إليك .

إذا كان الرجل هاربا، ويلحق به شخص، وأمامه فراغ، والشخص وراءه، فلو أن هذا الذي يتبعه وجده أمامه يصعق، كذلك الموت هو الذي يلاقيك .

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)

(سورة الجمعة : 8)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (01-21): تفسير الآيات 1 – 3 ، عن عظمة الخالق من تحقيق الوعد والوعيد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-01-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة النحل :

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(1)يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ)

سورة النعم :

هذه السورة يسميها بعض العلماء سورة النِعَم، لأن معظمها فيها حديث عن النِعَم الكبرى التي أنعم الله بها علينا .

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ

وأما في مطلعها فقوله تعالى :

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)

معنى :

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)

الفائدة من استعمال الفعل الماضي للدلالة على المستقبل :

أي : اقتَرَبَ أمر الله ، ودنا، لكن القرآن الكريم في كثير من الأحيان يستعمل الفعل الماضي للدلالة على المستقبل، يستعمل ما كان على ما سيكون، مثال ذلك قوله تعالى :

(وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ)

(سورة الأعراف : من الآية 44)

ونادى : فعلٌ ماضٍ . ومثال ذلك :

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ)

(سورة المائدة : من الآية 116)

حيثما استعمل الله سبحانه وتعالى الفعل الماضي مكان المستقبل فهذا يعني تحقق الوقوع، فالماضي والمستقبل عند الله سيان .

سائق السيارة إذا كان ينحدر بها في طريق هابطة، وهذه الطريق تنتهي بمنعطف خطر، وعلى يمين الطريق وادٍ سحيق، وعلى يساره كذلك، واكتشف أن المكبح قد انقطع، هو يقول: انتهينا، تدهورنا، مُتنا، هذا يستخدم الفعل الماضي ليؤكد أن ما سيكون لا بد من أنه يكون .

لو أن مستأجراً أجَّر بيتاً لا يحق له أن يؤجره، هو مستأجر، وصاحب البيت جاء بكشف فوري، وصور الحالة الراهنة، يقول المستأجر: أخلينا، لماذا استخدم الفعل الماضي؟ لتحقق الوقوع، إذا استخدمت الفعل الماضي لتحقق الوقوع، أي: إنه ما سيكون لا بد كائن، هذا هو المعنى، فربنا عز وجل يقول :

(أَتَى)

نَظَمَ المتوقع في سلك الواقع .

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)

أتى بمعنى اقترب ودنا :

كما قلنا قبل قليل حول هذا الفعل: على معنى اقتَرَبَ، أو دنا، وإن كان بمعنى أتى فلا بد من أن يأتي، إما أنه اقتَرَبَ أو دنا، أو أنه لا بد من أن يأتي أمرُ الله .

ما معنى كلمة :

(أَمْرُ اللَّهِ)

معنى : أمر الله :

أمر الله وعد الله، ووعيدُه، وعد الله للمؤمنين، ووعيدُه للكافرين،

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)

لكن قول تعالى :

(أَمْرُ اللَّهِ)

كما قال الله عز وجل :

(فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا)

(سورة الشمس)

كما قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((حمزةُ أسدُ اللهِ، وأسدُ رسولِهِ))

[الطبراني في الكبير عن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي لبيبة عن جده]

وكقوله صلى الله عليه وسلم :

((نِعْمَ عَبْدُ اللَّهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ))

[الترمذي]

ربنا عز وجل قال عن ناقة صالح :

(نَاقَةَ اللَّهِ)

(سورة الشمس)

وهنا :

(أَمْرُ اللَّهِ)

إضافة الأمر لله للتهويل والتعظيم :

حينما أضيف الأمر لله عز وجل فهذه إضافة تفخيم وتهويل وتحقيق .

(فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ)

(سورة البقرة : من الآية 109)

أي يأتي وعده ووعيده، ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

(سورة الزخرف)

حينما يعقد الإنسان العزم على فعلٍ ما، ويظن أنه ماضٍ في هذا الفعل، لا يدري أن الله سبحانه وتعالى أبرم أمراً آخر، فالمعوّل عليه هو أمر الله سبحانه وتعالى، الذي لا محالة واقع :

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

شيءٌ آخر، ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة التوبة)

أمر الله هو عقابه أيضا :

يعني إذا كان الأهل، وإذا كانت الزوجة، وإذا كان الولد، إذا كان الأخ، إذا كانت العشيرة، إذا كان المال، إذا كان المسكن، إذا كانت التجارة، أحب إليكم من الله ورسوله، وإذا أطعتم زوجتكم، وعصيتم ربكم، فهي أحب إليكم من الله ورسوله، إذا أطعتم إخوانكم أو شركاءكم، وعصيتم ربكم، فهم أحب إليكم من الله ورسوله، إذا وافقت ابنك في معصية فابنك أحب إليك من الله ورسوله، إذا وافقت أباك على معصية فأبوك أحب إليك من الله ورسوله، إذا آثرت هذا البيت على طاعة الله، فهذا البيت أحب إليك من الله ورسوله، إذا آثرت هذه التجارة المحرمة على رضوان الله عز وجل، فالمال المُتأتِّي من هذه التجارة أحب إليك من الله ورسوله، ماذا يكون إذا كان شيء ما أحبَّ إليك من الله ورسوله .

(فَتَرَبَّصُوا)

يعني الطريق إلى الله مسدودة .

(حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ)

يعني بالعقاب الذي وعد به هؤلاء الذين آثروا الدنيا على الآخرة، الطريق إلى الله مسدودة، ولا بد من أن هذه التي أرضيتها، وأسخطت ربك فيها فلا بد من أن تنقلب عدوَّةً لك، وهذا الابن الذي وافقته، وأسخطت الله عز وجل لا بد من أن يكون عاقًّا، وهذا الأب الذي وافقته على معصية لا بد من أن يحرمك من الإرث، وهذا الأخ الذي قبلت منه هذه المعصية، وأسخطت الله عز وجل لا بد من أن ينقلب لك عدواً .

إذاً : أمر الله ما وعد به العصاة، بعضهم قال : أمر الله عقابه، فربنا سبحانه وتعالى قال :

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)

بمعنى اقترب، فالمراد : قل له : أتى أمر الله، يعني اقتربَ أن يدمر المال، بشِّر الزاني بالفقر ولو بعد حين، بشِّر كل عاصٍ بمغبّة معصيته ولو بعد حين .

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام : 11)

لابد من أن تدفع الثمن غالياً، إذا كان هناك مخالفة .

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)

إلى كل متكبر، كل منحرف، كل فاجر، كل عاصٍ، قل له :

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)

يظن المرء أنه إذا أوتي ذكاءً، ومالاً، وجاهاً، فقد حقق كل شيء، يأتي أمر الله من جهة لا يحسب لها حساباً، يؤتى الحذِر من مأمنِه .

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

مَن المخاطب بقوله : فلا تستعجلوه :

مَن هم المخاطبون بكلمة :

(فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

المخاطبون هم المشركون، لأن المؤمن لا يستعجل أمر الله عز وجل، أُثر عن النبي صلى الله عليه وسلم هذا الدعاء :

((اللهم خر لي في قضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت))

[الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة]

الاستعجال خصلة ذميمة :

من علامة المؤمن أنه لا يستعجل الله شيئاً، لا يستبطئ فرجاً، ولا يستعجل عطاءً، يرى أن الأمر كله بيد عليم حكيم، سميع مجيب، لكن هذا الاستعجال الذي يستعجل به المشركون هو استعجال سخرية واستهزاء، قال تعالى :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ)

(سورة يونس)

وقال سبحانه :

(يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

(سورة الشورى)

غير المؤمن بالآخرة يستعجل هذا العذاب، يقول متى يأتي العذاب ؟

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(سورة العنكبوت : 53)

المستعجِل للشيء غيرُ مؤمن به :

إذاً القاعدة : أن الذي يستعجل شيئاً غير مؤمنٍ به، إنما يستعجله استعجال سخرية، واستعجال استهزاء، لذلك ما كان لمؤمن أن يستعجل شيئاً، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[الترمذي]

((احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[مسلم عن أبي هريرة]

الاستعجال هنا من قبل الكفار، استعجال سخرية، واستعجال استهزاء، لذلك جاء قوله تعالى :

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

لماذا لا يعجِّل الله عباده بالعذاب ؟

لماذا لا يعجل الله عليهم بالعذاب ؟ لماذا لا يعجل الله عليهم القصْم، هناك حكمة بالغة،

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

(سورة طه)

لولا أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليسعدهم، لولا أنه دعاهم ليعرفوه، دعاهم لعبادته، كلما وقع مخلوق في معصية قصمه الله عز وجل، ولكن لا يقصمه، لأن الله عز وجل لم يخلقه للقصم، إنما خلقه ليرحمه، لذلك يمهله، إمهاله إمهال رحمة، إن الله سبحانه وتعالى ينتظرهم، ينتظر أن يعبدوه، جاء في بعض الأحاديث القدسية :

((يا داود ، لو يعلم المعرضون عني انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لتقطعت أوصالهم من حبي، هذه إرادتي بالمعرضين، فكيف إرادتي بالمقبلين ؟))

إذاً: الإمهال حكمته أن الله سبحانه وتعالى يعطي مهلة، ويعطي فرصة لهذا الغافل كي يعود إليه، فيأتي هؤلاء، ويستعجلون العذاب سخرية واستهزاء، لكن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يدمرهم بصيحة واحدة .

(سُبْحَانَهُ)

سُبْحانه :

هذه الكلمة تستخدم في الأعم الأغلب لتنزيه الله عز وجل عما لا يليق به، ما هم عليه من شرك بالله سبحانه وتعالى، وما هم عليه من تصورات مستمدة من هذا الشرك، قد تنزه الله عنه تنزيهاً :

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى)

هم حينما سخروا بوعد الله، ووعيده لهم، إن سخرت من شيء فلا بد من أن تعظم شيئاً آخر، يعظمون آلهتهم، يعظمون وجهاء القوم منهم، فلا بد من أن يكون في حياتك إنسان تعظمه، هذا شيءٌ لا بد منه، لا بد من إنسانٍ تعظمه، وإنسان تحتقره، وإنسانٍ تلتقي معه، فهذا الذي تعظمه من هو ؟ عند أهل الدنيا أرباب الدنيا، أرباب المال، أصحاب الشوكة والقوة، هؤلاء معظمون عند أهل الدنيا، ولكن كيف هم عند الله سبحانه وتعالى ؟ عند المؤمنين ؟ المؤمنون يعظمون مَن سبقوهم بالإيمان، قال لي أحدهم : ليس في الدنيا من هو أسعد مني إلا أن يكون اتقى مني .

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

في الآية التفات بلاغي والفائدة منه :

سبحانه كما قلنا : تنزيه وتمجيد، وهناك في الآية التفات دقيق من صيغة المخاطب إلى صيغة الغائب .

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

هذا التفات من المخاطب إلى الغائب، التفات بلاغي هدفه أن الله سبحانه وتعالى أعرض عنهم، استخفافاً بحالهم، إنهم ليسوا جديرين أن يخاطبهم الله سبحانه وتعالى، حينما تتحدث عن إنسان، وتراه ليس أهلاً لك، تقول لزميلك : هذا لا يفهم، تتركه، وتستخدم ضمير الغائب،

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

والله سبحانه وتعالى تبرأ عن أن يكون له شريك يدفع عنهم أمر الله، بماذا هم معتصمون ؟ ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني، أعرف ذلك من نيته، إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه، ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيته، فتكيده أهل السماوات والأرض، إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ، جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إلا مَا قُدِّرَ لَهُ))

[أخرجه الترمذي]

أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمك فاستخدميه، ومن خدمني فاخدميه، فلذلك :

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

الشركاء لا ينفعون ولا يضرون :

هؤلاء الذين أشركوهم مع الله عز وجل هل ينفعونهم ؟ هل يضرونهم ؟ قص علينا ربنا سبحانه وتعالى قصة سيدنا إبراهيم :

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ(70)قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ(71)قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ(72)أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ(73)قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ(74)قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ(75)أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ(76)فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ(77)الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ(78)وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ(79)وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ(80)(وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ(81)وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)

(سورة الشعراء : 70- 82)

هذا الذي تعبده من دون الله ماذا يفعل؟ أحد الولاة كان عنده أحد التابعين، فجاءه كتاب من يزيد، هذا الكتاب فيه أمرٌ لا يرضي الله عز وجل، فقال هذا الوالي لذاك التابعيّ : ماذا أفعل ؟ فقال التابعي كلمة تكتب بماء الذهب، قال: إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله،

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

عندما الإنسان يتعرف إلى الله عز وجل، ويؤمن به، ويوحد، تنشأ عنده حالة نفسية من نوع الغنى، هذه الحالة لا يعرفها إلا من ذاقها .

أحد الرواة قال : دخلت على حمَّاد في بيته، كان عالماً، صادقاً عاملاً، دخلت على حمَّاد في بيته فلم أجد إلا حصيراً وهو جالسٌ عليه، وبيده مصحف يقرأ فيه، وجُرابًا فيه كتب، ومطهرة يتوضأ منها، وليس في البيت أثاثٌ، فمكثت قليلاً وأنا جالس أفكر في هذا الرجل، وفي بيته، فبينما أنا جالس دق الباب، فقال حماد لبعض إخوانه : اخرجْ، وانظر من الطارق ؟ فقال : رسول من سليمان إلى حماد من أمير المدينة، فأذن فدخل، فقال أما بعد : فصبَّحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته، وقعت مسألة فأتينا نسألك عنها، والسلام، وظن هذا الرسول رسول الأمير أن حمادًا سيستجيب له، وسيفرح بهذه الدعوة، لكنه قال له : اقلب الكتاب، واكتب على ظهره، أما بعد : فأنت صبحك الله بما صبح به أولياءه، وأهل طاعته، إنا أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحداً، فإذا وقعت لك مسألة فأتنا، وسل ما بدا لك، ولا تأتِ بخيلك، ولا برَجِلك، أي تعال وحدك، وصلَ هذا الكتاب كتاب الشيخ حماد إلى أمير المدينة سليمان، فتسرب في قلبه إخلاص حماد، وعزته للعلم والعلماء، وجاء يسعى إلى دار حماد، ليسمع الفتوى،

وينزل بمجالس العلماء، التي تحيى بها القلوب، وينجلي صداها، فدق الباب، فقال لأحد إخوانه: انظر من الطارق؟ فعاد وقال: سليمان أمير المدينة، فقال: لِيدخل وحده، فدخل سليمان غرفة حماد، وقد علت هيبته هيبة الملك، لا يدري من أين تسربت إليه ؟ وجلس محتشماً متهيباً كأنما هو أمام ملك عظيم مهيب، ثم قال وهو يتلعثم في كلامه : ما لي إذا نظرت إليك امتلأت رهبة ؟ فقال حماد : إذا أراد العالم بعلمه وجه الله هابه كل شيء، وإذا أراد بعلمه الدنيا هاب كل شيء، والقصة لها تتمه .

على كلٍ :

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

ليس إلا الله .

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجب نا فإنا منحنا بالرضا من أحبا

ولذ بحمانا واحتم بجنابنــا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

ثم يقول الله عز وجل :

(يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ)

يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

من رحمة الله إرسال الرسل :

الله سبحانه وتعالى المنزه عن الشرك لا يدَع الناس في ضلالهم، وأوهامهم وشقائهم، إنما ينزل عليهم من السماء ما يحييهم وينجيهم، كما أن الله سبحانه وتعالى ينزل من السماء ماء ليحيي به الأرض بعد موتها، كذلك ينزل من السماء روحاً من أمره ليحيي القلوب بعد موتها، ماء السماء يحيي الأرض بعد موتها، ورسالات الأنبياء تحيي القلوب بعد موتها،

(يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ)

هذه الآية رد على منكري النبوة، الله سبحانه وتعالى لرحمته ولطفه وحرصه على عباده كلما ضل الناس بعث إليهم رسولاً يهديهم سواء السبيل، وفي الديانة الواحدة كلما فترت همة الناس، وضعفت عزيمتهم، ودخل على الدين ما ليس منه، بعث الله على رأس كل مئة عام من يجدد لها دينها .

القرآن روح :

هنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

(سورة الحجر)

وقلنا وقتها : إن اليقين هو الموت، وقلنا وقتها : إن الله سبحانه وتعالى سمى الموت يقيناً لتيقن وقوعه، ولأن فيه اليقين، يعلم المرء عند الموت علم اليقين، كذلك كان من الممكن أن يقول الله سبحانه وتعالى : ينزل الملائكة بالقرآن، الروح هنا القرآن، لماذا قال : الروح ؟ هذه تسمية هادفة، سمى الله سبحانه وتعالى القرآن روحاً ؛ لأنه حياة للقلوب، البيت الذي ليس فيه قرآن كالبيت الخرب، وفي الحديث عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنْ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ))

[الترمذي]

وفي الحديث :

((إن القلوب لتصدأ، قيل : وما جلاؤها ؟ قال : ذكر الله))

[الكامل لابن عدي عن ابن عمر]

هي قراءة القرآن، فالقرآن سماه الله روحاً، لأن فيه حياة النفوس، القرآن تحيى به القلوب كما تحيى بالماء الأبدان، والله سبحانه وتعالى يقول :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة فاطر : من الآية 1)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا)

(سورة الكهف)

الكون في كفة، والكتاب في كفة، وما دام الله سبحانه وتعالى قد خلق الخلق فلا بد من أن يرشدهم، قد يشق الطريق، ويفرش أرضه بالإسفلت، وبعد ذلك توضع الإشارات الدالة على معالمه، خلق الله السماوات والأرض، وأرشد الخلق إلى طريق الحق،

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة فاطر : من الآية 1)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا)

(سورة الكهف)

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

(سورة الواقعة : 75 - 77)

الكون في كفة، وهذا الكتاب في كفة، قد ترى جامعة ضخمة، فيها أبهاء وقاعات، ومخابر، وحدائق، ومكتبات، ولها نظام داخلي، هذا النظام الداخلي لا يقل خطورة عن الأبنية الخارجية، فربنا سبحانه وتعالى لأنه منزه عن الشرك، لأنه حريص على هداية خلقه، لأنه خلق الإنس والجن ليعبدوه، لأنه خلقنا ليرحمنا، نزل علينا قرآناً هو بمنزلة الروح لنا، الإنسان من دون دين جسم بلا روح، نفسه مُؤَثِرة، قلبه قاسٍ، تستوحش منه، يعيش ليأكل، ويشرب، ويتمتع، ليس له هدف نبيل، اهتماماته سطحية، وتافهة، فلذلك قال الله عز وجل :

(يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ)

هذه الباء باء المصاحبة، كأن تقول : خرجت بثيابي ؛ أي خرجت مع ثيابي،

(يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ)

أي بهذا الكتاب الذي فيه حياة النفس، وحياة القلب، وحياة الضمير، وحياة العقل، وحياة الأسرة، وحياة المجتمع، وحياة الأمة، وحياة الإنسانية .

من تمام النعم نعمة الهدى :

قالوا : تمام النعمة الهدى، يعني النِعَم كلها إذا كنت مهتدياً إلى الله عز وجل فيمكن أن نرمز لهذا الهدى بواحد، فإذا كان معك مال يعينك على أن تعيش بالحياة، فهذا المال صفر أمام الواحد، إن كانت لك زوجة تعينك على أمر دينك، فالزوجة صفر آخر، إن كان لك مأوى تأوي إليه، فهذا المأوى صفر ثالث، إن كان لك مورد رزق مريح، فهذا صفر رابع، فإذا ألغيت الواحد، كل الذي عندك أصفار، العلماء قالوا: تمام النعمة الهدى، من دون الهدى ليس هناك شيءٌ اسمه نعمة .

(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(25)وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ(26)وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ)

(سورة الدخان : 25 - 27)

نَعمة، ليست نِعمة، بل هي نقمة .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

شيءٌ آخر، قال تعالى :

(لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)

(سورة الفتح)

إذاً أنجاه من البئر، من الجب، أخرجه من السجن، لكن تمام النعمة أن يكون المرء مهتدياً إلى الله سبحانه وتعالى :

(يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)

النبوة مقام اختيار واصطفاء :

من يشاء من عباده على الأنبياء، والله سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته .

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران)

الله اصطفاهم، اختارهم على علم، فمقام النبوة، مقام اصطفائي، الله سبحانه وتعالى نظر في عباده نظرة، اصطفى منهم أكثرهم حباً له، أكثرهم حمداً، أكثرهم قرباً، أكثرهم نفعاً، فجعلهم أنبياء مُصطَفَيْن على من يشاء من عباده، والنبي أيّ نبي لا يزيد على أن يكون عبداً لله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد عبده ورسوله، هم قالوا :

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)

(سورة الزخرف)

هم رشّحوا أناسًا من عليةِ القوم لينزل القرآن عليه، لكن الله سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته :

(أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُون)

(سورة النحل)

إنزال الملائكة للإنذار والتبشير :

لماذا لم يقل : أن بشروا؟

(يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ)

هذا الروح ؛ أي هذا الكتاب، القرآن أو بيانه، القرآن الكريم وما بيَّنه النبي عليه الصلاة والسلام منه، هذا فحواه :

(أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُون)

الإنذار ؛ من تعاريف الإنذار أنه إخبار بالخطر، الإنذار إخبار فيه تخويف، أو إعلام بالمحظور، هذا هو الإنذار، وأما قوله تعالى :

(أَنْ أَنذِرُوا)

أي : ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده لينذروا، أن أنذروا بمعنى لينذروا :

(أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ)

لا إله ؛ أي لا معبود بحقٍ إلا الله، ليس في الكون جهة تستحق العبادة إلا الله، ولماذا ليس في الكون جهة تستحق العبادة إلا الله؟ لأنه ليس في الكون فاعل ومسيِّر إلا الله، لأن الأمر كله إليه، هو وحده يستحق العبادة، لأن الأمر كله إليه، إذاً هو وحده الذي يستحق العبادة، فالديانات السماوية كلها، فحواها:

(أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

(أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ)

(سورة النحل)

التوحيد هو أصل كل شيء :

التوحيد نهاية العلم، والتقوى نهاية العمل، كم في الأرض من علوم، نهاية العلوم كلها التوحيد، إذا عرفت أنه لا إله إلا الله، فقد عرفت كل شيء، وإذا غابت عنك هذه الحقيقة فقد جهلت كل شيء، التوحيد منتهى العلم، والتقوى منتهى العمل، يعني، مهما كنت ذكياً، إذا كنت أمام حفرة سحيقة، وأنت تمشي على طريق، مهما أقنعتني بعكس ما تريد فتفاديك لهذه الحفرة منتهى العمل الصالح، منتهى العلم أن تعرف أنه لا إله إلا الله، ومنتهى العمل أن تتقي الله سبحانه وتعالى، بمعنى أن تتقي معصيته، أو أن تتقي المضار بنوره، إما أن تتقي معصيته، وإما أن تتقي بنوره، تقبل عليه فيلقي في قلبك نوراً تتقي به، وترى به الخير خيراً، والشر شراً، فكلمة التوحيد لا إله إلا الله، وما يتبعها من عبادة أو تقوى هي فحوى رسالات الأنبياء جميعاً، يقول الله عز وجل :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء : 25)

ما دام الله سبحانه وتعالى واحد في الألوهية فهو وحده الذي يُتقى، ولا يُتقى أحد معه، ما دمت لا ترى إلهًا غيره إذًا لا يُتقى أحد معه، وهنا استنبط العلماء أن صلاح العمل مبني على صلاح الاعتقاد ، متى تتقون ؟ إذا عرفتم أنه لا إله إلا أنا، أيْ إن الإنسان لا يستطيع أن يتقي الله سبحانه وتعالى إلا إذا عرف أنه لا إله إلا الله، فصلاح العمل أساسه صلاح العقيدة، استقامة الرجل أساسها التوحيد، صلاح العمل أساسه أن تكون على هدى من ربك، فالتوحيد كما قال بعض العلماء روح الدين، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، والتوحيد حياة النفس .

(قالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ(54)مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود : 55 - 56)

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ

الكون مخلوق لحكمة بالغة :

أذكركم ثانية بكلمة الحق التي وردت قبل درسين، يعني أنّ اللهَ لم يخلق السماوات والأرض باطلاً، بل خلقها بالحق، ولم يخلقهما لعباً، بل خلقها بالحق، الحق هو الشيء المضاد للعب، والمضاد للزوال، الشيء الثابت الهادف، الحكمة الثابتة، هذا هو الحق، فلذلك هناك هدف كبير من خلق السماوات والأرض، إن لم يكن هذا الهدف واضحاً بين عينيك، فالأمر خطير، إلى أين أنت تسير ؟ إذا كنت لا تعرف الهدف :

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

سبحانه وتعالى عن أن يخلقها بالباطل، و سبحانه وتعالى عن أن يخلقها لعباً، أو عبثاً، أو سدىً .

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ(115)فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)

(سورة المؤمنون : 115 - 116)

الكون دليل على وحدانية الله :

الملِك الحق، دليل على عظمة الله سبحانه وتعالى، وعلى وحدانيته، وعلى أنه خلق السماوات والأرض بالحق . كلنا نمشي على الأرض، وكلنا ندخل أحياناً بعض الأراضي الزراعية، نرى تراباً قد أنبت عشباً، أو كلأً، أو محاصيل، أو خضراوات، أو أشجارًا مثمرة، فيا ترى من منا يصدق أن هذا التراب الذي نطأه بأقدامنا فيه عوالم من الكائنات الحية لا يعلمها إلا الله ؟

في مقالة عن التربة الزراعية وما فيها من كائنات حية شيءٌ لا يصدق، ذكرت في خطبة الجمعة، ورجاني أحدهم أن أعيده في هذه الدرس، ففي المتر الواحد المكعب من التربة الزراعية ما يزيد على مئتي ألف من الديدان العنكبية، وفي المتر المكعب الواحد من التربة الزراعية فيه ما يزيد على مئة ألف من الحشرات الفروية، وفيه من مئتان إلى ثلاثمئة من الديدان العادية، (الدود الصغير) وفي هذا المتر المكعب من التربة الزراعية آلاف الملايين من الجراثيم والكائنات المتناهية في الدقة، من منا يصدق، أن غراماً واحداً من هذه التربة فيه ما يزيد عن عدة مليارات من البكتريات، عند الصيدلي يوجد قطعة نحاس مربعة لا تزيد أبعادها على ميليمترات، هذه هي الغرام، فغرام من التربة فيه بضعة مليارات من البكتريا، يوجد بكتريا على شكل عصيات، بكتريات على شكل كريات، بكتريات على شكل حلزونيات، يوجد بكتريا تحتاج إلى أوكسجين، هناك بكتريا لا تحتاج إلى أكسجين، هناك بكتريا عارية، هناك بكتريا لها أهداب تنتقل عبرها، في الغرام الواحد من التربة الزراعية فيه ما يزيد على عدة مليارات من هذه البكتريا، شيءٌ غريب أن هذا المتر المكعب فيه مئتا ألف ديدان عنكبية، مئة ألف حشرة كروية، مئتان إلى ثلاثمئة دودة، آلاف الملايين من الجراثيم والكائنات المتناهية الدقة، وفي كل غرام من هذه التربة بضع مليارات من البكتريات، هذا مصنع يعمل بنشاط عجيب، لكن حتى الآن لم يعلم العلماء خطورة، أو مهمة، أو طبيعية عمل هذه الكائنات، لقول الله عز وجل :

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)

(سورة الإسراء : من الآية 85)

ولقول الله عز وجل :

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة : من الآية 255)

فقالوا : إنها تقوم بمهمات من أكثر المهمات غموضاً، واستغلاقاً، وإن هذه الكائنات الحية في التربة الزراعية تقدم نفعاً يكاد يكون نفعاً مصيرياً، لو أنها توقفت عن العمل لتوقفت الحياة كلياً، وهذه الكائنات الدقيقة تلتهم الأوراق المتساقطة، الله عز وجل جعل لأوراق الأشجار عمراً، حينما ينتهي عمرها تتساقط، تأتي هذه الكائنات فتلتهم هذه الأوراق، وتأتي كائنات أكبر منها تلتهم فضلالتها، وتأتي كائنات أكبر منها تلتهم فضلات الثانية، بحيث تصبح هذه الورقة بعد حين سماداً عضوياً للتربة، فهذه الأوراق الخضراء تقوم بعملية حيوية، هي عملية التنسيب، والتحليل الضوئية، إن هذا الغذاء الذي نأكله، بعضه من الشمس، وبعضه من غاز الفحم، الذي أودعه الله في الجو، وبعضه من الماء، لذلك لا نبات من دون ضوء، مواد النبات تأخذها من الأوراق، فالأوراق كأنها معامل، يقدم النبات غاز الفحم الذي يأخذه من

الهواء بالتعاون مع أشعة الشمس، هذه الآيات ما منا إنسان إلا ويأكل شيئاً عن طريق النبات، حتى لو أكل اللحم، ماذا يأكل الحيوان الذي نأكله ؟ النبات، فالنبات أساس الحياة، والله سبحانه وتعالى يقول :

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)

(سورة يس : 80)

الشجر الأخضر ؛ كيف نوقد هذا من الشجر الأخضر ؟ هناك سؤال، لا يوقد الشجر إلا إذا كان يابساً، لكن بعضهم قال : إن الشجر الأخضر كناية عن أن الشجر لولا أوراقه الخضراء لما كان شجراً، يعني أوراقه الخضراء هي التي تسهم في صنع النبات، وفي تكوين بنيته الأساسية، على كلٍ هذه الآيات الدالة على عظمة الله سبحانه وتعالى بثها الله في الأرض، تفكروا في خلق السماوات والأرض لأنه باب واسع لمعرفة الله سبحانه وتعالى .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (02-21): تفسير الآيات 4 – 8 ، عن خلق الله
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-01-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

علاقة الآية بما سبقها من الآيات :

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

بعد أن بيّن الله لنا سبحانه وتعالى أنّ أمر الله قد أتى، بمعنى أنه قد دنا واقترب، وأنه سيحاسب الإنسان عن أعماله كلها، والله سبحانه وتعالى أنزل على نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم كتاباً بمنزلة الروح لنا، حياتنا من دون هذا المنهج لا معنى لها، هذا الكتاب روح النفس، وروح العقل، وروح المجتمع، وروح الأمة، وروح الأسرة .

(يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ)

(سورة النحل)

والعلماء قالوا : نهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل التقوى، يعني فحوى كتاب الله سبحانه وتعالى :

(أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ)

طريق معرفة الله، الطريق الموصلة إلى أن تؤمن أنه لا إله إلا الله، ما دامت كلمة التوحيد نهاية العلم، وما دامت التقوى نهاية العمل، فما الطريق إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، وأنه لا إله إلا هو ؟ الطريق التي إذا سلكناها وصلنا إلى الإيمان بأنه لا إله إلا الله ، وأنه لا مسير لهذا الكون إلا الله، ولا معبود بحق إلا الله، ولا رافع ولا خافض، ولا معز، ولا مذل، ولا معطيَ ولا مانع إلا الله طريق الإيمان بـ (لا إله إلا الله)، كما قال المفسرون : نهاية العلم التفكر في هذه الآيات التي سوف يوردها الله سبحانه وتعالى :

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ

الحق نقيض الباطل واللعب والعبث :

وقد بينت لكم في الدرس الماضي والذي قبله أيضاً كيف أن الحق تعني نقيض الباطل، وكيف أن الحق

يعني نقيض اللعب، فاللعب هو العمل غير الهادف، والباطل هو الشيء الزائل، فالحق هو الشيء الثابت المستقر الهادف، الحكمة الثابتة، فالله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض، والسماوات والأرض لفظ يرد في القرآن كثيراً، ويعني الكون .

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

أي لحكمة ثابتة، ولهدف كبير، من أجل أن تعرفه، فإذا عرفته عبدته، وإذا عبدته سعدت بقربه إلى الأبد .

إذاً : العلة الأولى والأخيرة أن يسعدك بهذا الخَلق، خلقك ليسعدك، طريق السعادة العبادة، طريق العبادة المعرفة، طريق المعرفة خلق السماوات والأرض،

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

الشرك نقيض التوحيد :

ما الذي يناقض التوحيد ؟ الشرك، إما أن تكون موحداً، وإما أن تكون مشركاً، إذا قلت : فلان وعلان، فلان بيده أمري، فلان بيده نفعي، فلان بيده ضري، فهذا هو الشرك .

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف : 106)

أكثر الذين يدَّعون الإيمان واقعون في الشرك وهم لا يدرون، فلذلك :

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

لهدف كبيرٍ كبيرٍ، هو أن تعرفه، فتعبده، فتسعد به، إذاً لم يخلق السماوات والأرض عبثاً، بلا هدف، ولم يخلق السماوات والأرض لعباً، ولم يخلق السماوات والأرض باطلاً، لا باطلاً، ولا لعباً، بل خلقها إلى الأبد، وخلقها لهدف كبير .

فيا أيها الإنسان الكريم، أنت مكرم عند الله .

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

(سورة الإسراء : 70)

حياة الإنسان تبدأ بالموت :

لا تظن كما يظن معظم الناس أن حياتك تنتهي بالموت، لا والله، إنها تبدأ بالموت .

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24)فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ(25)وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

(سورة الفجر : 24 - 26)

لو أن حياة الإنسان تنتهي بالموت لكانت هذه الفكرة مبعث ألمٍ شديدٍ جداً، ومبعث قلق شديد، ومبعث حيرة، كل هذا الكون من أجل سنوات محدودة معدودة، مشحونة بالمتاعب، والضيق والأخطار، والمُقلقات، والفقر أحياناً، والخوف أحياناً، أهكذا خَلْقُ الله عز وجل ؟

أليس الذي خلق السماوات والأرض بقادرٍ على أن يخلقنا من دون أن يزعجنا، من دون أن يخيفنا، من دون أن يفقرنا، من دون أن يتخذ بعضنا بعضاً سخريًّا؟ لولا الإيمان باليوم الآخر لكان خلق السماوات والأرض عبثاً، ولعباً، وباطلاً .

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

مخلوقة لهدف نبيل، أتظن أن إنشاء مَخبرٍ ضخمٍ للتسلية، أم لهدف نبيل؟ أن يحلل ما يَرِدُ إليه من حالات مَرَضية، هذا يحتاج إلى تحليل، إنشاء المنصات، إنشاء القوارير، تأمين الأجهزة، أليس هناك هدف نبيل ؟

خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)

يا الله لهذه الآية !

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ)

الإنسان مخلوق من نطفة ثم هو يخاصم ويجادل ربَّه :

هذه البداية، أما النهاية فهو شخصية مهمة، متبحرة في العلوم، تثبت عن طريق المحاضرات، أو عن طريق التأليف أنه ليس هناك خالق .

(فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)

يخاصم الذي خلقه .

(مِنْ نُطْفَةٍ)

(أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)

(سورة المرسلات : 20)

بعد أن صار إنساناً سوياً، له فكر، وله حواس، وله أجهزة ، وله إدراك، وله مكانة، وله شأن، صار يخاصم الله سبحانه وتعالى، إنها مفارقة عجيبة .

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ)

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36)أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى)

(سورة القيامة : 36 - 37)

الله سبحانه وتعالى سماه ماءً مهيناً، أيْ محتقرًا، فإذا ظهر على ثوب الإنسان يستحي منه .

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ)

الحيوانات المنوية :

الإنسان في اللقاء الزوجي يخرج منه أكثر من ثلاثمئة مليون حيوان منوي، بعض الكتب تقول : يخرج منه مئتان وخمسون مليون حيوان منوي، بعضها ثلاثمئة مليون حيوان منوي، الثابت أن النطفة شيء، والمني شيء آخر .

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ)

ما هي الخلية ؟

من نطفة يعني من خلية .

ما هذه الخلية؟ والله الذي لا إله إلا هو هناك حقائق اكتشفها العلماء لولا أن هناك أدلة قاطعة عليها، ولولا أن هناك صوراً التقطتها مجاهر إلكترونية لكانت هذه الحقائق فوق حد التصور .

يقولون: إن الإنسان يتألف جسمه من مئة مليون خلية، ما الخلية؟ قالوا: كرة محاطة بغشاء رقيق، وهذا الغشاء الرقيق يحتوي سائلاً لزجاً، وسط هذا السائل كرية، أي كرة صغيرة أصغر من الأولى وأكثر كثافة، أبعاد هذه الخلية 2% من الميليمتر، الميليمتر قسمه إلى مئة جزء، أبعاد الخلية 2% من الميليمتر، كائن حي، بعضهم قال : الخلية ليست أصغر جزءٍ في الإنسان، بل هي أصغر وحدةٍ وظيفية، بمعنى أن الخلية أيضاً مقسمة إلى أجزاء، وعالم الخلية عالم قائم بذاته، والعلماء في أرقى الجامعات لم يصلوا إلى نهاية البحث في الخلية، هذه هي الخلية .

ممّ تتألف الخلية ؟

إذاً: هي تتألف من غشاء وسائل وكرية، الكرية اسمها النواة، الكرية تحتوي على أشياء اسمها كرموزومات، هذه الكروموزومات عبارة عن خيوط على شكل مِسبحة، عليها شيءٌ اسمه الجينات، على كل كروموزوم ثلاثة وعشرون زوجًا من الجينات، الجينات هي المورّثات، قالوا : هذه المورثات، هنا السؤال؟ كنت قد سمعت هذا الرقم شفهياً، وكنت أتهيب أن ألقيه في درس، إلى أن وصلت إلى بحث

علمي يؤكد هذا الرقم، هذه الجينات المورثات تحتوي على معلومات، أو أوامر، أو تعليمات مبرمجة، لو أردنا كتابتها في كتاب لاحتجنا إلى مليون صفحة، يعني إلى ألف مجلد، من مساحة دوائر المعارف، مجلدات دوائر المعارف بحجم كبير، على هذه الجينة أوامر، أو تعليمات مبرمجة، لو أردنا أن نفرغها في مجلد لاحتجنا إلى مليون صفحة، الرقم الذي سمعته من سنوات طويلة، سمعته من محاضر يقول : خمسة آلاف مليون معلومة، يعني خمسة آلاف مليون أمر في هذه الخلية، التي لا تزيد أبعادها على 2% من الميليمتر، وقد تكون أصغر من ذلك، والمحاطة بغشاء رقيق، وبعد الغشاء هناك سائل لزج، الهيولى هي داخل هذا السائل، كرية صغيرة أكثف وأصغر وأشد صلابة اسمها النواة، فيها كرموزومات على أحد هذه الجينات، في الجينة الواحدة ألف مجلد معلومات أو أوامر، أو تعليمات على شكل شفرات مبرمجة، يزيد حجمها لو كتبت على ألف مجلد أو مليون مَليون صفحة، أو خمسة آلاف مليون معلومة، لولا أن هناك صورًا عندي في البيت التقطتها مجاهر إلكترونية تكبر آلاف المرات لهذه الجينات لكان هذا الشيء أبعد من الخيال .

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ)

البحوث بالنطفة لا تنتهي في ساعة أو ساعتين، تدرس في سنوات، بحوث البويضة، بحوث النطفة، بحوث الحيوان المنوي، بحوث الخلية .

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ)

البويضة تختار حيوانا منويا واحدا :

الحيوان المنوي ثلاثمئة مليون في كل لقاء، يصل من هذه الحيوانات إلى عنق الرحم بضع مئات، من ثلاثمئة مليون إلى بضع مئات، معنى ذلك أنه لا يصل إلا الأقوى، والأجدر، والبويضة تختار حيواناً منوياً واحداً، لكن كيف تختاره ؟

هذا الحيوان المنوي له رأس مدبب، وله عنق، وله ذيل، إذا وصل إلى البويضة ارتطامه بها يمزق غشاءً رقيقاً جداً في قمة رأسه، هذا الغشاء يحتوي على سائل، هذا السائل يذيب جدار البويضة، ويدخل هذا الحيوان إلى البويضة، ويتم التلقيح، هذا السائل قال لي بعض الأطباء : إنه يتغذى من الزبيب، ليس من العنب، ومن اللفت .

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ)

لو أردت أن أعرض عليكم معلومات الأطباء العاديين لما اكتفينا بجلسات .

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)

خمسة آلاف مليون أمر على الجينة الواحدة، المؤلّف منها الكروموزوم في النواة، في الهيولى، الخلية، وتقول من الخالق ! من خَلقنا ! .

(إنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

(سورة المؤمنون)

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36)أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى)

(سورة القيامة : 36 - 37)

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ)

هذا عن الرجل فماذا عن المرأة ؟

هذا عن الرجل، فماذا عن المرأة ؟ العلماء قالوا : إن الطفلة، وهي في بطن أمها يوجد في مبيضيها ستة ملايين بويضة، إذا ولدت هذه الطفلة، وبلغت سن الحيض يبقى في مبيضها ثلاثون ألف بويضة، فإذا اكتمل نضجها لا يبقى في مبيضها إلا أربعمئة بويضة، هذه البويضات تخرج كل شهر، حكمة بالغة، الله سبحانه وتعالى ينضج ثلاثًا أو أربعًا في كل شهر، ويرسل واحدة إلى الرحم، فإذا التقت بالحيوان المنوي في الطريق كان التلقيح، وكان الحمل، وإلا ستذهب هذه البويضة إلى الرحم فتحدث الدورة الشهرية، قال عليه الصلاة والسلام :

((إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله مَلكاً فقال : يا رب : مُخَلّقة ؟ أم غيرُ مُخَلَّقة؟ فإذا قال : غيرُ مخلّقة مجّتها الأرحامُ دَماً))

[تفسير الطبري عن ابن مسعود، وانظر فتح الباري]

هكذا قال عليه الصلاة والسلام .

ويتفق كلامه مع أحدث النظريات الطبية في شأن الحمل والتلقيح، 87% من حالات التلقيح يتم سقوطها من دون أن تدري المرأة في ذلك، قد يكون السقوط من دون أن تشعر المرأة في ذلك، لذلك قال تعالى :

(هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة آل عمران : 6)

ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن .

(لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ(49)أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

(سورة الشورى)

هذا هو الماء المهين :

المقدر كائن لا محالة، هذه الحيوانات المنوية، أو هذه النطفة يتم تصنيعها في الخصيتين، من منكم يصدق أن هذا الماء الذي خرج في اللقاء الزوجي مضى على تصنيعه أربعة أشهر؟ أربعة أشهر والأنابيب تعمل، والخلايا، والأجهزة الدقيقة في الخصيتين على تخليق هذا الحيوان المنوي، فإذا تم خلقه يوضع في التخزين، وقد قال لي طبيب: وفي أثناء التخزين تجري عليه تحسينات كثيرة، إلى أن يخرج مع سائل تفرزه البروستاتة على شكل مني .

(أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الواقعة : 59)

الله سبحانه وتعالى قال :

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)

(سورة النحل)

هذا الكافر، هذا الملحد، هذا الفاجر، هذا العاصي، هذا المتكبر، هذا الذي يقول : ليس هناك إله، أو يقول: الدين لا قيمة له في الحياة، أو هذا القرآن ليس كلام الله، إنه كلام هذا العبقري محمد ـ e ـ كما يقول هو :

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)

مَن يحدد نوع الجنين ؟

شيء آخر، العلماء انتهوا إلى أنَّ الذي يحدد نوع الجنين ذكراً أو أنثى هو الحيوان المنوي، وليس البويضة، فهذا الذي يغضب من زوجته إن أنجبت بنتاً فهو كتلة من الجهل .

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(45)مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى)

(سورة النجم : 45 - 46)

الزوجان الذكر والأنثى مخلوقان من نطفة، لا من بويضة، من نطفة إذا تمنى، رجل في الجاهلية ولدت له زوجته بنتاً فغضب على زوجته وهجرها، وكانت شاعرة فقالت :

ما لأبي حمزة لا يـأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا تالله مـا ذلك في أيـدينا
و إنما نأخذ ما أعطينـا ونحن كالأرض لزارعينا
ننبت ما قد زرعوه فينا

***

إذاً :

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)

ألا تعرف مَن شكّلك طفلا ؟

ألا يكفي خَلقُ الإنسان؟ لو أن الله سبحانه وتعالى خلق الناس كلهم دفعة واحدة ما عرفنا كيف خَلقنا؟ لكن الله عز وجل لحكمة بالغة عرَّفك بخَلقك عن طريق ابنك، قد تقول أنت: أنا لا أعرف كيف خلقت، أنا حينما أدركت الحياة كنت شاباً، أو كنت طفلاً، والله لا أعرف كيف خَلقني الله في بطن أمي؟ شيء جميل، ألا تعرف ابنك وما أصله؟ هذا الذي أمامك، هذا الذي هو أطول منك الآن، ألم يكن نطفة من ماء مهين؟ مَن خَلقه في بطن أمه ؟

(أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الواقعة : 59)

من شَكّله ؟ من جعل له السمع والأبصار والأفئدة ؟ من جعل له الدماغ ؟ والجمجمة ؟ والعمود الفقري؟ والنخاع الشوكي ؟ والعظام والعضلات، والأوردة، والشرايين، والغدد الصماء، والكبد والبنكرياس، والكظر، والنخامية، والدرقية، جهاز التناسل، جهاز التنفس، وجهاز الدوران، وجهاز طرح الفضلات، وجهاز البول، والمثانة، والكليتين، من ؟

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)

إذا تعامى الإنسان عن هذه الآية الكبرى .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ

ما هي الأنعام ؟

الأنعام كما قال العلماء: هي الجمال، الإبل، والبقر، والغنم والماعز، هذه هي الأنعام، كلها خيرات .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

ماذا لو تكن الأنعام مذلّلة ؟!

لكم يعني خُلِقت لكم خصيصى، ذكرت كلمة (لكم) في كلام الله كثيرا .

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

(سورة يس : 72)

لو أن الله سبحانه وتعالى ركّب في الأنعام أخلاق الضباع، أو أخلاق الوحوش، أو أخلاق السباع، أو ركب بها سمًّا قاتلاً كالأفاعي والعقارب، أو جعلها متوحشة، كيف نستخدمها؟ كيف نعتني بها؟ كيف نذبحها؟ كيف نأكلها ؟

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

خُلِقتْ خصيصى لكم، لا يقل أحدكم: إن الله خلق هذه الحيوانات حتى نستأنس بها، لا من يستطيع أن يستأنس بحيوان متوحش حتى الآن؟ المتوحش متوحش، والأليف أليف .

شيء مهمٌ جداً، هذه الأغنام مثلاً لحمها طعامٌ طيب، سيد أنواع الطعام، جلدها له فوائد جمّة، صوفها له فوائد جمّة، شيءٌ لا يرى بالعين، طباعها أن الغنم يعيش على شكل قطعان، والكلاب تعيش فرادى، لو أن الله عز وجل ركب طباع الكلاب في الغنم كيف ترعاها؟ كيف تجمعها في قطيع ؟ الكلاب متفرقة، من أعطى الغنم حب التجمع، إذا نظرت إلى قطيع غنم، ورأيته كتلة واحدة، رؤوس بعضه في داخل بعض، تفزع الغنمة إذا اكتشفت أنها وحيدة، تركض إلى قطيعها بشكل مخيف، من جعل بها هذه الصفة؟ وهذا الطبع؟ إنه الله سبحانه وتعالى، من جعلها مذللة؟ الطفل يألفها، يلمسها، يداعبها، يمسكها، يحملها، لا يخاف منها، بينما عقرب صغير إن رآه رجل كبير قفز على الأرض خوفاً منها، لماذا نقفز عن الأرض من عقربٍ أو من أفعى، ونألف هذه الغنمة، والإبل، والناقة، والبقر، والماعز، والغنم ؟

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

فكّروا في هذه الحيوانات :

هل فكرتم فيها؟ إذا تجاهلتم خَلقكم، إذا تجاهلتم أنكم خلقتم من نطفة من ماء مهين، ألا تأكلون كل يوم؟ ألا يذهب أحدنا إلى القصاب؟ ألا يرى هذا الغنم؛ عضلات، وعظامًا، وأوردة، وشرايين، وأحشاء، وأمعاء، وجمجمة، ورأسًا، ودماغًا، وعينين، وأنفًا، ولسانًا، وأذين، وقوائم، وجهازًا هضميًّا، وقلبًا، وكلية، وأمعاء دقيقة، وأمعاء غليظة ؟ ألا يُرى هذا أمامنا جميعاً ؟ ما الحكمة التي جعل الله بها بنية الحيوان الذي نأكله كبنية الإنسان تماماً ؟ إذا ذهبت إلى أخ كريم يبيعك اللحم فأنت أمام درسٍ في التشريح، في تشريح جسمك ، هكذا جسمك، عضلات، وأوردة، وشرايين، وعظام، ولوح الكتف، والعمود الفقري، تقول : أخي أريد مثله، أي العمود الفقري، اللحم المحيط بالعمود الفقري، هذا كله درس أمامنا،

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

لك أن تقف عند كلمة لكم .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ)

لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ

هذا ما نأخذه من الأنعام للدفء :

السجادة التي تجلس عليها لا تقدَّر بثمن، إنها تمنع عنك الرطوبة، وتمنع عنك البرد، هل بإمكانك أن تعيش في غرفة في الشتاء بلا سجادة؟ بلا بساط؟ بلا شيء صوفي ؟

(لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ)

وقد ترتدي ثياباً صوفية تحس أنك في دفء شديد، قد ترتدي ثياباً داخلية صوفية، هذه من وبر الجمل، غالية جداً، وهذا من نوع رقيق ناعم من الصوف، غالي الثمن، وقد ترتدي ثوباً أو معطفاً صوفياً، وقد ترتدي فروةً، في بعض أنحاء الريف، مهما كان البرد شديداً، إذا ارتديت هذه الفروة فكأنك في غرفة دافئة .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ)

السجاد، الألبسة الخارجية والداخلية، الخيام من وبر الجمل .

(لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ)

المسابل التي نضعها علينا في النوم، الدثر الصوفية .

(لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ)

من نعيم الدنيا أن تنام في الشتاء وفوقك دثار صوفي، هذا نعيم، تحس بالدفء مهما كانت الغرفة باردة، لو أنها غير مدفئة، هذا الدثار الصوفي يبعث في جسمك الدفء

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ)

الآن الخيوط الصوفية لا تقلَّد، هناك خيوط صناعية يحاول صانعوها أن ترقى إلى مستوى الخيوط الصوفية، الطريق مسدود، ثمن القطعة الصوفية عشرة أمثال، أو خمسة أمثال ثمن القطعة ذات الخيوط الصناعية، هذه إذا غسلتها تتسع، تتسع إلى مثلي حجمها، أما الصوف الصحيح الحقيقي فترتدي هذا المعطف سنوات طويلة وهي كما هي، من أعطى هذا الصوف خاصية أنها مفرغة من الهواء ؟ كيف تحجز هذا الهواء الساخن، ما هذا السر؟ اجلسْ على الجلد في أبرد أيام الشتاء تحس أن هذا الجلد يبعث الدفء في قدميك .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ)

هل شكرت الله على هذا الدفء ؟

هل تشكر الله عليها ؟ إذا ارتدى أحدنا معطف صوف هل يخطر بباله أنه الحمد لله الذي خُلقت لنا هذه المادة، نتدفأ بها في الشتاء

(لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ)

وجدت في غرفتك سجادة صوف، في أثناء الصلاة مريحة، ترتاح في الصلاة عليها ، تمشي عليها دون أن تحس بالبرد، تمنع عنك رطوبة الغرفة، هل تحس أن هذه النعمة من نعم الله سبحانه وتعالى، أم أنك اشتريتها بمالك، وحصلتها بجهدك، وانتقيتها بذوقك ؟

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ)

وَمَنَافِع

ما هي منافع الأنعام ؟

ما هي المنافع؟ المنافع أن هذه الدابة تأتيك بدابة أخرى كل سنة، ما أحد سمع أنه اشترى سيارة، وبعد سنة وجد واحدة أصغر منها على الباب واقفة، نبيع الكبيرة وتبقى الصغيرة عندنا .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ)

لها نسل، عندك بقرة لها نسل، عندك غنمة لها نسل، الغنم يلد مرتين في العام، هذا عطاء الله، فالمنافع هي النسل، والمنافع هي الركوب، والمنافع هي الحمل، والمنافع هي الألبان، والسَّمن، والحليب، والقشدة، والجبن، هذا كله من هذه الألبان المباركة، ألبان، وأجبان، وحليب، وركوب، وتحميل أثقال، ونسل .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ)

وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ

فإذا ذبحتها تأكلها كلها، لا بل :

(وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

وصفُ ربّنا دقيقٌ جداً، وصفٌ يأخذ بالألباب

(وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)

وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ

طبعاً هذه الصورة منتزعة من البيئة التي نزل فيها القرآن، الغنم والمعز، والبقر، والإبل، هي الأنعام، والأنعام المال الذي يرعى كما عرفه بعض العلماء، المال الذي يرعى، هذه أنعام .

(وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ)

منظرها يبعث في النفس السرور، الله عز وجل يحقق أهدافاً كثيرة في خلق واحد .

كل شيء في الأنعام فيه فائدة في الاستعمال :

الصوف ثمين جداً، فالقماش الصوفي الخالص أغلى أنواع الأقمشة، لأن له ميزات لا تعدلها أيُّ ميزات أخرى، سواء كان القماش بالذات، وإن كان ألبسة داخلية، وإن كان ألبسة عادية، وإن كان معاطف، شيء ثمين جداً، كي يعرف أحدنا قيمة الجلد الذي خلقه الله لنا، يشتري حذاء من البلاستيك لا ليلبسه، لكن ليعرف قيمة الجلد الذي خلقه الله لنا، فهناك أمراض تنتج عن استخدام هذه الأحذية، لأنه يوجد في الجلد مسام، فيه تنفس ومتانة، فيه مرونة، فيه راحة، إذاً الجلد مفيد، واللحم مفيد، والعظام تصنع منها السمن الآن، كلها من عظام الحيوانات، ولها استخدامات كثيرة جداً، حتى الأمعاء لها استخدامات، كل شيء في الغنم يستعمل، فهي خير كلها، حتى أن بَعر الغنم هو أغلى أنواع السماد، قال لي أحدُهم : إني سمَّدتُ بستاناً حوالي خمس دنمات، قال لي : كلفني عشرة آلاف ليرة، كيف ؟! قال لي : والله جئت بالغنم، قلت : سبحان الله ! كل شيء يأتي من الأنعام خير، كل شيء فيها من دون استثناء

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

الإنسان يجب أن يفكر إذا أكل قطعة جبن .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

شرب كأس الحليب صباحاً .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

أكل زبدةً مع عسل .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

دُعي إلى وليمة، فوضعوا له عصافير .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

أكل الحلوى .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

أكل لحماً مشوياً

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

اشترى علبة سمن .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

لبس معطف صوف .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

عنده سجادة في البيت .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

وضع غطاء صوف تحته فشعر بالدفء .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

هكذا المؤمن، كيفما تحرك، لاحظ نفسك بالنهار، كم مرة يجب أن تتلو هذه الآية :

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(5)وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)

معنى : تُريحون :

أي حين تعودون بها إلى الإسطبل، أو الحظيرة .

(وَحِينَ تَسْرَحُونَ)

معنى : تسرحون :

سرح بالغنم أخذُها ليرعاها، وأراحها أعادها إلى حظيرتها .

(وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ)

هذه الأحاسيس لا نعرفها نحن، يعرفها أبناء الريف، حينما يرى أن غنمه قد عادت إلى حظيرتها، ولها صوت، ولها ضجيج، ولها حركة يحس أن قلبه قد أفعم سروراً بهذا المال، كل غنمة ثمنها ألفي ليرة،

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(5)وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)

الفائدة من تقديم (تريحون)على (تسرحون):

العلماء قالوا: لماذا قدّم الله تريحون على تسرحون ؟ مع أن الترتيب المنطقي تسرحون وتريحون، قال: لأنك حينما تراها عائدة وقد امتلأت ضروعها حليباً، وامتلأت بطونها كلأً، تفرح أكثر، والعشب يبعث هذا المنظر السرور في نفسك، لذلك قدم رواحها على سراحها

(وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)

ثم قال تعالى :

(وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ

لولا أن الأنعام تحمل الثقيل لهلك الإنسان :

الجمل يحمل حجرَ الطاحونة، قطر الحجر متر، من أثقل أنواع الأحجار يحملها،

(وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

الجمل عالٍ، لو أن الله عز وجل لم يجعل له هذه الثفينات، لو أنه يستريح على شق له، كيف تحمله ؟ مستحيل، إذا حملته وهو واقف يحتاج سلم، إذا انزلق هلكت أنت وهو، لكنه يجلس هذا الجمل جلسة نظامية، له ثفينة في بطنه، وثفينات على رجليه، تحمله وأنت مستريح، تضع هنا شجرة وهنا شجرة، تربطها بحبلين، تأمره بالوقوف فيقف

(وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ)

طبعاً هي مناظر، وقد كان في الشام منظر الجمال محملة بالتبن الحاجات والأشجار منظرًا مألوفًا، الآن هذه المناظر قَلت جداً .

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ

وظيفة الخيل والبغال والحمير :

الخيل لها وظيفة، والبغل له وظيفة، هناك أماكن جبلية وعرة لا يصلح لها إلا البغال، حتى إن بعض الجيوش إلى الآن تستخدم البغال، لو أن جيشاً مقيماً بمنطقة جبلية وعرة، لا سيارة، ولا مدرعة يستطيع استعمالها، لابد من بغال، يركبها الإنسان فتسير به عبر الأخاديد في الجبال، البغل له صفات خاصة، وله ميزات، والحمير صبورة، إذا أراد صاحب البستان أن يبيع محصوله، فالحمار صبور، يقف ساعات طويلة من دون أن يتشكى، أو أن يتأفف، وظهره منخفض، والتعامل معه سهل، لو كان على بغل عالٍ، يأتي الواحد يسأل البائع : ماذا ؟ عندك فاصولياء ؟ الحمار مستواه منخفض، وصبور، وله ميزات كثيرة، يفتقر لها بعض الناس

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ)

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الْجَعْدِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))

[متفق عليه]

الفرس صديق حميم في معاملته لصاحبه :

حدثني رجل قال: عنده خيل، وكانت ابنته على ظهر هذه الفرس، وكان قد أوقفها إلى جانب الطريق العام، وكانت هناك حافلات كهربائية، فلما جاءت حافلة اضطربت الخيل، وخافت، وأرادت أن تهرب، تذكرت أن على ظهرها ابنة صاحبها، ما كان منها إلا أن أناخت إلى الأرض، ودفعت بحركة هذه البنت عن ظهرها، وولت هاربة، من عنده خيل أو فرس يتعامل معها وكأنها صديق، هناك أناس كثيرون يقولون: إذا نام صاحبها على ظهرها، ورأت رجلا تنبّهه، ألم يقل عنترة يصف خيله :

فازور من وقع القنا بـلبانــه و شكا إلي بعبرة وتحمحم

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولو كان علم الكلام مكلّمي

التعامل مع الخيل سهل، هو صديق، إذا ركب رجل سيارة، ونام هل تقول له السيارة: انتبهْ نمت، بل يطيح، وكذلك هل تنبهه إذا رأت عدواً أو حدث خطر؟!

أنا كنت ألمح على طريق درعا قوافل محملة بالتبن والمحاصيل، أصحابها نائمون على ظهر العربة، والبغال تمشي وحدها في الطريق، فالحيوان كائن حي له مشاعر، له إدراك،

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

إياكم أن تظنوا أنها رخيصة، بعض أنواع الخيل يزيد ثمنها على ملايين الليرات، ولا سيما النوع العربي .

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا)

هل يجوز أكل لحم الخيل والبغال والحمير ؟

هذه اللام التعليل، خلقت لتركبوها، بعض علماء الفقه استنبط أنه لا يجوز أكل لحمها، لأن الله عز وجل لم يذكرها مع الأنعام، بل ذكرها مع صنف آخر لتركبوها، وهو موضوع خلافي، وهناك أحاديث أخرى تجيز أكلها، طبعاً لحم البغال محرم، والخلاف على لحم الخيل .

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

الإنسان عنده هدفٌ جمالي :

أما هنا فالإشارة دقيقة جداً، الإنسان عنده هدف جمالي، لو فرضنا غرفة الضيوف قد يأتي بألواح خشبية يضع عليها بعض الفرش، وهو مكان للجلوس جيد، لكن الجمال مبتغى، واللهُ عز وجل هكذا فطرنا، الإنسان يحب إلى جانب تحقيق الوظيفة أن يكون الشيء منظره جميلاً، فربنا عز وجل جعل للخيل منظرًا جميلا جداً، الآن في كثير من اللوحات الزيتية صورة خيل، ومنظر الخيل، تناسق الخطوط، لون الجلد أحياناً، خيل محجلة، لها أساور بيضاء في أرجلها، وفي رقبتها، لها غرة بيضاء، لها عيون كبيرة، لها منظر جميل، فربنا عز وجل توخى شيئين من خلق الفَرَس، توخى غاية وظيفية، وتوخى غاية جمالية

(لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

أحيانا إنسان يركب سيارة من دون دهن يخجل، ينزعج، يقول : ليست جميلة، طبعاً الهدف يكون في الشيء أن يكون جميلا،

وفي الحديث :

((إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ))

[مسلم عن ابن مسعود]

إذاً :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

هناك هدف وظيفي، وهناك هدف جمالي، وهذه فطرة الإنسان، وقد يتبادر إلى الذهن الآن سيارات فاخرة، وطائرات، وبواخر، وحوامات، وقطارات مريحة سريعة، على كلٍّ ربنا عز وجل يعلم ما سيكون، لذلك قال :

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ

فلئلا يظن الإنسان المعاصر أن هناك وسائل مواصلات تفوق في سرعتها، وفي إمكاناتها وفي اتساعها، وفي توافر الراحة فيها تلك الوسائل البدائية، قال الله سبحانه وتعالى :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

الله خلَق أموراً لا نعلمها :

لكن الشيء الدقيق في هذه الآية أنه خَلَق ما لا تعلمون من طائرات، وسيارات، وقطارات، وبواخر، وحوامات، هذا الخلق عُزِيَ إلى الله سبحانه وتعالى، لأن الله عز وجل لولا هذه المواد التي أودعها في الأرض، لولا المعادن، لولا أنه أودعها على شكل فلزات يسهل استخراجها، ولولا أنه يسَّر لنا إيقاد النار، لولا الأفران العالية، هل يمكن تحويل هذه الفلزات إلى معادن ؟ هناك معادن على شكل فلزات، وهناك أفران عالية، وهناك وسائل للتصفيح، والسحب، والتطريق، وما إلى ذلك، مواد هذه الوسائل، المواصلات من خَلَق الله، والإنسان لولا أن الله أعطاه هذا الفكر لما أمكن أن يخترع طائرة، ولا سيارة، ولا باخرة، ولا قطاراً، ولا حوامة، ولولا أن الله ألهمه مبدأ المحرك الانفجاري، وألهمه مبدأ المحرك النفاث، وألهمه مبدأ المحرك التوربيني لما أمكن أن يركب البحر، ولا أن يطير في الجو، ولا أن يسير على الأرض، إذاً المواد مِن خَلَق الله، طريقة وجودها في الأرض، كيفية وجودها في الأرض، من خَلَق الله، طريق استخراجها من إلهام الله، الفكر من خَلَق الله، الفكرة من إلهام الله، الوقود لهذه الوسائل من خَلَق الله عز وجل، مَن الذي جعل هذه الحقول النفطية موجودة على أرض كتيمة ؟ لو أن هذه الأرض غير كتيمة لغارت في أعماق الأرض، وانتهى الأمر، جعلها على طبقات كتيمة، وجعل فوق هذه الطبقات ماء مالحاً لحكمة بالغة، وجعل النفط فوق الماء المالح، وجعل بين النفطِ وبين الطبقةِ الكتيمة غازاً مضغوطاً إلى درجة كبيرة، بحيث لو وصلت إلى هذا الحقل لتفجر النفط تفجراً، وخرج بلا مضخات، وبعد هذه الطبقة الكتيمة طبقة نفوذة، طبقة كتيمة، طبقة من الماء المالح، طبقة من النفط الخام، طبقة من الغاز، طبقة كتيمة، طبقة نفوذة، ومن أعطاك وسائل استخراج النفط ؟ الله سبحانه

وتعالى، فالمعادن، وأشباه المعادن، وجميع المواد التي صنعت السيارة، والطائرة، والباخرة، والقطار، مع الفكرة، والفكر، والوقود، واستخراج الوقود، كلها من خلق الله عز وجل، لذلك قال عز وجل :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ

ثم قال عزوجل :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

هذه آية خطيرة جداً .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

هذه مِنْهَا على أيّ شيء تعود ؟ على الخيل والبغال والحمير، أم على يَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ أما على السبيل ؟

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

لمَ لمْ يهدنا أجمعين، هذه الأسئلة، وهذه الآية التي جرت بين العلماء حولها مناقشات كثيرة سوف نرجئ الحديث عنها إن شاء الله إلى الدرس القادم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (03-21): تفسير الآيات 9 – 14 ، عن نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد ونعمة الإرشاد - ألزم الله نفسه بهداية البشر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-01-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

ثلاث نِعم عامة مذكورة في سورة النحل :

في هذه السورة بين الله لنا سبحانه وتعالى ثلاث نعمٍ كبرى امتن بها علينا .

1 ـ نعمة الإيجاد :

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)

2 ـ نعمة الإمداد :

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(5)وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ(6)وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ(7)وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد .

3 ـ نعمة الإرشاد :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ

هذا أول شيءٍ في هذه الآية، أنها جاءت بعد نعمتين، نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، وفي هذه الآية بيان لنعمة الإرشاد .

الانتقال من المحسوسات إلى المعنويات :

شيءٌ آخر، هو أن الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم حينما يذكر الأشياء المادية يعقب عليها بالأشياء المعنوية، فحينما قال الله عز وجل :

(وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ)

(سورة البقرة : 197)

انتقلنا من الزاد المادي إلى الزاد المعنوي .

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

(سورة الأعراف : 26)

الانتقال من المحسوسات إلى المجردات، من الماديات إلى المعنويات، من الحقيقة إلى المجاز، والآن هذه الخيل والبغال والحمير تركبوها وزينة، وهذه تسلك طرائق لحاجاتكم وأهدافكم .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

تركيب هذه الآية دقيق، والآية أصلٌ في العقيدة الإسلامية .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

السبيل هي الطريق :

السبيل هي الطريق .

سيدنا الصديق رضي الله عنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثناء الهجرة، وكانا متخفِّيَيْن خشية المطاردين، فإذا رجل في الطريق يسأل سيدنا الصديق، يقول له : من هذا الرجل ؟ ويشير إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فقال هذا الصديق الكريم الفطِن : هو رجل يهديني السبيل، أي يرشدني إلى الطريق، فتوهم السائل أنه دليل طريق، وهو عنى به أنه يهديه السبيل إلى الله سبحانه وتعالى، فالسبيل في اللغة هي الطريق، والسبيل تُذكَّر وتؤنث .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

معنى : قصد السبيل :

ما معنى قصد السبيل ؟ القصد مصدر مِن فعل قصد، قصدت دمشق ؛ أي أردتها، قصدت حلب ؛ أي أردتها، اسم الفاعل منه قاصد، والمصدر قصد، فكلمة قصد السبيل أساسها سبيل قاصد، ومعنى سبيل

قاصد، أي طريق مستقيمة موصل، كلمة قاصد فيها معنيان : المعنى الأول : أنه سبيل مستقيم، طريق مستقيم .

والمعنى الثاني : أنه موصل، يعني نافذ، طريقة مستقيمٌ نافذة موصلة إلى الهدف .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

إلزام الله نفسه ببيان السبيل القويم وإمداد الناس بالرزق :

هذه (على)تفيد معنى الإلزام، مثلاً قال، تعالى :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

(سورة هود : 6)

ما من دابة، الدابة نكرة تفيد الشمول، من دابة، (مِن)لاستغراق أفراد كل نوع، ما من، وإلا تفيد القصر، لكن لو أن الله عز وجل قال : ما من دابة إلا الله يرزقها، ما الفرق الدقيق بين قوله تعالى :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

وبين قوله : وما من دابة إلا الله يرزقها، فرقٌ كبير جداً، ما من دابة إلا الله يرزقها لا على وجه الإلزام، يرزقها أو لا يرزقها، لكن ما من دابة إلا على الله رزقها على وجه الإلزام، لا حاكم إلا الله في الكون، من يلزمه ؟ لا أحد، إنما ألزم نفسه، كما قال الله عز وجل على لسان سيدنا هود :

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود : 55 - 56)

ربنا سبحانه وتعالى ألزم نفسه أن يكون على صراط مستقيم، وربنا سبحانه وتعالى ألزم نفسه أن يرزق العباد .

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

لي عليك فريضة، ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضتي، لم أخالفك في رزقك، إلزام ذاتي، الله سبحانه وتعالى ألزم نفسه بالصراط المستقيم :

(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

وألزم نفسه برزق العباد :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

وألزم نفسه في هذه الآية أن يهدي عباده الطريق الموصل إليه، هذا عليه .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

آيات الكون هي مِن السبيل التي بيّنها الله للعباد :

على الله أن يجعل للعباد طريقاً موصلاً إليه، طريقاً مستقيماً، وطريقاً سالكة، وطريقاً نافذةً، وطريقاً موصلة، وطريقاً تحقق الهدف لمن يسلكها على الله، هذه على الله، أين هي هذه السبيل التي جعلها الله عز وجل ؟

العلماء قالوا: خلق في الإنسان هذا العقل، وقالوا: نصب في الكون هذه الآيات، أي شيءٍ تقع عينك عليه آية دلالة على الله عز وجل، النجوم، الشمس والقمر، الليل والنهار، الجبال والسهول، الوديان والأنهار والبحار، أنواع النباتات، أنواع الأطيار، أنواع الحيوانات، أنواع المخلوقات، أنواع الأسماك، السبيل إلى الله، هذه الآيات التي بثها الله في الكون، وبثها الله في السماوات والأرض، وبثها الله في الأرض بالذات .

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات : 20)

هذه الآيات التي بثها الله في جسمك كيف خلقت ؟ كما تكلمنا في الدرس الماضي، الحيوان المنوي الواحد عبارة عن خلية لها غلاف، ولها سائل أسمه، ولها نوية، وعليها الجينات، وعلى الجينات خمسة آلاف مليون أمر، هذه تكتب في ألف مجلد، أو في مليون صحيفة، سمعك، بصرك، عضلاتك، شرايينك، أوردتك، هذه العين ترى بها الصور الدقيقة الواضحة، لأن خلاياها شفافة، من أين تستمد الغذاء ؟ العين وحدها تسمد الغذاء عن طريق الحلول، أول خلية في القرنية تأخذ غذاءها وغذاء جارتها، وينتقل الغذاء عبر الخلايا القرنية لشيء واحد لكي تكون الرؤية صافية، هذا الشعر الذي جعله الله في رأسك، مئتان وخمسون ألف شعرة، لكل شعرة شريان ووريد وعصب، وغدة دهنيه، وغدة صبغية، وعضلة، السبيل التي جعلها الله إليه أنه أعطاك الفكر، والسبيل التي جعلها الله إليه أنه بث في الكون هذه الآيات، والسبيل التي جعلها الله إليه أنه أنزل الكتب السماوية، وأنه أرسل الرسل، وأنه ساق الحجج، وضيق على عباده، وأبرز شيءٍ في الكون أن السبيل إلى الله واضحة، وسالكة، وهي أهم ما في الكون .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

هذا على الله، على الله أن يجعل طريقاً مُفْضِية إليه، الآيات، والعقول، والكتب، والرسل والدعاة، والمصائب، والمضايقات، هذه كلها سبيل إلى الله عز وجل .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

بيت قصد السبيل والسبيل القاصدة :

لكن لمَ لم يقل : وعلى الله السبيل القاصدة ؟ لمَ جاءت كلمة قصد مكان قاصد ؟ أكثر المفسرين يقولون :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

أي: وعلى الله السبيل القاصدة، لماذا قال قصد مكانَ قاصد؟ لأن هذه هي السبيل إلى الله، لو أن معالمها اضطربت يوضحها الله عز وجل، لو أن هذه السبيل إلى الله انحرفت لبعث الله في هذه الأمة على رأس كل مئة عام من يجدد لها دينها، كلما ضاعت معالم الطريق، وكلما انحرفت الطريق يسخر الله لهذا الدين من يجدده، ومن يصحح مسيرته .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

شيءٌ آخر، أن الله عز وجل قال :

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل : 12)

تبيان الطريق، وتوضيحه، ونصب الآيات، هذه من اختصاص الله سبحانه وتعالى، كيف أن الجهات المعنية تشق الطريق، وتضع عليه الإشارات، هناك منعطف خطر، هناك جسر ضيق، هناك طريق فرعية، هناك صعود شديد، هناك خطر الانزلاق، كلها إشارات رحمة بالسائقين .

إذاً :

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

صار معنى القصد أنه لا بد من أن يكون في كل زمان، وفي كل مكان طريق إلى الله سالكة إليه، قد يكون هذا الطريق نبيًّا كريمًا، أو داعية مخلصًا، أو كتابًا واضحًا، أو آيات بينات، أو آيات طارئات بينات، يبغي هؤلاء فيدمرهم الله سبحانه وتعالى، هذه آية من آيات الله، على مستوى جماعي، على مستوى فردي، هذا يطغى فيمحق الله له ماله، هذا يتجاوز الحدود فيؤدب تأديباً شديداً، هذه كلها سبل إلى الله عز وجل .

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

يعني سبيل الله سالكة، وسبيل الله مستقيمة، وسبيل الله هادفة، وسبيل الله موصلة إلى الهدف، وهذه السبيل دائماً وأبداً كلما ضاعت معالمها، وكلما انحرفت وضحها الله عز وجل، وأعادها إلى الطريق الصحيح .

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ))

[أخرجه أحمد]

لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ)

معنى : وَمِنْهَا جَائِرٌ

ما معنى جائر ؟ أي منحرف، جار بمعنى انحرف، وجانَبَ الطريقَ، ربنا عز وجل يبين، كما أن هناك طريقًا إلى الله عز وجل سالكة، نافذة، مستقيمة، موصلة، هناك طرق أخرى منحرفة، هذه الطريق المنحرفة مسدودة، ومُشقية، ومهلكة .

مثلاً: طريق كسب المال، من ظن أن الدنيا هي المال، وكسب المال أذكى عمل، والغني هو الفالح، والناجح، والفائز، هذا الطريق يفاجئ عندما يأتي ملك الموت أن المال كله لا قيمة له، في هذه الساعة الحرجة، وأن كل الذي حصله في الدنيا تركه في البيت، وأنه أمام حفرة سيبقى فيها إلى يوم القيامة، وبعد يوم القيامة إما أن يكون إلى جنة يدوم نعيمها، أو إلى نار لا ينفذ عذابها، عندئذ يقول :

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر : 24)

(يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا)

(سورة الفرقان : 28)

عندئذ يفزع، عندئذ يكتشف أن هذه السبيل التي سلكها كانت جائرة، يعني كانت منحرفة، ومسدودة، انتهت عند الموت، فإذا توهم الإنسان أن طريق جمع المال، وجمع الثروات، والانغماس في الدنيا ليصبح غنياً، فهذا الطريق جائر، أول شيء منحرف عن طريق الحق والشيء الثاني أنه مسدود، ليس نافذاً، ليس مفضياً إلى السعادة، عندئذ حينما يوضع الإنسان في النعش، وتمشي جنازته، يقول : يا أهلي يا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرم، فأنفقته في حله، وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة علي .

(وَمِنْهَا جَائِرٌ)

لذلك ربنا عز وجل قال :

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة الأنعام : 153)

في الآية إشارة دقيقة، هناك طريقٌ لله واحد، طريق الحق واحد لا يتكرر، ولا يتعدد، ولا يختلف، بين نقطتين لا يمر إلا خط مستقيم واحد .

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(وَمِنْهَا جَائِرٌ)

القضية خطيرة جداً، على أي طريق هو؟ أهو على الطريق الذي رسمها الله إليه؟ أهو في الطريق التي سنها الله، التي جعلها الله سالكة إليه، مستقيمة إلى جنابه، أم هو على طريقة جائرة ؟ في طريق جمع الدرهم والدينار، أم في طريق اقتناص اللذات المحرمة، أم في طريق العلو في الأرض، أم في طريق اللهث وراء الشهرة، على أي طريق هو ؟ وما منا واحد إلا ويعلم علم اليقين في أي طريق هو . هذه الآية خطيرة جداً، بل إنها أصل في العقيدة الإسلامية .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

لكل عصر واحد يسمو به، كما قال لشيخ محي الدين رضي الله عنه، لكل واحد عصر يسمو به ، وأنا لهذا العصر، ذاك الأوحد، ربنا عز وجل قال :

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة : 30)

لا بد من رجل لكل زمان، ينطق بالحق، وينقل لك الحق مشهوراً كان أو مغموراً، لا بد من رجل على حق .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ)

في أي طريق أنت ؟ الإنسان يمتحن نفسه، يصحح سيره، إن كان في طريقٍ جائر، فليعُد إلى الطريق المستقيم .

(الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30)نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(31)نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ(32))

(سورة فصلت : 30 - 32)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة : 38)

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه : 123)

انتهى الأمر .

(وَمِنْهَا جَائِرٌ)

لكن في الآية دقة، ربنا عز وجل قال :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

لا يُنسَب الشر إلى الله :

ليس على الله أن ينصب طريقاً جائرة، الطريق الصحيحة على الله نصبها، وعلى الله جعْلها، وعلى الله شقها، أما الطريق الجائرة فلم تنسب إليه تعالى، إذًا ما السبب ؟ هناك سبب وجيه جداً، بعض المفسرين قال : تأدباً مع الله عز وجل، فربنا عز وجل جعل طريقاً مهلكة، لكن تأدباً مع ذاته العلية لم تنسب إلى ذاته، والحقيقة أن الطريق المفضية إليه، السالكة إليه، الموصلة إليه مَن خلقها ؟ هو خلقها .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

يعني على الله أن يرسم لكم طريقاً إليه، أما الطريق الجائرة فلا تحتاج إلى من يوجدها، الدليل : تقول : إنسان راكب سيارته فسار في طريق الهاوية، هل المعنيون بالموصلات عبَّدوا طريقاً إلى الهاوية، لا، أبداً، حينما خرج عن الطريق المستقيم، عن الطريق المعبد، ونزل في الوادي، نقول : سار في طريق الهاوية، هذه الطريق التي سلكها، وتحطمت سيارته، لا يسمى طريقاً إلا مجازاً، خروجه عن الطريق هو الجائر، يعني الباطل، الفساد، والانحراف، والضلال لا يحتاج إلى خالق، لأنه سلبي، ليس إيجابياً، هناك طريق معبد مستقيم، حينما يخرج قائد المركبة عن هذا الطريق يهوي في الوادي، هل هويه في الوادي طريق ؟ لا، لا يسمى طريقاً، فربنا قال :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

الطريق المعبد يحتاج إلى نفقات، إلى من يشقها، لكن وقوع المركبة في الوادي، هذا السير إلى الوادي لا يحتاج إلى من يشق هذا الطريق، مجرد الخروج من طريق الحق هو طريق الهلاك، فربنا عز وجل قال :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

أما الطريق الجائر :

(وَمِنْهَا جَائِرٌ)

وإذا خرج الإنسان من هذه الطريق يصبح في طريقٍ منحرفة، مهلكة، مفضية إلى الدمار والهلاك .

(وَمِنْهَا جَائِرٌ)

يعني على الله عز وجل أن يشق الطريق، وعلينا أن نسير في الطريق .

وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ

(وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

الفكرة مهمة جداً، إنسان يتوهم أحياناً .

(وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

بيان الطريق الصحيح للناس جميعا ، والهداية لمن شاء الله :

تعلقت مشيئته بنصب هذا الطريق، ولم تتعلق مشيئته بهدايتنا أجمعين، فلماذا؟ أكثر المفسرون قالوا كلاماً طيباً، وكلاماً مقنعاً، وكلاماً عميقاً، قالوا: لو أن الحكمة تقتضي أن يهدينا جميعاً لهدانا إليه، ولكن الله يفعل ما يشاء، أما أن يشاء لنا الهداية جميعاً فهذا الشيء يتنافى مع حكمته .

لا انتفاع بالهدى القسري :

الله عز وجل لو هدانا إليه جميعاً هداية قسرية لأُلغِيَتْ الأمانة التي كلفنا بها، ولأُلغِيَتْ هويتنا كَبَشر، ويلغى عندئذ التكليف، ويلغى الاختيار، ويلغى الثواب، ويلغى العقاب، حيثما أُجبر الإنسان على طاعة الله عز وجل بطل الثواب، وحيثما أجبر على معصيته بطل العقاب، وحيثما أُجبر على طريق معينة بطلت حرية الاختيار، وحيثما بطلت حرية الاختيار بطل التكليف، وإذا بطل التكليف بطل الابتلاء، فلا ثواب، ولا عقاب، ولا اختيار، ولا تكليف، ولا ابتلاء .

حينما توزع الجامعة على طلابها وهم في الامتحان أوراق الأسئلة مع أوراق الإجابة، مطبوعة بالإجابات الكاملة التامة، يكلف الطالب عندئذ بكتابة اسمه ورقمه فقط، وينال العلامة التامة، إذا فعلت الجامعة هذا ألغي الامتحان، لا معنى لهذا الامتحان، لا معنى للدراسة عندئذ، لا معنى للتنافس، لا معنى لحرية الاختيار، لا معنى للتكليف، إذا أيقن الطالب أنه في نهاية العام حينما يدخل إلى قاعة الامتحان سيوزع عليه ورقة السؤال، وورقة الإجابة مطبوعة كاملة، وما عليه إلا أن يكتب اسمه ورقمه، هل لهذا النجاح قيمة؟ لا والله، هل لهذا النجاح قيمة عند الطلاب؟ لا والله، هل لهذا النجاح قيمة عند الأساتذة؟ لا والله، هل لهذا النجاح قيمة عند الأهل؟ لا والله، فالجامعة طبعاً لو تشاء مثلاً لوزعت مع أوراق الأسئلة أوراق الإجابة، ولنجح جميع الطلاب، ولكن هذا العمل ليس حكيماً، وليس مُجدياً، وليس له معنى، ولا جدوى منه، بل هو عمل غير حكيم، يعمل على تعطيل حرية التنافس بين الطلاب، يعطل فيهم الدافع إلى الدراسة، يعطل فيهم الدافع إلى طلب العلم، يعطل فيهم التنافس، يعطل فيهم تأكيد ذواتهم، هذه

المعاني الدقيقة، تأكيد الذات، حرية الاختيار، التنافس، قيمة تحصيل العلم بدافع شخصي، هذا كله يعطل لو شاءت إدارة الجامعة أن تنجح جميع الطلاب عن طريق توزيع أوراق الإجابة مع أوراق الأسئلة، هذا المعنى ليس كما توهم بعض الناس الذين يسيئون الظن بالله عز وجل، ويقولون: لو شاء الله هداكم، لكن لا يريد أن يهدينا، كلا ليس هذا المعنى، ليس من الحكمة أن يهدينا جميعاً هداية قسرية من عنده .

لو أن أباً يعمل في تدريس الرياضيات، وله ابن عنده في الصف، ألا يستطيع هذا الأب أن يعطيه قبل الامتحان بيوم الأسئلة، ويأخذ في اليوم التالي علامة كاملة ؟ يستطيع ضمن إمكانه، لو فعل ذلك لحطم ابنه، لو قال له في أول العام: لا تقلق يا بني، أنت ابني، وأنا أحبك، وسوف أعطيك السؤال قبل بداية الامتحان بساعة، عطل فيه الدافع نحو الدراسة، فالإنسان أولاً مخير، فلو هدانا أجمعين لتعطل اختيارنا، الإنسان مكلف، لو هدانا أجمعين لتعطل التكليف، الإنسان مبتلى، لو هدانا أجمعين لتعطل الابتلاء، الإنسان حمل الأمانة، لو تعطل التكليف لألغيت هويته، مَن الإنسان؟ مخلوق .

حينما قال الله عز وجل :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب : 72)

للإنسان حرية الاختيار :

هذا هو الإنسان، حمل الأمانة، وجُعِلت نفسه أمانة بين يديه .

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس : 9 - 10)

جُعل مخيراً، جُعل مريداً، أُودعت فيه شهوات، دعي إلى الحق، فلا قيمة للهدى إلا إذا كان بدافع شخصي، بدافع من حرية الاختيار، أما لو ألزم الإنسان على الهدى لفقد الهدى قيمته، هذا معنى قوله تعالى :

(وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

تفسير يضل عنه أكثر الناس :

هذا الموضوع ينقلنا إلى موضوع كثيراً ما يبحث عنه بعض الإخوة المؤمنين، كيف نفسر قوله تعالى ؟

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل : 93)

المعنى الأول :

بعضهم قال: إن الله عز وجل إذا أضل عباده فإنه يضلهم عن شركائهم، كما لو أن الإنسان رأى أن ابنه يتلهى بلعبة، وأخفاها عنه، أضله عنها، يتلهى بها عن نجاح مهمّ يتعلق به مستقبله، حينما يضل الله عبده يضله عن شركائه، لا عن ذاته، يهدَى إلى ذاته، ويضل عن شركائه، هذا المعنى الأول الذي يليق بالله سبحانه وتعالى :

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الأعراف : 180)

المعنى الثاني :

وبعضهم قال: إذا أضل الله عبده، فمعنى ذلك أن هناك إضلالا جزائيًّا، وليس ابتدائيًّا، كيف ؟ الإنسان اختار الضلال، فجزاه الله عز وجل بالإضلال .

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة الصف : 5)

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة فصلت : 17)

المعنى الثالث :

الضلال بمعنى آخر، أن الإنسان حينما يرفض طريق الحق يضلّ، فلو أن إنساناً ماشياً في طريق، ووصل إلى مفترق طرق، وعلى المفرق شخص دليل واقف، حريص على رواد الطريق، وقال هذا الدليل: الطريق من هنا، فقال له سائق المركبة: أنت إنسان كذاب، أنت إنسان جاهل، هل يعقل أن يضيف إليه معلومات جديدة، رفض دعوته كلياً، قال له : اذهبْ أينما تريد، فالإنسان حينما يرفض هداية الله عز وجل يقع في الضلال وقوعاً حُكمياً، إذا رفضتَ طريق النجاة وقعت في طريق الهلاك، إذا رفضت طريق الحق سرتَ في طريق الباطل، فهذا هو المعنى الذي يستفاد من قوله تعالى :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة النحل : 93)

شيءٌ آخر، أن الله عز وجل يقول :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

قيمة الهداية ما كانت على قناعة واختيار :

الهداية لا قيمة لها إلا إذا انطلقت من إنسان مختار، بدافع من حرية الاختيار، هذه الآية آية أساسية في العقيدة، ودائماً الله سبحانه وتعالى تكفل لعباده على مدى الأيام والحقب، والسنوات، والدهور، أن يجعل طريقاً مستقيمة موصلة إليه، وهذه الطريق قد تكون بالكتب، وبالأنبياء، وبالآيات، وبالمصائب، وبالدعاة .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

وكلما انحرفت هذه الطريق، كلما ضاعت معالمها، يبعث الله سبحانه وتعالى من يجدد لهذا الدين طريقه إليه، لكن هناك طريق جائرة منحرفة

(وَمِنْهَا جَائِرٌ)

فنعوذ بالله أن نكون في الطريق الجائرة، كل إنسان يجب أن يعرف على أيّ طريق هو

(وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

لو أن من الحكمة أن يهديكم جميعاً لهداكم، ولكن ليس هذا من الحكمة، لو فعل ذلك لتعطل الاختيار، والتكليف، وحمْل الأمانة، والابتلاء، ولتعطلت هوية الإنسان، ولأصبح الإنسان مخلوقاً آخر غير الذي هو عليه، ثم يقول الله عز وجل :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ)

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ

هل شعرت يوما أن الله هو الذي أنزل هذا الماء الذي تشربون ؟!

أعَرَفْتَه؟ هذا الذي أنزل من السماء ماء، فإذا قرأت في الصحيفة اليومية نِسَب الأمطار في المحافظات هل تشعر أن الله هو الذي منَّ علينا بهذه الأمطار، يقول لك : في المكان الفلاني سبعون ميليمترً، والمكان الفلاني أربعة عشر، المجموع ألف ومئة، هناك أماكن المجموع فوق الألف، هل تحس حينما تقرأ هذه النشرة الجوية أن هذا من الله عز وجل، ومن فضل الله، وأن هذه الأمطار التي هطلت لا تقدر بثمن، وأنها تحي الأرض بعد موتها، وأن رزقنا معلق بها .

(وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

(سورة النحل : 65)

إن رأيت الأنهار قد ارتفعت نسب الماء فيها بماذا تشعر ؟ هل تحس أن هذا فضل من الله عز وجل .

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ)

الماء لصالح الإنسان بطريق مباشر وغير مباشر :

لكم، خصِّيصى لكم، هذه السحب، وهذه المنخفضات الجوية المتمركزة فوق قبرص، كما تسمعون، وهذه السحب الملبدة بالغيوم، وهذا بخار الماء العالق في الجو، وهذه الرياح التي تسوق السحاب، وهذه العملية المعقدة حينما تصدم سحابة مكهربة بسحابة أخرى ينعقد ماء السماء ذرات لطيفة، هذا هو .

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ)

كيف قال قبل قليل؟

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ)

(سورة النحل : 5)

كيف قال سابقا؟

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

(سورة لقمان : 20)

كيف قال :

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة الجاثية : 13)

كيف قال :

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

(سورة يس : 72)

(فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنْ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

(سورة الشورى : 11)

وهذه مثلها :

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ)

تفكَّروا في هذا الماء العذب الزلال وما فيه من معادن :

نشرب منه، بكم تشتري هذا الكأس إذا مُنِع عنك، سؤال سُئل عنه بعض الملوك، قال : بنصف ملكي، قال : فإذا مُنِع إخراجه، قال: بنصف ملكي الآخر، هذا هو الماء، لو أن الماء نزل ملحاً أجاجاً، كل لتر

منه يكلف في بعض البلاد النفطية ما يعادل أربعاً وعشرين ليرة سورية، فهذه الأمتار المكعبة في كل ثانية عشرون متراً مكعباً، كم يكلف تحليتها؟ لو أنك كُلفت أن تحليها عن طريق التكنولوجيا، كيف ؟

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ)

هذا الماء معدني، يحتاج الإنسان إلى نسب من الفلور قليلة جداً للحفاظ على أسنانه، فيه فلور، فيه كالسيوم فيه يود، فيه مغنيزيوم، لذلك ماء التحلية المقطر لا يصلح للشرب، لا بد من خلطه بمياه الآبار، هذا الماء مدروس، جزء منه يفيد الغدة الدرقية، وجزء يفيد الأسنان، وجزء يفيد العظام، مدروس .

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ)

جعله شفافاً لا لون له، لو كان لونه أحمر كل شيء في الأرض يصبح أحمر، الشجر أحمر، الطبخ أحمر، الصوف، الخيوط، فهو لا لون له، و لا طعم له، لو كان طعمه بطعم ماء الزهر دائماً فسوف تعاف من ماء الزهر مع الزمن ؛ في الشاي ماء زهر، في الطبخ ماء زهر، لا لون له، ولا طعم له، ولا رائحة له، ثم إن تبخره بدرجات دنيا، يتبخر بأربع عشرة درجة مئوية، تنظف البيت فيجفّ بسرعة، تضع ثيابك المبتلة على حبل فسرعان ما تجف، من فضل الله علينا أنه يغلي بدرجة مئة، ويثبت، لو كان مثل الزيت ترتفع درجة غليانه، ومن الصعب أن نستخدمه في الطبخ، لأن الطعام يحترق، لكن درجته ثابتة، غليانه في مئة درجة، يبقى غليانه في هذه الدرجة ثابتا .

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ)

وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ

الشجر هنا هو مطلق النبات :

هنا معنى الشجر، مطلق النبات، الكلأ شجر .

(فِيهِ تُسِيمُونَ)

معنى : تسيمون :

عندما يكون المرعى جيداً يكون موسم الغنم طيبًا، يقال : الحليب رخص سعره، والجبن نزل سعره، لأن المرعى جيد، فمهمّ كثيراً أن يكون المرعى جيداً، إذا كان الموسم في البادية جيداً فهذا يسهم هذا في انخفاض الأسعار .إذاً :

(لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ)

معنى تسيمون ؛ أي ترعون أغنامكم، وأبقاركم، ومواشيكم، وأنعامكم، لذلك يُعد المرعى مهمًّا جداً للحياة .

الآن الأعلاف من أخطر المواد الأساسية في حياتنا، لأن طعامنا مبني على الأعلاف، العلف ليس لنا، بل للحيوانات، ولولا الأعلاف لما نما الدجاج والخراف، والأنعام، إذاً :

(وَمِنْهُ شَجَرٌ)

العلماء قالوا : كلمة شجر تعني مطلق النبات، وهنا السياق يقتضي أن يكون المعنى الكلأ،

(فِيهِ تُسِيمُونَ)

ترعون أغنامكم .

وهذا الماء أيضاً :

(يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ

الزرع المقصود به المحاصيل، القمح، الشعير، العدس، والحمص، والبازلاء، والفول :

(يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ)

أحياناً يكون في موسم الزيتون حجم حبة الزيتون صغيرًا جداً، مطر واحد قبيل قطافه يتضاعف حجم الزيتون، فهذا الزيتون ذكر بعد الزرع لأهميته، لأن الزرع هو الطعام الأساسي، والخبز من الزرع .

(يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ)

يوجد أشجار تعمر آلاف السنوات من الزيتون، قرأت مقالة عن زيت الزيتون، فهو المادة الدسمة التي لا تؤذي الشرايين، هناك كثير من الزيوت المهدرجة، أو سمون ذات نسب عالية من الإشباع، هذه تؤذي، لكن زيت الزيتون يعدّ من أسلم المواد الدسمة، التي لا تؤذي شرايين القلب، ولا تؤذي صماماته.

(يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ)

تحدثنا طويلاً عن النخيل .

(وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

هذه كلها آيات للتفكر والتذكّر :

كأنه ربنا عز وجل أعطانا عناوين للتفكر، هل فكرت في الزرع ؟ هذا الزرع يتم حصاده دفعة واحدة، من آيات الله الكبرى الزيتون، ينضج دفعة واحدة، النخيل ينضج دفعة واحدة، الأعناب

(وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

هناك كما ذكر لي ثلاثة آلاف نوع من التمر، وهناك ثلاثمئة نوع من العنب، وهناك أنواع منوعة من الزيتون، بعضه للمائدة، بعضه للعصير، بعضه ذو حبة كبيرة، بعضه نسب الأسيد فيه مرتفعة، أنواع منوعة، كل مادة الله عز وجل خلقها منوعة .

(وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ

الكواكب من أعظم الآيات لمن يعقل :

أيضاً الليل والنهار، والشمس والقمر آيات دالة على عظمته سبحانه وتعالى، الليل سكن .

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا(10)وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا)

(سورة النبأ : 10 - 11)

في الليل ننام، وفي النهار نعمل، هناك نظام، هناك زمان، أين الزمان لولا الليل والنهار ؟

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا)

(سورة الإسراء : 12)

(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

لو أن الشمس انطفأت فجأة لأصبحت الأرض قبراً جليديا، ثلاثمائة وخمسين درجة تحت الصفر، فمن يستطيع أن يجعل ضوءًا للأرض كلها ؟ إذا كان عندك بيت بخمس غرف وصالون، تحتاج كل غرفة إلى خمسة قضبان نيون تقريباً، أما الشمس فنجم واحد يضيء الأرض كلها، ومدفئة واحدة للأرض كلها، وتقويم واحد، مصباح واحد، وصيدلية واحدة، الشمس مطهرة، مدفئة، ومصباح، وتقويم، وصيدلية للأرض كلها

(وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

القمر تقويم شهري، الشمس تقويم يومي، شروق الشمس تعرف به وقت الشروق، والضحى، والظهيرة، والعصر، والمغرب، أما القمر فتقويم شهري، الشمس تقويم يومي، والقمر تقويم شهري .

(وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ)

نهتدي بها في ظلمات البر والبحر، قال تعالى :

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

(سورة النحل : 16)

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

إذا أراد الإنسان أن يفكر في ملكوت السماوات والأرض، وصلى الصبح في وقته، وأراد أن يجلس ليفكر في هذه الآيات العظيمة، ليجعلْ من هذه الموضوعات التي ساقها الله له في هذه السورة موضوعات للتفكير، يجلس يفكر في القمر يومًا ويومين، حتى يحس أن هذه الآية تركت أثراً بليغاً في نفسه، في الفترة الثانية فكر في الشمس، بعد ذلك في الليل، في النهار، في النجوم، وإذا عاد قبل هذه الآيات فالزرع، والزيتون، والنخيل، والأعناب، والماء، هذه سورة النحل سورة النِعم .

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ(4)وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(5)وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ(6)وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ(7)وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل : 4 - 8)

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ(10)يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(11)وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

الإنسان إذا أكرمك، قدم لك شيئاً، أول مرة تقول له: شكراً، المرة الثانية تخجل، كلما تتالت النعم فلا بد من أن تشعر بالفضل، وأن يلهج لسانك بالشكر، فهذه الآيات ألا تؤثر فيك؟

(وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ

ما خلق لكم في الأرض، من مخلوقات، من حيوانات ، من نباتات، من أشجار، من أطيار، من أسماك، من جبال، من رخام ، من معادن، من أشباه معادن .

(وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ)

هذه الأرض كلها خيرات، وكلها مواد، وكلها نعم، وما على الإنسان إلا أن يشكر، لذلك ربنا عز وجل يقول :

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر : 66)

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الأعراف : 144)

(وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ(13)وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا

عالَم الأسماك من أعجب العوالِم :

هذه الأسماك التي خلقها الله في البحر كم نوعها؟ بعضهم قال: مليون نوع، تبدأ من سمك تراه في بعض الأحواض صغيرة جداً، وجميلة، بعضها فسفوري، بعضها شفاف، بعضها أسود فاحم، بعضها مزين ملون مزخرف، بعضها لها ذيل طويل، لها زعانف ملونة ، وتنتهي بالحيتان، وزنه مئة وثلاثون طناً، هل مئة وثلاثون طناً قليل؟ فيه من الدهن خمسون طناً، لحمه خمسون طناً، أحشاؤه ثلاثون طناً، فيه تسعون برميلاً زيتاً يخرج منه، رضعته الواحدة ثلاثمئة كيلو، الحيتان ترضع، طبعاً أولادها، كل رضعه ثلاثمئة كيلو، ثلاث رضعات بالنهار ألف كيلو ، تحدث أزمة حليب، هذا هو الحوت .

هناك سمك عريض، هناك سمك متوحش، هناك سمك صغير، وسمك لا يكبر كالسردين، وسمك ذو طعم طيب، مليون نوع من السمك في البحر .

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

تفسير : يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

من أبسط التفسيرات لقوله تعالى :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة النحل : 93)

يهدي قوماً اختاروا الهدى، ويضل قوماً اختاروا الضلال، الإنسان مخير . ولها تفسير آخر :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

آية محكمة فسرها الله في آيات كثيرة :

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص : 50)

(سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة المنافقون : 6)

(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف : 52)

ربنا عز وجل بإيجاز قال :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

هذه المشيئة وضّحها، الفاسق لا أهديه، والظالم لا أهديه، والخائن لا أهديه، فإما أن تفهم قوله تعالى :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

أي من أراد الضلالة أضله الله، ومن أراد الهدى هداه الله، أو أن تفهم أن هذه الآية أجملت وفُصِّلت في مكان آخر :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة المنافقون)

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

أو أن تفسر الضلال بأن الله يضل عن شركائه، يهدي إلى ذاته، ويضل عن شركائه، أو تفسر الضلال بمعنى الجزاء .

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف : الآية 5)

أو تفسر الضلال أن الإنسان قد يرفض هداية الله عز وجل، يرفضها كلياً، فكيف يهديه الله ؟ هذا الذي تحب أن ترشده إلى الطريق الصحيح يقول لك : أنا لا أثق بك، لا أريد أي شيء من كلامك، فهذا يضله الله عز وجل، فالله عز وجل قال :

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف : الآية 180)

حتى اسم الضال هذا من أسماء الله الحسنى، إذا تأمله الإنسان، وتتعبه من خلال الآيات، وأراد أن يحمله على المعاني الصحيحة التي تليق بالله سبحانه وتعالى، وتتناسب مع كماله فإنه حينما يقرأ كلمة يضل من يشاء، ويهدي من يشاء تقع هذه الآية على قلبه برداً وسلاماً، أما بعض المشككين فيقولون: فلان ضال، الله أضله .. هكذا من دون تعليل، من دون تفسير، من دون توجيه، من دون فهم عميق .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ مِنْ حُسْنِ عِبَادَةِ اللَّهِ))

[أخرجه الترمذي]

حسن الظن بالله ثمن الجنة، وربنا عز وجل يضل ليهدي، في اسم الضار النافع، المانع الجامع، الخافض الرافع، المعز المذل، وعلماء التوحيد يلزموننا أن نذكر المعز مع المذل، والمعطي مع المانع، والرافع مع الخافض، و الضار مع النافع، والمضل مع الهادي، لأنه يضلك عن شهواتك ليهديك إليه، ويضرك لينفعك :

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

[الديلمي في الفردوس عن ابن عمر]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (04-21): تفسير الآيات 10 – 18 ، عن التفكر في نعم الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-02-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

ثم جاءت الآيات الكونية بعد هذه الآية تترى؛ أي تتابع، فقال تعالى :

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ(10)يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(11)وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(12)وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ(13)وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(14)وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(15)وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ(16)أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(17)وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ(18) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

علاقة هذه الآيات بالآية قبلها :

سؤال : الآن هل من علاقة بين قوله تعالى :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة النحل)

وبين هذه الآيات الكونية المتتابعة، قال تعالى يصف كتابه الكريم :

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)

(سورة هود : 1)

معنى أحكمت ؛ أي ترابطت، فالذي يتأمل في آيات القرآن الكريم لا شك أنه يؤمن أن بين الآيات التي تبدو منقطعة عن بعضها، لا بد أن يكون بين هذه الآيات ارتباط بنوع أو بآخر، فما هي العلاقة بين هذه الآيات وبين قوله تعالى :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة النحل)

الآيات الكونية طريق موصِل إلى الله :

أغلب الظن أن الله سبحانه وتعالى حينما قال: عليّ يا عبادي أن أبين لكم الطريق إليّ، عليّ دائماً وأبداً، في كل مكان، وفي كل زمان، وفي كل وقت، وفي كل عصر، وفي كل مصر، وفي كل حين، لا بد من أن يكون الطريق سالكاً إليّ، لا بد من أن يكون الطريق مستقيماً، وموصلاً إليّ، لا بد من طريقٍ إلى الله واضح المعالم، مستقيم الوجهة، واضح الهدف، يفضي إلى الله سبحانه وتعالى .

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا)

(سورة المزمل : 19)

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

من معالم هذه الطريق كما بينت لكم في الدرس الماضي، من معالم الطريق إنزال الكتب، من معالم الطريق إرسال الأنبياء، من معالم الطريق نصب هذه الآيات الكونية الدالة على عظمته، من معالم الطريق الشدائد التي يسوقها الله سبحانه وتعالى للناس في بعض الأحيان، من معالم الطريق هذه الآيات الدالة على عظمته .

إذاً: حينما قال الله سبحانه وتعالى :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة النحل)

هذه هي معالم الطريق، معالم الطريق أن تتأمل في هذه الآيات التي ما خلقها الله سبحانه وتعالى إلا لتكون دليلاً عليه، ما خلق ذلك إلا بالحق، كيف أن كلمة الحق تعني أنه هناك هدفًا مستقرًّا، هناك هدف مستقر وراء خلق السماوات والأرض .

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

إنك إذا أردت أن تفكر في آيات الله، خذ هذه الآيات التي ذكرها الله في كتابه، أولاً هو ما ذكر التفصيلات .

ربنا سبحانه وتعالى قال :

(اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)

ترك لك أن تفكر في الليل والنهار، ثم قال :

(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

ترك لك أن تفكر في الشمس والقمر، هذه عنوانات للآيات يطول البحث فيها، كما يطول الحديث عنها، هذه تركت لك أيها الأخ الكريم .

فربنا عز وجل قال :

(هُوَ)

هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً

لا أدري ما إذا كان هناك من يتذوق كلمة (هو)، قد تقرأ أن منخفضاً جوياً يتجه نحو البلاد، هل ترى أنه (هو) الذي ساقه إلينا؟ قد تقرأ أن نسب الأمطار في الأربع والعشرين ساعة الماضية بلغت سبعين ميليمتراً في المكان الفلاني، هل تشعر أنه (هو) خالق الكون الذي ساق هذا المنخفَض، وجعله ينزل في هذا المكان بالذات ؟

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً)

في آيات أخرى يقول الله سبحانه وتعالى :

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة الأنبياء : 30)

الماء حياة الإنسان :

حياة البشر، وحياة النبات، وحياة الحيوان بهذا الماء الذي أنزله الله علينا من السماء .

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً)

ولا بد من أن تتذوق أيضاً كلمة (لكم)، لم تستفد منه عرضاً، لم ينزل لغيرك فاستفدت منه، صمم الماء خصِّيصى لك أيها الإنسان .

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً)

هذه اللام في اللغة العربية للاختصاص، تقول : هذا الكتاب لي، أي لي وحدي، فربنا عز وجل قال :

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ)

(سورة النحل : 10)

في معرض تبيان فوائد المياه قال :

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ)

في النـهاية الماء للإنسان ولو استهلكه الحيوان والنبات :

لماذا لم يقل : أنزل من السماء ماء منه شراب لكم؟ الماء كله لكم، ولو سقى النبات فهو لكم، ولو شرب منه الحيوان فهو لكم، لأنك ستأكل الحيوان الذي يأكل النبات، فالماء الذي ينبت النبات، والنبات الذي يأكله الحيوان، هو في النهاية لك، إذاً الماء كله، ولو سقى الأرض، ولو نبت به الزرع، ولو نبت به الكلأ، لو شربه الحيوان، في المحصلة والنهاية الماء لكم .

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ)

إن هذا الماء العذب الفرات، من هيّأه لنا لنشربه؟ البحار كلها ماء ملح أجاج، وكم من قصة قرأناها أو سمعناها عن أناس غرقت سفينتهم فاستخدموا قارباً للنجاة، وماتوا عطشاً، وهم على سطح البحر، لو أن الماء كان ملحاً أجاجاً، كيف نشربه؟ كيف قطر الله لنا هذا الماء بلا مقابل؟ هذا الماء :

(لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ)

لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ

أغلب العلماء في هذه الآية على أنها تعني مطلق النبات، أو الكلأ، أو النبات الذي تأكله الأنعام،

(لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ)

معمى : تُسِيمُون :

تسيمون أي ترعون، إنكم ترعون أنعامكم بالكلأ الذي ينبت بسبب الماء، علاقة مركبة، من أجل أن تأكل الأنعام لا بد من أن تأكل الأنعام كلأ، ومن أجل أن ينبت الكلأ لا بد من أن تسقى الأرض بماء المطر، إذاً ماء المطر الذي أنبت الكلأ الذي أكله الحيوان، الذي أكلته أنت، هذه النعم كلها لك .

شيء آخر :

(يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ)

يُنْبتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ

الزرع للأنعام :

بدأ ربنا عز وجل بالأنعام التي تأكل الكلأ، وهذه في رأس قائمة الغذاء، الفقهاء حينما تحدثوا عن الأغذية الأساسية التي ينبغي أن تكون متوافرة تحدثوا عن اللحم، فالله سبحانه وتعالى بدأ بالأنعام التي هي قوام غذائنا .

(يُنْبتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ)

الزرع محاصيل غذاء الإنسان :

الزرع، المحاصيل كالقمح، والشعير، والحمص، والعدس، والبازلاء، والفاصولياء، والفول، هذه كلها محاصيل تعد غذاءً أساساً، وقد يستطيع الإنسان تحصيل نصيبه من البروتين عن طريق هذه المحاصيل.

(يُنْبتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ)

المقصود بالزرع المحاصيل .

(وَالزَّيْتُونَ)

الزيتون :

هو الإدام، لأن الزيت أيضاً قوام الغذاء .

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ))

[أخرجه الترمذي]

(وَالنَّخِيلَ)

النخيل :

ثم ينتقل الله سبحانه وتعالى إلى ما يؤكل كحلوى، النخيل يعد غذاءً أساساً، ويعد حلوى، إذا أكلته بعد الغذاء فهو حلوى، إذا اكتفيت به فهو غذاء .

(وَالْأَعْنَابَ)

الأعناب :

حلوى فقط، زرع المحاصيل والإدام، ثم شجر تؤكل ثمارُه غذاء، وتؤكل كحلوى، ثم الأشجار التي يتفكه الإنسان بثمارها كالأعناب، ثم يطلق الله سبحانه وتعالى الأمر على أوسع أبواب هذه النعم فيقول :

(وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)

وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ :

كلما وقعت عينك على ثمرة، اشتريتها، أو أكلتها، أو قدمت لك، أو نظرت إليها وهي عند البائع، اعرف معرفة يقينية أن الله سبحانه وتعالى هو الذي تفضل وأنبتها .

(إنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

لماذا كلُّ هذه الآيات الكونية ؟

إنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

قد يسألني سائل: إذا كانت هذه الآيات معالم الطريق إلى الله سبحانه وتعالى، كيف نفكر فيها ؟ هكذا قد يسألني سائل : كأنك تقول فكروا في هذه الآيات، تأملوا بها، كيف نفكر فيها؟ كيف نتأمل بها ؟

من منهج التفكر النظر في الشيء وعدمه :

بعضهم قال: من منهج التفكير في هذه الآيات أن تفكر في الشيء وعدمه، لو لم يكن موجوداً، وأن تفكر في الشيء وأصله، وأن تفكر في الشيء وخلاف ما هو عليه، إذا اتخذت هذا المنهج يبدو لك التفكير أمراً يسيراً، فهذا الماء أصله من أين؟ هذا الماء الذي نشربه الذي أنزله الله من السماء، أصله من البحار، البحار مالحة، كيف تمت تصفيته ؟ كيف سلط الله أشعة الشمس على البحر؟ كيف أعطي

الماء إمكانية التبخر بدرجات اعتيادية؟ كيف أمكن للهواء أن يحمل ذرات بخار الماء؟ كيف سلطت الشمس على البحار؟ كيف تبخر الماء بدرجات دنيا؟ كيف أمكن للهواء أن يحمل ذرات الماء؟ كيف أمكن لبخار الماء أن يتصاعد للسماء؟ كيف تشكل سحباً؟ كيف تحركت هذه السحب ؟ كيف شحنت بعض السحب شحنات سلبية، وبعضها شحنات إيجابية؟ كيف حصل الاحتكاك؟ ثم كيف عصرت هذه السحب؟ قال تعالى :

(وَأَنْزَلْنَا مِنْ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا)

(سورة النبأ : 14)

إذا فكرت في أصل الماء، وإذا فكرت في حياتنا من دون ماء، وإذا فكرت في صفاتٍ للماء غير الصفات التي هي عليه، لو أن للماء طعماً، لو أن له رائحة، لو أن له لُزوجة، لو أن سريانه في المسام ضعيف، لو أنه تبخر بدرجة مئة، لا بالدرجة أربع عشرة، لو أن الماء لا يتمدد إذا تبرد، من منا يصدق أن حياة البشر، وحياة الحيوان، وحياة النبات متوقفة على خاصة واحدة للماء؟ إذا كان الماء يغلي، ثم بردته فإنه ينكمش، وينكمش، وينكمش، إلى الدرجة زائد أربع، عندها يزداد حجمه، وتقل كثافته، لولا هذه الصفة لما كنا نحن في هذا المسجد، لولا أن الماء إذا بردته زاد حجمه، وقلّت كثافته لما كنا في هذا المسجد، لماذا؟ لأن طبقات البحار العليا إذا تجمدت، لو أنها انكمشت وزادت كثافتها لغرقت في الماء، فكلما غرقت طبقة متجمدة تجمدت طبقة أعلى منها، إلى أن تصبح البحار كلها متجمدة، عندئذ ينعدم التبخر، وبانعدام التبخر تنعدم الأمطار، وبانعدام الأمطار ينعدم النبات، وبانعدام النبات ينعدم الحيوان وبانعدام الحيوان يموت الإنسان، فإذا فكرت في الماء ففكِّرْ في أصله، وفكّر في حياةٍ من دون ماء، وفكّر في خلاف ما هو عليه الماء .

موضوعات كثيرة يجب التفكر فيها :

أتمنى عليكم أن تأخذوا بعض الموضوعات الكبرى للتفكر، الماء موضوع كبير، الهواء موضوع كبير، مبدأ النبات، أن تنبت الأرض نباتاً، هذه البذرة تأتيها رطوبة، يشق غلافها، ينمو رشيمها منها، لها سويق، وينمو لها وريقة، وتتغذى على ما في البذرة من مواد إلى أن تنضب البذرة، عندئذ يأخذ هذا النبات حظه من الغذاء عن طريق التربة، النبات ظاهرة تلفت النظر، أي أنواع النبات، الحشائش، والمراعي، والمزروعات، والمحاصيل، والبساتين، والأشجار المثمرة، والخضراوات، والغابات الكبيرة، والأشجار العملاقة، وأشجار الزينة والورود، والرياحين، والحشائش الطبية، كل أنواع النباتات آية كبرى على عظمته، تصور حياة بلا نبات، ماذا نأكل ؟ تصور نباتًا لا ينتج بذوراً، كيف نعيد زراعته ؟ تصور الحياة من دون هذا الشيء، تصور الشيء على خلاف ما هو عليه، تصور أصل

الشيء، من منكم أكل التين ؟ كم بذرة في هذه الثمرة، شعورك أنه يوجد طعم خشن، هذه كلها بذور، لا يعلم إلا الله كم في ثمرة التين من بذور، كل بذرة من هذه البذور يمكن أن تكون شجرة للتين .

إذاً :

(يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

إذا أردت التفكر في آيات الله فهذه هي الموضوعات، وهذا هو المنهج، اتبع المنهج وتفكر في هذه الموضوعات، موضوع الماء، موضوع النبات، موضوع المراعي .

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى(1)الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى(2)وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى(3)وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى)

(سورة الأعلى : 1 - 4)

ارتفاع الأسعار بسبب المعاصي وانخفاضها بسبب الطاعة :

يقول قائل : لقد رخص الجبن، ما السبب؟ السبب أن الموسم طيِّب في البادية، توالَدَ الغنم وكثر، وكثر بالتالي الحليب، من الذي جعل الأسعار تنخفض ؟ طبعاً هناك حديث شريف يقول عن التسعير، عَنْ أَنَسٍ قَالَ :

((غَلَا السِّعْرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، سَعِّرْ لَنَا، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ، الْقَابِضُ الْبَاسِطُ، الرَّزَّاقُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى رَبِّي وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَطْلُبُنِي بِمَظْلِمَةٍ فِي دَمٍ وَلَا مَالٍ))

[الترمذي، أبو داود، ابن ماجه، أحمد]

بمعنى أن الله سبحانه وتعالى إذا تفضل علينا بسنة خصيبة، ومرعى خصيب، تزداد الأغنام، ويزداد نتاجها، وتنخفض الأسعار، إذاً ربنا سبحانه وتعالى أرادنا أن نفكر في هذه الآيات :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة النحل : 11)

ويتابع الله سبحانه وتعالى بقية الآيات :

(وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

(سورة النحل : 12)

وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ

علاقة النبات بالليل والنهار والشمس والقمر :

هناك علاقة بين إنبات النبات والليل والنهار، هذه العلاقة لا يتسع هذا الدرس إلى بسطها، وهناك علاقة بين إنبات النبات والشمس والقمر .

قد يسأل سائل: كيف جاءت آية الليل والنهار والشمس والقمر بين آيات الزرع، والزيتون، والنخيل، والأعناب ومن كل الثمرات، وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا، نحن في الأرض، لماذا انتقلنا إلى السماء، نحن في الأرض :

(يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(11)وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)

نظام الليل والنهار :

نظام الليل والنهار أن تكون الأرض كرة، وأن تكون بالحجم المناسب، وأن تدور حول نفسها، وأن يكون محورها مائلاً، من ميل المحور تنشأ الفصول، ومن دورانها على محورٍ شبه متعامد مع مستوى دورانها حول الشمس ينشأ الليل والنهار متعاقبين .

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

(سورة فصلت : 37)

لو أن محورها متوازٍ مع مستوى دورانها لكان هناك ليل ونهار، ولكنهما ثابتان، ليل إلى الأبد، ونهار إلى الأبد .

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ)

(سورة القصص : 71)

لو أن الأرض وقفت، ولم تَدُرْ حول نفسها لكان هناك ليل ونهار، ولكن ليل سرمدي، ونهار سرمدي، أو أن الإنسان اضطر أن يهاجر في كل عام مرتين، من نصف الكرة إلى نصف الكرة، وفي هذا مشقة كبيرة، لو أن الأرض وقفت، لو أنها دارت على محور متوازٍ مع مستوى دورانها حول الشمس، دارت هكذا، والشمس من هنا، لكان هناك ليل ونهار، ولكن هذا الليل سرمدي والنهار سرمدي .

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ)

(سورة يونس : 6)

تعاقب الليل والنهار آية عظيمة :

الآية في الليل والنهار وفي اختلافهما، ومعنى اختلاف الليل والنهار أي : إن النهار يعقب الليل، والليل يعقب النهار، وهذه آية كبرى، وأنت في بلدك يأتيك النهار، ثم يأتيك الليل في الليل، فتستريح، وفي النهار تعمل، لو أن دورة الأرض حول نفسها كانت سريعة جداً لكان الليل ساعة والنهار ساعة، ما تفعل بهذه الساعة ؟ تستيقظ لتأكل طعام الصباح، وتنتقل إلى العمل، جاء الليل، ماذا تفعل ؟ تعود إلى البيت من أجل أن تأخذ قسطاً من الراحة، يأتي الصباح ! لكن سرعة دوران الأرض حول نفسها سرعة معقولة، اثنتا عشرة ساعة، تأكل، وتنتقل إلى عملك، وتبذل جهداً يستنفذ طاقتك، وتعود بعدها إلى البيت، عندئذ تغيب الشمس، إذاً الليل والنهار آية، دورة الأرض حول نفسها، دورتها حول محور شبه عمودي مع مستوى الدوران، دورتها حول محور مائل، لو لم يكن هذا المحور مائلاً لكانت هذه المنطقة صيفاً سرمدياً، وهذه المنطقة شتاء سرمدياً، وهذه المنطقة ربيعاً سرمدياً، لكن ميل المحور حينما تدور الأرض حول الشمس، بمحور مائل تنتقل عامودية الشمس من منطقة إلى أخرى، تختلف أوضاع الأرض بالنسبة للشمس، عندئذ يكون الصيف والشتاء .

(وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

فمن أجل أن تستطيع التأمل والتفكر في هذه الآيات تصور حياتنا من دون ليل أبداً، نهار سرمدي، أو تخيل أن حياتنا على وجه الأرض ليل سرمدي، ماذا تفعل؟ الآن تصور الشيء وعدمَه، تصور الشيء وخلافَ ما هو عليه، النهار ساعة، الليل ساعة، النهار ستة أشهر، كما هي الحال في القطب، ستة أشهر، إذا طال على إنسان الليل لا يأتي الصباح إلا بشق الأنفس، فإذا كان الليل ستة أشهر ماذا نفعل ؟

(وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

الشمس ، المصباح المنير :

والشمس هذا المصباح المنير ينير كل الأرض، هذه المدفأة المثالية لكل الأرض، هذا الدواء الناجح لكل الأرض، هذه الساعة اليومية لكل الأرض، مصباح، ومدفأة، ودواء، وساعة لكل الأرض، تخيل الحياة من دون الشمس، تنقلب الأرض إلى قبر جليدي، تهبط فيه الحرارة إلى ثلاثمئة وخمسين درجة تحت الصفر .

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

(سورة فصلت : 37)

مَن جعل الشمس مناراً؟ من نصبها ديناراً؟ من علقها بالجو ساعة؟ يدب عقربها إلى قيام الساعة، من ؟

(وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ)

النجوم ، التقويم اليومي :

عندنا تقويم يومي، القمر تقويم شهري، والشمس ساعة يومية، والبروج تقويم سنوي، في كل شهر تمر الأرض على برج في السماء، في شهر كانون الثاني البرج الفلاني، شباط البرج الفلاني، قال تعالى :

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

(سورة البروج : 1)

إنه تقويم يكلّف آلاف المجرات، مجرات كلها من أجل أن يكون لك تقويم، الشمس ساعة يومية، والقمر تقويم شهري .

مسار الأرض حول الشمس تقويم سنوي، تعرف في كل وقت أين أنت من السنة،

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

(سورة البروج : 1)

(وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ)

والإنسان في الليل كيف يهتدي إلى طريقه ؟ عن طريق النجم، مَن جعل هذا النجم نجم القطب في مكانه ثابتاً ؟ دائماً نحو الشمال، حيثما رأيته، واتجهت إلى سَمْته فأنت باتجاه الشمال، نجم القطب والدب الأكبر، والدب الأصغر، وما إلى ذلك .

(وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

هنا سؤال: لماذا في القسم الأول :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

وفي القسم الثاني :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

مرتبة الفكر ومرتبة العقل :

المرتبة الأولى : مرتبة التفكر، مرتبة التفكر محصلتها قناعة أن هذا الكون لا بد له من خالق .
المرتبة الثانية : مرتبة العقل، هذه المرتبة تعني أنك إذا تابعت التفكير، وأطلت أمده، وتعمقت فيه تنقلب هذه الحقائق من مستوى الفكر إلى مستوى القلب، قال تعالى :

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ)

(سورة الأعراف)

فالقلب مكان المشاهدة، الرؤية القلبية، بعد الرؤية لا كفر ولا زيغ، ولا انحراف، ولا نكسة، فلذلك مرتبة العقل أعلى من مرتبة الفكر، تفكر فتعقل .

(وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ)

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ

سبحان الله! هذه الآية قلَّ مَنْ يعرف قدْرها :

(مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ)

نعمة اللون :

نعمة اللون لا يعرفها الناس إلا إذا فقدوها، لو أن لون الثمرة بلون الورقة، لو أن التفاح مثلاً لونه كلون أوراقه تماماً، تقطف نصف الثمر، ويبقى نصف الثمر الآخر على أمه، ولا تراه، ولكن اختلاف اللون، أصفر فاقع، والورق أخضر داكن، تهتدي إلى التفاح من لونه، وهذه تفاحة ذات طعم معين، لأن لونها أصفر، وهذه ذات طعم آخر، لأن لها لون أحمر، فقال العلماء : اختلاف الألوان دليلٌ على اختلاف الأنواع، الحديد له لون، النحاس له لون، القصدير له لون، الرصاص له لون، الكبريت له لون، اختلاف الألوان تهتدي به إلى اختلاف الأنواع، حتى الحديد له ألوان عديدة، له ألوان بعدد أنواعه، وبعدد مصادره، الحديد ليس نظامياً، ما هو الدليل ؟ مِن لونه، الذي تصنع المؤسسة له لون خاص، من مصدر، من دولة، وهذا له لون خاص، إذاً باللون تعرف كل شيء، تعرف صحة الإنسان من لونه أحياناً، تعرف نضج الفاكهة من لونها، تعرف أن هذه الثمرة يانعة من لونها، اللون علامة النضج .

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

(سورة الأنعام : 141)

متى يثمر؟ متى ينضج؟ من غيَّر لونه؟

إذاً : وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ)

معنى ما ذرأ لكم ؛ أي ما خلق لكم .

(فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ)

الأزهار كم من لون ؟ هذا النوع من الزهر منه أبيض، ومنه أحمر داكن، ومنه زهر، ومنه أصفر، كل إنسان يميل إلى شيء، الوردة الواحدة ألوان، اللون الواحد أنواع، النوع الواحد درجات، العين الإنسانية تفرق بين 800 ألف لون أخضر، فإذا أمكن أن ندرج اللون الأخضر 800 ألف درجة فالعين البشرية السليمة الصحيحة المدربة تستطيع أن تفرق بين لونين من هذه الألوان 800 ألف !

(وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ)

ونحن لو التقطت لنا صورة لَظَهَرْنَا في الصورة جميعاً بلون واحد، لأن آلة التصوير عاجزة عن إعطاء الفروق الدقيقة بين الألوان، ولكن العين المجردة إذا نظرت إلى طلاب في صف، أو إلى أناس مجتمعين في مكان لوجدت أن هناك ألواناً تعلو جباههم بعددهم، كل إنسان له لون، وهذا من فضل الله على الإنسان، والإنسان فرد لا يتعدد .

(وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ)

الخشب ألوان، لون الخشب المشمش لون جميل، يشبه لون اللحم، لو وضعت اللحم على خشب جوز لما كان هناك قابلية لتناوله، لون خشب المشمش له لون جميل، خشب التوت له لون، خشب الزان له لون، خشب الشوح له لون، السنديان له لون، خشب كل شجرة لون .

كل فاكهة لها لون، الفاكهة الواحدة ألوان، العنب كم من لون ؟ عنب أسود، وعنب بلدي أصفر، وعنب أخضر، وعنب متطاول، ألوان وأشكال، وطعوم، ونكهات، فصار اللون دليلاً اختلاف الأنواع، واختلاف الدرجات، واختلاف النضج

(وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

مرتبة التذكُّر :

هذا الذي فكر، ثم عقل، كلما وقعت عينه على شيء تذكر بالمعرفة التي حصّلها، دائماً هو ذاكر .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)

(سورة الأحزاب : 41)

التذكر درجة عالية، باعتبار فكرٍ سابق وعقل، كلما وقعت عينه على شيء تذكّرَ فضل الله، تذكّر رحمة الله، تذكّر حكمة الله، تذكّر لطف الله :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

الآن أكثر التحاليل الطبية عن طريق اللون، يعطي مادة لهذا المفرز مثلاً، يتغير لونها، إذاً يوجد معه سكر .

حتى علم الفلك مبني على اللون، أبعاد النجوم كلها عن طريق التحليل الضوئي، الطيف، طيف الشمس، نعرف من طيف الشمس مكوناتها، ومعادنها، وبعدها عنا، وحركتها، وسرعتها، علم قائم بذاته عن طريق اللون، فكلما تعمقت في اللون وجدت أن اللون نعمة من نعم الله الكبرى، لذلك الصورة الملونة أجمل بكثير من الصورة غير الملونة، ولا يعرف هذا إلا من يعمل في المطابع، يقول لك : فرز الألوان عملية معقدة جداً، ثم تحميض الصورة، ثم صنع لوائح لكل لون، فإذا انزلق اللون قليلاً شوهت الصورة، شيء دقيق جداً .

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا)

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا

البحر أربعة أخماس اليابسة :

هذا البحر أربعة أخماس اليابسة، عمقه في خليج مريانة في المحيط الهادي اثنا عشر ألف متر، بعض العلماء قال : لو أن كرة قطرها متر، وأردنا أن نمثل عليها أعلى ارتفاع على سطح الأرض، وأعلى انخفاض بالبحر، لما أمكننا أن يكون هذا التمثيل بسنتمتر واحد، أعلى منطقة بالأرض تشكل نصف سنتيمتر، وأعمق نقطة بالبحر تشكل نصف سنتيمتر آخر، إذا أخذنا كرة قطرها متر لنمثل عليها أعلى نقطة، وأقل نقطة .

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ)

لكن البحر مسخر لنا، لو أنه هاج وماج لقضى علينا .

لو أن الكتلة الثلجية في القطبيين ذابت، لو أن انفجاراً حصل في الشمس فأذاب الكتل الجليدية في القطب الشمالي والجنوبي لارتفع البحر تسعين متراً، فغمر معظم المدن الساحلية، وكثيراً من المدن

الجبلية ! تصور إذا ارتفع البحر تسعين متراً، إلى أين يصل؟ يأكل مجموعة كبيرة من القرى والمدن على ساحل البحر، فربنا عز وجل سخره لنا، إلا إذا كان الذين يركبونه في ضلال مبين، عندئذ يريهم الله آياته عن طريق موج البحر، موج كالجبال .

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا)

الفائدة من طراوة لحم السمك :

هنا العلماء استنبطوا أن لحم السمك طري، إذا يجب أن يؤكل فوراً، لذلك هناك فرق كبير بين سعر السمك المثلج والسمك الطازج، وقد يسأل سائل : لِمَ هذا الفرق الكبير ؟ سبحان الله ! أكلُ السمك بعد أمد طويل من صيده لا طعم له، أما إذا أُكِل طازجاً فإن له طعماً عجيباً، من هنا أشارت هذه الآية إلى ذلك، لأنه طري، يجب أن يؤكل فوراً، أما كيف يؤكل طرياً ؟ هذا موضوع آخر .

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا)

وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا

ما هو اللؤلؤ ؟ هذا المحار يوجد في داخله حيوان، إذا دخل إلى المحار جسم غريب كيف يدافع المحار عن نفسه ؟ يفرز مادة كلسيه فسفورية، إلى أن تصبح هذه المادة على شكل كرة، هذه الكرة هي حبة اللؤلؤ، لكن هذا التفسير يبعدنا عن روح القرآن الكريم، الحيوان لم يفرز هذه المادة ليدافع بها عن نفسه، بل فرزها مسخرة من قبل الله عز وجل كي تكون لؤلؤة نتزين بها، فهذا الحيوان مسخر، لذلك صيادو اللؤلؤ يغوصون في أعماق البحار ، ويستخرجون هذه المحارات، ويفتحونها، من كل مئة محارة يجدون لؤلؤة واحدة، لهذا السبب اللؤلؤ غالي الثمن .

هذا الحبل مثلاً ثمنه ثلاثون ألفاً، بعض المختصين باستخراج اللؤلؤ خطر لهم خاطر، أن يأخذوا المحارات ويفتحوها، ويضعون فيها حبة من الرمل الصغيرة جداً، ثم يعيدونها إلى البحار، عن طريق صناديق، لها فتحات كبيرة، وهذه الصناديق مربوطة بحبال إلى السفن، يحركها من مكان إلى مكان، وبعد حين من الزمن، يستخرجون هذه الصناديق، فيفتحون المحارات فإذا بها لؤلؤة، لكن هذه اللؤلؤة سموها: " لؤلؤاً مزروعاً "، اللؤلؤ المصنوع غير المزروع، غير الطبيعي، الطبيعي إذا أخذوا محاراً من قاع البحر، وعثروا فيه على لؤلؤة، فهذا أغلى أنواع اللؤلؤ، أما إذا وضعوا بالمحارة حبة رمل، هذا اللؤلؤ أقل ثمناً بكثير من الطبيعي، لأن فيه سواداً، لأن اللؤلؤ شفاف تقريباً، لونه صدفي فسفوري

شفاف، أما المزروع ففيه نقطة سوداء، هذه التي تخفض من ثمنه، أما اللؤلؤ المطبوخ طبخاً فهذا ثمن الحبة رخيص جداً (بلاتين) .

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا)

مَن يلبس الحليّ ؟

هناك سؤال: من يلبس الحلي ؟ النساء أم الرجال ؟ في الآية الرجال، هل رأيتم إنساناً وضع حبلَ لؤلؤ؟ ذهب إلى عمله وهو واضع حبل لؤلؤ على صدره؟ ليس هذا وارداً، فلمَ لمْ يقل الله عز وجل : وتستخرجوا منه حلية تُلبسونها نساءكم، أو تستخرجوا حلية لنسائكم تلبسنها ؟ قال تعالى :

(وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا)

أكثر المفسرين في هذه الآية على أن هذا الحلي التي تستخرج من البحار، وتتزين بها النساء من أجل الرجال، فالفائدة في النهاية تعود للرجال .

بعضهم قال: لشدة المخالطة بين الرجال والنساء، فأقرب إنسان للرجل زوجته، لشدة المخالطة، وكأنه هو يرتدي هذا الحلي، أو كأن الفائدة تعود إليه بهذه الزينة .

وهناك رأي آخر، لأن الله عز وجل أمر النساء بالحجاب، فلا ينبغي أن يذكر النساء في القرآن الكريم وهن متحليات باللؤلؤ، هذا يتنافى مع منطوق كتاب الله، فأخفى موضوع النساء، وقال :

(وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا)

وهناك شيء آخر :

(وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ)

وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ

أين نظرية أرخميدس من نص القرآن ؟

هذه دافعة أرخميدس، إياكم أن تظنوا أن أرخميدس له الفضل فيها، الفضل لله عز وجل، اكتشف أرخميدس أن في الماء قوة نحو الأعلى، جربها ؛ املأ دلواً من الماء، إذا كان عندك بحرة بالبيت، ثم اغمس هذا الدلو المملوء ماء في هذه البحرة، تحس أنه ذهب نصف وزنه، أين ذهب وزنه ؟ في الماء قوة نحو الأعلى، لولا هذه القوة لما أمكن أن يكون البحر طريقاً دولياً بين القارات، أن تكون على البحر سفينة من خشب، أو من حديد، الآن أحدث باخرة مليون طن ! ألف ألف !! كنت أسمع ثلاثمئة ألف طن،

أربعمئة ألف طن، بالسبعينيات سبعمئة ألف طن، بالثمانينيات مليون طن، مليون طن من البترول تمخر عباب البحر !! لو أردنا أن نعمل طريقاً بين أمريكا وبين اليابان كم يكلف الطريق ؟ سمعت عن جسر، طريق بري بين دولتين عربيتين، إحداهما في البحر، البحرين والسعودية، سمعت أنه كلف ثلاثة آلاف مليون ريال أو دولار !! مبلغ ضخم .

هذه الطرق الممهدة في البحار، كل المحيطات طرق بين الدول .

(وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

وترى الفلك مواخر فيه يعني أن يكون البحر مسخَّراً، أن يستخدم طريقاً بين القارات، وبين الدول، وبين الشعوب، لذلك يعد الشحن البحري أرخص أنواع النقل للشحن، أما الطرق البرية فتكلّف كثيرا، يكلف شقها، وتعبيدها، وصيانتها، ربنا عز وجل جعل البحر أداة اتصال بين القارات لا تكلف شيئاً، وجعل المراكب تتسع لأعلى نسب في الحمولات .

(وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ)

أي في التجارة، لنقل البضائع، وبيعها وشرائها، واستيرادها وتصديرها،

(وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

أنت تشرب الشاي رغم أننا لا نزرعه، هذا مستورد، نُقِلَ عن طريق البحر، وأكثر المواد الأساسية، الحديد، الخشب، المواد الغذائية، الصناعية، المواد الأولية، كلها تصلنا عن طريق البحر، إذاً البحر من فضل الله سبحانه وتعالى .

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ

الآن بعد أن تحدث الله سبحانه وتعالى عن نعمة الماء، ونعمة النبات، ونعمة الحيوان، البر والبحر، وعرض في أثناء الحديث عن هذه النعم بالليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم، تحدث عن الجبال فقال :

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

الجبال تثبيتٌ للأرض حتى لا تضطرب :

الأرض في أثناء الدوران لابد من مراكز ثِقَل عليها من أجل ألا تضطرب في أثناء الدوران، وهذا يعرفه جيداً من عنده عجلة، العجلات أثناء الدوران السريع تضطرب، لابد من وزنها، وضبطها بقطعة

من رصاص صغيرة من أجل أن تبقى مستقرة في دورانها، فربنا عز وجل جعل الجبال رواسي للأرض :

(أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

أي لئلا تميد بكم، لئلا تضطرب بكم، السكون كامل الدليل، أن هذا البناء إلى سنوات طويلة، لو أنه مضى على بنائه مئات السنين فهو هو ؛ لو كان في الأرض اضطراب لما بقي على حاله .

إذاً: الأرض تدور بسرعة هائلة، ومع ذلك فهي مستقرة بسبب هذه الجبال الرواسي .

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا)

وَسُبُلًا

أما حكمة كون الأنهار جاءت بعد الجبال، فلأن الجبال فضلاً عن أنها رواسي بالأرض فهي مستودعات لمياه الأنهار، فبعض الأنهار مثل الأمازون كثافته ثلاثمئة ألف مكعب في الثانية، من أين تأتي هذه الأمطار؟ أين مستودعاتها ؟

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا)

أهمية الانتفاع من الفراغ :

الطرق : هناك طرق بين القارات، بين البلاد، تجد سلسلة جبلية حادة في بعض الأمكنة مصدّعة بطريق، فهذه الطرق من صنع الله سبحانه وتعالى .

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(15)وَعَلَامَاتٍ)

وَعَلَامَاتٍ

كلّ شيء في الكون له علامة :

كل شيء له علامة، الكمأة هذا الطعام النفيس الذي يوجد تحت الأرض، كيف يُهتدى إليه ؟ من يعمل في هذا الحقل يخبرك عن ارتفاع في التراب أقل من سنتمتر، تحت هذا الارتفاع الصغير تجد ثمرة الكمأة، لا يوجد شيء في الأرض إلا وله علامة ؛ أنواع الخضراوات، أنواع المحاصيل، هذا القمح نوعه الفلاني له علامة، فربنا عز وجل جعل لكل شيء علامة، وهذا من فضل الله تعالى، لا تشتري

العنب حتى يسودَّ، والحبّ حتى يشتد، له علامة، العسل الصافي له علامة، المخلوط بالقِطر له علامة، الزيت الصافي له علامة، المخلوط بالنباتي له علامة، كل شيء له علامة، لولا العلامات لضاعت الأمور .

طبعاً التحليل أيضاً عن طريق العلامات .

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ(16)أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ

لا يستوي المخلوق مع الخالق أبدا :

هل يمكن أن يتوازى خالق مع مخلوق؟ كيف تطيع هذا المخلوق وتعصي الخالق؟! كيف ترضي هذا المخلوق، وتغضب الخالق؟! كيف تخاف من هذا المخلوق، ولا تخاف من الخالق ؟!

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

أيمكن أن يستوي خالق ومخلوق؟ خالق الأكوان، خالق الحيوان، خالق الإنسان، خالق النبات، خالق السماوات والأرض، خالق المجرات، خالق الشمس والقمر، خالق الليل والنهار، أيستوي هذا الخالق العظيم مع مخلوق؟ لا يملك لنفسه نفعاً أو ضراً؟ فضلاً عن أن يملك لغيره؟ أتعبده من دون الله؟ إنسان يطيع مخلوقاً، ويعصي خالقاً؟ كم هو أحمق؟! كم هو جاهل؟! كم هو خاسر؟! كم هو غبي ؟!.

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(17)وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ

الفائدة من النكرة المضافة : نِعْمَةَ اللَّهِ

أجمل ما في هذه الآية أن الله تعالى لم يقل: وإن تعدوا نِعَم الله، لا، وإن تعدوا نعمة ؛ لو أنك ذهبت لتعدّ فوائد نعمة واحدة لم تحصِها، الهواء جزء في نعمة واحدة، الماء نعمة واحدة، عدم تقلص الماء، أو عدم ازدياد حجم الماء، لو أن هذه النعمة فُقِدَتْ، لا تحصي الخيرات التي تنعدم، من انعدام جزء النعمة، إذا ذهبت لتعدّ فوائد نعمة واحدة، نعمة البصر .

(لَا تُحْصُوهَا)

ما قولك ؟

هذه :

(لَا تُحْصُوهَا)

لن نحصي نعم الله فكيف نشكرها ؟

لها معنى دقيق، لم يقل الله عز وجل : لا تشكروها، بل قال :

(لَا تُحْصُوهَا)

إذا جاءت أحدَنا هدايا بمناسبة زواجه، ألا يمكن أن يحصيها ؟ أيهما أهون ؟ أن يحصيها أو أن يرد مقابلها ؟ إذا كان صعباً أن تحصيها فكم يكلفك الرد عليها ؟ أن تكافئ بمثلها ؟ فربنا عز وجل لم يقل : لا تشكروها، بل قال :

(لَا تُحْصُوهَا)

لم يقل : نعم الله، بل نعمة واحدة .

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

نعمة البصر، لو أنك أمضيت الحياة كلها في تعداد نعمة البصر فلا تحصي فوائدها، فضلاً عن أداء شكرها، فإن كنت لا تحصي فوائدها فمن باب أولى أنك لا تتمكن من أداء شكرها ، لذلك :

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

هذه الآيات اقرؤوها، أعيدوا قراءتها، احفظوها، اقرؤوها في الصلاة، اجعلوها منهجاً للتفكير، على مدار شهر، كل يوم فكر بواحدة منها، وفق المنهج، فكّر بالنعمة وعدمها، وفكر بالنعمة وخلاف ما هو عليه، وفكّر بالنعمة وأصلها، بالنعمة وعدمها، والنعمة وخلاف ما هي عليه، والنعمة وأصلها، إذا أمضيت كل أسبوع في آية واحدة التفكر الصباحي بعد صلاة الفجر، فإنك لا شك تكون قد حققت الهدف من ذكر هذه الآيات في كتاب الله سبحانه وتعالى .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (05-21): تفسير الآيات 16 – 23 ، عن الموازنة الدقيقة لمعرفة الحق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-02-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(14)وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(15)وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

(وَعَلَامَاتٍ)

وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ

حرص الله على هداية العباد لمنافع الدنيا والآخرة :

هذه وحدها دليل على رحمة الله سبحانه وتعالى جل شأنه، فقد جعل لكل شيءٍ علامة، فإن كان حريصاً على أن نهتدي بالعلامات إلى الأشياء التي نحن بحاجة إليها فحرصه على أن نهتدي إليه أشد . حينما قال الله سبحانه وتعالى :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة النحل : 9)

هو أخذ على نفسه أن يكون في الأرض طريق سالك إليه، موصل مستقيم، هنا :

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

لكل شيءٍ جعل له علامة لكي تهتدي إليه، فإن كان حريصاً على أن يهديك إلى الأشياء ؛ فحرصه على أن يهديك إلى ذاته من باب أولى، حريص على أن تهتدي إليه، وحريص على أن تهتدي لحاجاتك، ينبوع الماء له علامة، أماكن الفلزات لها علامة، لو درست وسألت، وتحققت لوجدت أن لكل ظاهرة في الكون علامة، الأمراض لها علامة، الحالات الصحية لها علامة، المعادن لها علامة، الفواكه لها علامة ؛ نضجها له علامة، طعمها الحلو من طعمها المر له علامة،

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

وهذه الآية جامعة مانعة :

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

إذاً هو حريص على أن يهدينا إلى الأشياء، كما هو حريص على أن يهدينا إلى ذاته .

(أفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أفَلَا تَذَكَّرُونَ)

أفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أفَلَا تَذَكَّرُونَ

ليس هناك مجال للموازنة بين الخالق والمخلوق :

هناك معنى دقيق أتمنى أن يكون واضحاً لديكم، الإنسانُ اليومَ يوازي بين فرعين في الجامعة، أيهما أولى؟ أن أكون طبيباً أم مهندساً، أم مختصاً بالتاريخ، كلها فروع علمية، ربنا عز وجل يقول :

(أفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أفَلَا تَذَكَّرُونَ)

ليس هناك مجال للموازنة، أن تكون عالماً أو أن تكون جاهلاً، ليست الموازنة بين فرعين بالجامعة، بين العلم والجهل، بين السعادة والشقاء، بين التوحيد والشرك، بين التوفيق والتعسير، بين السعادة الأبدية، وبين الشقاء الأبدي .

(أفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ)

إذا كنت مع الذي يخلق فأنت في حمايته، وأنت في رعايته، وأنت في توفيقه، وأنت تسعد بقربه، في الدنيا والآخرة، وإذا كنت مع من لا يخلق ماذا ينفعك؟ ماذا يضرك؟ ماذا يفيدك؟ هل يدفع عنك ضيماً؟ لا والله، هل يجلب لك نفعاً؟ لا يستطيع .

(أفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ)

التشبيه المعكوس في الآية :

العلماء قالوا: هذه الآية فيها تشبيه معكوس مقلوب أساسها: أفمن لا يخلق كمن يخلق، هؤلاء الشركاء الذين تزعمونهم من دون الله، هؤلاء يوازنون مع خالق الكون؟ يخيرك أحد بين نوعين من الطعام، تختار الأطيب، لكن بين أن تأكل طعاماً نفيساً، وبين أن يأكل الإنسان سماً ناقعاً فرقٌ !! بهذا الطعام يزداد صحة وقوة، وبهذا السم يهلك نفسه .

(أفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ)

كيف يقبل الإنسان أن يكون مع مخلوق؟ أن يهب حياته لمخلوق؟ أن يهب ذكاءه وإمكاناته لمخلوق؟ هذا المخلوق الذي يتوجه إليه هو في حدّ ذاته لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، أيعقل أن يكون المخلوق مكان الخالق ؟ أيعقل أن يطاع المخلوق ويُعصى الخالق؟! أيعقل أن نتجه إلى المخلوق ونعرض عن الخالق؟!

(أفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ)

الفرق كبير جداً بين البياض والسواد، الفرق حاد جداً، وليس الفرق بالدرجة، ليس الفرق بين لونيين أحمرين، إنما بين الأبيض الناصع والأسود القاتم، بين التوفيق والتعسير، بين الأمل والإحباط، بين السعادة والشقاء، بين العلم والجهل، بين أن تشعر بصحة نفسية، وبين أن تشحن النفس بمئات الأمراض النفسية .

(أفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ)

مَن كان مع الله كان في الركن القوي :

إن كنت مع من يخلق فأنت قد التجأت إلى ركن ركين، وإن كنت مع من لا يخلق فقد عذت بضعيف فانٍ، ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيده أهل السماوات والأرض، إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق لم يكن شيئاً مذكوراً، ضعيفٍ، يجوع، يعطش، يصيبه البرد، يغضب، هذا يعتصم به ؟! وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته، إلا جعلت الأرض هوياً من تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء من بين يديه .

أنتم الآن مدعوون إلى الخالق، وهناك من يدعوكم إلى مخلوق، إذا دعيت إلى إرضاء زوجتك ومعصية ربك فأنت آثرت المخلوق على الخالق .

إذا دعيت إلى طاعة شريك من أجل كسب المال الحرام فأنت قد آثرت مخلوقاً على خالق .

هذه الآية يجب أن تقفوا عندها :

(أفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ)

هذا هو الخالق فكيف تعصيه ؟

أيوازن؟ أتزهد بالذي يخلق؟ أتهمل أمره؟ أتعرض عنه؟ أتستخف بدينه؟ ماذا قال الغزالي رحمه الله؟ قال كلمة مخاطباً بها نفسه: " يا نفس، لو أن طبيباً منعك من أكلة لذيذة، ووعدك إن أكلتها بالمرض الشديد ـ وما من واحد منا يذهب إلى طبيب، ويقول له: هذا الطعام دعه، من أجل قلبك، من أجل شرايينك، من أجل الضغط يقول الطبيب: دع الملح كلياً، والطعام بلا ملح لا يؤكل ولا طعم له، لكن من

أجل الحفاظ على صحتك، وعلى شرايينك، وعلى قلبك، وعلى ضغطك، تدع الملح كلياً! طبيب يقول لك: دع الملح وإلا فالوضع خطير، خالق الكون يقول لك: غض بصرك وإلا فالحساب عسير، أتصدق طبيباً وتكذب خالقاً؟! ـ هكذا أقنع الغزالي نفسه حين قال: " يا نفس، أيكون الطبيب عندك أصدق من الله عز وجل؟ إن كان كذلك فما أكفرك!! أم أن المرض أخوف عندك من نار جهنم؟ إن كان كذلك فما أجهلك !! بالمنطق، أيكون الطبيب أصدق من الله عز وجل ؟ أيكون إنسان يمنع شيئاً فينفذ أمره بحذافيره؟ أيكون هذا الإنسان الذي منع شيئاً أصدق عندك من رب العالمين؟ من رافع السماوات من غير عمد؟! إن كنت كذلك، إن كانت النفس كذلك فما أكفرها!! أو أن يكون المرض أخوف عندك من جهنم؟ وإن كان الأمر كذلك، هذه النفس التي تؤثر صحتها على حياتها الأبدية فما أجهلها!!

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(17)وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ

هل الإنسان يحب ربه أولاً ، أم أن الله يحب العبد أولاً ؟

هنا نقطة دقيقة ؛ يا ترى أيهما يبدأ بالمحبة؟ الإنسان يحب ربه أولاً؟ أم أن الله سبحانه وتعالى يحب العبد أولاً؟ بعضهم استنبط من قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

(سورة المائدة : 54)

أن محبة الله سبقت محبة العبد لربه .

بعضهم يقول: الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان، أعطاه الحواس الخمس، أعطاه الأجهزة الكاملة، أعطاه أماً وأباً يحنوان عليه، أعطاه الهواء، أعطاه الماء، أعطاه الغذاء، أعطاه الطعام، أعطاه الفكر، أعطاه الذاكرة، أعطاه التخيل، هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى، بل إن النعمة الواحدة لا تحصى، وإذا كنت عاجزاً عن إحصائها، فأنت عن شكرها أعجز !! ألا يقتضي أن تحب خالق هذه النعم ؟ فهناك ألف سببٍ وسبب، مليون سبب وسبب يدعوك لمحبة الله سبحانه وتعالى، ولكن الله متى يحبك ؟ إذا رأى منك عفة، إذا رأى منك استقامة، إذا رأى منك انضباطاً، إذا رأى منك طاعة، إذا رأى منك تقرباً، إذا رأى منك عملاً طيباً ؛ فالمحبة ميلٌ مبني على المجانسة .

محبة الله للعبد شيء عظيم :

قد يكون عند الأب أولاد عديدون، يعطف عليهم جميعاً، يطعمهم جميعاً، يكسوهم جميعاً ؛ ولكن أحدهم لأخلاقه العالية، ولبرّه، وطاعته، وأدبه، أمالَ قلب الأب له، فمحبة الله شيءٌ ثمين جداً، لا يناله العبد إلا إذا دفع الثمن، ثمن محبة الله أن تكون كاملاً، وهذا الكمال لا يكون إلا باتصالك بصاحب الكمال، ولا تتصل بصاحب الكمال إلا إذا كنت مستقيماً على أمره، ولن تستقيم على أمره إلا إذا عرفته، تعرفه، فتستقيم على أمره، فتقبل عليه، فتشتق من كماله؛ عندئذ يحبك .

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ :

((أَخَذَ بِيَدِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي لأحِبُّكَ يَا مُعَاذُ، فَقُلْتُ: وَأَنَا أُحِبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَلا تَدَعْ أَنْ تَقُولَ فِي كُلِّ صَلاةٍ : رَبِّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ))

[أخرجه النسائي]

هل تعرفون معنى هذه الكلمة؟ والله الذي لا إله إلا هو لو حاز سيدنا معاذ على أعلى شهادات في العالم، لو أن الدنيا كلها بملكه، لا يرقى إلى هذه المرتبة،

((إِنِّي لأحِبُّكَ يَا مُعَاذُ))

فإذا شعر أحدنا أن الله يحبه فهذه أعلى مرتبة يبلغها إنسان على وجه الأرض، خالق الكون يحبك، لماذا يحبك ؟ لأنه رأى فيك كمالاً، من أين جئت بهذا الكمال ؟ لأنك أقبلت عليه، كيف أقبلت عليه ؟ لأنك استقمت على أمره، كيف استقمت على أمره ؟ لأنك تفكرت في مخلوقاته فعرفته، عرفته، فخشيته، فاستقمت على أمره، فأقبلت عليه، فتجلّى على قلبك بالكمال ؛ عندئذ يحبك .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ اللَّهَ قَالَ :

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ))

[أخرجه البخاري]

دين بلا محبة دين ميت :

أيها الإخوة الأكارم، دين من دون محبة جسدٌ ميت، ثقافة ، طقوس، عبادات، كهنوت، ولكن المؤمن يخفق قلبه بمحبة الله سبحانه وتعالى، كل إنسان لا بد له من أن يحب، هذا الذي يحب الدرهم والدينار هو عبد له، وهذا الذي يحب النساء إن كان منحرفاً، أو زوجته إن كان مستقيماً، فهو عبد لها، وهذا يحب العلو في الأرض، وهذا يحب المظهر الحسن، وهذا يحب الأثاث الفاخر، وهذا يحب التحف، وهذا يحب الرحلات، وهذا يحب الطوابع مثلاً، وهذا هوايته الرياضة، وهذا يلعب التنس، والمؤمن يحب الله سبحانه وتعالى .

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

فمـا مـقصودهم جنـات عـدن   و لا الحور الحسان ولا الخياما

سـوى نظر الحبيب فذا مناهم   وهذا مـطلب القوم الكـراما

***

الإنسان يحاسب نفسه، هل نزلت من عينيك دمعة في يوم ما؟ شوقاً لله عز وجل، هل بكت عينك من خشية الله؟ هل اقشعر جلدك من تعظيم الله؟ هل تُليت عليك آية فازددت إيماناً؟ هل وضعت رأسك على الوسادة فتفكرت في ملكوت السماوات والأرض؟ هل استيقظت صباحاً والآخرة أكبر همك؟ هل أنت قلق في الحياة الدنيا، تخاف ألا تكون مرضياً عند الله عز وجل؟ أين أنت ؟

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(154)أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

(سورة الصافات : 154 - 155)

ما الذي يشغلكم عن الله سبحانه وتعالى ؟

إلى متى أنت باللذات مشـغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

تعصي الإله وأنت تظهر حبـه ذاك لعمري في المقال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب يطيـع

***

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

لن تحصي نعمة واحدة عدّاً لفوائدها وشكرا للمنعم بها :

ذكرت في الدرس الماضي إعجاز هذه الآية، أن النعمة الواحدة لو أمضيت حياتك كلها في تعداد فوائدها، لانقضت حياتك، ولم تنقض فوائدها، فإذا كنت عاجزاً عن إحصاء النعم فأنت عن شكرها أعجز .

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة النحل)

غفور على ماذا؟ على عجزكم عن إحصائها، وعلى عجزكم عن شكرها .

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ

هذه الآية :

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

واضحة كالشمس، لكن هناك معانٍ خلف السطور، هناك استنباطات دقيقة :

الله يعلم ما تخفيه وتنويه فإياك وظلم الناس وخداعهم :

الله سبحانه وتعالى يعلم الذي تعلنه للناس، ويعلم الذي تخفيه في نفسك، وإذا كان الله يعلم فمن باب أولى أنه يحاسب، الذي يعلم يحاسب، الإله إذا علم شيئاً حاسب عليه، فأنت محاسبٌ على ما تُسِرُّ، وعلى ما تعلن، فإذا أعلنت لهذا الصانع أنك سوف تدخله في شركة هذا المحل فذهب هذا الصانع امتلأ قلبه فرحاً، وحضوراً، واطمأن إلى مستقبله فأنت أعلنت ذلك، هل تعلم أن هذا الإعلان صار دَيناً عليك؟ الله يعلم أنك أعلنت ذلك، فكيف لا تفي بعهدك؟

أنت أعلنت حينما كنت في العمرة أنك لن تعصي الله عز وجل، إذاً سوف يحاسبك على إعلانك ؛ هل كنت عند هذا العهد؟ أم خنت هذا العهد ؟

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ)

الشيء الذي تخفيه .

شاركت هذا الإنسان، وفي نيتك أن تتعلم منه هذه الصنعة، فإذا أتقنتها وضعته خارج المحل، لذلك احتطت مسبقاً بأن تسجل المحل باسمك وحدك، وقلت له وقتها: القضية شكلية جداً، لا قيمة لها، وأنت تضمر في نفسك أن تستقل بالمحل .

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

تزوجت هذه المرأة لما لها من أموال طائلة، لكنها تكبرك سناً، وفي نيتك أنك إذا حصلت من أموالها شيئاً ثميناً عندئذ تفتعل معها مشكلة، وتفجر الوضع، إلى أن تطلقها، ويبدو الطلاق وقتها مبرراً، وأنك لن تحتمل هذه الحياة، وأنها ذات طباع سيئة .

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

هذا الذي يتزوج امرأة وفي نيته أن يطلقها لو أمضى معها ثلاثين عاماً، فهذه الأعوام الثلاثون يمضيها معها زنىً ؟ لأن الزواج على التأبيد، لا يصح عقد الزواج إلا على نية التأبيد، قد تطلقها بعد يومين، لكنك حينما قبلت، حينما أجبت مأذون المحكمة بأنك قبلت هذا النكاح ؛ فيجب أن يكون على نية التأبيد .

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

لذلك المؤمن نفسه صافية كالشمس، بيضاء نقية، لماذا بيضاء نقية ؟ لأنه يعلم أن الله يراقبه، وأن قلب الإنسان منظر الله عز وجل ؛ ففي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))

[رواه مسلم]

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ(88)إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء : 88 - 89)

الله سبحانه وتعالى ناظر دائماً إلى قلبك، هل فيه احتيال؟ فيه مخادعة؟ فيه غش؟ فيه نيات سيئة؟ هل هناك موقف يعلن عنه، وموقف خاص ضمني؟ هل هناك ازدواجية في المواقف؟ أيوجد تملق؟ نفاق؟ تدليس؟ مخاتلة؟ على الوجه ابتسامة صفراء، وفي القلب حقد دفين؟ كل هذا يعلمه الله عز وجل، وسيحاسب عليه، فافعل ما بدا لك، قال تعالى :

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة فصلت : 40)

البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تدان، لذلك قال بعضهم : " الله سبحانه وتعالى ربّ النيات " .

زرع رجل بستانين على ضفة نهر واحد، والذي زرع البستانين رجل واحد، والخبرات واحدة، والماء واحد، وكل شيء فيه مشترك، بستان يكاد القمح يزيد ارتفاعه على ارتفاع الإنسان، والثاني لا يزيد طول سوق القمح على أربعين سنتيمتر، فسأل هذا الرجل الزائر: ما السر في هذين البستانين؟ بعد بحث وتدقيق، وبعد اطلاع واستحلافٍ، وجد أن البستان الأول يملكه رجل له أولاد أخ أيتام، في نيته أن يعطيهم نصف المحصول، فأنبت الله له القمح مضاعفاً ـ الله رب النوايا ـ والبستان الثاني لرجل مرابٍ، يقرض الناس، ويبتز أموالهم، فأتلف الله له المحصول، الله رب النوايا، أخطر شيء في الدين هذا

القلب.

عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّه عَنْه قالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ))

[أخرجه البخاري]

هذه الآية فيها تهديد :

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

وينجم عن علمه العقاب، والحساب، والجزاء، والتوفيق، والتعسير، والهلاك .

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ

كلُّ جهة تُعبَد من دون الله تشملها هذه الآية :

هؤلاء الأصنام إن كانوا أحجاراً، وهؤلاء الأصنام إن كانوا من نوع آخر، كل جهة تعبدها من دون الله فهي مما تنطوي تحت هذه الآية، فإذا اتكأ الإنسان على إنسان له مكانته، وظن أن هذا الإنسان يحميه من كل مكروه، وأنه يرفعه إلى الأوج، وأنه يجلب له المنافع، وأنه يبعد عنه المضار، فهو ممن ينطوي تحت هذه الآية :

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)

(سورة النحل)

لا يكون الخالق مخلوقا ولا المخلوق خالقا :

أيعقل أن يكون الإله مخلوقاً، من أولى لوازم الإله أن يكون خالقاً، أتعبد مخلوقاً ؟ وتدع الخالق ؟!.

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ(20)أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ

لهذه الآية معنيان :

المعنى الأول :

أن هذه الأصنام التي تعبد من دون الله ميتة، لا حياة فيها، لا سمع، لا بصر، لا حركة، لا تعاطف، لا عقل، ميتة، حجر .

المعنى الثاني :

أن الذين يعبدون هذه الأصنام من دون الله ميتون، ولو أن فيهم بقية حياة لكرهوها، ولعافوها، ولعافت نفسهم عبادتها .

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

المعرضون عن الله أموات القلوب وإن كانوا أحياء الأبدان :

وهذا وصف دقيق، فكل من أعرض عن الله عز وجل فهو ميت .

ليس من مات فاستراح بميتٍ إنـما المـيـت ميت الأحيـاء

***

أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة .

فالموت والحياة يأخذان معنى آخر، حياة القلب بمعرفة الرب، وموته بجهله، غذاء الروح الاتصال بخالق الكون، وموتها انقطاعها عنه، لذلك ربنا سبحانه وتعالى قال :

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

الموت بيد الله وليس بيد غيره :

هذه آية دقيقة، زمام المبادرة ليس بأيديهم، أنت تقول : أنا بعد عشر سنوات سأفعل كذا وكذا، هذا كلام فيه غباء، ليست الأمور بيدك، ومن يضمن لك بعد هذه السنوات أن تبقى حياً ؟

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

حينما يأتي الأجل يتعطل كل شيء .

إن الطـبيب له علم يدل به إن كـان للنـاس فـي الآجـال تأخير
حتى إذا ما انتهت أيام رحلتـه حـار الطبيب وخـانته العقاقيـر

***

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

من منا يضمن أن يعيش إلى ساعة قادمة ؟ أناس كثيرون كانوا معنا ـ بالعشرات ـ الآن تحت أطباق الثرى، حينما كانوا معنا أكانوا يتوقعون أنه لن يمضِيَ هذا العام إلا وهم تحت أطباق الثرى ؟ لا والله .

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

جلست مع أناس كثيرين، جاء أجلهم، حينما كنت معهم حدثوني عن أعمال سوف يفعلونها بعد سنوات طويلة، هم الآن تحت الثرى، فموضوع الموت ـ لحكمة بالغة ـ أخفى الله ميعاده عن الإنسان، لا يدري، يا ترى هل يأتي عليه رمضان آخر ؟ هل يدرك عيد الفطر ؟ وعيد الأضحى ؟ هل يدرك الشتاء القادم ؟ هذا البيت الذي وَقَّعَ عقده على الخارطة هل يراه في الطابق الثالث ؟ أم يموت قبل أن يراه ؟ لا يعرف، هذا الذي اشترى هذا البيت هل يسكن فيه ؟ لا ندري .

هذه الزوجة التي عقد قِرانه عليها هل يُزَفَّ إليها ؟ لا أحد يعرف، كم من إنسان مات قبل عرسه، هذه الشهادة الدكتوراه التي حصلها في بلد أجنبي، هل يتاح له أن يعود إلى بلده بعدها، وينادى باسم دكتور ؟ قد يموت في الطائرة، قد يموت هناك، قد يموت قبل إعلان النتائج .

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

لا أحد يعلم زمان ومكان وطريقة موته :

فالإنسان لا يعرف متى يموت؛ هل يموت في هذا البيت؟ إذا مات في هذا البيت أين يُغَسَّل؟ هل يموت في بيته؟ أم في الطريق؟ هل يموت صباحاً؟ أم مساء؟ أم في منتصف الليل؟ هل يموت فجأةً؟ أو بعد مرض طويل؟ وإذا مات أين يدفن؟ في المقابر الجديدة؟ أم في القديمة؟ الله أعلم .

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

(إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)

إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ

مسيِّر الكون هو الله وحده :

هذه الآية أيضاً دقيقة جداً، الإله هو المسيِّر، مسيِّر الأرض واحد .

أوْضَحُ هذه الآية بمثل: أنت حينما تركب هذه السيارات العامة، كان هناك جابٍ يقطع للركاب، ثم حلت الآلة محل الجباة، لو سافرت إلى محافظة نائية، ووجدت النظام نفسه مطبقاً هناك، معنى ذلك أن كل

هذه الشركات ؛ شركات النقل، تدار من العاصمة، فهذا الذي وجدته في هذه المحافظة يشبه ما وجدته في دمشق؛ إذاً، هناك إدارة عامة مركزية تعمم هذه الأوامر .

أحياناً يشعر الإنسان أن هذا الإجراء على مستوى القطر، وأن الذي أمر به واحد، فيجب أن تعلم علم اليقين أن كل شيء في الأرض في بلدنا وفي غير بلدنا ؛ الرياح، الأمطار، الثلوج، الزلازل، البراكين، غزارة الأمطار، غزارة النبات، عوامل المرض، الفيروسات، كل شيء يدار بيد واحدة، وإلهكم أيها البشر، ومسيِّركم إله واحد، حركة الأرض حول نفسها، حول الشمس، الليل والنهار، الشمس والقمر، الصيف والشتاء، والخريف، والربيع، الأمطار، الرياح، العواصف، الزلازل، الصواعق، إنبات النبات، علاقتنا ببعضنا؛ هذا أقوى من هذا، هذا قوي على هذا، هذا قهر هذا .

(إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

قال تعالى في آية أخرى :

(وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ)

(سورة البقرة : 163)

ألوهية الخالق تبعث الطمأنينة في النفوس :

هذه الآية تبث في النفس الطمأنينة، أمور الكون كلها، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها بيد واحدة،

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : 10)

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال : 17)

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة هود : 123)

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

(سورة الزخرف : 84)

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة الحديد : 4)

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة فاطر : 2)

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ :

((كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فقال: يَا غُلامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ))

[أخرجه الترمذي]

الأمر كله لله .

(يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ)

(سورة آل عمران : 154)

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

(سورة غافر : 20)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف : 26)

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

(سورة الرعد : 41)

(إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

كلّ أمورك بيد الله الرازق وحده :

كل شؤونك؛ زوجتك ممتازة، بفضل الله عز وجل، مشاكسة بتقدير الله، لهدف كبير، عملك مريح، بفضل الله، متعب، بتقدير الله، دخلك كبير، هو الرزاق ذو القوة المتين، دخلك قليل لحكمة الله .

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ(15)وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

(سورة الفجر : 15 - 16)

الرزق، والصحة، والمرض، والحياة، والموت، والسعادة والشقاء، والانشراح الداخلي، والانقباض، والقوة، والضعف، والسعادة الزوجية، والشقاء الزوجي، أولاد أبرار، أولاد مشاكسون، جيران متعبون، جيران مريحون .

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود : 123)

(إِلَهُكُمْ)

أيها العباد .

(إِلَهٌ وَاحِدٌ)

كل شيء منه، هذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد .

لذلك إذا قلت: فلان؛ فهذا شرك! عِلان؛ شرك! أعطاني؛ شرك! منعني؛ شرك! قهرني؛ شرك! ظلمني؛ شرك !

((لا يخاف العبد إلا ذنبه، ولا يرجو إلا ربه))

[أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، والبيهقي في شعب الإيمان من قول عليٍّ]

إذا سقطت ورقة زيتون من على الشجرة يعلمها الله، سِرْ في حقل زيتون في أيام الخريف، وافتح ورقة، واكتب كم ورقة زيتون تسقط ؟ ربنا عز وجل قال :

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

(سورة الأنعام : 59)

فإذا كان سقوط ورقة يعلمها، فمن باب أولى أنك إذا ضيق عليك هذا بعلمه، وبتقديره، وبرحمته .

(إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ)

فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ

غير المؤمن بالآخرة منكر بأسماء الله وكتبه ورسله :

لم يؤمن بالآخرة، أي لم يؤمن بيوم الحساب، وإن لم يؤمن بيوم الحساب فقد أنكر اسم الحق، في الحياة قوي وضعيف، عالم وغير عالم في الأرض، في الحياة غني وفقير، في الحياة صحيح ومريض، لا بد من يوم يحق فيه الحق ؛ فإذا أنكرت هذا اليوم فقد أنكرت اسماً من أسماء الله سبحانه وتعالى، فالذي ينكر يوم القيامة كأنه ينكر وجود الله عز وجل، وإذا آمنت أن هناك إلهاً حقاً عدلاً فلا بد من يوم يحاسب فيه الناس .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(2)الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ(3)مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

(سورة الفاتحة : 2 - 4)

من لوازم الإيمان بالله عز وجل الإيمان باليوم الآخر، كيف تؤمن بالله، ولا تؤمن باليوم الآخر ؟ إنك تلحد بأسمائه، تلحد بعدالته، تلحد بأنه سيجمع الناس ليوم لا ريب فيه، تلحد بيوم الفصل، بيوم الدين، بيوم يقوم الناس لرب العالمين .

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا(17)يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا)

(سورة النبأ : 17 - 18)

فإذا أنكرت اليوم الآخر فقد أنكرت اسماً من أسماء الله، فلذلك :

(فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنكِرَةٌ)

منكرة لهذا الكتاب، ولهذا الحق، ولهذا الشرع .

(وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)

أخذتهم العزة بالآثم .

(لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ(23)وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ

كلمة قديمة متجدِّدة : أساطير الأولين :

هذه غيبيات، الآن يعبِّرون عن الدين بالغيبيات؛ غيبيات، خرافات، خزعبلات، أوهام، مظاهر ضعف الإنسان .

(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

هذه المشاعر مشاعر التدين أساسها ضعف الإنسان أمام قوة الطبيعة، فلما قهر الطبيعة، وغزا الفضاء ليس بحاجة إلى هذه المشاعر .

(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

هذا العصر عصر العلم، لا يصلح فيه التدين، والعلم نفسه يؤكد وجود الله سبحانه وتعالى .

أحد أكبر علماء الذرة اكتشف نظرية لا يزال معظم العلماء يجهلونها، يقول هذا العالم : كل إنسان لا يرى في هذا الكون قوة هي أقوى ما تكون، رحيمة هي أرحم ما تكون، عليمة هي أعلم ما تكون، حكيمة هي أحكم ما تكون فهو إنسان حي، ولكنه ميت .

لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(24)لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

المضلّون يحملون أوزار من أضلوهم :

إذاً: إذا قلت فكرة مغلوطة، إذا قلت الباطل، وسمعك إنسان وصدقك، كل أعماله التي يعملها وفق هذه المقولة يسجَّل وزرها في صحيفتك، كل ضلالة تكتب على شخصين ؛ على قائلها، وعلى سامعها، فإياك أن تقول ضلالاً، لأنك إذا فعلت ذلك سجل إثمه عليك،

(لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ)

لماذا لا يحب الله المستكبرين ؟

لماذا لا يحب الله سبحانه وتعالى المستكبرين؟ لأن المستكبر يعطي نفسه حجماً غير حجمه، من ادعى أنه يحمل دكتوراه وهو لا يقرأ ولا يكتب، أليس هذا جريمة ؟ لأنه لو كان يحمل هذه الشهادة، وقال: إنه يحمل هذه الشهادة، فلا مانع، أما إذا ادعى أنه يحمل هذه الشهادة وهو لا يقرأ ولا يكتب فقد أجرم !!
إذاً : الاستكبار ادعاء، هذا الادعاء حجاب له عن الله عز وجل، المستكبر محجوب، حجبه كِبره واستكباره، فلذلك من علامات المؤمن التواضع، ومن علامات غير المؤمن التكبر، فربنا عز وجل لا يحب المستكبرين .

انظروا في الآيات التي تنتهي بقوله : إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

وأتمنى عليكم إذا قرأتم كتاب الله أن تستخرجوا منه الآيات التي تنتهي بقوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

(سورة الحجرات : الآية 9)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

(سورة البقرة : الآية 190)

انظروا في الآيات التي تنتهي بقوله : إنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ

فإذا أردت أن يحبك الله فافعل ما يحب، ودع ما لا يحب، بطريقة سريعة جداً احص الآيات التي يحب :

(إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ)

(سورة النحل)

(فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)

(سورة الروم : 32)

(وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

(سورة آل عمران : 57)

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

(سورة الحجرات : 9)

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

(سورة البقرة : 222)

يحب المستقيم، اجمع الآيات التي فيها : يحب، والتي فيها : لا يحب، افعل ما يحب، ودع ما لا يحب . امرأة عاقلة مؤمنة لما تزوجت قالت: " أما بعد؛ يا أبا أمية، إني امرأة غريبة، لا أعرف ما تحب ولا ما تكره، فقل لي ما تحب حتى آتيه، وما تكره حتى أجتنبه " .

عليكم بالأشياء التي يحبها الله واجتنبوا ما يبغضه :

ربنا عز وجل أمركم ونهاكم، قال لكم ماذا يحب، وما الذي لا يحب، فإذا أردتهم حبه، أن يحبكم، فافعلوا ما يحب، محبته مقننة، لها قوانين، لها قواعد، ليست مزاجية اعتباطية فوضوية، إن الله يحب القوم الصادقين .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

(سورة لقمان : 18)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا)

(سورة النساء : 107)

يحب الأمانة لا الخيانة، يحب الصدق، لا يحب الكذب، يحب الإخلاص، لا يحب النفاق، يحب الإحسان.

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة آل عمران : 134)

يحب العلم، وهكذا .

إذاً :

(لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ(23)وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(24)لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

(سورة النحل)

أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ

أيّ حِمل يطيقه المضلون يوم القيامة :

هذا الذي يضل بغير علم، لو علم لما أضل أحداً، لهدى الناس، فالعلم من لوازمه الهدى، والجهل من لوازمه الإضلال .

(أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

أصعب الأحمال يوم القيامة أن يكون الضلال عن طريقك، أن يكون الإنسان ضالاً مضلاً، أن يشيع فكرة غير صحيحة، أن يدعو إلى معصية، أن يدعو إلى ضلالة، أن يدعو إلى بدعة، أن ينكر حقيقة جاء بها الدين، أن يزور، أن يخدع، أن يدلس، أن يغير الحق إلى باطل .

(أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

إن هذه الأوزار سوف تسوءهم يوم القيامة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (06-21): تفسير الآيات 24 – 29 ، عن العاقبة للمتقين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-02-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(24)لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أيها الإخوة المؤمنون، في الدرس السادس من سورة النحل وصلنا إلى قوله تعالى :

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24)لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

هذا هو ظن الكفار بالدين :

هؤلاء الكفار يظنون أن الدين خرافة، وأن الدين سلوك الأقدمين، وأنه تعبير عن ضعف الإنسان أمام قوة الطبيعة، وأنه طقوس لا معنى لها، وأنه غيبيات، وأنه حجر عثرة في سبيل تقدم الإنسان، والكفار هم الكفار، في كل زمان ومكان، لذلك قال الله سبحانه وتعالى :

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

هؤلاء حينما كفروا، أي أعرضوا عن الله سبحانه وتعالى، هم بشر، زودهم الله بالشهوات من أجل أن يرقوا بها إلى رب السماوات، فلما ابتعدوا عن الله سبحانه وتعالى كانت شهواتهم محركاً لهم إلى طريق تحقيقها، ولما كانوا في عمىً، وفي بُعدٍ عن الله سبحانه وتعالى فلا بد وهم يحققون شهواتهم من أن يأخذوا ما ليس لهم، ومن أن يعتدوا على غيرهم، فلذلك هؤلاء الذين :

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

هؤلاء :

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ)

الإثم وتحمل الوزر ملازمان للكفر :

فصار الإثم وتحمل الوزر شيئا ملازما للكفر .

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

(سورة الماعون : 1 - 2)

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص : 50)

هناك تلازم عجيب بين الذي ينكر الدين كنظام إلهي أنزله الله سبحانه وتعالى ليسعد الناس جميعاً في الدنيا والآخرة ومن يسيء إلى الناس، ولن تجد إنساناً واحداً أعرض عن الله سبحانه وتعالى وله عمل طيب، بل له عمل سيئ ؛ يفرق بين الناس، يقيم العداوة فيما بينهم، يستعلي عليهم، يأخذ ما ليس له، يعتدي على أموالهم، يعتدي على أعراضهم، هذه صفات الكافر ؛ بل إنها من لوازم الكفر .

تقسيمات البشر لا أساس لها من الصحة :

هذا الكلام كلام الله سبحانه وتعالى، أينما ذهبت، حيثما حللت، أينما اتجهت، الناس رجلان ؛ بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، كل تقسيمات البشر تقسيمات ما أنزل الله بها من سلطان، أبناء الريف، وأبناء المدينة، تقسيم باطل، أيّ مخلوق تعرف إلى الله سبحانه وتعالى تشرف قلبه بهذه المعرفة، الأغنياء والفقراء، تقسيم باطل، الأقوياء والضعفاء، تقسيم باطل، العِرق الآري والعِرق السامي، تقسيم باطل، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمْ الَّذِينَ مَاتُوا، إِنَّمَا هُمْ فَحْمُ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنْ الْجُعَلِ الَّذِي يُدَهْدِهُ الْخِرَاءَ بِأَنْفِهِ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ، إِنَّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ))

[رواه الترمذي

((الخَلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله))

[رواه الطبراني في المعجم الكبير عن ابن مسعود، وأبو يعلى في مسنده عن أنس]

((سلمان منا آل البيت))

[رواه الطبراني في المعجم الكبير عن عمر بن عوف المزني]

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

(سورة المسد)

من قريش! هذا كله يؤكد قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

(سورة الحجرات : 13)

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى ...))

[رواه أحمد في مسنده]

هذا هو الإسلام .

((الناس كأسنان المشط))

[رواه القضاعي في مسند الشهاب]

أحد أصحاب رسول الله في ساعة غضب توجه إلى عبد مملوك له، فغلبته نفسه على تعييره فعَنْ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ : لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ : إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا، فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ ...))

[متفق عليه]

هذا هو سر الإسلام، هذا هو من عظمة الإسلام .

سيدنا أبو بكر رضي الله عنه ذهب ليشتري بلالاً، وينقذه من تعذيب سيده أمية بن خلف، قال سيده لأبي بكر رضي الله عنه : والله لو دفعت فيه درهماً واحداً لبعته لك! لهوانه على سيده، فما كان من أبي بكر رضي الله عنه إلا أن قال لأمية بن خلف: والله لو طلبت به مئة ألف درهم لأعطيتكها، إنه بلال، فلما أخذه وضع يده في يد تحت إبطه تأكيداً للأخوة في الإسلام، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كَانَ عُمَرُ يَقُولُ :

((أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا، يَعْنِي بِلَالًا))

[رواه البخاري]

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخرج إلى ظاهر المدينة لاستقبال بلال، خليفة المسلمين يخرج إلى ظاهر المدينة ليكون في استقبال سيدنا بلال!! بلال وصهيب يدخلان ويخرجان بلا استئذان على سيدنا عمر ؛ جاء أبو سفيان فوقف على بابه ساعات طويلة فلم يؤذن له، فلما دخل عليه عاتبه فقال: أبو سفيان سيد قريش يقف ببابك ساعات طويلة ؟! وصهيب وبلال يدخلان ويخرجان بلا استئذان ؟! قال : يا أبا سفيان أنت مثلهما؟! أين الثرى من الثريا ؟! أين أنت، وأين هم ؟! هذا هو الإسلام .

إذا شعرت أنك فوق الناس فلست مسلماً! إذا شعرت أنك خير من فلان وعلان فلست مسلماً ! قال لي أحدهم، وأعجبني قوله : حج البيت الحرام فشعر بسعادة ما بعدها سعادة، قال لي : ليس في الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني، هذا هو الدين .

فهؤلاء الكفار هم الكفار، في كل زمان وفي كل مكان، حينما كفروا انقطعوا، وحينما انقطعوا حرّكتهم شهواتهم، وحينما حرّكتهم شهواتهم أخذوا ما ليس لهم، طغوا، وبغوا، واعتدوا على الأموال والأعراض

فلذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ)

أي : للكفار :

(مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(24)لِيَحْمِلُوا)

لكافر كيفما تحرك يرتكب الإثم، إذا تكلم استعلى، وإذا نقل الخبر أفسد العلاقة بين الاثنين، وإذا تحدث عن نفسه حقَّر الآخرين، هذه كلها أوزار .

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً)

هناك كتاب لكل إنسان لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها :

أما كلمة (كاملة)فتعني الشيء الكثير .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)

(سورة الكهف : 49)

كل أعمالك، كل حركاتك، كل سكناتك، كل تصرفاتك، كل مواقفك، كل طموحاتك، هذا كله مسجل في الكتاب .

(يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً)

الحساب هو الحساب، لو أن لك حساباً عند بائع يسجِّل كل شيء، حتى ثمن الشمعة، يقول لك : الشمعة بثلاثين قرشاً، وقد أخذ منك مئة ألف ! هكذا الحساب، الحساب فيه تسجيل لكل شيء، لذلك قيل : " يا أبا ذر، جدد السفينة فإن البحر عميق، وأكثر الزاد، فإن السفر بعيد، وخفف الحمل فإن العقبة كؤود، لا يجتازها إلا المخفون، وأخلص النية فإن الناقد بصير " .

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

ما هو الوزر عموما ؟

إذا جمعت بين اثنين على معصية فذا وزر، إذا اغتبت فالغيبة وزر .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)

(سورة الحجرات : 12)

الغيبة وزر، النميمة وزر، الكذب وزر، التنابز بالألقاب وزر .

(ولَا تَجَسَّسُوا)

تقصي الأخبار السيئة وزر، أوزار اللسان لا تعد ولا تحصى .

عَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، ولا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ))

[أخرجه أحمد]

عَنْ مُعَاذٍ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((... ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إِلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))

[أخرجه أحمد]

ما تقول ؟

بقي أمرُ العين .

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لا مَحَالَة، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى، وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَيُكَذِّبُهُ))

[أخرجه البخاري]

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً)

تدخل على دكانه امرأة، فيتأمل محاسنها، ويصافحها، يدير معها حديثاً لطيفاً، هذا كله آثام

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

يبيع ويشتري، يخفي العيب .

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

يبيع البضاعة نسيئة، فيزيد في الثمن .

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

يقيم وليمة فيها رجال ونساء .

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

يذهب إلى بلد أجنبي، فيرخي الحبل ويعطي لنفسه العنان،

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

من استمع إلى صوت قينة صب الآنك في أذنيه يوم القيامة، فقيل : يا رسول الله، وما الآنك ؟ قال : الرصاص المذاب .

يملأ عينيه من الحرام، فيملؤها الله من جمر جهنم .

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

يرسل ابنه إلى بلد أجنبي ليتعلم اللغة الأجنبية، فيعود ابنه زانياً .

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

يقول هذا الابن: يا رب، لا أدخل النار حتى تدخل أبي قبلي .

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

يزوج ابنته من رجل غني طمعاً بماله ومركبته وجاهه، فيطلق هذا الزوج للزوجة العنان فتفعل ما تشاء؛ تختلط مع الرجال، تترك الصلاة، وهو يظن أنه بهذا الزوج قد حصل عزاً ومالاً وفيراً .

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

ما أكثر المعاصي، في البيع والشراء آلاف المعاصي، في سيرك في الطريق المئات، إذا دخلت البيت، وأدرت جهاز اللهو على شيءٍ يغضب الله ورسوله وقعت في المعاصي .

لكن الآية فيها ما يقصم الظهر :

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ)

هل تعلم أنك تأخذ وزر غيرك ؟

إذا استمتعت أنت ببرنامج يغضب الله ورسوله، وشاهد هذا البرنامج ابنك وابنتك الشابان، وانحرفا انحرافاً لم تعلم به .

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ)

لكن كلمة :

(بِغَيْرِ عِلْمٍ)

قاصمة الظهر : بغير عِلم :

تأخذ بالألباب، هذا الذي يضل بغير علم، يظن أن هذا حضارة، هذا شيءٌ عصري، لا ينبغي أن نحرم منه، يضل الناس، وهو يحسب أنه ينفعهم، يؤذيهم في أخلاقهم، وهو يظن أنه ينفعهم، يحبب إليهم الدنيا،

وهو يظن أنه يخدمهم بغير علم، هذا الذي! يَضِل بغير علم، وهذا الذي يُضل بغير علم، ولا جهل في القانون، مبدأ عام في القضاء، لا جهل بالقانون، كذلك لا جهل عند الله، الإنسان إذا جهل يحاسب على جهله، لِمَ لم تتقصَّ الحقائق؟ لِمَ لم تتبع سبيل من أناب إلي؟ لِمَ أتبعت سبيل أهل الدنيا؟ لِمَ صدقتهم؟ لِمَ عطلت فكرك؟ لِمَ لم تقرأ القرآن؟ لِمَ لم تحضر مجالس العلم؟ لماذا بقيت جاهلاً؟ لماذا أتبعت هواك؟ لماذا استمعت إلى وسواس الشيطان ؟

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ)

عَنْ جَرِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهَا، وَمِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا لا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ لا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا))

[أخرجه ابن ماجة]

مبدأ المسؤولية :

(سورة يس : 12)

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ)

آثارهم ؛ هذا الذي فعلت، سننت في أسرتك، وأنت عميد هذه الأسرة لقاء أسبوعياً مختلطاً، شيء جميل ! سننت هذا اللقاء، واستمر هذا اللقاء بعد وفاتك، وتابعه الأهل، كان جدُّنا يفعل هذا، هذا الاختلاط إلى يوم القيامة، ما الذي نتج منه من اشتهاء، من زنى النظر، من طلاق زوجة، هذا الاختلاط الذي سننته في أسرتك سوف تتحمل تبعاته إلى يوم القيامة :

((وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ لا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا))

[أخرجه ابن ماجة]

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ)

هنا سؤال: لِمَ لم يقل الله سبحانه وتعالى: ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة وأوزار؟ قال : ومن أوزار، هذا الإنسان الآخر له معاصٍ هو وحده مسؤول عنها، وله معاصٍ كانت بسببك، فهذا الذي كنت أنت سبباً في حصوله تحاسب عليه، يُضَم إلى أوزارك، فكل وزر يقع في إنسان آخر فعله بسببك، بتشجيعك، بدلالتك، بتوجيهك، برضائك، بسكوتك، فهو يكتب على فاعل الوزر، ويكتب ثانية في صحيفتك .

لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ)

قد يكون الإنسان ضالاً، وهو لا يعلم، وقد يقع عليه الضلال وهو لا يعلم .

من الناس من يدري ويدري أنه يدري فهذا عالم فاتبعوه، ومنهم من لا يدري ويدري أنه لا يدري، فهذا جاهل فعلموه، ومنهم من لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، فهذا شيطان فاحذروه، هذا الذي يَضِلِ بغير علم، ويُضِل بغير علم يظن هذا حضارة، يظن هذا رقياً، يظن هذا رقة، يظن هذا ذكاءً، يظن هذا عقلاً متفتحاً، نفساً مرنة، هذا كله ضلال في ضلال .

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا)

(سورة الأحزاب : 36)

لا خيار لك، أنت عبد، العبد عبد، والرب رب، هذا هو الشرع، هذا هو القرآن، هذا هو الدستور، هذا هو الكتاب، فالذي حرمه حرام إلى يوم القيامة، والذي أحله حلال إلى يوم القيامة، الحرام ما حرمتَ، والحلال ما أحللتَ، والدين دينك، والشرع شرعك يا رب .

(وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ

هذا الذي يحملونه سوف يسوءهم، لو أعطاك إنسان ظرفاً صغيراً سميكاً قال لك : خذه، ضعه في جيبك، هو هدية مني لك، أنت حملته وفرحت به، وقفت في مكان ما وفتشوك، فإذا في هذا الظرف حشيش، وساقوا من حمله إلى السجن، وحكموا عليه بثلاثين سنة مع الأشغال الشاقة، ألم يسوء هذا الذي حمله ؟ هذا الذي حمله في جيبه ألم يكن سبباً في دماره ؟ هذا مثل، وفي بعض البلاد، إذا ضبط الإنسان يحمل مادة مخدرة يعدم فوراً،

(أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

إذا كان هذا عند البشر فكيف عند خالق البشر؟! هناك أعمال لو اقترفتها، وسجلت في صحيفتك سوف تسوءك، سوف يسوء الإنسان ما يحمل .

(أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

هذا مثل بسيط، لو حملت شيئاً ممنوعاً، وضبطت بأنك تحمله، وعليه وزر ثقيل، ألا تلعن الساعة التي التقيت بها هذا الإنسان ؟

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِ

(قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

مكر الماكرين مكشوف :

أيُّ مكر عند الله مكشوف، هذا الذي يمكر، ويمكر، ويظن بأنه بهذا المكر يفلح، ويفوق، ويتفوق؛ هذا الذي يمكر، الله سبحانه وتعالى أرخى له الحبل، فإذا جاء أجله :

(فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ)

صورة مؤلمة .

إذا اهتز الأساس تداعى البناء :

فإذا اهتز الأساس تداعى البناء؛ هذا مكر الكفار، ولو أن إنساناً بنى بناء شامخاً بلا أساس، واعتنى بجدرانه، واعتنى بغرفه، واعتنى بطوابقه، ثم زينه، وبالغ في تزيينه، وأنفق عليه ما لا يحصى، ثم انهار الأساس، فتداعى البناء، كم هي الصورة مؤسفة، وكم هي مضحكة، وكم يعد هذا الإنسان غبياً، وساذجا !! هكذا الفاسق :

(قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

يؤتى الحذِر من مأمنه :

ولحكمة بالغة لا يؤتى الكافر إلا من جهة أمنه، مطمئنٌ إلى صحته، يعتني بها أشد العناية ؛ فلا يأتيه الألم إلا من جهة صحته، مطمئنٌ من جهة ماله، فلا يأتيه العذاب إلا من جهة ماله، مطمئنٌ لمكانته، إذا هي تزلزل من تحت قدميه، يؤتى الحذر من مأمنه .

عَنْ مُعَاذٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَنْ يَنْفَعَ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، وَلَكِنَّ الدُّعَاءَ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ، فَعَلَيْكُمْ بِالدُّعَاءِ عِبَادَ اللَّهِ))

[أخرجه أحمد]

يؤتى الحذر من مأمنه، قد يختص الطبيب باختصاص دقيق، ويذهب إلى بلاد الغرب ليأخذ أعلى الشهادات في هذا الاختصاص، ويعود، ويعتني بصحته إلى أقصى الحدود، فإذا كان غافلاً عن الله سبحانه وتعالى لا يصاب إلا بمرض من اختصاصه، عندئذ تنهار قواه ! يؤتى الحذر من مأمنه، وأيّ جهة أنت مطمئنٌ لها، مستغنٍ بها عن الله سبحانه وتعالى، تتكل عليها، تراها قوة لك، لا يأتيك الدمار إلا من هذه الجهة،

(فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ)

معنى: فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ

أي أهلكهم .

(فَخَرَّ عَلَيْهِمْ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ)

فَخَرَّ عَلَيْهِمْ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ

لو ذهبت لتكسر سقف البناء لطال بك الوقت، لكنهم إذا أرادوا هدم بناء زعزعوا دعائمه، فيخر السقف من فوق، هذه أسهل طريقة، كل هذا البناء الشامخ إذا زلزلت دعائمه خرّ السقف من فوق، صورة رائعة .

(فَخَرَّ عَلَيْهِمْ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ)

الكافر قد يجعل تدميره في تدبيره ؛ ينقلب تدبيره إلى وسيلة لتدميره، يُدَمَّرُ بتدبيره، لذلك المؤمن يقول: اللهم أغننا باختيارك عن اختيارنا، وبتدبيرك عن تدبيرنا،

(فَخَرَّ عَلَيْهِمْ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ(26)ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ)

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ

عذاب الخزي شيء لا يحتمَل :

عذاب الخزي شيء لا يحتمل، هناك عذاب عظيم، وهناك عذاب أليم، وهناك عذاب مهين، قد يخزى الإنسان، قد يقف في موقفٍ يتمنى أن تشق الأرض وتبتلعه، قد يقف في موقف يتمنى لو كان هباء منثوراً، قد يقف في موقف يتمنى أن لم تلده أمه قط، هو العذاب المهين عذاب الخزي .

(ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ)

لذلك ..

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران : 185)

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

(سورة الزخرف : 83)

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

(سورة الطور : 45)

إذا توقفت المركبة العامة فجأة، وصعد المفتش، وطالب الركاب ببطاقاتهم، وأحد الركاب لم يقطع بطاقة، انظر إلى وجهه، انظر إلى لون وجهه، انظر إلى ارتباكه، انظر إلى خجله، انظر إلى موقفه إن كان أنيقاً، إن كان ذا مكانة، ماذا يفعل ؟ هذا من أجل مخالفة لا تزيد على عشر ليرات سورية، فكيف لو وقف الإنسان أمام الخلائق كلها يوم القيامة، وعرضت عليه أعماله مصورة، ورأى فضل الله سبحانه وتعالى عليه ؟ وكيف واجه هذا الفضل بالجحود والنكران؟! وقد أكل مال هذا، وشتم هذا، وآذى هذا، وخَوَّفَ هذا ؛ يحاسبه الله سبحانه وتعالى، أهكذا فعلت بعبادي؟ أهذا جزاء الإحسان؟ ألهذا خلقتُك؟ ألهذا بعثت بك إلى الدنيا ؟

(ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ)

وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ

إياكم والشريك فإنه سيعاديكم يوم القيامة :

هذه الآية دقيقة جداً، تعني اتخاذهم الشريك لله عز وجل، فلان يتخذ فلاناً من دون الله شريكاً، فإذا قال له أخوه: أنت مخطئ يا أخي، صبّ عليه جامَ غضبه ؛ تشاقق مِنْ أجل من؟ من أجل شريك ما أنزل الله به من سلطان؟! كل يدافع عن باطله، ويؤذي من حوله من أجل هذا الباطل، يؤذي من حوله، يعاديهم، يرتكب الآثام من أجل الدفاع عن الذي أشركه مع الله سبحانه وتعالى، أمثل هذا يفعله إنسان ؟!

(وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ)

ويعني بهذه الآية كفار قريش، لأن النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام سبّوا هذه الآلهة، هذه الأصنام، هذه الأحجار الجامدة الميتة، لأنهم فعلوا كل هذا ؛ أقام الكفار عليهم الدنيا ولم يقعدوها،

حاربوهم في بدر، وحاربوهم في أحد، وحاربوهم في الخندق، وقاتلوهم، وأخرجوهم، وهم أقرباؤهم، وأبناء جلدتهم، ومن أرحامهم، شاقوا الناس من أجل الشركاء، أيعقل هذا؟!

كفار مكة لماذا عادوا النبي عليه الصلاة والسلام؟ لماذا أخرجوا أصحابه؟ لماذا قاطعوهم؟ لماذا مكروا بهم؟ لماذا أخرجوهم؟ لأنهم سبوا آلهتهم، وعابوا دينهم، أتمتلئ غيظاً من أجل شريك ما أنزل الله به من سلطان، أهكذا يكون ؟

(وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ)

أين هبل ؟ أين اللات ؟ أين العُزى ؟ أين يعوق ؟ أين نَسر ؟ يا كفار مكة، شاققتم من أجل هؤلاء الأصنام ؟! من أجل هذه الأحجار ؟! من أجل هذه التي ما أنزل الله بها من سلطان ؟! قطعتم أرحامكم ؟ أخرجتم نبيكم ؟ آذيتم أصحابه ؟ أهكذا يكون ؟ وعلى هذا فقس :

قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ

(قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ)

العذابان معاً، عذاب الحريق، وعذاب الخزي، إذا سيق المجرم ليعدم، أو ليعذب، ماذا يذوق ؟ إذا صوره المصورون ترى وجهه تعلوه الغَبَرَة، ترهقه ذلّة، وفوق الذلة عذاب أليم، كذلك الإنسان يوم القيامة، يتحمل العذاب، ومع العذاب عذاب الخزي الأليم :

(إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ(27)الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

(سورة البقرة : 57)

هؤلاء الذين :

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ)

لأنهم ظلموا أنفسهم :

ما عرفوا اللهَ سبحانه وتعالى، ظلم أحدُهم نفسه فجعلها جاهلة، ظلم نفسه فلم يزكّها، لم يُعَرِّفْها بمهمتها، لم يُعَرِّفْها بخالقها، لم يُعَرِّفْها بطريقها إلى الجنة، لم يحضر مجالس العلم، ما قرأ القرآن، ما سأل عن نفسه: أين كان؟ ولا أين سيكون؟ ما التفت إلى خالق الأكوان، شُغِل بالدرهم والدينار، انغمس في الشهوات، قاتل هذا، وسبّ هذا، وأكل مال هذا، حتى جاءه الموت :

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ)

النبي عليه الصلاة والسلام سمع أحد أصحابه وقد بلغه نبأ وفاة أحد الأشخاص، سمع أحد أصحابه يقول: لقد استراح فلان، فغضب النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال : وما أدراك أنه استراح ؟! من أدراك؟ إنما يستريح من غفر له .

الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر :

هذا العالم الجليل الذي كان يركب فرساً في العهود الغابرة، وعليه ثياب جميلة جداً، وحوله بعض تلامذته يحفون به، ويكرمونه، نظر إليه يهوديٌ فقيرٌ، في حالة قميئةٍ بائسةٍ، وقد سمع هذا اليهودي بحديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ))

[أخرجه مسلم]

فحار في هذا الحديث، فلما لقي هذا العالم في موكب في الطريق قال : يا سيدي : يقول نبيكم :

((الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ))

فأي سجن أنت فيه؟ أي سجن هذا؟ وأي جنة أنا فيه؟! هو مسحوق، أنت في سجن، وأنا في جنة؟! فقال هذا العالم الجليل: يا هذا إن حالتك البائسة التعيسة، إذا قيست بما ينتظر الكافر من عذاب أليم يوم القيامة فأنت في جنة، وإن حالتي التي ترضيك، إذا قيست بما وعد الله المؤمنين يوم القيامة فأنا في سجن، ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي]

يا بني، ما خَيْرٌ بعده النار بخير، وما شَرُّ بعده الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية، يا بني العلم خير من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، ألا يا رُبَّ نفس طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة، ألا يا ربَّ نفس جائعة عارية في الدنيا، طاعمة ناعمة يوم القيامة، ألا يا ربَّ مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا يا ربَّ مهين لنفسه وهو لها مكرم، ألا يا ربَّ متخوض ومتنعم فيما أفاء الله على رسوله ما له عند الله من خلاق، ألا يا ربَّ شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً :

((أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ، ثَلَاثًا، أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُقِيَ الْفِتَنَ))

[أحمد عن ابن عباس]

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ)

الغنى والفقر بعد العرض على الله .

(فَأَلْقَوْا السَّلَمَ)

فَأَلْقَوْا السَّلَمَ

عند الهزيمة النكراء تُرفع الراية البيضاء :

كيف أن المجرم حينما يؤخذ سلاحه منه، ويلقى القبض عليه بأيدٍ شديدةٍ متينة، كيف أنه يستسلم ؟ تنهار قواه تخور، عزيمته، يصفر وجهه، يكاد يقع على الأرض .

هؤلاء الكفار ظالمو أنفسهم، حينما تأخذهم الملائكة عند الموت ألقوا السلَم، ألقوا سلاحهم، ورفعوا أيديهم، هم ينتظرون عقابهم الأليم، هم ينتظرون ما يفعل بهم،

النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن انتهت موقعة بدر بالفوز والنصر توجه إلى قتلى المشركين، خاطبهم بأسمائهم واحداً واحداً، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ :

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكَ قَتْلَى بَدْرٍ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَتَاهُمْ، فَقَامَ عَلَيْهِمْ، فَنَادَاهُمْ، فَقَالَ : يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ، يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا، فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَسْمَعُوا ؟ وَأَنَّى يُجِيبُوا وَقَدْ جَيَّفُوا ؟ قَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا، ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَسُحِبُوا، فَأُلْقُوا فِي قَلِيبِ بَدْرٍ))

[مسلم]

هذه ساعة عصيبة، ساعة لو نسمع صياح من جاءته لصعقنا جميعاً، يصيح الكافر، يوم تأتيه الملائكة لتقبض روحه يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا جميعاً

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ)

انظروا إلى الكلام الفارغ :

كلام فارغ، والله أنا بريء، هذه كلمة كلِّ المجرمين، حينما يلقى القبض عليه، ما فعلت هذا، أنا بريء أنا مظلوم !

(مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى)

لا يُظلَم عند الله أحد :

ربنا سبحانه وتعالى يكذبهم :

(بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

أعمالكم كلها مسجلة عليكم، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها،

(بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)

المصير المحتَّم للكفار : جهنّم :

هؤلاء الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، خلق الإنسان ضعيفاً، يتكبرون فيها بغير الحق، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، قَالَ رَجُلٌ : إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ : إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ))

[مسلم]

(فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)

هذا هو المثوى الأخير، فلذلك :

ليس من يقطع طرق بطلاً إنما من يتقي الله البطل

***

إذا كنت بطلاً حقاً تأتي يوم القيامة ناصع الجبين، أبيض الوجه، صادق القول، طيب القلب، سليم القلب، هذه هي البطولة، أما أنك حصلت المال الفلاني، عمرت هذا البيت، أنشأت هذا المعمل، أقمت هذه المزرعة، أملك كذا وكذا، عندي من المال ما لا تأكله النيران، فعلت كذا وكذا، سافرت إلى كذا وكذا، أكلت كذا وكذا، هذا لا ينفعك عند الموت، إلا من أتى الله بقلب سليم .

بئس مثوى الكافرين جهنم :

(فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)

(تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة القصص : 83)

لا علو ولا فساد، لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفت :

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

العاقبة للمتقي، للمستقيم، للمؤمن، للذي يخاف الله سبحانه وتعالى، للذي يرجو الله واليوم الآخر، العاقبة له، الفوز له النجاح له، الفلاح له، الجنة له .

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوِ الدَّجَّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[أخرجه الترمذي]

لو أن الإنسان سها ولها عن الله سبحانه وتعالى، غفل عنه، وانكب على الدنيا، فلا بد من يوم يستيقظ فيه على خبر مؤلم، إن في صحته، أو في ماله، أو في أولاده، أو في زوجته، أو في حريته، لا بد من خبر مؤلم، أما إذا عرفت الله سبحانه وتعالى :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة التوبة : 51)

من خير إلى آخر، ومن رقي إلى رقي، ومن سعادة إلى أعلى، ومن عقل إلى أوسع، لا بد من التطور نحو الأعلى، في عقلك ومعرفتك، وحالك النفسي، ومكانتك، وحبك، وإقبالك، وصلاتك، وعبادتك، كلما زدت في العمر يوماً زدت قرباً، وزدت مكانة، وزدت حصافة، وزدت عقلاً، يقابل هذا أن أهل الدنيا لا بد من أن تأتيهم الأخبار المفزعة، لا بد من أن يُصْعَقُوا قبل أن يموتوا، لا بد من أن يقصمهم الله سبحانه وتعالى، لا بد من أن يُفْزعهم، هؤلاء :

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ)

وفي الحديث :

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا ـ فقرًا مفاجئا ـ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ـ يخرج صاحبه من الاستقامة ـ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ـ يفسد على الإنسان حياته ـ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ـ يصبح أضحوكةً بين أقربائه، يخرف ـ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوِ الدَّجَّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[أخرجه الترمذي]

إذا كنت تحب نفسك، إذا كنت مفرطاً في حب نفسك، فانتبه لهذه الحقائق، القرآن يحذرك مما سيكون .

أما القسم الآخر من الآيات :

(وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ(30)جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ

يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ(31)الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(32)هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمْ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

فسنتناولها في درس قادم، إن شاء الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (07-21): تفسير الآيات 30 – 34 ، عن فطرة الإنسان ـ الرؤية الصحيحة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-02-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قول تعالى :

(وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ(30)جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ)

من مشاهد أهل الإيمان في القرآن :

في الدرس الماضي كان المشهدُ مشهدَ أهل الكفر، وما ينالهم يوم القيامة من عذاب مقيم، وفي هذا المشهد الثاني مشهد أهل الإيمان، هؤلاء الذين اتقوا، هؤلاء الذين حصلت لهم الرؤية، الرؤية القلبية لقوله تعالى :

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

(سورة الحج : 46)

أهل الإيمان لهم رؤية صحيحة :

ما من واحد منا إلا وله رؤية، هذه الرؤية تحدد موقفه، هذه الرؤية تجعله يستقيم، أو ينحرف، يرحم أو يقسو، ينضبط أو يتفلت، إنها الرؤية، إذا صحت صح العمل، وإن كانت الرؤية بلا غاية، أو منحرفة، أو خاطئة انحرف العمل، وإذا انحرف العمل هلك الإنسان .

هذا من فطرة الإنسان التي فطره الله عليها :

وما من إنسان أيها الإخوة إلا ويحب نفسه، هذه فطرة الإنسان .

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم : 30)

فطرنا على حب أنفسنا، على توخي السلامة لها، على توخي الرفعة لها، فطرنا على طلب السعادة، فطرنا على طلب الخير، على حب الخير .

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

بنو البشر من أقاصي البلاد إلى أقاصي البلاد، من جبلة واحدة، ومن طينة واحدة، يا داود، ذكر عبادي بإنعامي عليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها، الإنسان جُبل على حب ذاته، وجُبل على توخي السلامة لذاته، و جُبل على توخي الخير لذاته، وجُبل على حب المحسن، وعلى بغض المسيء، هذه جِبلّة الإنسان، فبدافع من هذه الجبلّة لن تقع في الشر إلا إذا رأيته خيراً، إذا رأيت الشر شراً لن تقترفه، وإن رأيت الخير خيراً بادرت إليه، بدافع من فطرتك .

في أمور الدنيا الناس يحرصون على دنياهم، يستشيرون، يسألون، يدققون، يمحصون، يوازنون، يقابلون من أجل سلامة المال، من أجل نموِّه، من أجل صحة الجسد، لو أنهم طَبَّقوا أساليبهم التي يتبعونها في دنياهم على أخراهم لفازوا بالدنيا والآخرة، فهؤلاء المتقون هم الذين أقبلوا على الله عز وجل، وقذف الله في قلبهم النور، فرأوا الخير خيراً والشر شراً، استنارت قلوبهم، كما قال عليه الصلاة والسلام :

((وَالصَّلَاةُ نُورٌ))

[رواه مسلم عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ]

هذا الذي تَعرض عليه مبلغاً حراماً، وهو في أمسّ الحاجة إليه، يقول لك : لا، ورب الكعبة، الله الغني، لا أفعل معصية، ماذا يرى ؟ وهذا الذي يبحث عن المال الحرام يأكله من أيّ طريق، وبأيّ أسلوب، ومهما كلف الثمن، ومهما ضحى بقيمه، أو بمبادئه، أو بقناعته، ماذا يرى ؟ هذا الذي يقدم على قتل إنسان ليأخذ ماله، لماذا أقدم على هذه الجريمة، ماذا رأى ؟

سيدنا يوسف حينما عرضت امرأة العزيز نفسها عليه، وكانت ذات منصب وجمال، وكانت سيدة مطاعة في قصرها، وكان عبداً عندها، وكان شاباً، وكان غريباً، وغير متزوج، وفي بيتها، وتلقى منها أمراً، وليس من صالحها أن تنشر الخبر، وسيدها ضعيف الشخصية، عشر عوامل تضافرت جمعياً كي يستجيب لها، ومع ذلك قال : معاذ الله، ماذا رأى .

كل فعلٍ وتركٍ يُبنَى على رؤية :

تأكدوا أيها الإخوة أن أحد منكم لا يفعل شيئاً، ولا يدع شيئاً، إلا بناء على رؤية رآها، هذه الرؤية إما أن تكون صحيحة، وهذا هو الهدى، وإما أن تكون باطلة، وهذا هو الضلال، الذي يُعرض عليه مال حرام فيأبى أن يأخذه، هذا رأى أن الأمر كله بيد الله، وأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وأنه إذا أخذ مالاً حراماً يوشك الله أن يتلفه مع ماله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((ما ترك عبد شيئا لله لا يتركه إلا له إلا عوضه الله منه ما هو خير له منه في دينه ودنياه))

[رواه أبو نعيم عن ابن عمر مرفوعا]

وأن الله إذا أعطى أدهش، وهو المعطي، فلا يسأل، وهو الكريم، فلا يبخل، وهو الحليم، فلا يعجل، كل هذا الرؤى اجتمعت في نفس هذا الإنسان حينما عرض عليه مال حرام، فقال : لا، ورب الكعبة، كلمة لا وراءها رؤية، لماذا يبالغ الطبيب في غسل يديه قبل الطعام ؟ لأنه رأى بعينه من خلال الميكروسكوب الجراثيم، ورأى المرضى، هذا مريض بالعدوى، وهذا مريض بالجرثوم الفلاني، إن رؤية الطبيب لحقائق الأمور تجعله يبالغ في تنظيف يديه .

كيف يفعل الإنسان شيئا يدمِّره :

أيها الإخوة الأكارم، نحن جميعاً وبنو البشر جميعاً، وكل ولد آدم منذ أن خُلقنا على سطح الأرض، وحتى يوم القيامة مفطورون على جِبلّة واحدة، نحب الخير لأنفسنا، نحب السلامة، نحب الخلود، نحب النماء، هذه الفطرة، كيف يفعل الإنسان شيئاً يدمره؟ يفعل هذا الشيء الذي سيدمره لأنه لا يملك رؤية صحيحة، يرى الدنيا كل شيء، ويرى أن المال كل شيء، ويرى أن الحياة لذيذة، وأن الموت بعيد، وأنه لا شيء بعد الموت، هذه الرؤية تحمل صاحبها على اقتراف الآثام، وأكل الأموال، والطغيان، رأى الحياة الدنيا هي كل شيء، ولا شيء بعد الحياة الدنيا، لذلك هذه الرؤية الخاطئة حملته على اقتراف الآثام، هل تصدقون أن أكبر عدوٍ لكم هو الجهل، أكبر عدوٍ للإنسان أن يجهل حقيقة الأشياء، من منا إذا شاع أن هذا الشيء ملوث، ويسبب أمراضاً خبيثة، من منا يأكله؟ لا أحد، بدافع من فطرتنا، من منا يأكل طعاماً ملوثاً بالإشعاع الذري؟ لا يأكله مهما كان جائعاً، بدافع من الفطرة، من منا على مشارف مرض خطير يخالف نصيحة الطبيب؟ لا أحد ، هذه الرؤية الصحيحة .

يا أيها الإخوة الأكارم، موقفك من الله عز وجل، موقفك من الربا، موقفك من العمل، موقفك من كسب المال، موقفك من زوجتك موقفك من أمك، موقفك من جارك، موقفك من صفقة مشبوهة، هذا تحدده رؤيتك، إما أن تكون هذه الرؤية صحيحة، وإما أن تكون هذه الرؤية منحرفة، نور الله عز وجل إذا ألقي في قلبك من خلال الصلاة جعل لك هذه الرؤية الصحيحة .

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا

فلذلك هذه هي التقوى، التقوى أن تنظر بنور الله، التقوى أن تملك رؤية صحيحة، التقوى ما تعنيه الآية الكريمة :

(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ)

(سورة الأنعام : 75)

ما هي التقوى ؟

التقوى أن يجعل الله لك نوراً تمشي به في الناس، التقوى أن يكون لك فرقان، تفرق به الحق من الباطل، والخير من الشر، وما يجوز، وما لا يجوز، لذلك لا ينبغي أن نقعد عن طلب مرتبة التقوى، فإذا بلغنا هذه المرتبة فنحن في أمان الله، وبدافع من فطرتنا لا نفعل إلا ما ينفعنا .

(وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا)

فَكَّر في ملكوت السماوات والأرض، حصلت له قناعة أن لهذا الكون إلهاً عظيماً، ينبغي أن يُعبد، عبده، فإذا عبَده فهذا هو الإسلام ، المسلم من استسلم لله في كل أوامره ونواهيه، الانقياد الكلي لأوامر الله عز وجل، بعد أن انقاد كلياً للأوامر أقبل على الله، اتصل به، بهذا الإقبال، وبهذا الاتصال حصلت له هذه الصلة، فهذا هو الإيمان، إذا استمرت هذه الصلة ، وتعززت، وبلغت حداً معيناً انقلبت إلى تقوى، والتقوى رؤية نفسية بسبب من نور إلهي ألقي في قلب المؤمن في أثناء الصلاة هذا الإقبال يجعلك من أهل التقوى، إذاً أنت تملك الرؤية الصحيحة .

ما من مشكلة، ما من مصيبة على وجه الأرض إلا وراءها معصية، وما من معصية إلا وراءها عمل سيئ، وجهل، وانقطاع عن الله سبحانه وتعالى .

(وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا)

إنزال القرآن هو إنزال الخير :

هذا القرآن لخصه الله تعالى بكلمة واحدة، عنوانه:

(قرآن كريم)

كلمتان، أما في هذه الآية فلخصه كله في كلمة واحدة :

(قَالُوا خَيْرًا)

إذا قرأته، إذا قرأت آياته الكونية، وخشع قلبك لعظمة الله، وعقدت العزم على التوبة فهذا خير، وإذا قرأت آياته التشريعية، ونفذتها في علاقاتك اليومية فهذا خير، وإذا قرأت آيات الزواج، واتبعت ما جاء فيها، في علاقتك مع زوجتك، فهذا خير، وإذا تفكرت في مشاهد القيامة وأهوالها، فاتعظت من هذه المشاهد، وعقدت العزم على الاستقامة، فهذا خير فكل ما في هذا الكتاب خير، قراءته خير، تلاوته خير، معرفة مضامينه خير، تدبره خير، تطبيقه خير، لكن أعلى أنواع الخيرات أن ينقلب هذا القرآن إلى سلوك، سُئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن أخلاق النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالَ سَعْدُ بْنُ هِشَامٍ :

((يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ : أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ ؟ قُلْتُ : بَلَى، قَالَتْ : فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ الْقُرْآنَ))

[رواه مسلم عن زرارة]

تطبيق القرآن هو الخير كله والإعراض عنه هو الشر والضلال :

إلى أن يصبح هذا الكتاب سارياً في علاقاتك اليومية، تتلو قوله تعالى :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

(سورة النور : 30)

تطبق هذه الآية، فإذا أنت من أسعد الناس في البيت، هذا كلام رب العالمين، كلام هو قانون، ومعنى القانون أن العلاقة ثابتة بين شيئين، هناك علاقة ثابتة بين غض البصر والسعادة الزوجية، وهناك علاقة ثابتة بين إطلاق البصر والشقاء الزوجي، تطبق هذه الآية فتكون أسعد الأزواج، تمضي حياتك كلها مع زوجتك في سعادة وهناء، ووفاق، ومودة، ومحبة، وطهر، ووفاء، وبر، وحب، فإذا أطلق الإنسان بصره صار بيته جحيماً لا يطاق ، وصارت حياته نكدًا، وصارت معيشته نكدا أيضاً، وكانت الآية الكريمة منطبقة عليه .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه : 124)

رجل له هواية واحدة، في أيام الصيف بالذات يقطع بعض الطرقات المزدحمة بالنساء مرتين، أو ثلاث مرات ذهاباً وإيّابًا، يُمتِّع عينيه بالنظر إلى النساء، وهن يخطرن في الطرقات كاسيات عاريات، مائلات مميلات، وله أولاد شبان، وله بنات متزوجات، وكان له جار ينصحه كثيراً ؛ أن يا جار، لا يليق هذا بالمسلم، لا يليق هذا بمن زوج بناته ، واستقبل أصهاره، وعنده أولاد هو قدوة لهم، هذه العادة المستحكمة لا يدعها، إلى أن أصيب بمرض عضال اسمه ارتخاء الجفون، لا يستطيع أن يرى إنساناً إلا بعد أن يمسك جفنه، ويفتحهما بيده، فإذا تركه عاد من تلقاء نفسه مغمضاً، فلو أنه طبق هذه الآية :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

(سورة النور : 30)

المؤمنون طبقوا هذه الآية فعاشوا في سعادة، في خيرات .

وفي كسب المال ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)

(سورة البقرة : 276)

لو الإنسان تلا هذه الآية، وتدبرها، وعرف أبعادها، وطبقها لحفظ الله له ماله، وعاش في بحبوحة، وفي أمن، ولكن الله سبحانه وتعالى يتلف للذين يكسبون مالاً حرامًا أموالهم، بأسباب تافهة، قد ينسى مصباحاً متألقاً في الليل فيحترق محله التجاري كله، بسبب تافهٍ جداً، قد ينسى دخينة على الطاولة، تسبب أتلاف ماله، قال عليه الصلاة والسلام :

((ما تلف مال، في بر ولا بحر إلا بحبس الزكاة))

[أخرجه الطبراني في الأوسط عن عمر بن الخطاب، قال الهيثمي : فيه عمرو بن هارون وهو ضعيف]

لو طبق قوله تعالى :

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ)

(سورة البقرة : 43)

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)

لكان تطبيق هذه الآيات عائدًا عليه بالخير .

سيدنا أبو الدرداء رضي الله عنه قيل له : إن دكانك قد احترقت، فذكر جوابًا فيه فتور، قال : ما كان الله ليفعل، قيل : يا أبا الدرداء، إن دكانك قد احترقت بذاتها وعينها، قال : ما كان الله أن يفعل، فلما ذهبوا إلى دكانه وجدوها لم تحترق، التبس عليهم الأمر، احترقت الدكان التي إلى جانبه، فلما عادوا إليه، وقالوا : لمْ تحترق دكانك، قال : أعلم ذلك .

لماذا المؤمن سعيد ؟

ما من مؤمن صادق تسأله عن أحواله إلا ويسمعك كلمات يطمئنك عن أحواله، في غاية السرور، وغاية السعادة، وغاية الطمأنينة، وغاية الرضا عن الله عز وجل، لأنه انشغل بمعرفة الله :

((ومن شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين))

[البزار في المسند والبيهقي في الشعب عن عمر]

هذه رابعة العدوية حينما كانت تناجي ربها وتقول :

فليتك تحلو و الحياة مريــرة ولیتك ترضى والأنام غضاب
وليت الــذي بين و بينك عامر وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الوصل فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

***

بماذا كانت تشعر ؟

هذا الصحابي الجليل، وأظن اسمه ربيعة، النبي عليه الصلاة والسلام بعد غزوة أحد سأل أصحابه، وكان حريصاً عليهم، رحيماً بهم، قال : ما فعل ربيعة ؟ لم يجب أحد، فندب أحدهم ليذهب إلى أرض المعركة لتفقده، أفي الأحياء هو أما في الأموات ؟ فلما وصل بحث عنه فإذا هو على وشك الموت، في النزع الأخير، يلفظ أنفاسه الأخيرة، فقال هذا الصحابي الذي ندبه رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا ربيعة، لقد أرسلني رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتفقدك أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟ فما كان من هذا الصحابي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويودع الدنيا، وكان شاباً في مقتبل العمر ـ تصوروا ماذا يقول إنسانٌ على وشك الموت وهو في مقتبل العمر، سألت طبيباً قلت له : بربك، صف لي ميتاً جاءه الموت تحت سمعك وبصرك، قال : يصفر وجهه، ويندب حظه، ويبكي، ويصرخ بويله، وما شأن هذا الصحابي حينما قيل له : إن رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرني أن أتفقدك، أفي الأحياء أنت أم في الأموات ؟ قال : قل له : إني في الأموات، وقل له : جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، ما نسي في هذه اللحظة، وربما كانت هذه اللحظة أسعد لحظات حياته، ما نسي فضل النبي عليه الصلاة والسلام، قال له : أقرئ رسول الله مني السلام، وقل له : جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، وقل لأصحابه : لا عذر لكم عند الله، إذا خلص إلى نبيكم، وفيكم عين تطرف، يعني إذا بقي فيكم واحد تطرف عينه، وقد خلص إلى نبيكم، لا عذر لكم عند الله .

هذه حالة موت، هذه حالة من يفارق الدنيا، هذا هو الإسلام الذي يبث في قلب المرء سعادة لا توصف.

أيها المؤمن لا تحزن ولا تضعف :

والله الذي لا إله إلا هو مهما ضاقت الدنيا على المؤمن، قد يجوع المؤمن، وقد يلبس ثياب خشنة، وقد يسكن بيت صغيراً، لا يرى النور، وقد يكون دخله أقل بكثير من مصروفه، وقد يعيش أزمات الناس، ولكنه لا يحس بها، لأن هدفه الكبير قد تحقق، خَلقه في الأرض ليعرفه، وليطيعه، وليتقرب إليه، وها قد فعل، حقق الهدف من خَلق السماوات والأرض :

((الدنيا جيفة طلابها كلابها))

[فيض القدير]

الدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له .

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[أخرجه الترمذي]

قال سيدنا علي رضي الله عنه: " يا دنيا غرّي غيري، طلقتك بالثلاث، شأنك قليل، وأمدك قصير، لقد طلقتك طلقة لا رجعة بعدها " .

من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمني فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ))

[أخرجه الترمذي]

و :

((من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين))

[أخرجه البخاري في التاريخ، والبزار في المسند، والبيهقي في الشعب من حديث عمر بن الخطاب]

و :

((من طلب العلم تكفل الله له برزقه))

[أخرجه الخطيب في التاريخ عن زياد بن الحارث الصدائي]

هذا الحديث الشريف ترك في حياة سيدنا أبي حنيفة النعمان رَضِي اللَّه عَنْه انعطافاً خطيراً، يروي التاريخ أن هذا الإمام العظيم كان يحج بيت الله الحرام، وقد سمع هذا الحديث من أحد علماء البيت الحرام فسبَّب هذا الحديث عنده انعطافاً في حياته فطلب العلم .

اطلبوا العلم، أمضِ وقتك الثمين، والله الذي لا إله إلا هو لتأتينك الدنيا وهي راغمة، وليبسِّرنَّ لك الله أمورك، وليباركن لك في وقتك، وليتأتينك رزقٌ كثير بجهد يسير، ذلك حقٌ على الله عز وجل، ادفع زكاة وقتك، اجلس ساعة على قدميك، استمع إلى كتاب الله، إلى تفسير كتاب الله، وسيعفيك الله من وقفات طويلة بلا طائل، في أماكن أخرى، اجلس على ركبتيك، وتعلم كتاب الله، وسيحفظك الله، من جلسات طويلة تحت الكلية الصناعية .

قال لي رجل : أتمنى الموت، قلت لماذا؟ قال : حياتي شقاء لا يوصف، قلت ما السبب ؟ قال : عندي كل أسبوع جلستان مطولتان لتصفية الدم، إلى أن يأتي دوري أنتظر بضع ساعات، وأجلس تحت التصفية ثماني ساعات في كل مرة، وأدفع نفقات باهظة .

فأنت اجلس على ركبتيك، واستمع إلى تفسير القرآن، والله عز وجل يحفظك، فمن تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت .

لماذا الحزن؟ الأمر كله بيد الله، والله أسماؤه حسنى، الأمر كله بيد الله، وهو رحيم، وسميع، وبصير، وعليم، وحكيم وخبير، ورؤوف، هذه أسماؤه، والأمر كله بيده، من أين يأتيك الحزن ؟ لا يحزن قارئ القرآن .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة النحل : 97)

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30)نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)

(سورة فصلت : 30 - 31)

خالق الكون، خالق الأكوان يقول لك :

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)

أتخشى من إنسان، والواحد الديان وليك ؟! أتخشى من إنسان ورافع السماوات من غير عَمد وليك ؟!

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)

(سورة الحج : 38)

أليست هذه الآيات تشجعك أن تكون مع الله، أن تتوب إليه، إذا رجع العبد العاصي سطع نورٍ بين السماء والأرض، ونادى منادٍ من قِبَل الحق جل وعلا : أن أيتها الخلائق هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله، والله الذي لا إله إلا هو لا تحل مشكلة إلا إذا اصطلح مع الله، والصلح يتم في لمح البصر، تقول : يا رب، يقول لك : لبيك يا عبدي، إذا قال العبد : يا رب، وهو راكع قال الله : لبيك يا عبدي، فإذا قال العبد : يا رب وهو ساجد، قال : لبيك يا عبدي، فإذا قال العبد : يا رب وهو عاص قال الله عز وجل : لبيك، لبيك، لبيك يا عبدي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب .

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

فيا خجلي منه إذا ما قال لــي أيا عبدنا أما قرأت كتابنـــا

أما تستحي منا و يكفيك ما جرى أما تختشي من عتبنا يوم جمعنا

أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً إلينا و تنظر ما به جاء وعدنـا

***

فرح الله بتوبة العبد :

أيها الإخوة الأكارم، الذي لا يتوب إلى الله عز وجل في الدنيا أحمق، باب التوبة مفتوح، لله أفرح بتوبة عبده، من الضال الواجد والعقيم الوالد، والظمآن الوارد .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ))

[مسلم]

وفي رواية أخرى في الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلًا وَبِهِ مَهْلَكَةٌ، وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً، فَاسْتَيْقَظَ، وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ، حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ، أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ، قَالَ : أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي، فَرَجَعَ، فَنَامَ نَوْمَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ))

[متفق عليه]

أيا غافلاً تبدي الإسـاءة والـجهلا   متى تشكر المولى على كل ما أولى
عليك أياديه الكرام و أنت لا تـراها   كأن العين عميـاء أو حــولا
لأنت كمسكون حوى المسك جيبـه   ولكنه المحروم ما شـمه أصـلا

***

كيف قال أبو يزيد البسطامي: " لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف " ؟ بماذا كان يشعر هؤلاء المؤمنون، هؤلاء الأتقياء، هؤلاء الأولياء، بماذا يشعرون ؟ وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ لو قسمت السعادة التي في قلوبهم على أهل الأرض لسعدوا، تقبل عليه وتشقى ؟

(لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى)

(سورة الليل : 15)

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

(سورة الليل : 5 - 7)

من ذاق حلاوة القرب آثر الله على كل شيء، من عرف الله زهد فيما سواه .

فلو شاهدتك عيناك من حسننا الذي   رأوه لما وليت عــنا لغيرنا

***

هذا يلحق المال، فلان متجه نحو الشهوات المنحطة، هذا يمضي وقته في لعب النرد، هذا يمضي وقته في الحديث عن الدنيا، هذا يقيم حفلات مختلطة يمتع عينيه بالنساء، هذا يفعل المنكرات .

فلو شاهدتك عيناك من حسننا الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنـــــا
ولو سمعت أذنك حسن خطابنـا خلعت عنك ثياب العجب وجئتنــا
ولو ذقت من طعم المحبـة ذرة عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنــا
ولو نسمت من قربنا لك نسمــة لمتّ غريباً واشتياقاً لقربنـــا
و لو لاح من أنوارنا لك لائــح تركت جميع الكائنات لأجلنـــا
فـما حبنا سهل وكل من ادعى سهولته قلنا له قد جهلتنـــــا
فأيسر ما في الحب بالصب قتلـه وأصعب من قتل الفتى يوم هجرنــا

***

هذا القلب منظر الرب، لا تدنسه بالذنوب، املأه محبة لله، املأه صفاءً، املأه خشية، املأه مودةً للذي خلقك من قبل، ولم تكن شيئاً .

كلمة (خيرا)وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ نفسي لا تسخو أن أغادرها، القرآن بكامله ملخص في كلمة واحدة :

(وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ)

هذا القرآن إذا طُبق غنىً لا فقر بعده، ولا غنىً دونه .

داؤك المعصية ، ودواؤك الطاعة :

داؤك منك، ودواؤك فيك، داؤك المعصية، ودواؤك الطاعة، لا تقل : ظروف ضيقة، حياة صعبة، قدر ساخر، قلب ليّ الدهر ظهر المجن، حظي تعيس، كل ذلك كلام فارغ، ليس له معنى هذا الكلام : حظي تعيس ما هو الحظ ؟ قلب ليّ الدهر ظهر المجن، من هو الدهر ؟ الدهر إله آخر ؟ لا إله إلا الله، ظروفي صعبة، ما الظروف الصعبة ؟ جعلها الله صعبة كي تعود إليه، هو الذي جعلها صعبة .

فلذلك حينما يقول الإنسان : ظروف ضيقة، وصعوبات، وحياة خشنة، وأبواب مسدودة، وآمال معدومة، ونفسي في ضيق، والدهر غدار، والأيام تقلب لك ظهر المجن، والحظ تعيس، هذه كلها كلمات أهل الشرك، لا معنى لها، لا يوجد إلا آية وحدة .

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى(7)وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى(8)وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(9)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل : 5 - 10)

إن كنت مع الله عز وجل مستقيماً على أمره فأمورك من تيسير إلى تيسير، من توفيق إلى توفيق، من درجة إلى أعلى، تأكد أيها الأخ الكريم أن لكل منا خطًّا بيانيًّا، إما أن يكون صاعداً، وإما أن يكون هابطاً، إما أن يصعد صعوداً حاداً ليهبط هبوطاً مفاجئاً، وإما أن يصعد صعوداً مستمراً، تأكد أن خط بيان المؤمن في صعود مستمر إلى الأبد، وما الموت إلا نقطة على هذا الخط، هذا الأبد .

(قَالُوا خَيْرًا)

تلاوته خير، وتجويده خير، وحفظه خير، وفهمه خير، وأهمّ ما في الخير تطبيق هذا القرآن، تطبيقه في حياتك اليومية .

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ)

المحسن له في الدنيا حسنة :

للمحسن في الدنيا حسنة، لا بد من حياة طيبة، لابد من أن تنتظرك حياة طيبة، وادعة، هانئة رغم صعوبة الظروف، رغم الأزمات الحادة، رغم كل شيء تقوله، لا بد من حياة طيبة يضمنها الله لك بعد أن تجتاز الامتحان، لأنك قد تستقيم طمعاً لما في الاستقامة من خير، هذه استقامة مشوبة، يجب أن تستقيم حباً بالله، يجب أن تستقيم ابتغاء مرضاة الله، لا غير، أما إذا استقمت بما علمت من أن المستقيم يعيش في بحبوحة، فإنك تستقيم، ولن تعيش في بحبوحة، لا بد من امتحان، وبعد الامتحان يأتي العطاء،

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ)

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة البقرة : 201)

يا أبت أعرفُ حسنة الآخرة، فما حسنة الدنيا؟ قال: يا بنيتي الزوجة الصالحة، قال بعض المفسرين : الزوجة الصالحة هي الحسنة في الدنيا :

(وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ)

وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ

إنه انتقال من لا شيء إلى كل شيء :

ينتقل الوليد من الرحم إلى سعة الدنيا، هذا الانتقال يشبه انتقال المؤمن من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، الرحم كالبيضة تماماً، 7.5 سنتيمتر مكعب، تصبح 750 سنتيمترًا بعد الحمل، تسعة أشهر، وهذا الصغير، كل الحجم الذي يسعه 700 سنتمتر مكعب، وحينما ينتقل هذا الطفل إلى الدنيا، يكبر ويسافر، ويركب طائرات، وينتقل من قارة إلى قارة، اجعل نسبة بين الرحم وبين الدنيا، بين من ركب طائرة سافر إلى أمريكا، وإلى الصين ، وإلى القطبين، أو ركب مركبة فضائية فحلق في الفضاء الخارجي، كان في الرحم، كذلك المؤمن يخرج من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة .

النبي عليه الصلاة والسلام قال :

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر))

[رواه الطبراني في الكبير عن المستورد]

إبرة اغمسها في مياه البحر وانظر بمَ ترجع من مياه البحر ؟

(وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ(30)جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ)

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ

أنت الآن في الدنيا هل يكون لك ما تشاء؟ هل أي شيء تشاؤه تجده أمامك؟ ما أكثر الأشياء التي تشاؤها ولا تجدها، ولكن أهل الجنة أي شيء يشاؤونه إذا هو أمامهم، على الخاطر :

(لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31)الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

ساعة الموت أحلى لحظات المؤمن :

ما من ساعة أجمل في حياة الإنسان من ساعة الموت إذا كان الميت مؤمناً، وطيباً، وطاهراً .

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ)

(سورة الحجر : 46)

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ :

((لَمَّا وَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ كَرْبِ الْمَوْتِ مَا وَجَدَ قَالَتْ فَاطِمَةُ : وَا كَرْبَ أَبَتَاهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا كَرْبَ عَلَى أَبِيكِ بَعْدَ الْيَوْمِ، إِنَّهُ قَدْ حَضَرَ مِنْ أَبِيكِ مَا لَيْسَ بِتَارِكٍ مِنْهُ أَحَدًا، الْمُوَافَاةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[أخرجه الترمذي وأحمد]

(قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(26)بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ)

(سورة يس : 26 - 27)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ :]فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ [ ))

[متفق عليه]

أنت ضيف الرحمن، ضيف الله، الإله العظيم الذي أطعته طوال عمرك هو الآن ينتظرك، من اشتاق إلى لقاء الله اشتاق الله إلى لقائه،

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

كل الفلاح، وكل التوفيق، وكل الفوز، وكل النجاح، وكل التفوق، حينما يأتي الإنسان ملك الموت وهو طيب القلب .

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ)

هذه هي البطولة :

ليس من يقطع الطرق بطلاً إنما من يتقي الله البطل

***

إذا أعددت لهذا اليوم عدته فأنت بطل .

عن عبد الله بن المسور أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

((يا رسول الله، علمني من غرائب العلم، قال : ما فعلت في رأس العلم فتطلب الغرائب ؟ قال : وما رأس العلم ؟ قال : هل عرفت الرب ؟ قال : نعم، قال : فما صنعت في حقه ؟ قال : ما شاء الله، قال : عرفت الموت ؟ قال : نعم، قال : ما أعددت له ؟ قال : ما شاء الله، قال : انطلق فأحكم هاهنا، ثم تعال أعلمك من غرائب العلم))

[أخرجه أبو نعيم في الحلية]

ماذا أعددت لهذه الساعة ؟

هذا سؤال خطير، لو أن أحداً سألك : هل تعرف الله ؟ تقول له : نعم، وما الموقف الذي وقفته من أجل هذه المعرفة؟ ماذا تركت من أجله؟ ماذا فعلت من أجله؟ من عاديت من أجله؟ من واليت من أجله؟ ما الشيء الذي تركت من أجله؟ ما الشيء الذي فعلت من أجله؟ ما الصديق الذي صادقته من أجله؟ ما المجلس الذي حضرت من أجله؟ ماذا فعلت من أجله؟ ماذا صنعت في حقه؟ قال: ما شاء الله، قال : هل عرفت الموت؟ قال: نعم، قال : فماذا أعددت له؟ هذا سؤال ثانٍ، لو أن أحداً سألكم : هل أنتم موقنون أننا سوف نموت؟ تقول: نعم، وماذا فعلت من أجل هذه الساعة؟ ماذا أعددت لهذه الساعة؟ هل تفكر أن إنساناً ينوي السفر ولا يعد حقيبة! ولا يعد مبلغاً من المال! ولا يعد معلومات! أين سأذهب؟ أين سأنام؟ من يستقبلني؟ تأخذ أرقام هواتف، تتصل بالمطار، بأصدقائك، بأقربائك، من يذهب بلا خطة؟ بلا زاد؟ ماذا أعددت للموت؟ هل أعددت استقامة؟ هل أعددت مالاً حلالاً؟ هل أعددت نفساً طيبة؟ هل أعددت عبادة خالصة؟ هل أعددت علماً نافعاً؟ هل تركت ولداً صالحاً؟ هل عملت عمل خيرٍ؟ هل تركت أثراً طيباً في الأرض؟ ماذا فعلت؟ لو أن أحداً أراد أن يؤبّن أحداً ميتاً، ماذا يقول؟ لو أن هذا الميت أمضى حياته في الدنيا وشهواتها، ماذا يقال في هذه الساعة؟ ماذا فعلت، لم يفعل شيئاً، فلذلك :

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

يأتيك ملك الموت في أحسن حال، يأتيك ملك الموت على صورة أحب الناس إليك، هي ساعة الفوز العظيم، أن يأتي ملك الموت، وأنا محب لله، وأنا مطيع له .

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمْ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ

هذا ما ينتظره المعرضون عن الله : الموت أو الساعة :

الآية الثانية للذين أعرضوا عن الله، للذين أحبوا الدنيا، للذين كرهوا لقاء الله، للذين انصبوا عليها، تهافتوا على مالها على نسائها، على بيوتها، على مزارعها، على مركباتها، على مناصبها، على حطامها، على مباهجها، هؤلاء الذي انغمسوا فيها إلى قمة رأسهم، ماذا ينتظرهم في الدنيا، استمعوا :

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ الْمَلَائِكَةُ)

أي ملائكة الموت،

(أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ)

أي قيام الساعة .

هذه الآية وضحها النبي عليه الصلاة والسلام، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوِ الدَّجَّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ، فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[خرجه الترمذي]

ماذا ينتظر أحدنا من الدنيا؟ هل ينتظر المعرض ـ المؤمن ينتظر كل خير ـ المعرض هل ينتظر من الله إلا هذه الأشياء السبعة .

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمْ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

أين أبو جهل ؟ أين أبو لهب ؟ إذا كان النار .

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

(سورة غافر : 46)

1500 سنة، ضرب 365، ضرب 2، والخير سيزداد .

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

هذه هي المصيبة الكبرى، حينما يخسر الإنسان نفسه .

(كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

هذه سنة المعرضين منذ الأزل :

عاد، وثمود، والمؤتفكات، وأصحاب الأيكة، وقوم صالح، هؤلاء عصوا، وفجروا، وبغوا، وطغوا، أين الرومان؟ أين الفراعنة؟ أين التدميريون؟ كل هؤلاء الذين فسقوا وعصوا، وجهلوا، وفعلوا المنكرات، انتهوا .

(وَمَا ظَلَمَهُمْ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(33)فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون)

الله لا يظلم أحدا ، ولكن كل نفس مرهونة بعملها :

هذا الذي كانوا يستهزؤون به كفرهم حاق بهم، أي قيدهم، قال تعالى :

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38)إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ)

(سورة المدثر : 38 - 39)

هؤلاء مقيّدون، كفرهم قيّدهم .

فيا أيها الإخوة الأكارم، هذا كتاب الله بين أيديكم، وهذه السورة، سورة النحل تحت سمعكم وبصركم، وهذه المعاني واضحة لكم، ما بقي علينا إلا التوبة، والاستقامة، والعمل الصالح، ومعرفة الله عز وجل، وخدمة الخلق، لعل الله سبحانه وتعالى يرحمنا في الدنيا والآخرة .

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص : 61)

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، كل يوم اعمل حساباً، ماذا فعلت من عمل صالح ؟ هذا اليوم كيف مضى ؟

((لا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله قرباً، لا بورك لي في طلوع يوم لم أزدد من الله علماً))

[ذكر نحو هذا الحديث ابن عدي في الكامل عن عائشة]

عندك شيئان، العلم والقرب، العلم علم، والقرب عمل صالح، لا بد من العلم، ولا بد من العمل الصالح، والعمل الصالح يرفعك .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (08-21): تفسير الآيات 35 – 36 ، عن القضاء والقدر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-03-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(35)وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

هذه الآية اصل من أصول العقيدة :

أيها الإخوة المؤمنون، هذه الآية تمس العقيدة، بل إنها أصل من أصول العقيدة، فربنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا)

الحديث عن الكفار، هل ينظرون فأصابهم سيئات ما عملوا، لو أنه قال : وقالوا لو شاء الله ما عبدنا، لماذا في هذه الآية سماهم ربنا مشركين ؟

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا)

لا يقول هذا الكلام إلا مشرك :

إذاً : هذا القول لا يقوله إلا مشرك، بل هي عقيدة المشركين .

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا)

فمن اعتقد بهذا القول فهو مشرك، فمن قال هذا القول، فهو مشرك، فمن أضمر هذه العقيدة فهو مشرك،

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ)

هو قدّر علينا أن نعبد غيره، هو قدّر علينا أن نعصيه، هو قدّر علينا أن نخرج عن أمره، هو قدّر علينا الشقاء قبل أن نولد، هذا تقديره، ونحن ما فعلنا إلا أن نفذنا قضاءه "

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ)

وقفة متأنية عند قوله : لَوْ شَاءَ اللهُ :

أما كلمة:(لو شاء الله)يجب أن نقف عندها وقفة، لأن كلمة المشيئة خطيرة جداً، إذا ظن الإنسان أن الله عز وجل شاء للكافر أن يكون كافراً فلمَ أمرَه أن يؤمن ؟ ولمَ أمَره أن يطيعه .

من الآيات الموضحة لمشيئة الله قوله تعالى :

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا)

(سورة المزمل : 19)

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(سورة التكوير : 29)

المعنى الأول للمشيئة :

في هذه الآية مشيئة العبد ومشيئة الرب، مشيئة العبد مشيئة اختيار، الإنسان مخير في دائرة كبيرة، في حياته هو مخير، ربما قال قائل : إنه ليس مخيراً في أشياء، وهذا صحيح، لماذا ولد من هذا الأب ومن هذه الأم ؟ وفي هذا الزمان وفي هذه المدينة؟ المكان والزمان والأب والأم هذا لا علاقة له به، لا دخل لاختياره فيه، لكن علماء التوحيد يؤكدون أن القدر والقضاء الذي يقع عليك، والذي لا دخل لإرادتك فيه هو لصالحك، الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن، كل شيءٍ يقع على العبد من دون أن تكون له جريرة به؛ أي غير مختار بتحقيقه هو لمصلحته، لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة آل عمران : 26)

العطاء خير، والمنع خير، والعز خير، والذل خير .

(إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة آل عمران : 26)

من أبسط معاني القضاء والقدر، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام نهانا عن أن نخوض في القضاء والقدر، وفي بعض الأحاديث الشريفة أن هذا الموضوع تُرك لشرار أمتي، نهانا عن أن نخوض فيه، هو سر من أسرار الله سبحانه وتعالى، سيأتي يومٌ هو يوم القيامة يُكشَف للإنسان سر القضاء والقدر، ولو كُشِف الغطاء لاخترتم الواقع .

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق : 22)

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس : 10)

فالقضاء هو الحكم، والقدر هو التقدير، فالطبيب إذا حكم على هذا المريض أن في معدته التهابا، يمنع عنه الطعام المخرش، فالقضاء حكم، والقدر تقدير، القضاء حكم، والقدر إجراء، معالجة، وتشجيع مبنيٌ على هذا القضاء، فربنا سبحانه وتعالى ناظر إلينا، فمن وجد فيه خيراً شجّعه، ومن وجد في نفسه سوءًا حذّره، ونبهه، وعالجه، وقدّر عليه بعض المصائب، ليرده إليه .

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة : 21)

آية واضحة وضوح الشمس : وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى)

كل عذاب الدنيا، العذاب المادي، الأمراض، الفقر، القهر، كل أنواع العذاب في الدنيا، عذاب سماه الله عز وجل :

(مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ)

وهو عذاب الخلود في النار .

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

فإذا رجعت إلى الله عز وجل طواعية، بمبادرة منك، فلماذا العذاب ؟ قال تعالى :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

(سورة النساء : 147)

فالقضاء هو الحكم، والقدر هو التقدير، نظر الطبيب إلى حالة المريض، فرأى في المعدة التهاب حاد، هذا هو القضاء، أما القدر فهو أمر الطبيب مَن في المستشفى أن يمنعوا عنه كل طعامٍ مُخرِّش، أعطى تعليمات للممرضة أن تطعمه الطعام الفلاني، فالقضاء حُكم، والقدر معالجة، الذي يقول لو شاء الله ما عبدنا، لله مشيئة، وللعبد مشيئة ، مشيئة العبد مشيئة اختيار، ومشيئة الحق جل وعلا مشيئة فحص واختبار .

بأبسط مثل، لو أن طالباً نال علامات دنيا، وقدّم طلباً إلى رئاسة الجامعة كي يدخل كلية الطب، هذا الطالب اختار هذه الكلية، شاء أن يكون طبيباً، ولكن إدارة الجامعة عندها أسس، لا بد لكلية الطب من مجموع عالٍ، لأن الذي يطمح لهذه المهنة يجب أن يكون ذا قدرات عالية في الرياضيات، والفيزياء، والكيمياء، وذا مجموع مرتفع فإرادة الجامعة لها مشيئة، لكنها ليست مشيئة اعتباطية، ليست مشيئة

مزاجية، إنما هي مشيئة العلم، ومشيئة الحكمة، فهذا الطالب المقصر لا تشاء له إدارة الجامعة أن يدخل كلية الطب .

مشيئة الإنسان مشيئة حرية واختيار، ومشيئة الحق جل وعلا مشيئة فحص واختبار .

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا)

(سورة المزمل : 19)

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(سورة التكوير : 29)

الله عز وجل ينظر، هذا الذي يطلب الجنة هل استقام على أمر الله ؟ إن استقام على أمر الله يشاء له الجنة، هذا الذي طلب الجنة هل حرر دخله من الحرام ؟ إن فعل ذلك شاء له الجنة، هذا المعنى الأول، فمشيئة العبد مشيئة مختارة، ومشيئة الرب مشيئة فاحصة، من أجل أن تعطي كل ذي حق حقه، هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني للمشيئة :

الله سبحانه وتعالى قد يشاء شيئاً، ولا يرضاه، فالأب مثلاً حينما تلتهب الزائدة عند ابنه يشاء الأب أن يأخذه إلى المستشفى، وأن يأتي الطبيب الجراح، ويُعمِل مبضعه في جلد ابنه، ويفتح البطن، وينشر الدم، ويمزق الأنسجة، ليصل إلى الزائدة كي يستأصلها، هل يريد الأب أن يرى ابنه في غرفة العمليات، وقد فُتِح بطنه، وخرج الدم غزيراً من شرايينه، ومزقت عضلاته ؟ لا والله، لا يشاء ذلك، ولكن حكمته تقتضي ذلك، الله سبحانه وتعالى قد يشاء شيئاً، ولا يرضاه، ولا يرضى لعباده الكفر، لكن حكمته اقتضت هذه المشيئة، شاء ولم يرض .

أول فكرة: مشيئة العبد مشيئة حرية واختيار، ولكن مشيئة الرب مشيئة فحص واختبار .

الفكرة الثانية : إن الله سبحانه وتعالى قد تتعلق حكمته بأن يسوق لهذا الإنسان مصيبة، فيشاء له المصيبة، ولكنه لا يرضاها له، لأنه خلقه ليسعده، خلقه ليهتدي إليه،

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة : 21)

مِن بُعْدِ الناس عن ربهم، وانحرافهم عن طريق هدايتهم، وبُعدِهم عن طريق الجنة، وانغماسهم في المحرمات والشهوات يسوق الله لهم من الشدائد، هذه الشدائد تعلقت بها حكمته، لكنه لم يَرْضَهَا لعباده، لكن انحرافهم، وغفلتهم، وتقصيرهم، ومعاصيهم اقتضت هذه المعالجات كلها، وفي الأثر: " أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن

لم يتوبوا فأنا طبيبهم "، هذه مشيئة الرب، شاء ولم يرد، شاء ولم يرض، أما إذا كان هناك إكرام فشاء ورضي، إذا عرفته، واستقمت على أمره، وأقبلت عليه، وسعدت بقربه شاء لك الإكرام، ورضيه له، إذا ابتعدت عنه، وانحرفت أعمالك، وانحطت ميولك، وسفلت أهدافك، وطغيت، وبغيت، شاء الله عز وجل لهذا العبد المنحرف المصائب والتضييق، والأمراض، والقهر كي يرده إليه، شاء ولم يرض، وشاء ورضي، هذا هو المعنى الثاني .

المعنى الثالث للمشيئة :

أن مشيئة الله مشيئة تنفيذية، لكن مشيئة العبد مشيئة اختياريه، فمجرد أن يختار العبد طريق الحق، يشاء الله له ذلك ، وكما قيل : لله رجال إذا أرادوا أراد، والمثل واضح جداً .

أب عالم كل آماله في الحياة أن يكون ابنه مثله، فبمجرد أن يتفوه ابنه بكلمة واحدة تعبر عن رغبته في طلب العلم، فالأب بكل إمكاناته، وبكل طاقاته، وبكل ما يملك، يضع كل هذه الإمكانات في خدمة الابن ليحقق هذا الطلب، بمجرد أن تشاء الهدى، يشاء الله لك، لأنه خلقك لتعرفه .

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات : 56)

إذاً المشيئة الإلهية مشيئة تنفيذية، بينما مشيئة العبد مشيئة طلبية، اطلب تعطَ، لله رجال إذا أرادوا أراد، هذا هو المعنى الثالث .

فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ

اللهُ بيَّن طريق الحق فمن ضلَّ فقد حقت عليه الضلالة :

شيء آخر، الله سبحانه وتعالى رسم للهدى طريقاً، فأيّ عبدٍ سار في هذا الطريق شاء له الهدى، وأيّ عبد حاد عن هذا الطريق حقت عليه الضلالة .

المعنى دقيق جداً، الطريق أن تكون طبيباً معروف، أي طالب سلك هذا الطريق من الشهادة الثانوية إلى كلية الطب، تابع السنوات كلها إلى أن تخرج، يمنح شهادة الطب، وترخيصاً بمزاولة مهنة الطب، لماذا شاءت الجهات المعنية لهذا المواطن أن يكون طبيباً ؟ لأنه سلك الطريق التي رسمتها الجهات المعنية لمهنة الطب، فإذا خرج الإنسان عن هذا الطريق، ترك الجامعة، وبدأ يطالع بعض المجلات، فهل تشاء الجهات المعنية لهذا الطالب أن يكون طبيباً ؟ هل يمنح الشهادة ؟ لا والله، هل يعطى

ترخيصًا؟ لا و الله .

إذاً : هناك طريق للهدى، لو سلكه شاء الله له الهدى، من حاد عنه حقت عليه الضلالة، أيْ وجبت عليه الضلالة، فمن قرأ الكتاب عرف ما فيه، ومن لم يقرأه لا بد من أن يكون جاهلاً، نقول: حقت عليه الجهالة، ليس الموضوع موضوع قهر، لا والله، وليس الموضوع موضوع جبر، لا، الموضوع أبسط من ذلك، من قرأ الكتاب عرف ما فيه، ومن لم يقرأه حق عليه الجهل، فكان الجهل ملازماً له، كان الجهل نتيجة حتمية لفعله، بعض الآيات التي تؤكد هذه الحقيقة،

(فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ)

(سورة النحل : 36)

الله عز وجل، من الذي يهديه، قال تعالى :

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة البقرة : 258)

الذين حقت عليهم الضلالة لماذا حقت عليهم الضلالة ؟ لأنهم ظالمون، ولأنهم فاسقون .

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة البقرة : 26)

والذين حقت عليهم الضلالة لمَ حقت عليهم الضلالة؟ لأنهم عصاة، والذين هداهم الله، لماذا هداهم الله؟ لأنهم محسنون .

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت : 69)

والذين هداهم الله، لماذا هداهم الله؟ لأنهم جاهدوا فينا .

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

فكأن الهدى والضلال إذا عزي لذي الجلال كان المعنى أن الهدى جزائيٌّ، جزاء سلوك طريق الهدى والضلال، أي جزاء سلوك طريق الضلال، فمن سلك طريق الهدى هداه الله، ومن سلك طريق الضلال، استحق عليه الضلال، أو حق عليه الضلال .

إذاً:

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ)

وقفت عند كلمة (لو شاء)، الله عز وجل خلقنا ليسعدنا .

قلت لكم سابقاً: إن قوله تعالى :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

علة الخلق العبادة لله وحده :

العبادة طاعة طوعيه، تسبقها معرفة يقينه، تفضي إلى سعادة أبدية، هذا تعريف العبادة، يقول الله عز وجل :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

أيْ : علّة الخَلق أن يعبدوني، فإذا عبدوني سعدوا بقربي، وعلة الخَلق أن يسعدهم الله إلى الأبد، هذا هو هدف الخَلق، وهذه مشيئته سبحانه، فمن أجل تحقيق هذا الهدف يشاء الله للعبد المصيبة لترده إليه،

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

أمّا أن يشاء الله للعبد الكفر، ويرضاه له من غير ذنبٍ، أو من دون جريرة، فهذه عقيدة أهل الشرك، وهذه عقيدة فرقة ضالة تسمى الجبرية، أي إن الإنسان مجبورٌ على أعماله، وسوف يحاسب عليه .

استمعوا أيها الإخوة، سيدنا الحسن بن علي رَضِي اللَّه عَنْهما يقول: " من حمل ذنبه على ربه فقد فجر، إن الله تعالى لا يطاع استكراهاً، ولا يعصى بغلبة، فإن عمل الناس بالطاعة لم يَحُل بينهم وبين ما عملوا، وإن عملوا بالمعصية فليس هو الذي أجبرهم، ولو أجبرهم على الطاعة لسقط الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لسقط العقاب، ولو أهملهم لكان عجزاً في القدرة، فإن عملوا بالطاعة فله المنة عليهم، وإن عملوا بالمعصية فله الحجة عليه "، هذا كلام أهل التوحيد، هذا كلام نابع من توجيه النبي عليه الصلاة والسلام .

إذاً :

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ)

لا تعلّل ضلالك بضلال آبائك :

فهذا الذي يقول لك: ترتيبه، أقام العباد فيما أراد، كلمة حق يراد بها الباطل، أحياناً يقول : إن الله قدر عليه شرب الخمر، والزاني قدّر الله عليه ذلك، وما هو أقبح من القبح ؟ سؤال، ما هو أقبح من القبح ؟ أن تريد القبح، قد يقع منك فعل قبيح، والفعل قبيح، لكن أقبح من هذا الفعل القبيح أن تريده، وأن تخطط له، أو أن تجبر الناس عليه، فهل يليق بحضرة الله سبحانه وتعالى، وهل يليق بأسمائه الحسنى أن يريد لعباده الفحشاء، وأن يحملهم على الزنى، وأن يحملهم على شرب الخمر ؟

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف : 28)

لا يقول : إن الله أجبر العصاة على المعصية إلا مشرك، بنص هذه الآية :

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا)

وأجدادنا، هذه الأمم الضالة، الله شاء لها ذلك، ولا راد لقضائه، كلام صحيح، لكن الله عز وجل لم يشأ لعباده الكفر .

في سورة الأنعام آية مشابهة، قال تعالى :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام : 148)

والخرص أشد أنواع الكذب، وأقبح أنواع الكذب .

الإنسان خلقه الله وفيه استعداد للهدى واستعداد للضلال :

شيءٌ آخر، المعنى الإيجابي أن الله سبحانه وتعالى شاء أن يخلق الإنسان وفيه استعداد للهدى، واستعداد للضلال، كهذه السكين يمكن أن تقطع بها الخضار والفواكه، ويمكن أن تجرح بها إصبعاً، ففي السكين استعداد للخير، واستعداد للشر، فالله سبحانه وتعالى شاء أن يخلق إنساناً فيه استعداد للهدى واستعداد للضلال، منحه بادئ ذي بدء حرية الاختيار،

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان : 3)

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة فصلت : 17)

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس : 7 - 8)

أوجه تفسير لهذه الآية : ألهمها أن هذا الطريق التي هي فيه طريق الفجور، جاء الملك، فألهمها أن هذا العمل لا يرضاه الله عز وجل، هذا العمل يشقي، ألهم النفس الفاجرة أنها فاجرة، كأن تجد ابناً لك مقصراً في الدراسة، يقول له الأب : كل يوم يا بني أنت مقصر، وهذا التقصير سوف يجر عليك متاعب كبرى في حياتك المستقبلية، هذا معنى ألهمها، فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان، وخلق فيه استعداداً للهدى والضلال، وأعطاه حرية الاختيار .

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب : 72)

الإنسان حمل الأمانة، أيْ حمل حرية الاختيار، لا الملك مخير، ولا الحيوان مخير، لكن الإنس والجن وحدهما مخيَّران، ولكن هذا الخيار كيف يستخدمه ؟ مِن كرمِه جل وعلا أنه زودنا بعقل نعرف به الخير من الشر، والحق من الباطل، والحسن من القبيح، والنافع من الضار، ولكن هذا العقل، بالإضافة إلى أنه جهاز يعد أثمن ما في الكون بثّ الله سبحانه وتعالى في الأرض آياتٍ دالةً على عظمته، ودالةً على أسمائه الحسنى، فإذا فكر الإنسان بعقله في آيات الله التي بثها في السماوات والأرض عرف الله عز وجل، فإذا عرفه استقام على أمره، وعبده، وسعد بقربه، وخشية أن يضل هذا العقل تكرَّم الله عز وجل مرة رابعة فأنزل الكتب من السماء .

يعطي المدرس مسألة للطلاب، ويقول لهم: هذا الرقم الفلاني هو الجواب، هذا الرقم، حلوا المسألة، فإذا انتهيتم من حلها إلى هذا الرقم فحلُّكم صحيح، العقل جال في هذه المسألة، فإذا وصل إلى هذا الرقم فحلُّه صحيح .

فالله سبحانه وتعالى خَلق في الإنسان استعدادًا للهدى والضلال، وأعطاه حرية الاختيار، ومنحه العقل الذي يميز به الحق من الباطل، والخير من الشر، والصالح من الطالح، والقبح من الحسن، وفضلاً عن ذلك أنزل إليه الكتب السماوية ليكون التشريع مقياساً للعقل، وفضلاً عن ذلك أرسل رسلاً هداة مبشرين، صدقوا الحق، جعلهم نماذج تغري كل إنسان بالهدى، فأنت مخير، ولك عقل، ويوجد كون، وكتاب، وإنسان عظيم طبق هذا الكتاب، فكان إنساناً كاملاً، جعله الله قدوة لك، جعل لك قدوة، وجعل لك منهجاً، وجعل لك عقل، وجعل لك كوناً، وجعلك مختاراً، وبعد هذا وذاك تقول : لم يشأ الله لي الهدى ؟! ما هذا الكلام ؟! هذا كلام لا يقوله إلا مشرك .

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ

ليس على النبي هداية الناس :

يا محمد صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

(سورة القصص : 56)

الإنسان مخير، لذلك أبو جهل، وأبو لهب، عم النبي عليه الصلاة والسلام :

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1)مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(2)سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ(3)وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ(4)فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)

(سورة المسد : 1 - 5)

أما سلمان :

((سلمان منا آل البيت))

[الطبراني في المعجم الكبير عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

وصهيب :

((نعم العبد صهيب))

[فتح الباري]

و:

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى))

[أحمد في المسند عن أبي نضرة عن رجل من الصحابة]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((اسْمَعُوا، وَأَطِيعُوا، وَإِنْ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ، كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ))

[البخاري]

((الناس سواسية كالمشط))

[القضاعي في مسند الشهاب عن أنس]

و :

((الخَلق كلّهم عِيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله))

[الطبراني في المعجم الكبير عن ابن مسعود، وأبو يعلى في مسنده عن أنس]

إنه مقياس واحد . لا تقل : أصْلي وفصلــي إنما أصل الفتى ما قد حصل

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ ...))

[الترمذي]

حينما كان النبي عليه الصلاة والسلام على مشارف مكة قبيل فتحها، ورأى أبو سفيان الذي وقف مناوئاً لهذه الدعوة عشرين سنة أو تزيد حارب النبي عليه الصلاة والسلام في بدر، وحاربه في أحد، وحاربه في الخندق، وحاربه في مواقف أخرى، حينما رأى المسلمين يزحفون إلى مكة المكرمة فاتحين، وحينما رأى أن الأصنام لم تنفعهم من الله شيئاً،

وحينما سمع أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ))

[أبو داود عن ابن عباس]

تفاعلت في نفس أبي سفيان هذا الكمال النبوي، فقال لسيدنا محمد عليه أتم الصلاة والسلام، يا محمد ما أعقلك، وما أحكمك، وما أرحمك وما أوصلك، النبي رحمة مهداة، قد يحملك على الهدى، أن ترى مؤمناً مستقيماً، عفيفاً، ورعاً، متواضعاً، حليماً، كريماً، سخياً، رؤوفاً، رحيماً، هذا من متممات الهدى، وشاء الله أن يخلقنا ليرحمنا، هذه نعمة الإيجاد .

في بعض الخطب أقول : الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض، يعني الحمد لله على نعمة الإيجاد، ثم الحمد لله رب العالمين، هذه نعمة الإمداد، ثم الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، هذه نعمة الإرشاد، أنتم في نعم ثلاث، نعمة الإيجاد :

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)

(سورة الإنسان : 1)

ماذا أنت قبل مئة عام؟ هل لك اسم في السجلات ؟ هل لك هوية في النفوس؟ من أنت؟ لا شيء، أوجدك الله من العدم، وأمدك بهذا الطعام والشراب، والهواء، والماء، جعل لك أماً رؤوماً، وأباً رحيماً، أمدك بكل شيء، نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ثم دعاك إليه، ثم شرفك بمعرفته، فيا رب كفاني عزاً أن أكون لك عبداً، وكفاني فخراً أن تكون لي رباً .

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

لماذا يحتجّ الإنسان بالقدر ؟

الآن لدينا موضوع صغير جداً، لماذا يحتجُّ الإنسان بالقدر، الناس إذا أمرتهم بالطاعة، أو نهيتهم عن معصية يحتجّون بالقدر، فلو أنهم فعلوا شيئاً وَفق مصالحهم يقول لك أحدهم : أنا فعلت كذا وكذا، أنا بحسب خبرتي وجدت من المناسب أن أفعل كذا وكذا، لماذا إذا فعلت شيئاً لمصلحتك لا تعزُوه إلى الله عز وجل؟ وتقول: أنا فعلت كذا وكذا، وإذا اجتنبت خطراً تقول: أنا أعلم أن هذا خطر فابتعدت عنه، فإذا كنت غارقاً في شهوة ، ودعيت إلى طاعة الله أتقول: إن الله قدر عليك ذلك؟ هذا من التناقضات البشعة، إذا فعلت شيئاً لمصلحتك تقول: أنا فعلت كذا وكذا، وإذا ابتعدت عن شيء لمصلحتك تقول: أنا ابتعدت عن كذا وكذا، فإذا دعيت إلى طاعة الله، إذا دعيت إلى عمل صالح، إذا دعيت لمجلس علم، إذا دعيت إلى جنة عرضها السماوات والأرض تقول: الله عز وجل لم يشأ لي ذلك؟ لم يهدني بعد؟ من قال لك ذلك؟ سيدنا عمر سيق له رجل شارب للخمر، فقال هذا الرجل قبيل أن ينزل به الحد: " واللهِ يا أمير

المؤمنين إن الله قدّر عليّ ذلك، فقال رَضِي اللَّه عَنْه: أقيموا عليه الحد مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله، قال له: ويحك يا هذا، إن قضاء الله، لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار"، الله عز وجل جل وعلا عن أن يجبرك على معصية .

بعض المشككين في عهد أبي حنيفة النعمان رَضِي اللَّه عَنْه سألوه أسئلة ثلاثة، وكان فطناً ذكياً، قيل له: يا إمام، كيف يقدّر الله علينا المعصية، ويحاسبنا عليها؟ وكيف نعبده، ونحن لا نراه؟ وكيف يعذب الجن بالنار، وهم من النار؟ أسئلة ثلاثة، رأوها حجة قاطعة، هكذا تروي بعض الكتب، ولست في صدد التثبت من هذه القصة، لكن لهذه القصة مغزى، قالوا: فأخذ الإمام أبو حنيفة حجراً، أو كدرة من طين يابس، ورمى بها أحدهم، فشج جبينه، هذا الرجل ذهب إلى القاضي، ورفع أمامه قضية، طبعاً قال أبو حنيفة للقاضي: يزعم أننا نعبد الله، ولا نراه، فالألم الذي تألمت منه، وحملك إلى أن تذهب إلى القاضي، هل رأيته؟ قال: لا، ثم إنك إن كنت تعلم أن الله قدر عليك ذلك، لماذا اشتكيت عليّ، ألست من طين؟ وهذه من طين، فكيف تألمت بها؟ أعطاه ثلاث حجج، إنك من طين، وهذه من طين، فكيف تألمت؟ والألم كيف حملك على أن تشتكي عليّ، وأنت لا ترى الألم؟ وإن كنت مقتنعاً أن الله قدر عليك ذلك لمَ شكوتني ؟

بصرف النظر عن صحة هذه القصة فإنّ لها مغزى، الذي يحتج بالقدر هو العاصي، هو الذي يريد الدنيا، ويرفض الآخرة، يقول لك: لم يشأ الله لي أن أصلي، لم يهدني الله بعد، الاحتجاج بالقدر حجة باطلة داحضة، باتفاق كل ذي عقل ودين في العالمين، والمحتجّ بالقدر لا يقبل هذه الحجة من غيره، هذا الذي يقول لك: الله الذي قدر علي هذه المعصية، اضربه، يثور عليك، لماذا تثور علي؟ الله قدر عليك، هذا لا يرضى بهذه الحجة، الذي يحتج بالقدر لا يرضى بهذه الحجة، إذاً هو كاذب بحجته .

قال بعض العلماء: لو كان القدر حجة لم يحصل فرق بين العالم والجاهل، والعادل والظالم، والصادق والكاذب، والبر والفاجر، هذا قدر الله عليه أن يكون باراً، وهذا قدر عليه أن يكون فاجراً، لا البر لهذا ميزة، ولا الفجر لهذا سيئة .

إذا كان عندك طالبان، فأعطيت للطالب الأول السؤال والجواب، فأخذ علامة تامة، وأعطيت للطالب الثاني سؤالا فوق مستوى المنهاج، من غير كتاب، من غير صف، فما عرف الجواب، فأعطيت الأول علامة تامة، وأعطيت الثاني علامة الصفر، فلا هذه العلامة التامة مفخرة لهذا، ولا هذا الصفر تهمة لهذا، فالمدرس أعطى الطالب سؤالاً مع الجواب، فأخذ عليه علامة تامة، وأعطى الآخر سؤالا فوق مستوى الطالب فأخذ صفراً .

لو كان القدر حجة لم يكن هناك فرق إطلاقاً بين العالم والجاهل، هذا علّمه، وهذا لم يعلّمه، ولا بين العادل والظالم، هذا أجبره أن يكون عادلاً فكان عادلاً، وهذا أجبره أن يكون ظالماً فكان ظالماً، ولا بين

الصادق والكاذب، ولا بين البر والفاجر، فإذا آمنت بأن الله عز وجل يفعل هذا فقد ألغيت الدين كله، وألغيت الرسل كلهم، وألغيت الكتب كلها .

أحدهم سأل الإمام علي كرم الله وجهه: " أكان مَسيرُنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر؟ وكأنه يعني أن القضاء لازم، قال له : ويحك يا هذا، لو كان قضاءً لازماً وقدراً حاتماً، إذاً لبطل الوعد والوعيد "، لماذا الوعد؟ لماذا يَعد الله المؤمنين بالجنة؟ علام يعدهم؟ هو قدّر عليهم أن يكونوا مؤمنين .

لبطل الوعد والوعيد، لانتهى الثواب والعقاب .

" إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعص مكروا، ولم يُطع مكرهاً، ولم يُنزل الكتب عبثاً، ولم يبعث الأنبياء لعباً " .

لو أنك آمنت بعقيدة أهل الشرك هؤلاء :

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ)

لكان إنزال الكتب لعباً، وإرسال الأنبياء لهواً، ولبطل الثواب والعقاب، ولانتفى الوعد والوعيد، ولتعطل كل شيء .

المشركون يقاتلون من يأخذ لهم حقاً، وعندئذ لا يحتجون بالقدر، والمشركون إذا أخذ حق لهم يقاتلون، ولا يحتجون بالقدر، إذاً هم حين يحتجون بالقدر هم كاذبون، الاحتجاج بالقدر في ترك حق ربهم، لا في ترك حق أنفسهم، لو كان لك حق عند فلان لاشتكيت عليه، ولطالبته به، ولا تقول : الله قدر علي ذلك، إذا تركوا حق ربهم احتجوا بالقدر، فإذا ترك حقهم طالبوا به، ولم يحتجوا بالقدر .

ملخص القول : إنه لا يحتج بالقدر إلا الجهلة، ولو كان عندهم علم أو هدى لم يحتجوا بالقدر، والاحتجاج بالقدر تعطيل لرسالات الأنبياء، وللكتب السماوية كلها .

الآيات المتشابهة مهما كثرت تحمل كلها على الآيات المحكمات :

آخر فكرة في الموضوع، أن علماء الأصول، علماء أصول العقائد قالوا : إن الآيات المتشابهة مهما كثرت تحمل كلها على الآيات المحكمة، لو أن في القرآن الكريم آية واحدة محكمة تحمل عليها كل الآيات المتشابهة، فإذا كان هناك آية يشتبه أن فيها جبرًا، وهناك آية محكمة تنفي الجبر، فالآية المتشابهة تحمل على الآية المحكمة .

أوضح لكم ذلك بمثل : إذا قلت : إن القمح مادة خطرة في حياة الإنسان، أو خطيرة في حياة الإنسان، فكلمة (خطيرة)تعني أنها مادة مؤذية، وتعني أنها مادة أساسية، فكلمة خطيرة كلمة متشابهة، تشبه أن تكون خيرة، وتشبه أن تكون ضارة، قال أحدهم : القمح مادة خطيرة في حياة الإنسان، يا ترى مادة

مؤذية ؟ سامة ؟ مادة متفجرة ؟ أو أنها مادة مهمة جداً في حياته، غذاء أساسي، بعد سطرين جاء قول آخر للقائل نفسه : القمح مادة أساسية في حياة الإنسان، ولا يستطيع أن يستغني عنها، إذاً كلمة خطيرة نحملها على القول الثاني .

فالآيات المتشابهة، مهما كثرت ـ هكذا قال علماء الأصول ـ تحمل على الآية المحكمة، فهذه الآية محكمة في نفي الجبر، ولو أن في القرآن مئة آية يُشتم منها معنى الجبر فإنّ كل هذه الآيات بحسب علم الأصول يجب أن تحمل على هذه الآية، فالله سبحانه وتعالى في هذه الآية ينفي الجبر كلياً، ويصف المشركين بأنهم يعتقدون عقيدة الجبر .

الإنسان مخير، والله سبحانه وتعالى يعلم ما سيكون بلا كيف، والإنسان مخير، وعلم الله سبحانه وتعالى لا يؤثر في اختيار الإنسان، إذا كنت في مكان، ورأيت إنساناً في مفترق طرق، وعلمت أين هو؟ وإلى أين سيتجه ؟ إن علمك باتجاهه لا يؤثر في اتجاهه .

لا تخوضوا في القضاء والقدر ، بل سلّموا تسلموا :

علم الله لا يؤثر في اختيار الإنسان، الإنسان مخير، والله عز وجل يعلم ما سيكون بلا كيف، وأما الغوص في هذا الموضوع فقد نهينا عنه في أحاديث صحيحة متواترة في المعنى، والذي أعتقده أن الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يكشف للخلائق سر القضاء والقدر :

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق)

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس)

لو كشف الغطاء لاخترتم الواقع، لا يتنمى الفقير أن يكون غنياً حينما يكشف له، أما الآن فيتمنى، أما حينما يكشف الغطاء فلا يتمنى العليل أن يكون صحيحاً، ولا الضعيف أن يكون قوياً، ولا القوي أن يكون ضعيفاً .

لخص الإمام الغزالي رَضِيِ اللَّه عَنْه هذا كله في كلمات فقال : " ليس في الإمكان أبدع مما كان "، أي ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني، هذه عقيدة أهل السنة والجماعة، وأيُّ عقيدة غير هذه العقيدة فإما أن تخرج إلى القدرية، أو إلى الجبرية، أو إلى المعتزلة، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة، المعتزلة يقولون: الإنسان خالقٌ لأفعاله، حاش لله، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، قولاً واحداً هذه عقيدة أهل السنة والجماعة، والتي يجب أن نعتقد بها .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (09-21): تفسير الآيات 35 – 36 ، عن القضاء والقدر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-03-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ

الفائدة من تنكير (أمة)و(رسولا):

بعثنا بمعنى؛ أرسلنا في كل أمة، والأمة هنا نكرة، والتنكير تنكير الشمول، أي ما من أمة على الإطلاق إلا وبعثنا فيها رسولا .

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا)

رسولاً أيضاً نكرة، إما أن تكون هذه الكلمة بالمعنى العام، فكل من دعا إلى الله تنطبق عليه هذه الكلمة، أو بالمعنى الاصطلاحي الفقهي الدقيق لكلمة رسول .

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا)

إرسال الرسل من رحمة الله بعباده :

فالله سبحانه وتعالى برحمته الواسعة لم يترك خَلقه من دون رسل، لا بد في كل أمة من رسول يدعو إلى الله عز وجل، وبعضهم فَهِمَ قوله تعالى :

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة : 30)

أي : لابد من أن يكون على وجه الأرض رجلٌ يدل الناس على الله سبحانه وتعالى .

ملخَّص دعوة الأنبياء : عبادة الله وحده :

على كلٍ: دعوة الأنبياء جميعاً، ودعوة الرسل جميعاً ملخصة في هذه الكلمة: أن اعبدوا الله .

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات : 56)

العبادة هي الهدف الأكبر لإرسال الرسل .

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)

ما هو الطاغوت ؟

بعض المفسرين قال: الطاغوت هو الشيطان .

وبعضهم قال : كل من طغى عن طريق الحق ؛ أي خرج عنه، كل من طغى وبغى، وتجاوز الحد الذي رسمه الله عز وجل فهو طاغوت، وَاللَّه سبحانه وتعالى يأمرنا أن نجتنبه، والاجتناب أبلغ من الترك، أمرنا ربنا سبحانه وتعالى أن نجتنب الخمر، واجتناب الخمر أبلغ من تركها، لأنك إذا جلست في مكان فيه خمر فأنت آثم، إذا صاحبت رجلاً يشرب الخمر فأنت آثم، إذا تعاملت بها كبضاعة فأنت آثم، لعن الله شاربها، وبائعها، وحاملها، والمحمولة إليه، فالاجتناب يعني شيئاً أكبر من الترك، فالطاغوت يجب أن تضع بينك وبينه هامش أمان، وكل من خرج عن طريق الحق، وخرج عن الصراط المستقيم، كل من طغى، كل من بغى فهذا طاغوت يجب أن تجتنبه .

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ)

(سورة هود : 113)

أن تركن إليه، أن تقيم بينك وبينه علاقات حميمة، أن تمضي معه ساعات طويلة، أن تستشيره، هذا ليس اجتناباً .

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)

الإيمان مرتبة علمية جمالية أخلاقية :

قلت لكم في درس سابق: من أدق معاني العبادة لله عز وجل أن العبادة طاعة طوعية، تسبقها معرفة يقينية، تنتهي بسعادة أبدية، شقٌ معرفي، وشقٌ سلوكي، وشقٌ نفسي، فأنت إذا عرفته عبدته، وإذا عبدته سعدت بقربه، فكلمة (مؤمن) تعني أنه ذو مرتبة علمية، لأنه ما اتخذ الله ولياً جاهلاً، ولو اتخذه لعلمه، كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، والمؤمن ذو مرتبة أخلاقية، يستقيم على أمر الله، يفعل الخيرات، وكلمة

(مؤمن) تعني مرتبة جمالية، فهو أسعد الناس، وأعلمهم، وأكثرهم انضباطاً، أما أن تظن أن المؤمن إنسان تعلق بالأوهام، واتكل، وتواكل، وقعد، ورضي بالقليل، وكان متشائماً، هذا ليس من الإيمان في شيء، لأن علو الهمة من الإيمان، وما من إنسانٍ على وجه الأرض لم يعرف الله سبحانه وتعالى إلا وله خريف عمر، يذوي عوده، تنحط قواه، يميل إلى الراحة، ينسحب من المجتمع، إلا المؤمن، فكلما ازداد عمره سنة ازداد نشاطاً، وازداد إقبالاً، وازداد طاعةً، وازداد معرفة، وازداد مكانةً، لذلك قالوا : المؤمن لا يشيخ، يشيخ جسمه، ولا تشيخ نفسه، لأن هدفه كبير، وهدفه أكبر من حاجاته، أما أهل الدنيا إذا حصل على مبلغٍ وفير، وبيتٍ كبير وفراشٍ وثير اطمأن، وقعد، لكن المؤمن لا يشغله شيء عن طاعة الله عز وجل .

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ)

(سورة النور : 37)

قال سعد: " ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك أنا واحد من الناس، ما صليت صلاةً فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها، ما سرت في جنازة فحدثت نفسي بغير ما تقول حتى أن أنصرف منها، ما سمعت حديثاً من رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا علمت أنه حق من الله سبحانه وتعالى " .

فالإنسان له عمر زمني، وهذا من أتفه الأعمار، وله عمر عقلي، وله عمر انفعالي، وله عمر تحصيلي، وله عمر إيماني، وعمره الإيماني من أثمن الأعمار .

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة الحجر : 72)

أقسم الله سبحانه وتعالى بعمر نبيه الثمين، فهذا العمر كيف تمضيه ؟ هل تقول إلى من يدعوك إلى لهوٍ، أو تضييع وقت، أو إلى عملٍ سخيف لا طائل منه، هل تقول له : لم أُخلق لهذا ؟ " إن ساعة تمضي في غير ما خُلقتُ له لجدير أن تطول عليها الحسرة يوم القيامة "، هذا قول الإمام الغزالي .

فلذلك: العبادة معرفة، وطاعة، وسعادة، جانب عقلاني، وجانب أخلاقي، سلوكي، تعاملي، وجانب نفساني، فالمؤمن عالمٌ، وأخلاقيٌ، وسعيدٌ، إن لم تكن كذلك فابحث عن وسائل يرقى بها إيمانك .

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِين)

فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ

مِن الناس التي أرسلت إليهم الرسل، من هؤلاء الناس مَن هدى الله، ومِن هؤلاء الناس مَن حقت عليهم الضلالة، لكن السؤال الدقيق: لِمَ لمْ يقل الله عز وجل: فمنهم من هدى الله، ومنهم من أضل الله، أو لِمَ لم يقل: منهم من حق لهم الهدى، ومنهم من حقت عليهم الضلالة ؟

انظروا إلى دقة القرآن وبراعته :

لماذا في موضوع الهدى قال الله عز وجل :

(فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ)

وفي موضوع الضلالة قال الله عز وجل :

(وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ)

الحقيقة ليتضح الفرق بين التعبيرين لا بد من طرح المثل .

لو أن معلماً مخلصاً بذل جهداً كبيراً في إعداد الدروس، وفي توضيح الحقائق، وفي ضبط التلاميذ، وفي متابعة وظائفهم، كان يمضي ساعات طويلة يعدّ الدروس، ويأخذ الدفاتر ليصححها في البيت، ويجلس مع كل طالب ليوضح له أغلاطه، فإذا مضى عام والمدرس يفعل هذه الجهود الجبارة من أجل أن يرقى بتلاميذه إلى المستوى المطلوب فالفضل عائد لمن ؟ لهذا المدرس، لكن الطالب الذي لم يداوم أيكون المدرس قد حرمه ؟ لا والله، قوانين التربية والتعليم طبيعة والتعلم تقتضي أن يبقى هذا الطالب جاهلاً، لأنه لم يداوم، فالضلال حق عليه، بمعنى أن بُعْده عن قاعة الدرس، واستنكافه عن الدوام جعله في جهالة، فحقت عليه الجهالة، وحقت عليه الضلالة، يجب أن يرسب، لا لأن المعلم حرمه من النجاح، لا، الذي داوم استفاد فائدة ما بعدها فائدة من المعلم، والذي أبى أن يداوم، أبى أن يلتحق بهذه المدرسة، حقت عليه الضلالة، وهذا شيء طبيعي .

إن اهتديت إلى الله عز وجل فالفضل عائد إليه، وإن ضل الإنسان فقد استحق الضلالة، لأن الأنظمة انطبقت عليه، أيعقل لطالب لم يدخل قاعة الدرس أبداً أن ينجح، مستحيل، طبيعة التعليم وقوانين التربية والتعليم لا تسمح لهذا الطالب أن ينجح، فالمدرس فعل جهده، فعل ما عليه، لو أنه داوم في هذا الصف لاستفاد كما استفاد الآخرون،

(فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ)

موضوع الهدى والضلال موضوع شائك، هناك أناس يتسرعون، فيعتقدون اعتقاداتٍ باطلة وفاسدة في موضوع الهدى والضلال، فبعض الناس يعزو الضلالة إلى الله سبحانه وتعالى، يقول : هو أضلَّ

الناس، في موضوع الهدى والضلال ما يزيد على أربعمئة آية في كتاب الله، أربعمئة آية في كتاب الله تتحدث عن الهدى والضلال، مِن استقصائها، والوقوف عند بعضها، وتصنيفها يتضح الموضوع جداً .

تعريف الهدى كما جاء في القرآن :

أولاً : تعريف الهدى، ما تعريفه ؟ ربنا سبحانه وتعالى في بضع آيات أعطى معنى الهدى، فقال :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

(سورة الحديد : 26)

ما الذي يقابل الهدى؟ الفسق، فالمهتدي لا يكون فاسقاً، فمن لوازم الهدى الانضباط السلوكي، والاستقامة على شرع الله، فالذي يقول لك : أنا مهتد، وهو يعصي الله عز وجل، هذا كاذب بنص هذه الآية :

(فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

تعريف آخر للهدى : قال تعالى :

(أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

(سورة البقرة : 157)

أيها الأخ المهتدي، يا من تزعم أنك مهتد، هل تشعر بصلوات الله تنزل على قلبك ؟ هل تشعر بتجلّيات الله تملأ نفسك ؟ هل تقول : أنا أسعد الناس ؟ أنا أسعد الناس إلا أن يكون أحد أسعد مني، بمعنى أتقى مني، هل تحس أن قلبك مفعم بالسعادة، راضٍ عن الله، راضٍ عن حكمه، راضٍ بقضائه، مستسلم له، من صفات الهدى :

(أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

(سورة البقرة : 157)

من لوازم الهدى :

(الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام : 82)

هل تحس بالأمن؟ توقُّع المصيبة مصيبة أكبر منها، أنت من خوف الفقر في فقر، أنت من خوف المرض في مرض، هل تحس أن الله يدافع عنك؟ هل تحس أنك في حفظ الله؟ في عنايته؟ هل تحس أن الله عز وجل لن يتخلى عنك؟ وأنه يعاملك معاملة خاصة، هل أنت مصدق قوله تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة النحل : 97)

(الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام : 82)

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُهْتَدِينَ)

(سورة الأنعام : 56)

من علامات المهتدي أنه لا يتبع الهوى، لأن اتباع الهوى هوان .

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى)

(سورة النازعات : 40)

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

(سورة يونس : 45)

وهذا الذي يقول لك: تنتهي الحياة بالموت، ولا شيء بعد الموت، هو في ضلالٍ كبير، فصار الهدى أن تؤمن أن بعد الحياة حياة أبدية، وأنها هي الحياة، لو أنك تعلم الحقيقة .

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر : 24)

من لوازم الهدى :

من لوازم الهدى : ألا تنقاد للهوى .

ومن لوازم الهدى : أن تحس بالأمـن .

ومن لوازم الهدى : أن تكون منضبطاً، مستقيماً على أمر الله .

ومن لوازم الهدى : أن تحس بصلوات الله، ورحمته نازلة على قلبك .

هذه الآيات توضح جانباً من معاني الهداية .

من آثار الهداية :

شيء آخر، آثار الهداية، قال تعالى :

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)

(سورة يونس : 108)

إنك إن اهتديت لا تفعل شيئاً مع الآخرين، كل ما تفعله عائد إليك .

(مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ)

(سورة يونس : 108)

من آثار الهداية :

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة : 38)

من لوازم الهدى : أنك لا تندم على ما فات، ولا تخشى مما هو آت، أمنٌ، وطمأنينة .

من آثار الهدى : قال تعالى :

(فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى)

(سورة طه : 47)

السعادة والأمن والرخاء مطلب المهتدي :

حياتك في سلام، في دعة، في رضى .

(سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ)

(سورة يس : 58)

السلام من أسماء الله، السلام عليك أيها المهتدي، والسلام على من اتبع الهدى، هذا من آثار الهدى .

(قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه : 123)

لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه .

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى)

(سورة العلق : 11)

المهتدي له شخصية متميزة، صادق في كلامه، وفيٌّ لوعوده، يحفظ عهده، يفي بوعده، لا يكذب، لا ينافق، يرحم، يحلم ولا يفجر، يعطي ولا يمنع، هذه صفات أساسية .

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى(11)أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى(12)أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)

(سورة العلق : 11 - 13)

كيف هي مواعيده؟ وكيف هي عهوده؟ وكيف هي علاقاته؟ وكيف هو قلبه؟ مفعم بالقسوة، هناك فرق صارخ بين الهدى وبين الضلال، بين المهتدي وبين الضال .

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة الملك : 22)

الآيات الأولى كأنها عرّفت طبيعة الهدى، والآيات الثانية كأنها بينت نتائج الهدى، من منا لا يتمنى أن يكون آمناً، مطمئناً، موفقاً، سعيداً، في سلامٍ، ورخاءٍ، وإقبالٍ، وأنوارٍ، هذا هو الهدى، لذلك دائماً أنا أفرق بين الثقافة والهدى، لو أنك تطالع الكتب، وتقرؤها، وتحفظها، ولست مستقيماً على أمر الله، ولست مقبلاً عليه، إن دماغك يمتلئ بالمعلومات القيمة، ولكنك لا تسعد بهذه المعلومات، الثقافة شيء، والهدى شيء آخر، الثقافة مجموعة معلومات دقيقة، كثيرة، محشوة في دماغك، هذه هي الثقافة، الثقافة تجعلك متحلقاً، الثقافة تجعلك تنزع إعجاب الآخرين، ولكن الهدى يجعلك سعيدًا، ويجعلك مسعِدًا، تسعد أولاً، وتسعد ثانياً، فشتان بين الثقافة والهدى، شتان بين الجمع وبين النبع .

شيءٌ آخر :

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة الملك : 22)

ربنا عز وجل قال :

(فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ)

(سورة النحل : 36)

مَن هذا الذي يهديه الله ، والذي لا يهديه الله ؟

مَن هذا الذي يهديه الله؟ هذه كلمة موجزة، هل هناك آيات تفصيلية توضح من الذي يهديه الله سبحانه وتعالى ؟

هناك آيات كثيرة توضح من الذي يستحق الهدى، القرآن فيه إجمالٌ وتفصيل، إذا قرأت قوله تعالى .

(فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة فاطر : 8)

فهذه آية مجملة، تفصيلاتها في خمسين آية .

(فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

من هذا الذي يهديه؟ ومن هذا الذي يضله؟ الله عز وجل يقول :

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة البقرة : 258)

(فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ)

من هذا الذي حقت عليه الضلالة؟ هو الظالم، لقوله تعالى :

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

الظالم لا يهديه الله سبحانه وتعالى، فقط الظالم !

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة البقرة : 264)

كلمة الظالم واسعة جداً، من معانيها الواسعة ظلم النفس، من معانيها الضيقة ظلم الآخرين .

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة المائدة : 108)

لا يهدي الكافرين، ولا يهدي الظالمين، ولا يهدي الفاسقين، فمن كان متلبساً بالفسق، أو متلبساً بالكفر، أو متلبساً بالظلم فلن يهديه الله سبحانه وتعالى، وهذا تحق عليه الضلالة .

(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف : 52)

أيّة خيانة فصاحب الخيانة محجوب بخيانته، لن يهتدي إلى الله عز وجل، خيانته حجاب بينه وبين الله،

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)

(سورة الزمر : 3)

الكذب أيضاً حجاب بينك وبين الهدى، فالظلم، والكفر، والفسق، والخيانة، والكذب، هذه الصفات إذا تلبّس بها الإنسان حَرمته الهدى، وكانت حجاباً بينه وبين الله سبحانه وتعالى .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)

(سورة غافر : 28)

الإسراف في أخذ الحق، الإسراف في النفقات، الإسراف في التعدي، الإسراف في الظلم، أي أنواع الإسراف حجاب بينك وبين الله سبحانه وتعالى، الله عز وجل لا يهدي الظالم، ولا الكافر، ولا الفاسق، ولا الخائن، ولا الكاذب، ولا المسرف .

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة النحل : 104)

وهذا الذي يدير ظهره لآيات الله في الكون، لا يفكر إلا في مصالحه، إلا في قوت يومه، إلا في رزقه، أما أن يفكر في كأس الماء، كيف جعله الله عذباً فراتاً بعد أن كان ملحاً أجاجاً، أما أن يفكر في طعامه، أما أن يفكر في خَلقه، في بدء خَلقه، أما أن يفكر في الشمس والقمر، في الليل والنهار، في السماوات والأرض، في الجبال والسهول، في البحار والأنهار، في الأسماك والأطيار، في هذا الذي يرتدي، في هذا الذي يجلس عليه، أن يفكر في خَلقه، من خلال خَلق ابنه، أن يفكر في هذه الطباع التي طبع الله بها مخلوقاته .

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ)

الإيمان بآيات الله طريقٌ للهدى .

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا)

(سورة الإسراء : 94)

أشياء تمنع من الهدى :

مِن موانع الهدى أن تقول : فلان مثلي، أعرفه حينما كان صغيراً، كيف صار يهدي الناس ؟ الكِبْر أحياناً، والحسد، والاستعلاء يمنعك أن تهتدي، هذا من موانع الهدى، ألم يقل الله عز وجل :

(مِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ)

تحق الضلالة على الظالم، وعلى الكافر، وعلى الفاسق، وعلى الخائن، وعلى الكذاب، وعلى المسرف، وعلى الذي لا يؤمن بآيات الله، وعلى الذي يستعلي، ويستكبر، وعلى الذي يخاف خوفاً لا مبرر له .

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص : 57)

غير المؤمن يقول: لأنه يطيع الله سبحانه وتعالى يتوهم أن أخطاراً جسيمة سوف تصل إليه، الخطر يأتيك من طاعة الله! هذا كفر بالله، كيف تعبده وتسيء الظن به ؟ أيدعك لأعدائك، أيسلمك لخصومك ؟ أيتخلى عنك وأنت تطيعه ؟

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة القصص : 57)

هذه المقولة منعتهم من الهدى، وكل من يقول: لو أنني فعلت كذا وكذا أخاف على مستقبلي، أخاف على مستقبل حياتي، أخاف على أولادي، أخاف على دخلي، أخاف على رزقي، إذا أطعت الله عز وجل ينقطع رزقك؟! كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تقرب أجلاً، أتخاف على رزقك من طاعتك لله عز وجل؟! طاعة الله تسبب تلف رزقك .

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

شيءٌ آخر، مشاقة الرسول سبب للضلال، فالله سبحانه وتعالى يحق على العبد الضلال إذا كان فاسقاً، ظالماً، كافراً، كذاباً مسرفاً، خائناً، مستعلياً، لا يعمل فكره في آيات الكون، يخشى من غير مبرر، يستجيب للشيطان حينما يخوفه .

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : 175)

هذه بعض الأسباب التي وردت في كتاب الله، والتي إذا وجدت إحداها في الإنسان استحق الضلال .

(مِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ)

متى يستحق الإنسان الهدى من الله ؟

الآن سؤال : متى يستحق الإنسان الهدى من الله عز وجل ؟

(مِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ)

هذه آية محكمة، موجزة، مجملة، أين تفصيلاتها ؟ قال تعالى :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت : 69)

هل بذلت مالك؟ هل بذلت وقتك؟ هل ضبطت مشاعرك؟ هل إذا حركت مشاعرك شهوة فقلت: إني أخاف الله رب العالمين؟ هل بكت عينك من خشية الله ؟هل قلت: أين الله؟ لا أفعل هذا، معاذ الله، إنه ربي أحسن مثواي، هل تجاهد في سبيل الله؟ هل تجاهد نفسك وهواك؟ كما قال عليه الصلاة والسلام :

((رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، جهاد النفس والهوى))

[ذكره المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير]

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

أيها الإخوة الأكارم، وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ لو أنكم تحركتم إلى الله شبراً، أو ذراعاً، أو باعاً، فإن الله سبحانه وتعالى يزيدكم من فضله، ويعطيكم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى :

((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

[متفق عليه]

ما إن تتحرك نحو الله سبحانه وتعالى، ما إن تعقد العزم على التوبة حتى يتلقاك الله بالبشر، إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض : أن هنئوا فلاناً، فقد اصطلح مع الله .

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

قبل قليل ذكرت لكم موانع الهدى، ما الذي يمنع الإنسان من أن يهتدي؟ متى تحق عليه الضلالة؟ الكفر، والفسق، والظلم، والخيانة، والكذب، والإسراف، والاستعلاء، وتعطيل الفكر، ووسوسة الشيطان، ومشاقة الرسول، هذه كلها موانع الهدى، موجبات الهدى مجاهدة النفس والهوى، هل تغض بصرك عن محارم الله؟ هل تمتنع عن سماع أغنية تغضب الله عز وجل؟

((من استمع إلى قينة صب في أذنيه الآنك يوم القيامة))

[ابن عساكر عن أنس]

فهل تمنع نفسك من غيبة ممتعة يضحك لها الناس ؟ هذه غيبة لأخ مؤمن، هل تمنع نفسك من نميمة؟ من شتيمة؟ من فحش؟ من إيقاع للشقاق بين الناس ؟

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

من موجبات الهدى :

من موجبات الهدى :

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة المائدة : 16)

دائماً وأبداً أنت تعرف من دون معلم أن هذا العمل يرضي الله، وذاك العمل يغضب الله، لو قال لك أحدهم: اصرف لي هذه الليرات الخمس، والدرج مليء بالقطع الصغيرة، تعلم علم اليقين أنك إذا قلت له : ليس عندي، تعلم أن هذا العمل لا يرضي الله، وأنك إذا فرَّجت همه فإن هذا يرضي الله، تعلم علم اليقين أن أمك إذا طلبت منك حاجة، وقد عدت إلى البيت مُنهَك القُوى، تعلم علم اليقين أنك إذا قلت لها: لا أستطيع، أو هذه الحاجة غير موجودة، أو المحلات أغلقت، أو هذا الدواء مفقود، فأنت بهذا أرحت جسمك، لكن الله لا يرضى عنك، وتعلم علم اليقين أنك إذا خرجت من البيت ثانية، واتجهت إلى الصيدلية المناوبة، وأتيت لها بالدواء تنام وَاللَّهُ راضٍ عنك، في كل حركة وسكنة، المشتري يقول لك : انصحني، فإذا نصحته بشيءٍ كاسدٍ عندك تعلم أن هذا يغضب الله، وأنك إذا نصحت بأحسن ما عندك فهذا يرضي الله، تعلم هذا بالفطرة، ولو لم تحضر مجلس علم، بالفطرة تعلم أنت ما الذي يرضي الله عز وجل، وما الذي يسخطه، في علاقتك بزوجتك، علاقتك بأولادك، علاقتك بجيرانك، علاقتك بإخوانك، بأصدقائك، بزبائنك، بمن تعرف، أنت في كل لحظة تمتحن، فإما أن تتبع ما يرضي الله، وإما أن تتبع ما يسخط الله، إذا دعيت إلى سهرة مختلطة فاعتذرت، فإن هذا يرضي الله، فإذا استجبت فإن هذا يسخط الله عز وجل، إذا دعيت إلى كسب حرام فأغراك المبلغ الكبير، فهذا يسخط الله سبحانه وتعالى .

فربنا عز وجل ذكر من موجبات الهدى :

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ)

(سورة المائدة : 16)

هل تتبع رضوان الله؟ هل أنت حريص على رضاء الله عز وجل؟ هل تقول: يا رب، أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي، هل ترى أن رضاء الله عنك هو أثمن ما في الحياة؟ هل ترى أن أعلى مرتبة في الكون أن تقول: رضي الله عن فلان، هل أنت ممن ترضي الله، فإذا كنت كذلك فالله يهديك .

الموجب الثالث :

(وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا)

(سورة الجن : 13)

هل تصغي إلى الهدى؟ هل تستجيب إلى الهدى .

(رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ)

(سورة آل عمران : 193)

هل عندك تعطُّش إلى الحق؟ بحيث لو سمعت الهدى استجبت له، أم أن هذا الكلام لا يحرك فيك شعوراً، ولا وجدانًا، ولا محبة، ولا شوقاً، وأنت غارق بالملذات .

(وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ)

(سورة الجن : 13)

الموجب الرابع : يهدي به من أناب، من عاد إلى الله عز وجل، هل عُدتَ له بالتوبة ؟ هل عدت إليه بالطاعة ؟ إذا عدت إليه بالتوبة، وعدت إليه بالطاعة فأنت ممن يستحق الهدى .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

(سورة يونس : 9)

لماذا هداهم ربهم بإيمانهم؟ لأنهم عملوا الصالحات، لم يكتفوا بالقول، بل أتبعوا القول بالعمل، حينما أتبعوا القول بالعمل استحقوا أن يهديهم ربهم بإيمانهم .

(وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة آل عمران : 101)

إذا ألمّت بك الملمّة، إذا بدا لك شبح مصيبة، بمن تعتصم؟ بزيد أو عبيد، أو بمالك الوفير، أم بجاهك العريض، أم تقول له : يا رب، بالمناجاة، ليس لي إلا أنت، ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيته، فتكيده أهل السماوات والأرض، إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه .

(قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

(سورة النور : 54)

ثمن الهدى أيضاً طاعة الله، في المنشط و المكره، فيما عرفت حكمته، وفيما لم تعرف، هذا من موجبات الهدى .

من موجبات الضلالة :

ومن موجبات الهدى :

(فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

(سورة البقرة : 150)

من موجبات الضلالة : الذين يقولون :

(إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة القصص : 57)

أما طبقت قوله تعالى :

(فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي)

فهذه الخشية لله على حساب خشية الناس من موجبات الهدى .

الشيء الذي يجب أن يعرفه الإنسان أنه إذا كان مهتدياً حقاً فلا يعنيه أمر الناس، أكانوا مهتدين أو ضالين ؟ لو أن الناس كلهم ضلوا فإحساسه بقيمة الهدى تجعله يحافظ عليه حفاظه على روحه، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة المائدة : 105)

لو أنك في مجتمع كلهم فسقة، كلهم فجرة، كلهم يسخرون من الدين، كلهم لا يصلُّون، وقد هُديت إلى الله عز وجل، فأنت أسعد الناس بهذا الهدى، فإذا نكس الإنسان على رأسه، وقال: أنا مع الناس فليسمع :

عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ : إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا))

[الترمذي]

أيْ: من كان مع الخط العريض . قال تعالى :

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)

(سورة يونس : 36)

اتباع أكثرية الناس هذا اتباع للضلال، كن مع الأقلية المؤمنة، ولا تكن مع الأكثرية الفاسقة، كن مع الأقلية المؤمنة، ولا تكن مع الأكثرية العابثة، كن مع الأقلية المؤمنة، ولا تكن مع الأكثرية الضالة .

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام : 116)

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا)

(سورة يونس : 36)

طبيعة الهدى :

شيء آخر، ما طبيعة الهدى؟ هناك آيات كثيرة تبين طبيعة الهدى :

فمن طبيعة الهدى أن الهدى اختيار، لو شاء الله لهدى الناس أجمعين، لكن هذا الهدى القسري لا قيمة له، كما لو أن الجامعة وزعت أوراق الأسئلة مع أوراق الإجابة، ينجح جميع الطلاب، لكن هذا النجاح لا قيمة له، ولا شأن له، وليس مجدياً في بناء الأمة، لذلك قال تعالى :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان : 3)

فالهدى اختيار، وليس إجبارًا .

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة فصلت : 17)

(لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة النور : 46)

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الأنعام : 88)

الهدى اختيار، وليس إجباراً .

السير في طريق الهدى فيه زيادة هدى :

شيء آخر، من سار في طريق الهدى زاده الله هدى، هذه نقطة مهمة جداً، قال تعالى :

(وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا)

(سورة مريم : 76)

إذا دخلت الجامعة، وقبلت أن تكون طالباً جامعياً، عندئذ هناك المكتبات، وهناك المساعدات من قبل الأساتذة، وهناك المحاضرات، وهناك الندوات، هناك أشياء كثيرة تزيدك معرفة، إذا قبلت أن تدخل

الجامعة .

(وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى)

(سورة مريم : 76)

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

(سورة الكهف : 13)

(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)

(سورة محمد : 17)

الهدى بيدك أنت إن شئته :

من لواحق موضوع الهدى أن الهدى ليس بيد أحد، بل بيدك أنت، ومن أعظمُ من النبي عليه الصلاة والسلام ؟ قال تعالى :

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

(سورة القصص : 56)

وقال تعالى :

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة : 272)

إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام وهو قمة البشر، وهو أعلى مخلوق في بني البشر، يقول الله له :

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

إذاً: الهدى بيدك أنت، وليس بيد أحد سواك، إذا أردت الهدى فالله سبحانه وتعالى يهديك، إذا شئت الهدى يشاءه الله لك، فإن أبيت الهدى حقت عليك الضلالة، إن شئته شاءه لك، وإن أبيته حقت عليك الضلالة .

مَن هو المهتدي :

شيء آخر : من هو المهتدي ؟

وكل يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقرّ لهم بذاكا

***

كل فرقة تدعي أنها على حق، كل دين سماوي يظن أصحابه أنهم على حق .

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

(سورة المائدة : 18)

من هو المهتدي؟ قال تعالى :

(ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى)

(سورة النجم : 30)

الله وحده يعلم، فأنت غير مؤهل تعرف، أنت لك الظاهر، والله يعرف السرائر، احكم بالظاهر، والله يتولى السرائر، لكن الله وحده يعلم من هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بمن اهتدى .

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا)

(سورة الإسراء : 84)

فحسبك أن يكون الله راضياً عنك، ومن عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس في، لا تحكم على أحد بالضلال، قل : الله أعلم، هذا تدخل في شؤون الله سبحانه وتعالى، لا أحد يعرف من هو المهتدي إلا الله، أنت لك الظاهر، و الله يتولى السرائر، هذا أدبٌ نبوي،

(فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى)

(سورة النجم)

لا تزكِّ على الله أحداً، لا تزكِّ نفسك ولا تزك أحداً، قل الله أعلم .

أحد العلماء طُلب إليه أن يشهد شهادة طيبة لإنسان، فقال : فلان أعرف منه الصلاح والتقوى، والله أعلم، فهذا الرجل انزعج من كلمة (والله أعلم)، طبعاً والله أعلم، سيدنا الصديق حينما استخلف سيدنا عمر قال : << فهذا علمي به، فإن بدل وغير فلا علم لي بالغيب>>، والله أعلم، فلا تزكِّ على الله أحدًا، ولا تزكِّ نفسك، قل : الله أعلم، لأن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بمن اهتدى، أما نحن فلنا الظاهر، والإنسان مادام مستقيماً على أمر الله إذاً هذا أخي في الله، ما دام مطبقاً لشرع الله لم يخرق الاستقامة، لم يأكل مالاً حراماً، لم يترك الصلاة فهذا أخي في الله، أما أن أحاسبه عن أشياء لا أعلمها فهذا ليس من اختصاص المسلمين .

الهدى سيعمّ الأرض شاء مَن شاء وأبى من أبى :

شيء آخر في موضوع الهدى : إن الله سبحانه وتعالى يقول :

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

(سورة التوبة : 33)

هذه الآية بشارة إلى أن الهدى سوف يعمّ الأرض، أما إذا أردت أن تهدي الناس فهناك شروط صعبة جداً .

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

(سورة السجدة : 24)

الهدى يحتاج إلى ابتلاء وصبر :

لا بد لك من أن تصبر على حكم الله، وعلى أمر الله، وعن معصية الله، وعلى من تهدي، اصبر على طاعته، واصبر عن معصيته، واصبر على من تهديه، واصبر على حكم لا تفقه مراده، واصبر على الطاعة في السراء والضراء، حتى تستحق أن تنال مقام الهداية :

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة : 24)

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ)

بعد أن أتَمَّهُنَّ .

(قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)

(سورة البقرة : 124)

فالهدى يحتاج إلى ابتلاء، وإلى نجاح في الابتلاء .

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة فصلت : 33)

لا بد من أن يكون عملك صالحاً حتى تستحق كلماتك أن تصل إلى القلوب، فإن كان العمل سيئاً فالهداية لا تتجاوز الآذان، ولا بد من أن تترفع عن الدنيا، وعن كل شيءٍ فيها، قال تعالى :

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة يس : 20 - 21)

ولا بد من أن تكون عالماً، وأن تجلس الساعات الطوال كي تعرف الله عز وجل .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (10-21): تفسير الآيات 37 – 40 ، عن القضاء والقدر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-03-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس العاشر من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

وكنا قد فسرنا في الدرس الماضي قوله تعالى :

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

مصادر الحقيقة والمعرفة :

نقف عند هذه الآية التي مررنا عليها سريعاً في الدرس الماضي :

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

الحقيقة يمكن أن تستنبطها من مصادر ثلاثة .

المصدر الأول : الكون :

قال تعالى :

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة يونس : 101)

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(24)أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا(25)ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا(26)فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا(27)وَعِنَبًا وَقَضْبًا(28)وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا(29)وَحَدَائِقَ غُلْبًا(30)وَفَاكِهَةً وَأَبًّا(31)مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ)

(سورة عبس : 24 - 32)

(فَلْيَنظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ(5)خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ(6)يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ(7)إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)

(سورة الطارق : 5 - 8)

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(17)وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ(18)وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ(19)وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

(سورة الغاشية : 17 - 20)

الله سبحانه وتعالى يدعونا في آيات كثيرة إلى النظر في الكون، فالكون قرآن صامت، فإذا أردت أن تعرف الحقيقة فابحث عنها من خلال آيات الله التي بثها في السماوات والأرض .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

***

هذا طريق، وهذا مصدر، أحد مصادر الحقيقة الكون، لأن الكون كما قلت في درس سابق: تجسيد لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، أو مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، فإذا تأملت في آيات الكون انتقلت منها إلى أسماء الله وإلى صفاته، فعرفته، فإذا عرفته عبدته، وإذا عبدته سعدت بقربه، هذا هو المصدر الأول .

سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام نظر في الكون :

(فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ(88)فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ)

(سورة الصافات : 88 - 89)

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ(76)فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ(77)فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)

(سورة الأنعام : 76 - 78)

ثم انتقل من آيات الكون إلى فاطر الكون، فقال :

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة الأنعام : 79)

فمن شاء أن يعرف الله سبحانه وتعالى فـ :

في كل شيء له آية تدل على أنه واحد

***

وظيفة المخلوقات وعلاقتها بالإنسان :

كل شيء خلقه الله سبحانه وتعالى إنما له وظيفتان، الوظيفة الأولى والرئيسة: أن يعرفك بذاته سبحانه وتعالى، والوظيفة الثانية : ما يقدم لك من خدمات، عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ بَلَغَهُ :

((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا رَأَى الْهِلَالَ قَالَ : هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ، هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ، هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ، آمَنْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ يَقُولُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ذَهَبَ بِشَهْرِ كَذَا، وَجَاءَ بِشَهْرِ كَذَا))

[أبو داود]

خير نعرف به عدد السنين والحساب، ورشد يرشدنا إلى ربنا .

فكأس الماء آية على رحمته، الهواء الذي نستنشقه، الحواس الخمس، الأعضاء، الأجهزة، أنواع النباتات، أنواع الأطيار، أنواع الأسماك، الجبال، الوديان، السهول الصحارى، البحار، الأنهار، كل شيء يدل عليه، بما هو كبير، وبما هو صغير .

المصدر الثاني : الكتاب العزيز :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

(سورة الأنعام : 1)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا)

(سورة الكهف : 1)

إذا قرأت القرآن الكريم تعرفت إلى الله رب العالمين، فمن قرأ آياته، وفهمها، وتدبرها، وعرف أبعادها، وطبقها، كان كتاب الله مصدرًا ثانياً للمعرفة .

المصدر الثالث : الحوادث في الكون : فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا

الكون مصدر، والقرآن مصدر، والحوادث التي تجري مصدر ثالث، فربنا سبحانه وتعالى يقول :

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

هؤلاء الذين كذبوا الرسل، وكذبوا بهذا الكتاب، هؤلاء الذين رأوا أن ما أنزله الله على النبي عليه الصلاة والسلام لا يصلح لهذا الزمان، هؤلاء الذين أداروا ظهورهم للدين، هؤلاء الذين آمنوا بنظريات أخرى غير هذا الدستور الذي سنه الله لنا، هؤلاء حينما تفلتوا من الشرع الإلهي، وحينما تحللوا من القيم التي جاءت في كتاب الله، اتبعوا شهواتهم، وساروا وراء مصالحهم فطغوا وبغوا، ماذا كانت النتيجة؟ أن الإنسان في الدنيا يهلك، وإذا انقلب إلى الله عز وجل إلى اليوم الآخر تنتظره النار، وبئس المصير :

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

تستطيع أن تستشف من خلال الأحداث التي تجري في الأرض، أي من خلال أفعال الله سبحانه وتعالى في عباده، تستطيع أن تستشف الحقيقة .

مثلاً :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية : 21)

تستطيع أن توازن بين حياة المؤمن وحياة غير المؤمن، لا بد من أن يكون هناك فرق شاسع، ومفارقة حادة، بين حياة فيها طمأنينة واستقرار، فيها سعي نحو معرفة الله عز وجل، حياة مقدسة، حياة عفيفة، حياة نظيفة، حياة سامية، حياة علوية، وبين حياة إنسان شهواني يبحث عن مصالحه بأيّ ثمن، ومن أيّ طريق، يدوس من أجل مصالحه كلَّ القيم، ما مصير هذا؟ وما مصير ذاك؟ لا شك أنه هناك فرقًا شاسعاً.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية : 21)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة النحل : 97)

دقق في حياة المؤمن، ألا تراها طيبة؟ ألا تراه سعيداً في بيته وعمله وعلاقاته، وطموحاته؟ إنه في الأفق الأعلى، والناس في الوحول، انظر إلى حياة أهل الدنيا، خصومات، مشاحنات، شهوات، تجاوزات، تعديات، بغي، ظلم، تحلل، مشاكسة، سوء ائتمان، قسوة، هذا حال أهل الكفر، وهذا حال أهل الإيمان، لو نظرت إلى الذي يأكل مالاً حراماً ما مصيره، لا بد من أن يدمر ماله، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ))

[البخاري]

قال الله تعالى :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)

(سورة البقرة : 276)

دقق في كسب المال وحده، هذا الذي كسب مالاً حلالاً، دقق في حياته، كيف أن الله سبحانه وتعالى يبارك له في صحته، وفي أهله، وفي أولاده، وفي تجارته، وفي كسبه، وفي أعماله كلها، وانظر هذا الذي كسب مالاً حراماً، كيف أن هذا المال سيذهب، وسيذهب معه صاحبه، كيف أن حياة الذي يكسب المال الحرام مصحوبة بالمصائب والأخطار، بالإفلاس أحياناً، بالأمراض، ربنا عز وجل قال لنا :

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا)

وفي آيات أخرى :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام : 11)

فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا ـ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا

هذه الفاء حرف عطف، يفيد الترتيب على التعقيب، بينما ثم حرف عطف يفيد الترتيب على التراخي، والآيتان في كتاب الله، كل آية تعني شيئاً، فلو أن إنساناً طغى وبغى، و أكل مالاً حراماً، وبنى مجده على أنقاض الآخرين، وبنى حياته على موتهم، وبنى أمْنه على خوفهم، بنى غناه على فقرهم، بنى سعادته على شقائهم، هذا الذي يسلك هذا الطريق انظر كيف تكون عاقبته، ربنا عز وجل قال :

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة القصص : 83)

العاقبة للمتقين، العبرة في خريف العمر، العبرة في هذا العمر كيف ينتهي؟ ينتهي إلى دمار، ينتهي بفضيحة كبيرة، ينتهي بمصيبة أسرية، كيف ينتهي هذا العمر؟ هذا المال الذي كسبه الإنسان بالحرام كيف أودى بصاحبه؟

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا)

إذا قال الله عز وجل :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا)

معنى ذلك أن هناك حالات كثيرة يأتي العقاب مباشرة بعد الانحراف، ما أن ينحرف حتى يأتي العقاب الإلهي، وإذا قال الله عز وجل :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا)

معنى ذلك :

(يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران : 196 - 197)

قد يمد الله للكافر، قد يعطيه الصحة، والذكاء، والمال والجمال، ولكنه يسلبه الطمأنينة، والسعادة، والصفاء، والإقبال .

إذاً: الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة يأمرنا أن ننظر، النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((أمرني ربي بتسع، خشية الله في السر والعلانية، وكلمة العدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عبرة))

[رواه القضاعي في مسند الشهاب]

لا تدع هذه القصص التي تسمعها تمر هكذا ، فكّر فيها، واعرضها على كتاب الله، ابحث لماذا يُكبّ هذا الإنسان؟ ما المخالفة التي كان يرتكبها؟ لماذا حفظ الله مال فلان؟ وأتلف مال فلان؟

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام : 11)

كلّ ما يحدث في الأرض مصداق لما في الكتاب العزيز :

إذاً: يمكن أن تستنبط الحقيقة من مصدر ثالث، ألا وهو الحوادث، الحوادث وحدها تنبئك بالحقيقة، لذلك ربنا عز وجل أحياناً يشهد لنا أن هذا الكلام كلامه، شيءٌ عجيب، الله سبحانه وتعالى متى شهد لنا؟ لأن كل ما يحدث في الأرض مصداق لما في هذا الكتاب، هذا الكتاب قطعي الثبوت، قطعي الدلالة، فأي شيء يحدث في الأرض يصدق ما جاء في هذا الكتاب .

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود : 117)

(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا)

(سورة مريم : 64)

آية أخرى :

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا)

(سورة الكهف : 59)

فلو تتبعت قرية أهلكها الله عز وجل لوجدتها ظالمة .

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل : 112)

التفسير الصحيح للحوادث :

الحقيقة ما يجري في الكون يجري، وما يَقع يقع، ما يقع يعرفه الناس جميعاً، ولكن البطولة في القدرة على التفسير، كل إنسان إذا حصل زلازل في مكان معين تتناقله الأنباء، وتنشره الصحف، وتصوره المجلات، يطلع عليه الناس جميعاً، فالناس لا فضل لواحد على آخر في تلقي الخبر، الخبر سهل تلقيه، لكن المؤمن يملك التفسير الصحيح لهذا الخبر، شتان بين أن تتلقى نبأ، وبين أن تملك القدرة على تفسيره، فالمؤمن يملك القدرة على تفسير ما يجري وَفق آيات الكتاب، وَفق هذه القواعد الثابتة التي وردت في القرآن الكريم :

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل : 112)

هناك تفسير إلهي، تفسير قرآني، تفسير ديني، لهذه النكبة التي ألمّت بهذه القرية .

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)

(سورة الأنعام : 65)

إذاً: هناك التفسير، فإذا عرفت الله عز وجل، إذا عرفت ما في كتابه من حقائق، إذا تدبرت آياته، إذا كشفت القواعد الثابتة التي وردت في كتاب الله، عندئذ تملك صحة التفسير، قال لما ربنا عز وجل :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه : 124)

هناك علاقة ثابتة بين الحياة الضنك والإعراض عن ذكر الله، فحيثما سمعت قصة، أو مشكلة، أو مأساة، أو قضية، وعرفت أن هذا الذي دُمِّرتْ حياته معرضٌ عن ذكر الله، تملك عندئذ التفسير الصحيح ما الذي يقلقلك؟ ألا تملك تفسيراً لما يجري؟ لكنك إذا ملكت التفسير الصحيح ارتاح قلبك، واطمأنت نفسك، فالمؤمن فضلاً أنه عرف الله من خلال الكون، وهذا الباب الأول، ومن خلال الكتاب، وهذا الباب الثاني، ومن خلال ما يجري من حوادث، وهذا الباب الثالث، تتبع .

قال لي أحدهم: ما من شخص عاصرته، وقد كسب مالاً حراماً إلا دمر الله ماله قبل أن يموت، طبعاً هذا استنباط استنبطه من القصص التي وصلت إلى سمعه، فربنا عز وجل يقول :

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

ثم يقول الله سبحانه وتعالى:

(إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ

النبي حريص على هداية قومه :

النبي عليه الصلاة والسلام حريص حرصاً بالغاً على هداية قومه، والدليل أن الله سبحانه وتعالى يصفه بهذه الصفة :

(إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ)

الهدى متعلّق باختيار العبد :

الجواب: أن هداهم ليس متعلقاً بحرصك، أو عدم حرصك، هداهم متعلق باختيارهم .

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

(سورة القصص : 56)

ليس هدى الإنسان متعلقًا بمشيئة النبي عليه الصلاة والسلام ، لو أن هدى كل إنسان متعلق بمشيئة النبي عليه الصلاة والسلام لشاء النبي عليه الصلاة والسلام لعمه أبي لهب أن يهتدي، ولكنّ عمه أبا لهب هو الذي أراد أن يبقى ضالاً، لذلك قال الله عز وجل :

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1)مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

(سورة المسد : 1 - 2)

فالهداية في أصلها عمل طوعي، اختياري، ليست الهداية متعلقة بحرص النبي ، أو عدم حرصه، فالله سبحانه وتعالى يثني على نبيه في هذه الكلمة، وفي الوقت نفسه يبين له الحقيقة، أن الهدى عمل اختياري .

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة فصلت : 17)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان : 3)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة البقرة : 148)

الهدى الاختياري والهدى الجزائي :

الهدى عمل اختياري، عمل من اختيار الإنسان، لذلك فإن علماء التوحيد قالوا: هناك هدى ابتدائي، وهناك هدى جزائي، فالإنسان إذا اختار الهدى قدر الله له الهدى، فاختياره للهدى الأول هو الهدى الاختياري، والهدى الذي قدر الله له دله على أهل الحق، فتح بصيرته، ألهمه رشده، شرح الله صدره للإسلام، جمعه مع أهل الهدى، هذه كلها من الله عز وجل، وهي بناء على اختيار الإنسان، فهناك هدى ابتدائي، أي إن الإنسان اختار الهدى، وهناك هدى جزائي، أي إن الله سبحانه وتعالى بعد أن علم منه هذه الإرادة، وهذا الاختيار يسَّرَ له سبل الهدى، ودلّه على أهل الحق، وشرح صدره للدين، فهناك ضلال ابتدائي، وضلال جزائي، فإذا اختار الإنسان طريق الضلال، أو إذا أبى أن يسلك طريق الهدى ضل باختياره .

إنّ الضلال في تعريفه الدقيق: خروج عن طريق الهدى، أو عدم السير في طريق الهدى، إذا أبى أن يسير في طريق الهدى، هذا هو الضلال، عندئذ يستحق الضلال، كما قال الله عز وجل في الآية التي قبلها :

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ)

(سورة النحل : الآية 36)

موانع الهدى وموجباته :

وذكرت لكم في الدرس الماضي أنَّ ما يقارب مئات الآيات المتعلقة بالهدى، كيف أن الهدى له موجبات، وأن الهدى له موانع، والله سبحانه وتعالى :

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة المائدة)

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة البقرة : الآية 258)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)

(سورة غافر : الآية 28)

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

(سورة البقرة : الآية 264)

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف : الآية 52)

ثمانية عشر شيئاً إذا تلبَّس بها الإنسان مُنع من الهدى .

وهناك موجبات للهدى :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

(سورة العنكبوت : الآية 69)

فربنا عز وجل يقول : يا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ :

(إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ)

من اختار الضلال أوكِل إليه :

هذا الذي اختار طريق الضلال، أو هذا الذي أضل نفسه عن طريق الحق، صرفها إلى الدنيا، صرفها إلى الشهوات، صرفها إلى جمع الدرهم والدينار، صرفها إلى العلو في الأرض، هذا الذي أضل نفسه عن طريق الحق، أو هذا الذي استحق الضلال الجزائي بعد أن اختار الضلال الابتدائي، هذا لا يهديه الله بحكم نواميس الكون التي خلقها الله عز وجل، الجامعة لها نظام، نظام داخلي، تقول : هذا الطالب رفض طلبه استنادًا إلى المادة الثالثة من نظام الجامعة، هذا الطالب رسب في سنته استنادًا إلى المادة الخامسة من نظام الجامعة، فربنا عز وجل خلق الكون، وخلق مع الكون سنناً، فهذه السنن هي التي تنظم علاقة العباد بربهم، فربنا عز وجل يقول :

(إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

فاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ :

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ :

((يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ،

يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ))

كلام واضح كالشمس،

((فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ))

أبواب الهدى مفتحة، فما عليك إلا أن تدخل فيها، سبيل الله عز وجل سالك، وما عليك إلا أن تسير فيه، والآيات نصبها ربنا عز وجل فما عليك إلا أن تفكر فيها، الأوامر معروفة، ما عليك إلا أن تنفذها، المنهيات معروفة، ما عليك إلا أن تنتهي عنها، فليس لك إلا أن تستجيب .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة الأنفال : 24)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة : 38)

هل أنت مصدق ربك أيها الأخ الكريم؟ يقول لك الله سبحانه وتعالى: كل ما في الدنيا متاعه قليل إذا قيس بما عند الله رب العالمين .

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ(60)أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص : 60 - 61)

الذي خلق لك ما في السماوات والأرض الذي أعدّ لك ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ألست مصدق ربك بهذا؟

(وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

الضالّ يدفع ثمن ضلاله غاليا :

ينصرونهم من دون الله إذا جاء جزاء الضلال، الضلال له جزاء، قد يظن أحدكم أن فلاناً اهتدى ـ وفلاناً ضل .

سيارة مندفعة بأقصى سرعتها، وتسير في طريق كلها انعطافات، ومن حول الطريق وديان سحيقة، هل تعرف ما هو الضلال في حق هذا السائق؟ أن يغمض عينيه، أتظن أنه إذا أغمض عينيه يبقى مغمضاً عينيه؟ أو أنه لا بد أن يهوي في وادٍ سحيق ما له من قرار!؟ هذه الحقيقة مهمة جداً، ليس

الموضوع أن فلاناً اهتدى، وفلاناً ضل، إنك مزود بشهوات تدفعك نحو إروائها، إذا كنت على هدى أحسنت السير، وإذا كان الإنسان ضالاً وفيه عمى فلا بد من أن يقع في الإساءة، لابد من أن يقع في الظلم، لابد من أن يقع في الهلاك، لابد من أن يكون تدميره في تدبيره، ليس الموضوع أنه ضلال وكفى، ما بعد الضلال، لذلك هذا الذي يضل نفسه عن الله عز وجل، ويختار طريق الدنيا، وطريق الشهوات، ويتنكر طريق الهدى، اختار الضلال، ليس الأمر كذلك، لابد من أن يدفع ثمن ضلاله غالياً، لذلك جاء قوله تعالى :

(وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

حينما يغمض السائق عينيه، وهو في طريق خطرة، وسيارته مندفعة، هل هو أغمض عينيه فقط؟ أم أهلك نفسه؟ أهلك نفسه، مما ينتج عن إغماض عينيه تدهور السيارة، وعندئذ إذا تكسرت أضلاعه، أو يفقد حواسه، أو تنقطع سلسلة ظهره، عندئذ لا يستطيع أحد أن ينجيه من هذا الثمن الباهظ، من هنا جاء قوله تعالى :

(وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

(إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

إذا عرفت الحق نجوت، فإن لم تعرف الحق هلكت، لماذا؟ لأنك لست كهذه الطاولة سكونيًّا، إنك إنسان متحرك، فيك شهوات، فيك ميول، فيك دوافع، فيك حوافز، فيك حاجات، فيك فتن متألقة، فتن من حولك، وشهوات في داخلك، وحاجات، وميول وحوافز، وطموحات، هذه الحركة المستمرة من دون هدى لابد من أن تطغى، لابد من أن تبغي، لابد من أن تأكل ما ليس لك، إذاً لابد من العقاب، من هنا جاء قوله تعالى :

(وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ

انظرْ كيف أقسموا بالله ثم وصفوه بالعجز !!!

الحقيقة هم أقسموا بالله، أقسموا بعظمة الله عز وجل، ثم وصفوه بالعجز عن أن يبعث من يموت، مع أن خلق الإنسان مرة ثانية أهون على الله عز وجل مِن بدأ الخلق .

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ)

(سورة الروم : 27)

فكان بدءُ الخلق مظهراً لأسمائه الحسنى، وسوف يعيد الخلق، ليحقق اسم الحق، لتجزى كل نفس بما كسبت، ليأخذ كل ذي حقٍ حقه .

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى)

البعث حق لا ريب فيه :

بلى لإيجاب النفي، أي سيبعث من يموت :

(بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ لو أيقن الإنسان أنه سيقف يومًا ما بين يدي الحق جل وعلا ليحاسبه على كل كلمة، وعلى كل حركة، وعلى كل سكنة، لاستقام على أمر الله، الحقيقة الكبرى حقيقة الموت التي يغفل عنها الناس .

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي يُوعَدُونَ)

(سورة الزخرف : 83)

هذه الساعة لابد آتية، الإنسان بضعة أيام، كلما انقضى منه يوم انقضى بضع منه، البطولة أن تكون مهيئاً لساعة الحساب، البطولة كل البطولة أن تعدّ لهذه الساعة عدتها .

عن عبد الله بن المسور أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

((يا رسول الله، علمني من غرائب العلم، قال: ما فعلت في رأس العلم فتطلب الغرائب؟ قال: وما رأس العلم؟ قال: هل عرفت الرب؟ قال: نعم، قال: فما صنعت في حقه؟ قال: ما شاء الله، قال: عرفت الموت؟ قال: نعم، قال: ما أعددت له؟ قال: ما شاء الله، قال: انطلق فأحكِم هاهنا، ثم تعال أعلمك من غرائب العلم))

[ورد في الأثر]

ماذا أعددت لما بعد الموت حين تلقى ربَّك ؟

هذا سؤال مهم جداً، ما الذي صنعت في حق الله؟ ماذا أعطيت من أجله؟ ماذا منعت من أجله؟ من واليتَ مِن أجله؟ من عاديت من أجله؟ ماذا فعلت؟ ماذا بذلت؟ ماذا ضحيت؟ ماذا عملت من أجل الله عز وجل، فقال : ما شاء الله، قال : هل عرفت الموت؟ قال نعم، قال : فماذا أعددت له؟ ماذا أعددت لهذه الحفرة حيث يقول الله عز وجل للإنسان وهو في قبره أول ليلة : عبدي رجعوا، وتركوك وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، لماذا كان الصالحون من أجدادنا يشترون قبورهم في حياتهم، هذا هو

المثوى الأخير، هذا هو البيت الأخير، هنا المصير، لا بد من نزول القبر، كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، سبحان من تفرد بالبقاء، اقرأ التاريخ الناس جميعاً قد ماتوا .

كل ابن أنثى و إن طالت سلامته   يومًا على آلة حدباء محمــول

فإذا حملت إلى القبور جنــازة   فاعلم بأنك بعدها محمــــول

***

ما من بيت إلا وملك الموت يقف فيه في اليوم خمس مرات، فإذا رأى أن العبد قد انقضى أجله، وانقطع رزقه ألقى عليه غم الموت، فغشيته سكراته، فمن أهل البيت الضاربة وجهها، والصارخة بويلها، والممزقة ثيابها، يقول ملك الموت: ممَّ الفزع، وفيمَ الجزع؟ ما أذهبت لواحد منكم رزقاً، ولا قربت له أجلاً، وإن لي فيكم لعودة، ثم عودة، حتى لا أبقي منكم أحداً، فو الذي نفسه محمد بيده لو يرون مكانه، ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم، ولبكوا على أنفسهم، إلى أن تخرج الجنازة فترفرف عليها نفس الميت، تقول : يا أهلي ويا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرم، فأنفقته في حله، وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة علي، إن أكيسكم أكثركم للموت ذكراً، وأحزمكم أشدكم استعداداً له، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزود لسكنى القبور، والتأهب إلى يوم النشور .

يحشر الأغنياء أربع فرق يوم القيامة، فريق جمع المال من حرام، وأنفقه في حرام، يقال : خذوه إلى النار، حسابه سريع، وفريق جمع المال من حرام، وأنفقه في حلال، فيقال : خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حلال، وأنفقه في حرام، فيقال : خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حلال، وأنفقه في حلال، فيقال: قفوه فاسألوه، هل قصر في فرض صلاة؟ هل تاه على من حوله؟ هل قال أهله : قصَّر في حقنا، يا رب، أغنيته بين أظهرنا فقصر في حقنا، فقال عليه الصلاة والسلام : وما زال يسأل ويسأل .

أيها الإخوة الأكارم .

ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتقي الله البطل

***

البطولة أن يأتي ملك الموت، وأنت مستعد لهذا اللقاء، وفي الحديث عن النبي :

((أتاني جبريل فقال : يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس))

[أخرجه الحاكم في المستدرك، والطبراني في الأوسط عن سهل بن سعد]

(وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ(37)وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا)

يعني الجنة، نرجو الله أن نكون من أهلها .

حوار بين المؤمنين والمكذّبين بالبعث :

في الجنة يجري حوار طريف ممتع فيه سرور بين المؤمنين، يقول أحد المؤمنين : إنه كان لي قرين، كان لي قرين، أيْ صديق جار، أعلى، أدنى، قريب، بالدنيا .

(قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قرِينٌ(51)يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ(52)أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ)

(سورة الصافات : 51 - 53)

هل أنت مصدق هذا الكلام؟ أم تقول : هذا خرافة، هذا غيبيات، هذا طرح غيبي، أنت متعلم مثقف، أتؤمن بهذا الكلام؟

(يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ(52)أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ)

(سورة الصافات : 52 - 53)

ثم يخطر ببال هذا المؤمن أن يطلع على صديقه .

(فاطَّلَعَ فرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ(55)قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِي(56)وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(57)أَفمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ(58)إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)

(سورة الصافات : 54 - 59)

كان يدّعي هذا الذي في جهنم أنه لا شيء بعد الموت، ليس هناك إلا الموت، ولا شيء بعد الموت .

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(60)لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

(سورة الصافات : 60 - 61)

هذا هو الفوز، يقول سيدنا علي رَضِي اللَّه عَنْه: << الغنى والفقر بعد العرض على الله >>، لا يسمى الغني في الدنيا غنياً، هذا المال مؤتمن عليه، هذا المال ابتلاء، أما الغنى الحقيقي والفقر الحقيقي فهو غنى العمل الصالح، وفقر العمل الصالح، والغنى والفقر بعد العرض على الله .

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

قاصمة الظهر : وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

لو أنك نظرت إلى أحوال الناس، لا يمكن أن يفعلوا ما يفعلون وهم مؤمنون بأن بعد الحياة حياة، أبداً، هذا الذي يأخذ ما ليس له، هذا الذي يتلذذ بإيذاء الناس، هذا الذي يظلمهم، هذا الذي يظلم أهله، هذا الذي يأخذ مال أخيه، هذا الذي يعتدي على أعراض الناس، لا يمكن أن يفعل ما يفعل وهو يعلم أن بعد الحياة حياة، لكنه يتوقع أن الحياة هي كل شيء، والمال فيها كل شيء، فإذا جاء الموت انتهى كل شيء، والحقيقة أنه بدأ كل شيء .

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر : 24)

(لِيُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ)

كل الناس يدعي أنه على حق، كل فرقة .

(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

(سورة المؤمنون)

كل جماعة، كل حلقة، كل جهة، كل أمة، كل حضارة، كل مجتمع، يظن أنه محور العالم، البوذيون يحسبون أنهم على حق، والهندوس يحسبون أنهم على حق، والسيخ يحسبون أنهم على حق، والمسلمون يحسبون أنهم على حق، وغير المسلمين يحسبون أنهم على حق، ولا بد من أن يأتي يوم يبين الله لخلقه كلهم مَن هم على حق ، ليتحقق اسم الحق .

(لِيُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ)

لِيُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ

تعبٌ من أجل شعارات تذهب أدراج الرياح :

حضارات قامت، ثم بادت، مبنية على الكذب، مبادئ كبرى ظهرت، ثم اضمحلت، أساسها الكذب، مفاجأة صاعقة أن يفاجئ الإنسان أن هذه الفكرة التي أعتنقها في حياته، وآمن بها، وسعى من أجلها، ودفع من أجلها الغالي والرخيص، والنفس والنفيس إنما هي فكرة خاطئة كاذبة، غير صحيحة، لا أساس لها من الصحة، وَاللَّهِ لهي صاعقة، ومفاجأة كبرى أن يعتقد الإنسان شيئاً غير صحيح .

إذاً حينما يعتنق الإنسان فكرة، أو مبدأ، ويسعى طوال حياته لنشر هذا المبدأ، والعمل من أجله، حينما يكتشف يوم القيامة أن هذا المبدأ خاطئ كاذب، بُني على الكذب، فهذه غلطة كبيرة جداً، عندئذ يصعق الإنسان، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ : << إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ >> .

[أخرجه مسلم]

وعن ابن عمر أن النبي قال له :

((يا ابن عمر، دينَك دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذي استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[ذكره الخطيب البغدادي في الكفاية في علم الرواية]

فما ظن الإنسان حينما يأتي يوم القيامة ليرى أن كل الذي آمن به بالدنيا باطل في باطل، لذلك :

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

(سورة الأنعام : 112)

زخرف القول، نظريات منمقة، مرتبة، مبوبة، مطبوعة، مبنية على باطل تكشف يوم القيامة، علة يوم القيامة، علة الدار الآخرة :

(لِيُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ(39)إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

العودة سهلة، لو أن إنسانًا مات في طائرة، وأصبح جثة أشلاء، أي ذرات من الرماد، وطارت في الجو، كن فيكون، تعود هذه الذرات إلى بعضها، ليعاد خلقها يوم القيامة، لو أن الإنسان مات في البحر، أو مات في حريق، الله سبحانه وتعالى كن فيكون، يعيده تارة أخرى، وفي المركبة الفضائية (تشالنجر)بعد أن أقلعت بسبع دقائق أصبحت كتلة من اللهب، وكان على متنها سبعة رواد، أين هم؟ المركبة كلها لم يعد لها أثر، عثروا على بعض أجزاء من هيكلها في البحر .

(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

التصديق باليوم الآخر من أركان الإيمان :

انتهى الأمر، لذلك الإيمان باليوم الآخر، وهو من أركان الإيمان، لأنك إذا لم تؤمن باليوم الآخر تكون قد ضللت ضلالا بعيداً، هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح، لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبب، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي .

إذا عرفت حقيقة الحياة الدنيا عرفت طريق السعادة، فإذا لم تعرف حقيقة الحياة الدنيا فالأمر خطير، لا بد من الضلال، ومع الضلال الهلاك .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (11-21): تفسير الآيات 41 – 47 ، عن الموعظة الحسنة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-03-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَر

الإخلاص في العمل شرط لقبوله :

ربنا سبحانه وتعالى يصف الذين هاجروا في الله، كلمة (في الله) تدل على الإخلاص في الهجرة، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول كما في حديث عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيِ اللَّه عَنْه عَلَى الْمِنْبَرِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ))

[أخرجه البخاري وأبو داود وابن ماجة]

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ))

يعني أن قيمة العمل متعلقة بنيته، فقد يكون للرجل عمل كبير، ونيته من هذا العمل كسب سمعة، أو ارتقاء منزلة، أو شيء من هذا القبيل، هذا العمل الإنساني الكبير إذا كان بهذه النية فلا قيمة له أبداً عند الله، قال تعالى :

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)

(سورة الفرقان : 23)

عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين بعثه إلى اليمن :

((أَخْلِصْ دِينَكَ يَكْفِكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ))

[أبو نعيم في الحلية]

لا يستحق أحد على وجه الأرض أن تخلص له إلا الله عز وجل، ليس في الأرض كلها جهة تستحق أن تبيع نفسك لها، أو أن تُجَيّر قدراتك لها، أما الله سبحانه وتعالى فهو أهل التقوى، وأهل المغفرة، فلذلك من أخلص بعمله سعد في الدنيا والآخرة، ومن أراد بعمله الطيب دنيا يصيبها، أو مكانة يحتلها، أو منزلة يرقى إليها، أو سمعة يصيبها، فقد خسر خسران مبيناً، فالعمل الطيب بنية طيبة كالماس، والعمل الطيب بنيّة غير طيبة كالبلور، فقَدَ قيمته، كقطعة ماسٍ ثمنها مئات الألوف، فإذا كانت من البلور فثمنها عشرات الليرات .

لذلك يقول الله عز وجل :

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ)

الهجرة بمعناها الواسع :

الهجرة بمعناها الواسع كما قال عليه الصلاة والسلام :

((... وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ))

[متفق عليه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو]

إذا تركت المنكر فأنت مهاجر، إذا قلت: إني أخاف الله رب العالمين فأنت مهاجر، وبمعناها الضيق التاريخي الهجرة هي الانتقال من مكة إلى المدينة، بمعناها الضيق المستمر هجر بلدٍ أُجبرت فيه على معصية الله إلى بلد آخر تستطيع أن تقيم فيه شعائر الله، إذا كان باب الهجرة قد أغلق من مكة إلى المدينة، فباب الهجرة مفتوح بين كل بلدين يشبهان مكة والمدينة، فالهجرة بمعناها اللغوي ترك مكان إلى مكان، بمعناها الديني الواسع هجر ما نهى الله عنه، بمعناها التاريخي الانتقال من مكة إلى المدينة، بمعناها المستمر الضيق أن تهجر بلداً أجبرت فيه على معصية الله لتقطن في بلد تستطيع أن تقيم فيه شعائر الله .

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا)

الحكمة من تقدير الأذى على المؤمنين :

الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يحمي عباده المؤمنين من دون أن يُظلموا، لكن صبرهم ومحبتهم وإصرارهم، هذه الصفات الراقية لا تظهر، لذلك يسمح لأعدائهم أن ينالوا منهم أحياناً، من أجل أن يثبتوا، أن يصبروا، أن يتوكلوا، أن يتابعوا طريقهم إلى الله عز وجل، كان من الممكن ألا يكون

لأنبيائه عدو، ولا لأوليائه عدو، ولكن هذه المضايقات، وهذا التضييق، إنما من أجل أن يكتشف معدن الإنسان، لذلك يوم الخندق .

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

(سورة الأحزاب : 23)

فالمؤمن ثابت على إيمانه، وعلى حسن ظنه بالله، وعلى استقامته وعلى عمل الطيب في كل الأحوال .

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((عَجِبْتُ لأمْرِ الْمُؤْمِنِ، إنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، لَيْسَ ذَلِكَ لأحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، وَكَانَ خَيْرًا، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، وَكَانَ خَيْرًا))

[أخرجه مسلم وأحمد في مسنده]

الآية الكريمة :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ(155)الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(156)أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ)

(سورة البقرة : 155 - 157)

الإنسان عندما يتحمل الشدة في سبيل الله، لأنه قال: لا إله إلا الله، أو لأنه دعا إلى الله، أو لأنه آثر رضاء الله عز وجل، فهذه شدة لا تعدّ مصيبة، إنما تعدّ وسيلة لمضاعفة أجره .

لذلك كان من الممكن أن يعيش المؤمن في بحبوحة ويسر، ولكن أنى لهذه الصفات الراقية أن تظهر، أنى لهذا الصبر أن يظهر، أنى لهذا التوكل أن يظهر، أنى لهذه المحبة أن تظهر، أنى لهذا الرضا بقضاء الله أن يظهر، يقول الإمام علي رضي الله عنه : " الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين ".

المصائب محكّ الرجال :

إذاً: من الخير العميم أن يبتلى الإنسان فيصبر . عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قُلْتُ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً ؟ قَالَ : الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ))

[أخرجه الترمذي]

سيارة لها محرك جبار بثمانين حصانًا، مثلاً، وهذا المحرك لا تظهر قوته إلا إذا كان الصعود حاداً، هل تبدو قوة هذا المحرك في منحدر، أو في سهل، لا، أيّ محرك آخر يمشي في السهل، وينطلق في

أقصى سرعته في المنحدر، ولكن الصعود الحاد به تمتحن قوة المحركات .

فلذلك المصائب محكّ الرجال، الإنسان يوطن نفسه، قد يبتلى بشدة في ماله، قد يبتلى في مصيبته في ماله، في أولاده، في نفسه، بخوف بقلق، بحزن، هذا من باب مضاعفة الأجر، لأن هذا الإيمان العالي، وهذه النفس المُحِبّة لا تبدو إلا في الظروف الصعبة .

كيف تمتحن صديقاً عزيزاً عليك؟ إذا كنت تكرمه دائماً، فكلما عاملك وأكرمته يحبك، ولكن الصديق الوفي :

إن الصديق الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيك شمله ليجمعك

***

أردت من هذا الكلام أن أوضح هذه الفكرة :

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا)

كيف سمح الله لأعدائهم أن يظلمونهم؟ سمح لأعدائهم أن يظلمونهم ليظهر حقيقتهم، إنهم يحبون الله في الرخاء والشدة، في الغنى والفقر، في إقبال الدنيا وإدبارها، أحياناً لسبب من طاعة الله عز وجل تفقد عملك، أجبرت على معصية فقلت : لا، تفقد عملك، وتظل تبحث عن عمل أشهراً طويلة، أليس بالإمكان أن تجد عملا بعد يوم واحد، ممكن، لكن الله سبحانه وتعالى يؤخر الفرج ليظهر معدنك الثمين، إنك صادق، إنك راضٍ، إنك احتسبت هذا لوجه الله عز وجل، وقد تأتي مصيبة، وطّنوا أنفسكم على تحمل الشدائد، النبي عليه الصلاة والسلام يذكر أنه ما أصاب عبد مصيبة إلا بإحدى خلتين، بذنب لم يكن الله ليغفر له إلا بتلك المصيبة، أو بدرجة لم يكن الله ليبلغه إياها إلا بتلك المصيبة .

يا أخي الكريم، إذا أصابتك مصيبة وأنت مستقيم على أمر الله فلها تفسير واحد، إنها مصيبة ترقية، لا بد من أن ترقى من درجة إلى درجة، عن طريق هذه المصيبة، صبرك عليها، يرفعك عند الله، استسلامك لأمر الله يرفعك عند الله، تفويضك لله يرفعك عند الله ، توكلك على الله يرفعك عند الله، رضاك بقضاء الله يرفعك عند الله فمصيبة العصاة مصيبة ردع، ومصيبة المؤمنين مصيبة رفع، وشتان بين الردع والرفع، الله سبحانه وتعالى يسوق الشدائد للعصاة ليردعهم عن معصيتهم، ولكنه إذا ساق الشدائد للمؤمنين فيجزيهم أجرهم بأحسن ما صبروا .

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة الزمر : 10)

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً)

أجر المهاجر في الله :

إذا تركت بلدك، بالمعنى الضيق، إذا تركت بلدك حيث مكانتك، حيث مالك، حيث بيتك الذي شيدته، واعتنيت به، وأسسته، حيث أهلك، حيث متجرك، حيث أملاكك غير المنقولة، إذا تركت هذا البلد، وقد أجبرت فيه على معصية، وانتقلت إلى بلد آخر منطلقاً من الصفر، الله سبحانه وتعالى يعدك أن يمنحك حياةً طيبة،

(لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً)

نعوذ بالله من الهجرة فيلا سبيل الشيطان :

ولكن الهجرة المعاكسة نعوذ بالله منها، تكون في بلد يذكر فيه اسم الله، تقام فيه مجالس العلم، لك مجلس علم تتزود به .

(وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِي يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)

(سورة البقرة : 197)

لكن لإغراءٍ مادي طفيف تنتقل إلى بلد آخر، فيه المعصية على قارعة الطريق، لا ترى من يذكر اسم الله عز وجل، المادة كل شيء، الشهوات مستعرة، الفتن يقظة، الانحرافات ميسرة، هذا البلد من أقام فيه فقد برئت منه ذمة الله، من ترك بلد تقام فيه شعائر الله، ويذكر فيه اسم الله كثيراً، تقام فيه مجالس العلم، له دخل معقول، يسكن مع أهله، إذا أنتقل إلى بلد يُكفر فيه جهاراً، تُرتكب فيه المعاصي جهاراً، انتقل إليه انتقل إليه ابتغاء نفعٍ من الدنيا، ابتغاء حطام الدنيا، فهذه هجرة في سبيل الشيطان :

((أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلِمَ ؟ قَالَ : لَا تَرَايَا نَارَاهُمَا))

وفي رواية سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا تُسَاكِنُوا الْمُشْرِكِينَ، وَلَا تُجَامِعُوهُمْ، فَمَنْ سَاكَنَهُمْ أَوْ جَامَعَهُمْ فَهُوَ مِثْلُهُمْ))

[الترمذي وأبو داود والنسائي عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً)

لا بد أن يعيشوا حياة طيبة في هذا البلد الذي هاجروا إليه، لا بد من أن يوفَّقوا في أعمالهم، لا بد من أن يوفَّقوا في معارفهم،

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

لا تعدل الدنيا عند الله جناح بعوضة :

لكن الدنيا كلها لا تعدل عند الله جناح بعوضة، الدنيا كلها أصغر من أن تكون ثواباً لمسلم، لو أنك عملت أعمالاً كالجبال، وأراد الله أن يثيبك عليها في الدنيا ماذا يعطيك ؟ لقيمات تقمن صلبك، بيتًا يؤويك، ثوبًا يسترك، هذه كل الدنيا، عَنْ مُطَرِّفٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ :

((أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْرَأ:]أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ [قَالَ: يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ؟ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ؟ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟))

[مسلم]

الدنيا كلها أصغر من أن تكون ثواباً للمؤمن، لكن ربنا عز وجل يقول :

(وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الأحاديث يحدثنا عن الجنة، وفي هذا الحديث القدسي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ :]فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ [ ))

[أخرجه البخاري]

ثلاث دوائر: الدائرة الأولى دائرة المرئيات، أنت لك دائرة مرئيات، قد تعرف بلدك دمشق، وبعض المدن الأخرى، دائرة المرئيات محدودة، سافرت إلى حلب، سافرت إلى بيروت، سافرت إلى عمان، سافرت إلى بلد أجنبي، هذه المرئيات محدودة، لكن الحديث القدسي يقول :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ))

الدائرة الأوسع :

((ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ))

دائرة المسموعات أوسع بكثير من دائرة المرئيات، تسمع أنت ببلد اسمه كندا، وببلد اسمه أمريكا، أستراليا، واليابان، وبالمريخ تسمع بعطارد، تسمع بالمجرة الفلانية، هذه كلها مسموعات، ودائرة المسموعات أوسع من دائرة المرئيات بألوف ملايين المرات ، ودائرة المسموعات إذا قيست بدائرة الخواطر ليست بشيء، فأي شيء مهما يبدو لك غريباً قد يخطر على بالك، فانتبهوا لهذا الحديث :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

فلذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ))

[مسلم]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[أخرجه الترمذي في سننه]

الدنيا سجن ضيق جداً، لو أنه أكل أكلاً زائداً عن حاجته لاضطر إلى تخفيف وزنه، وأصيب بأمراض وبيلة، لو أنه استمتع بشيء استماعاً مبالغاً فيه لدفع الثمن بالغاً، هذه الدنيا مصممة لتكون مزرعة الآخرة، هذه الدنيا مصممة لتكون إعداداً لحياة أبدية .

فلذلك :

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

لا نستطيع أن نأتي بوصف للآخرة كوصف مَن قال : " ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر " .

المخيط إبرة، اغمسها في البحر المتوسط، واسحبها، بماذا رجعت؟ ما الماء الذي حمله المخيط؟ أقلّ من قطرة، أقلّ من نصف قطرة، أقلّ من عشر قطرة، قس، انسبْ هذا الذي حمله المخيط إلى مياه البحر كله، هذه الدنيا، وتلك الآخرة، فربنا عز وجل أحياناً يشفق علينا فيقول :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة : 38)

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا)

(سورة النساء : 77)

هكذا ينبئك الجليل أن متاع الدنيا قليل، ألا تصدقه ؟ سنوات ويأتي ملك الموت، من أجل أن تبدأ الحياة كما تشتهي في الأربعين، والأربعون سن النذير، بعد الأربعين يوجد متاعب صحية، يوجد شعور بالضعف، يوجد انحناء بالظهر، شيب بالشعر، ضعف في البصر، ضعف بالذاكرة، طبعاً هذا لمن وصل إلى ما يبتغي، فكيف بمن لم يصل ؟

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : 77)

(الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

لزوم صفتي الصبر والتوكل في المؤمن :

قال المفسرون: " إن هاتين الصفتين؛ الصبر والتوكل هما ألزم صفتين بالمؤمن " .

(الَّذِينَ صَبَرُوا)

الصبر للمؤمن معالجة ربانية :

لماذا هم يصبرون؟ لأن الله عز وجل يتولى معالجتهم، ونقلهم من مرتبة إلى مرتبة، لا تظن أن حياة المؤمن رخيصة على الله عز وجل، حياة المؤمن غالية على الله، لذلك: وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أريد أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده، أو إقتارًا في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدت أمه .

وازن بين طفل في الحضانة وعالم جليل، عالم كبير، هذا العالم كم من ليل سهر؟ كم من عمل قام به؟ كم مرة جاهد نفسه وهواه؟ كم من مجلس علم جلس فيه على ركبته ساعات طويلة حتى أصبح بهذا العلم؟ أهكذا تكون الدنيا؟ لابد من أن ينقلنا الله عز وجل من مرتبة إلى مرتبة، من حالة إلى حالة، لا بد من معالجة، هذا الذي يبدأ طريق الإيمان يحتاج إلى معالجات طويلة، عنده شيء من الكبر، هذا يحتاج إلى معالجة، عنده شيء من التفريط، والإسراف، عنده اعتزاز قارب الشرك، اعتزاز بنفسه، هذا كله يحتاج إلى معالجة، لذلك المؤمن يقلبه الله عز وجل، فالذين صبروا على معالجة الله لهم نجحوا، وما مِن مصيبة بلا هدف، هذه مستحيلة .

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى : 30)

فالمصيبة للمؤمن معالجة، تنقية، وترقية، ودفع، وكشف، ورفع للمؤمن، أما لغير المؤمن فالمصيبة قصم وردع، فهذه المصيبة تقتضي الصبر، إذا أهمل الإنسان أسنانه، فنخر بعضها، فذهب إلى الطبيب، وأراد أن يعالج هذا السن، ألا يحتاج الطبيب إلى مخدر، أو إلى حفر هذا السن، قد تصل آلته إلى العصب، فيصيح المريض من شدة الألم، لكن العملية كلها في مصلحته، لماذا يصبر المريض؟ لأنه موقن أن ما يجري في أسنانه لمصلحته، وأن هذا الذي يفعل ما يفعل في أسنانه إنما هو طبيب عالم،

خبير، إنه يؤلمه، ومع هذا يعطيه الأجر، ويشكره على عمله، كما تصبر عند طبيب الأسنان فيجب أن تصبر على الواحد الديان، لأنه يعالجك بعلم وخبرة ورحمه .

(الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

المخاوف كثيرة فلذلك لزم الصبر :

لأن المخاوف في المستقبل أكثر من أن تحصى، وأكبر من أن يحتملها إنسان، ففي مجتمع الكفر هناك مخاوف لا تعد ولا تحصى، كل جهة مصدر قلق ، كل حركة، كل سكنة، كل كلمة يقرؤها الإنسان يتسرب الخوف إلى قلبه، لكنك إذا عرفت الله عز وجل، وآمنت بالله بث الله الطمأنينة في قلبك، وشعرت بسكينة لا يعرفها إلا من ذاقها، تكفي أن تقرأ قوله تعالى :

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ)

(سورة الطور : 48)

لتشعر أن الدنيا كلها لا تعدل هذه الحالة .

يكفي أن تقرأ قوله تعالى :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت : 69)

يكفي أن تقرأ قوله تعالى :

(هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه : 123)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة : 38)

يكفي أن تقرأ قوله تعالى :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية : 21)

نعمة الصبر لا يعرفها إلا من ذاقها :

نعمة الصبر والتوكل الحقيقي لا يعرفها إلا من ذاقها .

الحقيقة دائماً أقول لكم: قل مئة مليون، قل : مئة ألف مليون، بين أن تقولها بلسانك، وبين أن تملكها بيدك، ما أبعد الحالتين، كل واحد منا بإمكانه أن يقول : مئة ألف مليون، ولكن امتلاك هذا المبلغ شيء،

وأن تلفظ هذا الرقم شيء آخر، فأن تقول : توكلت عليك يا رب، وأنت غير متوكل، وأنت تخاف من زيد أو عبيد، ترجو فلاناً أو علاناً، هذا كلام تقوله، ولكنك إذا كنت متوكلاً يقع الشيء الذي لا يصدق .

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

(سورة الشعراء : 61)

بالمنطق فرعون من ورائهم، بجيشه، ورجاله، وعتاده، والبحر من أمامهم، وهم قلة مستضعفة تهيم على وجهها .

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء)

سيدنا إبراهيم ألقي في النار، قال تعالى :

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء : 69)

سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام دخل إلى غار ثور، عَنْ أَنَسٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهم قَالَ :

((قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا فِي الْغَارِ : لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ : مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا))

[أخرجه البخاري]

ثم وقعت عين أحد المطاردين على عين أبي بكر، العين على العين، هو صدِّيق، لكنه دون مرتبة النبوة، فقال : يا رسول الله، لقد رأونا، قال له : يا أبا بكر، ألم تقرأ قوله تعالى :

(وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

(سورة الأعراف : 198)

كن مع الله تر الله معك   واترك الكل وحاذر طمعك
ثم ضع نفسك بالذل له   قبل أن النفس قهراً تضعك
وإذا أعطاك من يمنعه   ثم من يعطي إذا ما منعك ؟

***

كنت لا شيء فأصبحت به خير شيءٍ، فلا يعرف لذة التوكل إلا من ذاق طعم التوكل .

وإذا العناية لاحظتك جفونها   نم فالمخاوف كلهن أمان

***

الحياة العصرية مليئة بالمقلقات، في كل المجتمعات تقريباً، كراكب مركبته، هناك أخطار كثيرة، أن ينام السائق فيدخل فيه سائق آخر، أخطار لا تعد ولا تحصى، إذا ركب مركبته، إذا دخل إلى دكانه أخطار، إذا استعمل جهازاً كهربائياً .

فمصادر القلق لا تعد ولا تحصى، فإذا كان الأجداد بحاجة إلى التوكل قيراطًا، فنحن بحاجة إلى التوكل آلاف المرات .

(الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

ثم قال عزوجل :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

سبب نزول الآية :

جاء في أسباب نزول هذه الآية أن بعض المشركين قالوا: إن الله أجل وأعلى أن يبعث رسولاً بشراً، خالق السماوات والأرض يبعث رسولاً من البشر! فقال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا)

الرسول بشر :

أيْ أنت رسول من البشر، والذين أرسلوا من قبْلك رسل من بني البشر، لأنه لولا أن يكون الرسول من بني البشر لم تقم الحجة على العباد، أول كلمة تقولها : هذا ملك، وأنا بشر، أول كلمة يقولها من تدعوه إلى الله، إذا دعا الملك البشر إلى الله قالوا: أنت ملك، لا تشتهي، نحن بشر نشتهي، لذلك يجب أن يكون الرسول من بني البشر، لأنه يشتهي ما يشتهون، ويرضيه ما يرضي الناس، ويغضبه ما يغضبهم، ويحب ما يحبون، ويكره ما يكرهون، بشر، يجوع، يعطش، يتعب، يضنى .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ)

لا تكون المرأة نبيا ولا رسولا :

واستنبط العلماء من هذه الآية أنه لا يمكن أن تكون المرأة نبيَّة .

(يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ)

(سورة آل عمران : 43)

بلغت المرأة مرتبة الصديقيّة، قال تعالى :

(مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ)

(سورة المائدة : 75)

هذا عن سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، فالمرأة بلغت أعلى مستوى لها، بلغت مرتبة الصديقة، أما النبوة فهي في الرجال فقط، طبعاً لا لأن الرجال من نوع آخر، ولكن طبيعة المرأة لا تناسبها لتكون نبية، أحياناً يتلقى الإنسان درساً من مدرِّسة، قد ينصرف ذهنه لا إلى كلامها، إلى شيء آخر، هذه مفسدة .

لذلك :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

وجوب سؤال أهل الذكر عند عدم العلم :

هذه الآية أمر إلهي، والأمر الإلهي يقتضي الوجوب، بمعنى أن كل إنسان مكلف أن يسأل أهل الذكر إن كان لا يعلم، لأن أهل الذكر هم أهل العلم .

العصمة للأنبياء :

بالمناسبة أجمع العلماء على أن العصمة للأنبياء فقط، وأما أهل الذكر فليسوا معصومين، ومن الممكن لإنسان أن يكون من أهل الذكر، وقد يغلط، فالعصمة للأنبياء، ومع ذلك فأنت أمرت أن تسأل أهل الذكر، هناك غلط في الجزئيات أحياناً، قد يحصل سهو، يحصل نسيان، يحصل خطأ، أما الأنبياء فهم معصومون عصمة كاملة، لكن أهل الذكر ليسوا معصومين، ولا يمنع عدم عصمتهم من أن نسألهم، ونقتدي بهم، وأن نتعلم منهم، أما أن يدعي إنسان بعد النبي عليه الصلاة والسلام أنه لا يخطئ فهذا ادعاء مرفوض، لأن أهل الذكر ليسوا معصومين، والله سبحانه وتعالى أمرنا أن نسألهم :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ)

الذين يذكرون ما تجهلون، هذه العلاقة هل هي علاقة ربوية، أم هي علاقة مشروعة ؟ اسألوا أهل الذكر، هذه الطريقة في البيع صحيحة أم فاسدة ؟ اسأل أهل الذكر، هذا عقد الزواج صحيح أم باطل؟ صحيح أم فاسد؟ اسأل أهل الذكر، هذه الزكاة لمن أدفعها؟ اسأل أهل الذكر، هذه الآية ما معناها؟ اسأل أهل الذكر، هذه الزوجة كيف أعاملها؟ اسأل أهل الذكر، هذه الديون كيف أحصلها؟ أأحسم السندات؟ اسأل أهل الذكر :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

السؤال استعارة لعقل المسؤول :

إن كنت لا تعلم فغيرك يعلم، لذلك أنا أعجب ممن لا يسأل ، وإذا سألت إنساناً فقد استعرت كل عقله، وذكائه، وخبرته في الحياة، وعلمه، وفضله، بهذا السؤال بلا مقابل، اسأل يا أخي، كم من إنسان وقع في ورطة كبيرة، سلك طريقاً شائكاً، وقع في انحراف مهلك، ضاع منه ماله كله، لأنه لم يسأل، اسأل كيف أقرضه هذا المبلغ؟ كيف أكتب هذا العقد؟ كيف أحدد هذه الشركة؟ كيف أحل هذه الشركة؟ كيف أعامل شريكي؟ اسأل يا أخي، في العلاقات المالية، في عملك، في حرفتك، في بيتك، مع أولادك، مع زوجتك، مع جيرانك، مع من هم أعلى منك، مع من هم أدنى منك، أحياناً الإنسان يترك شيئاً هو حلال يتوهم أنه حرام، فيتركه، يبقى بلا دخل، يصبر شهرًا، ثم ينتكس، اسأل أهل الذكر قبل ترك هذا العمل، اسأل أهل الذكر، هل يجوز أن أتركه بلا عمل آخر، هل أتركه فوراً أم على التراخي؟ اسأل أهل الذكر، سؤال أهل الذكر يعني أنك استعرت منهم علمهم، وخبرتهم ، والنور الذي أودعه الله فيهم، فلذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((ما خاب من استشار، ولا ندم من استخار))

[ذكره العجلوني في كشف الخفاء]

الاستشارة لأهل الخبرة من المؤمنين، والاستخارة لله عز وجل، ففي كل أمر يباح استخر الله أولاً، واستشر من تثق بدينه ثانياً .

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

هذه خاصة بالعلماء، حدثك عالم سنوات طويلة بكلام استفد منه، مرة مثلاً ألقى على سمعك حديثاً راجَعْته، فإذا هو ضعيف، هو من أهل الذكر، لأنه ليس معصوماً، هو بشر، من أهل الذكر، لو كان نبيًّا حاسبه حساباً شديداً، هو ليس معصوماً، فلا تعط الإنسان حجماً فوق حجمه، إنسان يبذل وسعه ليقدم لك ما يستطيع، أما أن تحاسبه على كل حركة وسكنة فأنت لا تعلم هذه الآية .

إذاً :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

يمكن لمدرِّس رياضيات شهير أن يضع محل إشارة الزائد إشارة الناقص سهواً، أتضرب عن حضور دروسه؟ لا، أنبهه إلى هذه الغلطة، وقد تكون سهواً، وأتابع الحضور عنده لأستفيد منه .

فالإنسان لا يرفع الناس إلى حجم فوق حجمهم، هذا هو الشرك، كل إنسان له حجم،

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ)

نصف العلم (لا أدري) والغلط وارد :

قال بعضهم : نصف العلم لا أدري، إذا قلت : لا أدري فأنت نصف عالم، عرض عليك سؤال قل : لا أدري، سأراجعه، هل من المفروض أن تعلم كل شيء، من ادعى أنه يعلم كل شيء فلا يعلم شيئاً، فهناك أناس متبحرون في المواريث، وهناك أناس متبحرون في الفقه، وهناك أناس متبحرون في التوحيد، هناك أناس متبحرون في التفسير، هناك أناس متبحرون في علم الحديث، هناك أناس متبحرون في العلم بالله، وهذا أعلى مستوى، طبعاً العالم ملِمٌّ بكل فروع العلم إلماماً إلى حد ما، أما أن يحاسب على كل كلمة فهو ليس معصوماً، فإذا الإنسان وضع الناس في حجمهم الحقيقي سهل التعامل معهم، أما إذا رفعهم إلى حجمٍ يفوق حجمهم عندئذ يقع في أزمات حادة في أثناء التعامل معهم، قال :

((اللهم إني بشر أنسى كما ينسى البشر))

[ورد في الأثر]

يمكن أن تصلي الظهر ثلاث ركعات سهواً، لماذا شرع سجود السهو ؟ لأن البشر قد يسهون :

((اللهم إني بشر أنسى كما ينسى البشر))

أحياناً يحتكم عندك اثنان، أحدهما ألحن بالحجة من الآخر، فتقضي لصاحب الحجة، وقد يكون ظالماً، أنت بشر، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ :

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْسِمُ فَيَعْدِلُ، وَيَقُولُ : اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ، وَلَا أَمْلِكُ))

قَالَ أَبُو دَاوُد : يَعْنِي الْقَلْبَ .

[أبو داود، الترمذي، النسائي، ابن ماجه]

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ))

[متفق عليه]

هذا شأن البشر، ينسى، يغلط، يتسرع أحياناً، لكن لا يمنع هذا من أن تأخذ من علمه وأن تستفيد منه، لأن الإنسان خُلق ضعيفاً، طبيعة الإنسان ضعيف، أحياناً ينسيه الله حتى يحجمه، قد ينسيه الله عز وجل حديثاً هو في أمسّ الحاجة إليه، لأنه دخل ليلقي على الناس درساً، ولم يفتقر إلى الله افتقاراً كافياً، لم يقل قبل أن يدخل: اللهم إن أعوذ بك من حولي وقوتي، وألتجئ إلى حولك وقوتك، يا ذا القوة المتين، على قدر افتقارك يكون المدد، فكلما افتقرت إلى الله أكثر كلما كان التجلي والمدد أكثر .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(43)بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

الأنبياء جاؤوا بالبينات والمعجزات :

جاؤوا أقوامهم بالبينات، البينات هنا المعجزات الظاهرات، يعني أن تنقلب العصا إلى أفعى، هذا شيء يفوق طاقة البشر، هذا الكتاب من البينات، طبعاً فرَّق العلماء بين البينات وبين الزبر، الزبر الكتب السماوية، بينما البينات المعجزات الظاهرة، فالنبي غالباً أو الرسول مزوَّد بمعجزة يؤكد بها أنه مرسل من عند الله، ومزود بكتاب يوضح للناس طريق الخير من الشر،

(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

الذكر هو القرآن ، وفيه بيانُ كلِّ شيء :

هذا الذكر هو القرآن، فيه ذكر كل شيء، فيه ذكر الأقوام السابقة، فيه ذكر ما سيكون في قيام الساعة، فيه ذكر الحلال والحرام، فيه ذكر الحق والباطل، فيه ذكر الخير والشر، فيه مشاهد من يوم القيامة، فيه كل ما نحتاج، هو كتاب هداية ورشد، كل شيء يحتاج الإنسان في الدنيا ليهتدي إلى الله عز وجل يجده في هذا الكتاب، لذلك :

(بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

العلاقة بين الزوجين مذكورة في القرآن الكريم، العلاقة بين الإخوة مذكورة في القرآن الكريم، العلاقة بين القوي والضعيف مذكورة في القرآن الكريم، العلاقة بين الشريكين مذكورة في القرآن الكريم، أصول البيع مذكورة، الزواج والطلاق، وكل شيء نحتاجه مذكور في القرآن الكريم، لذلك :

(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

إذاً التدبر في هذا الكتاب أمر إلهي، فالله سبحانه وتعالى ينتظر منا أن نقرأه بتمعّن، وتدبر، وتفهم، وتعقل، لا أن نقرأه قراءة جوفاء لا معنى لها، والدليل هذه الآية :

(وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

فيما نزل إليهم، تفكر في هذه الآيات .

أحاديث النبي الصحيحة تبيان لما في القرآن :

شيء آخر، استنبط العلماء من هذه الآية أن النبي عليه الصلاة والسلام في كل ما قاله من أحاديث شريفة تنطوي تحت هذه الآية، النبي عليه الصلاة والسلام بين للناس ما نزل إليهم :

((إياكم وخضراء الدمن، قالوا: وما خضراء الدمن ؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء))

[القضاعي في مسند الشهاب عن أبي سعيد الخدري]

الله عز وجل قال :

(وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ)

(سورة البقرة : 221)

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال :

((تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ : لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

فمن تزوج المرأة لجمالها أذله الله، ومن تزوجها لحسبها زاده الله دناءة، ومن تزوجها لمالها أفقره الله، فعليك بذات الدين تربت يداك، هذا الحديث يبين هذه الآية .

و:

((إياكم وخضراء الدمن، قالوا : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء))

هذا الحديث يبين هذه الآية، فكل أحاديث رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشكل أو بآخر هي تبيان واسع جداً، وتفصيلٌ كبير لِما في القرآن الكريم :

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمْ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ(45)أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ(46)أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمْ الْأَرْضَ

احذرْ نقمةَ الله يا مَن يمكر السيئات :

هذه الآية تقصم الظهر، ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ)

والعياذ بالله هذا الذي يمكر السيئات، هذا الذي يبني مجده على أنقاض الناس، هذا الذي يؤذي الناس،

هذا الذي يتلذذ بمصائب الناس، هذا الذي يبث الخوف في قلوب الناس، بلا شيء، هذا الذي يمكر السيئات، كيف يأمن مكر الله عز وجل؟

(أفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمْ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

للعذاب مصادر خفية على الإنسان :

للعذاب مصادر خفية على الإنسان، قد يذهب إلى نزهة، فيفاجأ بحادث قضى عليه، أو جعله مشلولاً، أو جعله مصاباً إصابة بالغة، أو جعله ذا عاهة دائمة، فهذا الذي يمكر بالناس السوء لو يعلم أن الله سبحانه وتعالى سيحاسبه حساباً عسيراً ماذا كان يفعل ؟ من يعتدي على حيوان أحياناً يدفع الثمن غالياً .

سمعت عن رجل دهس كلب تسلية لعباً، بعد أسبوع قطعت يداه بحادث، بعد أسبوع واحد

(أفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمْ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

هذه المدن الضخمة التي كانت تمكر السيئات، كيف أصابها الزلزال فأصبحت قاعاً صفصفا، أصبحت أثراً بعد عين،

(أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

هناك أخبار تأتي كالصاعقة، فجأة يقال له: إن كل ما تملكه قد احترق، هناك أخبار قد لا يحتملها الإنسان، أطباء القلب عندهم حالات من هذا القبيل، أكثر الأزمات القلبية أسبابها نكبات لا يستطيع الإنسان تحملها، يصاب بنوبة قلبية، يؤخذ إلى المستشفى .

لذلك ربنا عز وجل قال: هذا الذي يمكر السيئات ألا يخاف أن يخسف الله به الأرض ؟

(أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ(45)أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ)

أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ

المعنى الأول : مجيء العذاب والناس في مشاغلهم منهمكون :

هم في حياتهم اليومية، في محلاتهم التجارية يبيعون ويشترون، في سهراتهم، في ندواتهم، في نزهاتهم، في احتفالاتهم، في مرحهم، في فرحهم، في أوقات راحتهم، في أوقات جدهم، في أوقات عملهم،

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ)

هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني : مجيء العذاب والناس يتقلبون في النعم :

وهم يتقلبون في النعم، قد يأخذهم الله عز وجل أخذ عزيز مقتدر .

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ)

أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ

العلماء في هذه الآية لهم تفسيرات .

المعنى الأول : الخوف من المحذور :

إن الإنسان أحياناً يصاب بالخوف، يخاف من جهة ما، يخاف، هذا الخوف يتصاعد، ويتصاعد إلى أن يقع المحذور، هذا شيء يقع، يقول لك: أخاف أن يسألوني، وأخيراً سألوه، ووقع المحذور .

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ)

المصيبة إما أن تقع عن غير توقع، كما قال تعالى :

(أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

أو تقع بعد التوقع :

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ)

المعنى الثاني : النقص في المواد :

التخوف النقص، نقص في المواد، نقص في الخيرات، نقص في المحاصيل، نقص في المواد الأولية، شبح مجاعة، ثم يؤخذون، فالتخوف إما أن يأخذهم بمصيبة يتوقعونها، أو أن يأخذهم أخذاً بطيئاً، إلى أن يتلاشى الإنسان .

على كل هذا الذي يمكر السيئات لا بد من أن يخسف الله به الأرض، أو أن يأتيه العذاب من حيث لا يشعر، أو أن يأخذه وهو في قمة نشاطه، أو عمله، أو أن يأخذه على تخوف،

(فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

علاقة خاتمة الآية بصدرها :

ما علاقة آخر هذه الآية بصدرها ؟ العلاقة أن الله عز وجل قادر دائماً وأبداً أن يأخذ هذا الإنسان بشرّ عمله، لماذا يؤخره؟ رأفة به ورحمة، يعطيه فرصة كي يتوب، قد يفعل الإنسان عملاً يستحق الهلاك، و الله سبحانه وتعالى لا يهلكه، لماذا لا يهلكه؟ رأفة به ورحمة، لعله يعود، لعله يرجع، لعله يصحو، لعله يذكر، لعله يندم، لعله يفكر .

(فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

بمعنى أن الله عز وجل لم يأخذهم على تخوف، أو لم يأخذهم بعد وهم لا يشعرون، أو لم يخسف الله بهم الأرض بعد، لأنه رؤوف بهم ورحيم، لكن إذا استمروا، وأصروا فلا بد من أن تقع هذه الآيات واحدة واحدةً، أن يخسف الله بهم الأرض، الزلازل، الصواعق، البراكين،

(أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

الأمراض، أو يأخذهم في تقلبهم، مفاجأة، وهو في عمله وقع مغشياً عليه، أصيب بشلل دائم،

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ)

يعني قبل أن تأتي المصيبة، ينخلع قلبه لها مئات المرات قبل أن تأتي، أو هذا الموت البطيء، نقص المواد يغضي إلى التلف،

(فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (12-21): تفسير الآيات 45 – 55 ، عن الموعظة الحسنة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-04-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني عشر من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمْ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

نعمة الأمن لا يعرفها إلا المؤمن :

الحقيقة أن نعمة الأمن لا تعدلها نعمة، أن تطمئن إلى أنه لا يصيبك مكروه، هذه النعمة لا يعرفها إلا المؤمن، قال تعالى :

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمْ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام : 81 -82)

السلامة ألا يقع الشر، ولكن الأمن ألا تتوقع حدوث الشر، وشتان بين السلامة والأمن، قد يكون الإنسان في أقصى درجات السلامة، ولكن قلبه يكاد ينخلع قلقاً، مرض العصر هو القلق .

ثمة كتابٌ حديث عنوانه:(خوف الموت)، يذكر فيه المؤلف أن في حياتنا أشياء نحبها، وأشخاصا نحبهم، وأوقاتاً نألفها، وأماكن نتوق إليها، وفي حياتنا أشياء، وأشخاص، وأوقات، وأماكن نخاف منها، ونكرهها، قال مؤلف هذا الكتاب: لو جمعت كل المخاوف، وكل المقلقات، وكل الأشياء التي تبعث في النفس الذعر، لو جمعتها كلها لا تعدل ذرة من قلق الموت، لماذا؟ لأن المرض قد ينتهي بالشفاء، وأن هذه الورطة قد تنتهي بالسلامة، وأن دخول السجن قد ينتهي بإطلاق سراح السجين، وأيّ مصيبة تحيط بالإنسان لا بد من فرجة ينفذ منها إلى الطمأنينة، ولكن الموت إذا أصاب الإنسان انتهى كل شيء، لذلك في الساعة التي يتيقن الإنسان أنه سيغادر الدنيا يتسرب إلى قلبه من الحزن ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم، ولكن هذا الكتاب الذي ألّف تحت عنوان: (قلق الموت)أعجبني فيه شيء واحد، أن المؤلف لم ينس أن يستثني المؤمن من قلق الموت، إنه يقول: إلا المؤمن، فإن الموت يعد بالنسبة إليه مصدر سعادة وطمأنينة .

تروى، وهذه قصة رمزية، أن ملك الموت حينما أتى إبراهيم عليه السلام، وعرف إبراهيم هذا النبي العظيم أنه لا شك ميت، فقال لملك الموت : أيمكن أن يميت الحبيب حبيبه ؟ فأوحى الله له : أن يا إبراهيم أيكره المحب لقاء حبيبه؟ الموت بالنسبة للمؤمن مصدر سعادة وطمأنينة، لأن كل حياته بما فيها من طاعة، وبذل وتضحية، واستقامة، وانضباط، هذه كلها سوف يلقى نتائجها عند الموت .

أحد أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو سعد بن الربيع تفقده النبي فلم يجده، فكلف صحابياً جليلاً للبحث عنه، وكان هذا في أعقاب معركة أحد، فعَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ قَالَ :

((لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ؟ فَقَالَ رَجُلٌ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَطُوفُ بَيْنَ الْقَتْلَى، فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ : مَا شَأْنُكَ ؟ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : بَعَثَنِي إِلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِآتِيَهُ بِخَبَرِكَ، قَالَ : فَاذْهَبْ إِلَيْهِ، فَاقْرَأْهُ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُ أَنِّي قَدْ طُعِنْتُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ طَعْنَةً، وَأَنِّي قَدْ أُنْفِذَتْ مَقَاتِلِي، وَأَخْبِرْ قَوْمَكَ أَنَّهُ لَا عُذْرَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ إِنْ قُتِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَاحِدٌ مِنْهُمْ حَيٌّ))

[مالك في الموطأ]

ما هذه السعادة التي انغمس فيها هذا الصحابي الجليل؟ لذلك خوف الموت لا يصيب المؤمن، إن الموت عرسه، وإن الموت تحفة المؤمن، وفي الموت يسعد الإنسان بلقاء الله عز وجل .

فلذلك :

(أَفَأَمِنَ)

الإنسان في خوف وقلق :

هل أنت مطمئن؟ أغلب الظن أن أهل الدنيا لا يطمئنون، ولو كانوا في أوج نجاحهم، وفي أوج قوتهم، وفي أوج غناهم، إن القلق يأكل قلوبهم، قال بعضهم: " توقع المصيبة مصيبة أكبر منها، وأنت من خوف المرض في مرض، وأنت من خوف الفقر في فقر "، وإن المرض الذي يعاني منه العالم أجمع المنقطع عن الله عز وجل هو القلق، شبح السرطان في أمريكا وأوربة يأكل القلوب، شبح مرض الإيدز يخيف الناس، شبح أمراض القلب، شبح الحوادث، شبح الحريق، إن حياة الناس من دون إيمان حياة مشحونة بالمقلقات، لذلك الكتب التي تؤلف حول موضوع القلق يباع منها مئات الملايين، هناك قلق عميق، فهؤلاء الذين يمكرون السيئات هل يأمنون؟ هل يطمئنون؟ هذا الذي يفكر كيف يؤذي زيداً، أو كيف يؤذي عبيداً، أو كيف يأكل مال فلان، هذا الذي يضع أمام إنسان عراقيل كي يبتز ماله، هذا الإنسان هل يدري ما سيكون ؟ هل يدري بماذا سيفاجأ بعد حين، هذا الذي يفكر كيف يؤذي، وكيف يأخذ ما ليس له، وكيف يفعل، ويفعل، وكيف يبني مجده على أنقاض الناس، وكيف يأخذ مما عندهم من

دون حق، هذا الذي يمكر السيئات هل يدري ما سيكون؟ هل يدري بماذا سيفاجأ بعد أيام؟ أو بعد أسابيع؟ أو بعد أشهر؟ أو بعد سنوات ؟

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام : 11)

رب السماوات والأرض، رافع السماوات بغير عمد يقول :

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمْ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

مدن كثيرة خسف الله بها بسبب المعاصي :

مدن من أجمل مدن العالم تستقبل السياح الأجانب، وهذه المدن على سواحل البحار، وفيها المنتجعات، وفيها الفنادق، وفيها الغرف المفروشة، وفيها المتنزهات، وفيها الشواطئ والنوادي، هذه المدن في ثلاث دقائق أصبحت أثراً بعد عين، مدينة أغادير في ثلاث دقائق، فندق ارتفاعه ثلاثون طابقا خسف به، ولم يبق على وجه الأرض إلا الطابق الأخير، وعليه لافتة كتب عليها اسم الفندق .

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمْ الْأَرْضَ)

بعض البلاد سمعنا عنها في الأخبار في كولومبيا ضربها زلزال، أو ثار فيها بركان، زاد في الثلوج مع ثورة البركان، وانهمرت السيول، فأغرقت المدينة، وجاء بعدها السحاب البركاني فأحرقها، أغرقها، ثم أحرقها، في سويعات كان عدد الضحايا يزيد على خمسة وثلاثين ألفاً .

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمْ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

في بعض البلاد حصل زلزال، قضى على عشرات الألوف، بل مئات الألوف، قيل وقتها : إنهم لا يملكون وسائل علمية لمعرفة وقت الزلزال، فبقي الناس ينتظرون أخباراً دقيقةً عن الهزة الثانية، قبعوا في منازلهم، أو قبعوا في الطرقات، وفي الحدائق العامة حتى يئسوا من وقوع الهزة الثانية، فلما دخلوا إلى بيوتهم جاءت الهزة الثانية، فقضي على عشرات، بل مئات الألوف الأخرى .

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمْ الْأَرْضَ)

إنسان يسكن في بيت اشتراه بمليون ليرة، هذا البيت بقاؤه منوط برحمة الله، لو أن هزةً طفيفة أصابت القشرة الأرضية لأصبحت كل هذه البيوت قاعاً صفصفاً .

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا(105)فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا(106)لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا)

(سورة طه : 106)

تقول: أنا أملك هذا البيت، الملك لله، هذا البيت قائم برحمة الله، لو أن هزة أرضية أصابت أي مكانٍ لتداعت البيوت، ولأصبحت فوق بعضها، قس على هذه الحالة أن الإنسان إذا ركب مركبة، إذا ركب باخرة، إذا ركب طائرة، ما لذي يضمن له أن يصل؟ ألم نسمع دائماً أن هذه الطائرة احترقت، ومات جميع ركابها، ألا نقرأ في أكثر النعي إثر حادث أليم، فهذا الذي يمكر السيئات هل يدري كيف يموت؟ أيموت في حادث؟ أيموت حريقاً؟ هناك وسائل كثيرة، هذه الآية طبقها على كل الحالات :

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ)

قد يقول قائل: لمْ نر أن الأرض قد خسفت فيما حولنا، وهناك حوادث فردية، إن لم تر حادثاً جماعياً فهناك حوادث فردية، فالذي يمكر السيئات لابد من أن يهلكه الله، أو لابد من أن يقصمه الله عز وجل .

لذلك نعمة الأمن لا يعرفها إلا من ذاقها .

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

(سورة قريش : 4)

وقال تعالى :

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل : 112)

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

فإذا عرفت الله، واستقمت على أمره، وكان عملك طيباً، أذاقك الله عز وجل طعم الأمن، وهذا الطعم لا يوصف، لكن من ذاقه يعرفه، في قلبك طمأنينة لو وزعت على العالم لكفتهم .

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

****

تشعر بالراحة والطمأنينة، تقرأ قول الله تعالى :

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ)

(سورة الطور : 48)

لا تسعك الأرض، خالق الكون يتعهدك بالرعاية .

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)

(سورة الحج : 38)

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا)

(سورة مريم : 96)

هل تخشى أحداً؟ لا تخشى إلا الله، فهؤلاء الذين مكروا السيئات، هؤلاء الذين يفكرون أن يوقعوا الأذى بالآخرين، هؤلاء الذين يفكرون في اغتصاب أموال الناس، توفي الأب، وترك مالاً طائلاً، كبير الإخوة أراد أن يغتصب مال إخوته، هذا الأخ الأكبر، وهو يفكر في اغتصاب مال إخوته هل يضمن أنه سيعيش كي يستفيد من هذا المال ؟ الله سبحانه وتعالى قد يقصمه .

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمْ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

مصادر العذاب لا تعد ولا تحصى .

مصادر العذاب لا تعدّ ولا تُحصى ولا يُشعَر بها :

أعرف شاباً في ريعان الشباب بدأ يحس بآلام مبرحة في مفاصله، ذهب إلى الأطباء، توقعوا أن معه فقر دم، لأن آلام المفاصل من أعراض فقر الدم، فحص دمه فإذا النسبة منخفضة، ما السبب ؟ قصة طويلة، ملخصها أن الطحال الذي هو مقبرة لكريات الدم الحمراء بدل أن يأخذ الكرة الحمراء الميتة فيحللها إلى هيموغلوبين، وإلى حديد، صار يأخذ الكرة الميتة، والكرة الحية، أخذت خزعة منه إلى بلاد غربية لفحصها، فرط نشاط في الطحال، ليس ورماً خبيثاً، لا، ليس كفًّا عن العمل، لا، فرط نشاط في الطحال، وانتهى به الأمر إلى الوفاة، أي خطر؟ يوجد مليار خطر، إذا توقف الطحال عن العمل مشكلة، وإذا عمل عملاً فوق الحد المعقول مشكلة الطحال والبنكرياس مشكلة، والمعدة مشكلة، والأمعاء مشكلة، والكبد مشكلة الطحال والجملة العصبية، والمخ، والمخيخ، والبصلة السيسائية، والنخاع الشوكي، والجملة الودية، ونظيرة الودية، والشرايين والأوردة، والأجهزة، والقلب والدماغ، يوجد مليون خطر بالجسم، وبالعمل، وبالحركة، وبعلاقتك مع الآخرين، لولا الإيمان بالله عز وجل، لولا الطمأنينة إلى عدالة الله، وإلى حفظ الله، وإلى توفيق الله، وإلى أن الله يدافع عن الذين آمنوا، لولا هذه التطمينات لانقلبت حياة الناس إلى جحيم، ولكن المؤمن مستسلم لله عز وجل، راضٍ بحكمه متوكل عليه .

(أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

أعرف رجلاً أعماله سيئة جداً، يحب كسب المال من أي طريق، من طريق حلال، من طريق حرام، بشكل مشروع، بشكل غير مشروع، وهو تاجر كبير، ويزداد غنىً، وعنده أموال طائلة، حادث طفيف في البيت وقف على كرسي، فانزلق به الكرسي، أحدث في مقعده جرحاً بليغاً، انتهى به الأمر إلى الموت خلال ثلاثة أيام، ما كان هذا الخطر خاطراً بباله .

(أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

تكون النهاية على أتفه سبب بسبب تافه جداً بسبب طارئ .

(أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

هذا الذي يمكر السيئات، هذا الذي يفكر كيف يؤذي الناس، كيف يأخذ أموالهم، كيف يعتدي على أعراضهم، كيف يستغلهم، كيف يفعل بهم ما يفعل، هل يأمن مكر الله عز وجل ؟

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمْ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

فجأة، العوام يستعيذون من ساعة الغفلة، ويظنون أن ساعة الغفلة هي الساعة التي يأتي بها العذاب من حيث لا يشعر الإنسان، ولها معنى آخر، ساعة الغفلة عن الله تسبب خبراً يأتيك على غفلة، ساعة الغفلة تسبب مصيبة تأتي على غفلة، فلذلك :

(أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45)أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ)

أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ

الإنسان بين بيته وعمله، ومتجره، ودائرته، في أثناء البيع، في أثناء الشراء، في أثناء عقد صفقة، في أثناء دفع الثمن، في أثناء قبض الثمن، قبل بيع الأرض، بعد بيع الأرض، وهو في الطريق، وهو في النزهة، وهو على ساحل البحر، وهو في فندق، وهو في مكتبه الفخم، وهو في بيته،

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ)

الإنسان لا يعرف، إذا كان منحرفاً، أو معتدياً، أو عمله سيئ، كيف يأخذه الله؟ يأخذه وهو نائم، يأخذه وهو مسافر، يأخذه وهو في متجره، يأخذه وهو يعقد صفقة، وهو يقبض الثمن .

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ)

وهم في نشاطهم اليومي، وهم في أوج نشاطهم .

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ)

كن فيكون .

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ :

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم]

أيّ انحراف ثمنه باهظ :

أنا أردت أن أعيد هذه الآية مؤكداً لكم أن أيّ عمل سيئ، أيّ انحراف عن الطريق الصحيح، أيّ أكل للأموال بالباطل، أيّ عدوان على الأعراض، أيّ إيقاع بين الناس، أيّ انحراف، هذا ثمنه باهظ، فالله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل .

هذه قصة رمزية، شوحة التقت بسيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام، قال له يا نبي الله، اسأل ربك أهو مهول أم عجول؟ فلما سأل هذا النبي الكريم ربه قال : يا رب، إنها تسألني، أمهول أنت أم عجول؟ فقال الله عز وجل: قل لها: إني مهول، يعني على الإمهال، اطمأنت هذه الشوحة، انقضت على قطعة لحم تشوى على جمر، أخذتها وطارت بها اغتصاباً، علق بقطعة اللحم بصيص من الفحم المشتعل، لما وضعت قطعة اللحم في عشها احترق العش، فعادت إلى سيدنا سليمان، قالت له: يا نبي الله، ألم أسألك بأن الله مهول أم عجول؟ فقلت لي: إنه مهول، هاهو ذا قد احرق العش تواً، هكذا القصة، قصة رمزية، فقال الله عز وجل لهذا النبي : قل لها : هذا حساب قديم، كل شيء مسجل :

((ما من عثرة ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفو الله أكثر))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من قول أبي بن كعب]

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى : 30)

إذاً :

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ(46)أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

هذه حالة ثالثة .

الأولى : خسف الأرض .

الثانية : أن يأخذهم من جهة لا يتوقعونها .

والثالثة : أن يأخذهم وهم في نشاطهم اليومي .

أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ

والرابعة :

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ)

الخوف من المصيبة :

أي : وهم هم خائفون، يتوقعون هذه المصيبة، يتوقعونها ثم تقع، يموتون مئة موتة قبل أن تقع، إلى أن تأتي فتأخذهم، هذه أصعب حالة، يتوقعون المصيبة، وينتظرونها، ثم تأتي .

نقص المواد :

وقال بعض المفسرين : التخوف هو النقص، قد تقلّ المواد، يغلو سعر الطعام، كل شيء ينحسر، ويرتفع سعره، إلى أن يصيب الناس بلاء عظيم، هذا هو التخوف .

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ)

هذا كله لأنّ ربكم غفور رحيم :

هنا آخر فقرة في الآية دقيقة جداً، لماذا لم يفعل الله عز وجل هذا؟ لأنه رؤوف رحيم، هو يعطيكم مهلة كي تتوبوا، فإذا فعل الإنسان ذنباً، ورأى الله عز وجل قد تركه وشأنه، لم يعاقبه، لا يطمع، لقد أعطاه الله فرصة .

لكن هناك قصة أخرى في حق المؤمنين، يروى أن مؤمناً تعلم من أساتذته أن لكل سيئة عقاباً، ولكل معصية جزاء، في ساعة غفلة وقع في معصية، فحسب ما سمع من أساتذته بدأ ينتظر العقاب، مضى يوم ويومان أو ثلاثة، ولم يحدث شيء، فناجى ربه: أن يا رب، قد عصيتك، ولم تعاقبني، فوقع في قلبه: أن يا عبدي، قد عاقبتك، ولم تدر، ألم أحرمك لذة مناجاتي ؟ ألا تكفيك هذه العقوبة، أتطمع وأنت المحب بعقوبة أكبر منها، فالذي له مع الله صلة فإن انقطاع هذه الصلة وحدها أكبر عقوبة، الابن الذي بينه وبين أبيه مودة بالغة أيطمع أن يكون عقاب الأب له أكثر من إعراضه عنه، إذا كان ذو حساسية فهذا يكفي، أيا عبدي، قد عاقبتك، ولم تدر، ألم أحرمك لذة مناجاتي؟ ألم تبق في نار البعد ثلاثة أيام؟ ألم تحترق في نار الجفاء؟ لقد عاقبتك ولم تَدْرِ .

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ(47)أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ)

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ

علاقة الآية بما قبلها :

لماذا هؤلاء يمكرون السيئات؟ هنا سؤال دقيق، ما العلاقة بين الآيتين؟ يبدو أنه ليس هناك علاقة .

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمْ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ(45)أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ(46)أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ(47)أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ)

هؤلاء الذين يمكرون السيئات لم يتفكروا في خلق الأرض والسماوات، لو تفكروا في خلق الأرض والسماوات لم يمكروا السيئات، ولعرفوا أن لهذا الكون إلهاً، عادلاً، لا تضيع عنده الحقوق، فهذا الذي يمكر السيئات لا يعرف رب الأرض والسماوات، لو أنهم فكروا في هذه الآيات لعرفوا الله .

(أَوَلَمْ يَرَوْا)

الآيات الكونية تحت بصر وسمع الإنسان :

حيثما وردت هذه العبارة في القرآن الكريم :

(أَوَلَمْ يَرَوْا)

فليكن معلومًا لديكم أن هذه الآيات تحت سمع الناس وبصرهم، آيات دالة على عظمة الله،

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ)

كل شيء له ظل يسجد لله :

الجبال لها ظلال، الأشجار لها ظلال، أي شيء ثابت له ظلال، من أقامه؟ من نصبه؟ من خلقه؟ من أمده بهذه القوة؟ وكأن الله عز وجل يقول: تفكروا في هذه الجمادات، تجد مقلع رمل في جبل عمره ثلاثون عاماً، ولم يؤثر في شكل الجبل، كم في الجبال من؟ مواد كم فيها من صخور ؟

(أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ)

هذه الجبال الشامخة، جبال همالايا، جبال الألب في أوروبة، جبال طوروس في تركيا، الجبال في سوريا، هذه الجبال الشامخة من نصبها؟ من جعلها مستودعات للمياه؟ هذه الجبال من خلقها؟

(أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ)

لماذا أفرد اليمين وجمع الشمال ؟

المفسرون تساءلوا: لماذا اليمين مفرد، والشمائل جمع؟ لأن الشمس إذا شرقت، أو إذا أشرقت وظهرت من الشرق فإن الأشياء لها ظل، هذا الظل في طريقه إلى التلاشي إلى أن تصل الشمس إلى كبد السماء، فالظل في تناقص، لكنها إذا زالت عن كبد السماء فالظل في ازدياد، إلى أن يبلغ الظل أقصى طول له قبيل الغروب، فالظلال من الزوال إلى الغروب تزداد، والظلال من الشروق إلى الزوال تتناقص، لذلك عبر الله عز وجل عن هذه الحقيقة بإفراد اليمين، وجمع الشمائل .

(أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ)

الظلال آية من آيات الله :

شيء آخر، الظلال بحد ذاتها آية من آيات الله، الظل يمشي، ما الذي يجعله يمشي ؟ أن هناك حركة لا ندري ما هي، الشمس أو الأرض تتحرك إحداهما، اجلس في غرفة، ترى أشعة الشمس في منتصفها، أدِرْ مع صديق لك حديثاً خلال دقائق تجدها زاحت عشرة سنتيمترات، ربع ساعة انحسر الظل، أو ازداد الظل، تحرك الظل، أليس هو آية من آيات الله عز وجل ومن آياته الدالة على عظمته ؟ هناك شمس، هناك أرض، هناك حركة، ما الذي يثبت لك حركة الأرض؟ تنقل الظل من جهة إلى جهة .

(أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ)

هذه (ما)في قوله :

(أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا)

استعمال (ما)للعاقل وغيره :

هذه في كتاب الله تشمل العاقل وغير العاقل، أي شيء يشكل حيزاً مادياً له ظل، وهذا الظل متحرك، وحركته دليل حركة الأرض، ما الذي يؤكد لك حركة الأرض ؟ تنقل الظل من مكان إلى آخر، هذه من آيات الله الدالة على عظمته .

أما :

(سُجَّدًا لِلَّهِ)

السجود نوعان :

هذا السجود على نوعين، الأشياء كلها تسجد لله عز وجل سجود افتقار، بينما الإنسان يسجد لله عز وجل سجود العبودية، وشتان بين سجود الافتقار وسجود العبودية، لكن بشكل أو بآخر كل شيء له حيز مادي تتفيأ أيها الإنسان ظلاله ساجدًا لله عز وجل، مفتقرًا إلى إمداده، مفتقرًا إلى فضله، فالنبات مفتقر إلى الهواء، من دون هواء يموت النبات، مفتقر إلى الضوء، من دون ضوء يموت، مفتقر إلى الماء، من دون ماء يموت، فسجود النبات لله عز وجل أي حاجته المستمرة إلى الهواء، وإلى الماء، وإلى النور، الضوء .

(وَهُمْ دَاخِرُونَ)

كلّ شيء خاضع لله تعالى :

أي : صاغرون، والله سبحانه وتعالى بيده ملكوت السماوات والأرض، وكل شيء خاضع له سبحانه .

(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

السنن الكونية لا تتعطل :

خطر في بالي مرة أن للسقوط قانوناً، فلو أن إنساناً ركب طائرة، وأعطي أمراً أن ينزل من الطائرة وهي في السماء، للسقوط قانون، إذا آمن به أو لم يؤمن، إذا عرفه أو لم يعرفه، إذا تأدب معه أو استخف به، إذا صدقه أو كذبه، إذا أخذ به أو لم يأخذ فالقانون مطبق، فإن صدقه يستخدم المظلة، فيصل إلى الأرض سالماً، وإن استخف بهذا القانون فالقانون مطبق، إذا استخف الإنسان بقانون فلا يعني إلغاء القانون، الفكرة دقيقة، إذا استخف الإنسان بأمر إلهي فلا يعني أن استخفافه يعطل هذا الأمر، الأمر مطبق، فإما أن تعرفه، وتأخذ العدة لتطبيقه، وإما أن ينفذ عليك، لأن لله عز وجل :

(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

السنن التي سنها الله عز وجل مطبقة دائماً وأبداً، في كل مكان، وفي كل زمان، لا تتعطل، ولا تلغى، ولا تعدل، ولا تتوقف، فما عليك إلا أن تعرفها، كي لا تنطبق عليك .

(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ)

كلّ شيء يسجد لله طوعا وكرها :

(مِن) لاستغراق أفراد النوع، فأيّ شيء يدبّ على وجه الأرض، بدءًا من النملة، بدءًا من الدويبة، أحياناً ترى على الكتاب أو على الدفتر نقطة تتحرك، هذا أصغر مخلوق تقع عينك عليه، دويبية، بدءًا من هذه الدويبية إلى أكبر فيل، أو إلى أكبر حوت، أي شيء يدب على وجه الأرض .

(يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ)

والله من ورائهم ومن فوقهم، من ورائهم محيط، تدبيره يحيط بتدبيرهم، ومكره يطوق مكرهم، وهو من فوقهم، مشرف عليهم، بيده نواصيهم، إليه يرجع الأمر كله .

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ

إذا فعلت هذا فقد اتخذت إلهين اثنين :

إذا أطعت زوجتك، وعصيت ربك فقد اتخذته إلهين اثنين، صليت له، وعصيته إرضاء لزوجتك، إذا أرضيت شريكك في بيع مخالف للشرع طمعاً بالمال فقد اتخذت إلهين اثنين، وأنت لا تدري،

(إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

إذا أطعت إنساناً، وعصيت الله عز وجل فقد اتخذت إلهين اثنين، وهو إله واحد، فهذا الإله الذي اتخذت من دون الله لن ينفعك، ولم يمنع عنك شراً، ولم يجلب لك نفعاً، لكنك أغضبت الله من أجله، فخسرت الدنيا والآخرة، كنت أقول دائماً : بين أن تقرأ الآية، وبين أن تفهمها، وبين أن تكون في مستواها بون شاسع .

قل الآن: ألف مليون ليرة، هذه كلمة، شتان بين من يلفظ هذه الكلمة، وبين من يملك هذا الرقم، فرق كبير جداً، أيّ واحد منكم بإمكانه أن يقول : ألف مليون ليرة، ألف ألف مليون ليرة، مَليار مليار مليون، سهل، لكن بين أن تملك الرقم وبين أن تلفظه بون شاسع، كذلك بين أن تقول : هذه الآية معناها دقيق :

(لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ)

وبين أن تكون موحداً، بون شاسع، وفرق كبير بين أن تنطق بكلمة التوحيد وبين أن تكون مع الموحدين، ما من مسلم على وجه الأرض إلا وينطق بكلمة التوحيد مئات المرات في اليوم الواحد، وهو غارق في الشرك إلى رأسه .

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

فإذا خوفك إنسان فمنعك من أن تصلي فقد اتخذته إلهاً، وأنت قد اتخذت إلهين اثنين، إذا خوفك إنسان على أن يمنع عنك رزقك، وصدقته فقد اتخذته إلهاً، وأنت قد اتخذت إلهين اثنين، فهذا هو الشرك، كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تقرِّب أجلاً .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة هود : 123)

هذا هو الدين، الدين كله توحيد، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، لكن الذي أتمناه عليكم أن يكون واضحاً لديكم، هو أن النطق بكلمة التوحيد لا يكفي، فعن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ مُخْلِصًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، قِيلَ : وَمَا إِخْلاَصُهَا ؟ قَالَ : أَنْ تَحْجُزَهُ عَنْ مَحَارِمِ الله))

[الطبراني في الأوسط]

لو أنك نطقت بلا إله إلا الله مليار مرة، وعصيت خالقك من أجل إرضاء مخلوق فأنت لم تقلها ولا مرة، لو قلت: الله أكبر يوم العيد ألف مرة، منذ طلعت الشمس بدأت بالتكبير، ثم انطلقت إلى المسجد وأنت تكبر، وعدت منه وأنت تكبر، وفي صلاة الظهر، كبرت والعصر كبرت، أول يوم، وثاني يوم، وثالث يوم، وأرضيت زوجتك بسهرة مختلطة، أو وليمة مختلطة، وعصيت الله عز وجل فأنت لم تكبر ولا مرة، لأنك رأيت إرضاءها أثمن من إرضاء الله، لم تقل: الله أكبر، هي عندك أكبر من الله، وليس الله عز وجل، فهذه الكلمات كلمات الدين، الحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وسبحان الله، والحمد لله، هذه الكلمات ينطق بها المسلمون جميعاً، وشتان بين النطق بها وبين أن يكون في مستواها، كمن ينطق بكلمة مئة مليون، ولا يملك أجرة الحافلة، شتان بين من يملكها وبين من يلفظها .

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ(51)وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ)

وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ

الكون كلّه لله خلقًا ومُلكا وتدبيرا ومصيرا :

كل ما في السماوات والأرض له، خَلقاً، وملكاً وتدبيراً، ومصيراً له، لذلك :

((... إنَّ لِلَّهِ مَا أخَذَ، وَلَهُ مَا أعْطَى ...))

[متفق عليه عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ]

والذي أخذه له، سألوا إعرابياً يقود قطيعاً من الإبل: لمن هذه؟ قال: لله في يدي، هل هذه العين لك؟ لا هي لله، والدليل: في ثانية واحدة تفقد البصر .

(فَلَوْلَا إِنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ(86)تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة الواقعة : 86 - 87)

أنت مدين لله بروحك، بحواسك، بقلبك، بأجهزتك، بدماغك، بعقلك، بتوازنك .

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا)

أي : واجباً، والدين لله وحده، وليس في الأرض جهة تستحق أن يدان لها إلا الله، هذه الجهة أيّ جهة كانت، لا تملك نفعاً ولا ضراً، ولا موتًا ولا حياة، ولا نشوراً، ولا تعلم، ولا تسمع، ولا ترى، ولا تحاسب، فأيّ جهة لا تملك لك شيئًا، كيف تعبدها من دون الله .

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا)

أي الدين يجب لله وحده .

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ)

إذا علمتم كلَّ هذا ، أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ

أتضع إمكاناتك، فكرك، ثقافتك لمصلحة جهة غير الله عز وجل؟ أليس هذا امتهانًا لمكانتك؟ أليس هذا احتقارًا لذاتك؟ أنت مؤهل أن تعرف الله، وأن تخضع له وحده، وأن تعبده وحده، وفي الأثر: " خلقت السماوات والأرض ولم أعيّ بخلقهن، أفيعييني رغيف أسوقه لك ، خلقت السماوات والأرض من أجلك، وخلقتك من أجلي، خلقت السماوات والأرض من أجلك فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنت لك عما افترضته عليك " .

(وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا)

وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا

الدين لله وحده عز وجل، أنت أن تكون خاضعاً لإنسان، لامرأة، لزوجة، لصديق، لإنسان أعلى منك، تقدم له كل شيء، وهو لا يملك لك شيئاً، لا نفعاً، ولا ضراً، ولا موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً، ويتخلى عنك يوم القيامة، ويشمت بك، وعلى رأسهم الشيطان .

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة إبراهيم : 22)

هذا هو الشيطان .

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ(52)وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ)

وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ

كل نعمة من الله وحده :

قال سيدنا موسى: " يا رب كيف أشكرك؟ قال: يا موسى، تذكرني ولا تنسني، إنك إذا ذكرتني شكرتني، وإذا نسيتني كفرتني "، لا تقل: أنا بذكائي حصلت هذه المكانة، لا تقل: أنا تعبت على نفسي كثيراً حتى حصلت هذه الشهادة .

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

حدثني آخ يركب سيارة عامة، قبل أسابيع رجل من ركاب الحافلة خلع ثيابه كلها أمام الركاب قطعة قِطعة، مجنون، يقول : أخي فلان قوي الشخصية من الله، إذا أخذ ما وهب أسقط ما أوجب، ما قيمة المال إذا فقد الإنسان عقله ؟

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

نعمة العقل، نعمة التفكير، نعمة الحركة نعمة السمع، نعمة البصر، نعمة الهضم، نعمة الدوران، نعمة الأجهزة، نعمة جهاز تصفية البول .

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

تقرأ أحيانا في الجريدة إعلانًا، فلان الفلاني يطلب ممن يرغب كلية من كليتيه، وله جائزة كبيرة، يرى هذا المصاب أن كل الدنيا لا تعدل كلية تعمل بانتظام، فالذي تعمل كليتاه بانتظام هذه نعمة كبيرة، الذي يعمل قلبه بانتظام نعمة كبيرة، الذي يملك محاكمة صحيحة نعمة كبيرة،

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ)

ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ

هكذا هو الإنسان إذا مسّه الضرّ :

قال لي أحدُهم ركب من دمشق إلى القامشلي بطائرة، يظهر أنها طائرة من نوع قديم ، مروحتين، القصة قديمة، الآن كل الطائرة نفاثة، فأحد المحركين تعطل، فعرف الركاب ذلك، بعد تعطل المحرك صادفت جيباً هوائياً، فكان راكباً بجانبه شخص جرى بينهما نقاش في أثناء الطريق، يقول هذا الراكب : إنه ليس هناك إله، الدنيا مادة، الإنسان مادة معقدة، ولا شيء بعد الموت، والإله خرافة وأكذوبة، هذا النقاش في الطائرة، قبل تعطل أحد المحركين، وقبل الجيب الهوائي، فلما تعطل أحد المحركين، وهبطت الطائرة في هذا الجيب الهوائي، قال لي : أقسم بالله، يقول : الله، الله، الله يضع يديه على ركبتيه ويقول : الله، الله، قبل قليل كنتَ تقول : ليس هناك إله .

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ)

هذا لا يعرفه إلا ركاب الطائرات في الأحوال الجوية السيئة، في الجيوب الهوائية، في بعض الأزمات، تجد الوجوه كلها صفراء، وكلهم يقولون : يا الله،

(ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ)

أي : ترفعون الصوت بالدعاء .

(ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)

واللهِ هناك طيار أعصابه قوية، لولا هذا الطيار لمتنا جميعاً، على الأرض يقولها، وفي الجو يقول: يا الله، في الأرض صارت أعصاب قوية .

(ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ(54)لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)

(سورة إبراهيم : 30)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص : 61)

(فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (13-21): تفسير الآيات 45 – 61 ، عن الإيمان الصحيح

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 10-04-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث عشر من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ)

وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ

لله الكون خلقا ومُلكا وتصرفا ومصيرا :

أما أن ما في السماوات والأرض له، فهذا معناه أن ما في السماوات والأرض ملكه، وتصرفه، ومصيره .

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

مُلكاً، وتصرفاً ومصيراً، قد تملك ولا تحكم، وقد تحكم ولا تملك، قد تملك بيتاً، وليس في إمكانك الانتفاع به، وقد تنتفع ببيت وليس ملكك، أما أن يكون الشيء تابعاً لك ملكاً، وتصرفاً، ومصيراً فهذا أوسع معاني الملكية .

هذه اللام للاختصاص، أو لام الملكية، نحن في ملكه، وكل شؤوننا بيده، ومصيرنا إليه .

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

لكن هذه كلمة، لو تفكر الإنسان في خلق السماوات والأرض لتحقق منها، شتان بين أن تكون فاهماً لآية، وبين أن تكون معتقداً بها، وبين أن تكون في مستواها، فمن تفكر في خلق السماوات والأرض عرف أن هذا الكون عائد له، ملكاً، وتصرفاً، ومصيراً، فبعض الناس يعتقدون أن الله عز وجل خلق، وانتهى الأمر، وأعطى كل إنسان طاقة أو قوة، يتحرك بها، ولكن هذه العقيدة فاسدة .

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر : الآية 62)

(قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف : 26)

فلذلك :

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

كيف تتجه إلى مَن لا يخلق ولا يملك ولا يتصرف وليس المصير بيده : :

فكيف يسوغ لك أن تتجه إلى إنسان لا يملك لك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشورا؟ عليك أن تعبد الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، وعليك أن تعبد الذي إليه يرجع الأمر كله، وعليك أن تعبد الذي بيده حياتك، وبيده صحتك، وبيده أمر عدوك، وبيده أمر صديقك، وبيده كل من حولك، عليك أن تعبده .

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا)

الدين بمعنى الخضوع، دان دينا ودينونة، بمعنى خضع، فلا ينبغي للإنسان أن يخضع لغير الله، لأنه لا يليق به، وقد أكرمه الله بالحرية، وأكرمه الله بالعقل، إذا خضع لغير الله فقد ضل ضلالاً مبيناً، وإذا خضع لغير الله فقد خسر خسراناً مبيناً، مادامت السماوات والأرض له ملكاً، تصرفاً ومصيراً، وله الدين، فالخضوع له وحده، لذلك عَنْ عَلِيٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

[أحمد في مسنده]

هذا الذي تطيعه وتعصي الله، هل يمنعك من الله؟ هل يجلب لك نفعاً؟ هل يدفع عنك ضراً ؟هل يسعدك إذا تقربت إليه؟ هل يسمعك إذا استجرت به؟ هل يتدخل ليحول بينك وبين مصيبة واقعة؟ سبحان الله أين عقل الإنسان !

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ(18)فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

(سورة المدثر : 18 - 19)

كيف قدر أن هذه الجهة تصلح أن تعبد من دون الله، مع أن هذه الجهة فقيرة، ضعيفة، عاجزة، فانية؟ ربنا عز وجل يذكرنا :

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

لذلك :

(وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا)

معنى : واصبًا :

معنى واصبا أي: دائما، ومعنى واصبا أي واجبا، فيجب أن تخضع له على الدوام، أن تدين له، أن تستسلم لأمره .

فكلمة :

(وَلَهُ الدِّينُ)

تعني شيئين :

الشيء الأول : أن الله عز وجل هو الحق، وقد خلق السماوات والأرض بالحق، ودينه هو الحق، وقرآنه هو الحق .

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)

(سورة فصلت : 42)

فبحكم أن الله وهبك العقل المميز يجب أن تخضع له، فلو أن إنساناً عرض عليك مقولتين، الأولى صحيحة، والثانية مغلوطة، إلى أيّ مقولة تخضع؟ إلى الصحيحة، فلأن دعوة الله بالحق، ولأن دينه هو الحق، ولأن كتابه هو الحق، ولأن رسوله هو الحق، يجب عليك أن تخضع له على الدوام، ليس في وقت دون آخر، وليس في وقت الرخاء دون الشدة، وليس في وقت الشدة دون الرخاء، فالمؤمن خاضع لله عز وجل .

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا)

(سورة الأحزاب : 36)

إذا قضى الله ورسوله في موضوع ما حكماً، قضى أمراً في موضوع ما :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

إذا قضى الله ورسوله أمراً، فمن عرف معنى الدين خضع لله، فالدين هو الخضوع، الخضوع لمن يستحق الخضوع، لكن الناس أحياناً يخضعون لجهة لا تستحق أن يُخضع لها، قد يخضعون لشهواتهم، قد يخضعون لمصالحهم، قد يضعون معتقداتهم تحت أقدامهم من أجل مصالحهم، لا ينبغي للرجل ذي العقل الصحيح أن يكون خضوعه لغير الله،

(وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا)

لو أن الله عز وجل قال: الدين له، يعنى الدين له ولغيره، أما: له الدين فعلى سبيل القصر والحصر، له وحده :

(الدِّينُ وَاصِبًا)

واصباً ؛ أي واجباً، واصباً ؛ أي دائماً، يجب أن تخضع لله وحده على الدوام، لأن :

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

شيء منطقي، مثلاً: هل يطالب الإنسان إنساناً لا يملك؟ إذا أردت أن تشتري بيتاً، هل تطلبه من رجل لا يملك بيتاً؟ أليس هذا من الغباء؟ إذا أردت أن تشتري بيتاً يجب أن تذهب إلى مالكه الحقيقي، وتفاوضه، لأنك إذا فاوضت غيره، وعقدت معه عقداً، ونقدته الثمن، يقول لك الأول: أنا لم أبعك، هذا الذي دفعت له لا يملك البيت، أليس من الحمق والغباء والضعف والضلال أن تتجه لجهة لا تملك شيئاً؟ ليس لها ما في السماوات والأرض، لا ملكاً، ولا تصرفاً، ولا مصيراً المصير إليه .

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

(سورة الغاشية : 25 - 26)

(أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)

(سورة الشورى : 53)

عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت .

(وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا)

الدين خضوع لله :

الدين أن تخضع خضوعاً عن قناعة، فلو أن الخضوع عن غير قناعة لكان هذا الخضوع قهراً لا ديناً، والفرق بين القهر والدين أنك بالقهر تخضع، لا عن قناعة، ولا عن رضا، ولكنك بالدين تخضع وأنت مقتنع، وأنت راض، وأن هذا الذي تخضع له يستحق أن تخضع له، وأن هذا الذي تعبده يستحق أن تعبده، وأن هذا الذي تستسلم له يستحق أن تستسلم له، فهو حق، ودينه حق، وقرآنه حق، وشرعه حق، والحلال ما أحلَّ، والحرام ما حرَّم .

(وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا)

واصبا له معنيان متكاملان: واجباً، ودائماً، هناك أناس يخضعون لله في الرخاء، وأما في الشدة فيرتابون في أنه هو الإله، يقولون : أين الله ؟! كيف تخلى عنا ؟ كيف تركنا ؟ هؤلاء هم ضعاف

المؤمنين، فهناك أناس يخضعون لله في الشدة، ويعصونه في الرخاء، وهؤلاء هم المنتفعون، ولكن المؤمن يطيعه ويحبه في الرخاء، وفي الشدة .

إن من قواعد علم التوحيد أن الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين .

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

السماوات والأرض تعبير قرآني يشابه، أو يقابل مفهوم الكون، والكون ما سوى الله، فكل شيء خلقه الله سبحانه وتعالى كون،

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ)

ينبغي أن تتقي وتطيع الله وحده :

أتتقي غضب إنسان لا ينفعك ولا يضرك؟ أترجو رضاه؟ أتتقي غضبه؟ أتطيعه وتعصي الله ؟

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة الصافات : 154)

إن من يطيع إنساناً ويعصي الله فقد سقط سقوطاً لا حدود له، فقد ضل سواء السبيل، وكان ضلاله مبيناً، وكان ضلاله بعيداً، وكانت خسارته كبيرة، كيف لا وقد خسر نفسه؟ ومن يخسر نفسه فقد خسر كل شيء .

ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني فقد وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء، يا رب ماذا وجد من فقدك، وماذا فقد من وجدك ؟

هذا الذي عرف الله، وعرف شرعه، واستقام على أمره، وتقرب إليه، ماذا فاته من الدنيا ؟ وَاللَّهِ ما فاته شيء، بل أصاب كل شيء، وهذا الذي جاءته الدنيا من كل أطرافها، وغفل عن ربه، وجاءه الموت ماذا أصاب ؟

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

(سورة الطور : 45)

(قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)

(سورة إبراهيم : 30)

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

(سورة البقرة : 126)

البطولة أن تلقى الله وأنت على طاعته، فإذا كان هناك مبرر مسوغ أن تعبده فلأن له ما في السماوات والأرض .

تدخل أحياناً إلى دائرة، فما الذي يجعلك تطرق باب مديرها العام ؟ لأن الأمر كله بيده، سواء أحببت ذلك أم لم تحب، ليس في كل هذه الدائرة إنسان يستطيع أن يقول لك : مع الموافقة، إلا هذا المدير العام، فأنت إذا وقفت على بابه، وطرقته لأنك مضطر، إذ لا يستطيع أن يمنحك الموافقة إلا هذا الموظف، فهل تتجه إلى مستخدمٍ ترجوه أن يوقّع لك هذه المعاملة ؟ عندئذٍ تستحق أن تذهب إلى مشفى الأمراض العقلية .

فالله له كل شيء، فإذا كان هناك مسوغ أن تعبده فلأن له ما في السماوات والأرض، هذا مسوغ الاضطرار .

هناك مسوغ آخر :

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ)

وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ

كل نعمة مَسَّتْكَ فمن الله وحده :

هذا سبب آخر أرقى من ذلك السبب، إن كل ما أنت عليه من نعم فمن نعم الله، خذ نعمة العقل مثلاً .

حدثني أخ كان يركب مركبة عامة، فإذا أحد الركاب يخلع ثيابه كلها، ويبقى كيوم ولدته أمه، أين عقله؟

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ)

نعمة العقل هذه نعمة لا تعدلها نعمة، نعمة الصحة، القلب يعمل بانتظام، والجهاز الهضمي يعمل بانتظام، وجهاز تصفية البول يعمل بانتظام، والعضلات، والحواس، والأجهزة، والغدد الصماء، وغير الصماء، وذات الإفراز الداخلي، والخارجي، والأعصاب، والشرايين، كلها تعمل بانتظام،

أتحسب أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

***

أنت وحدك أعقد مخلوق على وجه الأرض .

فلذلك :

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ)

وهذه الزوجة التي في البيت من نعم الله عز وجل، هدية الله لك، وهذا الطفل الصغير الذي يملأ البيت مرحاً وفرحاً وحبوراً، هو من نعم الله عز وجل، وهذه الصنعة التي تتقنها هي من نعم الله عز وجل، وهذه الذاكرة التي تستخدمها في عملك من نعم الله عز وجل، وهذه الشخصية القوية التي جعلتك رفيع

المكانة بين الناس، إنها من نعمة الله عز وجل .

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

الفتاة التي يخطبها إنسان مرموق من أهلها، قد تظن هذه المرأة جهلاً أنها مطلوبة، لكن الله سبحانه وتعالى لو أذهب عنها مسحة الجمال لما طرق بابها أحد .

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

إذا كنت في البيت مرهوبَ الجانب فبنعمة هذا العقل، لو أن الله عز وجل سلبك إياه لما أبقاك أهلك في البيت ولا ليلة واحدة .

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

الحركة نعمة، الوقوف نعمة، النوم نعمة، تناول الطعام نعمة، طرح الفضلات نعمة، شرب الماء نعمة، توافر الماء نعمة، توافر الهواء نعمة، أن يكون لك عمل نعمة، أن يكون لك دخل نعمة، أن تأوي إلى بيت نعمة، أن يكون لك زوجة نعمة .

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

نعمة الإيجاد قبل كل النعم، ونعمة الإمداد، ونعمة الإرشاد، هذه هي النعم الكبرى، وتمام هذه النعم الهدى :

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

فإذا كان منطقك لا يسمح لك أن تخضع له من باب الاضطرار أفلا تخضع له من باب العرفان والشكر؟

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

من أي نوع أنت؟ إن كنت عاقلاً فاخضع له من باب الاضطرار، لأن الأمر كله بيده .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة هود : 123)

إذا كنت كريم النفس فاخضع له من باب العرفان والشكر، لأن كل النعم التي أنت فيها إنما هي من نعم الله عز وجل، ولأنه :

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ)

آية أخرى تشابهها :

(وَآَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)

(سورة إبراهيم : 34)

نعمة واحدة لو أمضيت مدة حياتك في إحصاء فوائدها لما انتهيت، فإذا كنت عاجزاً عن إحصاء فوائد نعمة واحدة، فأنت عن شكر هذه الفوائد أعجز، وعن شكر النعم كلها أشد عجزاً .

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ(52)وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ)

ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ

فهذا الذي يلحد في آيات الله، هذا الذي ينكر، هذا الذي يعرض، هذا الذي يسخر، إذا جاءته المصيبة الكبيرة يقول: يا الله !

قد حدثتكم عن رجل جلس في طائرة إلى جنب رجل، يتناقشان، فإذا بالثاني ينكر وجود الله سبحانه وتعالى، فلما توقف أحد محركات الطائرة، ومرت فوق جيب هوائي، وانخفضت فجأة، قال صاحبنا: رأيت هذا الذي كان ينكر وجود الله قبل قليل يقول: يا الله، يا الله، يا الله .

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ)

معنى تجأرون : ترفعون أصواتكم في الدعاء .

(ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)

ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ

بلغ اللؤم عند بعض الناس منتهاه :

ما أشد لؤم الإنسان، وهو يدعو الله عز وجل في أثناء المصيبة، ويرفع يديه، ويرفع صوته بالدعاء، فإذا تولى الله عز وجل شفاء ابنه، أو إنقاذه من ورطته، أو مرت هذه المصيبة بسلام، أو زال شبح المصيبة، أو انخفضت الحرارة، أو جاء التحليل إيجابياً، لا سلبياً، أو كان هذا الورم غير خبيث، عاد هذا الإنسان إلى ما كان عليه، من فسق وفجور، وزيغ، وضلال، واستخفاف .

(إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ(53)ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ(54)لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

قال تعالى :

(إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)

لكن بعض الناس إذا جاءتهم المصيبة، ودعوا الله مخلصين فرفعها الله عنهم، إذا هم بربهم يؤمنون .
حدثني أخ كريم قال : كنت في محنة شديدة، فدعوت الله من كل جوارحي، إنْ أنقذتني يا رب منها فلن أعصي لك أمرًا، وقد أنقذه الله منها، وها هو ذا فيما أعلم لا يعصي لله أمراً، ربنا عز وجل يقول :

(إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ)

ليس كل الناس، إذا أصابتهم المصيبة، ثم رفُعت عنهم كفروا، بعضهم يستجيب، وبعضهم يتوب، وبعضهم يخضع، وبعضهم يذوب حباً لله، وبعضهم لا ينسى فضل الله، ابن آدم اعرفني في الرخاء أعرفك في الشدة، أذكرك وتنساني ؟

(لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

كفرُ النِّعم :

وقد تكون هذه النعمة، نعمة الشفاء، أو نعمة السلامة أو نعمة البحبوحة التي جاءت بعد عسر، قد تكون هذه النعمة سبباً في كفرهم، فهذه اللام لام العاقبة، أو لام التعليل، أي إن هذه النعم التي ساقها الله لهم من بعد شدة، من بعد دعاء عريض، كانت هذه النعم سبباً في كفرهم وإعراضهم عن الله عز وجل .
فمن كان ينطوي على نفس راقية أخلاقية، إذا دعا الله متلهفاً فكشف الله عنه المصيبة، فهذا الإنسان يستحيي أن يعصي الله بعدها .

أطــع أمرنا نرفع لأجلـك حجبنا فإنا منحنا بالرضى من أحـبنـــا
ولــذ بحمانا و احتـم بجنابنـــا لنحميك مما فيه أشرار خـلقنـــا
وعن ذكـرنـا لا يشغلنك شاغـل وأخلص لنـا تلقَ المسرة و الهنـــا
وسلم إليـنـا الأمر في كل ما يكن فما القرب والإبعاد إلا بأمـرنـــا

***

(فَتَمَتَّعُوا)

تهديد ووعيد إلهي : فَتَمَتَّعُوا

هذا فعل أمر معناه التهديد، أي : افعلوا ما بدا لكم، افعلوا كل شيء، اعملوا ما شئتم، عش ما شئت فإنك

ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به .

(فَتَمَتَّعُوا)

انغمِسوا في الملذات، فهناك من تستهويه الشهوات، فيؤثِرها على القربات، وهناك من تستهويه وحول الدنيا، فيؤثِرها على جنات عرضها السماوات والأرض .

(فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

في آخر المطاف سوف يعلم الخاسر الحقيقة :

سوف تعلمون من هو الفائز، ومن هو الخاسر، من هو الذكي، ومن هو الغبي، من هو الشقي، ومن هو السعيد، من هو العاقل، ومن هو الأحمق، من هو المفلح، ومن هو المخفق، سوف تعلمون هذا عند الموت، عندما تواجهون ملك الموت، عندما يقول الإنسان :

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر : 24)

عندما يقول الإنسان :

(يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ)

(سورة الزمر : 56)

عندها يندم الإنسان، ولات ساعة مندم .

عندما يقول الله عز وجل :

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِي(25)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِي(26)يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ(27)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي(28)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِي(29)خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(30)ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(31)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ(32)إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ(33)وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(34)فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ(35)وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ)

(سورة الحاقة : 25 - 36)

(فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

كل مُتوقع آت، وكل آت قريب، ولا بد من ساعة تعرف الحقيقة، حينما أدرك فرعونَ الغرقُ قال :

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس : 90)

قال الله عز وجل :

(أَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة يونس : 91)

ماذا ينفع هذا الإيمان عند ساعة الموت ؟ ماذا ينفع نفساً إيمانها إن لم تكن آمنتْ من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، البطولة أن تؤمن في الوقت المناسب، لا أن تؤمن بعد فوات الأوان، البطولة أن تعرف جواب الامتحان قبيل الامتحان، لا بعد الامتحان .

(فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

لذلك فالمؤمنون :

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)

(سورة السجدة : 16)

لا يستمتعون بالدنيا، يخافون أن يركنوا إليها، يخافون أن تصبح مبلغ علمهم، ومنتهى أملهم .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إلا مَا قُدِّرَ لَهُ))

[أخرجه الترمذي]

فكلمة (تمتعوا)كما قال بعض المفسرين : فعل أمر يفيد التهديد

(فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

لا تركن إلى الدنيا، وانظر يوم توضع في كفنك، انظر إلى أنه لا بد من أن يكتب على ورقة النعي : وسيشيع فلان إلى مثواه الأخير، هذا هو المثوى الأخير، إن روح الميت ترفرف فوق النعش تقول : يا أهلي، ويا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرم، فأنفقته في حله وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة علي، لا تصل إلى هذا المأزق الصعب، لا تصل إلى هذه الساعة التي لا تنفع فيها الندامة .

(وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ)

(لِمَا لَا يَعْلَمُونَ)

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ

العبادة عن جهل وتقليد خسارة لصاحبها :

أي: لآلهة عبدوها من دون الله، لا يعلمون أنها تنفع، ولا يعلمون أنها تضر، ولا يعلمون أنها لا تنفع، ولا يعلمون أنها لا تضر، لا يعلمون عنها شيئاً، إلا أنهم وجدوا آباءهم يعبدونها فعبدوها .

(وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا)

لا يعلمون مطلقاً، لا يعلمون أنها تنفع أو لا تنفع، ولا يعلمون أنها تضر أو لا تضر، هذه الأصنام إن كانت من حجارة، أو إن كانت من لحم ودم، كلها أصنام .

(وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ)

يقدمون لهذه الأصنام القرابين، والأموال، ويعتقدون أن هذه الأصنام تمنعهم من الله عز وجل، أو تحميهم .

(تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ)

تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ

هذا افتراء، هذا كذب، هذه خرافة، كيف اعتقدت بها، لم لمْ تمحِّصها؟ لمَ لمْ تقف عندها؟ لمَ لم تتفحصها؟

(تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ)

ثم قال عزوجل :

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ)

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ

الله منزَّهٌ عن الولد :

يدَّعي المشركون أن الملائكة بنات الله، لذلك :

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ)

أي : ما أعظم شأنه .

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا)

(سورة الإسراء : 43)

هل هو بحاجة إلى ولد؟! هل هو بحاجة إلى بنات ؟!

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ)

الذكور لهم، والبنات لله عز وجل !!

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ

لا علاقة للزوجة بنوع الولد فكيف تلام على إنجاب البنات ؟!!

فاسوداد الوجه كناية عن الغم الذي أصابه، عن الغم الشديد، والحزن الشديد، ولو علم الزوج أن المولود ذكراً كان أم أنثى شيء تابع له فقط، ولا علاقة لزوجته به لاختلف الأمر .

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

(سورة النجم : 45)

من نطفة لا من بويضة، فالنطفة في نواتها تحمل مجموعة عُرا، العروة الأخيرة إما على شكل(X)أو على شكل(Y)، النطفة وحدها تحدد نوع المولود ذكراً كان أم أنثى، لذلك امرأة بدوية غضب منها زوجها لأنها تنجب البنات، فقالت :

ما لأبي حمزة لا يـأتينا يظل في البيت الذي يلينا

غضبان أن لا نلد البنينا تالله مـا ذلك في أيـدينا

و إنما نأخذ ما أعطينا ونحن كالأرض لزارعينا

ننبت ما قد زرعوه فينا

***

فهذا الذي يغضب إذا جاءه بنت هو أحمق، لأن تحديد نوع المولود جعله الله في الحيوان المنوي الذي منه .

البنات هبة من الله :

شيء الآخر، الله سبحانه وتعالى يقول :

(لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ(49)أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

(سورة الشورى: 49 - 50)

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)

حينما وُلدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم السيدةُ فاطمة ضمها إلى صدره، وتشممها وفرح بها، وبش لها، وقال:

((ريحانة أشمها وعلى الله رزقها))

[ورد في الأثر]

مخلوق وديع أكرمك الله به، تتأفف منه؟ يسودُّ وجهك؟ تتميز من الغيظ؟ ما ذنب هذه الزوجة؟ لا ذنب لها، ولا حيلة لها في ذلك .

قد تكون البنت أعظم بركة من الابن :

الآن في هذه الأيام إذا ولدت المرأة بنتاً لا أحد يتكلم مع هذه الزوجة، يعدُّون مَقْدَمَها شؤماً على زوجها، هذه جاهلية، وهذا جهل، وهذا بعدٌ عن الله عز وجل، وما يدريك أن الخير كله في هذه الفتاة؟ من يدريك؟ قال تعالى :

(فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

(سورة آل عمران : 36)

من أنجبت مريم؟ سيدنا عيس عليه الصلاة والسلام، ما يدريك أن الخير كله من هذه الفتاة؟ من هذه البنت؟ لذلك عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَا تُكْرِهُوا الْبَنَاتِ، فَإِنَّهُنَّ الْمُؤْنِسَاتُ الْغَالِيَاتُ))

[أحمد]

ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، ويغلبهن لئيم، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً، من أن أكون لئيماً غالباً .

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(58)يَتَوَارَى مِنْ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

هذا هو ردُّ فعل الرجل الجاهل الذي يولد له بنت :

يستحي من هذه البشارة .

(أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ)

لِمَ لمْ يقل الله عز وجل : أيمسكها، لأن هذه الهاء تعود على ما :

(يَتَوَارَى مِنْ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ)

من سوء الذي بشر به، فهذا الذي بشر به أيمسكه على هون؟ على مضض، أم يدسه في التراب ؟

ما ذنب البنت حتى تدفن حية ؟

تصور كيف كان العرب في الجاهلية، كيف كان أحدهم يئد ابنته وعمرها كعمر الزهور والريحانة، يقودها إلى أطراف المدينة، ويحفر لها حفرة، ثم يرديها فيها، ويهيل عليها التراب، أي قلب هذا ؟!

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ(8)بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

(سورة التكوير : 8 - 9)

ما الذنب الذي ارتكبته هذه الصغيرة حتى يئدها أبوها ؟ إن الظلم يهتز له عرش الرحمان سبحانه .

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ(8)بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

كان أحدهم يروي للنبي عليه الصلاة والسلام كيف وأد ابنته، فظل النبي يبكي حتى أخضل لحيته الشريفة، كانت هذه الفتاة الصغيرة تداعب ذقن أبيها، وتدغدغها له، فما كان منه إلا حفر لها حفرة، وأرداها فيها .

تحريم قتل الولد للفقر أو خشية الفقر :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا)

(سورة الإسراء : 31)

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)

(سورة الأنعام : 151)

من إملاق، أي : بسبب الفقر الواقع، فجاءت الآية :

(نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)

الآية الأولى :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ)

أي بسبب فقر متوقع، فجاءت الآية :

(نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا)

(أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ

هذا حكمهم، كيف هداهم النبي عليه الصلاة والسلام؟ قلوب أقسى من الصخر، كيف تعامل معها النبي صلى الله عليه وسلم؟ كيف نقلهم من الشقاوة إلى السعادة، من قسوة القلب إلى الرحمة ؟

(لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

الكافر بالآخرة له السوء من كل جوانبه :

فهذا الذي لا يؤمن بالآخرة لا يحسب حساباً ليوم الدين، ليوم الفصل، ليوم القيامة، ليوم الحق، ليوم الجزاء، عمله سيئ، أخلاقه سيئة، صفاته سيئة، عقيدته فاسدة .

(لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ)

المطلق على إطلاقه، سوء في كل شيء، هذا الذي لا يقيم للآخرة وزناً، ولا يحسب لها حساباً، ولا يؤمن بها، ولا يرجو لقاء الله واليوم الآخرة، له :

(مَثَلُ السَّوْءِ)

كله سوء ؛ عقله، وعقيدته، ومشاعره، وتصرفاته، وأعماله، وأقواله، وعلاقاته وشركته، وزواجه، وجيرته، له فيها كلها :

(مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى)

وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى

أما إذا كنت مع الله فأنت تسعد به، وترقى نفسك، ويرقى عقلك، ويصلح عملك، وتصح عقيدتك،

(لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى)

بعض العارفين بالله ناجى ربه فقال :

يا من تقاصر شكري عن أياديه وكل كل لسان عن معانيــه
وجوده لم يزل فرداً بلا شبهاً علا عن الوقت ماضيه و آتيه
لا دهر يخلفه لا قهر يلحقــه لا كشف يظهره لا ستر يخفيه
لا عد يجمعه لا ضد يمنعــه لا حد يقطعه لا قطر يحويــه
لا كون يحصره لا عين تبصره وليس في الوهم معلوم يضاهيه
جلاله أزلي لا زوال لـــه وملكه دائم لا شيء يضنيــه

***

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى)

الله لا يشبهه شيء :

كل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك، ليس كمثله من شيء، لا دهر يخلفه، لا قهر يلحقه، لا كشف يظهره، لا ستر يخفيه، لا عدّ يجمعه، لا ضد يمنعه، لا حد يقطعه، لا قطر يحويه، لا كون يحصره، لا عين تبصره، وليس في الوهم معلوم يضاهيه،

(لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

قل: سبحان الله تنزيهاً، وسبحان الله تمجيداً .

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

لو يؤاخذ الله عباده بما يفعلون ما بقي في الأرض حيّ :

خلقهم ليرحمهم، لو أنه أخذهم بذنوبهم، لو أنه حاسبهم على معاصيهم .

(مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ)

أي : لو أن الله عز وجل عجل للناس بالعقاب لأهلكهم جميعاً، ولكنه يمد لهم في العمر، وفي

الله يمهل عباده حتى يتوبوا :

الأجل لعلهم يتوبون، لعلهم يرجعون، لعلهم يستيقظون، لعلهم يصحون، هذه كلها من باب إعطاء مهلة للتوبة .

(وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

قال تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

(سورة طه : 129)

ما هذه الكلمة؟ أنه خلق الخلق ليسعده، فإذا عجل عليهم العقاب، أو أخذهم بذنبهم، لتناقض هذا مع خلقهم، ولكنه خلقهم ليسعدهم، لذلك يحلم عليهم، ويمدُّ لهم، يعطيهم فسحة من الأجل، ومهلة في العمر، يدعوهم، ويضيق عليهم، يسمعهم الحق لعلهم يرجعون .

قال تعالى :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة : 21)

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

إذا جاء الأجل انتهى كل شيء .

إن الطبيب له علم يدل بــه إن كان للناس في الآجال تأخيرُ

حتى إذا ما انقضت أيام رحلته حار الطبيب وخانته العقاقيــرُ

الموضوع العلمي : المُخيخ آية من آيات الله العظيمة :

أيها الإخوة المؤمنون، من آيات الله الدالة على عظمته أن الله عز وجل زودنا بجهاز تابع للدماغ اسمه المخيخ، فهناك المخ، وهناك المخيخ، وهناك البصلة السيسائية، وحديثنا اليوم عن المخيخ .

من منكم يصدق أن كتلة من الخيوط العصبية لا يزيد وزنها على 1240 غرام تقوم بدور خطيرٍ جداً، إذْ لو تخرب جزء من المخيخ لأصبحت حياة الإنسان مستحيلة، ماذا يفعل هذا المخيخ ؟ قال العلماء : إنه مركز توافق وانسجام لحركات البدن، فلو أننا خربنا مخيخ طائر لما أمكنه الطيران، ولسقط فوراً، ولو تخرب مخيخ الإنسان لما أمكنه أن يقف على قدميه، ولما أمكنه أن يرى بعينيه، أو يحرك يديه، ولما أمكنه أن ينطق بلسانه، ولما توافقت حركات اليدين .

إصابة المخيخ بمرض خطر على الإنسان :

قد يقول الطبيب لمن يشك أنه مريض في مخيخه: ضع إصبعك على أنفك، تأتي على خده، أو تأتي على وجنته، فلا يستطيع المريض أن يضع أصبعه على أرنبة أنفه، ولا يستطيع المريض أن يقرأ سطراً واحداً، بل عيناه تزيغان، وتتأرجحان، وتتذبذبان، لا تستقران على الكلمة .

التوازن في المخيخ :

أما أخطر شيء يقوم به المخيخ فهو التوازن، ففي أذن الإنسان الباطنية جهاز خطير اسمه جهاز التوازن، يتألف من ثلاث قنوات نصف دائرية، موضوعة حيث تغطي اتجاهات الفراغ كله؛ الاتجاه الأفقي، والعمودي، والمائل، هذه القنوات فيها سائل، هذا السائل يتحرك مع حركة الإنسان، فإذا كان الإنسان نائماً فالسائل يملأ هذا الفراغ، وإذا كان الإنسان واقفاً فالسائل يملأ الجذعين، فجهاز التوازن في الأذن الباطنية يعرف المخيخ بوضع الإنسان أهو نائم ؟ أهو مستلقٍ على ظهره، أم على بطنه، أم على جنبه، أم هو قاعد، أم هو مضطجع أم هو واقف، لذلك فالمخيخ يعطي أمراً للعضلات بتعديل الوضع

بحيث يبقى التوازن صحيحاً، ولا يمكن لمن تخرب مخيخه أن يركب دراجة، لأنه إذا مال ليس هناك من يصحح هذا الميل، المخيخ هو الذي يصحح هذا الميل، يأخذ المعلومات من جهاز التوازن في الأذن، وإن كان هناك مَيلٌ أعطى أمراً للعضلات، فتعدل هذا الميل بشكل صحيح .

يأتي الأمر من الدماغ مثلاً بإدارة قرص الهاتف، فالدماغ يقول لك: أدر هذا القرص، هذا هو الأمر من الدماغ، لكن المخيخ يقدِّر أن إدارة هذا القرص تحتاج إلى طاقة عضلية كذا، فتجد أن الإصبع تبذل جهداً يتناسب مع تحريك قرص الهاتف، لكن الدماغ إذا أمر بفتح باب سيارة، فالعلماء قالوا: إن فتح باب السيارة يحتاج إلى جهد يزيد أربعمئة مرة على جهد إدارة قرص الهاتف، وإذا أردت أن تقلب صفحة تبذل جهداً يتناسب مع وزن الورقة، ومع حجمها، لكنك إذا أردت أن تزيح كيساً من القمح فتحتاج إلى جهد كبير .

قمْ بمثل هذا العمل حتى تعرف عمل المخيخ :

ومن أجل أن تعرف عمل المخيخ بشكل دقيق امسكْ دلواً، ووضعه تحت صنبور ماء، وافتح الصنبور، تشعر كيف أن العضلة تزداد قوتها مع ازدياد الماء في الدلو، فكلما ارتفع الماء بذلت العضلة جهداً أكبر في حمل الدلو، فمَن الذي يحدد هذا الجهد ؟ إنه المخيخ، وكأن المخ مهندس معماري، أعطى الأمر الكلي، وكأن المخيخ مهندس مدني، ومهندس حسابات، هذا الأمر يحتاج إلى هذا الجهد، فلو تخرب جزء من المخيخ لا يزيد على حبة العدس لأصيبت العينين بالرجفان، هذا المرض اسمه الرقرقة، ولأصيبت الأطراف بالزيغان، فلا يستطيع المصاب أن يضع يده في المكان الذي يريده، ولأصيب النطق بالحبسة، والفافأة، والثأثأة، هذا كله من أعراض تخرب المخيخ، فهل نعلم ذلك ؟!

العلماء قالوا: إن انتصاب الرجل قائماً على قدميه حركة بهلوانية عجيبة، تسهم أجهزة كثيرة في تأمينها، أن يقف الرجل على قدميه، هل تستطيع أن توقف رجلاً ميتاً على قدميه ؟ لأن هذا الأجهزة تعطلت، فالإنسان يوجد في جسمه آيات لا يعلمها إلا الله، من هذه الآيات المخيخ .

معلومات كثيرة لا يتسع الوقت لذكرها، ولا يكون المقام مناسبًا لشرحها، ولكنّ أخْذَ القليل خير من ترك الكثير، هذه بعض آيات الله في هذا الجزء، فلو نظرتم إليه لرأيتم خيوطاً بعضها فوق بعض، وزنها مئة وأربعون غراماً تقريباً، إنه أخطر جهازٍ في الإنسان يحقق التنسيق بين العضلات، والحركات والسكنات، أن تقف على قدميك، وأن تصيب بيدك أي هدف تشاء، وأن تمسك كأس ماء دون أن ترجف اليد، هذا بفضل الله علينا، وما زودنا به من أجهزة حساسة فينا .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (14-21): تفسير الآيات 62 – 69 ، عن عدم إلحاق صفة لا تليق بالله ـ إبداع الخالق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-04-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع عشر من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمْ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمْ الْحُسْنَى

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمْ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمْ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمْ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ)

انظر إلى هذا التناقض الصارخ :

بعض العلماء قالوا :

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ)

أي: البنات .

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ)

أي: الشريك .

هل يرضى أحدهم أن يشركه أحد في ماله؟ لا يرضى، فكيف تنسب لله عز وجل آلهة أخرى تشاركه في تسير الأمور ؟

لا تنسب إلى الله ما تكرهه نفسُك :

وبعضهم فهم هذه الآية على إطلاقها، فأيّ شيء تكرهه كيف تنسبه لله عز وجل؟ أتعاقب أنت إنساناً يعمل معك من دون أن يقترف ذنباً؟ أتعاقبه بلا سبب؟ أتودي بأعمال طيبة قدمت لك طوال عمرٍ مديد، تودي بها وتعاقب صاحبها ؟

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ)

أتُكره أحدًا أمرته بأمر على مخالفته، ثم تعاقبه على ذلك ؟

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

(سورة النحل : 35)

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ)

مِن أنهم نسبوا الملائكة الذين هم عباد الله، نسبوهم إلى الله على أنهم بنات .

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

(سورة التوبة : 31)

أشركوهم في تدبير الأمور، كما أنهم يكرهون البنات، وكما أنهم يكرهون أن يشركهم أحد وأموالهم، أو أن الصفات التي يكرهونها بعرف عاداتهم وتقاليدهم، فكيف ينسبونها إلى الله عز وجل ؟

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ)

جعل الشريك لله نوع من الافتراء والكذب :

هذه الآية من الآيات البلاغية، بدل أن يقول الله عز وجل: ويقولون الكذب؛ أي يصف كلامهم نفسه بأنه كذب، كلامهم نفسه يصف أن مضمونه كذب .

(وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى)

ومع هذا فهم يدّعون أن لهم الحسنى في الآخرة :

يدّعون أن لهم الحسنى في الآخرة، هذا الذي يشرك بالله عز وجل، ولا يهتم بأمره، ولا يرجو ثوابه، ولا يخشى عقابه، يدّعي أيضاً أنه في الآخرة من أهل الجنة .

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ)

لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ

معنى : مُفْرَطونَ :

أي: إنهم يسارعون إليها، ومعنى: مُفْرَطون ؛ أنهم منسيون فيها، ومعنى: مُفَرِّطون؛ أي أنهم مهملون،

أفرط بمعنى أسرف، فرَّط بمعنى غفل، أو قصر، والقاعدة تقول: لا إفراط ولا تفريط، أي لا إسراف ولا تقصير .

أما:(مُفرَطون)هنا في هذه الآية فتعني أنهم يسارعون إلى النار، أو أنهم منسيون فيها، لأنهم تجاوزوا الحد المعقول، أو لأنهم قصروا في واجباتهم، فالمعانى كلها تستفاد من هذه الكلمة .

لا تنسب لله صفة لا تليق بجلاله :

إذاً: أيُّ صفة لا تليق بك فلا تنسبها إلى الله عز وجل، وأيُّ صفة تأبى أن تُنسب إليك فلا تنسبها إلى الله عز وجل .

بعضهم يقول : إن الله عز وجل يُدخل النار عبداً أفنى حياته في طاعته، يقول لك :

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)

(سورة الأنبياء)

أترضى لله عز وجل أن يكون عبداً من عباده يعبده طوال حياته، ويفني عمره في طاعته وفي التقرب إليه، وفي خدمة عباده، وفي الدعوة إليه، أيعقل أن يضعه في النار؟! أترضى لنفسك هذه الأخلاق، أين قوله تعالى :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

(سورة الزلزلة : 7 - 8)

ألا تكره أن ينسب إليك الظلم؟ أتقبل أن تكون ظالماً؟ فكيف تنسب الظلم إلى الله عز وجل؟ كيف تعتقد أن الإنسان منذ أن خُلقَ خُلق شقياً؟ وأن كل ما يفعله في الدنيا مكتوب عليه؟ وأن كل المعاصي مقدّرة عليه؟ ولا سبيل إلى تلافيها، وأن الله سبحانه وتعالى سيعاقبه على تقصيره، وعلى معصيته .

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال   له إيّاك إيّاك أن تبتل بالماء

***

وهل ترضى هذا لنفسك؟ هل ترضى أن ينسب لك، وأنت تعلم الطلاب أن أحد الطلاب قبل أن يدخل المدرسة اتخذت قراراً بترسيبه؟ فمهما بذل من جهد، ومهما عمل من وظائف، ومهما درس فلا بد من أن يرسب، هذه عقيدة الجبر، أي إن الإنسان مجبور على أعماله، ولا اختيار له فيها، فإذا اعتقدنا بهذه العقيدة فكأنما نسبنا الظلم إلى الله سبحانه وتعالى، لا بد من أن يكون في الحياة اختيار، لأن الله سبحانه وتعالى لو كان كذلك لكان إرسال الأنبياء عبثاً، وإنزال الكتب لعباً، وإن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولو أجبر الله عباده على طاعته بطل الثواب، ولو أجبرهم على معصيته فقد بطل العقاب .

سيدنا عمر رَضِيَ اللَّه عَنْه حينما جيء إليه برجل شارب للخمر، قال له : يا أمير المؤمنين، إن الله قدّر علي ذلك، فقال رَضِيَ اللَّه عَنْه : أقيموا الحد عليه مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأن افترى على الله .

لذلك قال تعالى :

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ)

إما أن نفهمها على أنهم جعلوا الملائكة بنات الله، يكرهون البنات، فنسبوا البنات إلى الله، أو أن نفهمها على أن الإنسان يكره الشرك، فكيف ينسبه إلى الله عز وجل ؟ أو نفهمها بشكل مطلق، هذه الصفة التي تكرهها، والتي تتبرأ منها، والتي تترفع عنها، كيف تسمح لنفسك، أن تصف الله بها ؟

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمْ الْكَذِبَ)

كلامهم يوصف بأنه كذب .

(أَنَّ لَهُمْ الْحُسْنَى)

في الآخرة .

(لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمْ النَّارَ)

مثل هؤلاء مصيرهم النار :

والله سبحانه وتعالى نفى مقولتهم، وأثبت مقولة أخرى :

(لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمْ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ)

يسارعون إليها، أو منسيون فيها، أو تجاوزوا الحد المعقول في العدوان والطغيان، أو قصروا عن واجباتهم، فاستحقوا دخول النار .

(تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ

الشيطان يزيّن أعمال الناس :

حينما يسمح الله للشيطان أن يزين للإنسان عمله السيئ يكون هذا العمل السيئ تعبيراً عن شهوة استحكمت فيه، وأن إخراج الشهوة خيرٌ من بقائها، فالإنسان يشتهي، ولكن هذه الشهوة لها مستويات، فإذا بلغت مستوى الإصرار كانت هذه الشهوة حجاباً بين الإنسان وبين الله، بين الإنسان والحق، بين

الإنسان والهدى، لذلك أحكم شيءٍ، وأنسب شيءٍ أن تخرج هذه الشهوة، من يتولى إخراجها ؟ يأتي الشيطان فيزين لمن استحكمت فيه شهوته، يزين له هذه الشهوة حتى تخرج منه عملاً يرى بشاعته، ويرى دناءته، ويعاقبه الله عليه، فلعل نفسه بعد هذا العقاب الأليم تصفو وتقبل، وكم من إنسان أصرَّ على شهوة، واستحكمت في قلبه، فجاء الشيطان فزين له شهوته، فانقلبت إلى عمل استحق عليه العقاب، ثم شفيت نفسه وطهرت، وأقبلت، وتابت، وصحت توبته .

(تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ)

تفسير هذه الآية :

هناك تفسيران لهذه الآية :

التفسير الأول :

هم يزعمون أن الشيطان وليهم في الدنيا، وكل إنسان بعيد عن الله عز وجل يتكئ على جهة في الأرض، ويقول لك: فلان بإمكانه أن يرفع شأني، وفلان بإمكانه أن يعطيني، وفلان يستطيع أن يضرني، فيتولاه، ويطيعه من دون الله، يواليه من دون الله .

(فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ)

فاليوم يا محمد هؤلاء الأمم التي تزعم، والتي زين لها الشيطان أعمالها تظن أن الشيطان وليها في الدنيا .

التفسير الثاني :

(فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ)

أي: معهم في النار، إما أن تكون هذه الولاية في الدنيا، يظنون أنه وليهم، في حين أنه لا ينفعهم ولا يضرهم، أو إن الشيطان معهم في جهنم .

(فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

كل شهوة محرمة يزينّها الشيطان :

ملخص هذه الآية أن الإنسان إذا أصر على شهوة محرمة، إذا اشتهاها إلى درجة الإصرار، يأتي الشيطان فيزين له عمله كي يفعله، كي تخرج هذه الشهوة إلى عمل، عندئذ تطهر نفسه منها بعد العقاب، وقد يتوب إلى الله عز وجل .

(وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ

القرآن يرفع الخلاف الذي وقع فيه الناس :

وهناك من اختلف على السيد المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، جاء القرآن الكريم ليبين الحقيقة، والموضوعات المختلف عليها في الديانات السماوية قبل الإسلام، الموضوعات التي اختلف الناس عليها قبل بعثة النبي العدنان ، هذه الموضوعات جاء بيانها في القرآن حداً فاصلاً لكل خلاف .

(وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

القرآن هدى ورحمة للمؤمنين :

الرحمة بمعنى التجلي الإلهي، فإذا قرأت القرآن تجلى الله عليك، وإذا أردت أن تحدث ربك فصلِّ، وإذا أردت أن يحدثك ربك فاقرأ القرآن .

يا موسى، أتحب أن أكون جليسك؟ فقال: يا رب، وكيف يكون ذلك؟ قال: أما علمت أني جليس من ذكرني، وحيثما التمسني عبدي وجدني .

(وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ)

وإذا وقعت خلافات لاحقة بين الأمم والشعوب، وبين الملل والنحل، وبين الفرق والمذاهب، وبين كل فئة تدعي أنها على حق، وتتهم أختها بأنها على باطل، هذه الخلافات يفصل الله سبحانه وتعالى بينها يوم القيامة، والقرآن الكريم، فضلاً عن أنه يبين الذي اختلفوا فيه فهو هدى .

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة : 38)

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه : 123)

(وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

مَن اتبع الهدى سعِد في الدنيا والآخرة :

الهدى استنارة عقلية، أما الرحمة فراحة نفسية، فهذا الإنسان المؤمن عقله مستنير، ونفسه سعيدة، وطيبة، هذه صفات المؤمن .

(وَهُدًى وَرَحْمَةً)

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

فلذلك، من أوصاف الله سبحانه وتعالى الجامعة المانعة لهذا الكتاب أنه هدى ورحمة، يهديك سواء السبيل، ويفسر لك ما في الكون، ويفسر لك التاريخ، ويفسر لك المستقبل، ويفسر لك الحوادث، ويعطيك لكل شيء محيرٍ تفسيراً، ويعرفك بالهدف من خلقك، ويعرفك بالمصير، ويعرفك بأثمن شيء تفعله في الدنيا، ويبين لك طريق السلام، طريق السعادة، طريق الطمأنينة، يبين لك وسائل الصحة النفسية، يبين لك التي هي أقوم هذا هدى، يبين لك كيف تكون علاقتك مع زوجتك، ومع أولادك، ومع أمك وأبيك، وإخوتك، وبناتك، وأصهارك، وجيرانك، شركائك، مع من هم فوقك، ومن هم دونك، مع من هم أضعف منك، ومع من هم أقوى منك .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا)

(سورة الإسراء : 9)

إعجازه في إيجازه .

(يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

لو قرأت القرآن تعرف كيف تعامل زوجتك، أما هذا الذي يطلقها لأتفه سبب، أو يحلف يمين الطلاق لأتفه سبب، فهذا لم يقرأ القرآن، والذي يُخرج زوجته من بيته عقاباً لها ما قرأ القرآن، وهذا الذي يبغي ويظلم ما قرأ القرآن، وهذا الذي يكذب، ويغش، ويحتال، ويكسب مالاً حراماً ما قرأ القرآن، لأنه :

(وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ

والآن تتوالى الآيات البينات التي توضح، وتذكرنا ببعض النعم الجليلة التي أنعم الله بها علينا، قال تعالى :

(وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

(وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً)

إبراز أهمية الماء بتقديم لفظ الجلالة إشعارا بالمنعِم :

فكلمة: واللهُ أنزل، لو قال الله عز وجل: وأنزل الله من السماء ماء ماذا تفيد؟ تفيد أن الله أنزل من السماء ماء، ولكن تقديم لفظ الجلالة على الفعل ليبرز أهمية النعمة، فهذا المطر الذي تتنعمون به، والذي أنبت لكم الزرع والزيتون، وأنبت لكم من كل الثمرات، وجعل الأرض مزدهرة بعد أن كانت هامدة :

(فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)

الماء حياة للأرض بعد موتها :

هذا الغيث ليس مُنخَفضاً جوياً متمركزاً فوق قبرص، وهو يتجه نحو سوريا، لا، بل هو مجرد سبب،

(فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)

هل رأيت هذه الحقيقة؟ تقديم لفظ الجلالة ليفيد التركيز على أن هذا الفعل من قِبَل الله عز وجل، من قِبَل الله وحده، تقديم الفاعل (الله)على الفعل (أنزل)، وليس هناك جهة أخرى تستطيع أن تفعل هذا الفعل.

(وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)

الأرض اليابسة، والأرض القاحلة، والأرض المقفرة، والنبات على وشك اليَبْس على وشك أن يموت، والحيوان محتاج إلى علف، والعلف متعلق بماء السماء، فكل الحياة متوقفة على هطول المطر، والمطر ينبت الكلأ، والكلأ طعام للماشية، والماشية طعام للإنسان، فحياتك متعلقة بالمطر، لأن الله سبحانه وتعالى جعل الرزق كله في المطر .

(وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)

ولذلك حينما تنزل أمطار من السماء تنزل معها دموع الفلاح فرحاً، لأنه ـ كما يقولون ـ حصّل على موسم طيب، والتاجر حينما تنزل أمطار السماء يفرح، لأن هناك قوة شرائية سوف تعود عليه بالنفع العميم .

بعضهم قال: إلا المرابي، هذا الذي له ربح ثابت يظن نفسه مستغنياً عن رحمة السماء، لذلك هو مقطوع عن رحمة السماء .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

السماع طريق من طرق الهداية :

فهي إشارة إلى أن السماع طريق من طرق الهداية، إما أن تفكر، وإما أن تعقل، وإما أن تسمع .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

(سورة ق : 37)

فأحد مظانّ المعرفة أن تحضر مجالس العلم، وأحد الطرائق إلى قلبك أن تلقي السمع، فالسماع باب واسع من أبواب الهدى، والتأمل والتفكر، وأن تعقل، وأن تدرس، ولكن السماع باب واسع من أبواب الهدى، لذلك قال الله تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأنبياء : 7)

(وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

إنزال الماء من السماء غاية في الإبداع :

لو فكرت بأن هذا المطر الذي ينزله الله من السماء هو إبداع، فكيف نسقي قطراً بأكمله؟ قد يأتي منخفض جوي يغطي سماء القطر بأكمله، وتنقلب هذه السحب إلى أمطار غزيرة كأفواه القرب، قد تسافر من أقصى البلاد إلى أقصاها، والأمطار تنهمر انهمارا، ما هذا الإبداع في الخلق؟ إن أرضاً يابسة جافة يأتي فوقها سحاب ينقلب إلى ماء غزير يحيي هذا العشب وهذا الزرع وهذه الأشجار المثمرة، واللهِ هذا من تصميم الله عز وجل، هذا من تخطيط الله عز وجل .

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ

نعمة الأنعام :

الأنعام المقصود بها الجمال، والأغنام، والشياه، والأبقار، هذه الأنعام الله سبحانه وتعالى سخرها لنا، نستفيد من كل شيء فيها ، هذه من نعم الله، الجلود، واللحم، والعظم، والشحم، والدهن، والأمعاء، والجمجمة وما فيها، والأحشاء وما إليها، والأصواف والأوبار، كل هذا نستفيد منه .

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً)

الأنعام مسخَّرة مذلَّلة مطواعة :

شيء آخر، أن هذه الأنعام كيف هي مسخرة لكم، مذللة لكم، مطواعة لكم، تقدم لكم كل ما عندها، وأن هذا الإنسان الذي سخرت له هذه الأنعام يعصي الله، ويأبى أن ينفذ أمره، ويستنكف أن يطيعه، ما هذه المفارقة الحادة ؟!

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً)

لماذا لا يكون الإنسان مطواعا وهذه صفة البهائم ؟!

أي: كونوا كالأنعام، طيعين لله عز وجل، كونوا في مستواها، بانقيادها إلى الله عز وجل، فتأبى نفسه أن يطيع الله، تأخذه العزة بالإثم، هذه الغنمة أشرف منك أيها المعرض، أيها الكافر، أيها الفاجر، أيها المنافق، أيها العاصي :

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً)

هناك آيات أخرى تتحدث عن الأنعام، قال تعالى :

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

(سورة يس : 72)

أخلاق الأنعام محببة، تبعث الأنس في البيت، لا تخيف، لو أن أخلاق الضبع ركبت في الغنمة، فكيف تأكلها؟ وكيف تذبحها، وأنت تخاف منها؟ عندئذ تهرب منها، بدل أن تمسكها لتذبحها وتأكلها تولّي هارباً منها، لو أنها اقتربت منك، لو أن أخلاق الوحوش الضارية ركبت في هذه الأنعام كيف تأكل لحمها؟ وكيف تسخرها؟ وكيف تنتفع منها ؟

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً)

هذا عطاء الله، لو أن لكل خمسة آلاف إنسان رأسًا من الغنم كل يوم، وهناك في الأرض ما يزيد على ستة آلاف مليون من البشر، لكان هناك أعداد من الغنم تفوق حد التصور، هذه كلها تذبح كل يوم، من سخرها؟ من جعلها تتوالد بهذه الطريقة العجيبة؟ من جعل كل ما فيها خيراً لنا، أصوافها وأوبارها وجلودها، وعظامها ولحومها وألبانها، وأحشاؤها، وجمجمتها، وكل شيء فيها، حتى ما تطرحه من فضلات يعد أسمدة من الطراز الأول .

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ)

بهذه الطريقة يخرج اللبن من الضرع !!!

وهذه من آيات الله المعجزة، وهذا الطعام الذي يأكله الخروف مثلاً، يأكل هذا الحشيش، أنت تعلم أن هذا الحشيش يهضم في المعدة، أو في الأحشاء، وهناك نظام الاجترار، لأنه يهضم، وينقلب إلى سائل، والأشعار الماصة التي في الأمعاء الدقيقة تمتصه فيصبح دماً، هل تستطيع أن تأكل الدم؟ حاش لله، والذي يبقى يصبح فرثاً .

الذي يخرج منه طيب، من أين جاء اللبن ؟

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ)

لا تستطيع أن تأكل الدم، ولا أن تنظر إلى الفرث، ويسقيك الله سبحانه وتعالى .

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا)

اللبن خالص لا يشوبه فرث ولا دم :

ناصعاً في بياضه، لم يأخذ حمرة الدم، ولا دكنة الروث، ناصعاً في بياضه، طيباً مذاقه ، عظيماً نفعه، إما أن تشربه حليباً، وإما أن تجعله لبناً، وإما أن تجعله جبناً، أو زبداً، أو تجعله سمناً، أو تجعل منه ألواناً منوعة من الأطعمة والأشربة من هذا اللبن الخالص، خلص من حمرة الدم، ومن دكنة الروث، هذا اللبن الخالص نعمة عظيمة أنعم الله بها علينا، هل تستطيع جهة في الأرض أن تأخذ الحشيش، وتصنع منه الحليب؟ القضية واضحة كالشمس، هذه البقرة التي أمامك، تأكل الحشيش، وتعطي الحليب، إنها معمل صامت، يعمل بصمت، لا يزعجك، لا يثقل عليك، ولا يحتاج إلى عمال، أو إلى أي شيء من هذا القبيل، تأكل الحشيش فتعطي الحليب، وبعض الأبقار تعطي في اليوم ما يزيد على أربعين كيلو غرامًا من الحليب، أما وليدتها فلا تحتاج إلى أكثر من اثنين كيلو من الحليب .

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)

الحليب غذاء كامل ففكِّر فيه حين تشربه :

يعد الحليب الغذاء الأكمل للإنسان، فالإنسان يستطيع أن يبقى على شرب الحليب طوال حياته، فيه من كل المعادن، ومن كل المواد الأساسية، البروتينية، والدهنية، والفيتامينات، والمعادن، وأشباه المعادن،

كله في الحليب الذي يخرج :

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)

فلما يشرب الإنسان كأس حليب، أو يتناول لبناً، أو جبناً، أو سمناً، أو زبدةً، أو قشدةً، يجب عليه أن يفكر في طعامه، لا أن يأكله كالبهيمة .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)

(سورة محمد : 12)

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا

ثم تأتي الآيات الأخرى لتحدثنا عن ثمرات النخيل، والأعناب، وما في النخيل من بلح وتمر، وما شاكل ذلك، والأعناب وأنواعها المنوعة التي تزيد على ثلاثمئة نوع .

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا)

التدرّج في تحريم الخمر :

أما كلمة سكر، أولاً : هذه الآية تعد أول آية فيها إشارة إلى أن الخمر شراب ليس حسناً، أول إشارة، بعدئذ قال الله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء : الآية 43)

ثم قال الله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة المائدة : 90)

لذلك جاء تحريم الخمر تدريجياً .

هل آية النحل هذه منسوخة ؟!

أول آية فيها إشارة إلى أن السَكر، كأن تقول: رشد، السُكر والسَكر، الرشُد والرشَد، رشْدٌ ورشَد، سكرٌ وسَكر، فالسَكر هو السُكر، والسُكر هو الخمرُ، فكان الناس يتخذون من الأعناب ومن ثمرات النخيل خمراً يشربونها، بعض العلماء قال: إن هذه الآية منسوخة بآية :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة المائدة : 90)

وبعضهم قال : لا، هناك من عدّها آية محكمة ليست منسوخة، حينما قال : السَكر يعني الشراب الحلو، فأنت إذا وضعت حبات التمر في وعاء فيه ماء، وشربته صباحاً فهذا شراب سكري، حتى إنه في بعض التفاسير ورد الخشافات، قد تصنع من هذه الثمرات الحلوة طبخاً لذيذاً طيب الطعم، حلو المذاق، فإذا عددت هذه الآية محكمة، فالسكر هو الطعام الطيب، وهو شراب طيب، أصله من ثمرات النخيل والأعناب، بعضهم قال : السكر على لغة أهل الحبشة هو الخل، والخل له فوائد جمة، وبعض الأطباء قالوا : يجب ألا تخلو حياة الإنسان يومياً من الخل، ومن البصل، ومن التفاح، لأن هذه المواد تذيب كل ترسبات دهنية في شرايين الإنسان، وبعضهم يقول: عمر الإنسان من عمر شرايينه، فهناك من يفسر السَكر هو الخل، وهناك من يفسر السَكر هو الشراب الطيب الطعم، الحلو المذاق، أو الطبخ، وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يضع بعض حبات التمر في وعاء ماء، ويشربه صباحاً، وكان عليه الصلاة والسلام يشرب العسل شربا لا لعقًا، إذ يذيب ملعقة عسل في كأس ماء، ويشربه صباحاً، يأتي ممدَّدًا لطيفاً، هيناً هضمه، ووقعه على المعدة خفيف، فكان عليه الصلاة والسلام يحب شربة العسل، فشربة العسل إن لم يكن شربة عسل فشربة من نقيع التمر أو نقيع العنب، فالشراب المصنوع من العنب، أو من التمر، أو الطبخ الحلو المذاق، أو الخل، هذه المعاني كلها مستنبطة من كلمة (سَكراً)على أن الآية محكمة، فإذا كانت إشارة إلى الخمر فالآية منسوخة بالآيتين الأخريين، وهي قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء : الآية 43)

المرحلة الثالثة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

وبعضهم قال : الآية موجهة إلى المشركين، أنتم أيها المشركون تتخذون من ثمرات النخيل والأعناب سَكراً، شراباً تشربونه يذهب عقولكم .

والقرآن كما يقول الإمام علي كرم الله وجهه حمَّالُ أوجُهٍ، أي كل هذه المعاني مستفادة من كلمة سكراً، لكن أوجه التفسيرات :

(سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا)

معنى ذلك أن السَكر ليس رزقا حسناً، مما يرجح أن تكون الآية تعني بالسَكر الخمر أنها ليست رزقاً حسناً .

إذاً: أيها المؤمنون، كلوا من ثمرات النخيل والأعناب، ولا تتخذوا منها سكراً، طبعاً في الآيات اللاحقة يتضح هذا المعنى :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

ثم قال تعالى :

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ(68)ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ

مملكة النحل آية تأخذ بألباب ذوي الألباب :

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقني في الدرس القادم إلى توضيح مملكة النحل، وما فيها من عجائب، فمملكة النحل يصح أن نسميها مملكة، لأن فيها نظاماً عجيباً يعجز عنه البشر، ويعجز البشر أن يطبقوه على نفوسهم، إنه نظام عجيب، وآيات محكمة، ودلائل باهرة على عظمة الله سبحانه وتعالى، فهذه النحلة أين تعلمت ؟ وفي الهندسة أشكالاً، منها شكل المربع، والمخمس، والمسدس، والسباعي والثماني، والتساعي، كل هذه الأشكال إذا ضممتها إلى بعضها يبقى فيما بينها فراغات بينيه، إلا الشكل المسدس، فإذا ضممته إلى بعضه صار قطعة واحدة، فالشكل المسدس هو الشكل الهندسي الوحيد الذي إذا جمعته إلى بعضه بعضا لا يبقى فيما بينه أي فراغ بين، فمن علم النحلة بيوت عسلها على شكل مسدس؟ من؟ الحديث عن الشمع، وعن الخلية وعن الملكة، وعن الذكور، وعن النحلات العاملات، والنحلات الحارسات، والنحلات الوصيفات، والنحلات اللاتي يأخذن كلمة السر، وعن النحلات المنظفات، ورحلة النحلة، وطريقة مصها لرحيق الأزهار، ورقص النحل، وعن نوع العسل، وعن اختلاف ألوانه، وعن أنواع شفائه، فإنه موضوع شيق جداً، وفيه أدلة واضحة على عظمة الله عز وجل، يكفي أن أذكر لكم أن كيلو غراماً من العسل هو حصيلة طيران طوله أربعمئة ألف كيلومتر، فلو أننا كلفنا نحلة واحدة أن تصنع لنا كيلو غرامًا من العسل لوجب أن تطير حول الأرض في خط الاستواء عشر دورات .

العسل دواء :

أيها الإخوة الأكارم، العسل إلى أن يكون دواء أقرب منه إلى يكون غذاء، بل إن العسل كما وصفه بعض العلماء صيدلية كاملة، ألم يقل الله عز وجل :

(فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاس)

هناك تفصيلات، وإشارات، وتوضيحات أسمعكم إياها في الدرس القادم فيما يتعلق بموضوع النحل والعسل، وليست العبرة أن نشتري العسل ونأكله، بل إن تفكرك في النحل، وفي طريقة صنع العسل هو وحده يقدم لك أكبر برهان على عظمة الله، وإذا فكرت في النحل، فقد حققت الهدف من خلقه من دون أن تأكله، فإذا أكلته كان نعمة يلزمك أن تشكر الله عليها، فأكل العسل شيء، والتفكر في عظمة خلق الله عز وجل شيء آخر .

الموضوع العلمي : الكرية الحمراء :

كما عودتكم في الدرس الماضي، هناك إخوة أكارم اقترحوا علي أن أعود إلى طريقتي السابقة في معالجة موضوع علمي في نهاية الدرس، ألزمت نفسي أن أعالج إن شاء الله تعالى في كل درس موضوعاً علمياً أذكره بشكل موجز في نهاية الخطبة في جامع النابلسي .

ماذا تعرف عن الدم ومكوِّناته ؟

موضوع اليوم كان عن الكرية الحمراء، من منا لم ير الدم، الدم معروف، وكل الحاضرين فيهم دم طبعاً، هذا الدم مؤلف من كريات، ففي الإنسان خمسة وعشرون مليون مليُون كرية حمراء، وفي الميليمتر المكعب ما يزيد على خمسة ملايين كرية حمراء، وقطر الكرية الحمراء سبع ميكرونات، وهذه الخلية الحمراء تصنع في مجموعة معامل، أبرزها نقي العظام، فحينما تشتري عظماً بلحمه، وتطبخ هذا العظم مع اللحم، ويأتي ابنك الصغير ليأكل لباب العظم، هذه الأسطوانة السوداء التي ينعم بها ابنك حينما يأكلها هي نقي العظام، هنا تصنع كريات الدم الحمر، وهذا المصنع يصنع في الثانية الواحدة اثنين ونصف مليون كرية، وهذه الكرية الحمراء تعمِّر مئة وعشرين يوماً، وبعدها تموت، وتجري مراسم الدفن في الطحال، فالطحال مقبرة للكريات الحمر، وفي كل يوم تجول ألف وخمسمئة جولة في الدم، تقطع في عمرها ألفاً ومئة وخمسين كيلومتراً، فالكرية الحمراء، التي قطرها سبع ميكرونات، والتي تعيش مئة وعشرين يوماً، تقطع في حياتها طريقاً طوله ألف ومئة وخمسون

كيلومتراً، وتنقل للأنسجة ستمئة لتر من الأوكسجين، أحياناً الإنسان يشعر أن يده نملت، أو تخدرت، يكون الدم قد قلّ وروده إلى الأنسجة، فيأتي الدم الذي يحمل الأوكسجين إلى الأنسجة والخلايا والأعضاء والأجهزة، وكل مكان في الجسم، وتأخذ هذه الكرية من ناتج الاحتراق غاز الفحم، وتعيده إلى الرئة ليخرج في الزفير، هذه العملية نقل الأوكسجين، وأخذ غاز الفحم، ولذلك سمّى العلماء كرية الدم الحمراء حمالاً لا يعرف التعب أبداً، منذ أن تلد إلى أن تموت .

تصنيع الكرية الحمراء :

الشيء الذي يلفت النظر أنه يتم صنعها من ثلاثة إلى خمسة أيام، فيها يجري تصنيع الكرية الحمراء، وكما قلت قبل قليل : مصانع الكريات الحمر في نقي العظام تنتج في كل ثانية واحدة اثنين ونصف مليون كُرية، وأنشط المراكز العمود الفقري، وبعدها ريش الصدر، وبعدها عظم القص، وبعدها تأتي عظام الأطراف، لكن الله سبحانه وتعالى لحكمة بالغة جعل لهذه المعامل معامل احتياطية، فلو أنها توقفت عن العمل يعود الطحال والكبد ليصنع كريات الدم الحمر، وفي أثناء عمل نقي العظام يصبح الطحال والكبد مستودعاً لكريات الدم الحمر، فإذا تلقى الكبد أمراً من الكظر بطرح كميات من الكريات في الدم، يأخذ من مخزونه، ويطرح في الدم، أما إذا توقفت المعامل عن العمل فينقلب الكبد والطحال إلى معملين يصنعان كريات الدم الحمر .

والشيء العجيب أن الإنسان فيه كمية دم محددة، فلو فرضنا أنه احتجم في هذه الأيام، أو أنه تبرع بالدم، خلال أربع وعشرين ساعة يعود الدم إلى حجمه الطبيعي، فأيّ آلية حصلت؟ وهناك مركز بالغ الحساسية يعمل على مراقبة الدم باستمرار، وهذا المركز موجود في الكليتين، فإذا نقصت كمية الدم عن حجمها الدقيق أرسل هذا المركز أمراً هرمونياً إلى معامل كريات الدم الحمر يحثها فيه على مضاعفة الإنتاج، وإذا زادت كمية الدم عن حدها الطبيعي، وارتفع الضغط، وكان الإنسان في حالة خطرة يصدر هذا المركز أمراً إلى معامل كريات الدم الحمر بتقليل الإنتاج، ولذلك أمرنا النبي عليه الصلاة والسلام أن نحتجم، لماذا؟ هناك أسباب كثيرة تحدثت عنها في خطبة سابقة .

موضوع الشقيقة، وموضوع آلام الرأس، وموضوع تميع الدم، وازدياد حجم الدم، وفي الحديث :

((مَنْ أَرَادَ الحِجَامَةَ فَلْيَتَحَرَّ سَبْعَةَ عَشَرَ، أَوْ تِسْعَةَ عَشَرَ، أَوْ إِحْدَى وَعِشْرِينَ، وَلاَ يَتَبَيَّغْ بِأَحَدِكُمُ الدَّمُ فَيَقْتُلَهُ))

[ابن ماجه عن أنس]

الحجامة و فقر الدم اللامصنع :

التبيّغ ثوران الدم، لكن السبب الرئيسي هو أنه كلما قلّت كمية الدم في الشرايين تنشطت المعامل، معامل الكريات الحمر، وهناك مرض خطير اسمه فقر الدم اللامصنع، وذلك أن الكليتين تتوقفان كلياً عن العمل، ويسمى هبوطًا مفاجئًا في وظائف الكليتين، كذلك يتوقف نقي العظام فجأة عن تصنيع الكريات من دون سبب، والعلماء إلى الآن لا يعرفون السبب، يقولون : هذا المرض مجهول السبب، فقر الدم اللامصنع، والنبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، أمرنا أن نحجتم في كل عام مرة أو مرتين، لأن نقص الدم في الشرايين يدعو مركز تعيير الدم في الكليتين إلى تنبيه المعامل لزيادة إنتاجها، وفي هذا تنشيط لها، وصيانة لها من الموت المفاجئ، ففي الحجامة صيانة، وتنشيط لمعامل نقي الدم، وهذا الذي قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((مَنْ أَرَادَ الحِجَامَةَ فَلْيَتَحَرَّ سَبْعَةَ عَشَرَ، أَوْ تِسْعَةَ عَشَرَ، أَوْ إِحْدَى وَعِشْرِينَ، وَلاَ يَتَبَيَّغْ بِأَحَدِكُمُ الدَّمُ فَيَقْتُلَهُ))

[ابن ماجه عن أنس]

والشيء الأساسي هو أن العلاقة واضحة بين الكلية وضغط الدم، يُقال: ارتفع معه الضغط فجأة، لأنه معه التهاب كلوي، فما علاقة التهاب الكلية بارتفاع ضغط الدم؟ لأن مركز تعير الدم موجود في الكليتين.

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلْ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة لقمان : 11)

ماذا فعلوا .

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

(سورة النمل : 88)

والله سبحانه وتعالى أمرنا أن ننظر في هذه الآيات فقال سبحانه :

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

(سورة الذاريات : 21)

أمراض الدم اختصاص كامل :

مرة وقفت أمام مكتبة فوجدت كتاباً يزيد حجمه على ألف صفحة، مكتوب عليه: أمراض الدم، قلت: سبحان الله! اختصاص كامل يعطى الإنسان أعلى درجة علمية، لأنه عرف طرفاً من أمراض الدم .

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

***

والآن يقول العلماء : كرية الدم الحمراء حينما تصنع تفقد نواتها، وهي الخلية الوحيدة التي تفقد نواتها، بينما أيّ خلية لا تعمل إلا بالنوية والنواة، والحكمة إلى الآن غير معروفة، والله سبحانه وتعالى دعانا إلى التفكر .

(فَلْيَنظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ(5)خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ)

(سورة الطارق : 5 - 7)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (15-21): تفسير الآيات 66 – 70 ، عن فوائد المخلوقات - أو فضل الله علينا أن خلق لنا المخلوقات

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-04-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس عشر من سورة النحل .

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ

في الدرس الماضي أشرت إلى أن الله سبحانه وتعالى وضع بين أيدينا آية دالة على عظمته، أننا نعتمد في غذائنا في الدرجة الأولى على الألبان ومشتقاتها، والألبان كما نرى بأعيننا نأخذها من الأبقار والأغنام، والإبل، في الدرجة الأولى من الأبقار والأغنام، وأن هذه الألبان كما قال الله تعالى تخرج :

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)

(سورة النحل : 66)

عجبًا لو وقفت عند تركيب الحليب :

فلو وقفنا عند تركيب الحليب لأخذتنا الدهشة، إذ أن واحداً وتسعين في المئة من وزنه ماء، وهذا الماء هو الوسط الذي تجول فيه المواد الغذائية، والمعادن، والفيتامينات، وأشباه المعادن، وما إلى ذلك .

شيء آخر، في الحليب مواد دسمة على شكل كريات صغيرة جداً عالقة في هذا الوسط، وإن وزنها النوعي يجعلها تطفو على سطحه .

وفي الحليب أيضاً مواد سكرية، فإذا أردت أن تحلي كأساً من الحليب تحتاج إلى سكر قليل لا إلى كمية كبيرة، وهذا دليل على وجود السكر الذي يعد من أرقى أنواع السكريات .

وشيء آخر، في الحليب مواد بروتينية، وهذه المواد مرممة للخلية، أربعة أو خمسة أنواع من المواد البروتينية موجودة في الحليب .

وشيء ثالث، هناك معادن، وفي مقدمتها الكالسيوم والفوسفور، ولا يخفى عليكم أن الكالسيوم ، وهو الكلس، وهو مهم جداً في بناء العظام والأسنان، لذلك ينصح للرضيع والحوامل أن يشربن الحليب، لعلاقته بترميم العظام .

شيء آخر، هناك فيتامينات مهمة جداً في الحليب، فتامين ـ آ ـ ب ـ س ـ د، وهناك غازات منحلة في الحليب، غاز الكربون، والأوكسجين، والآزوت، ويعد الحليب غذاءً كاملاً .

أما الشيء الذي يحير الألباب فكيف يتحول الدم إلى حليب، أولاً : ضرع البقرة الذي ترونه بأم أعينكم، لو شرحناه لوجدنا في داخله غشاءً سميكاً يقسمه قسمين بالتساوي، وكل قسم من هذين القسمين فيه غشاء عرضاني يقسمه قسمين، فضرع البقرة مقسم إلى أربعة أقسام بالتساوي، وكل قسم مُنْتَهٍ بحلمة مؤلفة من عضلات دائرية ملساء، تغلق الفتحة إغلاقاً محكمة، وبآلية عجيبة، تفتح هذه الحلمة الطريق ليخرج اللبن إلى الوعاء الذي نحلب فيه، ولكن السؤال الكبير كيف يصبح الدم حليباً ؟

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ)

انظروا فإنه يخرج : مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ

هذا الوعاء، أو هذا الحوض الذي في ضرع البقرة في أعلاه غدد ثديية، هذه الغدد مقسمة إلى فصوص، وهذه الفصوص مقسمة إلى فصيفصات، وهذه الفصيفصات مقسمة إلى كريات، كل كرة اسمها سنخ، هذا السنخ عبارة عن كرة محاطة بخلايا غشائية، هذه الخلايا محاطة بشعريات دموية، مهمة هذه الخلايا حتى هذه الساعة مجهولة تماماً، خلية تأخذ من الشعريات الدموية ما تشاء، وتفرز إلى حوض الكرة الحليب الذي يتجمع في أقنية تصب في ضرع البقرة، سنأخذه مساءً عن طريق حلبها، كيف يتم انتقال الدم إلى الحليب عند عقدة معقدة هي هذه الخلية الغشائية المتوضعة على غشاء السنخ، ومجموعة الأسناخ تؤلف الفويصص، ومجموعة الفوصيفصات، تؤلف الفصوص، ثم الغدة الثديية ؟ يا سبحان الله ! خلية غير عاقلة تستطيع أن تأخذ من الدم الفوسفور، والكالسيوم، والفيتامينات، والسكريات، والبروتينات، والمواد الدسمة، وتخلطها مع بعضها خلطاً محكماً، مع البكتريات والخمائر، وتصبها في حوض السنخ، وأحواض الأسناخ تتجمع في قناة تصب في حوض رباعي، يعد ربع ضرع البقرة، هذه آية من آيات الله سبحانه وتعالى .

كم هي كمية الدم التي يصنع منها الحليب ؟

أما السؤال الذي يطرح نفسه: كم هي كمية الدم التي يصنع منها الحليب ؟ لو حلبت البقرة مثلاً لتراً من الحليب، فكم لتراً في الشعريات من الدم حتى أنتج منه الضرع لتراً من الحليب؟ قال العلماء: من ثلاثمئة حجم إلى أربعمئة حجم من الدم تستطيع أن تصنع منها حجماً واحداً من الحليب، فإلى أن يمر ثلاثمئة

لتر من الدم في الشعريات المحيطة بالأسناخ حتى يصنع لترًا واحدًا من الحليب، هذه آية كبرى من آيات الله .

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)

متى يكف الضرع عن إخراج الحليب ؟

شيء آخر يدل على عظمة الخالق سبحانه وتعالى، حينما تولد البقرة، من ستة أيام إلى عشرة أيام يكف الضرع عن صنع الحليب، ويفرز الضرع مادة صفراء لزجة ذات قوام مر اسمها اللبأ، هذه المادة فيها كمية من المصول، واللقاحات، والمناعات، التي تملكها الأم ، وفيها مواد دسمة، ومكثفة، وفيها مواد بروتينية، من أجل أن تكون غذاء مكثفاً، ووقائياً للعجل في أول عهده بالرضاعة، فَيَدُ مَن التي أشرفت على صنع اللبأ، وأوقفت صنع الحليب؟ يقول العلماء : إن اللبأ يختلف في طبيعته وتركيبه الكيماوي اختلافاً كبيراً عن الحليب الطبيعي، اللبأ له رائحة قوية، وطعم يميل إلى المرارة، ولون أصفر محمر خفيف، ولزوجة عالية، ويحتوي على نسبة عالية من بروتينات المناعة، وبروتينات المصل، والأملاح المعدنية، بينما يكون الحليب الطبيعي سائلاً غير شفاف، أبيض اللون، أو ضاربًا إلى الصفرة، لا رائحة له، فاللبأ يناسب نمو الحيوان الرضيع، ويكسبه مناعة، وبعد الولادة بحوالي ستة أيام إلى عشرة تعود البقرة لإنتاج الحليب الطبيعي، فربنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)

الذي أريد أن أقف عنده أن حجماً واحداً من الحليب يحتاج إلى ثلاثمئة حجم من الدم، كل أربعمئة حجم، أو ثلاثمئة حجم من الدم يصنع منها حجم واحد من الحليب، فما هذا المصنع الذي أمام أعيننا؟ وما عظمة الخالق جل جلاله شأنه في تقديم هذا اللبن السائغ للشاربين؟ إنه آيه من آيات الله سبحانه وتعالى، يقول بعض العلماء: تعد الغدة الثديية المتطورة للبقرة المعمل الحيوي الذي يقوم بتكوين وإفراز الحليب، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، ولذلك فالبقرة الآن يزيد ثمنها على سبعين أو ثمانين ألف ليرة، لأنها تدر كل يوم من ثلاثين إلى أربعين كيلو غراماً من الحليب، إنه معمل قائم بذاته، تأكل الحشيش، وتقدم الحليب، والحليب وما أدراكم عن بنيته وتركيبه، أملاح، ومعادن، وأشباه معادن، وبروتينات، وفيتامينات، وغازات منحلة، وسكر، ودسم وماء، هذا كله من تخطيط الله سبحانه وتعالى، ومن خَلقه العجيب .

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)

كيف يُصنَع اللبن في ثدي البقرة :

فالشيء الذي لفت نظري في نشرة تمّ إعدادها في موضوع اللبن، وكيف يصنع في ثدي البقرة، يقول بعض العلماء : إن تحول الدم من مكوناته الأساسية، ثم طرحه في تجويف السنخ، ومنه إلى قنوات الحليب، ثم إلى حوض الغدة، ومنه إلى حوض الحلمة، ثم إلى الخارج عن طريق فتحة الحلمة، بطريقة ما غير معروفة تماماً، فكيف أن هذه الخلية، هنا شعريات دموية، وهنا أقنية للحليب، فكيف تأخذ من الحليب ما تشاء ؟ وكيف يتم تصنيع اللبن في هذه الخلية ؟ حتى الآن هذا غير معروف تماماً .

أيها الإخوة الأكارم، ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس : 24)

(فَلْيَنظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

(سورة الطارق : 5)

انظر إلى خلقك، وانظر إلى طعامك، تعرف نعمة الإيجاد، وتعرف نعمة الإمداد، نحن مخلوقون، ولكن مَن أمدّنا بهذه النعم التي لا تعد ولا تحصى؟ إنه الله سبحانه وتعالى، ألا ينبغي أن نطيعه؟ ألا ينبغي أن نسجد له؟ ألا ينبغي أن نحبه؟ ألا ينبغي أن نخلص له ؟

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا

التمر آية عظيمة :

أيضاً موضوع النخيل موضوع قائم بذاته، فهناك حقائق مذهلة عن النخيل، إن النخلة قد تعمر ستة آلاف عام، وإن ثمرة النخيل، وهي التمر فيها ما يزيد على ثمانٍ وأربعين مادة غذائية ومعدنية ، تكاد التمرة أن تكون صيدلية، فمن مواد سكرية، وفيتامينات، ومعادن وأشباه معادن، وأملاح، وما إلى ذلك، وإن التمر بطبيعة تركيزه الشديدة فإنه لا يقبل التلوث، فيه مواد مسكنة، ومهدئة وقابضة، وموسعة للشرايين، وفيه مواد تعين على حركة الأمعاء، ومواد تمنع النزيف، لذلك لما ربنا عز وجل قال :

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا(25)فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا)

(سورة مريم)

انتبه العلماء إلى أن الغذاء المثالي الذي ينتقل من فم المرأة التي توشك أن تضع إلى دمها في عشرين دقيقة، من الفم إلى الدم، مرت التمرة بالبلعوم، والفم، وبالمريء، والمعدة، والأمعاء الدقيقة، وامتصها الدم في أقل من عشرين دقيقة، وهذا التمر يعين على حركة الأمعاء، ويلينها، ويمنع النزيف، ويعين على تقلصات الرحم، ولذلك فربنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25)فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا)

(سورة مريم : 25 -26)

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

معنى : سَكَرًا

بينت لكم في الدرس الماضي كيف أن كلمة سَكر تحتمل معنيين، إما معنى الشراب المُسكر، أو ما فسره بعض العلماء من أنه الخل، أو أيّ شراب حلو الطعم والمذاق، إذا ألقينا بضع تمرات، أو عصير العنب في الماء وشربناه، فهذا ما تعنيه الآية، أما أن يكون مُسكراً فالآية منسوخة بقوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة المائدة : 90)

وإما أن هذه الآية فيها أول إشارة إلى أن الخمر ليس رزقاً حسناً .

(تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا)

فحينما وصف الرزق بأنه حسن إذاً هذا السَكر هو رزق ليس بحسن، فإذا حملنا معنى كلمة (سكراً)على أنه الشراب المسكر فالله سبحانه وتعالى جعل من هذه الآية إشارة أولية لطيفة إلى تحريم الخمر، وفي آيات لاحقة، إلى قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا)

(سورة النساء : 43)

وفي التحريم النهائي :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة المائدة : 90)

أما أن نعد السكر هو الخل، أو كل شراب حلو المذاق، فهذا تفسير آخر مقبول، ويرجح أن كلمة(سكرًا)هو الشراب الحلو المذاق الذي لا يسكر أن الله سبحانه وتعالى لا يمتن على عباده فيما حرم عليهم،

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا)

وإذا أردنا من معنى كلمة (سكرًا)الشراب المسكر، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يخاطب المشركين، أهل مكة، وكانوا يشربون الخمر ليلفت نظرهم إلى ثمرات النخيل والأعناب،

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

ثم قال تعالى :

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ

وحيُ الإلهام :

فالوحي هنا ليس بمعنى الوحي المعروف للأنبياء، إنما هو وحي الإلهام،

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي)

هذا ما تفيده الياء في قوله : اتَّخِذِي

هذه ياء المؤنثة المخاطبة، إذاً: النحلات العاملات هن المعنيات في هذه الآية، من يعرف ذلك ؟ من في عصر النبي عليه الصلاة والسلام يعرف أن من النحل ذكوراً، ومن النحل إناثاً، ومن النحل ملكة، وأن الملكة لها مهمة خاصة، والذكور مهمتها تلقيح الملكة، وأن النحلات الإناث هن المعنيات بهذا الخطاب ؟

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

إما أن يتخذ النحل تجاويف الأشجار خلايا له، أو كهوف الجبال خلايا له، أو يتخذ له بيوتاً خاصة يصنعها الإنسان :

(وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

وهذه هي خلايا النحل .

(ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ

لا يبحث النحل عن الرحيق إلا بعد استقراره في بيته :

والعلماء يقولون : إن النحل لا يبدأ بالبحث عن رحيق الأزهار إلا بعد أن يستقر في بيته، ولذلك جاءت (ثم)هنا بالترتيب على التراخي، بعد أن يستقر النحل في خليته، أو في تجاويف الأشجار، أو في كهوف الجبال، عندئذٍ ينطلق من هذه الأماكن، ليبحث عن رحيق الأزهار، إذاً :

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ(68)ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)

ماذا نعرف عن النحل عموما ؟ :

موضوعات عن النحل لطيفة، وقد أحصاها العلماء، ولكن لا سبيل إلى استقصائها في هذا الدرس، والنحلة كما يقول بعض العلماء : هي الحشرة الوحيدة التي تستطيع تخزين رحيق الأزهار من أجل الغذاء، فتنطلق النحلات العاملات من الخلايا، وتجوب الحقول والبساتين، من أجل أن تمتص رحيق الأزهار .

لا تقع النحلة على زهرة ممتصة الرحيق :

وأول ملاحظة أن هذه النحلة لا تقع على زهرة قد امتُص رحيقها، لأن النحلة التي امتصت رحيقها تترك أثراً أو علامة تشعر النحلة التالية أن هذه الزهرة قد امتص رحيقها، من أجل توفير الوقت والجهد.

كم تطير النحلة حتى تعطي العسل ؟

شيء آخر قاله العلماء: لكي تحصل النحلة على قطرة واحدة من الرحيق فإنها تضطر أن تزور من 500، إلى 1100 زهرة من أجل قطرة واحدة من الرحيق، وإذا أردنا أن نحصل على مئة غرام من الرحيق، فتحتاج النحلة إلى أن تزور مليون زهرة، أما من أجل أن نحصل على كيلو غرام واحد من العسل فتحتاج النحلة أن تطير مسافة تزيد على 400 ألف كيلو متر، فمحيط الأرض كلها 40 ألف كيلو متر، يجب أن تطير نحلة واحدة حول الأرض عشر مرات تبحث عن الأزهار من أجل أن تصنع لنا

كيلو غرامًا واحداً من العسل، والنحلة وهي تطير منطلقة إلى البساتين والحقول سرعتها تزيد على خمسة وستين كيلو متراً في الساعة، أما إذا عادت إلى الخلية محملة برحيق الأزهار عندئذٍ سرعتها لا تزيد على ثلاثين كيلو متراً، من يصدق أنها في طريق العودة تصنع العسل، وتفرز الخمائر من أحشائها، على مستودعات الرحيق، وتبدأ في صناعة العسل، وهي في أثناء الطيران في رحلة العودة ؟ والآن هناك بواخر تأخذ المواد الأولية من أستراليا، وتصنّعها في الطريق، وتتوجه البواخر إلى موانئ التصدير، ويعد هذا ذكاء بارعاً في هذه الدول المصنعة، أنها من أجل أن توفر الوقت والجهد ترسل معامل فوق البواخر، فتأخذ المواد الأولية من قارة، وتصنّعها في أثناء الطريق، و تبيعها في موانئ التصدير، أو موانئ الاستيراد .

يبدأ النحل إنتاج العسل في رحلة العودة :

هذه النحلة تبدأ بصنع العسل في رحلة العودة، من أجل توفير الوقت والجهد، وإذا كان هناك موسم طيب، فإن النحلة تدفع برحيقها عند باب الخلية إلى نحلة أخرى، وتعود أدراجها إلى الحقل، كي تستفيد من الوقت، وفي الخلية نظام رائع جداً .

أولاً : فيها ملكة مهمتها أن تبيض، وبيضها في اليوم بالمئات، بل بالألوف، وهذه الملكة تذهب إلى مكان الذكور فتلد الذكور، وتذهب إلى مكان العاملات الإناث فتلد الإناث، وتذهب إلى مكان الملكات فتلد الملكات، فمن أعلمها أن في بطنها ملكة؟ أو أنثى؟ أو ذكر؟ هذا من الأشياء التي تدعو إلى التأمل العجيب .

امرأة تحمل دكتوراه في الطب، لو أنها تزوجت، وحملت من زوجها، فهل تعرف نوع جنينها بنفسها ؟ لا، أما هذه النحلة الملكة فتعرف نوع المولود .

الملكة صاحبة حكمة فتنبَّه أيها الإنسان !!!

شيء آخر، للملكة حكمة، وهي أداة دفاعية، لا تستخدمها إلا في حالة واحدة، إذا قامت ملكة أخرى تنافسها على ملكها، ولا تلدغ الملكة الإنسان أبداً، ولا تلدغ أي جهة أخرى، لا تستخدم حمتها إلا في لدغ ملكة أخرى، ولها وصيفات، وقسم من النحلات العاملات موكل بخدمة الملكة، إذ تذهب هذه النحلات إلى أماكن الأزهار، فتأخذ غبار الطلع، وغبار الطلع غذاء دسم جداً، مفعم بالمواد البروتينية، تصب عليه رحيق الأزهار، وتعجنه، وتقدمه طعاماً ملكياً، نفيساً للملكة، هذه النحلات الوصيفات، وهناك نحلات حارسات لا تسمح لأية نحلة بدخول الخلية .

مجتمع النحل انضباط ونظام :

ولكل خلية كلمة سر، فلو أن في الحقول عشرة آلاف خلية نحل فلا يمكن أن تدخل نحلة إلى غير خليتها أبداً، عن طريق النحلات الحارسات اللاتي لا يسمحن لأية نحلة بدخول الخلية إلا إذا كانت النحلة تعرف كلمة السر .

هناك نحلات مهمتهن تجديد الهواء في الخلية، فإذا كان الجو صيفاً وقفت النحلات على باب الخلية، ورفرفت بأجنحتها، فنشأ تيار يدخل إلى الخلية، فيعدل من جوها، وإذا كان الجو بارداً وقفت هذه النحلات الموكلات بجو الخلية فأغلقت النوافذ من أجل الحفاظ على الحرارة .

هناك نحلات منظفات، أيّة نحلة عادت إلى الخلية قذرة تقتل، فجزاء القذارة عنده النحل القتل، وأيّة حشرة دخلت إلى الخلية تسحبها النحلات المنظفات إلى خارج الخلية، فإذا كانت الحشرة كبيرة، لا تستطيع النحلات سحبها إلى الخارج، تحيطها بطبقة شمعية، وتغلفها، وتمنع فسادها، وانتشار رائحتها الكريهة، إنه عالم قائم بذاته .

إذا عادت النحلة العاملة من حقل الأزهار، وكان حقل الأزهار يبعد عن الخلية خمسين متراً ترقص رقصة تعلم رفيقاتها بأن البعد لا يزيد على خمسين متراً، ومسافة مئتي متر لها رقصة خاصة، وكذا أربعمئة متر، وستمئة متر، فإذا كانت المسافة تزيد على خمسة كيلو مترات فهناك رقصة خاصة، إنها أداة إعلامية رائعة جداً .

والنحلة الطليعية تذهب إلى الحقول، وتكتشف بُعدها عن الخلية، وعندما تعود ترقص رقصة تحدد لبقية النحلات العاملات بُعْدَ حقول الأزهار عن الخلية .

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)

النحلة السيدة المهندسة البنّاءة :

شيء آخر، هناك نحلات مختصات، مهندسات بصناعة البيت الشمعي، مَن علم النحلة أن أنسب شكل هندسي هو الشكل السداسي؟ فلو كان الشكل دائرياً لتركت الدوائر فيما بينها فراغات بينية، ولو كان الشكل مستطيلاً، أو مربعاً لما كان بقوة الشكل السداسي، والشكل المربع والمستطيل يترك في أطراف الخلية مسافات كبيرة، أما الشكل الذي لا يدع فراغات بينية، ولا فراغات على أطراف الخلية فهو الشكل السداسي .

والشيء الأعجب من ذلك أن النحلات المهندسات حينما يبنين البيت السداسي تبدأ كل فرقة من النحلات المهندسات ببناء القرص الشمعي من طرف، أشكال مسدسة بالغة الدقة، وتجتمع النحلات

المهندسات فتلتقي على بيت سداسي نظامي، فإذا كان هذا بإمكان الإنسان فأنا مستعد للمناقشة، أيستطيع معلم كبير في البلاط أن يبدأ بلاط هذا المسجد من ذاك المكان، ومعلم آخر يبدأ من هذا المكان، ويلتقي المعلمان على بلاطة نظامية، ذات أبعاد متساوية ؟ هذا مستحيل، يبدآن من هنا فيقصان البلاط، و يبدآن من هناك فيقصان البلاط، أما أن يبدآ من هنا، وبلاط من هنا، ويجتمعان على بلاط نظامي فهذا شيء مستحيل، وهكذا تفعل النحلات العاملات، نحلات مهندسات، نحلات ومنظفات، ونحلات حارسات، ونحلات لكلمة السر، ونحلات للتهوية، ونحلات لتكثيف الرحيق، وهناك نحلات تأخذ الرحيق، وتطير به في الجو فتكثفه، لأن العسل يبقى محافظاً على قيمته، وعلى قوامه سنوات طويلة بفضل لزوجته، فلو كانت الرطوبة أكثر من ذلك لفسد العسل .

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ(68)ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا)

الآن النحلة مخيرة أن تأكل من كل الثمرات، من كل أنواع الأزهار، وتمتص رحيقها .

(فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا)

هنا الآية .

فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا

النحل تسير بتقدير وهدى إلهي دقيق :

الآن طائرة تحتاج إلى أجهزة اتصال، وإلى بوصلة، وإحداثيات، وأماكن بث، ومحطات بث في الطريق، هذه المحطات تعلمها في مكانها أجهزة بالغة التعقيد، موجودة في الطائرة، اتصالات لاسلكية مستمرة مع المطارات من أجل أن يحدد الطيار موقع الطائرة، عنده خرائط، وأجهزة ارتفاع، وأجهزة مساحة ، وبوصلة، ولاسلكي، واتصالات، ومحطات بث، وهو يحمل شهادات عليا، أما هذه النحلة إذا غابت الشمس، أو قبل أن تغيب، إذا ابتعدت عن خليتها عدة كيلو مترات، وكانت التضاريس منوعة، كيف تهتدي إلى خليتها؟ هذا يتم عن طريق هداية الله سبحانه وتعالى :

(فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا)

فالله سبحانه وتعالى ذلل للنحلة طريق العودة، اذهبي إلى حقول الأزهار، وعودي إلى خليتك في أمان الله .

(اسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ)

العسل أنواع وألوان مختلفة :

فهناك عسل أسود، وعسل بني، وعسل أصفر، وعسل قريب من اللون الأبيض، وعسل ذو لون زهري... وألوان ملونة، لكن العلماء اكتشفوا أن كل لون من ألوان العسل سببه اختلاف تربة الأرض، واختلاف رحيق الأزهار، و ربما كان كل لون يفيد في نوع ما من الشفاء أكثر من غيره .

(يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ)

العسل شفاء وعلاج فعّال :

هناك كتب كثيرة ألفت عن العسل شفاء، حتى إن بعض العلماء قال : العسل صيدلية كاملة، فالعسل قبل كل شيء وسط غير صالح لنمو الجراثيم، والبكتريات، والفطريات، فهو يقتل الجراثيم والفطريات، والبكتريات، لذلك جميع أمراض جهاز الهضم الإنتانية التي سببها الجراثيم، والتلوث، مثل الزحار، الدزنتري، وكل الأمراض المعوية الإنتانية علاجها بالعسل، وعندي صور لأمعاء فيها جراثيم بأعداد كبيرة جداً، وبعد يومين من تناول العسل اختفى معظمها، ومات، فالعسل بيئة قاتلة لكل الجراثيم، والبكتريات، والفطريات .

شيء آخر، العسل علاج لفقر الدم، فقر الدم متعلق بنسبة الخضاب في الدم، والإنسان الذي يشكو فقر الدم إذا تناول العسل ارتفعت نسبة الخضاب من سبع وخمسين بالمئة إلى ثمانين بالمئة، والعسل علاج للجروح .

حدثني طبيب جراح من كبار أطباء الجراحة قال لي : إذا جاءتني حالات عسرة من جروح متطورة، أفتح الجرح وأنظفه، وأضع فيه كمية من العسل، وهكذا تعلم في بريطانيا، أن الجروح المستعصية علاجها بالعسل، وربنا عز وجل قال :

(فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ)

العسل يعد شفاء لأمراض جهاز التنفس، القسم العلوي، وكل أنواع الحمى الراشحة وضيق التنفس، والربو ، هذا كله يعالج بالعسل، والعسل أيضاً علاج ناجع لأمراض الرئة، وجهاز التنفس القسم العلوي، الرغامى، والحَنجرة، وقسم سفلي، الرئتان، العسل يعد علاجاً فعالاً لأمراض جهاز التنفس، ذات القسم العلوي، وذات القسم السفلي، ويعد العسل غذاءً ضرورياً لمرضى القلب، لأن عضلة القلب

غذاؤها الفعال هو العسل، والمادة السكرية ذات الأداء العالي في الإنسان هي العسل، لذلك مرضى القلب محتاجون إلى أن يتناولوا العسل كل يوم، ويعد العسل علاجاً لأمراض المعدة والأمعاء، فيستطيع من يشكو الحموضة العالية في أمعائه، وفي جهازه الهضمي أن يأكل العسل، فتعدل الحموضة، وتمتص المواد المخرشة في جهاز الهضم، ويعد العسل أيضاً علاجاً لأمراض الكبد، يقي تشمع الكبد، ويعد منشطاً من الطراز الأول لوظائف الكبد، ويعد العسل علاجاً لأمراض الجهاز العصبي، فيه مواد مسكنة، ومن يشكو اختلاجات في أعضائه، واضطرابات، وتوتر عالٍ فالعسل فيه مواد مهدئة، ومسكنة، ويعد علاجاً لأمراض الجهاز العصبي، وهذا الكلام كله مأخوذ من علماء أجانب، لا يعرفون الله إطلاقاً، ولم يقرؤوا هذا القرآن أبداً، بل عن طريق التحليل، والدرس، والتجريب، والبحث .

العسل مرهم للجلد :

شيء آخر، يستعمل العسل كعلاج للأمراض الجلدية، على شكل مراهم، فبعض الدمامل، وبعض البثور، والتخرشات، وبعض الأمراض الجلدية يستخدم لها العسل كضمادات، ويعد العسل علاجاً فعالاً لأمراض العين، ولاسيما التهاب القرنية، وعلاجاً فعالاً لمرض السكر، مع أنه حلو المذاق، وفيه كمية سكر عالية جداً، إلا أنه لا يزيد مرض السكر خطورة، وعلاجاً فعالاً لاضطرابات طرح البول، أي اضطرابات الكليتين، وعلاجاً فعالاً للأرق، وأمراض الجهاز العصبي .

هل تعلم أن النحّالين ليس فيه حالة سرطانية :

أما الشيء الغريب أنه لم يثبت وجود حالة سرطان واحدة في النحالين، الذين يعملون في المناحل، وتفسير هذه الظاهرة عجيب، كأن العسل أيضاً له علاقة بمرض السرطان الخبيث، والعسل فوق كل ذلك علاج للأمراض النسائية، ففي أول الحمل تمر فترة صعبة جداً على الحامل، تقيؤ وغثيان، وانحطاط قوى، وتشاؤم، وكآبة، فيعد العسل في هذه المرحلة غذاءً فعالاً، وعلاجاً للأمراض الطبيعية التي تنشأ عقب الحمل مباشرةً، وهذا الكلام تفسير لطيف، وسريع لقوله تعالى :

(يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ)

ويبدو أن النبي عليه الصلاة والسلام من كلمة (شراب)كان يحب شرب العسل على لعقه، فكان يضع لعقة عسل في كأس ماء، ويذيبه، ثم يشربه،

(ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

لا يزال العلم لم يكشف الحقيقة الكاملة للعسل :

وهناك علماء ربطوا بين اختلاف ألوان العسل والشفاء، فبينوا أن العلم لا يزال قاصراً عن معرفة طبيعة كل لون في فعالية الشفاء، وكل لون من العسل له خاصة دقيقة في الشفاء، وهذا لا يزال رهن البحث، وكلمة :

(فِيهِ شِفَاءٌ)

لو أن الله سبحانه وتعالى قال : فيه الشفاء للناس، معنى ذلك أي مرض علاجه العسل، هذا كلام غير علمي، فربنا عز وجل جعلها نكرة، فقال :

(فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ)

والشفاء نكرة لا تعني الشمول هنا، بل تعني أن هناك أمراضاً كثيرة جداً يعد العسل علاجًا لها .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

هذا كلّه آية لمَن تفكّر :

موضوع النحل، ومملكة النحل، ونظام النحل، وخلايا النحل، وبيوت النحل، وأنواع النحلات العاملات، وطريقة جني الرحيق، وطريقة صنع العسل، وطريقة نظام الخلية، هذه كلها آيات دالة على عظمة الله سبحانه وتعالى، ألا ينبغي أن نفكر فيها ؟

واللهِ الذي لا إله إلا هو ما تكلمت من موضوع العسل إلا النزر اليسير، فأنا أعلم، وعندي مراجع أوسع بكثير من هذا الذي قلته، فطبيعة المقام لا تحتمل أكثر من هذه التفصيلات، ولكن هناك كتب موسعة جداً إذا قرأتها تخر لله ساجداً، ما هذا؟ إنها من آيات الله الكبرى :

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ(68)ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)

(ثم) وحدها تعني أن النحل لا ينطلق إلى جني الرحيق قبل أن يستقر في خلية .

(أَنْ اتَّخِذِي)

وبعد ذلك :

(كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)

ولأنها تأكل من كل الثمرات يأتي العسل مختلف ألوانه .

(فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا)

هذه آية كبرى، كيف تهتدي النحلة إلى خليتها؟ هذا ما يزال هذا سراً، ولا يعرف علماء الحيوان كيف تهتدي هذه النحلة إلى خليتها، وقد ابتعدت عنها عشرات الأميال، وهناك حقائق تقول : قد تبتعد النحلة عن خليتها خمسة وعشرين كيلو متراً، أو أكثر، فكيف تهتدي إليها إنسان عاقل ؟ وقد يضيع الجغرافي في الطريق .

(فاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

تفكروا في هذه الآية، اقرؤوا عن النحل، سبحوا الله سبحانه وتعالى، مجدوه، عظموه، خروا له ساجدين، أطيعوه، إذا فكرتم في النحل فقد حققتم الهدف من خلق النحل، ولو لم تذوقوا العسل، وإذا أكلتم العسل كل يوم، ولم تفكروا في النحل لم تحققوا الهدف من خلق النحل، في الدرجة الأولى يجب أن نعرف الله من خلال النحل، لأن النحل آية كبرى من آيات الله .

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ

نعوذ بالله من أرذل العمر :

نعوذ بالله من أن ندرك أرذل العمر، شيء لا يحتمل، حينما يخرف الإنسان، وتضعف قواه، يصبح في الحياة الاجتماعية هامشياً، ويسخر الناس منه، وتسوء علاقته مع أهله، ومع أولاده، ومع زوجته، وينبذه أهله، يخرف، ويتكلم كلاماً لا يحتمل .

قال لي أحدهم: والله والدتي أضعها على سرير، وأربط يديها نحو عنقها، قلت له: لماذا؟ قال: لئلا تأكل من فضلاتها، هذا أرذل العمر، أن يأكل الإنسان من نجسه .

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ)

عليكم بالقرآن والعلم لتتمتعوا بخريف العمر :

لذلك من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، لأنه ضمانة من الخرف، فأكبر ضمانة من الخرف أن تتعلم القرآن، من أراد ألاّ يُرَدَّ إلى أرذل العمر فليتعلم القرآن، وليحفظ الله في جوارحه .

أحد العلماء عمر سبعة وتسعين عاماً، وكان متمتعاً بقوته، وسمعه، وبصره، وذاكرته وأسنانه، وقوامه، فكلما سئل عن هذه الصحة يقول : حفظناها في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً،

عاش قوياً، ومن أجل ألاّ نُردَّ إلى أرذل العمر يجب أن نطيع الله طاعة تامة، ومن أجل ألا نَخرف يجب أن نتعلم القرآن، وأن نحفظه، فمن تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت .

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (16-21): تفسير الآيات 70 – 78 ، عن قدرة الله
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-05-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السادس عشر من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي، أو في الدرس قبل الماضي إلى قوله تعالى :

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا

الله سبحانه وتعالى يقول :

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ)

خَلقٌ ثم موت :

خُلقنا على هذا الشرط، خُلقنا على هذه الدنيا، ولابد من أن نموت، فالموت هو مصير كل حي، فالعاقل هو الذي يعد للموت عدته، والأحمق الذي هو ينسى هذه الساعة التي وعدنا الله بها .

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ)

نسيان الموت سببٌ للطغيان :

متى يطغى الإنسان؟ ومتى يتجاوز الحدود؟ ومتى يأخذ ما ليس له؟ ومتى يستعلي على عباد الله؟ حين ينسى هذه الساعة، حينما ينسى ساعة الوفاة، فتأخذه العزة بالإثم، حينما ينسى أنه لابد من أن يقف بين يدي الله عز وجل، ليحاسب عن كل صغيرة وكبيرة، حينما ينسى يطغى، بئس العبد عبد سها ولها، ونسي المبتدى والمنتهى، نسي كيف كان نطفة، خرج من عورة، ونسي كيف كان مخلوقاً ضعيفاً لا يعلم شيئاً، وكيف أن الله عز وجل أكرمه بأبيه وأمه، ولولا هذا النظام لما عاش مخلوق، بئس العبد عبد طغى، وبغى، ونسي المبتدى والمنتهى .

الله كتب الموت على الجميع :

الله سبحانه وتعالى خلقنا، ثم يتوفانا، فالوفاة لابد منها، قال تعالى :

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

(سورة الزمر : 30)

وقال سبحانه :

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

(سورة آل عمران : 144)

فالنبي يموت، والرسول يموت، والغني يموت، والفقير يموت، والقوي يموت، والضعيف يموت، والصحيح يموت، والمريض يموت، وكل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت .

الليـــل مـهما طـــال فلابـــد مــن طلــوع الفجر

والعمـر مـهما طـــال فلابـــد مـن نـــزول القبر

***

كل ابن أنثى و إن طالت سلامتـه يوماً على آلةِ حدباءَ محـمولُ

فإذا حملت إلى القبـور جنـــازة فاعلم بأنـك بـعدها مـحمـولُ

***

هذه الساعة فكر فيها، وأنا أضمن لك الاستقامة ؛ لأنك إذا فكرت في ساعة رهيبة تترك كل شيء، وتوضع تحت التراب، تحت الثرى، ويأتي الملكان ليسألانك : مَنْ ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وماذا فعلت؟ لِمَ فعلت؟ ولِمَ لم تفعل ؟

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ))

[أخرجه الترمذي والدارمي]

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر : 92 - 93)

لذلك :

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ)

الوفاة حق، والموت حق، والبرزخ حق، وعذاب القبر حق، وأن يكون القبر روضة من رياض الجنة حق، والصراط حق، والجنة حق، والنار حق، والبعث حق ؛ بعث الناس يوم القيامة حق .

من الناس مَن يصل إلى أرذل العمر :

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ)

أيْ : بعضكم :

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ)

نعوذ بالله من أرذل العمر، ينحني ظهره، ويضعف بصره، تضعف قواه، وتضعف ملكاته، ينسى علمه، ينسى خبرته، يرتد إلى عقلية الأطفال، يعيد القصة آلاف المرات، يحشر أنفه في كل شيء، يذم كل الناس، يغتابهم، يصبح عبئاً ثقيلاً عليهم، ينبذه أهله، يتأفف منه محبّوه، يتمنى الناس موته .

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ)

قد يخرج من بيته ولا يستطيع أن يعود إليه؛ يضيع كالطفل الصغير، قد لا يستطيع أن يبقى نظيفاً، فيزعج أهله، فيوبخونه، ويقرعونه، ويتمنون من أعماقهم أن يخفف الله عنه، يصبح عبئاً ثقيلاً في البيت.

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ)

وقد تتطاول عليه زوجته، وقد يتطاول عليه ابنه، أو جيرانه، أو من حوله، أو قد يموت في بيت، وهو وحيد، فتفوح رائحته .

قال لي أحد الإخوة الأكارم، وقد دخل على رجل توفي في بيت، ومضى عليه أيام عدة: ما من رائحة على وجه الأرض أنتن ولا أبشع من رائحة الإنسان إذا مضى عليه أيام ولم يوسد في الثرى .

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ)

مَن حفِظ حدود الله في الصغر حفظه الله في الكِبَر :

كلمة (مِنْ)هنا للتبعيض، ومعنى كلمة التبعيض أنّ بعض الناس يردون إلى أرذل العمر، لكن مَن عرف الله في شبابه متعه الله في خريف عمره، من حفظ الله في صغره حفظه الله في كبره، من عاش تقياً، عاش قوياً ؛ متعه الله بعقله، وبسمعه، وببصره، وبقوته، وبصحته، وبأجهزته الهضمية، والإفرازية .

سئل أحد الصالحين: "ما هذه الصحة يا سيدي؟ قال: " يا بني، حفظناها في الصغر، فحفظها الله لنا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً " .

من خلال تجاربي الشخصية؛ ألتقي أحياناً بعض الأشخاص، أحدهم عمره خمسة وتسعون عاماً، أجرى فحوصاً شاملة على كل أجهزته، فكانت جميع الفحوص جيدة، قال لي: وَاللَّهِ لا أعرف الحرام في

حياتي؛ لا عرفت الحرام من طرف النساء، ولا من طرف المال، ما كسبت درهماً حراماً، ولا أعرف غير زوجتي، خمس وتسعون سنة أجريت له الفحوص، وأولاده ميسَّر حالهم، فحوصه كلها جيدة، وفي الدعاء الشريف عن النبي :

((وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا))

[الترمذي عن ابن عمر]

الأعمال الصالحة، الصدقات، غض البصر، إنفاق المال، حضور مجالس العلم، أن تجلس على ركبتيك ساعة أو أكثر ابتغاء وجه الله، لا تبتغي من مجيئك إلى هنا لا درهماً، ولا ديناراً، ولا وظيفة، ولا شيئاً، ولا بيتاً، ولا مكانة، ولا شيئاً، لا تبتغي شيئاً من الدنيا إطلاقاً، تبتغي وجه الله فقط، بذل هذا الجهد، والحرص على طاعة الله، أتكون كغيرك من الناس؟ لذلك ربنا عز وجل قال :

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ)

حدثني أخ كريم قال لي: له قريبة من سنوات أصيبت بشلل كامل، ثم ضعف تفكيرها، وخرفت، قال لي : نضعها على السرير، ونربطها بالحبال، قلت له: لماذا؟ قال : لكي لا تأكل من نجسها .

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

يجب على الإنسان ألاّ يتجاوز الحدود، وألاّ يعتدّ بقوته وهو شاب، وألاّ يتجاوزْ حقوق الله عز وجل، وألاّ يستعلِيَ على الناس .

قبل ثلاثين أو أربعين عاماً حدثني رجل فقال: إن شخصاً وصل إلى مراتب علية، خرج من بيته، ولم يعد، فاتصلت زوجته بأقسام الشرطة، عثر عليه في أحد أحياء دمشق الجنوبية تائهاً، ضائعاً، كالطفل الصغير .

بالمناسبة أنا أضمن لكم، لأن النبي عليه الصلاة والسلام هكذا قال ؛ قال :

((مَن جمَع القرآن متعه الله بعقله حتى يموت))

[الجامع الصغير عن أنس]

إذا أردت أن تتمتع بعقلك كاملاً، أن تبقى إلى آخر ثانية في حياتك، وأنت قوي الشخصية، مرغوبَ الجانب معززاً، مكرماً، مبجلاً، محترماً من كل الناس، فتعلم القرآن الآن، فمن تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، ولا يحزن قارئ القرآن .

(لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا)

ينسى الطبيب أنه كان طبيباً، ينسى أنه كان يحمل شهادة عالية، ينسى أن كان له كتُب، وقد كان لي قريب وصل إلى أعلى مستوى، بقي قبل موته محجوزاً في غرفة سبع سنوات، لم يُسمح لأحد أن يدخل عليه، لأن منظره لا يطاق .

(إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ(70)وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ

الناس متفاضلون في الرزق :

انظر كيف فضّلنا بعضهم على بعض في الدنيا، فهذا إنسان له رزق محدود، قد يكون أقل من حاجته بكثير، قد يكون أقل من حاجته بقليل، قد يكون مساوياً لحاجته، قد يزيد على حاجته قليلاً، قد يزيد عن حاجته كثيراً، قد يأتيه رزق لا يستطيع أن يحصيه، إن قارون كان غنيا، وهو من قوم موسى، فإياكم أن تظنوا أن هذه مَكرُمة ..

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ(76)وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص : 76 - 77)

المفاتيح فقط ؛ سبعة رجال أشداء لا يستطيعون رفع مفاتيح خزائنه .

(إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ(76)وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ)

إذاً :

(وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ)

التفضيل في الرزق لحكمة ربانية بالغة :

لكن هذا التفضيل وفق حكمة بالغة، " إن من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر، فإذا أغنيته أفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلح له إلا الغنى، فإذا أفقرته أفسدت عليه دينه " .

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ(15)وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

(سورة الفجر : 15 - 16)

في الدنيا يقول بسذاجة، بجهل، بعد علم، يقول :

(رَبِّي أَكْرَمَنِ)

لا، ليس هذا إكراماً ؛ لأن الدنيا منقطعة، الدنيا تنتهي بالموت، فيستوي فيها الغني والفقير، والقوي والضعيف، والصحيح والمريض، ليس هذا إكراماً ! هو يقول ذلك، معظم الناس يقول لك: الله عز وجل أكرمني، الله امتحنك، وما أكرمك، امتحنك بالمال، إذا أنفقته في طاعة الله؛ عندئذٍ ينقلب المال إكراماً .

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ(15)وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ)

ضاق دخله، يشعر أنه مهان، لا . عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا، فَقُلْتُ : لَا يَا رَبِّ، وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا، وَأَجُوعُ يَوْمًا، فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ حَمِدْتُكَ وَشَكَرْتُكَ))

[الترمذي وأحمد]

من رحمة الله بنا أنه يقلّبنا بين الغنى والحاجة، بين الصحة والمرض، بين الراحة والتعب، بين الطمأنينة والقلق، بين الخوف وعدم الجزع، كلما غفلنا جاءت المنذرات، لذلك : " كلا ليس عطائي إكراماً، ولا حرماني امتهاناً، إن عطائي ابتلاء، وحرماني دواء "، إياك أن تظن أن العطاء إكرام، إلا في حالة واحدة، إذا أنفقت هذا المال في طاعته، كان المال ابتلاءً، فصار إكراماً .

(وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ)

فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ

هل يسوِّي الحُرُّ نفسه مع العبد فيشركه في ماله ؟!!

هؤلاء الذين أعطوا من رزق الله، هل يعطون أموالهم لعبيدهم :

(فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ)

أيساوون أنفسهم مع عبيدهم؟ لا، فكيف أنتم أيها العباد تجعلون من عدة أصنام آلهة، وتسوونها برب العالمين، أيرضى الله ذلك؟ أيرضى أن يكون مخلوقه شريكاً له في الملك؟ لو أن أحدكم له محل له قيمة كبيرة جداً، وعنده موظف يعطيه أجراً محدوداً أيقول : هذا المحل بيني وبينك مناصفة؟ من يفعل هذا ؟

(فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ)

أنت لا ترضى أن تشرك خادمك، أو عبداً لك مملوكاً بمالك، فكيف ترضى أيها الإنسان أن تجعل لله

شركاء من مخلوقاته؟ إن كنت أنت لا ترضى فلا تعتقد هذا الاعتقاد .

(وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

الله عز وجل ضرب مثلاً يستنكره الإنسان، الإنسان يستنكر أن يكون عبده شريكاً له في ماله، فكيف ترضى لله أن يكون مخلوق له شريكاً له في ملكه؟ إن كنت أنت لا ترضى، فكيف ترضى لله ذلك؟

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ)

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً

الزوجة من الإنس نِعمة من الله عظيمة :

هذه نعمة كبرى من نعم الله، هذه الزوجة التي هي أم أولادك من بني البشر، إنك تفكر، وهي تفكر، وهي تحس، وهي تدرك، لك عاطفة، ولها عاطفة، لك حاجات، ولها حاجات .

(مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

لو أن الله عز وجل جعل الزوجة من طبيعة دنيا، يضعون في المحلات التجارية هياكل لبيع الأقمشة، هل ترضى أن تكون لك زوجة من هذا النوع؟ شمع، بلاستيك، هل ترضى؟ تكلمها لا تكلمك، تسلم عليها تبقى صامته، تسألها لا تجيب، تأمرها لا تطيع، أليس هذا إكراماً من الله عز وجل؟ أن جعل لك الزوجة من طبيعتك، تسألها فتجيب، تحسن إليها فتشكر، تفكر، تشاركك مشكلاتك في الحياة، تبثها همك، تنقل لها طموحاتك، تعينك على متاعب الحياة، تنسيك متاعب النهار، أليس هذا من نعم الله عز وجل؟ الإنسان المؤمن إذا دخل إلى البيت، ورأى زوجته لا يسعه إلا أن يشكر الله عز وجل على أن أكرمه بزوجة، وكم من البشر لا يستطيع أن يتزوج، إما لعلة فيه، أو لضيق ذات يدٍ، أو لعدم وجود بيتٍ، فأسأل الله جل جلاله أن يهب لكل أعزب بيتاً، وزوجة صالحة، تسره إن نظر إليها، وتطيعه إن أمرها، وتحفظه إن غاب عنها، فلا تتكبر كثيرًا، هذه نعمة وقد تفقدها، أو قد تصاب الزوجة بمرض، إلى من تشتكي؟ حينما خطبتها كانت سليمة من كل عيب، ومرضت عندك .

قال لي رجل: منذ خمسة عشرة عاماً لا أستطيع أن أنام الليل، لنوبات حادةٍ تصيب زوجتي، أصبح وزنها عشرات الكيلو غرامات من شدة الآلام، ماذا يفعل بها؟ فإذا كانت لك زوجة معافاة فلا تقل : أنا ربكم الأعلى .

وقد روي :

((خَيرُكم خيرُكم لأهله، وأنا خيركم لأهلي، ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهنّ إلا لئيم))

[السيوطي في الجامع الصغير عن علي]

إيّاكم أن تكفروا بنعمة الزوجة :

هذه نعمة قد تفتقدها، إذا كفر الإنسان بنعمة الزوجة قد يجد نفسه في بعض الساعات يرتكب حماقة ما بعدها حماقة، يطلقها ! وتذهب إلى بيت أهلها، وتدع له خمسة أولاد في البيت، يضيق بهم ذرعاً، يحتاجون إلى طعام، إلى تنظيف، إلى حمام، إلى إعداد طعام، وهي عند بيت أهلها، ناعمة، مطمئنة، وأتاها خطيب فتزوجها، وأنت والأولاد في ضيق ما بعده ضيق، فإذا كفر الإنسان بنعمة الزوجة الصالحة، وحملها مالا تطيق، واستعلى عليها وتجبر، فقد يضعه الله في مأزق حرج، يغضب غضباً شديداً فيطلقها، وعندئذٍ تملك حريتها، وتأبى أن تعود، ويبحث عن بديل لها فلا يجد، أو قد يأتي البديل فيريه النجوم في الظهر، هذا البديل ليأخذ حق الأولى، فإذا كان عند الإنسان زوجة صالحة ليشكر الله على هذه نعمة .

((إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها دخلت الجنة))

[من الجامع الصغير عن أنس]

لا تحملها مالا تطيق، لا تحملها ذنباً لم تفعله، لا تحملها أخطاء أهلها، لا ذنب لها، لا تجعل بيتك صاخباً، لا تجعل حياتك ضنكاً، الله عز وجل قال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آَتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة النساء : 19)

ومعنى المعاشرة بالمعروف لا أن تمتنع عن الإيقاع الأذى بها، بل أن تحتمل الأذى منها، وكان أحد الصالحين له زوجة سيئة جداً، فلما قيل له : طلقها، واسترح منها، قال : وَاللَّهِ لا أطلقها فأغشّ بها المسلمين .

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا)

ليس هناك زوجة مثالية ، فارض بما قسم الله لك :

تصور وجود زوجة مثالية؛ لا يوجد زوجة مثالية! أحد الصحابة الكرام له زوجة أتعبته كثيراً، فتوجه إلى سيدنا عمر، وكان أمير المؤمنين، فطرق بابه، فسمع صياحاً في البيت، و خصاماً بينه وبين أهله، فولى مدبراً ولم يعقب، سمع عمر الباب يقرع، فتح الباب فلم يجد أحداً، نظر فوجد رجلاً ولى هارباً، فناداه بأعلى صوته، فأقبل، قال له: لِمَ جئت إليّ؟ فسكت، قال له: قل، فتبسم الرجل، قال له: قل، فقال: وَاللَّهِ جئتك أشكو مما أنت منه تشكو، فعندئذٍ قال عمر: يا أخي هذه زوجتي، أم أولادي، تكنس الدار، تطبخ الطعام، تغسل الثياب، ألا نتحملها؟ أعباؤها ثقيلة، أتحب أن تعرف قيمتها؟

أعطها إجازة إلى بيت أهلها مدة أسبوع، واعمل بدلاً منها، اغسل الصحون، اطبخ، وامسح البيت، اكوِ الملابس، حتى تعرف قيمتها، أعطها إجازة مدة أسبوع لتعرف قيمتها، فربنا عز وجل قال :

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا)

هذه من نعمة الله عز وجل .

(وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ)

نعمة البنين والأحفاد :

يمكن أن تطلب من ابنك في اليوم مئة مرة أن يجلب لك غرضاً؛ هات كأس ماء، هات الدواء، هات الكتاب، لو كنت أنت وزوجتك وحدكما قد لا تتحمل الزوجة! تقول لك: أخادمة أنا عندك؟ لكن ابنك صغير خفيف، حركته خفيفة، يحبك، وتحبه، تكلفه بالنهار بعشرين حاجة، أو ابنتك الصغيرة، هذه من نعم الله عز وجل .

(وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً)

العلماء قالوا : البنين الأولاد، والحفدة أولاد الأولاد، وبعضهم قال : الأولاد والأعوان، أحيانا الإنسان له أعمال طيبة، له إيمان عالٍ، ليس عنده أولاد، يسخر الله له أصدقاء، إخواناً أكارم، يقدمون له خدمات تفوق خدمات الأولاد، لا يعترض أحد على حكم الله عز وجل أن أعطاه البنات فقط، هذه الحكمة البالغة، لو أن أحداً عنده أولاد ذكور يعاني منهم ما يعاني، وسمع عن أخٍ عنده بنات فقط، لكنه مرتاح معهن، يتمنى لو كان أبناؤه إناثاً، فلو أعطاك الله بنات فقط فقل: الحمد لله، وإذا لم يهبك شيئاً فقل: الحمد لله، الحمد لله على كل حال .

(وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً)

الولد منك، لكن بعد أن استقر في رحم الأم، وانفصل منها، فجاءت الآية هكذا، بدقة بالغة، أساس الولد من الزوج، لكن هذه النطفة استقرت في الرحم، ونما في الرحم، ثم ولد من الأم .

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ)

زيادة على الزوجة والبنين : وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ

ولم يكتفِ بخلقك أنت وزوجتك وأولادك دون أكل، بل رزقكم من الطيبات، تجد عندك الحبوب، عندك الخضار، عندك الفواكه، في آخر الشتاء، وأول الصيف الوقت صعب، فالمقياس ليس في هذه الأيام، لكن تجد في الصيف أن الفواكه منتشرة، والخضار مبذولة، كأس الماء نعمة كبيرة ! كأس الماء هذا لم يعرف أحد له قيمة، كنا قبل أعوام مهددين بكأس الماء، جفت الينابيع، يبس النبات، لولا فضل الله علينا في هذا بهذه الأمطار الغزيرة التي فجرت الينابيع لهلكنا، الماء موفور والحمد لله، أن تجد في البيت كأس ماء تشربه هذه نعمة كبرى لا يعرفها إلا من فقدها .

إنّه لحديثٌ عظيم :

لذلك النبي الكريم عودنا، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ))

[الترمذي، وابن ماجه]

النبي عليه الصلاة والسلام، سيد الخلق، وحبيب الحق، دخل إلى بيته لا يجد أحيانا ما يأكله، فعَنْ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ :

((دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ : هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟ فَقُلْنَا : لَا، قَالَ : فَإِنِّي إِذَنْ صَائِمٌ))

[مسلم]

يقول لك أحدهم اليوم: ليس عندنا شيء، وعنده أكل يكفيه ثمانية أشهر! اجمع المؤونة التي عندك، أيجب أن تأكل طبخاً كل يوم؟ لا تقل: ليس عندنا شيء، هذه الكلمة فيها سوء أدب مع الله عز وجل، إذا توفر لك الظهر قطعة جبن مع كأس من الشاي فهذه نعمة، عندك رغيف خبز وكأس من الشاي، وقطعة جبن فهذه نعمة :

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ))

[الترمذي، وابن ماجه]

تعوّد شخص على المصروف الكبير، كشر عن وجهه، وقال: أنا لا يكفيني ثلاثمئة ألف ليرة مصروف السنة، فأصيب بمرض عضال، زاره رجل، وَاللَّهِ يكفيه ألف ليرة بالشهر بهذه الظروف الصعبة، يتمنى أن يعود إلى صحته، وينفق ألف ليرة فقط بالشهر، يتمنى ذلك، فالإنسان إذا كانت أجهزته كلها سليمة، لا يلزمك تخطيط، ولا تحليلات، ولا ذهاب إلى بلاد أجنبية، ولا زرع كلية، ولا استئصال كبد، إذا كان الواحد منا لا يلزمه شيء، وعنده قوت يومه، مهما كان القوت متواضعاً، مهما كان خشناً، ولم يكن عالقاً بمشكلة، أو ورطة كبيرة ليس لها حل، قد يباع بيته، أو تباع سيارته، أو يباع محله التجاري، ليدفع المصالحة، إذا لم يكن واقعاً بورطة، أو عالقاً مع إنسان لا يرحمه، وصحته طيبة، وعنده قوت يومه، ليقبّل الأرض، ويشكر المولى جل وعلا، هكذا المؤمن متواضع، المؤمن أخلاقه متواضعة، يعرف حجم النعمة، النبي الكريم كانت تعظم عنده النعمة مهما دقت، شرب كأس ماء، الحمد لله الذي أعانني على شربه، وأعانني على أن أطرحه، إذا لم يطرح معا صرنا بحاجة إلى تخدير، شيء لا يحتمل، آلام حصر البول لا تحتمل .

أحياناً الإنسان يجد شدة في حياته، فيعيش في ضيق، ضيق ذات يد في عمله، دخله قليل، حاجاته غير موجودة، فلا يتبرم كثيراً، بل ليكن راضياً، لأن ربنا عز وجل يلون الحياة، لا تعرف النعم إلا بافتقادها، لا تعرف قيمة الحاجات إلا إذا قلّتْ، ليلزم الإنسان الصبر، وليلزم الشكر، وبالشكر تدوم النعم، يا عائشة أكرمي مجاورة نعم الله، فإن النعمة إذا نفرت قلما تعود .

(وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ)

وَاللَّهِ إذا أكل الإنسان صحن حمص، وكانت صحته طيبة يستمتع به أضعاف مضاعفة عن أنفس طعام وصحته عليلة .

أحد الأشخاص كان عند بعض الملوك، فأكل الملك طعاماً فأعجبه، قال : هذا الطعام طيب، قال : يا أمير المؤمنين طيبته العافية، الإنسان يأكل أحياناً أكلاً متواضعاً جداً، رخيصاً جداً، يشتهي أن يأكل أكلة شعبية، ما دامت الصحة موفورة فهناك استمتاع بالغ في هذا الطعام .

يروى على زمان العثمانيين دخل على والي الشام موظف كبير، كان مقر الوالي بمنزله في المرجة، دخل الموظف الكبير فوجد الوالي يطل من نافذة مكتبه على صحن المنزل، مكان بائعي حلويات اليوم، وكان هناك سجن قديماً، فبقي فترةً طويلة، يلقي النظر إلى صحن البناء، انتظر الموظف إلى أن شعر هذا الوالي بحركة، فالتفت، وقال له : أنت هنا منذ وقت؟ قال له : نعم، رأى على خده دمعة، قال له: خيرًا إن شاء الله، قال له: تعال انظر، أب وأم جاءا ليتفقدا ابنهما في السجن فلم يُسْمَحْ لهما، فجلسا على الأرض، وفتحا زوادةً، وأخرجا رغيفاً وبصلاً فقط، كسراه وأكلاه، قال: وَاللَّهِ أتمنى أن أتخلى عن كل ما حولي، وأن أستطيع أكل هذا الطعام بشهيتهما، معه علل بجسمه لا يقدر على الأكل، إذا أكل الإنسان

أكلة شعبية، وكانت صحته طيبة فهذه نعمة، فالإنسان دائماً عليه أن يتذكر أن الشكر يزيد النعم، وبالشكر تدوم النعم .

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

(سورة إبراهيم : 7)

انظر هناك نقطتان، دوام زيادة، بالشكر دوام للنعم، وبالشكر زيادة في النعم .

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

(سورة إبراهيم : 7)

(أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ)

أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ

الله أكبر على هذه المقابلة السيئة للنعمة :

بالأوثان؟ بالأصنام؟ بالشركاء؟ بهؤلاء الذين اتخذوهم أولياء من دون الله، بهؤلاء تؤمنون؟ وبنعمة الله يكفرون !

(وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ)

أهذا هو المنطق ؟

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ)

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

يعبدونه، يخضعون له، يعصون الله من أجله، يضعون كل إمكاناتهم من أجل هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله .

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا)

المعبودات سوى الله لا تملك رزقا في الأرض ولا في السماء :

لو أن السماء أقلعت عن إنزال المطر فأيّ جهة في الأرض تستطيع أن تتخذ قراراً بإنزال المطر؟ في الأرض كلها؟ هل الدول العظيمة بكل إمكاناتها لو أن السماء أقلعت عن المطر أن تنزله؟ أي جهة على

وجه الأرض مهما قويت تستطيع أن تأمر السماء بالمطر؟ مَنْ؟

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أمطار بالسماء موجودة، الحب ما أنبت، من خلق الرشيم؟ يعني القمح ؛ من جعله ينبت؟ الرشيم كائن حي، والذي يجعل القمح على ما هي عليه حياة الرشيم، فإذا مات الرشيم تعفنت البذرة فوراً، البذور تتعفن عند موت الرشيم، فالرشيم كائن حي، ثم هو طويل العمر، البذور يحفظوها في أماكن باردة بظروف دقيقة، تعيش خمس أو ست سنوات، وهذا الرشيم كائن حي بانتظار خدمتك، تضعه في التربة فينبت، صُنْع مَنْ؟ عندك فاصولياء هذه فيها حياة، كل شيء تأكله إذا أمكن أن تزرعه فينبت من أن فيه حياة ، لولا حياة الرشيم لما نبتت بذرة على وجه الأرض، من الذي أحيا الرشيم؟ أعطاه الحياة؟ لو كان الرشيم حياته ساعة، أو شهر، الآن القمح حصدناه، إذا ما زُرِع القمح بعد شهر يموت، لم يبقَ زراعة، لا يمكن أن يحيا سنتين، ثلاثًا، أربعًا، خمسًا، هذه حكمة بالغة، لو أن حبة القمح تعطي حبة قمح أخرى، لا تزرع، فليس من مصلحة، أن تضع مداً، وتضع مقابله مداً، لا تضع شيئاً، نبقى بلا أكل، لو أن نسب الإنبات بحجم نسب الزراعة، بينما تزرع غرامًا من الطماطم يعطك طناً، مليون ضعف ! تزرع طناً بذرة خيار تعطك أربعين كيلو غرامًا، أربعون كيلو غرامًا من الخيار من بذرة وحدة، لو كان البذرة تعطيك كيلو غراما، أو نصف كيلو، أو خيارة واحدة، لما أكل الناس ، هذه البذرة ثمنها مبلغ، لذلك ربنا عز وجل قال :

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

السماء تمطر، والأرض تنبت، توجد خصائص، وبكتريات .

مرة تكلمت عن البكتريات، الأرقام فوق التصور، في السنتيمتر المربع أو الميليمتر المربع ألوف البلايين من كائنات دقيقة جداً، لولاها لما نبت النبات ! في اليابان في المكان الذي ألقوا عليه قبلة ذرية الأرض لا تنبت ؛ لأن الكائنات الدقيقة ماتت، التربة فيها بكتريات فيها ديدان، فيها آلاف المخلوقات، خلقت من أجلك، مسخرة لك .

(فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(74)ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ)

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ

يعني أصم، أبكم، إمكاناته محدودة، لا يملك شيئاً .

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

لماذا هذا المثلُ والتشبيه :

هذا مثل دقيق جداً، والخطاب موجَّه لمشرك، أنت تعبد صنماً، أبكمَ، أصمّ، هل ينفعك؟ هل يضرك؟ هل يسمعك؟ هل يستجيب لك؟ أما الله سبحانه وتعالى فحاضر، ناظر، رحيم غفور، سميع بصير، بيده كل شيء، غني، قوي، عطوف، توابٌ رحيمٌ، كل هذه الدنيا من رزقه، تَدَعُ الإله وتعبد ما لا يضرك ولا ينفعك؟

هذا مثل ضربه الله لنا :

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ)

كيف كان العرب يقفون أمام الأصنام، ويعبدونها من دون الله؟ وكيف الآن تتكئ على قريب لك؟ تعتمد عليه؟ تعبده من دون الله؟ ترضيه وتعصي الله؟ كيف؟ كيف؟ هذا عبد عاجز، ضعيف، فقير، قد يموت، قد لا يستطيع أن يقدم لك شيئاً ؛ قد يستطيع، ولا يقدم لك شيئاً بدافع من لؤمه ! أتعبده من دون الله؟

(هَلْ يَسْتَوُونَ)

لا يستوي المملوك مع المالك ، فلا يستوي المخلوق مع الخالق :

هذا العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، هذا يستوي مع عبد آخر رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سراَ وجهراً؟ هل يستوون عندكم؟ فكيف تسوون أيها البشر بين الأصنام وبين خالق السماوات والأرض؟

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

أوصاف دقيقة جداً، هذا الذي تعبده من دون الله :

(أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

في بلاد اليابان عندهم عقائد وثنية حتى الآن، أو الآن بلا عقائد، وعندهم ما يسمى الميكادو، هذا يعتبرونه إلهاً عندهم، طبيب هناك أسلم، لماذا أسلم؟ لأنه صار في جسم هذا الإله مليون علة، ليس فيه جهاز إلا ويحتاج إلى معالجة ! فكيف يعد هذا إلهاً؟ فهذا الطبيب الذي يعالج الميكادو أسلم ؛ لأنه رأى أن هذا الذي يعتقده الناس إلهاً هو عبد ضعيف، فقير، يحتاج إلى أدوية، يحتاج إلى علاج .

فلذلك الإنسان يجب أن يضع كل ثقته بالله عز وجل، وأن يضع كل رغبته، وكل إمكاناته في طاعة الله، حتى ينجو من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ

لا يعلم الغيب أحدٌ إلا الله :

الإنسان أحياناً يعد له الطعام ليأكله فلا يأكله، يموت قبل أن يأكله .

أول يوم من أيام العيد أسرة هيأت نفسها للسفر إلى مَصيف على البحر، واستأجروا البيت، وبقوا يومين أو ثلاثة يعدون الأغراض، وكل أنواع الحاجات، والملبوسات، وُضِعَتْ المحافظ بالسيارة، والزوجة نزلت، والأولاد نزلوا، والزوج لم يستطع مغادرة المنزل بسبب بسيط هو أن الله توفاه، الموت قريب جداً، كل شيء جاهز .

العام الماضي كان عندنا أخ كريم من إخواننا، وكنا مدعوين معه إلى نزهة، فما تمكنا إلا أن ندفنه قبل أن نذهب إلى النزهة! الموت قريب جداً، والإنسان يقول: أنا ـ إن شاء الله على أول الصيف أغير الأثاث، هل أنت ضامن أن تصل إلى أول الصيف؟ فمن عدَّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت .

قال لي رجل: أنا أريد أن أترك التعليم، كان مدير ثانوية خاصة، وسوف أبحث عن طريقة أعير نفسي إلى دولة عربية، ذكر لي اسم الجزائر، قال لي : هناك قرب أوربة، وفي الصيف لا آتي إلى بلدي، أُمضي أول صيفية في فرنسا، أنظر معالمها، وأماكنها السياحية، ومتاحفها، وفي الصيفية الثانية في إنجلترا، والصيفية الثالثة في إيطاليا، والرابعة في سويسرا، ذكر لي خمس سنوات إعارة، قال لي: أعود ويكون معي رأسمالي، آخذ محلاً تجارياً، ويكون أولادي قد كبروا، أبيع فيه بالتحف، وهكذا خفيف

نظيف، أجلس وأتقاعد، وكفى، والله الذي لا إله إلا هو من فمه إلى أذني، كنت عنده، وكان عندي ساعة فراغ، جلست عنده، فقال لي ذلك، الظهر انتهت ساعاتي فذهبت إلى البيت، لي عمل في المدينة مساء، وأنا في طريقي إلى البيت مشياً على الأقدام وجدت نعوته على الجدران، أول سنة في فرنسا، الثانية بإنجلترا، الثالثة بإيطاليا، الرابعة بسويسرا ... ومساء كان من أهل الآخرة .

قالوا: من جاوز الأربعين فقد دخل في أسواق الآخرة، إذا ذهب واحد إلى نزهة خمسة أيام، أول يوم في غاية السرور، ثاني يوم، ثالث يوم، رابع يوم، يفكر في الرجعة، بجمع الأغراض يؤمِّن المواصلات، أليس كذلك؟ فاليومان الآخران يتجه التفكير فيهما إلى العودة، إلى تأمين الركوب، إلى تأمين الحاجات، إلى تأمين جمع الأغراض، إلى إجراء الحساب، هذه في الأيام الأخيرة، فنحن إذا دخل أحدنا في الأربعين كأنه دخل في أسواق الآخرة، فيجب أن يكون أكبر همه الآخرة، كيف يعد العدة للقاء الله عز وجل .

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا)

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا

لا يعلم المولود إلا مصّ الثدي :

أحدث كتاب في علم نفس الطفولة، أن الطفل لا يعلم إلا منعكساً غريزياً واحداً ؛ وهو مص الإصبع، ليلتقم ثدي أمه فيعيش، لو أن الله عز وجل جرده من هذا المنعكس لمات ؛ لأن التقام ثدي الأم عملية معقدة تحتاج إلى إحكام، وتحتاج إلى سحب هواء، حتى يعيش زود الله سبحانه وتعالى المولود بمنعكس المص، اسمه بالعلم منعكس المَصّ .

(لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا)

لا أطوال، ولا حجوم، ولا ألوان، لا أصوات، ولا خبرات .

(لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا)

كل الذي تعرفه الآن هو مكتسب من تعاملك مع محيطك الخارجي .

(وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (17-21): تفسير الآيات 77 – 89 ، عن عالم الغيب
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-05-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع عشر من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ

لا يعلم الغيب إلا الله :

لو أن الآية : وغيب السماوات والأرض لله، هذا شيء، وأن يقول الله عز وجل :

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

شيء آخر .

في قوله تعالى :

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

قصرٌ، أيْ : غيب السماوات والأرض لا يعلمه إلا الله، ما من إنسان على وجه الأرض يعلم ما سيكون، الله سبحانه علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

على مستوى بني البشر، هذا المولود سيكون صالحاً أو طالحاً؟ خيرًا أم شريراً؟ طويل العمر، أم قصير العمر؟ صحيح الجسم، أم مريض الجسم؟ كيف يموت؟ بأي أرض يموت؟ هذه الأرض ما مصيرها؟ هذا الجبل ما مصيره؟ هذا النهر هل سيجف؟ أم سيبقى .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

قال تعالى :

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا)

(سورة الجن : 26)

وقال سبحانه :

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الأعراف : 188)

لا تصدق أحداً من بني البشر أنه يعلم الغيب، لا تصريحاً، ولا تلميحاً، ولا إشارة، ولا بأي طريقة كانت .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

إذًا علاقتك مع مَن يعلم الغيب وحده :

فأنت إذاً علاقتك مع مَنْ؟ مع من بيده غيب السماوات والأرض، مع من بيده مقاليد السماوات والأرض، مع من بيده الخير والشر، مع من بيده الرزق، مع من بيده الحياة والموت .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

مما يشقي البشر أنهم متعلقون بزيد أو عبيد، وفلان وعلان، وهم يحسبون أن هؤلاء ينفعونهم أو يضرونهم، يرزقونهم أو يحرمونهم، يرفعونهم أو يخفضونهم، إنهم بشر ضعفاء، عبيد، لا يستطيعون شيئاً .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

الذين كانوا في أوج نشاطهم، وجاءهم مرض عضال فأودى بهم، من كان يعلم ذلك؟ ما من إنسان يموت هل يعلم أنه سيموت بعد ساعة ؟

طبيب كريم ذكر لي قبل يومين أن شابًا في الواحدة والثلاثين يحلق لحيته في البيت، ويمزح مع زوجته، فوقع في الحمام، فإذا هو ميت، من يعلم الغيب؟ من يعلم أن هذا الشاب سيموت بعد ساعة؟ أليس في ذهن الشاب آمال طويلة؟ قد يرجو أن يغير بيته، أن يغير عمله، أن يترك وظيفته، أن يعمل عملاً حراً، أن يدير تجارة عريضة، أن يذهب إلى البلاد الفلانية، أن يمضي الصيف في المكان الفلانية، أليس هذا في ذهنه؟

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

لذلك اتق من بيده غيب السماوات والأرض، أطع من بيده غيب السماوات والأرض، ارجُ من بيده غيب السماوات والأرض، خف ممن بيده غيب السماوات والأرض، يا موسى خف ثلاثاً ؛ خفني، وخف نفسك، وخف من لا يخافني .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

وكلام رسول الله في القرآن :

(قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة الأحقاف : 9)

الذي يسافر هل يرجع؟ ذهب إنسان إلى بلد فتوفي في المطار، عندما هبطت الطائرة ودخل إلى قاعة المسافرين، وجلس على كرسي وقع فمات، إذا سافرنا هل نعود؟ وإذا خرجنا من بيوتنا هل نرجع؟ وإذا نمنا هل نستيقظ؟ وإذا استيقظنا هل ننام على هذا السرير؟ وإذا عمّرنا هذا البيت هل نسكنه؟ وإذا أخذنا هذه الشهادة هل نستخدمها؟ وإذا خطبنا هل ندخل؟ وإذا دخلنا هل ننجب؟ وإذا أنجبنا هل نرى أبناءَنا كباراً؟ وإذا رأيناهم كباراً هل نزوجهم؟ وإذا زوجناهم هل نرى أولادهم؟

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

لا نعلم شيئاً، الله يعلم، فلا بد لنا من علاقة طيبة مع الله .

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود : 55 - 56)

إذا كانت علاقتك بالله طيبة فلا تخش في الناس لومة لائم، من عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس به . بشكل أو بآخر ؛ لو أنك تملك قطعة من الذهب ثمينة، لو قال الناس عنها جميعاً : إنها حديد، هل تصبح حديدا، أم تبقى ذهباً؟ الذهب ذهب، والحديد حديد، وإذا كان معك قطعة من المعدن الرخيص، وأوهمت الناس أنها ذهب، وصدقوك، هل تصبح هذه ذهباً؟ لا، علاقتك مع نفسك، وعلاقتك مع الله .

((وَاعْلَمْ أَنَّ الأمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ))

[أخرجه الترمذي عن ابن عباس]

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ :

((أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ، وَأَحَبَّنِي النَّاسُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّوكَ))

[أخرجه ابن ماجه]

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

لا ندري بعد هذه الساعة ما سيكون، ما من حادث غريب إلا كان غريباً على أصحابه، ففوجئوا به .

من خلال مجموعة قصص سمعتها من طبيب دهشت ؛ أن الإنسان بينه وبين الموت شعرة، قال لي : كهرباء القلب ذا اضطربت يتوقف القلب، في ثانية واحدة يصبح من أهل القبور، وقد يكون تخطيطه جيداً، ولا يشكو شيئاً، وهو في أوج صحته، وأوج قوته أجهزته، كلها تعمل بانتظام، وهو في ريعان الشباب، تضطرب الكهرباء في القلب، فيقف القلب، فيموت الدماغ، فتشخص عيناه، وانتهى الأمر، اقلب صفحة، انتهى، أصبح خبراً بعد أن كان رجلاً، كان رجلاً فصار خبرًا على الجدران .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ)

أمر ساعتك أيها الإنسان :

(كَلَمْحِ الْبَصَرِ)

أمرُ الساعة بين الكاف والنون :

كن فيكون، زُل فيزول، ومن حِكَم الله عز وجل أن هذا الإنسان الشديد، العتيد القوي، الجبار، المتكبر، حياته متوقفة على أسبابٍ تافهة جداً، فلو أن نقطة من الدم تجمدت في شرايين الدماغ لمات، يقولون : سكته دماغيه، لو أن شريانًا في الدماغ فرعياً انفجر يموت الإنسان فوراً، لو أن الشريان المغذي للقلب سُدَّ يضطرب القلب، ويموت الإنسان .

(وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ)

درس لنا كلنا، درس بليغ، بيننا وبين الموت شعرة، ثانية، وإذا شئتم فاسألوا، إذا شئتم زوروا المستشفيات، زوروا غرف العناية المشددة، زوروا الأطباء، اسألوهم عن الموت، ثانية واحدة، مريض في العناية المشددة، دخل عليه صديقه، جلس معه عشر دقائق، تركه وخرج من الغرفة، وهو يفتح باب الغرفة دخل زائر آخر، قال له : كيف فلان؟ قال له : والله بحالة جيدة، وصل بعد أمتار فقال له : إنه ميت، تعال انظر إليه، قبل ثانية كان حياً .

(وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ)

أنا لا أريد أن أخوفكم، أنا خائف معكم ـ والله ـ لا أريد أن أعطيكم صورة قاتمة، لكن هذا هو الواقع، من أجل أن تستقيموا على أمر الله، من أجل أن تقلعوا عن المعاصي، عن المخالفات، عن الشبهات، عن كل شيء يبعدك عن الله عز وجل، كن مستعداً للقاء الله، فأنت بطل .

ليس من يقطع طرقاً بطلاً   إنمـا من يتقي الله البطل

***

أمد الله في حياتنا جميعاً، ورزقنا أعمالاً طيبة نلقى الله بها .

و في الحديث :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ؟ قَالَ : مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ))

[من سنن الترمذي عن عبد الله بن بسر]

ولكنها الحقيقة، بين الإنسان وبين الموت ثانية واحدة، لا أريد أن أذكر أمثلة الأمثلة ؛ فهي كثيرة جداً .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ)

إما أنها ساعتنا نحن بالذات، أو أنها ساعة يوم القيامة، على كل هي كلمح البصر،

(أَوْ هُوَ أَقْرَبُ)

(فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتْ الْحُلْقُومَ(83)وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ(84)وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ(85)فَلَوْلَا إِنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ(86)تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة الواقعة : 83 - 87)

هل تستطيعون أن ترجعوها ؟

(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

هذا كلّه دليلٌ على قدرة الله :

توجد آلات طباعة حديثة جداً، وضخمة جداً، قد يزيد طولها على طول هذا المسجد، عملها كله على جهاز إلكتروني، هناك منبع ضوئي، وهناك مستقبل ضوئي، فإذا جاءت ورقة فحجبت الضوء تتوقف الآلة كلها على ضخامتها، أنت قد تستغرب، كل هذه الضخامة، وكل هذا الحجم، وكل هذه العظمة تتوقف كلها فجأةً بانقطاع ضوء خفيف؟ هكذا الإنسان، مهما كان قوياً، مهما كان كبيراً، مهما كان عظيماً، مهما كان مشهوراً، مهما كان له سمعة، العلماء الكبار، الأنبياء الكبار، الأنبياء جميعاً .

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

(سورة الزمر : 30)

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

(سورة آل عمران : 144)

إذاً الموت قاسم مشترك بين جميع الخلق .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(77)وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

المولود يخرج من بطن أمه جاهلاً :

أحدث نظرية في علم نفس الطفولة تؤكد هذه الآية، الإنسان لا يعلم شيئاً، الإنسان مزود بمنعكس واحد، هو منعكس المَصِّ، لولا هذا المنعكس لمات جوعاً، الآن أعطِ ولدًا إصبعا من أصابعك يحكم شفتيه حولها، ويشفط الهواء من حولها ! ألقِمْه ثدي أمه يرضع ! غير هذا المنعكس، الإنسان لا يعلم شيئاً، علماء الذرة الكبار، علماء الفيزياء، علماء الكيمياء، علماء الطبيعيات، علماء التشريح، علماء الطب، علماء الفلك، علماء الرياضيات، علماء الجيولوجيا، علماء التاريخ، علماء الجغرافية، علماء اللغة، علماء الفلسفة، قادة العالم الكبار، علية القوم، هؤلاء كانوا لا يعلمون شيئاً، لحكمة بالغة .

تروي بعض القصص أن شاباً عالماً درس في بغداد، وتحلق حوله الناس، وأعجبوا به، واستفادوا من علمه، فأثار هذا غيرة بعض العلماء ؛ فحسدوه، أراد بعضهم أن يحضر مجلسه ليسفهه أمام تلاميذه، فبعد أن انتهى الدرس وقف هذا العالم المشهور، وقال : يا فتى من أين هذا العلم؟ ما سمعنا به، من أجل أن يصغره، ويحجمه، ويظهر للناس أن هذا الكلام بدعة، من أين هذا العلم؟ ما سمعنا به؟ فما كان من هذا الشاب إلا أن قال لهذا العالم المشهور : وهل حصلت العلم كله؟ سؤال، فإذا قال : نعم، وقع في غلط شنيع .

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)

(سورة الإسراء : 85)

وربنا عز وجل يقول :

(وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)

(سورة يوسف : 76)

فاضطر هذا العالم إلى أن يقول: لا، سأله : هل حصلت العلم كله؟ قال له : لا، قال له : إذاً هذا الذي تكلمت به للناس من الشطر الذي لا تعرفه، إن كنت قد حصلتَ شطر العلم، فهذا العلم من الشطر الذي لا تعلمه .

فربنا عز وجل قال :

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا)

الإنسان وخبراته، وعلمه، لو أن خللاً حصل في الدماغ لأخذه أهله إلى مستشفى الأمراض العقلية، ولتوسطوا حتى يدخل بآلاف الوسائط، من أنت؟ كلمة التوحيد، أن تقول : لا إله إلا الله، أنا من أنا .

إذا كنت في كل حال معي فعن حمل زادي أنا في غنى
فأنتم هو الحق لا غيركم فيا ليت شعري أنا من أنا

***

كن مع الله تر الله معك واترك الكل وحاذر طمعك
وإذا أعطاك من يمنعه؟ ثم من يعطي إذا ما منعك؟

***

كنت لا شيء فأصبحت به خير شيء، انظر إلى سني طفولتك، هل كنت تعرف شيئاً؟ الآن صرت إنساناً تقول : أنا، قل : الله تفضّل علي، بعد أن تطور الأمر بك، وتعلمت، وتثقفت، ونلت الشهادات العلية، وجلست في مجالس العلم، تقول : أنا؟!

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(سورة النور : 21)

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

(سورة النساء : 113)

المحجوب عن الله عز وجل يرى نفسه، يرى علمه، والذي يرى فضل الله عليه لا يرى نفسه شيئاً .

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ)

بعدها يجعل الله للإنسان سمعا وبصر وقلبا أدوات للتعلم :

الفؤاد هنا فيه أوجه التفاسير، المقصود به الدماغ، أي : العقل، يعني جعل لك سمعاً، تسمع الأصوات، لكنك بالدماغ تدرك معنى الأصوات، جعل لك عيناً ترى بها الصور ؛ لكنك بالدماغ تدرك معنى هذه الصورة، الطفل الصغير قد يرى حية، يراها كما تراها أنت، لا يخاف منها، ولا يهرب منها ؛ لأنه لم يدرك ما خطورتها، ولكنك إذا رأيت أفعى تقتلها، أو تولي منها هارباً ؛ لأن الدماغ أدرك خطرها ؛ فالله سبحانه وتعالى قال :

(وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

عليك بشكر النِّعم :

الإنسان من أجل أن يعرف نعمة الله عليه ليتصور أنه لا عينين له، أو لا عين له؛ الألوان لا معنى لها، الأثاث بالبيت لا معنى له، جمال الأثاث لا قيمة له، جمال الطبيعة لا قيمة له، جمال الأزهار لا قيمة له، جمال الأطفال لا قيمة له، إذاً العين، السمع، والبصر والفؤاد، هذه من نعم الله الكبرى .

(أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ

ماذا تعلم عن عالَم الطير :

هل درست عن الطير شيئاً؟ قال بعض العلماء : إنَّ أرقى طائرة صنعها الإنسان لا ترقى إلى مستوى الطير ! فالطائرة مثلاً يجب أن تؤدي جهداً كبيراً جداً بأقل وزنٍ ممكن، هذا مبدأ الطائرة ؛ لذلك وقود الطائرة يزيد على مئة وخمسين طناً تستهلكها في خمس عشر ساعة ! وزن وقودها كوزنها بالضبط ! وزن الطائرة الكبيرة مئة وخمسون طناً، ووزن وقودها كذلك، إذاً فهي مهيأة أن تقوم بجهد كبير جداً، في الوقت نفسه أخف وزن ممكن هو وزن الطائرة، تنتقى من معادن متينة، وخفيفة، هذا هو الطائر، عظامه كلها مفرغة من أجل خفة الوزن، ولأنه يبذل جهداً عالياً فإن رئتي الطائر تصل إلى كل مكان في جسمه، والهواء الذي يستنشقه الطائر يصل إلى كل مكانٍ في جسمه من أجل تبريد العضلات، لأن الطائر يزيد على ست وثمانين ساعة طيراناً مستمراً ! قلب الطائر قلب عجيب، يضخ للجناحين دماً يعادل دم جسم الطائر كله، وبنية الطائر، عضلات الطائر، أجنحة الطائر، رئة الطائر، رأس الطائر، أجهزته شيء يأخذ بالألباب .

وأتمنى في درس قادم إن شاء الله أن أوسع لكم في بنية جسم الطائر .

(أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

الله هو الذي زوّد الطير بصفات كثيرة :

من زود الطائر بهذه الصفات؟ هذا الريش، من جعله بهذا الوزن الخفيف، يقول لك : وزنه كالريشة، كأنه لا وزن لها ! من جعل هذا الأنبوب في وسط الريشة مقاوماً، وخفيفاً؟ ومن جعل الأشعار حول هذا الأنبوب ملتصقة من أجل أن تشكل مقاومة للهواء؟ من جعل للطائر قوادم طويلة وريشاً أقلّ؟ ثم أقلّ،

من جعل الزغب حول جسم الطائر؟ القوادم والخوافي، الخوافي قوةٌ للقوادم، من أعطاه هذه الإمكانية على معرفة الطريق؟ قد يطير الطائر سبعة عشر ألف كيلو متر ! يقطع الطائر رحلة الشتاء والصيف مسافة تزيد على سبعة عشر ألف كيلو متر ! من يهديه في ظلمات البر والبحر، لو أن زاوية الطيران اختلفت درجة واحدة مثلاً، عشّه في دمشق يأتي إلى بغداد، أو إلى القاهرة، الطيور التي تعشش في بيوت دمشق هذه الطيور تهاجر إلى إفريقيا، وتعود في فصل الشتاء من أعطاها هذه القدرة على معرفة الطريق؟ الله سبحانه وتعالى .

(أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

هل تعلم كيف يهتدي الطائر في طيرانه ؟

العلماء وضعوا نظريات كلها باءت بالإخفاق، ظنوا أن الطائر يهتدي بأشعة الشمس، فإذا به يهتدي ليلاً إلى هدفه، ظنوا أن الطائر يهتدي بتضاريس الأرض، فلما طار فوق البحر اهتدى إلى هدفه، ظنوا أن الطائر يهتدي بشيء مغناطيسي، كلما طرحوا نظرية جاءت التجارب تؤكد عكسها، ولا يزال اهتداء الطائر إلى عشه قاطعاً مسافات شاسعة لا يزال هذا لغزاً يحير العلماء !! بعضهم طرح نظرية ربما كانت أقرب ما تكون إلى الصواب، أن الطائر يهتدي بالساحة المغناطيسية الأرضية، لا الشمس، ولا التضاريس، ولا الضوء، ولا شيء من هذا القبيل .

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا)

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا

البيت سكنٌ وراحة :

البيت تسكن فيه، ترتاح أعصابك، ترتاح من عناء العمل ومشقة كسب المال .

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا)

البيت نعمة :

من أجل أن تعرف قيمة السكن سافرْ إلى بلد؛ فإذا كانت جميع الفنادق مشغولة، وأنت تدور في الطرقات حتى ساعة متأخرة من الليل، تريد أن تأوي إلى مكان، ولا تهتدي إليه، تعرف عندئذ قيمة

المأوى، لذلك عَنْ أَنَسٍ :

((أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا، وَسَقَانَا، وَكَفَانَا، وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَ))

[مسلم]

معك مفتاح بيت، دخلت إلى البيت، خلعت الثياب، أخذت حماماً سريعاً، استلقيت على فراشك، نسيت تعب النهار، هذا البيت من نعم الله الكبرى، لك بيت خاص، من أجل أن تعرف قيمة المأوى الخاص لو أنك اضطررت أن تسكن مع أناس أسبوعاً، تضيق بهم ذرعاً، تشعر أن حريتك مقيدة، تريد أن تنام في الوقت الذي تشاء فلا تقدر، الناس ساهرون ، لا تعرف قيمة المأوى المستقل إلا إذا كان لك مأوى مستقل، هذه نعمة كبرى، إذا دخل الإنسان بيته فليقل : الحمد لله رب العالمين .

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ)

بيوت جلود الأنعام خفيفة في الحلّ والترحال :

هذه البيوت؛ بيوت الشعر، أو بيوت الجلد، التي يستخدمها البدو في الصحراء، يسكنونها، وقد تكون هذه البيوت إذا أقيمت على أصولها بيوتاً منيعة .

(يَوْمَ ظَعْنِكُمْ)

أيْ : يوم سفركم .

(تَسْتَخِفُّونَهَا)

أي تجدونها خفيفة .

(يَوْمَ ظَعْنِكُمْ)

أيْ : يوم سفركم .

(يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ)

من أصواف الأنعام .

(وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا)

الصوف والوبر والشعر للأثاث واللباس :

الجمل له وبر، والماعز لها شعر، والغنم لها صوف .

(وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ)

قال لي شخص : توجد ألبسة داخلية شتوية ثمن القطعتين حوالي ألف ومئتي ليرة! قلت له : لماذا هذا السعر المرتفع؟ قال : لأنها من وبر الجمل، لها نعومة تفوق نعومة الحرير، تبث دفئاً يفوق حد التصور! قطعتان من الألبسة الداخلية للشتاء .

(وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ)

أثاثاً؛ الطنافس، البسط، الفرش، الفراش من الصوف، واللحاف، والغطاء، هذا كله من الأصواف والأشعار ومن الأوبار :

(أَثَاثًا وَمَتَاعًا)

متاعًا تتخذونها بضاعة تتاجرون بها، المتاع هو البضاعة التي تنمو بالبيع والشراء .

(وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ)

معنى : وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ

العلماء قالوا : هذا الحين نوعان، إما إلى حين أن تهترئ وتبلى، وإما إلى أن يموت صاحبها، متى تنقطع علاقتك بهذا الشيء؟ إما أن يهترئ هذا الشيء، وإما أن يموت صاحبه .

(وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ)

إذا توفي شخص يفتحون خزانته، فإذا فيها ثياب لم يلبسها، يوزعونها حتى لا يتذكروه، لا يتركون شيئاً! كل شيء متعلق بالميت يوزعونه، يخافون أن يتذكروه، حتى لا يتذكروا أنفسهم ومصيرهم، فالإنسان قد يشتري، ولا يلبس .

(وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ)

هذه الحين تقطع نياط القلب .

(وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)

(سورة البقرة)

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَانًا)

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا

الجبال مصدّات وظلال :

تجد هذا البلد دافئاً فيه مصدٌّ كبير للرياح، سلسة الجبال الغربية مصدّات للرياح، المدن التي خلف سلسلة جبال لبنان الغربية والشرقية، أما طقس حمص فطقس آخر، رياح عاتية، وهناك فتحة على البحر، القنيطرة لها طقس خاص، لأنها مفتوحة على البحر، أما مدن الداخل التي تقع إلى جانب الجبال فتُعَدُّ هذه الجبال أكناناً، اصعد إلى جبل قاسيون في أيام رياح عاتية، انتقل من طرف إلى طرف فإنك ترى الطقس يختلف اختلافاً كبيراً، إن كانت الرياح غربية، وانتقلت إلى سفحه الشرقي فكأنه ليس هناك رياح إطلاقاً، وإن كانت الرياح شرقية، وانتقلت إلى سفحه الغربي فكأن الرياح معدومة .

إذاً :

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا)

الأشجار من نعم الله الكبرى، هناك أشجار خلقت خصيصى كي تؤمِّن لكم الظلال، الآن طرقاتنا أكثرها مشجّرة، هذه أشجار زينة لا تثمر، لا يستفاد لا من ثمرها، ولا من ورقها، ولا من أزهارها، ولا من جذوعها، ولا من أخشابها، يستفاد من ظلالها، إذاً هذه خلقت خصيصى كي تمنحك الظل، لذلك من حكمة الله عز وجل أن أكثر أشجار الزينة ذات أوراق دائمة الخضرة، حجمها صغير تتراقص مع الرياح، شكلها دائري، منتظم، كأنها مظلة .

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا)

أحياناً يسير الإنسان في طريق كله شمس، في أيام الصيف الحارة يصل إلى ظل شجرة فيجلس تحتها قليلاً، النسمات تحرك أوراقها، يقول لك : جلست تحتها جلسة لا أنساها، هذه من فضل الله عز وجل، جعل في الصحراء واحات، في كل مكان توجد أشجار، هذه تؤَمِّن لك الظل، ومع الظل النسيم العليل، ومع النسيم العليل المتعة، والراحة، والسكن،

(وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ)

الثياب تقي من الحرّ :

هذه الثياب البيضاء، القطنية، هذه تعكس . والثياب الصوفية في الشتاء البارد تحس أنه لا شيء يعدل ثوباً صوفياً، يقول لك : دفءٌ عظمي، طبعاً، من خلق هذا الصوف يبث الدفء؟ ومن خلق القطن؟

يمتص الرطوبة؟ إنه الله سبحانه وتعالى .

(وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ)

الثياب تقي من البرد أيضا :

العلماء قالوا : ذكر الحر، واستغنى به عن البرد، فالبرد ملحوظ بالآية، يعني هناك سرابيل تقيكم الحر، وهناك سرابيل تقيكم البرد، أو لأن الذين يخاطبون يعيشون في الصحراء الحارة، هم يحتاجون إلى ثياب يدفعون عنهم الحر أكثر مما هم محتاجون إلى ثياب يدفعون عنهم البرد

(وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ)

هذه الدروع، تأتي ضربة سيف فتمنع الدرع من أن تقطع الجسم .

(وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ(81)فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ

ليس على النبي إلا البلاغ :

أنت مبلّغ .

(وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف : 29)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان : 3)

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة فصلت : 17)

(يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمْ الْكَافِرُونَ)

يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمْ الْكَافِرُونَ

هذه النعم من ينكرها؟ ماذا بقي عليك؟ أن تشكرها، أن تشكر الذي أنعم بها عليك، أن تشكر الذي من بها عليك، لذلك عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللَّهِ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي بِحُبِّي))

[الترمذي]

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ

النبي يشهد يوم القيامة أنه بلغ الرسالة فلا حجّة لأحد :

هذا الذي بلغكم رسالات الله فيشهد عليكم، ألم تبلغهم؟ نعم يا رب قد بلّغتُهم .

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

(سورة المائدة : 116)

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

ماذا تقول؟ الحجة قد أقيمت عليك، الزم الصمت فهو أولى لك .

(وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ)

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ

الظالم يوم القيامة لا يخفف عنه العذاب ولا يؤخَّر :

مثلاً: هذا الذي ارتكب جريمة قتل، وحكم عليه بالإعدام، وصدِّق الحكم، وسيق إلى حبل المشنقة، هو يصعد درج المشنقة إن شاء أن يبكي فليبكِ، وإن شاء أن يضحك فليضحك، وإن شاء أن يتوسل فليتوسل، وإن شاء أن يرجو فليرجُ، وإن شاء أن يسكت فليسكت، وإن شاء أن يستعطف فليستعطف، لابد من تنفيذ الحكم فيه، هذا انتهى أمره ، هذا كله بعد فوات الأوان، فكِّرْ قبل أن تقدم على الجريمة .

(وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ)

انتهى الأمر، قرار قطعي، غير قابل للطعن، وغير قابل للاستئناف، ولا للتمييز، ولا للنقض، مصدق جاهز، وبقي التنفيذ .

(وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاء شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمْ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ)

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ

لا ينفع البراءة من الشركاء يوم القيامة :

يتوهم الكافر أنه إذا أشار إلى الشركاء الذين عبدهم من دون الله فإن هذا سيخفف عنه العذاب، يا رب، هؤلاء الذين عبدناهم من دونك، عذّبهم، يقول : لا، أنت لماذا عبدتهم؟ أنت لماذا اتخذتهم شركاء؟

(وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمْ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ)

يا رب، هؤلاء كاذبون .

(وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ

إنه يوم الاستسلام :

أحياناً المجرم يستسلم، يا ترى يعدمونه خلال أيام؟ بعد أسبوعين؟ بعد سنتين؟ يا ترى أيحكمون عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة؟ أشغال شاقة ثلاثين سنة، أمره مستسلم، ليس له قوة على أن يتكلّم أي كلمة، يصورونه يضع رأسه في الأرض، مستسلم، هذا حال صعب .

(وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمْ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ(86)وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

أين هذه الأفكار التي كانوا يبثونها؟ أين هذه المعتقدات الفاسدة التي كانوا يعتقدون بها؟ أين هذه المبادئ المزيفة التي كانوا يؤمنون بها؟ أين هذه الفلسفات؟ أين هذه السخريات التي كانوا يسخرون من الدين؟

(وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

ثم قال سبحانه :

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ)

الكافر يعذَّب ويزاد له في العذاب :

الذين كفروا يعذَّبون، أما إذا صَدُّوا عن سبيل الله فيعذَّبون عذاباً آخر، يعذَّبون لأنهم كفروا، ويعذَّبون لأنهم صدوا غيرهم عن الدين .

(زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ)

بما كانوا يفسدون عقائد الناس، يضللونهم، يوقعونهم في متاهة .

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ

لكلِّ أمة شهيد عليها يوم القيامة :

يخاطب الله سبحانه وتعالى النبي عليه الصلاة والسلام قائلاً له :

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

النبي الذي بعث في قومٍ، والعالِم الذي دعاهم .

(وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ)

القرآن تبيان لكل شيء فاتبعوه :

لماذا قال الله : تبياناً؟ لمَ لمْ يقل بياناً؟ لأن التبيان من المصادر التي تشير إلى المبالغة، الإنسان يبين الخطر بكلمة، بكلمتين، بعشر كلمات، بصحيفة، بصحيفتن، ربنا عز وجل بين الحق بستمئة صحيفة، والكون يبين لك أنه لا إلا إله الله .

مثلاً: لو شاهدت إشارة تشير إلى أن هناك تحويلة في الليل، وأنت مسرع، يضعون إشارة ؛ انتبه بعد ألف متر يوجد تحويلة على اليمين، تكفي إشارة وحدة، أحياناً يضعون إشارتين، أحياناً يضعون أربعًا ؛ ألف متر، سبعمئة وخمسون، خمسمئة، مئتان وخمسون، بعد ذلك سهم على اليمين، أنت مسرع بالليل ؛ هذه تبيان، أول إشارة، والثانية، والثالثة، والرابعة، لئلا تقع في الخطر .

معنى تبيان ؛ أن هناك آلاف الأدلة، ملايين الأدلة، لئلا تقع في الخطر ..

(تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)

القرآن هدى ورحمة وبشرى للمسلمين :

الهدى النور الذي ترى به الخير خيراً، والشر شراً، والرحمة التجلي، فكأن الإنسان يمشي في طريق، الشاخصات هي التبيان، وضوء السيارة الوقاد هذا هو الهدى، والشعور بالطمأنينة والأمن هذه هي الرحمة، الطريق مكشوف، والإضاءة جيدة، والشاخصات واضحة، وأنت مرتاح نفسياً .

(تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (18-21): تفسير الآية 90 ، عن عالم الغيب
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-05-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن عشر من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ

قيمة الأمر من قيمة الآمِر :

أيها الإخوة المؤمنون، قيمة الأمر من قيمة الآمر، فكلما كان الذي يأمرك عظيم الشأن، رفيع القدر، قوياً، غنياً، كان أمره كذلك لذلك هذه الآية مصدرة بلفظ الجلالة :

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ)

انتبه، الأمر أمر الله، والله صاحب الأسماء الحسنى، والصفات الفضلى، خالق الأكوان، رافع السماوات بغير عمد، مَنْ إليه المصير؟ من بيده مقاليد كل شيء هو ذاته يأمرك، لذلك قال بعضهم: " لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت "، فقد تكون المعصية طفيفة، ولكنك اجترأت بها على الله عز وجل، فخطورة المعصية لا لأنها صغيرة، ولكنك عصيت بها خالقك، ومربيك، ومن خلقك من قبل، ولم تكن شيئاً، فربنا عز وجل يقول :

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ)

الأمر القرآني يقتضي الوجوب :

والأمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، وقد يتوهم بعض الناس أن أوامر الله سبحانه وتعالى هي الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، هذه أركان الإسلام، ولكن كل أمر في كتاب الله عز وجل يقتضي الوجوب، على وجه الإلزام، ولا خيار لك في ذلك .

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا)

(سورة الأحزاب : 36)

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ)

ما هو العدل ؟

ما هو العدل؟ العدل من المعادلة، والعِدل : المساوي، ومعنى العَدل ؛ أن تعطي الناس حقوقهم، أن يأخذ الإنسان حقه، أن يأخذ أجراً يساوي جهده، أن تعامل الزوجة معاملة تساوي مهمتها ومكانتها، العدل من المساواة، والعدل ضد الظلم، والعدل أن تعطي ذي كل حقٍ حقه، لا تصلح الحياة من دون العدل، لن تستمر المجتمعات إلا بالعدل، لن يستقر البناء إلا بالعدل، لن تستمر العلاقة بين الزوجين إلا بالعدل، لن تستمر العلاقة بين الشريكين إلا بالعدل، لن يسود السلام الأرض إلا بالعدل، لن تطمئن إلا بالعدل، العدل يسع الجميع، وأساس بناء المجتمع .

فلذلك الزوج له حقوق، والزوجة لها حقوق، والعدل يقتضي أن تعطي الزوجة زوجها حقوقه، وأن يعطي الزوج زوجته حقوقها : أن يطعمها مما يأكل، أن يلبسها مما يلبس، ألا يضرب الوجه، ولا يهجر في الفراش، من حق الزوج على زوجته، أن تحفظه إذا غاب عنها، وأن تنفذ أمره إذا أمرها، وألا تمتنع عنه، وأن لا تخرج إلا بإذنه، وأن تحفظ ماله، هذا هو العدل، من حق الابن على أبيه ؛ أن يحسن تربيته، وأن يوفر له حاجاته ـ ضمن إمكانات الأب ـ ومن حق الأب على ابنه ؛ أن يرد الجميل بالجميل، أن لا يناديه باسمه، أن لا يمشي أمامه، أن لا يستسبه ـ أن يسبّب له السباب ـ هذا من حق الأب على ابنه .

لا تقوم الحياة إلا بالعدل :

الحياة لن تقوم إلا بالعدل، وأي مجتمع مهما كان قوياً حينما يلقي عرض الطريق بقيم العدل، هذا المجتمع لابدَّ من أن ينهار، بقاء المجتمعات مرهون بالعدل، بقاء الأفراد مرهون بالعدل، صحة العلاقة بين اثنين أساسها العدل، حق الأخ الأكبر على إخوته الصغار كحق الأب على أبنائه، هذا هو العدل، عَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ يَقُولُ : جَاءَ شَيْخٌ يُرِيدُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَبْطَأَ الْقَوْمُ عَنْهُ أَنْ يُوَسِّعُوا لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا))

[الترمذي وأحمد]

حق المتعلم على المعلم أن يصبر عليه، وأن يتواضع له، وأن يكون رحيماً به، وأن يأخذ بيده كلما عثر، حق الأجير على صاحب العمل ؛ أن يقبض أجره قبل أن يجف عرقه، أن يأخذ ما يستحق، ألاّ تكلفه مالا يطيق، حق صاحب العمل على الأجير، أن يكون أميناً، صادقاً، ألاّ يؤذيه بالعمل، ألاّ يهمل، ألاّ يقصر، ألاّ يعتدي، حق الجار على جاره؛ إن استقرضك أقرضته، وإن استنصرك نصرته، وإن مرض عدته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته، وإن مات شَيعّته، ولا تستطل عليه بالبناء، فتحجب عنه الرياح إلا بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فاهدِ إليه منها، فإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ ولده، ولا تؤذه بقتار قدرك، إلا أن تغرف له منها، والأربعون دارًا كلهم جيران؛ شرقاً، وغرباً، وشمالاً وجنوباً، وارتفاعاً ..

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ)

حق الصديق على صديقه، حق الأخ المؤمن على أخيه، ألاّ يغتابه، ألاّ يذكر عورته، ألاّ يشهر به، ألاّ يسرع بالحكم عليه .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

(سورة الحجرات : 6)

حق الأخ على أخيه؛ ألاّ يحقره، ألاّ يغشه، ألاّ يحتال عليه، أن يحفظ ماله، أن يحفظ عرضه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ))

[متفق عليه]

حق الأخ على أخيه ؛ أن تعامله كما تعامل نفسك، عامل الناس كما تحب أن يعاملوك، هذا هو العدل، كل مشكلاتنا، كل متاعبنا، كل مآسينا بسبب ترك مبدأ العدل، لو أن الزوج عَدَلَ مع زوجته، وعدلت هي مع زوجها .

((انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته يعدل ذلك كله))

أي : الجهاد في سبيل الله .

[من كنز العمال عن أسماء بنت يزيد الأنصارية]

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآَتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)

(سورة الأحزاب : 33)

((أيما امرأة خرجت من بيتها بغير إذن زوجها كانت في سخط الله تعالى حتى ترجع إلى بيتها، أو يرضى عنها زوجها))

[من الجامع الصغير عن أنس]

هذا هو العدل .

حق الأمير على رعيته أن يطيعوه في غير معصية الله عز وجل .

وحق الرعية على أميرهم، قال سيدنا عمر رَضِيَ اللَّه عَنْه يمتحن أحد الولاة: << ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب؟ قال: أقطع يده، قال: إذاً من جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل، فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا عن خلقه، لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإذا وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً، التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة، قبل أن تشغلك بالمعصية >> .

أيها الأب : أيها العم، صهرك له عليك حق؛ أن تترفق به، ألاّ تكلفه مالا يطيق، أن تأمر ابنتك أن تطيعه، لا أن تحرضها على أن تعصيه، أن تمنعها من مغادرة بيتها من غير إذنه، لا أن تجلبها إلى البيت لتغيظه، أيها الصهر، واجبك تجاه والد زوجتك أن تعرف قدره، وأن تقدر جميلة، ربى ابنته، حتى إذا بلغت أشدها قدمها إليك هدية لطيفة، هل تعرف قدره ؟ هذا هو الحق .

حق المالك في ملكه ؛ ألاّ يتعسف في استعمال هذا الحق، ألاّ يضيق على الناس، ألاّ يحملهم على أن يحتالوا عليه، أن يترأف بهم، حق المالك على من في ملكه، حق الشريك على شريكه، ألاّ يقطع أمراً دونه، أن يستشيره، أن يبذل جهداً مكافئاً لجهده، ألاّ يستأثر بشيء له، أن لا ينافسه في عمله ، في العمل نفسه .

حق المقرض على من أقرضه؛ أن يؤدي له القرض بالتمام والكمال في الوقت المحدد، لا أن يماطل، حق المقترض على من اقترض منه، ألاّ يحمله مالا يطيق، ألاّ يكلفه، أن يدفعه أن يدفع فائدة مرتبة، إن هذا ليس من العدل .

حق الشريك المضارب؛ ألاّ يدخر وسعاً في بذل كل الجهد، كي يحقق لرأس المال ربحاً جيداً، وحق صاحب المال ألاّ يستبد بما أتاه الله به، يجعله مبذولاً بين الناس كي ينتفعوا به وينفعوه .

حق المشتري؛ أن يدع مجالاً ليربح منه البائع، كيف يعيش إذاً؟ لا تزال تضيّق، وتفاصل، وتمحّص، إلى أن يضجر فيبيعك برأس ماله، وحق المشتري على البائع ألاّ يغشه، وألاّ يربح عليه أضعافاً كثيرة،

لو كشف رأس المال هل يرضى هذا المشتري ؟ البيع الشرعي ما كان عن تراضٍ بين المتبايعين، هذا هو العدل .

حق المقتول خطأ أن تدفع له الدية .

حق الزوج التي خطبتها، وعقدت عليها، وبقيت تزور أهلها أشهراً ثلاثة ؛ أن تعطيها نصف المهر، لا أن تبلغ أهلها، أنه يجب أن تسامحوني بكل شيء، وأن تعطوني كل ما قدمته من هدايا حتى أطلقها، هذا هو الظلم، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[البخاري]

حقوق الناس أمر عظيم يقصم الظهر :

أيها الإخوة المؤمنون، مع سيدنا عمر الحق في أن يقول : << ليت أم عمر لم تلد عمر >>، ليتها كانت عقيمة ؛ وَمعه الحق أن يقول : << ليتني أقدم على الله لا ليّ ولا عليّ >>، وَمعه الحق أن يقول: << وَاللَّهِ لو أن بغلة في العراق تعثرت لحاسبني الله عنها، لمَ لم تصلح لها الطريق يا عمر ؟ >> .

وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هو لو تأملتم بالحقوق المترتبة عليكم، وأنا معكم لوجدتموها شيئًا يقصم الظهر، هل أديت حقك تجاه زوجتك؟ هل كنت متعسفاً في استعمال حق الزوج؟ هل دللتها على الله عز وجل؟ أم استمتعت بها وكفى؟ هل عرفتها بخالقها؟ لها حق عليك، خدمتك، وحبست نفسها من أجلك، أفلا ينبغي أن تعرفها بربها؟ أفلا ينبغي أن تقودها إلى الجنة هل أديت حق أولادك ؟

الحقوق شيء مخيف يوم القيامة ؛ يوم تقف بين يدي الله عز وجل، ماذا فعلت في حق أمك ؟ هل عاملتها ؟ هل كافأتها بإحسانها إحساناً ؟ أم التفتت إلى زوجتك ونسيتها ؟ ورأيتها عبئاً ثقيلاً ؛ شيئاً قديماً؟ ليتها تموت ونرتاح منها! أهذا حقها عليك ؟!

هل عرفت حق أبيك ؟ تأكل ما لذَّ وطاب، وأبوك محتاج إلى الدرهم والدينار، ولا تزوره إلا أياماً قليلة بالشهر أو بالعام ؟ تقول له: أنا مشغول، أنسيت يوم كنت صغيراً ؟ محتاجاً إليه ؟

امرأة جاءت إلى رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تشكو زوجها، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ:

((تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ، وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ تَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ :]قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ [ ))

[ابن ماجه، النسائي]

مرة عمر رَضِي اللَّه عَنْه وهو راكب بغلته مر بهذه المرأة فنزل عن دابته تأدباً معها، ووقف معها طويلاً تكلمه، فقيل له : أتكلم امرأة ضعيفة ؟ فقال : كيف لا أكلمها ؟ وكيف لا أستمع لها، وقد استمع لها الله من فوق سبع سماوات ؟

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ: اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ))

[متفق عليه]

وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هو؛ لو ظلمت مجوسياً، لو ظلمت ملحداً، لحاسبك الله حساباً عسيراً، أليس هو عبداً لله؟ الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، من قال لك: إنه يباح لك أن تفعل مع من لم يكن من دينك؟ أهذا هو الدين؟ المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، ليس منا من غش إطلاقاً، ولو غششت أي إنسان، هذا هو العدل .

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ)

في بيتك، مع أولادك، مع جيرانك، مع من هم أعلى منك، مع من هم أدنى منك، مع أمك، مع أبيك، مع أقاربك، مع شريكك، مع كل من هو له علاقة معك، هذا هو العدل، والعدل قسري، بمعنى أنه ليس لك اختيار فيه، إما أن تفعله فتنجو، وإما أن تقصر فيه فتهلك .

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ)

إذا ضاق العدل اتّسع الإحسان :

فإن ضاق العدل اتسع الإحسان، اشترى منك البضاعة، اشترى منك هذه السلعة، ولم يفتحها، ولم يجرِ فيها أي تعديل، وأصابه ندم على شرائها، وكان البيع صحيحاً مئة بالمئة، السعر معتدل، وتم الإيجاب والقبول، وتم التسلم والتسليم، ثم جاءك يرجوك أن تقيله من بيعته .

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ)

أنت مأمور بالإحسان، كما أنك مأمور بالعدل .

رجل من عامة الناس يسكن أحد أحياء دمشق القديمة ـ هذه القصة قديمة جداً ـ له جار إمام مسجد، معروف بالتقى والصلاح، هذا الإمام رأى رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المنام، قال: يا فلان، بلغ جارك فلانًا أنه رفيقي في الجنة، من هو هذا الشخص ؟ شخص من عامة الناس، لا يؤبه له، إن حضر لم يعرف، وإن غاب لم يفتقد، فذهب إليه ليبلغه البشرى، دخل إلى بيته، وقال: لك عندي بشرى من

رسول الله ، والذي نفس محمد بيده لا ألقيها على مسامعك حتى تقول لي ماذا فعلت مع ربك حتى بشرك النبي عليه الصلاة والسلام أنك رفيقه في الجنة ؟ فأبى، ثم أبى، فلما ألح عليه قال : وَاللَّهِ تزوجت امرأة، وفي الشهر الخامس من الزواج كانت في شهرها التاسع من الحمل، فكان بإمكاني أن أطلقها، وبإمكاني أن أسحقها، وبإمكاني أن أفضحها، جئت بقابلة سراً وولدتها، وحملت المولود تحت عباءتي، وذهبت به إلى المسجد، وانتظرت حتى ينوي الإمام، دخلت، ولم يرني أحد، وضعت المولود خلف الباب، ونويت الصلاة، فلما انتهت الصلاة بكى المولود، تحلق الرجال حوله، دخلت بينهم، وكأن الأمر لا يعنيني، قلت: ما هذا؟ قالوا: تعال انظر، لقيط وضع هنا، قال : هاتوه، أنا أكفله، فأخذه، وأعاده إلى أمه، وسترها، فقال عليه الصلاة والسلام في الرؤيا: أبلغ جارك فلانًا أنه رفيقي في الجنة، هذا إحسان، وليس عدلاً، العدل أن تطلقها .

الإحسان أنت مأمور به، مأمور به تماماً، أقمت دعوة إخلاء على المستأجر، وصدر قرار بالإخلاء، والمستأجر لا يقوى أن يستأجر بيتاً آخر، ليس له الحق أن يأخذ منك شيئاً، أعطيته مبلغاً من المال كي يدبر أمره به؛ هذا إحسان .

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ)

باب الإحسان واسع جداً، لا يحصى في كلمات، لا يعرف في ساعات .

المحسن محمود عند الله ممدوح في القرآن :

الله سبحانه وتعالى يقول :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت : 69)

الله عز وجل بعظمته، بقوته، بكماله مع المحسن ..

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة الأعراف : 56)

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ)

(سورة النحل : 128)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

(سورة المائدة : 8)

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ)

الإحسان مع الزوجة؛ لا أن تعطيها حقها، أن تحتمل الأذى منها؛ قيل لرجل من الصالحين، وكانت له زوجة سيئة الخلق : طلقها يا فلان، قال: وَاللَّهِ لا أطلقها فأغشّ بها المسلمين! هذا إحسان، بإمكانك أن تطلقها، ولكني لا أطلقها فأكسرها، لأن كسر المرأة طلاقها، وما عُبِدَ اللهُ في الأرض بأفضل من جبر الخواطر، لا أطلقها، لا أفرق بين اثنين، لا بين أخوين، أو شريكين، أو قريبين، أو جارين .

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ)

(سورة النحل : 128)

علامة إحسانك :

اسأل نفسك، هل أنت محسن في البيت؟ علامة إحسانك أن من حولك يتمنون دوام حياتك، وعلامة الإساءة أن أقرب الناس إليك يتمنى أن ترحل عنهم، فإذا جاء الطبيب ليفحص الأب، وقال الطبيب: حالته طفيفة، يتألم الأهل ألماً شديداً، ليته قال : حالته خطيرة، يتوقعون أنه يموت في هذا المَرض، سيعيش أيضاً؟ معنى ذلك أن هذا الأب غير محسن، كن محسناً تر الناس جميعاً مقبلين عليك، لا تبن مجدك على أنقاضهم، لا تأخذ مالهم، لا تعتدِ عليهم، لا ترتفع، ويُخفَضون، لا تغتن ليفتقروا، لا تسعد ليشقوا، كن محسناً، بث فيهم السلام .

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى)

من الإحسان إيتَاء ذِي الْقُرْبَى حقوقهم :

من الإحسان إيتاء ذي القربى، فلماذا ذكرها الله عز وجل؟ من الإحسان أن تؤتي ذوي القربى حقهم، أو المعونة لهم، قال العلماء: لقد خصت بالذكر لعظم شأنها، لا انطلاقاً من العصبية العائلية، لا، ولكن انطلاقاً من مبدأ التكافل الاجتماعي، فذا عرف كل إنسانٍ حق قريبه انتهى الأمر، كل إنسان له قريب، لو رعى كل قريب قريبه رعاية مادية، ومعنوية، واجتماعية، وإصلاحية، ودينية، لحلت مشكلات الأمة، لماذا خصّ الله سبحانه وتعالى بالذكر أولي القربى؟ لأن تحقيق هذا المبدأ يعني تحقيق التكافل الاجتماعي، لا ترى في المجتمع جائعاً، ولا فقيراً، ولا عرياناً ولا مضطهداً، ولا محروماً .

(وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى)

لذلك إذا أزمع الإنسان أن يدفع زكاة ماله فعليه قبل كل شيء أن يبحث عن أقربائه، عن رحِمِهِ، لعلهم محتاجون، أدرى الناس بهم أنت .

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى)

أن تؤتي ذوي القربى، لك أخت بحاجة إلى مساعدة، لك عمة أرملة، لك خالة بائسة في حي بعيد، تجشم المشاق، واذهب إليها، تفقد أحوالها، أعطها من مالك، أو من زكاة مالك .

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ)

وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ

الفحشاء :

الفحشاء؛ العمل الشنيع الذي تفوح منه رائحة نتنة، من يزني بحليلة جاره، من يغرر بفتاة، من يعتدي على أعرض الناس .

من يجعل بينهم هوة كبيرة، من العداوة والبغضاء، الفحشاء كل شيء تمجه الفطرة السليمة، كل شيء ينكره المجتمع الإنساني، في أي زمان ومكان، قيمة مطلقة، أي إنسان، من أي لون، أو أي عرق، أو أي دين، يأبى ذلك، من يقابل الإحسان بالإساءة، هذه فحشاء، من يسيء إلى أمه وأبيه، هذه فحشاء، من يخون زوجته هذا فحشاء، العمل الفاحش؛ الذي تمجه الطبيعة البشرية، وتسري أنباؤه في الناس باشمئزاز شديد، واحتقار كبير، وترفع بليغ .

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ)

المنكَر :

المنكر ما أنكره الشرع، قد تطمس الفطرة، قد يشيع بين الناس أكل الربا، فإذا أكلت الربا لا أحد ينتقدك، لكن الربا أنكره الشرع، الفحشاء؛ ما تعارف الناس عليه، والمنكر ما أباه الشرع، في عهود الازدهار الديني تتطابق أعراف الناس مع قواعد الشرع، وفي عهود التخلف الديني يصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، يصبح الخير شراً، والشر خيراً، يأمر الناس بالمنكر، وينهون عن المعروف، يصبح الكذب ظرفاً، والخيلاء تيهاً، يصبح الأمر بالمعروف حمقاً، والنهي عن المنكر وقاحة، يصبح النفاق لباقة، والكذب ذكاءً، والعدوان على الأعراض دماً خفيفاً ! تنعكس القيم !

إذا كنا في عصر انقلبت فيه القيم عندئذٍ المنكر ما أنكره الشرع، أن يدخل الإنسان في مجتمع مليء بالكاسيات العاريات، المائلات، المميلات، ويسمى إنساناً لبقاً، لطيفاً، مهذباً، يمتع عينيه بهن؟! يعتدي عليهن اعتداء معنوياً، ويسمى لطيفاً، مهذباً، لبقاً، حضارياً، مثقفاً! المنكر ما أنكره الشرع .

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

(سورة النور : 30)

فالفحشاء تدور مع الأعراف، والتقاليد، والعادات، ولكن المنكر يدور مع أحكام الشرع .

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)

(سورة البقرة : 276)

البغي :

البغي العدوان، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ :

((يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ، لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ ـ أي الزنا ـ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ))

[ابن ماجه]

قبل أيام قرأت أن كل عشرة مصابين بمرض الإيدز في العالم الغربي، منهم تسعة شاذون أخلاقياً، وواحد موزع بين النساء العاهرات ومدمني المخدرات، متى ظهرت الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم ؟ هذا مرض جديد لم يكن في الأسلاف، يهدد العالم الغربي الآن، يعد في العالم الغربي العدو الأول، هكذا قالت بعضُ سياساتهم، مرض الإيدز العدو الأول، ما أسبابه ؟ الفحشاء، أما دقة الحديث فقوله:

((حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا))

تابعت قراءة الخبر، قال: وفي أمريكا وحدها مليونان ونصف مليون شاذ شذوذًا أخلاقيًّا، تعرفونهم من هم، مسجلون في نوادٍ رسمية ! والمسجل من معهم بطاقات، لذلك فشا فيهم مرض الإيدز، ولقد أعلن قبل شهر أو أكثر أن كل المساعي، وكل البحوث العلمية، وكل الإمكانات باءت بالإخفاق، إن كل هذه الأدوية لم تستطع أن تقف في وجهه الرقم الأخير، أن هناك مليونين يحملون هذا المرض، مئات الألوف فتك بهم، والأمر يتفاقم باستمرار ! ربما انتقل المرض إلى اليابان وإلى أوربة الغربية، وإلى بعض البلاد النامية التي فيها فاحشة :

((وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ، لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ ـ أي الزنا ـ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ ـ أي شدة الفقر ـ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا

مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ))

قال تعالى :

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل : 112)

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

(سورة النحل : 90)

البغي العدوان، أن تأخذ ما في أيدي الناس، أن تأخذ أموالهم بالباطل، إما أن تأخذها بقوتك، أو بحيلتك، قد يكون الرجل ذكياً وضعيفاً، فيسلب أموال الناس لا بقوته بل بحيلته، وقد يكون غبياً قوياً، فيأخذ أموالهم بقوته، هذا كله عدوان وبغي .

(وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ)

أيّ معصية تفوح رائحتها النتنة بين الناس ينهى الله عنها، فإذا طمست فطرة الناس هناك مقياس الشرع، أي شيء ينهى عنه الشرع فهو محرم، والبغي ؛ هو أن تعتدي على أموال الناس، وعلى أعراضهم، وعلى ممتلكاتهم .

أحاديث عظيمة فافهموها واعرفوا قدْرها :

أيها الإخوة المؤمنون، دققوا في هذا الحديث، النبي عليه الصلاة والسلام حديثه كما يصفه علماء الأصول وحي غير متلو، لقوله تعالى :

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم : 3 - 4)

لذلك أمرُ النبيِّ عليه الصلاة والسلام يقتضي التطبيق، والوجوب .

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

(سورة الحشر : 7)

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ الْخَثْعَمِيَّةِ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَخَيَّلَ وَاخْتَالَ، وَنَسِيَ الْكَبِيرَ الْمُتَعَالِ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ، وَاعْتَدَى، وَنَسِيَ الْجَبَّارَ الْأَعْلَى، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ سَهَا، وَلَهَا، وَنَسِيَ الْمَقَابِرَ وَالْبِلَى، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ عَتَا، وَطَغَى، وَنَسِيَ الْمُبْتَدَا

وَالْمُنْتَهَى، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ يَخْتِلُ الدُّنْيَا بِالدِّينِ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ يَخْتِلُ الدِّينَ بِالشُّبُهَاتِ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ طَمَعٌ يَقُودُهُ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ هَوًى يُضِلُّهُ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ رَغَبٌ يُذِلُّهُ))

[الترمذي]

تخيل نفسه عظيماً، واختال على الناس النبي الكريم مر على أحد الأشخاص يضرب غلامه، أحياناً الإنسان يتجبر على غلام عنده، على صانع، قالَ أَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ :

((كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي : اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، فَلَمْ أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِنْ الْغَضَبِ، قَالَ : فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ : اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، قَالَ : فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي، فَقَالَ : اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ، قَالَ : فَقُلْتُ : لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا))

[مسلم]

((بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَخَيَّلَ وَاخْتَالَ، وَنَسِيَ الْكَبِيرَ الْمُتَعَالِ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ، وَاعْتَدَى، وَنَسِيَ الْجَبَّارَ الْأَعْلَى، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ سَهَا، وَلَهَا، وَنَسِيَ الْمَقَابِرَ وَالْبِلَى، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ عَتَا، وَطَغَى، وَنَسِيَ الْمُبْتَدَا وَالْمُنْتَهَى، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ يَخْتِلُ الدُّنْيَا بِالدِّينِ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ يَخْتِلُ الدِّينَ بِالشُّبُهَاتِ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ طَمَعٌ يَقُودُهُ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ هَوًى يُضِلُّهُ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ رَغَبٌ يُذِلُّهُ))

[الترمذي]

شيء مخيف أن تنطبق إحدى فقرات هذا الحديث على واحد منا،

((بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَخَيَّلَ وَاخْتَالَ، وَنَسِيَ الْكَبِيرَ الْمُتَعَالِ))

أيها الإخوة المؤمنون، لا زلنا في آية :

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

هذه هي علة النهي عن هذه الأشياء : يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

لعلكم تذكرون مهمتكم في الدنيا، لعلكم تذكرون شرع الله، لعلكم تذكرون يوم الحساب .

(يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة المطففين : 6)

يوم تقف البنت يوم القيامة تقول: يا رب، لا أدخل النار حتى تدخل أبي قبلي، لأنه أطلقني هكذا، لأنه لم يرعَ حقي، لم يعلمني، أطلقني على سجيتي، أنا جاهلة، فجئت إلى هذا المكان لأحاسب عن أعمالي كلها، وكان أبي هو السبب، لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (19-21): تفسير الآيات 91 – 94 ، عن الوفاء بالعهد
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-06-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع عشر من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90)وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا

ما هو عهد الله ؟

عهد الله، العهد الذي عاهده الإنسان في عالم الأزل، يوم قال الله عز وجل للخلائق :

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)

(سورة الأعراف : 172)

وإذا عاهدت ربك في الدنيا على الطاعة، وعلى العمل الطيب فهذا هو العهد المعني في هذه الآية، وإذا عاهدت رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو من ينوب في مكانه في تبليغ العلم، إذا عاهدت رسول الله عليه الصلاة والسلام على السير في طريق الإيمان، وعلى الالتزام بأوامر الدين، وعلى الاستقامة على أمر الله، وعلى فعل الخيرات، وترك المنكرات فهذا هو العهد المعني في هذه الآية .

إذا عاهدت النبي عليه الصلاة والسلام، أو من ينوب منابه في تبليغ العلم، فهذا العهد مَعْنِيٌّ في هذه الآية الكريمة :

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ)

(سورة النحل : 91)

وجوب الوفاء بالعهد :

وإذا اتفقت مع مسلم على بيع، أو شراء، أو أجار، أو استئجار، أو هبة، أو وديعة، أو أمانة، أي عقد عقدته مع مسلم وفق الدين، يجب أن تلتزم به، لحديث النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ))

[البخاري]

طبعاً فيما لا يتعارض مع أوامر الدين ؛ لو أنك أبرمت عقداً مع إنسانٍ على أن تعصي الله فهذا العهد لا ينبغي أن تفي به، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ))

[البخاري]

فعهد الله عز وجل الذي يجب عليك أن توفيه هو العهد الذي قطعته على نفسك حينما خلقت في عالم الأزل، حينما قال الله عز وجل :

(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)

(سورة الأعراف : 172)

أو إذا عاهدته في الدنيا على التوبة .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ(2)كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

(سورة الصف : 2 - 3)

وقال سبحانه :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة : 38)

الإنسان أحياناً في ساعات الشدة، في ساعات الضيق، في أوان المصائب، قد يتوجه إلى الله عز وجل، ويقول له: يا رب، أعاهدك على الطاعة، أعاهدك ألا أعصيك، ثم الله عز وجل بكرمِه، ولطفه، ورحمته، وحكمته، يرفع هذه الشدة ؛ فإذا رفع عنك الشدة إياك أن تنقض عهد الله عز وجل، إن ساق الله لك شدة، وكبرت عليك، وطلبت من الله عز وجل أن تستقيم على أمره على أن يرفعها عنك، ورفعها، إياك أن تنقض عهد الله عز وجل، إنك إذا فعلت ذلك كالمستهزئ بربه .

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا)

الوفاء والسماحة مروءة ورجولة :

شابان في عهد عمر رَضِيِ اللَّه عَنْه دخلا عليه وهما يسوقان رجلاً قتل أباهما، فعقد هذا الخليفة العظيم مجلساً للحكم في هذه الجريمة، عقد مجلساً لمحاكمته، وبعد سماع أقوال الشهود، وإقرار القاتل، حكم عليه بأن يقتل .

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة : 179)

القتل أنفى للقتل، إذا علم القاتل أنه لابد من أن يقتل يحجم عن القتل، فيحقن دمه ودم المقتول، إذاً :

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)

هذه من الآيات البليغة .

فسيدنا عمر رَضِيِ اللَّه عَنْه حكم على هذا القاتل بعد أن اعترف وأقر، والقصة طويلة، أن يقتل، لكن المحكوم عليه بالقتل طلب مهلة ثلاثة أيام، كي يذهب إلى أهله، ليعطيهم مالاً كان قد خبأه لهم، وليودع أولاده، وليكتب وصيته، فقال له عمر: ومن يضمنك؟ نظر إلى من حوله، بقي الجميع ساكتين، لا أحد يعرفه، ليس من المدينة، فلم يتكلم أحد، لأنه لا أحد يعرفه، فما كان من أبي ذر رَضِيِ اللَّه عَنْه إلا أن قال: أنا أكفله يا أمير المؤمنين، والكفيل قد ينفذ فيه حكم القتل، ومضت الأيام الثلاثة، وحضر الشابان ليشهدا مقتل قاتل أبيهما، لكن الرجل لم يحضر، إلى أن كادت الشمس أن تغيب، ثم غابت، وكاد سيدنا عمر ينفذ حكم القتل في أبي ذر، لأنه الكفيل، ثم لاح بالأفق شبح بعيد، انتظروا، فإذا الرجل الذي عاهد الله أن يعود ليقتل، وهاهو ذا قد عاد، قبيل تنفيذ حكم الإعدام، سأله عمر: يا هذا، لِمَ وفيت بوعدك وأنت تعلم أنه القتل؟ فقال هذا الرجل : إنما جئت ووفيت بوعدي لئلا يقال: إن الوفاء قد مات .

عندئذ التفت سيدنا عمر إلى أبي ذر رَضِيِ اللَّه عَنْه وقال: يا أبا ذر لِمَ ضمنته، وأنت لا تعرفه ؟ فقال سيدنا أبو ذر : إنما ضمنته وأنا لا أعرفه لئلا يقال : إن المروءة ماتت، وعندئذ قال الشابان : ونحن عفونا عنه، فقال عمر رَضِيِ اللَّه عَنْه: لمَ عفوتما عنه؟ فقالا: لئلا يقال: إن السماحة ماتت .

وفاء، ومروءة، وسماحة؛ وفاء بالذي ذهب، وعاد ليقتل، ومروءة بهذا الصحابي الجليل الذي ضمنه، وسماحة من هذين الشابين، لأنهما ما أرادا أن يكون الرجلان أكثر سماحة ووفاء ومروءة منهما !!!

أيها الإخوة الأكارم ... لو أخذ الناس بهذه الثلاثة؛ بالوفاء والمروءة والسماحة، ما كان بينهم جائع، ولا عريان، ولا مغبون، ولا مهضوم، ولأقفرت الجفون من المدامع، ولاطمأنت الجنوب في المضاجع، ولمحت الرحمة الشقاء، كما يمحو نور الصبح الظلام .

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ)

الوفاء بالعهد ضمان لسلامة المجتمع ببقاء الثقة :

لماذا أمرنا الله عز وجل أن نفي بعهد الله إذا عاهدنا؟

لأن المجتمع الإنساني لا يستقيم، بل لا يقوم إلا على الثقة، إذا حذفت الثقة من مجتمعنا انهار المجتمع، لن يقوم عمل، لن تقوم تجارة، لن تقوم زراعة، لن تقوم صناعة، لن تقوم علاقة، إلا على الثقة بين البشر، فإذا محيت هذه الثقة، إذا نزعت هذه الثقة فقد انهار المجتمع .

يروى أن رجلاً كان يقطع رمال الصحراء المحرقة على فرس له، رأى في الطريق رجلاً بائساً فقيراً يمشي حافي القدمين، ويكاد الرمل لشدة حره يحرق رجليه، فحنَّ له، وعطف عليه، ودعاه إلى ركوب الفرس، ما إن ركب الفرس هذا الذي دعي لركوبها حتى ألقى صاحبها أرضاً، وعدا بها لا يلوي على شيء، فقال له صاحب الفرس: يا هذا، لقد وهبت لك الفرس، ولن أسأل عنها بعد اليوم، ولكن إياك أن يشيع الخبر في الصحراء، فتذهب منها المروءة، وبذهابها يذهب أجمل ما فيها .

في الزواج لو فقدت الثقة أصبح البيت جحيماً، لو أن الزوجة تفقد ثقتها بزوجها، أو أن الزوج يفقد ثقته بزوجته، لأصبح الزواج جحيماً لا يطاق، لا يقوم الزواج إلا على الثقة، يذهب إلى عمله، وهو واثقٌ أن زوجته عفيفة، حَصَان، شريفة، كريمة، تحفظه في نفسها وماله .

لولا الثقة لم تقمْ علاقة بين شريكين، ما الذي يمنع أحد الشريكين أن ينافس شريكه في العمل نفسه، وأن يربح من وراء ظهره ؟ الثقة والعهد الذي قطعاه على أنفسهما في الزواج، في الجوار، في التجارة، في أي عمل، حينما يأتي المريض إلى الطبيب، بماذا يأتي ؟ يأتي بثقة يمنحها إياه، يصف له الدواء الصحيح، ولا يكلفه ما لا يطيق .

إذا أتى الإنسان إلى محامٍ ؛ ما الشيء الثمين بينهما ؟ الثقة، أنه لا يعمل عملاً من وراء ظهره، لا يخونه في قضيته، لا يأخذ من خصمه، وينكل معه .

فلذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ)

هذه آية واسعة، عهد الله في الأجل، إلى عهده في الدنيا، إذا عاهدته على الطاعة في الدنيا، إلى أنك إذا عاهدت رسوله على الاستقامة على أمره، وعلى العمل بموجب كتاب الله، وسنة رسوله، إلى العقد الذي توقعه، إلى الوعد الذي تقطعه، إلى أية علاقة تقوم بين اثنين هي في أساسها علاقة مبنية على عهد الله .

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا)

ما هي الأيمان ؟

الأيمان جمع يمين، فالذي يحلف بالله أن يفعل كذا ولا يفعل فقد حنث، والذي يحلف بالله ألا يفعل وقد فعل، فقد حنث، لذلك قسم العلماء اليمين إلى أقسام ثلاثة ؛ هناك يمين لغوٌ، كقولك : إي والله، لا والله، وأنت لا تنوي حلف اليمين، إنما سبق لسان، أو عادة كلامية سيئة تجري على ألسنة الناس في كل حالاتهم، وفي بيعهم وشرائهم ووعودهم ؛ هذه اليمين يمين لاغية، قال الله عز وجل :

(لَا يُؤَاخِذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمْ الْأَيْمَانَ)

(سورة المائدة : 89)

إذا قلت: واللهِ، وأنت تنوي حلف اليمين، وأنت تقصد حلف اليمين فهذه اليمين منعقدة، إذا حنثت بها فعليها كفارة، وكفارة اليمين عتق رقبة، أو إطعام عشرة مساكين، أو صوم ثلاثة أيام، العتق والإطعام على الخيار، ولكن الإطعام والصوم على الترتيب .

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ)

فلذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا)

عهد الله نوع من اليمين :

ومن العلماء من استنبط أن العهد بحد ذاته يمين، لأن الله عز وجل يقول :

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا)

يعني: ولا تنقضوا عهد الله، فعهد الله نوع من أنواع اليمين ؛ لكن الفرق بين العهد وبين اليمين أن اليمين لها كفارة، ولكن العهد إذا نقض لا كفارة له، بل إنه يخرج صاحبه من الإسلام، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا قَالَ :

((لا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ، وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ))

[أخرجه أحمد في مسنده]

لا إيمان لمن لا عهد له :

سبحان الله! ما لهؤلاء الناس فصلوا بين الإيمان وبين الخُلق، مع أن الإيمان والخُلق شيئان متلازمان، قال عليه الصلاة والسلام :

((الحياء والإيمان قُرنا جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفعا جميعاً))

[الحاكم في المستدرك عن ابن عمر]

((لا إيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ، وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ))

[أحمد]

هناك أحاديث كثيرة؛ ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله، فالبخيل ليس من أمة سيدنا محمد ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَبَّبَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا أَوْ عَبْدًا عَلَى سَيِّدِهِ))

[أبو داود، أحمد]

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ))

[أبو داود]

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَنْ انْتَهَبَ نُهْبَةً فَلَيْسَ مِنَّا))

[الترمذي وابن ماجه]

أو أشار بالنهب أو السلب .

هناك أحاديث كثيرة مطلعها ليس منا، معنى ذلك أن هناك تلازمًا ضروريًّا، أو ترابطًا وجوديًّا بين التدين الصحيح والخلق القويم . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[مسلم]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ :هِيَ فِي النَّارِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنْ الْأَقِطِ، وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ : هِيَ فِي الْجَنَّةِ))

[أحمد]

الفرض فقط، الخمسة فروض، من دون صلاة الضحى وقيام ليل، والزكاة فقط، ورمضان فقط :

((وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ : هِيَ فِي الْجَنَّةِ))

أحسن المسلمين إسلاماً أحسنهم خلقاً، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا))

[الترمذي وأحمد]

فكيف فصل الناس بين الإيمان الصحيح وبين الخلق القويم ؟ أمر إلهي :

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ)

عاهدت الله، أوفِ بعهدك، عاهدت رسول الله أوفِ بعهدك، عاهدت من ينوب عن رسول الله بإلقاء العلم، عاهدته على الطاعة لله ورسوله أوفِ بعهدك، وقعت عقد بيع أوفِ بعهدك، الأسعار ارتفعت، أنت قبضت ثمن البيت كاملاً ! في الوقت الذي كان السعر نفسه !! البيع تم من أربع سنوات، وقبضت المبلغ بأكمله، وبقي الإفراغ ! تقول : لا أفرغ لك إلا بمئة ألف ؟ أنت حر، أين العهد ؟ صار هدف الناس الكسب غير المشروع .

العرب في الجاهلية كانوا يقولون: المنية ولا الدنية، قد يأتي زمان يختار الإنسانُ الدنية لا المنية، فهو مستعد أن ينقض عهده في هذا البيع، ويجعل سمعته في الوحل من أجل أن يكسب مئة ألف ليرة زيادة .

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ)

في البيع، في الشراء، في كل شيء تَعِدُ به، أو تصدر وعداً للناس .

(وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا)

معنى توكيد الأيمان :

قال بعض العلماء : توكيد الأيمان أن تعيدها مرتين، تقول : وَاللَّهِ، وَاللَّهِ، هذا هو التوكيد، أو أن تعقد العزم على أن تفعل هكذا كما قلت، فإذا لم تفعل فقد نقضت هذا اليمين، إذا صممت على ألاّ تفعل، وفعلت فقد نقضت اليمين .

(وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا)

وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا

معنى كفيلا :

عامة الناس في البيع والشراء يقولون: الله وكيلك، لو عرف الناس معنى هذه الكلمة لارتعدت فرائصهم، الله وكيلك، خالق الكون الذي يعلم السر وأخفى! تجعله وكيلاً لهذا الشخص؟! ثم تغشه؟! ثم تكذب عليه؟! اليمين الكاذبة منفقة للسلعة، ممحقة للبركة، ومعنى قوله :(كفيلا)؛ أيْ حافظاً، وضامناً، وشهيداً .

(وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا)

أجدادنا السلف الصالح كانوا بخير، لأن الكلمة كانت صادقة؛ إذا وعد وفى، وإذا أؤتمن لم يخن، إن أفضل الكسب كسب التجار؛ الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته .

المؤمن إذا قرأ هذه الآية، واستشعر أن الله سبحانه وتعالى ـ الذي خلقه ـ يأمره أمراً قطعياً بأن يفي بعهد الله، وعهد الله ؛ أي عهد تقطعه على نفسك، أيّ اتفاق بين مسلمين، أيّ وعد جرى بين مسلمين، فضلاً عن عهدك لرسول الله أن تطيعه، فضلاً عن عهدك لله أن تستقيم على أمره، فضلاً عن العهد الذي قطع عليك في عالم الأزل، حينما قال الله عز وجل :

(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا)

(سورة الأعراف : 172)

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا)

كسب المال بنقض العهود حرام وسحتٌ :

لكنه ـ وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ ـ إذا بدا لك أنك نقضت العهد، كسبت مئة ألف ليرة ـ وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ ـ إنك إذا كسبتها كسباً غير مشروع، لسوف تدفع أضعافها في طريق غير مشروع؛ لأن هذا الكسب حرام، آلاف العقود التي نقضت ؛ عقود البيع لا لشيء، إلا لأن الأسعار قد ارتفعت، والمشتري لن يتمكن من هذا البيت، أو من هذه الدكان، أو من هذه الأرض، أين العهد ؟ إلا إذا كان هناك لم يدفع الثمن، تم العقد، ولم يدفع الثمن، وارتفع السعر، فهذا موضوع خلاف، لم أقصد هذا الموضوع، أما إذا دفع الثمن بكامله عداً ونقداً، بالتمام والكمال، وبعد سنوات جاء وقت الإفراغ، ثم تقول له : أنا لا أفرغ لك إلا بمبلغ من المال، ما السبب ؟ أين العهد ؟ وأنت وقعت .

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا)

كان السلف الصالح الواحد منهم بألف، و صار الناس في زمنٍ، الألف منهم بأف .

(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)

تهديد ووعيد :

يعلم خبايا أعمالكم، خبايا نواياكم، أحياناً يأتي النقض بشكل آخر، أنه وَاللَّهِ هذا البيت ليس لي ؛

وصاحبه لم يوافق على السعر، أنا معي وكالة فيه، يعطيك كلاماً فيه نقض للعهد ؛ لذلك :

(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)

هذا الذي تقوله حينما تزمع نقض العهد؛ هذا الذي تقوله إن كان مطابقاً للحقيقة أو غير مطابق، الله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم ذلك .

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ

ناقض العهد كناقضة الغزل :

امرأة حمقاء تغزل الخيوط، وبعد أن تنتهي من غزلها، تنقضها لتعود كما كانت! ما الذي حدث؟ جهد ضائع! جهد كبير ذهب أدراج الرياح! عمل عظيم صار هباءً منثوراً ! فهذه :

(كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ)

أحياناً الإنسان يعاهد، يبرم اتفاقاً، أو يعقد عقداً، أو يعاهد عهداً، يلوح له بعد حين، زيادة أو ربحاً فينتهز الفرصة .

مثلاً: باع البيت، بعد أيام وقَّع عقداً، وقبض دفعة أولى، وانتهى كل شيء، جاءه رجل، وقال له: أنا أشتريه منك بمئة ألف زيادة، ما الذي جعله ينقض العهد؟ هذا الإغراء، فربنا عز وجل يقول :

(تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ)

معنى : دَخَلًا بَيْنَكُمْ

معنى دخلاً؛ دغلاً، والدغل هو الغش والخديعة، يعني حلفت، وعقَّدت اليمين، وعزمت على تنفيذ ما قلت، لاح لك مكسب مادي، فنقضت العهد !!

طبعاً من أسباب نزول هذه الآية أن بعض القبائل عاهدوا رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما رأوا قريشاً أكثر عدداً، وأكثر عدةً وأقوى جمعاً، ندموا على عهدهم، فنقضوا عهدهم مع رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتفاوضوا مع قريش، وانضموا إليها، فليس المقصود ـ وإن كان لهذه الآية أسباب نزول ـ ليس المقصود خصوص السبب؛ بل المقصود عموم اللفظ، فأي مغنم يلوح لك، وكنت قد أبرمت عهداً ووثقته، لا ينبغي أن تنقضه لمكسب مادي لاح لك سريعاً

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ)

اليمين على نية المستحلف لا على نية الحالف :

لذلك قالوا: اليمين على نية المستحلِف؛ لا على نية الحالف، إنسان استحلفك يميناً ؛ هذه اليمين على نية المستحلِف؛ لو أنها على نية الحالف بطل مفعول اليمين، تحلف بالله العظيم، وتنوي شيئاً مغايراً لهذا الذي استحلفت من أجله، لذلك قالوا: اليمين على نية المستحلف، لا على نية الحالف .

(تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ)

إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ

طبعاً الله عز وجل قال :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(2)وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

(سورة العنكبوت : 2-3)

الابتلاء يكشف حقيقة الإنسان :

الله عز وجل لحكمة بالغة يضعك في ظرف صعب؛ تبرم عقداً، بعد العقد يأتي إنسان يقول لك: أنا أشتري منك هذا الشيء بأغلى من ذلك، هذا امتحان من الله عز وجل، امتحان من الله بكل ما في هذه الكلمة من معنى، ابتلاء، فلذلك يقول المؤمن: لا، أنا بعت، وانتهى الأمر، وَاللَّهِ سبحانه وتعالى يعوضني خيراً من هذا، ومن ظن بالله هذا الظن الحسن فالله سبحانه وتعالى لا يخيب ظنه .

أعرف أسرة خطبت ابنتهم لشاب دَيِّن، مستقيم، له دخل جيد، يقيم في قطر عربي، جاءهم بعد أن تم العقد، وسافر الخطيب إلى بلده، ليمهد لاستقدام خطيبته، جاءهم خطيب أغنى، فنقضوا عهدهم معه، وانقطعوا عن مراسلته، وأعلموه أنه لابد من الفراق والمخالعة! وكان من نتيجة ذلك أن الثاني طلقها، ثم خطبت لثالث، والثالث طلقها، والآن مطلقة من رجلين، ومخلوعة من رجل هو الأول، هذه خيانة، صار هناك عقد، ورضيت بهذا الخطيب زوجاً لابنتك، وهو جيد ودين، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

[الترمذي، ابن ماجه]

جاء خطيب غني، طمع الأهل في غناه، فنقضوا عهدهم مع الأول، فكان من جراء ذلك أن الله سبحانه وتعالى عاقبهم بأن الثاني طلق ابنتهم، زُوّجت من ثالث طلقها الثالث، وهي الآن مطلقة؛ هذا هو عقاب نقض العهد، وإذا تصورت أنك بنقض العهد سوف تحصل مالاً كبيراً، هذا هو عين الخطأ، المال يذهب، ويبقى نقض العهد، فإذا توكلت على الله، وأبرمت العقد، فالذي فاتك من حفاظك على العهد سيأتيك أضعافاً مضاعفة من طريق آخر .

فالإنسان في كل علاقاته، في علاقاته الشخصية، وعلاقاته التجارية، وعلاقاته مع الناس، إذا عاهد عهداً يجب أن يوفيه؛ وهذا من خلق المؤمن، ولا ينقض العهد إلا منافق، نقض العهد خصلة من خصال المنافق :

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ)

امتحان، هذا الامتحان؛ إما أن تنجح، وإما أن ترسب، فإذا رسبت فهذه هي الطامة الكبرى، لأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتتحطم أضلاعه، أهون من أن يسقط من عين الله ! الذي ينقض عهده مع ربه يسقط من عين الله! لا شأن له عند الله .

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا)

(سورة الكهف : 105)

(سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ)

(سورة الأنعام : من آية " 124)

(إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

اعلموا أن هناك يوما للحساب فلماذا تعصي الله من أجل دنيا زائلة ؟

الحقيقة أن الناس خلقوا في الدنيا ليحاسبوا عن أعمالهم كلها ؛ صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، ما قولك أن يقف الإنسان يوم القيامة بين يدي الله عز وجل ليحاسبه عن أعماله كلها؟ لماذا نقضت العهد معه؟ ألم تعلم أني أنا الرزاق ذو القوة المتين؟ ربنا عز وجل أوقف رجلين من أهل الغنى، فقال لأحدهما: عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ فقال: يا رب، لم أنفق منه شيئاً على أحد مخافة الفقر على أولادي من بعدي، فقال الله عز وجل ألم تعلم بأنني:

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)

(سورة الذاريات : 58)

إن الذي خشيته على أولادك من بعدك، قد أنزلته بهم .

وسأل عبداً آخر، قال: يا عبدي، أعطيتك مالاً فماذا صنع فيه؟ قال: يا رب، أنفقته على كل محتاج ومسكين، لثقتي أنك خيرٌ حافظاً، وأنت أرحم الراحمين، فقال: يا عبدي، أنا الحافظ لأولادك من بعدك .

تعاهد الله عز وجل ! تعاهد خالق الكون! رافع السماء بلا عمد، تعاهد الديان، تعاهد الحي الذي لا يموت، تعاهد الذي مصيرنا إليه جميعاً .

(إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

(سورة الغاشية : 25 - 26)

كلمة واحدة ليس لها جواب: لماذا نقضت عهدك يا عبدي مع فلان؟ ما الذي فعله حتى نقضت عهدك معه؟ ينسحب على هذا؛ أن الذي يتزوج يجب أن تكون نية الزواج على التأبيد؛ فلو أن الزوج أضمر في نفسه أنه بعد كذا من السنين يطلقها، فهو زانٍ في كل مدة قضاها معها، هذا عهد أيضاً! هذه الفتاة التي خطبتها من بيت أهلها كانت في دعة، وراحة، وطمأنينة، غررت بها كي تجعلها بعد أيام مطلقة، أو بعد أشهر، أو بعد سنوات .

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

هذه الآية دليل على أن الإنسان مختار غير مجبَر :

مثل هذه الآيات في القرآن الكريم تعني أن الإنسان مخير، لولا أنه مخير، لكان الناس أمة واحدة، متشابهين، كمعمل يصنع بضاعة، يصنع مئة ألف قطعة، مئتي ألف قطعة، متشابهة، كلها على شكل واحد، ومن نمط واحد، لكن الإنسان مخير، لولا اختياره لكان الإنسان أمة واحدة، لكن الإنسان ما الذي يرفعه عند الله عز وجل؟ أنه مكلف .

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب : 2 7)

الإنسان مكلف أن يعرف الله عز وجل، وأن يستقيم على أمره، في الإسلام عقيدة، وفي الإسلام شريعة؛ العقيدة يجب أن تؤمن بها بعد بحث ودرس، لأنه كما قال علماء الأصول: لا يُقبَلُ التقليد في العقيدة، وهناك شريعة ؛ يعني تنظيمات دقيقة جداً؛ في حياتك الشخصية، وفي زواجك، مع جيرانك، في

بيعك، في شرائك، في تجارتك، في صناعتك، في زراعتك، في الزكاة، مع الفقراء، علاقات دقيقة الإسلام عقيدة وشريعة .

الإسلام إيمان وعمل صالح، وربنا عز وجل قرن بين الإيمان والعمل الصالح في أكثر آيات القرآن الكريم :

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)

لولا أنكم مخيرون لكنتم أمة واحدة، لولا أنكم تتفاوتون في اختياركم لكنتم أمة واحدة، ولو أنكم أمة واحدة لما استحققتم هذا العطاء الكبير، طالما أنه لا اختيار معنى ذلك أنه لا رقي .

الاختيار يرفع الناس في الجنة ويسعِدهم :

ما الذي يرفع الناس في الجنة؟ أنهم جاؤوه مختارين، لو أن الله عز وجل أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أنه أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، و لو أنه تركهم هملاً لكان هذا عجزاً منه، لم يتركهم هملاً، و لم يجبرهم على طاعته، ولا على معصيته، بل جعلهم مكلفين، ومعنى مكلفين أيْ مخيَّرين .

أنت في المناقشة إذا قلت لصانع عندك في المحل: تعال باكراً، بربك قل لي: أليس معنى قولك لهذا الصانع : تعال باكراً ؛ أنه يستطيع أن يأتي متأخراً؟ لماذا قلت له: تعال باكراً؟ لأنه مخير، لأنه بإمكانه أن يأتي باكراً، أو أن يأتي متأخراً، فهذا الأمر منك يقتضي أنه مخير، لأنك أمرته فهو مخير، وإذا قلت لصانعك: لا تفعل كذا، لا تعمل كذا، أليس بإمكانه أن يعمل كذا؟ بمجرد أنك نهيته عن هذا العمل؛ هذا النهي عن العمل يقتضي أنه يستطيع أن يفعل ضده، فالإنسان مخير، ما دام أنه أمر ونهي موجودين، إذاً: هناك تخيير . ذلك :

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)

غير مخيرين، وإذا كنتم غير مخيرين فأنتم لا تسعدون في الجنة بهذا المستوى الرفيع الذي أعده الله لكم .

(وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

الضلال الاختياري والضلال الجزائي :

هذه الآية لها معانٍ عدة، أبسط معانيها، هناك ضلال ابتدائي من اختيار الإنسان، وهناك ضلال جزائي، يعني لو أصر الابن أن لا يدرس، بعد محاولات يائسة من الأب، أصر على عدم الدراسة،

عندئذٍ يخرجه الأب من المدرسة، ويدفعه إلى عمل معين، هل نقول: إنّ الأب جنى عليه فأخرجه ؟ لا، إخراج الأب لابنه من المدرسة جزاء إصراره على عدم الدراسة، فهذا الضلال الذي في هذه الآية، ضلال جزائي سبقه ضلال ابتدائي اختياري، اختار العبد الضلال، فأضله الله عز وجل .

(وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

من شاء الضلال أضله الله ، ومن شاء الهدى هداه الله :

وقد تُحمَلُ على أن الذي يشاء الضلال، هناك طريق للضلال، ومن يشاء الهدى، هناك طريق للهدى .

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان : 3)

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

الأعمال لها حساب :

هذه الأعمال سوف نحاسب عليها حساباً دقيقاً .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر : 92 - 93)

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

(سورة الأنبياء : 47)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

(سورة الزلزلة : 7 - 8)

((يا رسول الله، عظني وأوجز، فقال :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

قال: قد كفيت، فقال عليه الصلاة والسلام: فقه الرجل))

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ: قُلْتُ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ بَعْدَكَ قَالَ: قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ))

[مسلم]

(وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل : من الآية " 93)

أنت مخير :

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)

أنتم لستم كذلك، لأنكم مخيرون اختلفتم؛ هذا آمن، وهذا كفر، وهذا أحسن وهذا أساء، وهذا شكر، وهذا لم يشكر، هذا كان أميناً، وهذا كان خائناً، وهذا كان صادقاً، وهذا كان كاذباً، لأنكم مخيرون اختلفتم ؛ لو أنكم غير مخيرين لما اختلفتم .

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

الاختيار يقتضي المسؤولية :

الاختيار يقتضي المسؤولية والتبعة، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يَعصَ مغلوباً، ولم يُطعْ مكرهاً .

جيء برجل شارب خمر إلى سيدنا عمر فقال: والله يا أمير المؤمنين إن الله قدر عليَّ ذلك، فقال : أقيموا عليه الحد مرتين! مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله !

لذلك يقول الله عز وجل :

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة : 36)

هو مخير، ومكلف، وسوف يحاسب .

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36)أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى(37)ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى(38)فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى(39)أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى)

(سورة القيامة : 37 - 40)

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

(سورة المؤمنون : 115)

هذه الآية تعني أن الإنسان مخير، وسوف يحاسب على اختياره، لِمَ فعلت كذا ؟ ولِمَ لمْ تفعل ؟

(وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ

إيّاكم واليمينَ الغموس :

الإنسان يحلف يميناً كاذبة، العلماء قالوا: هناك اليمين الغموس؛ واليمين الغموس هي اليمين التي تحلف بها لتقتطع حق امرئ مسلم، أحياناً قد تدعي في القضاء على إنسان أن لك عنده مئة ألف ليرة، ولا تملك إيصالاً، أو سنداً، أو وثيقة، فحينما يدعى هذا المدين إلى القضاء، وليس عليه دليل مادي، يدعوه القاضي لحلف اليمين؛ هذه اليمين تسمى اليمن الحاسمة، فإذا حلفها انتهى كل شيء، لا شيء عليه، فإن لم يحلفها يعد عدم حلفه لها دليلاً على ثبوت هذا المبلغ، فلذلك قيل للكذاب: أتحلف اليمين، قال: جاء الفرج، نعم أحلف اليمين !!

(وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا)

اليمين الغموس سببٌ في زوال القدم بعد ثبوتها :

زلة القدم ؛ أن تقع في المعصية، لذلك اليمين الغموس لا كفارة لها، لماذا ؟ لأنها تغمس صاحبها في النار، قولاً واحداً، لكن هناك ملاحظات، هناك من يحلف يميناً غموساً، وتمضي الشهور والسنوات، ولا يحدث له شيء! وهناك من يحلف يميناً غموساً، ولا يغادر قاعة المحكمة إلا وقد أصيب، كلتا الحالتين مذكورتان في القرآن الكريم .

سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا- سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا

ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام : 11)

ثم ؛ تفيد الترتيب على التراخي .

والآية الثانية :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة النمل : 69)

الفاء للترتيب على التعقيب، فقد تكون الحكمة أن يؤخر له في العقاب، وقد تكون الحكمة أن يعجل له في العقاب .

على كلٍ؛ اليمين الغموس، تلك اليمين التي يحلفها المرء ليقتطع بها حق امرئٍ مسلم لا كفارة لها، لأنها تغمسه في النار .

(وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا)

الطاعة تثبيت والمعصية زلزال وزوال للإنسان :

الإنسان باستقامته يثبت في الإيمان، فإذا عصى الله عز وجل زلت قدمه، وطرد من دولة الإيمان سيدنا عمر ـ رَضِيِ اللَّه عَنْه ـ كان إذا أصابته مصيبة كان يقول : الحمد لله إذ لم تكن في ديني، كله سهل، ذهاب المال سهل، احتراق البيت، احتراق المحل، مصادرة المال، كل شيء لا علاقة له بالدين، فمصيبة هينة، فكان عمر رَضِيِ اللَّه عَنْه إذا أصابته مصيبة يقول : << الحمد لله إذ لم تكن في ديني>> .

(فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا)

والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ ألهمت الصبر عليها .

(فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

ما علاقة الصد عن سبيل الله بحلف اليمين الكاذبة ؟

يا الله؛ هذه الآية دقيقة جداً، ما علاقة الصد عن سبيل الله بحلف اليمين الكاذبة ؟ لا أرى علاقة .

(وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا)

واضحة :

(وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

ليس له علاقة بالموضوع هذا! هو حلف يمين كاذبة، كيف بهذه اليمين صد عن سبيل الله ؟ هذا الإنسان الآخر الذي يراك دَيّناً، والذي يظن بك أنك مؤمن، وحلفت أمامه يميناً كاذبة، كفر بالدين من أجلك، صددته أنت عن سبيل الله، صغَّرت الدين في عينيه، جعلت الدين تجارة تتاجر بها، أنت إذا حلفت يميناً كاذبة، ويعرف الناس عنك أنك دَيِّن، فقد جعلتهم يكفرون بهذا الدين، فقد جعلتهم يقولون : هؤلاء الذين يَدَّعون أنهم دينون هم كاذبون، لا تثقوا بهم، لا تصدقوهم .

لو أنك ألقيت ـ وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ وأنا واثق من هذا الكلام ـ ألف محاضرة في الصد عن سبيل الله، ما بلغت في الناس كما لو أسأت معاملتهم، لذلك قال الإمام الأوزاعي: " كان يقال : أنت على ثغرة من ثغر الإسلام، فلا يؤتين من قِبَلك " .

إياك أن تسبب للإسلام اتهاماً من قِبَلك؛ من نقضك العهد، من بعض الكذب، من بعض الإساءة، الآية دقيقة جداً :

(وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

إذا حلفت يميناً كاذبة صددت الناس عن سبيل الله، جعلتهم يرون الدين خرافة، أهذا هو الدين؟ أهكذا يأمرك الدين؟ أن تحلف يميناً كاذبة؟ لذلك هذا الذي يسيء معاملة الناس ويصلي أمامهم! هو الذي يبعدهم عن الصلاة! هو الذي يقول لهم: الصلاة كذب، أنا أصلي وها أنا أسيء لكم، هذا الذي يغش الناس في بيعه وشرائه، هذا الذي ينقض عهده مع الناس، هذا الذي يحتال عليهم، هذا الذي يغشهم، ويصلي أمامهم؛ إنه يصدهم عن الصلاة، يجعل الصلاة في نظرهم صغيرة، شيئاً لا قيمة له، يصلي ويفعل كذا؟! لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً))

[القضاعي في مسند الشهاب عن ابن مسعود]

إذا استقمت على أمر الله تكن داعية إلى الله من دون أن تشعر، ولو لم تنطق بكلمة، لو بقيت ساكتاً، وأحسنت للناس .

الآن في إندونيسيا تقريباً حوالي مئة وخمسون مليون مسلم، نحن كأمة عربية مئة مليون، إندونيسيا فقط مئة وخمسون مليون مسلم، كلهم أسلموا عن طريق التجار، لم يسلموا عن طريق الدعاة، ولا عن طريق الفتوحات؛ بل أسلموا عن طريق التجار!

هذا التاجر الصدوق الذي لا يكذب، لا يغش، لا يحتال، لا يرفع السعر من أجل أن يرهق الناس، لا يحتكر البضاعة، لا يفرح أن يعيش هو وحده، ويشقى الناس، التاجر الصدوق مع النبيين والصديقين يوم القيامة، الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا باعوا لم يطروا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا، وإذا كان لهم لم يعسروا .

بلاد في شرق أسيا أسلمت جميعاً من خلال المعاملة الطيبة، أنت بالذات أين تسكن؟ بأي حي؟ إذا كنت جاراً مستقيماً تغض بصرك، وتحسن إلى جيرانك، لا بد من أن يقول لك بعض الجيران : خذنا معك إلى المسجد، أنت إنسان عظيم، أنت إنسان مستقيم، فإذا أسأت إليهم، وذهبت أمامهم إلى المسجد، ربما كرهوا المساجد، وكرهوا الصلاة من أجلك، أليس كذلك؟ هذه الآية :

(وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

ممن نخشى على الإسلام؟ هل نخشى عليه من أعدائه؟ لا والله، نخشى عليه من أتباعه .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (20-21): تفسير الآيات 97 – 112 ، عن العمل الصالح

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-06-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس العشرين من سورة النحل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا)

ما هو العمل الصالح ؟

العمل الصالح؛ هو العمل بما جاء به القرآن الكريم، والسنة المطهرة، هو العمل بشرع الله سبحانه وتعالى، هو الانصياع لأمر الله سبحانه وتعالى، لذلك ربنا سبحانه وتعالى ذكر العمل الصالح مع الإيمان في أكثر آيات القرآن، مبيناً أن العمل الصالح من دون إيمان لا يكون، وأن الإيمان من دون عمل جنون، وأن العمل الصالح والإيمان متكاملان .

فلذلك قال الله تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا)

العمل الصالح يشترك فيه الذكر والأنثى :

كلمة (مَنْ)تعني الذكر والأنثى، لو أن الله سبحانه وتعالى قال : من عمل صالحاً وهو مؤمن، معنى ذلك : من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى، لماذا ذكر الله الذكر والأنثى؟ ليؤكد لنا أن المرأة والرجل متساويان في أشياء كثيرة، متساويان في التكليف، متساويان في التشريف، أما في الطبيعة فللمرأة طبيعة، وللرجل طبيعة، هنا يختلفان، لا ينبغي أن يوضع الرجل مكان المرأة، ولا أن توضع المرأة مكان الرجل .

امرأة جاءت النبي عليه الصلاة والسلام تشكو إلى الله، وتستفتي النبي عليه أتم الصلاة والتسليم، فعَنْ عَائِشَةَ قالتْ :

((تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ، وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ تَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ :]قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ [ ))

[ابن ماجه]

أريد من هذه القصة أربع كلمات؛ لها منه أولاد، إن تركَتْهم إليه ضاعوا، وإن ضمَّتْهُم إليها جاعوا، معنى ذلك أن الرجل مكلف بكسب الرزق، والمرأة مكلفة بتربية الأولاد، مكانه الطبيعي خارج المنزل، لكسب الرزق، ومكانها الطبيعي تربية الأولاد، لو أن الأولاد تركوا إليه لضاعوا، لأنه مشغول بكسب الرزق عن تربيتهم، ولو أن الأولاد ضُموا إليها لجاعوا، لأنها مشغولة بتربية الأولاد عن كسب الرزق.

إذاً هناك مساواة في البدايات، وهناك مساواة في النهايات، هناك مساواة في التكليف، وهناك مساواة في التشريف، لكن المرأة امرأة، والرجل رجل، ولعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال، وللرجل مجال حيوي، وحقل للعمل لا تستطيع المرأة أن تنافسه فيه، وللمرأة مجال حيوي وحقل للعمل لا يستطيع الرجل أن ينافسها فيه، فإذا نافست المرأة الرجل خسرت مرتين ؛ خسرت السباق، وخسرت أنوثتها .

فربنا سبحانه وتعالى قال :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا)

كان يكفي أن يقول: من عمل صالحاً فلنحيينه حياة طيبة، ولكنه قال :

(مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى)

الذكر والأنثى مكلّفان على السواء :

أي : إن الذكر مكلف بمعرفة الله معرفة يقينية، وبطاعته طاعة تامة مخلصة، وإن المرأة مكلفة بمعرفة الله معرفة يقينية، وبطاعتها لربها طاعة تامة مخلصة، متساويان في التكليف، ومتساويان في التشريف، من حيث الكرامة الإنسانية ؛ المرأة كالرجل، إنسان يتمتع بكامل حقوقه، لكن لها وظيفة، ولزوجها وظيفة، والقيادة للزوج .

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

(سورة البقرة : 228)

لهن حقوق كما عليهن واجبات .

(وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

درجة واحدة، فهذا معنى قوله تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى)

أما :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا)

حينما تكون الفطرة سليمة كل واحد منا يعرف العمل الصالح من الطالح ؛ بفطرته، بحسه، بإحساسه، بحدسه، بضميره، يعرف أن هذا العمل صالح، وأن هذا العمل طالح، هذا معروف، وهذا منكر، هذا عمل جميل، وهذا عمل قبيح، هذا عمل حق، وهذا عمل باطل، هذا عمل خيّر، وهذا عمل شرير، بالفطرة ؛ لكن إذا انطمست الفطرة تأتي الشريعة .

العمل الصالح له مصادر :

هذا العمل له ميزان دقيق هو الشريعة، هناك آيات القرآن الكريم، ما كان منها محكماً، وما كان منها متشابهاً، وهناك السنة المطهرة، وهناك إجماع الأمة وهناك القياس ؛ هذه مصادر التشريع في الإسلام .
إن هذه المصادر يتفرع منها أحكام تفصيلية لا حدود لها، تغطي كل نشاطات الإنسان ؛ في بيته، وفي عمله، في حله وترحاله، في سلمه، وفي حربه، وفي كل نشاطاته، لذلك ؛ إذا انطمست الفطرة فهناك الشريعة، استفت هذا العمل أيوافق عليه الشرع أم لا يوافق ؟ ما حكم هذا العمل ؟ ما من تصرف يقوم به إنسان على وجه الأرض إلا ويجب أن يكون منطوياً تحت خمسة أحكام ؛ إما أن يكون واجباً، وإما إن يكون مندوباً، وإما إن يكون مباحاً، وإما إن يكون مكروهاً، وإما إن يكون محرماً .
الأصل في الأشياء الإباحة، هناك واجب يعاقب تاركه، وهناك حرام يعاقب فاعله، وهناك مندوب يثاب فاعله، وهناك مكروه يؤاخذ فاعله، وهناك مباح يستوي فيه الفعل والترك، ما من حركة، ولا سكنة، ولا كلمة، ولا تصرف، ولا عمل صغير أو كبير، سري أو علني، إلا وينطوي تحت هذه الأحكام الخمسة، فالعمل الصالح هو ما جاء به القرآن الكريم .

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا)

(سورة البقرة : 83)

(فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)

(سورة آل عمران : 32)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا)

(سورة النساء : 36)

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ)

(سورة النساء : 148)

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ)

(سورة النحل : 128)

آيات القرآن الكريم، وأحاديث النبي العظيم مقياس دقيق للعمل الصالح .

عَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ الأسَدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِوَابِصَةَ :

((جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَعَمْ، قَالَ : فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ فَضَرَبَ بِهَا صَدْرَهُ، وَقَالَ : اسْتَفْتِ نَفْسَكَ، اسْتَفْتِ قَلْبَكَ يَا وَابِصَةُ، ثَلاثًا، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ))

[أخرجه الدارمي]

عندك مُفتٍ ينطق بالحق،

((وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ))

وكرهت أن يطلع عليه الناس، و :

((الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ))

تستطيع أن تخدع الناس كلهم بعض الوقت ! وتستطيع أن تخدع بعض الناس طول الوقت ! ولكنك لن تستطيع أن تخدع نفسك ولا ربك، ولا ثانية من الوقت، ولا ثانية واحدة .

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة : 14- 15)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى)

قد يقول لك قائلٌ: أخي أنا عملي طيب، القضية ليست بالصوم والصلاة! ولا بالإيمان! ولا بحضور مجالس العلم؛ القضية بالصدق، وبالوعد، والعهد، أنا خيّر، وهذا الذي يصلي يكذب، أنا لا أصلي، لئلا أكون مثله، هذه مقولة الشيطان .

العمل الصالح لا يقبل منك إلا إذا كنت مؤمناً بالله، لأنك إذا كنت غير مؤمن ؛ فهذا العمل نوع من التصرف الذكي، نوع من التكيف مع البيئة، نوع من تحقيق الأهداف الدنيوية بأيسر السبل، يجب أن يكون العمل الصالح مبنياً على أساس من الإيمان، ومعرفة الله عز وجل، ومعرفة التكليف، ومعرفة العبادة، لذلك :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

القرآن على إطلاقه .

الحياة الطيبة عامة :

ما الحياة الطيبة؟ أهي في وفرة المال؟ أم في تمام الصحة؟ أم في وجود الزوجة المطواعة؟ أم في وجود الأولاد الأبرار؟ أم في وجود المنزل الواسع؟ أم في وجود المركب الهين؟ وفي بعض الأحاديث عَنْ نَافِعِ بْنِ عَبْدِ الْحَارِثِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ الْجَارُ الصَّالِحُ، وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ، وَالْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ))

[أحمد في المسند]

يا ترى أهذه هي الحياة الطيبة؟ ألا ترون مؤمناً معسراً في المال؟ ألا ترون مؤمناً سقيماً في الصحة؟ يعني لو أننا حصرنا الحياة الطيبة، بالبحبوحة، والصحة، ورفعة الشأن، والزوجة الصالحة، والأولاد الأبرار، لأخرجنا من الإيمان من كان يعاني بعض المشكلات، من كان ضَيَّق ذات اليد، من كان في مشكلة، في مصيبة، في ابتلاء، في امتحان .

لذلك، ذهب بعض المفسرين إلى أن الحياة الطيبة هي اللذة التي لا توصف، حينما يحصلها الإنسان من طاعته لله عز وجل، ومن عمله الصالح .

إن السعادة التي يجنيها المؤمن حينما يشعر أنه مستقيم على أمر الله، وأن الله راضٍ عنه، وأن خالق الأكوان ممتن منه، وأن الله عز وجل يجعل له وُدّاً، وأنه يدافع عن الذين آمنوا، إن هذا الشعور بصرف النظر عن طبيعة الحياة، عن كونها قاسية أو رغيدة، حلوة أو مرة، إن شعور الإنسان بأن الله سبحانه وتعالى راضٍ عنه، لعمري تلك هي الحياة الطيبة :

فليتك تحلو والحياة مريـرة وليتك ترضى والأنام غضابُ

و ليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خـرابُ

***

الإمام الشافعي رَضِيِ اللَّه عَنْه استنبط من قوله تعالى :

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

(سورة المائدة : 18)

استنبط الإمام الشافعي رَضِيِ اللَّه عَنهْ أن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحبابه، قد يمتحنهم، وقد يبتليهم، وقد يضيق عليهم لبعض الوقت، ولكن لا لطول الوقت، فحياتهم تستقر على الإكرام، تستقر على الإحسان، فالحياة الطيبة لك أن تفهمها حياة مادية، وفرة في الدخل، صحة في الجسم، زواج سعيد، أولاد أبرار، رزق في البلد نفسها، ولك أن توسع المعنى، فتفهم الحياة الطيبة ؛ أنها الأنسُ بالله، الإقبالُ

على الله، أن يكون القلب مهبطاً لتجليات الله، أن تشعر أنك أعظم الناس، وأسعد الناس، بأنك عرفت ربك، وعملت بطاعته .

فلذلك؛ الذين يطيعون الله عز وجل، ويعملون الصالحات تقرباً له، تتأتى على قلوبهم سعادة لا يعرفها إلا من ذاقها، ولا ينكرها إلا من حرمها .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

هذه الآية فوق المكان والزمان، يعني في أي مكان أنت؛ الآية مطبقة، أما أن تطبق هذه الآية في مكان دون مكان؛ مستحيل؟! في بلد دون بلد؟ مستحيل! في زمان دون زمان؟ مستحيل! في ظرف دون ظرف؟ مستحيل! في بيئة دون بيئة؟ مستحيل! كلام رب العالمين مطلق، لا يحده شيء، و الآية ليست مقيدة، في أي بلد كنت، وفي أي زمان وجدت، وفي أي بيئة عشت، وفي أي ظرف تعاني، إنك إذا كنت مؤمناً يجب أن تحيى حياةً طيبة، ويجب أن تقول، ويا ليتك تقول: ليس في الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني؛ هذا مقياس إيمانك :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

تطيب بها النفس .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ ؟ قَالَ : مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ))

[الترمذي وأحمد]

سمعة طيبة، تنتزع ثقة الناس، ثقة الناس لا تقدر بثمن، الناس جميعاً يثقون بك، يحبونك، يصدقونك، لست عندهم بكاذب، يأتمنونك على أموالهم، وعلى أعراضهم، هذه ثروة كبيرة، لا يعرفها إلا من ذاقها .

(وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

لذلك يموت المؤمن بعرق الجبين، وما عرق الجبين؟ حينما يأتيه ملك الموت، ويطلعه على مقامه في الجنة، يخجل، لأن كل عمله مجتمعاً لا يعدل هذا المقام الرفيع في الجنة .

ثم قال عزوجل :

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

كيف يعيش الغني معيشة ضنكا ؟

قبل أن ننتقل لهذه الآية هناك آية أخرى، حينما تُذكر هذه الآية :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

يجب أن نذكر تلك الآية :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا(125)قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى)

(سورة طه : 124 - 126)

بعض المفسرين تساءل: كيف يعيش الغني معيشة ضنكاً؟ والمال بين يديه كالتراب، يستطيع أن يأكل ما يشتهي، وأن يلبس ما يشتهي، وأن يسكن في أي مكان يشاء، وأن يذهب حيث الجمال، وحيث الرفاه، فأيّ عيشة ضنك يعيشها هذا الغني ؟

أجاب المفسرون رَضِي اللَّه عَنْهم بأن المعيشة الضنك هي ضيق القلب، في قلب المعرض عن الله عز وجل ضيق لو وزع على أهل بلد لكفاهم، يضاف إلى هذا الضيق المعاناة المادية، إنك إذا قرأت القرآن قد يأتي الشيطان ليوسوس لك، قد يأتي الشيطان ليحول بينك وبين فهم كتاب الله، وبين العمل به، ليحول بينك وبين تدبره، تأتيك الوساوس وأنت تقرأ القرآن، لذلك :

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

استنبط العلماء أن هذه الآية مطلقة في أحكامها، حتى لو وقفت في الصلاة، أول شيء تقوله بعد دعاء الثناء، ثم الاستعاذة :

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

يقول تعالى بعد هذه الآية :

(إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

كلام واضح كالشمس، كلام لا يحتاج إلى تفسير، كلام مفَّسر .

(إِنَّهُ)

أي : الشيطان .

(لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا)

ليس للشيطان سلطان على المؤمن :

لذلك هذا الذي يقول: لعن الله الشيطان، ليلعن نفسه! لأن الشيطان ليس عليه سلطان .

(إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(99)إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ)

إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ

معنى تولّي الإنسان للشيطان :

هذا الذي يتولى الشيطان، معنى يتولى الشيطان أيْ: يطيعه، يستجيب لوسوسته، لا تصلِّ لئلا يؤخذ عنك فكرة ما، فلا يصلي، أفطِرْ في رمضان لتثبت لهم أنك كذا وكذا، فيفطر، هذا الذي قبل واستجاب لأمر الشيطان الآن أصبح للشيطان عليه سلطان، يسيره حيث يشاء، إذا رأيت إنساناً قد علق على حبل المشنقة، قل: هذا من عمل الشيطان، تولاه، فتسلط عليه ـ تولاه الإنسان بمعنى أطاعه ـ فتسلط عليه فأهلكه في الدنيا، وأشقاه في الآخرة .

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

(سورة البقرة : 268)

وقال سبحانه :

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : 175)

(إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ)

وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ

يعني يشركونه مع الله، يعزون إليه الفعل، يصدقون أنه بيده شيئاً يفعله .

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ

(وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة إبراهيم : 22)

ثم قال عزوجل :

(وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

الآية دليل على حكم النسخ في القرآن :

المفسرون حملوا هذه الآية على النسخ في القرآن الكريم، في القرآن الكريم آيات نسخت، وبقي لفظها، لحكمة بالغة أرادها الله، مرحلة معينة، تقتضي هذه الآية، هذه الآية استنفذت وظيفتها، فنسخت وحل محلها تشريع آخر، فحينما ذكرت، ذكرت لتنسخ، بمعنى ذكرت لينتهي حكمها، ويأتي حكم آخر، الله سبحانه وتعالى حرم الزواج بالكتابية، في وقت معين، ولحكمة بالغة، ثم سمح الزواج بالكتابية، والقبلة كانت نحو بيت المقدس، ثم حولت إلى الكعبة المشرفة، لحكمة بالغة، لو كان هناك وقت لبحث هذا الموضوع بالتفصيل لبحثناه؛ فما من آية ذكرت ثم نسخت إلا وهناك حكمة من نسخها، وحكمة من بقاء ذكرها .

قد يقول قائل: ما دامت قد نسخت لِمَ لمْ تمحَ؟ هناك حكمة من ذكرها أولاً، وحكمة من نسخها، وحكمة من بقاء لفظها، هذا ما عليه أهل السنة والجماعة .

(وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ)

لماذا كان القرآن معجزة النبي عليه الصلاة والسلام ؟

بعض العلماء قالوا: لماذا كانت آية رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الكتاب؟ ولماذا كانت آية موسى أن تكون عصاه ثعباناً مبيناً؟ وأن يشق البحر له؟ لماذا بدل الله الآيات المتعلقة بخرق قوانين الأرض؟ لماذا جاء محلها آيات متعلقة بالإعجاز البلاغي والتشريعي؟ كأن هناك من يعترض، لِمَ لم يكن مع رسول الله معجزات كمعجزات موسى؟ لِمَ لم يكن مع رسول الله معجزات كمعجزات عيسى عليه السلام؟ هذا المعنى الآخر للآية .

(وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ)

هذه الآية الرد :

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ)

الله هو المنزِّل ، والنبي ليس مفتريًا :

هو الحكيم، هو الإله القدير، لا نحيط بعلمه، ولا نرقى إلى حكمته .

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ)

هذه من عندك، ما جاءت في كلام الله، أنت الذي نسختها، أنت الذي حورتها .

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة يونس : 15)

مستحيل ! شيء لا يمكن أن يقع ! أنا نبي مكلف برسالة، ليس في صلاحيتي أن أبدل آية مكان آية،

(قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي)

ثم يتابع تعالى الآيات فيقول :

(قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ

روح القدس هو جبريل :

القدس الشيء الطاهر، أو كأن تقول: الروح المقدسُ، والمقصود بروح القدس سيدنا جبريل عليه والسلام، إنه سيد الملائكة .

(قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ)

موضع بيان لتوحيد الربوبية :

لم يقل: مِن الله عز وجل ؛ لأن مناط الربوبية تربية الإنسان، وتوضيح الحقائق له، وتقديم التشريع له، والأخذ بيده، ومعالجته، هذا كله من صفات الربوبية .

(قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)

حينما يكون هذا الكلام من عند الله عز وجل وفيه حقائق؛ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يهدي للتي هي أقوم، قطعي الثبوت، قطعي الدلالة، غنىً لا فقر بعده، ولا غنىً دونه حينما يكون الكتاب كذلك، فيه قواعد ثابتة، فيه قوانين حتمية، فيه طريق إلى الله عز وجل، فيه ذكر الحلال والحرام، والخير والشر، والحق والباطل، فيه منهج الإنسان إلى دار السلام، حينما يكون القرآن كذلك فإنه :

(لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)

القرآن تثبيت وهدى ورحمة للمؤمن :

من الأشياء المضحكة أن كفار قريش أرادوا أن يثيروا الشكوك برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، هناك غلام نصراني يتقن اللغات الفارسية، والرومية، كان مقيماً بمكة، يبدو أن النبي عليه الصلاة والسلام لقيه، فقالوا : عرفنا السر، إن هذا الغلام هو الذي يعلم رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذّا هذا القرآن قد أخذه من عند هذا الغلام، شيء مضحك، تهمة لا تقف على قدميها .

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ

النبي أميٌّ لم يعلّمه أحد من البشر :

أبى القرآن أن يذكر اسم هذا الغلام؛ لأن الغلام ليس مقصوداً، لا يمكن لبشر كائناً من كان أن يعلم النبي العدنان ، ليس المقصود هذا الغلام بالذات، لا يمكن لبشر أن يعلم هذا النبي ، هذا النبي جعله الله أمياً ليقطعه عن ثقافة البشر، وليجعل كلامه كله من وحي الله عز وجل .

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم : 3)

لذلك كل ما أقره النبي عليه الصلاة والسلام فهو تشريع .

كان النبي عليه الصلاة والسلام عند أحد أصحابه، وقد توفي، اسمه أبو السائب، فعَنْ أُمِّ الْعَلَاءِ وَهِيَ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَائِهِمْ بَايَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ :

((طَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ فِي السُّكْنَى حِينَ اقْتَرَعَتْ الْأَنْصَارُ عَلَى سُكْنَى الْمُهَاجِرِينَ، فَاشْتَكَى فَمَرَّضْنَاهُ حَتَّى تُوُفِّيَ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ فِي أَثْوَابِهِ، فَدَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ : رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ، قَالَ : وَمَا يُدْرِيكِ ؟ قُلْتُ : لَا أَدْرِي وَاللَّهِ،

قالَ : أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ مِنْ اللَّهِ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ، قَالَتْ : أُمُّ الْعَلَاءِ : فَوَاللَّهِ لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ، قَالَتْ : وَرَأَيْتُ لِعُثْمَانَ فِي النَّوْمِ عَيْنًا تَجْرِي، فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ : ذَاكِ عَمَلُهُ يَجْرِي لَهُ))

[البخاري]

لو أن النبي عليه الصلاة والسلام سكت لكان هذا الكلام صحيحاً، لكنه صاحب التشريع قال :

((وَمَا يُدْرِيكِ))

بأن الله أكرمه ؟

((إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ مِنْ اللَّهِ ... أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ))

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

(سورة الحجر : 99)

((وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ))

إنّ كل أقواله، وإن كل أفعاله، وإن كل إقراراته وحي غير متلو، لقوله تعالى :

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم : 3)

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ)

كيف يعلّم الأعجميُّ العربيَّ ، والقرآن عربي ؟!!

هذا الغلام أعجمي، لا يعرف العربية، ولا بيانها، ولا بلاغتها، ولا إعجازها .

(وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)

ألا يكفي ذلك ؟

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

هل تعلم الطريق الوحيد الموصِل إلى الله ؟

هذه الآية خطيرة جداً، تبين أن الطريق الوحيد إلى الله عز وجل، تبين أن الطريق الوحيد إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، التفكر في آياته الكونية، أو تدبر آياته القرآنية .

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ)

هناك الآيات الكونية، الشمس والقمر، والليل والنهار، والنبات والحيوان، والسهل والجبل، والأسماك والأطيار، وخلق الإنسان، وما في الكون من آيات دالات على عظمته، أو آيات القرآن الكريم، مَنْ لم يؤمن بآيات الله الكونية بالتفكر، ومن لم يؤمن بآيات القرآن الكريم بالتدبر، فإن الله سبحانه وتعالى لا يهديه الطريق مسدود .

طريق معرفة الله الكون، وهذا الكتاب، إن لله في أرضه كتابين، الكون، والقرآن، فالكون قرآن صامت، والقرآن كون ناطق، و يمكن أن تضيف باباً ثالثاً لمعرفة الله عز وجل، ألا وهي آيات الحوادث، إنما يجري في الحياة من إكرام المستقيم، ومن معاقبة اللئيم، ومن إكرام الشاكر، ومن محق الكافر، من توفيق المصدق، وتعسير المكذب، إن الحياة طافحة بالدروس والعبر .

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة النمل : 69)

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام : 11)

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

الكافر بآيات الله له عذاب أليم في الدنيا والآخرة :

عذاب أليم في الدنيا والآخرة، وإذا قال العظيم : إن العذاب أليم، فيجب أن تعرفوا ماذا تعني كلمة أليم، العظيم يقول عن هذا العذاب : إنه عذاب أليم، يعني حينما يقطع عصب الضرس حين قلعه تعرف ما هو العذاب الأليم، لو قلع الضرس من دون مخدر، ألم الضرس وحده، ألم الرمال في الكليتين، ألم الاضطراب في الأمعاء، ألم الأورام الخبيثة، نعوذ بالله منها، هناك آلام لا تحتمل ! هذا عذاب أليم في الدنيا، فكيف الآخرة ؟! .

(إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ)

إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ

ليس النبي عليه الصلاة والسلام هو الذي يفتري الكذب، حاش لله !

(إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ)

الكافر كاذب :

الكذاب هو الكافر، لأنه بنى حياته على الكذب، بنى حياته على أفكار غير صحيحة، حينما انطلق إلى الدنيا وحدها، وقال: هي كل شيء ؛ فهذا كذب، حينما ظن أن الله لا يحاسبه فهذا كذب، حينما ظن أن الله يسوي بينه وبين المؤمن، فهذا كذب، حينما ظن أنه ليس في الأرض حق، كل إنسان يقول: أنا على حق، الأمور فوضى، لا .

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة : 30)

فلابد من أن يكون في الأرض من هو على حق .

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت : 69)

هذه مقولات الكفار؛ هي الكذب، الذي يبني حياته على الكذب، وعلى أفكار كاذبة ؛ هو الكذاب، إذا بنيت حياة الكافر على الكذب فأقواله كذب، إن قال لك : الدنيا هي كل شيء، اقتنص كل اللذات قبل أن يأتي الموت ؛ هذا كذب ؛ لأنه عد الموت نهاية الحياة، الموت بداية وليس نهاية، إذا قال لك : إن لم تملك المبلغ الضخم فلا قيمة لك، هذه هو الكذب، هذه فكرة ساذجة، هناك مصائب لا ينفعها المال .

إن شعور المؤمن بطاعة الله عز وجل يفوق شعور الغني بالغنى، ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس .

(إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمْ الْكَاذِبُونَ)

من بنى حياته على الكفر، وعلى الكذب، وعلى معتقدات زائغة، وضالة، وغير صحيحة ؛ هو الكذاب المبين .

(مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ

هدف الأديان السماوية الحفاظ على الكليات الخمس :

الإسلام والأديان ـ الإسلام بشكل خاص، والأديان بشكل عام ـ جاءت لتحفظ خمسة أشياء ؛ لتحفظ الدين، وتحفظ العقل، وتحفظ النفس، وتحفظ المال، وتحفظ العِرض، فمن اعتدى على الدين بالارتداد،

ومن اعتدى على المال بالسرقة، ومن اعتدى على العرض بالزنى، ومن اعتدى على النفس بالقتل، ومن اعتدى على العقل بالخمر، فللخمر حد، وللزنى حد، وللسرقة حد، وللقتل حد، وللارتداد حد .

(مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ)

خطورة الكفر بعد الإيمان :

من كان كافراً ولم يؤمن شيء، ومن كفر بعد الإيمان شيء آخر، من كفر بعد الإيمان فهذا اعتداء على الإيمان، اعتداء على الشريعة، اعتداء على الدين .

(غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

(سورة الفاتحة : 7)

لكن دخل في الدين ثم خرج منه، هذا عدوان .

(مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ)

إذا هُدِّدت حياة الإنسان جاز أن ينطق بكلمة الكفر غير معتقد بها :

إذا هُدِّدت حياة الإنسان، إذا خاف الإنسان على حياته خوفاً حقيقياً، لا خوفاً واهماً! إذا كان الذي يهددك في حياتك من الذين يفعلون ما يقولون، إذا غلب على ظنك أن حياتك مهددة بالقتل، أو أن أحد أعضائك مفقود، أو أن مالك كله مستباح، أجاز لك الشرع أن تنطق بكلمة الكفر! ـ لكن الكلام دقيق ـ إذا غلب على ظنك أن حياتك مهددة بالقتل، وأن أحد أعضائك مهددة بالبتر، أو مالك كله، هذه الشروط الثلاثة، غلب على يقينك، والذي تخاف منه يفعل ما يقول، عندئذ أجاز لك الشرع أن تنطق بكلمة الكفر! أو ما دونها، مثل أن تأكل لحم الخنزير .

(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة البقرة : 173)

الضرورات تبيح المحظورات :

لم يأكل زيادة عن الحد المطلوب، حفظ نفسه من الموت .

(فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ)

هذه الضرورات ـ قاعدة فقهية ـ الضرورات تبيح المحظورات، أي ضرورة هذه ؟ هنا المشكلة، توسع بعض الناس في الضرورات، حتى جعل لوم الناس من الضرورات، إنما هي : خوف فقد الحياة، أو خوف فقد أحد الأعضاء، أو خوف تضيع المال كله، هذه هي الضرورات فقط، ولا شيء سواه، ويجب أن يغلب على ظنك أن هذا الذي تخافه يفعل ما يقول، عندئذ لك أن تنطق بكلمة الكفر، أو ما سواها من المحظورات .

أما الحاجات غير الضرورات، أما المتممات، مثلاً ينقصه مكيّف، هذه متممات، والحاجات، تناول الطعام الأساسي، والضرورات حفظ الحياة، فعندنا ضرورات، وحاجات ومتممات، كلمة الكفر، أو فعل المحرمات، ليست مغطاة إلا في حالة تهديد الحياة، أو بتر العضو، أو مصادرة المال .

(مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ)

الاجتهاد في الأخذ بالرخصة أو العزيمة :

الصحابة اجتهدوا؛ بعض أصحاب رسول الله قُطّعوا إرباً إرباً، ولم ينطقوا بكلمة الكفر، هكذا اجتهدوا، يا خبيب أتحب أن تكون في أهلك وولدك وعندك عافية الدنيا ونعيمها؟ ويصاب رسول الله بشوكة؟ قال: والله ما أحب أن أكون في أهلي وولدي، وعندي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة، وقتلوه !

صحابي جليل كان عند ملك الروم، وأراد أن يحمله على ترك دينه، أوقد ناراً، وجعل فوقها قِدْراً كبيراً فيها زيت مغلي، وجاء بأسير، وألقاه في هذا القِدْر، إلى أن ظهرت عظامه وحدها، ذاب لحمه، وظهرت عظامه، فجعل هذا الصحابي يبكي، ففرح ملك الروم، وظن أنه قد انهارت قواه، قال له: ما لك تبكي؟ قال: أبكي لأن للإنسان نفساً واحدة، كنت أتمنى أن تكون لي أنفس عديدة، تموت هذه الميتة كل مرة، فأكسب عند الله أجراً عظيماً، عندئذ تركه .

هنا اجتهاد؛ إن حفظت حياتك فهذا الاجتهاد مباح لك، وهو مغطى شرعاً، وإن آثرت أن تكون كسيدنا بلال، وضعوا الصخرة على صدره، ليحملوه على الكفر فقال : أحد أحدٌ، فرد صمد، حتى جاء سيدنا الصديق، واشتراه من أمية بن خلف، قال له أمية : والله لو دفعت به درهماً واحداً لبعته لك ! قال الصديق : والله لو طلبت به مئة ألف درهم لدفعتها لك ! أخذ بيده، وقال : هذا أخي حقاً، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ عُمَرُ يَقُولُ :

((أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا، يَعْنِي بِلَالًا))

[البخاري]

حتى إن سيدنا عمر رَضِي اللَّه عَنْه كان إذا علم بقدوم بلال إلى المدينة خرج إلى ظاهر المدينة لاستقباله .

(مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ)

هذا مستثنى من الحكم .

(وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا)

من الكفر انشراح الصدر بالكفر :

أما هذا الذي يرتاح لأفكار الكفر؛ يرتاح للكافرين، يأنس بهم، يحب أن يكون منهم، يحب أن يجلس معهم، يجاملهم إلى أقصى الحدود، قد يسبقهم في مجاملته لهم، هذا الذي يرتاح للكفر، ولأهل الكفر، وينساق معهم في حديثهم، وفي أمسياتهم، وفي حفلاتهم، وفي نزهاتهم، وهو منهم، وهم منه ! هذا هو المعني بالآية :

(وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

العظيم يقول عن العذاب: إنه عظيم، فما مستوى هذا العظيم ؟

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

الميل إلى الكفار لهدف الدنيا ومفاتنها :

لماذا جاملوا الكفار؟ وعاشوا معهم؟ وسايروهم؟ وماشوهم؟ وسهروا معهم؟ وذهبوا إلى متنزهاتهم؟ وأقروهم على انحرافاتهم؟ وقدموا لهم كل غالٍ ورخيص؟ ونفس ونفيس ؟

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ)

دخل أبو حنيفة رَضِي اللَّه عَنْه على أبي جعفر المنصور فقال له المنصور: يا أبا حنيفة، لو تغشيتنا؟ قال: ولِمَ أتغشاكم، وليس لي عندكم شيء أخافكم عليه؟ وهل يتغشاكم إلا من خافكم على شيء؟ ربنا يقول :

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ)

سيدنا الحسن البصري قيل له: " بمَ حصلت هذا العز، وهذه المكانة؟ قال: بشيئين؛ لحاجة الناس إلى علمي، واستغنائي عن دنياهم "، استغنى عن الدنيا، زهد بها، فرفعه الله عز وجل، لذلك احتج إلى الرجل تكن أسيره، واستغن عنه تكن نظيره .

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

هذا الذي آثر الدنيا على الآخرة، الطريق إلى الله مسدود .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ :

((كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْآنَ يَا عُمَرُ))

[البخاري]

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

ثم قال تعالى :

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ)

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ

الطبع الابتدائي والطبع الجزائي :

كما قلت لكم سابقاً: هناك طبع ابتدائي، وهناك طبع جزائي، يعني حينما لا يداوم الطالب في المدرسة يوماً واحداً، يصدر مدير المدرسة أو رئيس الجامعة قراراً بفصله، وبحرمانه من الجامعة، هل هذا المدير، أو هذا الرئيس في الجامعة قد جنى عليه؟ إن قراره مبني على عمل الطالب، فهناك طبع جزائي، وهناك طبع ابتدائي .

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف : 5)

فطبع على قلوبهم، لأنهم أعرضوا عن الله عز وجل، اتجهوا إلى الدنيا، انغمسوا فيها، جعلوها كل همهم، جعلوها مبلغ علمهم، لذلك طبع الله على قلوبهم .

(لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ)

لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ

طعم الخسارة مؤلم :

الخسارة مؤلمة، لا يعرفها إلا من ذاقها، قد يشتري التاجر بضاعة، وتبقى عنده سنوات وسنوات، يبيع منها، ويحصل ثمنها، وينقلها، ويخبئها، ثم يخسر فيها، إذا خسرت المال، فالمال شيء جزئي، وإذا خسرت من تحب، فمن تحب جزء من كيانك، أما إذا رأيت أنه لا حياة إلا الحياة الآخرة، وأنها إلى الأبد، وأنك قد خسرتها؟! شيء يصعب تصوره، خسارة كل شيء وإلى الأبد !! طعم الخسارة مر !

(لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

الخسارة الحقيقية هي خسارة الآخرة :

قال تعالى :

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

(سورة الكهف : 103 - 104)

وقال سبحانه :

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ(1)حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ (2)كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3)ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4)كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(5)لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ (6)ثُمَّ لَتَرَوْنَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7)ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ)

(سورة التكاثر)

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا

الله غفور رحيم لمن تاب وجاهد وصبر :

حينما يتوهم الرجل أن الله غفور رحيم من دون جهد، من دون شيء إطلاقاً، فقط غفور رحيم، افعل ما بدا لك، وهو غفور رحيم، هذا معنى ساذج، هذا معنى شيطاني .

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

اجمع آيات المغفرة تجد أن الله عز وجل غفور رحيم من بعد التوبة والإقلاع .

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا)

(سورة النساء : 146)

(إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

تابوا، وآمنوا، وعملوا الصالحات .

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

وقال سبحانه :

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(49)وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

لم تعد إليه فعذابه أليم .

(قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(53)وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (54)وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ(55)أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنْ السَّاخِرِينَ)

(سورة الزمر : 53 - 56)

(يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُون

كل نفس يوم القيامة تدافع عن نفسها :

لو اتهم إنسان بتهمة كبيرة، وسيق للتحقيق ماذا يفعل؟ يدافع عن نفسه بشكل مضطرب، خوف العقاب! يقول كلاماً صحيحاً وغير صحيح، معقولاً وغير معقول! مقبولاً وغير مقبول .

(يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا)

تدافع عن نفسها، بغية أن تنجو من عذاب الله .

(وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

الحساب بالتمام والكمال من غير ظلمٍ :

بالتمام والكمال .

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ)

(سورة الزمر : 70)

(وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

يبدو أن الله سبحانه وتعالى قد يعطي المؤمن في الدنيا عطاءً تشجيعياً، لكن أجره الكبير مدخر له في اليوم الآخر .

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران : 185)

الغنى والفقر بعد العرض على الله .

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ

أيّ قرية تنطبق عليها المواصفات تدخل في هذا المثل :

ليست قرية بعينها، أية قرية .

(قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ)

الرزق الوفير يُجبى إلى هذه القرية من جميع البلدان :

أمن، وطمأنينة، وخيرات من كل حدب وصوب، وتجارات رائجة، وبيوت فخمة، ومواد متوافرة، وغذاء رخيص، ولباس أنيق، وبيت فخم .

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ)

قال نبي الله شعيب عليه السلام لقومه :

(إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ)

(سورة هود : من آية " 84)

قال بعض المفسرين: توافر المواد ورخص الأسعار .

(إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ)

(سورة هود : من آية " 84)

(يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ)

المعاصي والكفر والذنوب تُذهِب النعم :

أدارت ظهرها للدين، ضربت بأحكامه عرض الطريق، لم تقم حياتها وفق شريعة الله، لم تحكم بما أنزل الله، عدّت الدين شيئاً قديماً بالياً لا يصلح لهذا الزمان، أخذت عن الغرب فسقه وفجوره، وانحطاطه الخلقي، وإباحيته .

(فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

هذا هو جزاء هذه القرية فاعتبروا يا أولي الأبصار :

والأدلة والشواهد حولنا :

(فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

الجوع والخوف ..

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

(سورة قريش : 4)

هذه أذاقها، ما أذاقها؟ الجوع والخوف، يا ليت! أذاقها لباس؛ يعني أن الجوع والخوف لباس ثابت لا ينزع عنهم، حيث ما تحركوا، وأينما اتجهوا، يخاف الرجل .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (21-21): تفسير الآيات 119 – 128 ، عن الموعظة الحسنة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-06-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي والعشرين والأخير إن شاء الله من سورة النحل .

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا

العلاقة بين العبد وربه علاقة مسامحة مبنية على التوبة :

ربنا سبحانه وتعالى يطمئننا إلى أن الذي يعمل السوء بجهالة، ويتوب من بعد عمل السوء، ويصلح، ومعنى يصلح؛ أنه إذا كان الذنب بينك وبين العباد ؛ فهذه العلاقة مبنية على المشاححة، أما العلاقة بين العبد وبين ربه فمبنية على المسامحة، فالذنب الذي بينك وبين الله يغفره الله سبحانه وتعالى، لكن الذي بينك وبين العباد لا يغفر إلا بالإصلاح، أي بالتصحيح، برد الحقوق إلى أصحابها، بالاعتذار، بطلب المسامحة، بمحو السيئة بالحسنة، بتقديم شيءٍ ينسي صاحب الحق حقه .

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ)

معنى : عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ

ومعنى: عملوا السوء بجهالة؛ أي: إن الإنسان قد يجهل النتائج الخطيرة التي تؤدي إليها المعصية، لو أن الناس عرفوا إلامَ تنتهي بهم السيئات ما فعلوها، والدليل أن الناس أحياناً يرون بأم أعينهم ما يحل بمن يخالف تعليمات إنسان، لذلك يطبقون هذه التعليمات تطبيقاً حازماً، بسبب أنهم رأوا نتيجة من خالف هذه التعليمات، فكيف لو عرفت أن هذه التعليمات التي أمر الله بها سوف تشقي صاحبها في الدنيا والآخرة؟ لذلك لا يعصي ربه إلا جاهل، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ...))

[متفق عليه]

لو أنه كان مؤمناً ـ أي مقبلاً ـ لاستنار قلبه بنور الله، ورأى بهذا النور نتائج الزنى فكفَّ عنه .

إذاً :

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا)

إتباع التوبة الصادقة بالإصلاح ورد المظالم :

من بعد التوبة الصادقة، ومن بعد إصلاح الخلل، ورد الحقوق، والاستسماح .

(إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

لذلك هذا الذي يطمع بمغفرة الله من دون ثمن، أو من دون توبة، أو من دون ندم، أو من دون عزم أكيد على ترك الذنب، أو من دون إصلاحٍ، فهذا مغرورٌ، واقع بالأوهام .

على كلٍ؛ هذا الذي يعلم أن هذه معصية، وأنك إذا فعلتها وقعت في غضب الله عز وجل، كلما ازداد علمك بأنها معصية، وبأنها مهلكة ازداد الحجاب بينك وبين الله، وقلَّتْ فرص التوبة ؛ لذلك فرص التوبة تزداد مع الجهل بالذنب، وتقل مع العلم به، فإذا كنت تعلم علم يقينياً أن هذه معصية تغضب الله عز وجل، وفعلتها وأنت تعلم ! أغلب الظن أن فرص التوبة تقلّ، وأن الحجب تكثر، وأن القطيعة محققة، هذا الحجب يحتاج لمراجعة.

التوبة لها شروط :

في موضوع التوبة تفصيلات دقيقة جداً ؛ العلماء ولا سيما الإمام الغزالي رَضِيِ اللَّه عَنْه قال : للتوبة شروط، أولها العلم والندم، والعزيمة، معنى العلم؛ يجب أن تعلم أن هذا ذنب، وأن هذه معصية، وأن هذا العمل خلاف الشرع، يجب أن تعلم أن هذه معصية، وأن هذا يغضب الله، وأن هذا يؤدي إلى عقاب في الدنيا قبل الآخرة .

هناك بعض الأشخاص يتوهم أن الآخرة بعيدة، وأن الله غفورٌ رحيم، لكن يجب أن يعلم هؤلاء أن لكل سيئة عقاباً في الدنيا قبل الآخرة والعقاب من نوع الذنب ؛ فالذي يأكل مالاً حراماً يعاقب بإتلاف ماله، والذي يخالف أوامر الله في صحته يعاقب بالمرض، والذي يخالف أوامر الله في زواجه يعاقب بالشقاق الزوجي، والذي يخالف أوامر الله في تربية أبنائه يعاقب بعقوق الأولاد، والذي يخالف أوامر الله في تجارته يعاقب بإتلافه، وإن لكل سيئة عقاباً، ولكل حسنة ثواباً، فيجب أن نعلم علم اليقين أن السيئات، والمعاصي، والمخالفات لها عقاب في الدنيا قبل الآخرة، وأن العقاب قد يكون أليماً، وأن الثمن قد يكون

باهظاً، وأن الإنسان حينما يواجه العقاب، أو يواجه الخسارة، عندئذ يقول: ليتني لم أعص الله، لأنه أصبح خاسراً، والذي حصله في المعصية دفعه أضعافاً مضاعفة عند العقاب .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

كيف يكون الرجل الواحد أمّةً ؟

كيف نفسر هذه الآية؟ كيف يكون رجل واحد أمة ؟

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

بمعنى أن عنده في قلبه عزيمة على طاعة الله، وفي قلبه معرفة، وفي قلبه شكر، وفي قلبه صبر، وفي قلبه رحمة، لو وزعت على أمة لوسعتها .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

كان قوي العزيمة، كان شديد الورع، كان محباً لله، كان قلبه ممتلئاً رحمة ؛ حيث إن الذي حصله من الحق جل وعلا، لو وزع على أمة لكفاهم .إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)
لو أن واحداً كان يملك أموال الدنيا، نقول: هذا يملك أموال الدنيا، لو وزع هذا المال على أبناء الأرض لكفاهم ؛ بهذا المعنى، هذا أحد معاني:

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

لأنه دعا إلى الله وأراد هداية الخلق، وإسعادهم، أراد أن ينقذهم من الضلال إلى الهدى، من الشقاء إلى السعادة، من الضياع إلى الوجدان، من التشتت إلى التجمع ؛ لأنه أراد ذلك فصار في قلب كل إنسان، صار هذا النبي العظيم في قلوب أتباعه، أحبوه، واتبعوه، وشكروه، وأثنوا عليه، وجعلوه قدوة لهم ح هذا المعنى الآخر .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

هذا يسيرٌ وفي متناول كل مؤمن صادق :

وهذا شيء ميسر لكل مؤمن، حينما يخرج المؤمن من ذاته إلى هداية الآخرين، إلى نصحهم، إلى إكرامهم، إلى إسعادهم، إلى تقديم خدمة لهم، حينما يعطف عليهم، يرحمهم، حينما يقلق لمصيبة ألمت بهم، حينما يبذل وقته رخيصاً لأجلهم؛ عندئذ يحبونه، ويدخل قلوبهم، ويصبح في قلوب كل من أحبه ؛

هذا المعنى الآخر، فإذا أردت أن تسعد فاسعد الآخرين .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

بين أن تكون فرداً، وبين أن تكون أمة ؟ قد ترى جنازة لا يتبعها إلا رجلان أو ثلاثة ! وقد تسمع بجنازة تبعها مئة ألف شخص، طواعية، معنى ذلك أن هذا الميت ترك في نفس هؤلاء الذين تبعوه أثراً بليغاً، ومحبة صادقة، وإكباراً، وشكراً وامتناناً .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

أحياناً على مستوى الأسرة، يكون هناك كبير الأسرة، يحل مشكلاتها، يوفق بين المتخاصمين فيها، يقدم المعونة لفقرائها، هذا الشخص على مستوى أسرته يصبح في قلوب كل أفراد الأسرة، يقولون : عميد أسرتهم ؛ لأنه قدم خدمات لهم، لأنه رعى مصالحهم، وفق بين متخاصميهم، لأنه وفق بين زوجين متباعدين، وفق بين شريكين، وفق بين أخوين، قدم المساعدة، عطف عليهم، كان رؤوفاً بهم، إذاً هو عميد أسرتهم، وهذا شيء ميسر للمؤمن، أن يكون في قلوب الآخرين، أن يخرج من ذاته لخدمة الخلق ؛ لأنه إذا خدم الخلق أحبه الحق، والخَلقُ كلّهم عيالُ الله، وأحبُّهم إلى الله أنفعُهم لعِياله، وما من طريقة تتقرب بها إلى الحق كخدمة الخلق، لذلك :

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

(سورة العصر)

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف : 110)

طريق التقرب إلى الحق خدمة الخلق .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

أمة واحدة بالإيمان والأخلاق الحسنة والإحسان إلى الخلق :

بصفاته الفضلى، بإيمانه، بكبر قلبه، برحمته، بتوبته، بطهره بورعه، باستقامته، بحبه للخير، كان فيه من الصفات ما يسع أمة، وكان أمة في قلب كل تابع من أتباعه، هل تستطيع أن تدخل إلى قلوب الناس قسراً؟ لا والله! ليس هناك قوة، لو ملكت قوى الأرض كلها على أن تدخل في قلوب الآخرين، لا تستطيع إلا بالإحسان! يا داود ذكر عبادي بإنعامي عليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها ..

(لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)

(سورة الأنفال : 63)

لو أن أباً قسَا على أولاده وضايقهم، وحرمهم، وقال لهم: أحبوني، ورددوا ألفاظ المحبة، وأسمعوني كلمات المحبة، وقوموا لي إذا مررت بكم ؛ لو أنهم فعلوا ما أمرهم به هل يحبونه؟ لا، لن تستطيع أن تدخل إلى قلب إنسان إلا بالعمل الصالح، إلا بتواضعك، إلا بخدمتك، إلا بعلمك، إلا برحمتك، إلا بعطفك، إلا بحنانك، بهذا تدخل في قلوبهم، قد يفعلون ما تريد منهم قد يفعلون ما تأمرهم به قسراً وكرهاً، ولكنك تبقى بعيداً عنهم، ما الذي جعل أتباع النبي عليه الصلاة والسلام بعد ألف وأربعمئة عام يقدمون إلى قبره الشريف، يقفون مزدحمين، تنهمر دموعهم، كيف؟ ما رأوه، ما سمعوا كلامه، ما تلقوا منه خدمة معينة ؛ لكنهم سمعوا عن فضائله، وعن خلقه العظيم، وعن رحمته، وعن عطفه، وعن تواضعه، وعن تواصله، وعن كرمه، وعن حبه للناس، يا من كانت الرحمة مهجتك، والعدل شريعتك، والحب فطرتك، والسمو حرفتك، يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ، يا من قدست الوجود كله، ورعيت قضية الإنسان، يا من هيأك تفوقك لتكون واحداً فوق الجميع، فعشت واحداً بين الجميع، يا أيها النبي .

يا أيها الأب، يا أيها الأخ، أشهد أنك بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، وكشفت الظلمة، وجاهدت في الله حق الجهاد، وهديت العباد إلى سبيل الرشاد، لماذا تقرأ سيرته فتبكي ؟ لماذا إذا حدثناكم عن ساعات وفاته كلكم تبكون ! لماذا ؟ تبكون محبة له، لأنه جاء إلى الدنيا، وخرج منها ولم يجمع منها درهماً ولا مالاً، لكنه ترك الهدى، ترك السعادة، ترك الفضيلة، ترك الرحمة بين الناس :

((إنما أنا رحمة مهداة))

[من الجامع الصغير عن ابن سعد]

لذلك تستطيع أن تدخل إلى قلوب الناس بأعمالك الطيبة، برحمتك، بتواضعك،

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

لا تكن فردا ، بل كن أمة :

يا أخي الكريم لا تكن فرداً، لا تكن واحداً كن أمة، اخرج من ذاتك، معظم الناس سعيهم ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، جهدهم، طاقتهم، بذلهم كله من أجل أنفسهم، وعلى أحسن الأحوال من أجل أسرتهم، وانتهى الأمر، لا يزيد اهتمامهم على أمر أسرتهم، أما جاره، قريبه، يقول لك : لهم رب، أنا لست كافل العباد، لو شاء الله لأطعمهم، إذاً أنت لست أمة، أنت واحدٌ، وتأتي يوم القيامة واحداً، لكنك لو عملت الصالحات، وخدمت العباد، لا حباً من أن تعلو عليهم، لا حباً بأن يلتفت الناس إليك، لا حباً بأن تصرف

وجوه الناس إليك، لا، بل حباً بخالقهم، تخدمهم، تقرباً للذي خلقهم، هذا هو جوهر الدين، أن تحسن إلى الخلق محبة بالحق .

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا)

(سورة الإنسان : 9)

هذا هو سر الدين، لذلك المؤمن تلقاه خَيِّراً، معطاءً، متواضعاً، يضحي، يبذل الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، يقول لك : حتى يرضى الله عني، كيف يرضى الله عني وأنا أؤذي خلقه ؟ لا بد من أن أتسامح معهم، لا بد من أن أعفو عنهم، لا بد من أن أقدر حاجاتهم، لابد من أن أقبل أعذارهم، لا بد من أن أقبل تنصلاتهم ؛ من أجل أن يحبني الله عز وجل

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

معاني هذه الآية :

المعنى الأول :

أن فيه من الكمال ما لو وزع على أمة لكفاهم، هذا أول معنى .

المعنى الثاني :

بإحسانه في قلب كل الناس ؛ إذاً هو في قلب أمة ؛ إذاً حجمه كحجم الأمة .

المعنى الثالث :

أنه إمام يُقتدى به، يأتمّ به الناس، لذلك إذا كنت أباً فأنت إمام لأبنائك، فإذا عصيت الله يعصونه أمامك، إذا عصيت الله يقتدون بك .

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا(30)وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا(31)يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا)

(سورة الأحزاب : 30-32)

إذا عصى القدوة تحمَّل وزر غيره ممن تبعه في المعصية :

إذا عصى القدوة اقتدى الناس به، فتحمل إثم المعصية، وإثم كل من عصى الله اقتداء به، لذلك:

((التوبة حسن، لكن في الشباب أحسن، والسخاء حسن، لكن في الأغنياء أحسن، والحياء حسن، لكن في النساء أحسن، والصبر حسن، لكن في الفقراء أحسن، والعدل حسن، لكن في الأمراء أحسن، والورع حسن، لكن في العلماء أحسن))

[من كنز العمال عن علي]

ثمة قصة تناسب هذا المقام، يروى أن ملكاً أكره الناس على أكل لحم الخنزير ـ قصة قد تكون رمزية ـ فجيء برجل عالم ليأكل لحم الخنزير قسراً وإلا قتل، فالحاجب يعرف مقامه، ذبح له شاة خِفية، وقدمها إليه، وقال له : هذه شاة يا سيدي، كلها ولا تخف، فلما دخل قرب الناس ليأكلها فأبى أن يأكلها، قيل له : لمَ لمْ تأكلها ؟ قال له : الناس لا يعرفون ذلك، يعرفون أنه لحم خنزير، فإذا أكلته أمامهم اقتدوا بي، فالذي يتصدر لتعليم الناس له حساب خاص، حركاته، سكناته، تصرفاته، أقواله أفعاله، أحواله، كله مسجل عليه، إن عمل سيئة اقتدى الناس به، فعليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، لذلك ؛ أندم الناس يوم القيامة رجل دخل الناس بعلمه الجنة، ودخل هو بعلمه النار !!!

مما يروى ؛ أنه يوم القيامة يفاجأ أهل النار برجل في النار كان من أهل العلم في الدنيا، وكان ذا صيت كبير، كان نجمه متألقاً في سماء العلم، كان له شهرة كبيرة يقولون، متعجبين : أأنت فلان ؟ يقول : نعم؟ أنت فلان ؟ يقول : نعم، يقولون : من الذي جاء بك إلى هنا ؟ ـ الحديث طويل، فعَنْ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ : يَا فُلَانُ مَا لَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ ؟ فَيَقُولُ : بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ))

[البخاري ومسلم، واللفظ لمسلم]

المعلم قدوة، إذا دخن أمام طلابه عدَّ الطلاب الدخان شيئاً عظيماً من صفات الرجولة، والاكتمال، فعليه إثم هذا العمل، وإثم من عمله من طلابه .

المعلم قدوة، الأب قدوة، الأم في البيت قدوة ؛ لو أنها تساهلت في فتح الباب، وفي الحديث مع الغرباء أمام ابنتها، لقد زرعت فيها أن هذا العمل لا بأس به، شيء مقبول .

الأم قدوة، والأب قدوة، والمعلم قدوة، وكل من يلي على أشخاص يحاسب حساب القدوة! لذلك ؛ كان سيدنا عمر رَضِي اللَّه عَنْه كان إذا أراد إنفاذ أمرٍ جمع أهله وخاصته وقال: " إني قد أمرت الناس بكذا،

ونهيتم عن كذا، والناس كالطير، إن رأوكم وقعتم وقعوا، وايم الله، لا أوتين بواحد وقع فيما نهيت الناس عنه، إلا ضاعفت له العقوبة لمكانته مني " ؛ فصارت القرابة من عمر مصيبة !!

أنت أبًا قدوة، أو أنك أخٌ أكبر، عندك أربعة أخوات، أنت قدوة لهم؛ إذا تأخرت إلى منتصف الليل يقلدونك، إذا علا صوتك على صوت أمك يقلدونك، إذا أخذت ما ليس لك يقلدونك، إذا تساهلت في البيع والشراء يقلدونك .

إذاً :

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

كان في قلبه من الكمال ما يسع أتباعه جميعاً، فحجم كماله كحجم كمال أمة، لذلك :

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

في قلوب أتباعه .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

كان قدوة لهم، كان إماماً لهم .

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)

(سورة البقرة : 124)

ما هو الثمن ؟ أنه أتم أوامر الله عز وجل .

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

(سورة السجدة : 24)

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)

(سورة الأحزاب : 39)

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة يس : 20 - 21)

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا)

معنى : قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا

أي : دائماً على طاعته، منقطعاً لعبادته، لا تشغله الدنيا عن ذكر الله، سيدنا سعد رَضِيَ اللَّه عَنْه قال: << في ثلاثةٍ أنا رجل، وفيما سوى ذلك أنا واحد من الناس ـ يعني أجوع كغيري من الناس، أشعر بالحر في أيام الحر كغيري من الناس، أغضب إذا استغضبت كغيري من الناس ـ لكن في ثلاثةٍ أنا فيهن

رجل، ما سمعت حديثاً من رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا علمت أنه حق من الله تعالى، ولا سرت في جنازة فحدثت نفسي بغير ما تقول حتى أنصرف منها، ولا دخلت في صلاة فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها >>، كان بطلاً في هذه الثلاثة .

(قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا)

مائلاً إلى الله، تغلب محبة الله عليه .

خبيب بن عدي رَضِيَ اللَّه عَنْه كان من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقع في أسر قريش، وكان بإمكانه أن ينطق بكلمة الكفر ليفتدي نفسه منهم، لأنهم خيروه بين أن يصلبوه، وبين أن يكفر بمحمد لشدة حبه لله ورسوله، جاءه أبو سفيان عرض عليه الموت، أو أن يكفر بمحمد، ثم قال له : أتحب أن تكون معافىً في أهلك وولدك، وعندك عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة ؟ أتحب أن يكون محمد مكانك؟ قال: وَاللَّهِ لا أحب أن أكون في أهلي وولدي، وعندي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة !! هل تحب أنت أهل الحق هكذا ؟ هل تحب رسول الله ؟.

تعصي الله وأنت تظهر حبه ؟! ذاك لعمري في المقال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

***

حنيفاً يعني مال قلبه إلى الله عز وجل، يحب الله، ولا يحب أحداً سواه .

معنى قانتاً؛ أي: منقطعاً في عبادته إلى الله عز وجل ومعنى حنيفا؛ مائلاً قلبه إلى الله في كل أحواله .

لا ينبغي للقلب أن يميل إلاّ لله :

هذا القلب، والله لا ينبغي أن يحب غير الله، أن تحب زوجتك؟ لا بد من أن تتركها، أو تتركك، أبداً، لا بد من ذلك إما أن يموت الإنسان قبلها، أو أن تموت قبله، أتحب أولادك؟ لا بد من أن تفارقهم، أتحب هذا الصديق ؟

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت، فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[الطبراني في الأوسط، والحاكم في المستدرك عن سهل بن سعد]

أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ، يَعْنِي الْمَوْتَ))

[الترمذي، النسائي، ابن ماجه، أحمد]

لذلك لا ينبغي لهذا القلب أن يحب غير الله .

رابعة العدوية تقول :

فليتك تحلو والحياة مريــرة وليتك ترضى والأنـام غضاب
ولـيت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خـــراب

***

كلام سهل جداً، امتحنْ قلبك هل تحبه؟ هل تغض بصرك عن امرأة حسناء خوفاً منه ؟ لا أحد يراك، لا أحد يحاسبك، لا أحد في الأرض يحاسب على هذا، بالعكس، شيء طبيعي، من الذي يحاسب على أنك نظرت إلى النساء؟ هل تغض بصرك عن محاسن امرأة، لا تغضه إلا لله؟ هل تعطي فلاناً، لا تعطيه إلا لله؟ هل تمنعه، لا تمنعه إلا لله؟ هل تواليه لا تواليه إلا لله؟ هل تعاديه لا تعاديه إلا لله ؛ إذا كنت كذلك فالله يحبك، وأنت تحبه .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

احذروا الشرك الخفيّ :

والشرك كما تعلمون أخفى من دبيب النملة السمراء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على شيء من الجور، وأن تبغض على شيء من العدل، هذا من الشرك، طبعاً هناك شرك أكبر، وشرك أصغر، وشرك خفي .

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف : 106)

إذا اعتقدت أن هذا الطبيب هو الذي شفى ابنك، معه بورد، وصف له دواء ثلاثة، في أيام كان صحيحاً، هذا شرك، هذا لو لم يأذن الله له، لو لم يلهمه الصواب، لو لم يلهمه تشخيص الداء لكنت في متاهة، ذهب شخص إلى أشهر الأطباء، شعر بشيء غير طبيعي، شخصوا له أنه مرض خبيث، كاد هذا المرض أن يسحقه ! والتشخيص غلط كله ؛ هذا ممكن، فلا تعزُ الأشياء إلى غير الله، هذا شرك، من علامات الشرك أن تغضب إذا حرمك الناس، وأن تفرح إذا أعطوك، مع أن ما عند الله لا يجلبه لك حرص حريص، ولا يرده عندك كراهة كاره . عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ :

((كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ : يَا غُلامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ))

[أخرجه الترمذي عن ابن عباس]

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة فاطر : 2)

إن الله تعالى قطع العباد عن الآجال، وعن الأرزاق، فكلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تقرب أجلاً، تأكد أن رزقك بيد الله، وأن أجلك بيد الله، وأن هذا لا يملكه أحد إلا الله، من هنا تأتي شجاعتك، من هنا تأتي طمأنينتك، من هنا تأتي عزتك، من هنا تأتي كرامتك، لو اعتقدت أن الرزق بيد فلان لتذللت إليه، ولخضعت إليه، وانبطحت أمامه، وقبلت الأقدام، وتذللت، ونافقت، ولخنعت له، لو اعتقدت أن الرزق بيده أما إذا اعتقدت أن هذا الذي خلق الفرد خلق له الطعام والشراب .

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ(22)فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ)

(سورة الذاريات : 22 ـ 23)

اطمئنّ على رزقك فإنه ضُمِن لك يوم كنت في بطن أمِّك :

ما دام هذا الفم يتحرك فله عند الله رزق، لكن هذا الرزق قد يأتي صاحبَه بطريق غير مشروع .

أنا أضرب مثلاً مشهوراً فأقول: هذه التفاحة التي خلقت في المكان الفلاني، في البستان الفلاني على الشجرة الفلانية، في الغصن الفلاني، ترتيبها رقم أربعة، حجمها وزنها، لونها، هذه لفلان، اسم فلان عليها، قد يأخذها شراء، وقد يأخذها ضيافة، وقد يأخذها هدية، وقد يأخذها تسولاً، وقد يأخذها سرقة، وقد يأخذها غصباً، طريقة وصولها إليك باختياره، أما هي له، طريقة وصولها إليه بحسب استقامته، وغفلته، وتقصيره، وانحرافه، وبعده وقربه، أما هي ـ أي التفاحة ـ له، فمسكين هذا الذي يسرق رزقه، لو أنه صبر عليه لأكله حلالاً، اصبر على الحرام يأتك الحلال، إن رزق الله لا يجره إليك حرص حريص، ولا يرده عنك كراهة كاره، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا مَا حَرُمَ))

[أخرجه ابن ماجه عن جابر بن عبد الله]

اطمئن، لك عند الله عز وجل 890 أكلة مثلاً بالعدد ؛ يمكن لشخص أن يقوم بإحصاء طريف، أنا كم بيضة أكلت في حياتي، وكم بيضة متوقع أن آكلها قبل الوفاة ؟ لو فرضنا 8000 بيضة، 80000، لا أعرف كم العدد، لك عند الله هذا العدد، لا ينقص ولا واحدة ! اطمئن، توجد أزمات، لا توجد أزمات، لك عنده هذا العدد ! كم تفاحة، كم بيضة، كم من رغيف سوف تأكل، كله مسجل .

((أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا مَا حَرُمَ))

انتق مهنة راقية، شريفة، فيها خدمة للناس، فيها نفع للناس، قد يقول قائل : يا أخي لا أستطيع، لا يوجد غير هذا العمل! لا هذا غير صحيح، إذا كان العمل أساسه إيقاع الأذى بالناس دعه، ولا تأسف عليه، مهما كان الدخل كبيراً، إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك،

((فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ))

ابحث عن عمل شريف فيه خدمة للآخرين، ولا ترض بعملٍ فيه معصية لله، ولا ترضَ بضاعة محرمة عند الله، ولا ترضَ عملاً فيه إيقاع الأذى بالناس ..

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(120)شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

(شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ)

كيف تشكر ربَّك ؟

يا رب كيف أشكرك؟ قال : يا موسى، إنك إن ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني، اذكرني ولا تنسني، إنك إن ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني، يا ترى ؛ هل تذكر الله كل يوم؟ كل أسبوع؟ كل ساعة؟ كل فترة؟ صباحاً؟ مساء؟ إذا أكلت هل تقول: الحمد لله؟ هل دخلت إلى بيتك؟ هل تذكر فضله؟ إذا وقعت عينك على أبنائك وهم في صحة جيدة، هل تذكر فضله؟ لو كان أحدهم مشوهاً تحس بانقباض لا يوصف، إذا دخلت إلى البيت، وفي البيت ماء زلال، وطعام، وشراب، وفراش وثير، ودفء في الشتاء، وجو معتدل في الصيف، هل تذكر الله عز وجل ؟ هل تشكره ؟ كان عليه الصلاة والسلام تعظم عنده النعمة مهما دقت .

(شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ)

معنى : اجْتَبَاهُ

اختاره، وهداه إلى صراط مستقيم، إذا كان الشخص على صراط مستقيم فهذه أكبر نعمة، سيدنا عمر إذا أصابته مصيبة كان يقول: << الحمد لله إذ لم تكن في ديني >>، وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ ـ لو كشف الغطاء كان الذي على صراط مستقيم، هو أسعد الناس قاطبة، أعظمهم عند الله شأناً أكرمهم على الله، أسعدهم في الدنيا والآخرة الذي على الصراط المستقيم، تقول في الفاتحة كل يوم .

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(6)صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

(سورة الفاتحة : 6-7)

(وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121)وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ)

في الدنيا حسنة .

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

(سورة المائدة : 18)

الإمام الشافعي رَضِيِ اللَّه عَنْه استنبط أن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحبابه .

(وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً)

حسنة الدنيا :

سمعة طيبة، راحة بال طمأنينة، أمنًا، اطمئنانًا بذكر الله، إياكم أن تفهموا مني من أجل أن تكون هذه الآية مطبقة يجب أن تكون غنياً، صحيحاً، ذا زواج ناجح، لا، هذا ليس شرطاً، يجب أن تكون راضياً عن الله، فأنت أسعد الناس، قد تكون راضياً عنه وأنت مريض ! فأنت أسعد من الصحيح، وقد تكون راضياً عنه وأنت فقير، فأنت أسعد من الغني ! العبرة أن تكون راضياً عن الله، قال رجل من الصالحين: يا رب، هل أنت راضٍ عني؟! وكان يطوف حول الكعبة، ووراءه الإمام الشافعي رَضِيِ اللَّه عَنْه، قال له: يا هذا، هل أنت راضٍ عنه حتى يرضى عنك؟ فالتفت وقال: سبحان الله ! كيف أرضى عنه، وأنا أتمنى رضاه ؟ قال له : إذا رضيت عنه في مر القضاء، إذا كان سرورك بمر القضاء فأنت راضٍ عن الله، فلذلك :

(وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121)وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً)

المؤمن سعيد وكفى، سعيد وهو فقير ـ كلامي واضح ـ سعيد وهو غني، سعيد وهو مريض، سعيد وهو معافى، سعيد وعنده زوجة صالحة، سعيد وعنده زوجة سيئة، سعيد وعنده أولاد ذكور، سعيد وعنده أولاد إناث، سعيد وهو عقيم، سعيد وعنده أولاد مشاكسون، قلبه سعيد، عرف الله فأحبه، وانتهى الأمر، ليس شرطاً أن تتوافر كل الشروط حتى يكون سعيداً، وإذا كان الشخص اسمه " سعيد " فلا يكن شقياً، يشتد حزنه يوم القيامة، وإذا كان الواحد اسمه " كامل " فلا يكن ناقصاً، وإذا كان عبد الله فلا يكن عبداً لئيماً، اسمه " عبد الله " فيكون عبداً للئيم ؟ وإذا كان " عبد الرحمن " فلا يكن قاسياً، وإذا كان "عبد الغني" فلا يكن فقيراً، فقيراً للدنيا، شهوانياً، كيف أخشى الفقر، وأنا عبد الغني ؟!

الله يأمر نبيَّه محمد عليه الصلاة والسلام باتباع إبراهيم عليه السلام :

(ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

كان هذا النبي العظيم أبا الأنبياء .

(إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

يوم العطلة ليس للراحة بل للاجتهاد في العبادة :

يوم السبت جُعِلَ يوم عطلة رسمية لليهود، وقد يتوهم البعض منه عطلة رسمية ؛ يعني ليغتسل، يغسل، يقمُّ، يريد أن ينظف، أن ينظم مكتبته، يستيقظ الساعة الحادية عشرة، اليوم جمعة، أيوجد عندنا دوام؟! يوم السبت يوم عطلة عند اليهود، يعني يجب أن يكون هذا اليوم خاصاً لله عز وجل، يجب أن تتفرغ في كل سبعة أيام يوماً لعبادة الله، وذكره ومعرفته، طبعاً نحن المسلمين يوم عيدنا الأسبوعي يوم الجمعة، فهذا اليوم يوم معرفة الله، وحضور خطبة الجمعة فرضٌ .

قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثلاثًا مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ))

[أخرجه ابن ماجه عن عبد الله بن قتادة]

هذا يوم ليس لقضاء الحوائج، تنظيم البيت، والاستيقاظ الساعة الثانية عشرة، والمشاحنة أحياناً، وبعض الأكلات الخاصة، الجمعة صباحاً أكلة حمص، وعند الظهر لحم مشوي ـ سابقاً طبعاً ـ لا، ليس هذا هو القصد، القصد أن هذا اليوم من أجل أن تعرف الله عز وجل .

أنا أتمنى على كل أخ أن يهيئ أموره الخميس، ويبقي هذا اليوم فراغاً لطاعة الله عز وجل، لسماع خطبة الجمعة، لحضور مجلس العلم .

(إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

احتيال اليهود في الصيد يوم السبت المحرم عليهم :

بعض اليهود احتالوا على الله عز وجل، حفروا حفراً على شاطئ البحار، وأغروا السمك لدخولها، بعد أن دخلت سدوا، يوم الأحد صادوا السمك؛ هذه حيلة شرعية، أول من احتالوا حيلة شرعية هم اليهود،

يوم عطلة! عطلة من أجل معرفة الله! من أجل العبادة، من أجل التأمل! من أجل الذكر! من أجل تلاوة الكتاب المقدس؛ من أجل التفكر في ملكوت السماوات والأرض، هذا كله يجب أن يكون يوم العطلة الرسمية! ماذا فعلوا؟ احتالوا على الله عز وجل، جعلوا حيتانهم تأتيهم شرعاً يوم سبتهم، الحيتان مطمئنة؛ هؤلاء يهود، والسبت معطلون، دخلت إلى هذه البرك، فلما دخلت سدوا عليها طريق الخروج يوم الأحد اصطادوها، فوبخهم الله عز وجل، وقرعهم، لأنهم بدل أن يكون هذا اليوم يوم عبادة، وتفكر، وذكر، وتلاوة، وعمل صالح، استخدموه لتحقيق مصالحهم الدنيوية، فإذا أجبر واحد صانعه على عمل يوم الجمعة يكون آثماً واللهِ، يقول : يا أخي عندنا موسم الآن! أي موسم هذا؟ كذلك في الآخرة موسم، هذا يوم موسم للآخرة، أجبر صانعه على البقاء في المحل، وإذا منعه أن يصلي الجمعة ؟ فإثمه أكبر !!

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(124)ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

الحكمة في الدعوة :

دخل أحدهم على أمير فقال : " إنني سأعظك بغلظة، كان الأمير أفقه منه، قال له : ولِمَ الغلظة يا أخي؟ إن الله أرسل من هو خير منك، إلى من هو شر مني، أرسل موسى إلى فرعون، فقال له :

(فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

(سورة طه : 44)

من معاني الحكمة :

من معاني الحكمة الكلام المحكم، كلام صحيح، كلام غير صحيح خرافة، قصة غير صحيحة، تفسير فيه شطحة مثلاً، حديث ضعيف، حديث موضوع، قصة سمعناها ليس لها أصل، فيها خرق لآيات القرآن الكريم، هذا ليس حكمة، أنت تدعو إلى الله، فيجب أن تدعو إليه بالحكمة، من معاني بالحكمة الكلام المحكم، القطعي الثبوت، القطعي الدلالة، كلام محكم، آية محكمة، هذا تفسيرها، أجمع العلماء على هذا التفسير، هذا تفسير الجمهور، حديث صحيح من الكتب الصحيحة، هذا تفسيره، قصة وردت في القرآن، قصة محكمة، آية كونية أشار إليها القرآن، محكمة، لا تحدِّث بكلام خرافات، أحاديث

ضعيفة، موضوعة، قصصاً غير صحيحة، لا تنقل شيئاً غير متأكد منه، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ))

[أخرجه مسلم عن خبيب بن عبد الرحمن]

لأنه توجد قصة غير صحيحة، هذه فيها طعن بآية قرآنية، هذه القصة خرافة، هذه القصة تعطل همة الإنسان .

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ)

أي : بالقول الحكيم، المسدد، الصحيح، القطعي، هذا معنى .

ومعنى بالحكمة؛ يعني اختر الوقت المناسب، أضاع أحدهم غرضاً مهماً قال: انظر آية!! يقول لك: الآن اذهب عني أي آية، انتق الوقت المناسب، عندما يكون صافياً، مرتاحاً، شبعان، نائماً، قل له كلمة، لكنه مشغول، عنده فحص، عنده عمل، مهموم بقضية، انصحه الآن، يقول لك: لست فارغاً الآن يا أخي، اختر الوقت المناسب، اختر العبارة اللطيفة، أخي أنت بهذا العمل كافر، أتدري معنى كافر؟ من كفَّر إنساناً فقد كفر، من أنت حتى تكفره؟ يا أخي هذا العمل غلط، قل له: غلط، لا تقل له: كافر، قل له: هذا العمل خلاف القرآن الكريم، أنت رجل مسلم، ذكره بأنه مسلم، والمسلم يطيع الله عز وجل، أنت من أسرة راقية، هناك آخرة، هناك حساب، هناك إله يحاسب، ادع بالحكمة، اختر العبارة المناسبة، اختر الوقت المناسب، اختر المكان المناسب، رأيته قاعدًا في مكان عام وسيارات عامة وازدحام، انصحه ؛ المكان لا يناسب، هناك أماكن غير مناسبة للدعوة إلى الله عز وجل، اختر مكاناً مناسباً، وقتاً مناسباً، عبارة مناسبة، لا تكن قاسياً .

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

(سورة آل عمران : 159)

لا تقل له: كذاب، قل له: أعتقد هذا الكلام غير صحيح، أنا لي قناعات أخرى، يا أخي كذاب! هذه ليست حكمة، لا تعطه كل أخطائه، يقول لك : لم أعد أريد هذا الدين، أنت غلطان في هذه وتلك، وهذه معصية، وهذه كبيرة، لا تعطه قائمة، أعطه واحدة فقط، اتركه الآن، حدثه عن الله عز وجل، ثم لا تحدثه بشيء فوق مستواه :

((حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟))

[أخرجه البخاري عن علي]

أترى هذا الكأس؟ هذه ذرات تدور! يقول له: ما هذا الكلام؟ فهو غير دارس، هل أنت مجنون؟ هي فعلاً ذرات تدور، نترونات، وبرتونات، وكهارب، ومدارات، شيء لا يصدق!! قل هذا الكلام لمن معه

بكالوريا، معه كفاءة، سمع ما هي الذرة، أما غير المتعلم فيُمنع إطلاقاً، حتى لا يكذبك، ويقول: إن كلامك غير معقول .

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ)

اختر الكلام المناسب، المستوى المناسب، الوقت المناسب، العبارة المناسبة، المكان المناسب، الزمان المناسب، لا تكن قاسياً، لا تكّفر الناس، لا تقل له: أنت غارق في المعاصي، أنت ليس فيك أمل، إلى جهنم، دفعة واحدة، لا، هذا ليس كلاماً حكيماً، أنت هدفك أن تحطمه ؟ أم هدفك أن تهديه إلى الله عز وجل؟ خذ بيده، تلطف به، ورد أنه: إذا قال العبد: يا رب وهو راكع، قال الله: لبيك يا عبدي، وإذا قال: يا رب وهو ساجد، قال لبيك يا عبدي، فإذا قال: يا رب وهو عاصٍ قال: لبيك، ثم لبيك، ثم لبيك .

عن أنس بن مالك قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

((يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

[أخرجه الترمذي]

ما معنى غفور رحيم؟ لكن بشرط التوبة، بشرط الاستقامة بشرط الإقلاع عن الذنب، والندم عليه .

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)

حقيقة الدعوة بالموعظة الحسنة :

أحياناً تجد مخالفة بسيطة جداً، كطفل جالس في الصلاة، ما نصب قدمه اليمنى، ينهره أحدهم، الصلاة ليست هكذا! هذا جاء إلى الجامع حديثًا، أيحتاج إلى أن تنهره من أجل خطأ بسيط ؟ أهكذا الحكمة؟ تلطف به، أعطه هدية، أكرمه، أثن على صلاته، صلِّ أمامه، قل له : سوف أصلي أمامك يا بني، صلِّ أمامه، إذا صلى طفل إلى جانبك فلا تقل له : ارجع إلى الوراء، دعه يصلي أول صف، ماذا في الأمر؟ هذا طفل، الأطفال أحباب الله، اجعل الجامع شيئاً محبباً له، محبباً جداً، دعه معززاً مكرماً، أكرمه .

قال لي شخص دخل المسجد ليصلي، وهو طفل صغير، ضاع حذاءه فبكى، سمعه رجل فأخذه للسوق، واشترى له حذاءً جديداً، لقيه بعد عشرين سنة، قال له: يا عم أنت سبب صلاتي طوال حياتي، من بعد ما قدمت لي الحذاء ما قطعت الصلاة، هكذا الإنسان، أما أن تقول: الحق عليك، لِمَ لمْ تضعها جنبك؟ لِمَ ولِمَ؟ ضاعت، وانتهى الأمر، فلذلك :

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)

أحياناً يتعلم الواحد شيئاً من الدين فيأتي إلى أهله؛ هذا عملك كفر يا أبي! هذا الجهاز حرام! وأنتم فسقة؛ ما هذا الكلام؟ أهكذا علموك؟ أن تهاجم أهلك؟ هذا أبوك له حق عليك، لا يأتي بالموعظة معك، بل يأتي بالإحسان! هذا لا يأتي بالعنف، أنت ابنه بالعنف كنت صغيراً أمامه بالعنف أتعلمه أنت؟ صلِّ أمامه بالعنف كن خاشعاً، تلطف معه، اخدمه، بره حتى يلين قلبه لك بالعنف فيقول: والله أنت أحسن مني يا بني، أما أن تقول له: أنت لست ملتزمًا، أنت مرتكب للمعاصي، لا يرجى منك خير فها خطأ شنيع ! أعرف أشخاصاً لا حكمة عندهم، يسببون عليهم ثورة عليهم في البيت، أهكذا المؤمن ؟ يكون سيئ الأدب ؟ هذا لا يكون !!!

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)

هذه الموعظة؛ فلا تأتِ بخرافات، مثلاً: ذهب إلى الحج، كان يأكل أموال الناس، وضعوا عنده مبلغاً من المال، وقد حجَّ اثنتا عشرة حجة، جاء الشخص، وقال له: ليس لك عندي شيء ! عنده ابن لم يحج بعد، بريء جداً، قال له: و الله يا أبي أعطاك أمامي، قال له: لا بد أن تحج أنت!! أهذه قصة؟ أتحكى هذه؟ ما مغزاها؟ معنى ذلك: أن كل من حج فهو غير مستقيم!! يضحكون الناس بقصص غير صحيحة. الله قال :

(وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)

تحكي قصة فيها ظلم؟ إذاً فأين الله؟ تحكي قصة رجل لأنه سيئ، ثم صار في وضع جيد جداً، وأن الله رفع شأنه؟ لأن ماله حرام؟ لأنه جيد صار وراء الناس؟ أهذا توجيه؟ والناس عندهم رغبة أن يعطوك قصصًا خلاف القرآن، لأنه ملتزم بقي بلا بيت ! وصار وراء الناس، ما هذا الكلام؟ هذا كلام الشيطان، الله عز وجل قال :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30)نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)

(سورة فصلت : 30 - 31)

لا بد أن تنصح الناس، تأتي بقصة لها مغزى عظيم، سيدنا يوسف قال تعالى عنه :

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

(سورة يوسف : 23)

صار عزيز مصر، هذه قصة ؛ لأنه استقام، لأنه كان عفيفاً رفع الله شأنه .

سيدنا عمر قال: كنتُ عميراً، فأصبحت عمراً، فأصبحت أمير المؤمنين، لأنه أطاع الله عز وجل، هذه قصة .

سيدنا أبو الدرداء قيل له: يا فلان، بيتك قد احترق، قال: ما كان الله ليفعل، يا أخي احترق، قال : ما كان الله ليفعل، فلما ذهبوا وجدوا كلامه صحيحاً ـ دكان جاره احترقت ـ قال: الذي احترقت دكان جارك، فقال: أعلم ذلك .

هذه قصة، المال الذي تؤدى زكاته يحفظه الله عز وجل، اذكر قصة أن الله يحفظ المال المزكّى، الله يوفق المستقيم، يرفع شأن المؤمن، أما لأنه مؤمن نزل إلى أسفل السافلين! كل قصة مغزاها خلاف كلام الله، فهذا الذي يلقيها شيطان، حتى ييئسك، يقول لك : الله عز وجل يطعم الحلاوة لمن لا أضراس له، يعني أن الله ليس حكيماً ؟ أليس كذلك ؟ هذا مؤدى الكلام، أن الله غير حكيم، الذي يلزم أن يكون معه مال ليس معه مال، الذي لا يلزم أن يكون معه يعطيه مالاً كثيراً؟ أهكذا ظنك بالله عز وجل؟ لا تحكِ قصة مغزاها خلاف كلام الله عز وجل .

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

المجادلة بالتي هي أحسن :

من غير مشاحنات، أنت تكلم برأيك فقط، اعرض الحق عرضاً جيداً، وانتهى الأمر، لا تكره الناس، ولا تقعد تناقشهم، لأن النقاش غير مجدٍ، إذا أردت أن تقنع الناس بشيء فاسلك أي طريق إلا المناقشة، فيها مشاحنة، وجرح كرامة، وهذا لا يصح .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (01-13): تفسير الآيات 1 – 10
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-06-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الإسراء :

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى

الحكمة من ابتداء السورة بقوله : سُبْحَانَ :

الموضوع متعلق بمعجزة الإسراء، لماذا بدأت هذه المعجزة بقول الله سبحانه وتعالى :

(سُبْحَانَ)

(سُبحان) مصدر بمعنى التنزيه والتقديس والتمجيد :

سبحان اسم ناب مناب المصدر، والمصدر ناب مناب الفعل، قد تقول: أشكرك، هذا الفعل، وقد تقول: شكراً، هذا مصدر ناب مناب الفعل، سبحان اسم ناب مناب مصدر، والمصدر ناب مناب الفعل، أي: سبّحْ، ومعنى سبحْ أي: نزّه، ومعنى سبّحْ أي: مجّد، نزّه ومجد .

السبب وحده لا يكفي لإحداث النتيجة :

ما علاقة التسبيح بهذه المعجزة التي كانت في حق النبي عليه الصلاة والسلام؟ العلاقة أن الله سبحانه وتعالى حينما خلق الكون، خلقه وفق نظام، وجعل لكل سبب نتيجة، وجعل فيما يبدو لنا الأسباب تؤدي إلى نتائج، لكن الناس بعد أن ألِفوا أن هذه الأسباب تؤدي إلى النتائج، قد يغفلون عن أن مسبب الأسباب هو الله، وأن السبب وحده لا يكفي لإحداث النتيجة، لذلك قد تأتي النتائج من دون أسباب كافية، وقد تكون الأسباب، ولا تحقق النتائج المتوقعة .

إذا وجد السبب ولم يحقق النتيجة المتوقعة، كان هذا دليلاً على أن السبب وحده لا يكفي لتحقيق النتيجة، وإذا كانت النتيجة من دون سبب، معنى ذلك أن السبب ليس له دور حقيقي في إحداث النتيجة، لكن الله سبحانه وتعالى هو الخالق، هذا يتضح بمَثَل :

الله سبحانه وتعالى جعل توالد البشر عن طريق الزواج، فلا بد من زواج بين رجل وامرأة لتنجب المرأة طفلاً، وهذا هو النظام العام، وهذا هو القانون المفترض، وإذا عطّل الإنسان فكره وتوّهم أن كل زواج يؤدي إلى مولود، عندئذ نجد حالة العقم .

رجل وامرأة، والرجل و المرأة لا ينجبان طفلاً، وقد خلق الله عز وجل آدم من دون أب ولا أم ! وخلق سيدنا عيسى من دون أب، وخلق السيدة حواء من دون أم، إذاً ما كل سبب يؤدي إلى نتيجة، معنى ذلك: أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق، وما هذه الأسباب إلا قرائن رافقت النتائج، لكنها ليست هي الخالقة .

ثمة مَثَلٌ ضربه علماء التوحيد: أن مصباحاً كهربائياً موصولاً بشريط، والشريط ينتهي بمفتاح، والمفتاح بيد رجل، وهناك مفتاح كهربائي ليس موصولاً بالمصباح، جاء شخص اقترب من المفتاح، وضغطه فتألق المصباح، توهم هذا الداخل أنه هو الذي أشعل هذا المصباح، هذا العمل تكرر كلما وضع يده على هذا الزر، ضغط الرجل الزر الحقيقي فتألق هذا المصباح، إلى أن اعتقد هذا الإنسان بسذاجة وتوهم أنه هو الذي يشعل المصباح، ذات مرة دخل ووضع يده على المفتاح، لم يتألق المصباح، إذاً: هذه الضغطة على الزر غير كافية لتألق المصباح، وفي مرة ثانية تألق المصباح من دون أن يضغط على الزر، استنتجنا أن هناك جهة أخرى هي التي تشعل المصباح، وما هذا الزر إلا ترافق، كلما تألق المصباح رافق ذلك ضغط الزر .

إنّ السبب وحده غير كاف لإحداث النتيجة، هذا أول معنى، ولذلك فربنا عز وجل من حين لآخر يخرق هذه القوانين، يبطلها أو يعطلها، تأتي النتيجة بلا سبب أي : أبطلها، يكون السبب ولا تكون نتيجة، أي : عطّلها، وأحياناً هذه القوانين تبطل أو تعطل، من أجل أن تؤمن أنه لا إله إلا الله، وأن الله هو الخالق، وأن السبب وحده لا يكفي لإحداث النتيجة .

تعطّل قانون الزمان والمكان في معجزة الإسراء والمعراج :

لذلك أن ينتقل إنسان من مكة إلى بيت المقدس، وأن يعرج إلى السماوات، وأن يصل إلى سدرة المنتهى، وأن يعود إلى مكة في جزء يسير من الليل، هذا فوق طاقة البشر، لا يمكن أن يُحْدِثَ هذا إلا خالق الكون الذي بيده أن يعطل قوانين المكان والزمان، فالزمان له قانون، والمكان له قانون، الله سبحانه وتعالى عطّل قانون المكان، وقانون الزمان، فجاء النبي عليه الصلاة والسلام، وانتقل بجسده

الطاهر وبروحه الشريفة من مكة المكرمة إلى بيت المقدس، ومن بيت المقدس إلى السماء، فالانتقال من مكة المكرمة إلى بيت المقدس إسراء، والانتقال من بيت المقدس إلى السماوات العلا معراج .

إذاً: جاءت كلمة

(سبحان)

أي نَزّه هذا الرب، وعظّمه، ومَجِّدَهُ، فهو الذي بيده كل شيء، بيده المكان، ولو شاء لألغى قوانين المكان، وبيده الزمان، ولو شاء لألغى قوانين الزمان، إذاً : (سبحان) تعني ما أعظم الخالق الذي بيده كل شيء، الأسباب صور، والنتائج صور، وهو كل شيء .

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : 10)

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال : 17)

لا يحدث شيء إلا بأمر الله وعلمه وقدرته وتقديره .

إذاً: مناسبة أن تأتي كلمة (سبحان)في مطلع سورة تشير إلى معجزة تمت للرسول عليه الصلاة والسلام بانتقاله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومن المسجد الأقصى إلى السماوات العلا، في جزء يسير من الليل، هذه معجزة فيها خرق لقوانين المكان والزمان، ولا يستطيع أن يفعلها إلا خالق الكون، وخالق المكان، وخالق الزمان .

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ)

سبّح أيها القارئ، أيها المؤمن، أيها المسلم، ونَزِّه وَمَجِّد وَعَظِّم .

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ)

معنى : أَسْرَى :

أسرى، يقال : سرى وأسرى، سرى مشى في الليل، سرى مشى في آخر الليل، وأسرى مشى في أول الليل، فإذا قال الله سبحانه وتعالى :

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى)

كان المعنى: أنه أسرى بعبده ليلاً .

معنى : لَيْلاً :

المعنى الأول :

لماذا جاءت كلمة ليلاً؟ العلماء قالوا: جاءت كلمة ليلاً لتؤكد أن الإسراء تم بالليل! كأن تقول :

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

(سورة النحل : 51)

إله تعني أنه واحد، إلهٌ مُفْرَد، لكن تأكيداً على أن المطلوب ليس معنى إثبات الألوهية، بل المقصود إثبات الألوهية والوحدانية .

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

اثنين توكيد، وواحد توكيد .

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا)

تأكيد على أن هذه المعجزة تمت في الليل، أما كلمة ليلاً جاءت نكرة، ودليل أنها نكرة جاءت مُنَوَّنَة ليلاً، وهذه إشارة إلى أن هذه المعجزة تمت في جزء، هذا التنكير تنكير تبعيض، وهناك تنكير شمول، أو تنكير تمكين، هذا التنكير تنكير تبعيض، أي: لم تستغرق هذه المعجزة الليل كله لا، ليلاً، أي في جزء يسير من الليل .

كأن تقول :

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا)

(سورة الكهف : 58)

الرحمة معرفة بأل، أو تقول :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران : 159)

أي: كل ما في قلبك من الرحمة يا محمد ما هو إلا جزء يسير من رحمة المولى القدير .

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا)

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا)

في جزء يسير من الليل انتقلت في البيت الحرام من المسجد الحرام، إلى المسجد الأقصى، إلى السماوات العلا، وعدتِ ولا يزال الفراش ساخناً! هذا أول معنى .

المعنى الثاني :

لماذا قال الله عز وجل :

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا)

أن الليل جاء ليؤكد أنه وقت المناجاة والتجلي والاتصال، وبعض العارفين بالله كان يناجي ربه : يا رب، قد هجعت الطيور إلى أعشاشها، وأغلقت الملوك أبوابها، وآوى كل حبيب إلى حبيبه، وأنا واقف ببابك، أرتجي جنابك يا رب .

الليل وقت المناجاة، ووقت الاتصال، ووقت التهجد، ووقت الإقبال والتضرع، سبحانك لا يطيب الليل إلا بمناجاتك، ولا يطيب النهار إلا بخدمة عبادك، لا تطيب الدنيا إلا بذكرك، ولا تطيب الآخرة إلا ببرك.

إذاً أول معنى: أن الليل تأكيد إلى أن الإسراء تم في الليل .

والمعنى الثاني: أن ليلاً المنكرة تنكير تبعيض دليل على أن هذه المعجزة التي تحتاج إلى سنوات وسنوات تمت في جزء يسير من الليل !

القمر يعد أقرب شيء للأرض، يكاد القمر والأرض يكونان كوكباً واحداً ! القمر يبعد عنا ثانية ضوئية، فإذا تألق ضوء في القمر وصل إلينا في ثانية واحدة، والشمس تبعد عنا ثماني دقائق، والمجموعة الشمسية قطرها ثلاث عشرة ساعة، وطول درب التبانة مئة وخمسون ألف ثانية ضوئية، وبعض المجرات تبعد عنا ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية !

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

(سورة الواقعة)

هذا القمر الذي يعد هو والأرض ككوكب واحد، يبعد عنا ثانية ضوئية، والمركبة التي توجهت إليه بقيت ثلاثة أيام بلياليها منطلقة إليه بأقصى سرعة ركبها إنسان، سارت أربعين ألف ميل في الساعة! والطائرة الحديثة جداً سرعتها ألف ميل، طائرات وركاب فسارت ألفًا، وبعضها ستمئة، بعضها تسعمئة، الحديثة ألف، أما هذه المركبة فتسير أربعين ألفاً في الساعة! ومع ذلك احتاجت هذه الرحلة إلى ثلاثة أيام! أما النبي العدنان عليه الصلاة والسلام فأسري به من مكة، إلى بيت المقدس، إلى السماوات العلا ذهاباً وإياباً وعودة، والفراش لا يزال ساخناً، وعُطِّلت قوانين الزمان، وعُطِّلت قوانين المكان، ولا يفعل هذا إلا الواحد الديان !

لا يوجد جهة أخرى، مهما كنت ذا قيمة وشأن فمن دمشق إلى حلب بالسيارة تقطعها في أرع ساعات أو ثلاث ساعات، هذه طاقة البشر، في الطائرة نصف ساعة، وهل تستطيع أن تكون في ثانية بحلب؟

كن من تكون فلن تستطيع ذلك! لا يخرق هذه القوانين إلا الله سبحانه وتعالى .

إذاً :

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا)

السرُّ في وصف النبي بمقام العبودية :

أما كلمة (عبده)فهي أكمل المخلوقات خُلُقاً وعِلماً، وأكملهم عبودية! وأعلى مرتبة ينالها الإنسان على وجه الأرض أن يكون عبداً لله، إذا كمل علمه كملت عبوديته، وإذا قال: أنا فهو جاهل، من أنت؟ كنت لا شيء، فأصبحت به خير شيء، في الورى قد طبعك، إذا قال: أنا ذاكرتي قوية، فالله عز وجل قادر في لمح البصر أن يجمد قطرة دم في بعض شرايين المخ فيفقد ذاكرته! وإذا قال: أنا محاكمتي قوية، جمعت أعلى مجموع في الشهادة الثانوية، فالله عز وجل قادر أن يقوم بانفجار في بعض شرايين المخ فيصبح مجنوناً ونزيلاً في بعض المستشفيات العقلية! وإذا قال: أنا قوي أحمل كذا كيلو، وحَصل على رقم أولمبي مثلاً، فممكن أيضاً بشريان آخر تأتيه خثرة دموية فيغلق فيصاب الإنسان بالشلل!

أفضل مقامات العبد مقام العبودية :

إذاً: كمال علمك، يؤدي إلى كمال عبوديتك، وكمال خلقك يؤدي إلى كمال عبوديتك، إذا عرفت نفسك حقيقة فأنت عبد لله، ثلاث كلمات مهلكات: أنا، ولي، وعندي، قال إبليس :

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

(سورة الأعراف)

فأهلكه الله عز وجل .

وقال قارون :

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص)

وقال فرعون :

(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

(سورة الزخرف)

فكلما ارتقى علمك اقتربت من العبودية، وكلّما ارتقت نفسيتك اقتربت من العبودية، فإذا بلغت قمة الكمال البشري فأنت عندئذ لا تزيد على أن تكون عبداً لله، وإذا كنت عبداً لله رفعك الله، وأعزك الله، وأمدك الله، وأغناك .

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(1)وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ(2)الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ(3)وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

إذا كنت عبداً لله فأنت عزيز في الدنيا والآخرة، وإذا كنت عبداً لله فأنت غني بكل ما تعني هذه الكلمة، تحس بالغنى والغنى ليس عن كثرة العَرَض، ولكنَّ الغِنى غِنى النفس، لذلك :

اجعل لربك كل عز ك يستقر ويثبت

فإذا اعتززت بمن يمو ت فإن عزك ميت

***

كلمة (بعبده)أي: كلما تعمَّقتَ بالتوحيد اقتربت من العبودية، والعبودية تعني أنك مِنْ أعز الناس، ومن أكرمهم، وأرفعهم شأناً، وهل في الأرض كلها إنسان أعزه الله كهذا النبي العظيم ؟

قال لي أخ كريم: إنه تمكن قبل سنوات بقدرة قادر، وبشكل غير طبيعي أن يدخل الحجرة النبوية! وأن يغسلها بنفسه! وقيل له: إياك أن تتلف هذه المناشف التي نشفت بها الحجرة، فهذه مباركة، فهذه الحجرة النبوية يتشرف الملوك بتنظيفها! فما قولك بصاحب هذا المقام المحمود والحوض المورود، والشفاعة العظمى؟

هذا من الحمق فتنبَّهوا :

إذا كنت أنت عبداً لله يرفع لك ذكرك، ويرفعك في العالمين، وكلمة عبد أرقى كلمة يوصف بها إنسان! أي: عالم، فلأنه عالم أصبح عبداً، ولو كان متكبراً لكان جاهلاً، فلو قال: أنا، معنى ذلك أنه أحمق وجاهل، لا يفهم شيئاً، ولو قال: عندي، فهذا أحمق، ولو قال: لي فهو أحمق، ولو قال: أنا أفعل كذا، فهو أحمق، إلى أن يقول: لا إله إلا الله، وأنا عبد الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبي الله، ونعم الوكيل، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، ولا معطي يا رب لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا رافع إلا أنت، ولا خافض إلا أنت، ولا رازق إلا أنت .. فعندئذٍ أنت عبد لله، وإذا عرفت حجمك الحقيقي رفعك الله في الدرجات العلا، وأمدّك الله بمددٍ من عنده .

أي مصلحة إذا قال صاحبها: أنا فَهِمٌ، فلا بد من أن يرتكب حماقة تسحقه، أو لا يوجد مثلي طبيبًا، أو لا يوجد مثلي مهندسًا، أو أنا أنفرد في البلد بهذه الخبرة ... فعندما يقول : أنا، فهو أحمق ! ولا يعرف أن كل ما يملكه بإذن الله عز وجل، فلذلك كلمة (عبد)تعد قمة العلو البشري .

يروى أن النبي عليه الصلاة والسلام وهو في سدرة المنتهى قال: يا رب، اجعلني عبدك، اجعلني متمثلاً صفات العبودية الحقّ، فالمؤمن متواضع يعرف حده فيقف عنده، ولا يتعدى حدوده، لا يدَّعي ما ليس له، لأنه عالم أصبح عبداً، فالعلم يقودك إلى العبودية، والعبادة أرقى درجات العمل، وأرقى درجات العلم أن تقول: لا إله إلا الله، وأرقى درجات العمل أن تعبد الله، ولذلك فالأنبياء جميعاً ملخص دعوتهم :

(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة الأعراف : 59)

وهذه آية متكررة جدا .

(فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة المؤمنون : الآية 32)

ونهاية العمل أن تعبده، ونهاية العلم أن ترى أن لا إله غيره، لا إله إلا الله فاعبده .

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر)

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الأعراف)

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه)

لا يوجد إله غير الله عز وجل .

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا)

شرفُ إضافة العبد إلى ربِّه :

بعبده، الهاء ضمير غائب يعود على الله سبحانه وتعالى، هل من تشريف أعظم من أن يضاف العبد إلى سيده؟ ومن أن يضاف إلى خالقه؟ ومن أن يضاف إلى الذات العلية ؟ وإلى صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، وإلى واجب الوجود، وإلى الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، وإلى رافع السماوات بغير عمد بعبده، ولذلك عندما يكون قلب الإنسان صاحياً ويقرأ قوله تعالى :

(قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

(سورة الزمر : 53)

أنت نُسِبْتَ إلى الله عز وجل، وأضِفْتَ إليه .

هذا الضمير المتكلم الذي يعود على الله عز وجل، إذا أضيف العبد إليه فهذا تشريف ما بعده تشريف، وإذا قال لك شخص رفيع المقام: هذا موظف عندي، وهذا لمكتبي الخاص، وهذا أقرب الموظفين إلي، وهذا أعلى مقام، أي أضيف هذا الإنسان إلى هذا الإنسان العظيم، فكيف بالمولى الكريم ؟

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى)

الكعبة مسجد حرام أصالة ومآلاً :

والكعبة كان فيها أصنام، فكيف سميت مسجداً؟ هذا سؤال، والأقصى كان هيكل سليمان، ولم يكن مسجداً، ولم يكن يوجد قبة، ولا محراب، ولا آيات، كما هي الحال اليوم، فكيف سماه الله مسجداً؟ والعلماء قالوا: المسجد مكان السجود، والأصل أن هذه الكعبة المشرفة بناها سيدنا إبراهيم لتكون مسجداً لله عز وجل طهوراً، هُدِمَت، ووُضِعَ فيها الأصنام .

وشيء آخر، اسمها على أصلها، أصل هذا المكان بني ليكون مسجداً لله عز وجل، وهيكل سليمان عليه السلام بني ليكون مسجداً لله جلّ وعلا .

إذاً: سمى الله عز وجل هذا المكان مسجداً .

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى)

معنى : الحرام :

و معنى الحرام أن هذه الكعبة المشرفة، ومكة المكرمة، جعلها الله بلداً حراماً، يحرم القتال بها في الأشهر الحرم، ويحرم الصيد فيها، ويحرم قطع النبات فيها، لأنها بلد مقدس، ومن أجل أن تكون أمناً للناس، ومثابة، وكذلك المسجد الأقصى، المسجد البعيد، تقول : الشرق الأدنى، والشرق الأقصى، والمسجد الأقصى أي : المسجد البعيد عن أهل مكة، هنا يوجد إشارة إلى أن هذه معجزة .

(مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى)

بلاد الشام هي مَن حول المسجد الأقصى :

قالوا : حوله بلاد الشام، لذلك ورد في بعض الأحاديث :

((الشام صفوة الله من أرضه، وفيها صفوته من عباده، الداخل إليها فبرضائي، والخارج منها فبسخطي، طوبى لمن له فيها مربض شاة))

[أخرجه الحاكم في المستدرك، والطبراني في الكبير عن أبي أمامة]

مربض شاة، أي نصف هذه الطاولة، وكأن عمود الإيمان كما قال النبي العدنان عُمِدَ به إلى الشام في آخر الزمان، وما هذه المجالس الطيبة ... إلا دليل أن الله سبحانه وتعالى خصها بعنايته، وحفظها من كل سوء، فطوبى لمن له فيها مربض شاة :

((الشام صفوة الله من أرضه، وفيها صفوته من عباده))

لكن حتى لا يعتقد الإنسان أن دمشق بالتحديد، بل بلاد الشام المقصود بها هذه البلاد التي حول المسجد الأقصى الذي باركنا حوله، ليس معنى هذا أن كل شيء موجود، الإنسان قد يكون عزيزاً على إنسان آخر، وهو في العناية المشددة، لأنك عزيز على أبيك، فباركنا حوله، القصد إذا كان هناك ضيق فبسبب أن يندفع الإنسان إلى المولى جلّ وعلا، جاء في بعض الآثار: " أن أوحى ربك إلى الدنيا أن تَمرري، وتكَدَري، وتضَيقي، وتَشَدَدي على أوليائي حتى يحبوا لقائي " .

(الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ)

البركة عامة ، دنيوية وأخروية :

وقد تكون البركات أخروية، ليس بالخبز وحده يحيى الإنسان، قد يتوهم الإنسان أن البركات دنيوية، طبعاً هناك آيات أخرى، قال الله عز وجل :

(إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ)

(سورة هو : 84)

العلماء فسروا هذه الآية أن الخير يعني وفرة المواد، ورخص الأسعار، ولكن ليس بالخبز وحده يحيى الإنسان، قد تأتي شدة فترقى بها إلى المولى جلّ وعلا فهذه خير، ومحض خير، ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك، فالعطاء من العباد منعٌ، والمنع من الله إحسان !

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة : 216)

والإنسان أحياناً يخسر ماله كله، ويقول لك: لم يبق شيء! احترق محله، من أجل أن تنهمر من عينيه دمعة واحدة يندم بها على بعض المعاصي، إذا انتهى فقْدُ المال كله بتوبة نصوح، فقد ربح ربحاً كثيراً .

((أحد أصحاب رسول الله اللهم صل عليه في طريق الهجرة ألقي القبض عليه، فترك في مكة مالاً كثيراً، فمن أجل أن ينجو بحياته، ويلتحق بالنبي الكريم قال لهم : إذا دللتكم على مالي في مكة أتدعونني؟ قالوا: نعم، فدلهم على ماله كله! ونجا بجسده إلى النبي الكريم، وحينما وصل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام حدثه بما جرى، فقال عليه الصلاة والسلام: ربح البيع أبا يحيى))

[الحاكم في المستدرك عن صهيب]

غير أنه ضيّع كل ماله، لكنه نجا، وكسب دينه وآخرته، لذلك من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً! ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، إنسان من دون شدة مستحيل، الشدة دليل، وامتحان لا بد منه .

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(2)وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

(سورة العنكبوت)

ولا بد من شدة، فبالشدة تظهر على حقيقتك، إن كنت مُدَّعياً يظهر ذلك، وإن كنت مخلصاً يظهر ذلك، فلذلك ربنا عز وجل يقول :

(الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا)

المعراج إراءة الآيات للنبي خاصة بعد الشدة والضيق :

ولدي هنا سؤال! (لنريه)، إذاً هذه المعجزة خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم، جاءت بعد سنوات عجاف، بعد امتحان مرير، توفي عمه أبو طالب، وتوفيت زوجته خديجة رضي الله عنها، وكانت مؤنساً له، وخير زوجة مخلصة له .

وحينما انتقل النبي عليه الصلاة والسلام في أيام الفتح إلى مكة ما بقي في مكة إنسان إلا ودعاه إلى بيته، أبى ! وقال : انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة! وفاءً لها . عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ :

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا ذَكَرَ خَدِيجَةَ أَثْنَى عَلَيْهَا فَأَحْسَنَ الثَّنَاءَ، قَالَتْ : فَغِرْتُ يَوْمًا ! فَقُلْتُ : مَا أَكْثَرَ مَا تَذْكُرُهَا حَمْرَاءَ الشِّدْقِ ! قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا خَيْرًا مِنْهَا، قَالَ : مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا، قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ))

[مسند الإمام أحمد]

لا ينسى لها ذلك، كان وفياً، وهذا هو الوفاء، وكانت تكبره بخمس عشرة سنة، كانت بعمر أمه، هذا الوفاء: انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة ، فإذا كان أحدكم متزوجاً امرأة أكبر منه أو بعمره إذا مرضت يتفاءل، ويقول في نفسه: سأتزوج غيرها، يتفاءل، يا ليتها كانت القاضية! أما النبي الكريم فكان وفياً، عليه أتم الصلاة والتسليم .

إذاً: (لنريه)بعد الشدة والضيق، والمعارضة والصد، والتآمر من قبل قريش، بلغ الخط البياني الحضيض، فجاء الإسراء والمعراج تسلية لهذا النبي العظيم، وإكراماً له، وتعريفاً بمقامه، وتعريفاً له بأنه سيد الأنبياء والمرسلين، وما كان يعرف ذلك قبل هذا التاريخ!

وحينما صلّى بالأنبياء على بعض الروايات في بيت المقدس عرف أنه سيد ولد آدم ولا فخر، وعرف أنه سيد المرسلين، وانه إمام المرسلين، وأنه المخلوق الأول .

(قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَانِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ)

(سورة الزخرف)

أول عابد لله عز وجل هو النبي عليه الصلاة والسلام، يا أول خلق الله، ليس أولية زمنية، بل أولية مقامية، من حيث المقام، أول خلق الله.

(الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

والله سبحانه وتعالى أطلع هذا النبي الكريم على مقامه العظيم، في هذا الإسراء والمعراج فُرضت الصلاة، التي هي معراج المؤمن، بها يعرج إلى الله عز وجل، كلما استقام قبلها، كلما تقرب إلى الله بفعل الخيرات، وكانت صلاته معراجاً له، وكما منَّ الله على هذا النبي العظيم بالإسراء والمعراج منَّ على سيدنا موسى بالكتاب .

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1) وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَّابَ)

وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا

الله يمتنّ على موسى بإنزال التوراة عليه :

مننا عليك، وعلى موسى، عليك بالإسراء والمعراج، وعلى موسى بالكتاب .

(وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَّابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا)

فحَوَى الكتاب أن تعبد الله وحده .

(أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا)

لا تعتمد إلا على الله ، ولا تعبد إلا الله :

ألا تتخذ من دونه جهة تعتمد عليها، أو تركن إليها، أو تلجأ إليها، أو تقصدها، أو تطيعها.

(أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا)

أي: ألاّ تتخذوا من دوني رباً لكم، فربكم الله ولا رب سواه، ومن تضعضع أمام شخص ظاناً أنه ينفعه أو يضره أو يعطيه أو يمنعه، فقد اتخذه رباً، وقد أشرك بالله رب العالمين، لذلك من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه .

وشيء آخر: اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس، فإن الأمور تجري بالمقادير، ولا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، له رب، وهذا الرب بيده كل شيء، مطّلِع عليك، وكلما اعتمدت عليه أكرمك، وكلما التجأت إليه حماك .

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجب نا فإنا منحنا بالرضا من أحبنا

و لذ بحمانا واحتم بجنابنـا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

****

(أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا)

أي : رباً تدعونه، وتلوذون به، وتلتجئون إليه، وتحرصون على رضاه، لا إله إلا الله ولا رب سواه .

(ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ)

ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ

نحن من ذرية مَن حملهم نوح في الفلك :

هذه الكلمة منصوبة، يا ذرية من حملنا مع نوح، أيها البشر نحن جميعاً ذرية من حملنا مع نوح، فسيدنا نوح هو الذي نجا، والذين آمنوا معه من الطوفان الذي عمّ الأرض، ولذلك لم ينج من طوفان نوح إلا سيدنا نوح ومن معه، ونحن ذرية له .

(ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ)

يا ذرية من حملنا مع نوح، يا أيها البشر الذين منَّ الله عليكم، وأنجاكم من الطوفان، وجعلكم أحياء، وخلقكم، وأوجدكم من العدم .

(ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا)

نوحٌ العبد الشكور، فكونوا يا ذريته من أهل الشكر :

كونوا كنوح شاكراً .

(ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا)

ما لكم لا تشكرون ؟

(إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا)

ما لكم لا تعترفون؟ ومالكم لا تطيعون؟ ومالكم لا تحبون ؟

(إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا)

يا ذرية من حملنا مع نوح إن جدكم نوح كان عبداً شكوراً، فماذا تفعلون أنتم ؟

(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا)

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا

هذه الآية لا تتناقض مع مبدأ الاختيار :

الحديث الآن عن بني إسرائيل: هؤلاء في علم الله وهم مختارون، لا يتناقض أن الإنسان مختار، وأن الله سبحانه وتعالى يعلم ما سيكون؟ الإمام علي كرم الله وجهه يقول: " علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون "، الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، يعلم بلا كيف، والإنسان مخير، علم الله عز وجل لا يؤثر في اختياره .

(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ)

عادة اليهود الفساد والعلوّ :

أول مرة، وثاني مرة .

(وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا)

علوّ الاستكبار، علوّ الظلم، علوّ أن يبني الإنسان مجده على أنقاض الآخرين .

(وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا(4)فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا)

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ

من سنن الله تسخير عباد لوقف الفساد ، أو العلاج بالمصائب :

الله عز وجل إذا حصل الفساد يقيض لهذا الفساد رادعاً، يقيض علاجاً، والعلاجات أنواع، قد يكون العلاج في الزلزال! وقد يكون العلاج في الفيضان! وقد يكون العلاج في جدب الأرض، وشحّ السماء! قد يكون العلاج في الطوفان، وفي المرض الشديد، وفي الفقر الشديد، وقد يذيق الله عباده بأس بعضهم بعضاً، وهذا أحد أنواع العلاج !

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

هذا علاج .

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام : 65)

فهؤلاء بنو إسرائيل بعد أن فسدوا، وطغوا، وعدوا، وتمردوا، وعلوا علواً كبيراً، فبعث الله عليهم عباداً لنا .

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا)

أي بأمرنا وبتوجيهاتنا وبعلمنا عباداً لنا،

(أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا)

فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا

قتلوا من قتلوا، ونهبوا ما نهبوا، وسفكوا الدماء، وانتهكوا الأعراض، فَسُحِق بنو إسرائيل .

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا)

جاسوا أي : داسوا، هذا الوعد قد نُفّذ .

(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ)

بعد أن جاءت هذه المصيبة الساحقة وهذا الابتلاء العظيم، وهذا القهر تاب هؤلاء، ورجعوا واستقاموا .

(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ)

الحياة تحوّل وتغيير ، ولا تستقيم على حال واحدة :

أعاد الله لهم ملكهم ومجدهم وغناهم، ورزقهم من الأموال والأولاد ما تقر به العيون .

(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمْ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا)

الحياة كر وفر، البطل الذي إذا جاءته الدنيا لا يطغى، لأنه إذا طغى سوف يقهره الله سبحانه وتعالى، البطولة أن تكون مع الله وأنت في الرخاء، وأنت في أوج نجاحك، وأنت في أوج صحتك، وأنت في أوج وقوتك، وألا تنسى الله عز وجل، فهذه هي البطولة، أما كل إنسان ضيق الأفق أعمى، إذا جاءته الدنيا، وأصبح قوياً ينسى فيطغى، فيأتيه تأديب الله عز وجل، ضربة قاضية، فهذه سنّة الله في خلقه، يعطي الدنيا، يعطي الأموال، ويعطي الأولاد، والقوة، والخيرات من كل جانب، وهذا الإنسان يعلو فيعلو، فينسى، ويطغى، ويفسد، ويتجبر، ويظلم، فتأتيه ضربة الله القاصمة، فيتوب! ومادام قد تاب يعود الله إلى إكرامه، فإذا رجع إلى معصيته جاءه العلاج، أبداً، إن لكل سيئةٍ عقاباً، ولكل حسنةٍ ثواباً .

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ(4)وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص)

إذا عصاني من يعرفني سلّطت عليه من لا يعرفني .

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ (5)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

الظالم سوط الله، ينتقم به، ثم ينتقم منه .

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة الأنعام)

هذا ملخص الآية :

(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمْ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا(6)إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ)

هذا مبدأ عام، إذا وضع إنسان في الصندوق أموالا، والصندوق مفتاحه معه، وهو ملكه .

(إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ)

إنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ

إنْ عملت صالح فلنفسك ، وأسأتَ فعلى نفسك تجني :

تستقيم لنفسك، تترفع عن المال الحرام لنفسك، تغض بصرك عن محارم الله لنفسك، وسيكون الزواج سعيدًا، تنظر إلى الحرام فزواج شقي! تكسب مالاً حراماً فيدمر المال، تكسبه حلالاً فينمو، تكون صادقاً يرفعك الله عز وجل، تكذب يَحُطُّك، تكون أميناً يغنيك، تخون يفقرك، تزني يزنى بزوجتك، من يزن يُزنَ به! تنظر ينظرون إلى زوجتك، تلمس يلمسون، أبداً، حساب دقيق، إن أحسنتم تفكر بالكون، وتتعرف إلى الله عز وجل، وتعيش حياة سعيدة، وتلتفت إلى الدنيا يأتي خريف العمر ويحمل معه الشقاء الكبير .

(إنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ)

إذا ملك رجل سيارة، وأحضر حجراً وكسر زجاجها، فمن يكون قد آذى؟ ومن غاظ؟ أغاظ نفسه! وإذا اعتنى بها فله، أراحته وأراحها، ووفَّرَت عليه نفقات كثيرة، وإذا أساء لها تسيء له، والقضية بمنتهى البساطة .

(إنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ)

أي : هنالك نوع من الإيلام والإهانة .

(وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا)

التتبير هو التخريب والتدمير :

التتبير هو التخريب، والتدمير، أي أن أعدائكم هم الذين سَيُقَيَّضُون بتأديبكم على فسادكم .

(وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا)

وسيهدمون كل شيء .

(عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا)

عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا

هذه الآية وحدها تكفي، كأن الله عز وجل يخاطب كل واحد منكم .

(وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا)

قاعدة مهمة : المعاملة بالمثل :

إن رجعت إلي رجعت إلى إكرامك، وإن نسيتني قيضت لك ما يرجعك، إن رجعت إلي طوعاً رجعت إلى إكرامك ورفع شأنك، وإذا نسيتني وكفرت بي قيضت لك ما يزعجك، أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد .

كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك .

(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ)

ولم ترجعوا صار الفساد الثاني، ولم ترجعوا سأقيض لكم عباداً لي يقهرونكم ويذلونكم،

(وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا)

يدمرون كل شيء .

(عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا)

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ

يوجد آية قرآنية :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد الآية 11)

هذا قانون، والله الذي لا إله إلا هو، لو لم يكن في هذا القرآن إلا هذه الآية لكفت!

رجل وقع في مشكلة لن يغير الله ما به حتى يغير، وحتى يتوب ويرجع إلى الله، ويصلي ويستقيم، ويعمل الصالحات، غيّر حتى يغير، وإذا كنت في بحبوحة وأمن وسلام وصحة وعافية ومكانة، وأنت لم تغير، فالله لا يغير، مهما اشتدت الظروف إن لم تغير فلن يغير غيرت يغير، هذه لها معنى عكسي .

(عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا)

جهنم مكان يُحصَر فيه الكافر :

مكان يحصر به الكفرة، ليس القضية يوجد باب مفتوح وتسلل أحدهم من فوق السور لا يوجد ذلك .

(وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا)

تحصرهم حصراً .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

لا يوجد آية أبلغ ولا أجمل من هذه الآية :

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ

المطبِّق للقرآن سعيد في الدنيا والآخرة :

إن طبقته بزواجك يصبح زواجك سعيداً، وطبقته في صحتك تتمتع بها إلى نهاية الحياة، وطبقته في علاقاتك المالية، ولم تأكل الربا يبارك الله لك في مالك، وطبقته في أمور المعاش في التجارة وفي الصناعة وفي الزراعة .. حيثما طبقت هذا الكتاب يهدك للتي هي أقوم، غضبت من زوجتك فلم تخرجها إلى بيت أهلها، طبقت الآية :

(تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

(سورة الطلاق : 1)

يمر يوم أو يومان فيصطلحان، وينتهي الأمر، بقيتم في مكانتكم العلية، لا في ساعة غضب نسيت الآية، فطردتها إلى بيت أهلها شهرين أو ثلاثة أو أربعة .. أنت امتلأت وهم امتلئوا غيظاً، التفكير أصبح بالطلاق، ولديك أطفال منها، ولا يوجد من يرعى الأولاد، من غلطة واحدة أصبح الطريق إلى الهاوية مفتوحاً، إن طبق القرآن .

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

(سورة النساء : 34)

وتكون أعلى منها علماً وخلقاً وأدباً وصلاحاً، وتنفق عليها وتملك القيادة، فإذا كنت دونها ورعاً وعلماً وصلاحاً، وطمعت بمالها كانت لها القيادة عليك! فالقضية واضحة، هذا قرآن كريم، تجعل نفسك فوقها بمئة درجة تعدّ ظالماً، وربنا عز وجل قال :

(وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

(سورة البقرة)

درجة واحدة، وليس مليون درجة، ليس هي لا شيء، وأنت كل شيء، هي شريكة حياة، لكن القيادة لك.

أحياناً يلتقي ضابطان بالثكنة بنفس الرتبة، الأقدم يقود السرية أو الكتيبة، ربنا جعل الزوج أقدم دائماً، وأعلى درجة .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

فيه توجيهات صحية، فالله عز وجل قال :

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

(سورة الأعراف)

هذه الآية تكفي .

ذهب رجل إلى دولة أجنبية، وفي أضخم مستشفى كتب باللغة الأجنبية : نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع، التوقيع : محمد بن عبد الله.

قال : هذا الحديث يعد أصلاً في الطب الوقائي، إن طبقت القرآن في الطعام والشراب تقطف ثماره في الدنيا، وإن طبقته في الزواج تقطف ثماره، إن طبقته في التربية تقطف ثماره، وفي العمل وبالتجارة .. وفي أي شيء طبقته قطفت ثماره .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء)

أي للتي هي أصلح .

(وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا)

(سورة الإسراء : الآية 9)

القرآن يبشِّر المؤمن العاملَ للصالحات بأجر عظيم :

من السعادة الدخولُ في الوعد :

مرة ضربت مثلاً مضحكاً: رجل فقير إلى درجة قصوى، دخله سبعمئة ليرة، عنده اثنا عشر ولداً، بيته بالأجرة في مثل هذه الأيام، له عم غني كبير، ليس له أولاد، توفي فترك ثمانية وخمسين مليوناً! هذه الأموال لهذا الإنسان! وبقي سنتين حتى استطاع أن يقبضها! سنتين بين وفاته وقبضه للمبلغ، هذا الإنسان الفقير هل تغيرت حياته؟ لم تتغير، طعامه تحسن؟ لم يتحسن، بيته غيره؟ لم يغيره، لماذا أصبح سعيداً؟ لأنه دخل في الوعد والأمل .

وهكذا المؤمن بالدنيا، مهما ضاقت دنياه فهو طامع في الجنة، هذا الإنسان الفقير مادام سيأتيه مبلغ ضخم كلما رأى بيتاً فخماً قال: سأشتريه، كلما رأى مركبة فخمة قال : هذه سأشتريها، وكلما رأى شيئاً جميلاً يقرر شراءه، لأنه أصبح موعوداً بمبلغ ضخم، لكن إجراءات قبض المبلغ تستغرق وقتاً، وهذا

المثل لم يقع بل هو من عندي، إنه مثل تركيبي، وليس مثلاً واقعاً، فدخل بالوعد، وأصبح سعيد، وأحد أسباب سعادة المؤمن أن الله عز وجل يعده بالجنة !

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (02-13): تفسير الآيات 10 – 20
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-07-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، إلى الدرس الثاني من سورة الإسراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا)

وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا

الإنسان خُلق عجولا ضعيفا هلوعا :

خلق الإنسان عجولاً، وخلق الإنسان ضعيفاً، وإن الإنسان خلق هلوعاً، هكذا خلق، هكذا فطره الله سبحانه وتعالى، خلقه عجولاً، وخلقه هلوعاً، وخلقه ضعيفاً، ولم يأتِ في كتاب الله من صفات الإنسان إلا هذه الصفات الثلاث .

(وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا)

(سورة النساء)

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

(سورة المعارج)

(وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا)

(سورة الإسراء)

هذه الصفات الثلاث في مصلحة الإنسان :

لو دققنا في هذه الصفات، لوجدنا العجلة والضعف والهلع في مصلحة الإنسان، فلو أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان قوياً لاستغنى بقوته، ولشقي باستغنائه، فهذا الضعف الذي في الإنسان هو الذي يعينه على أن يتصل بالله عز وجل، وعلى أن يتوب إليه، وعلى أن يُقْبِلَ عليه، وعلى أن يخاف منه، ولولا الضعف لما خاف الإنسان ربه، ولما تاب إليه، ولما أقبل عليه، فالضعف في مصلحته .

إذا عَلّقْنَا آمالاً كبيرة على أن يربِّي هذا الأب ابنه، كيف يربي الأب ابنه إذا كان الابن مستغنياً عن أبيه؟ لا! حاجات الابن كلها متعلقة بأبيه، يحتاج إلى الطعام والشراب، وإلى تأمين الحاجات، حاجات الابن

الكثيرة التي أودعها الله عند الأب تتيح للأب أن يربيه، فالضعف صفة أودعها الله في الإنسان لمصلحته.

مثل آخر توضيحاً للحقيقة، لماذا يمرض الإنسان؟ الله سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق الإنسان من دون مرض، لو أن الله عز وجل خلق الإنسان من دون مرض فلماذا التوبة؟ ولماذا العودة إلى طريق الحق؟ ولماذا الإقلاع عن المعصية؟ ولو أنه شديد عتيد لا يخشى أحداً، صحة طيبة، لكن الأمراض أو شبح الأمراض هذه التي تضعف الإنسان تجعله يخضع لله عز وجل، ويتوب إليه يتضرع إليه، يقبل عليه بسبب أن الإنسان ضعيف، والإنسان أيضاً هلوع .

(الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)

(سورة المعارج)

هلعه يجعله يحتمي بربه، كيف يعود الابن إلى أمه متشبثاً بأذيالها؟ لخوفه من الكلب العقور، فلولا خوف الطفل من الكلب لما التجأ إلى أمه، فهذا الهلع في مصلحة الإنسان، أما لماذا خلق الإنسان عجولاً؟ ولماذا كان عجولاً؟ لو كان الإنسان بشكل أو بوضعٍ آخر على نقيض العجلة، لو أنه يبحث عن المستقبل البعيد، لكان في تعلقه بالآخرة منسجماً مع طبيعته، ولما ارتقى بهذا التعلق، بل لأنه عجول، فإذا آثر الآخرة على العاجلة فقد خالف هوى نفسه، وخالف طبيعته، وبهذا يرقى .

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل)

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى)

(سورة النازعات)

حينما يخالف الإنسان طبيعته يرقى عند ربه، صلاة الصبح فيها مغالبة لطبيعة الجسم، إذ أن طبيعة الجسم تنسجم مع البقاء في الفراش، لكن صلاة الصبح قبل الشمس تحتاج إلى إرادة قوية، أردت من هذا كله أن أصل إلى أن الإنسان حينما يخالف طبيعته يرقى عند ربه، فقد خلق الإنسان عجولاً، وآثر الآخرة على الدنيا العاجلة، بهذا يرقى عند الله عز وجل في الدرجات العلا . فربنا عز وجل يقول :

(وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا)

الإنسان يتمنى الشر بحماس كما لو كان خيرا :

أيّ إنسان، المقصود بها جنس الإنسان، ينطلق الإنسان، ويتحمس، ويقبل على الشر بحماس وصدق، وجلد وتصميم وإرادة، كما لو كان الشر خيراً، لأن في الشر كما يزعم مغنماً سريعاً، كسب عاجل،

الناس جميعاً تقريباً إذا رأى أحدهم بيتاً فخماً تتوق نفسه إليه، ولو كان تحصيله من حرام، يؤثر هذا البيت في الدنيا العاجلة على جنة عرضها السماوات والأرض ! وإذا عرض عليه مبلغ كبير من طريق غير مشروع يقبل عليه، ويأخذه، ويؤثره على جنة عرضها السماوات والأرض، إذاً هو آثر العاجلة على الباقية، وهكذا طبيعته، فلو أنه فكر، وتأمل، وتبصر، ودقق، وحقق، وحضر مجالس العلم، فلو عرف القرآن الكريم وما عند الله لآثر الآخرة على العاجلة .

إذاً: أن تؤثر الآخرة فهذا يحتاج إلى تفكر وتدبر، وتأمل، وإرادة وتصميم، وعلم وتقوى .

(وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ)

يتمنى الشر بالحماس والرغبة والإرادة والحرارة، كما لو كان خيراً .

(وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا)

إذاً: من خالف طبيعة نفسه ، وآثر آخرته على دنياه ارتقى عند الله عز وجل في جنات عرضها السماوات والأرض، وهذه المعاني الثلاثة: أن الإنسان خلق هلوعا، وأن الإنسان كان عجولا، وأن الإنسان خلق ضعيفا، هذه الصفات الأساسية لمصلحة الإنسان .

كيف أن الآلة الثمينة الغالية، التي نخشى أن يصيبها العطب نضع فيها ممراً كهربائياً ضعيفاً جداً، يعد هذا الممر نقطة ضعف للآلة، لكن هذا الضعف لمصلحة الآلة، فلو جاء التيار شديداً لساحت هذه النقطة، ولانقطع هذا التيار عن الآلة، فصنًا الآلة من العطب والعطل، وهذا بعض ما في الضعف، وما في العجلة، وما في الهلع، من حكمة أودعها الله عز وجل في هذه الصفات التي أُوجِدَت في الإنسان لمصلحة إيمانه وسعادته في الدنيا والآخرة، فالإنسان أحيانا يدعو بالشر، يريد الدنيا، وفي الدنيا هلاكه، ويريد المال، وفي المال هلاكه، يريد أن يتزوج هذه المرأة، وقد يكون في زواجه منها شقاؤه، يريد أن يعمل هذا العمل الذي يدر عليه مبالغ طائلة، وقد يكون في هذا العمل شقاؤه، ويريد أن يذهب إلى المكان الفلاني حيث المتعة والجمال، والأنس والطرب والبهجة، وفي هذا فساد دينه .

(وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ)

في العجلة الندامة وفي التأني السلامة :

والله عز وجل يدعونا إليه، وهذا هو التبصر والتأمل، والتحقق والتدبر والتفكر، ولا ينبغي أن نقبل على الشر كما لو كان خيراً، لا ينبغي أن تفرح بمال عريض يوفر لك سعادة الدنيا، يأتي الموت فتخسر كل هذا المال، وأحياناً يستدين الإنسان مبلغاً ضخماً لشراء سيارة، وتحترق السيارة، ويبقى الدين عليه، هكذا الدنيا، يعمل ليلا ونهارا من أجل تحصيل دنيا عريضة ممتعة، يأتي الموت تذهب الدنيا، وتبقى

طبيعة العمل، ويبقى المال الحرام الذي حصّله، فلا تكن ـ أيها الإنسان ـ عجولاً، ففي التأني السلامة، وفي العجلة الندامة، لا تسرع، وتوافق على هذا المال، فقد يكون حراماً، ولا تسرع، وتوافق على هذا الزواج فقد يكون مهلكاً، لا تسرع، وتوافق على عقد هذه الشراكة فقد يكون الشريك منحرفاً، لا تسرع، وتأخذ هذا البيت فقد يكون في أخذ هذا البيت اغتصاب .

(وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا)

ينبغي إذا جلسنا هذا المجلس أن نتعظ، فكل درهم من حلال خير من مئة ألف درهم من حرام، لا تكن عجولاً، ولا توافق على الشيء قبل البحث عنه، وهل يرضي الله عز وجل؟ وهل هو مطابق للشرع؟ وهل هو وفق السنّة النبوية المطهرة؟ اسأل أهل الذكر إن كنت لا تعلم، هذا العمل يدر عليَّ مبالغ طائلة، ما قولكم فيه؟ قد يكون هذا العمل مبنياً على إيذاء الناس، أو على إفساد أخلاقهم، أو على بيعهم شيئاً يثير الفساد فيهم .

(وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا)

أرجو الله عز وجل أن أكون قد وفقت إلى توضيح أن الإنسان لا ينبغي أن يكون عجولاً وفق طبيعة خلقه، الجسم يحتاج إلى الراحة، وأمِرتَ أن تصلي الصبح قبل شروق الشمس، لا تستجب لرغبة جسدك، كذلك في العجول، لا تستجب لرغبة نفسك، في أن تأخذ الشيء الحاضر، ولو كان حراماً، وأن تدع جنة عرضها السماوات والأرض، وإن كانت بعيدة المنال!

معنى : وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا

المعنى الأول :

بعض علماء التفسير قال في هذه الآية :

(وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا)

أحياناً حينما تأتي إنذارات الله عز وجل، يقول الذين لا يعلمون: ائتنا بعذاب الله! أين عذاب الله؟ ليكن؛ نحن لا نخاف .

المعنى الآخر :

المعنى الآخر لهذه الآية :

(وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا)

أي : يستعجل عذاب الله من دون أن يعرف كُنْهَ هذا العذاب، وكيف أنه إذا أقبل لات حين مناص، فالإنسان معرَّض في أمر عمله إلى إغراءات كثيرة، يقول له أحدهم: دعك من هذه المصلحة، هذه فاقورة، أي تسبب الفقر، لنكن معاً في هذه المصلحة، ولكن هذه المصلحة فيها فساد، و إفساد لأخلاق الناس، وكل يوم الغلة ثمانية آلاف !

(وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا)

في بيعك، أو شرائك، أو زواجك، أو شراكتك، أو نزهاتك .. لا تختر شيئاً يغضب الله عز وجل، ولا تؤثر الدنيا الفانية على الآخرة الباقية .

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا)

هذه هي العلاقة بين الآيتين : إذا عرفت الله فلن تكون عجولا :

قبل الحديث عن هذه الآية، ما علاقة قوله تعالى :

(وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا)

بقوله تعالى :

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا)

هذا هو الهدي الإلهي .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

هذا هو الحال للهدى، الهدى يهدي للتي هي أقوم، فما حال المهتدي؟ هذا المهتدي قد يؤثر الدنيا العاجلة على الآخرة الباقية، وقد يؤثر الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، وقد يؤثر الدنيا القليلة على الآخرة الكثيرة، فما متاع الحياة الدنيا إلا قليل؟ حينما تحدث الله لنا عن الهدي الذي في هذا القرآن، وكيف أن هذا الهدى يقود صاحبه إلى التي هي أقوم، تحدث عن الإنسان المعني بهذا الهدى، فقال :

(وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا)

لو أن الإنسان تفكّر في خلق السماوات والأرض لعرف أن خالق السماوات والأرض خلقهم لهدف كبير، وليس لمدة يسيرة، لا يعقل أن تكون السماوات والأرض خلقت من أجل أن نعيش على هذه الأرض ستين عاماً، أو أكثر، أو أقلّ! هناك هدف أكبر من أن تعيش سنوات بعضها في الإعداد، وبعضها في المتاعب، فلو أنك تفكرت في خلق السماوات والأرض لعرفت أن الله عز وجل خلقهم بالحق ! ومعنى بالحق، أي: خلقها لهدف كبير، وخلقها لتبقى، أنت لم تُخْلَق عبثاً .

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

(سورة المؤمنون)

وأنك لم تخلق سُدَىً، إنما خُلِقتَ بالحق من أجل أن تسعد في الدنيا والآخرة، ولذلك فالله عز وجل يلفت نظر الإنسان إلى أنك إذا عرفت الله لم تكن عجولاً، ولم تدع للشر دعاءك للخير، كيف تعرف الله عز وجل؟

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً)

معرفة الله من خلال آياته الكونية :

هذه الأرض، وهذه الشمس، لو أن الأرض ثابتة في مكانها لا تدور حول نفسها، لما كان ليل ولا نهار! ولكان نصفها الأول نهاراً سرمدياً، ونصفها الآخر ليلاً سرمدياً، ولكن دورة الأرض حول نفسها جعلت الليل والنهار .

إذاً: الليل والنهار آيتان دالتان على قدرة الله عز وجل، وعلى عظمته وحكمته .

تدور الأرض ليكون وقت الليل والنهار مناسبا :

الآن سرعة الدوران، ماذا نفعل بنهار لا يزيد على ساعة واحدة؟ وماذا نفعل بليل لا يزيد على ساعة واحدة؟ وماذا نفعل بنهار يزيد على مئة ساعة؟ وماذا نفعل بليل يزيد على مئة ساعة؟ كون الأرض تدور حول الشمس، هذه آية، وكونها تدور في سرعة مناسبة لطبيعة الإنسان، هذه آية ثانية، وكون الأرض تدور حول الشمس آية ثالثة، وكون محور الأرض مائلا هذه آية رابعة، دورتها حول نفسها آية، وحول الشمس آية، ومن خلال هذا كله كان الليل والنهار، الليل ذو الأمد المعقول، والنهار ذو الأمد المعقول، والصيف والشتاء والربيع والخريف .

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ)

الليل والنهار آيتان فهل فكَّرت فيهما ؟

هل فكرنا فيهما؟ وهل استيقظنا في أحد الأيام على نهار لا شمس فيه؟ فيه خلل فني؟ لم تصل الشمس اليوم؟ هذا الثبات في الليل والنهار منذ مئات ألوف السنين .

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت : 37)

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ)

سنة الله في الليل أنه راحة وسكون وهدوء :

الله سبحانه وتعالى جعل الليل مظلماً، كي ننام، وترتاح عضلاتنا، وأعصابنا، وأجهزتنا، وكي ننطلق في اليوم التالي إلى عملنا بنشاط واستعداد كافيين، فالليل من سماته أنه يعيق الحركة لسيطرة الظلام عليه، فلا حركة، ولا نشاط، ولا سعي، ولا كسب في الليل، وطبيعة الليل طبيعة ساكنة .

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا(10)وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا)

(سورة النبأ)

(فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ)

ألغينا الحركة مع إلغاء الضياء، وألغينا الحركة مع الحاجة إلى النوم .

(فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً)

لماذا النهار ضياء وإبصار ؟

العلة الأولى : النشاط وابتغاء الرزق :

النهار مضيء، كل شيء تراه في النهار، فالفلاح ينطلق إلى عمله في النهار، والصانع ينطلق إلى معمله في النهار، والموظف إلى دائرته، وكل أصحاب الحرف، وأصحاب المحلات، وأصحاب النشاطات، ينطلقون في النهار .

(فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ)

لتكسبوا رزقكم، الفلاح في أرضه، والعامل في معمله، والموظف في دائرته، والتاجر في متجره، والصانع في مصنعه، وكل إنسان يعمل في النهار بشكل طبيعي هو مرتاح، ومستعد للعمل، والإضاءة تعين على أداء العمل، هذه العلة الأولى .

(لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)

معرفة الأيام والسنين والحساب :

والله الذي لا إله إلا هو، في دورة الأرض حول نفسها آية لا يعرفها إلا من عَقَلَهَا! فلو أن طبيعة الأرض لا تدور، وإذا لم تَدُرْ فليس هناك ليل ولا نهار، وكيف تتم حياتنا؟ قد تقول لإنسان: كم عمرك؟ يقول لك: لا أدري والله، متى سوف تفعل هذا؟ لا يملك جواباً! لكن دورة الأرض حول نفسها جعلت ليلاً ونهاراً، وأصبح في الزمن أسبوع وشهر وسنة، ليل ونهار، وأسبوع وشهر وعام .

(وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)

فلان بلغ من العمر أربعة عشر عاماً، وفلان في الصف الثاني عشر، فلولا دورة الأرض حول نفسها لما كان فلان في الصف الثاني عشر، كيف يعرف أنه في الصف الثاني عشر؟ العبادات، أوقات الصلوات، الصيام، الحج، البيوع، التأجير، أخي استأجر هذه الحاجة لعامين، هل يمكن أن تقول: لعامين لولا الشمس والقمر، والليل والنهار؟

(وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا)

كل ما نحتاجه مفصَّل في الوحيين :

كل شيء تحتاجونه في أمر دنياكم ودينكم فصَّلناه لكم تفصيلا! كل شيء أنتم في أمس الحاجة إليه في أمر دنياكم: أحكام الزواج، وأحكام الطلاق، وأحكام البيع، وأحكام الإيجارات، وأحكام المضاربة، وأحكام المزارعة، كل شيء تحتاجونه في دنياكم وآخرتكم فصَّلناه تفصيلا، وهذا من نعمة الله علينا، ونعمة الإيجاد، والإمداد، والإرشاد، وكأن الله عز وجل أراد أن هذا الإنسان الذي يدعو بالشر دعاءه بالخير، لو فكر في خلق السماوات والأرض لعرف الله، ولدعا إلى الخير، وترك الشر !

من الذي يدعو بالشر دعاءه بالخير؟ الجاهل، من الذي يأكل مادة سامة؟ هو الجاهل، لو عرفها سامة لما أكلها، فيا أيها الذي تدعو بالشر دعاءك بالخير، تأمل في خلق السماوات والأرض، إذا تأملت في خلقهم لعرفت الله! عندئذ تبحث عما يرضيه، عندئذ تعرف لماذا أنت على وجه الأرض، وتعرف مهمتك في الدنيا، وتدع المعاصي وتفعل الخيرات .

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ)

وَكُلَّ إنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ

الطائر كناية عن العمل :

الطائر هنا كناية عن العمل! والعمل الذي تفعله اختياراً أنت ملزم به، ويجب أن تتحمل تبعته .

(وَكُلَّ إنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ)

مبدأ المسؤولية والتبعية :

عملك الطيب الذي تفعله باختيارك، وعملك السيئ لا سمح الله الذي تفعله باختيارك، هذا العمل سوف يُطوِّقُ عُنُقِكَ، كناية لطيفة، كيف أن القيد أحياناً يُطوِّق عنق الإنسان، فلا يستطيع منه فِكَاكَاً، إما أنه قلادة من الأحجار الكريمة تزين بها عنقك، وإما أنه قيد تجر به إلى مصيرك، وعلى كلٍّ فعمل الإنسان الذي يعمله باختياره من خير أو شر سوف يكون قيداً يقيد عنقه .

(وَكُلَّ إنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ)

هذه الآية تؤكد مبدأ التبعة والمسؤولية .

(بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

(سورة البقرة)

(وَكُلَّ إنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ)

كلّ عمل عملتَه طار منك :

والعرب كانت في الجاهلية إذا طار طائر عن يمينها تفاءلت، وإذا طار طائر عن شمالها تشاءمت، فكأن الطير في العرف الجاهلي رمز لما سيصيب الإنسان من خير أو شر، وهنا في الآية الطائر هو العمل، فإن العمل الذي كان في ملكك فطار منك، والإنسان قبل أن يعمل له الحرية؛ يعمل أو لا يعمل، يعصي أو لا يعصي، يفعل الصالحات أو لا يفعل، هذه الأعمال كامنة فإذا فعلها فهو تابع لها! وكأنها طارت منه .

(وَكُلَّ إنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ)

هذا العمل يلزم الإنسان ويقيده، ويصبح الإنسان رهينة لعمله .

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

(سورة المدثر)

ولو أن الإنسان عمل عملاً يخالف القوانين والأنظمة يتحمل تبعة عمله، وقد يخسر حريته، وعمله أصبح قيداً له .

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا)

كلّ عملك مسجَّلٌ في كتاب تقرأه بنفسك يوم القيامة :

كل عمل تعمله مسجل، وأغلب الظن أنه مسجل مع الصورة !

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ(18)وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ(19)كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

(سورة المطففين)

ومعنى (مرقوم)، أي: مُرَقَّم، ولها معنيان :

مرقم الصفحات، لا يمكن أن تنزع منه صفحة .

ومرقوم: بمعنى أن فيه صوراً من الرقيم، العمل مع صورته ! فما قولكم لو جئنا يوم القيامة، فإذا حياتنا منذ أن أدركنا سن البلوغ وسن المسؤولية إلى ساعة الوفاة؟ كل صغيرة وكبيرة، وكل عمل صالح وسيئ، وكل مخالفة، وكل طاعة، مسجلة مع صورة له !

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا)

اقرأ كتابك .

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا

خذ الكتاب وحاسب نفسك بما فيه :

فأحياناً يدخل الموظف إلى مديره العام، شاكياً له، يستدعي هذا المدير موظف الذاتية، ويقول له: ائتني بإضبارة فلان! فتأتي الإضبارة، يفتحها له، باليوم الفلاني تأخرت، وفي صحيفتك توبيخ مسجل، وفي صحيفتك تقرير طبي خلّبي غير صحيح، فيلزمه بأعماله كلها، فإذا هذا الموظف ينكمش، ويخجل، ويسقط في يده، هذا مثل .

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا(13)اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

فأنت حاسب نفسك عن هذه الأعمال .

قال لي شخص: ارتكب رجل جريمة، فقال له القاضي: أنت احكم على نفسك! قال: الإعدام! ارتكب جريمة بشعة، قتل فيها أماً وأطفالها، من أجل أن يسرق البيت، فلما وقع في قبضة العدالة، وبدأ قاضي التحقيق يفور ويهمد، وقال له: أنت احكم على نفسك، فقال: أستحق الإعدام !

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

عندما يعود الإنسان إلى فطرته السليمة، ويطّلِع على عمله المؤذي كأن الله عز وجل يقول له :

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

لذلك إن العار ليلزم المرء يوم القيامة! فمن العار والخزي عندئذ أن يستحق دخول النار .

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ(104)أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

(سورة المؤمنون)

(مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى

الهدى عائد على صاحبه بالفوز ، والضلال عائد عليه بالخسران :

إذا كان مع رجل ثمن بيت، ووضعه في برميل، وصب عليه الزيت، وأحرقه، ستمئة ألف! من الذي يغتاظ؟ جاره؟ صديقه؟ بل هو نفسه .

(مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

الهدى عائد عليك، والضلال عائد عليك، فإن اهتديت فما زدت على أن نفعت نفسك، وإذا ضللت فما زدت على أن ألحقت بنفسك الهلاك في الدنيا والآخرة .

(مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

ألم يقل الله عز وجل :

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

وأن الإنسان الجاهل يدعو بالشر دعاءه بالخير؟ وإن طريق معرفة الله .

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ)

وأن الإنسان محاسبٌ عن عمله حساباً دقيقاً؟

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ)

وأن الإنسان حينما يعود إلى فطرته السليمة سوف يحكم هو نفسه على نفسه بالنار؟ والآن ربنا عز وجل يقول :

(مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا)

اعملوا ما شئتم، كل الذي تعمله تجده، كل الذي تفعله من معاصٍ تحاسب عليه، إن لكل حسنة ثواباً، ولكل سيئة عقاباً .

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

القرآن يقرِّر أصل الاختيار في الإنسان :

هذه الآية أصل في أن إنساناً لن يؤخذ بجريرة إنسان آخر ! وكل إنسان يحاسب عن عمله .

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

أي: ولا تحمل نفس حمل نفس أخرى، كل إنسان يحمل حمله، ولو أن الأب كان مهتدياً، وجاء الابن ضالاً، إذا بذل الأب جهده في هداية ابنه، وأبى الابن الهداية لن يتحمل الأب من تبعة ابنه شيئاً، ولو كان الابن مهتدياً، وكان الأب ضالاً لن يتحمل الابن من ضلال الأب شيئاً، وكذلك الأخ والزوجة .

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ(10)وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(سورة التحريم)

لا امرأة فرعون تتحمل من أوزار فرعون شيئاً، ولا سيدنا نوح وسيدنا لوط يتحملان من أوزار نسائهما شيئاً، وكل إنسان يحاسب عن عمله، هذا أصل في العدالة .

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)

لابد في الأرض من دعاة وهداة للخير :

الكون وما فيه من آيات دالات على عظمة الله عز وجل، الكون كافٍ ليضعك أمام المسؤولية! والفطرة السليمة التي فطرت عليها كافية لتعرفك بربك وبمسئوليتك، ولكن رحمة الله عز وجل أبت أن يحاسب إنساناً، أو أن يعذب إنساناً بعد أن يبلغه رسالته، معنى ذلك : أن الله عز وجل لا يدع أهل الأرض من دون هداة ودعاة، ومن يعلم الناس أمر دينهم .

(كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ(8)قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ)

(سورة الملك)

والله عز وجل في آيات كثيرة .

(أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر : 37)

لا بد من النذير، النذير كما قال القرطبي في تفسيره: هم الرسل، والنذير هم العلماء، والنذير هي المصائب، وسن الأربعين، والشيب، وموت الأقارب، ولا يعذب الله إنساناً قبل أن يبلغه رسالته، مع أن الكون يكفي لما فيه من آيات دالات على عظمة الله، ومع أن فطرة الإنسان تكفي، ولكن رحمته أبت أن يعذب مخلوقاً قبل أن يبلّغَه رسالة السماء .

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال : 23)

إذاً: لا بد من أن يسمعهم مادام فيهم الخير .

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا)

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا

الكناية بالقرية عن أهلها :

القرية هنا كناية عن سكان القرية، وقد ذكر الله القرية مكان أهلها إشارة إلى أن تدمير الله عز وجل لشدته يصيب العباد والبلاد !

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً)

إهلاك القرية له موجبه وسببُه :

أردنا إهلاكها، لأنها فعلت موجبات الإهلاك، والقرية أو أهل القرية، أو المجتمع الذي يفسد ويُعصى الله فيه، ويأكل القوي حق الضعيف، وتُفعل الفاحشة، وينعدم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ففي مثل هذا المجتمع الظالم يستحق الهلاك .

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً)

لأنها فعلت المعاصي والموبقات بأن ضاع فيها الحق، وأكل القوي الضعيف، بأن انعدم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وبأن كُذّب الصادق، وصُدِّق الكاذب، وأئُمِن الخائن، وخُوِّن الأمين، فإذا فعل مجتمع ما من المعاصي والموبقات والانحرافات ما يكفي لهلاكه، أو ما يستحق إهلاكه في هذه الحالة .

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً)

لا بد من أن نبعث فيها رسولاً، ليحذرها، وينذرها، ويبين لها عاقبة عملها، ومغبة معصيتها .

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا)

أمَرنا مترفيها بالطاعة فعصوا :

أمرناهم بالطاعة وبالتوبة وبالعودة والإنابة .

(أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا)

أن يستقيموا، لأنهم إذا استقاموا استقام الناس، ولأنهم تَبَعٌ لهم، ألم يقل الإمام علي كرم الله وجهه : "يا كميل الناس ثلاثة : عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، مع كل ريح يميلون، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق، فاحذر يا كميل أن تكون منهم " .

هؤلاء الناس تبع للمترفين، ولأهل الدنيا، وللأكابر، أكابر القوم، تبع للأغنياء، فالله سبحانه وتعالى توجه بالأمر إلى المترفين بخاصة، وإلى الناس بعامة، لأن الناس في الأصل تَبَعٌ لهم .

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا)

أمرناهم بالطاعة والتوبة وبالإنابة والهدى .

(أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا)

لم يستجيبوا، ولم يرعووا، ولم يأبهوا .

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا)

هذه الآية تصديق وتأكيد للآية السابقة :

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا(15)وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا)

معنى : فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ

معنى :

(فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ)

أي: استحقت الهلاك وفق السنن الإلهية! إن الله عز وجل لا يهلك قرية حتى يبعث فيها رسولا، مع كل الإنذارات والدعوات والتحذيرات، مع الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، استمر هؤلاء في ضلالهم وغيهم وفسقهم وفجورهم، فحق عليها القول، والقول هو الأمر بهلاكها بعد استحقاق الهلاك، فدمرناها تدميراً كاملاً! هذه الآية أيضاً تشبه القاعدة الثابتة .

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا

كم من القرون عصت ربّها وهو بها خبير بصير عليم :

فالله وحده يعلم حجم الذنوب التي يقترفها الناس، البيوت مغلقة الأبواب، لا نعلم نحن كم من هذه البيوت فيها المعاصي، ولا ما فيها من طاعات، إن الله سبحانه وتعالى هو الخالق العليم، السميع البصير، هو الذي يعرف ذنوب عباده، ويعرف نياتهم، ومكنونات صدورهم، وطموحاتهم .

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

إذا كنت أنت لا تعلم، وفي قلبك ألم لا يحتمل لتقصير الناس، فكيف لو علمت كل المعاصي التي يقترفها الناس؟ فهذه الآية تشير إلى حلم الله سبحانه وتعالى، يعلم كل شيء، يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، ومع ذلك يحلم علينا .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا)

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ

الإنسان مخير، والدليل هذه الآية :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ)

مَن أراد الدنيا العاجلة الفانية أخذ منها بقدر ما كُتِب له :

إذا أردت الدنيا أعطيناك إياها، فأنت مخير، فاختر ما شئت، ولو أنك اخترت الدنيا العاجلة على الآخرة الباقية لأعطيناك الدنيا، من كان يريد العاجلة، سماها الله العاجلة، وهذا انسجام مع قوله تعالى :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ)

يختار الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، يختار عاجل الدنيا على آجل الآخرة، من كان يريد العاجلة، إذا أردتها بصدق وتصميم وإلحاح، من كان يريد العاجلة، يريد الدنيا، ولا شيء غير الدنيا، ليس معنياً بطاعة الله، ولا برضوان الله، ولا بالآخرة، ولا بفهم كتاب الله، يريد الدرهم والدينار، يريد البيت المريح ليزينه، ويختال فيه، ويفتخر على أقرانه به، ويريد المرأة التي تليق له، لا التي ترضي الله عز وجل، ويريد المال الوفير، لأنه مادة الشهوات، ويريد المكانة العلية التي يستعلي بها على الناس .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ)

نعطيه الدنيا، خذها، وفي الحديث عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ))

[الترمذي، وابن ماجه]

خذها، لا قيمة للدنيا عند الله . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِسَخْلَةٍ جَرْبَاءَ قَدْ أَخْرَجَهَا أَهْلُهَا، فَقَالَ : أَتَرَوْنَ هَذِهِ هَيِّنَةً عَلَى أَهْلِهَا؟ قَالُوا : نَعَمْ، قَالَ : لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا))

[مسند الإمام أحمد]

لا قيمة لها، فلينظر ناظر بعقله أن الله أكرم محمداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا؟ فإن قال : أهانه فقد كذب، وإن قال : أكرمه فقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا.

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

من مالها ونسائها وبيوتها ومزارعها ومركباتها ... خذوا ما شئتم منها .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ)

ما نشاء، أي : بالقدر الذي نشاء، قد نعطيه المال، ونسلبه راحة البال، وقد نعطيه راحة البال، ونسلبه المال، وقد نجعل زواجه سعيداً، ولكنه لا ينجب الأولاد، قد نجعل أولاده أبراراً، ونسلبه شيئاً آخر .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ)

بالقدر الذي نشاء، وفق حكمة بالغة وعلم وخبرة .

(عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ)

لا تأخذ كلَّ شيء من الدنيا :

أما أن تؤتى من الدنيا كل شيء فهذا مستحيل! قد تصيب شيئاً، ويفوتك أشياء، قد تصيب المال، لكنك لا تسعد بهذا المال، قد تحرم المال، ويعطيك الله راحة البال .

(عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ)

بالقدر المناسب الحكيم، إن الله ليحمي صفيه من الدنيا، كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام، إن الله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا كما يحمي الراعي الشفيق غنمه من مراتع الهلكة .

(عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ)

نعطي ما نشاء لمن نشاء، الدنيا بيد الله عز وجل، يعطيها لمن يشاء، إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى، فإذا أفقرته أفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، فإذا أغنيته قد أفسدت عليه دينه .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا)

خذ الدنيا، ولكن هذه الدنيا إذا أخذتها بعد إلحاح وإصرار، وعصيت الله فيها، ولم تنفق هذا المال في وجهه، ولم ترع في المال حق المسكين والجائع والفقير، وعصيت الله فيها .

(ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا)

أخذت من الدنيا ما أردت ، ثم ماذا ؟ الذم والدحر في جهنم :

مذموماً من قبل نفسه، ومن قبل الناس، ومن قبل الحق جلّ وعلا، مدحوراً يدخل فيها قسراً، ليس له اختيار، ومن لوازم الدنيا أنها تنتهي بصاحبها إلى الهلاك .

(ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18)وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ)

أوضح آية في الاختيار هي هذه الآية :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا(18)وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ)

أراد الآخرة في وآثرها على الدنيا، فأعطاه الله الدنيا والآخرة، من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، ومن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن أراد الآخرة، أرادها بصدق وإخلاص وإصرار وإلحاح، أرادها بكل ذرة في جسمه، وبكل خلية في جسده، وبكل قطرة من دمه، أراد الآخرة والدليل :

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا

إذا أردت الآخرة فعليك بالعلم والعمل الصالح :

مجلس العلم أغلى عليه من كل شيء، وطاعة الله عز وجل أغلى من الدنيا وما فيها، والدنيا وما فيها ليست بشيء أمام طاعة الله عز وجل :

((فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ))

[متفق عليه عن سَهْلِ ابْنِ سَعْدٍ]

ومن أراد الآخرة، إذا أردت الآخرة فعليك بطلب العلم، يجب أن تكون طالباً للعلم، العلم بالله وبأسمائه وبآياته وكتابه، وبحلاله وحرامه، وبشرعه وبمحكمه، وبمتشابهه من أراد الآخرة يستقيم على أمر الله، ويطلب العلم، ويستقيم على أمر الله ، ويعمل الصالحات ويكثر من ذكر الله، والدليل :

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

المريد للآخرة يسعى لها سعيها الحقيقي :

الدليل أنك تريدها سعيك لها، فأنت أردت النجاح، الدليل أنك تدرس أردت أن تكون تاجراً تبحث عن محل، وأردت أن تكون طبيباً تدخل كلية الطب، علامة الإرادة السعي .

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

لو أن الله عز وجل قال: وسعى لها، أي سعياً مقبولاً ! لكن وسعى لها سعيها، لها سعي خاص، من أراد الطب، وسعى له فجمع العلامات المطلوبة، وإذا أردت الآخرة فلها سعيها الخاص، لها نمط خاص .

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

لابد من الإيمان :

إيمانه بها كإيمانه بالله عز وجل، إيمانه بها كأن يرى الشمس في رابعة النهار .

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا)

مثل هذا السعي يشكره رب العالمين ويباهي به ملائكته :

بارك الله لكم في سعيكم للمسجد، هذا سعي مشكور، من الذي يشكره؟ الله سبحانه وتعالى، لماذا تأتي إلى هنا؟ ليس عندنا دنيا

ليس هناك أي مزيَّة لمجيئك إلا أنك تسعى للآخرة، ليس في المساجد دنيا، لكن فيها الآخرة، مجيئك إلى المسجد لطلب العلم بند من بنود السعي للآخرة، وغضك البصر عن محارم الله، بند من بنود السعي للآخرة، وأداؤك الصلوات بإتقان بند من بنود السعي للآخرة، وإنفاقك من المال، وأداؤك الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وتحري الحلال، والإحسان للخلق، فهذه كلها معالم على طريق الآخرة .

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا)

قراءة كتاب الله، وإتقان لفظ كتاب الله، وتعلم أحكام التجويد، وإتقان فهم كتاب الله، والعمل بفهم كتاب الله، هذا كله من السعي للآخرة .

(فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا)

من الذي يشكر سعيك؟ الله سبحانه وتعالى، فإذا شكرك إنسان فإن قلبك يفرح، وكلما ارتقت مرتبة الإنسان في شكره كان هذا باعثاً على الطمأنينة، فكيف لو كان الله سبحانه وتعالى في عليائه هو الذي يشكرك على هذا السعي؟ لو تلقى الموظف كلمة شكر من رئيسه بكتاب خطي يقرؤه عدة مرات، وكلما صادف إنساناً يبرز له الكتاب، ويقول له : انظر جاءني كتاب شكر، فإذا كان هذا إنسانا عاديا أعلى منك بمرتبة شكرك خطياً قد لا يسعك عقلك، فكيف لو أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يشكرك؟

(فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا)

من قبل الحق، ومن قبل الخلق، ومن قبل نفسك، حينما توصل هذه النفس إلى الجنة تشكرك على ما أوصلتها إليه !

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (03-13): تفسير الآيات 18 – 24
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 10-07-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة الإسراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا(18)وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا(19)كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ

الإنسان مخيَّر :

هذه الآيات الثلاث تبين وتؤكد أن الإنسان مخير .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ)

وتبين أن للإنسان كسبًا، وأن الله سبحانه وتعالى يملك الفعل، لك الكسب، وله الفعل .

والشيء الثالث : أنك مخير، لكنك مسير لتحمل تبعة اختيارك .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ)

الله يعطي الدنيا لمَن يطلبها :

والله عز وجل يعطي الدنيا لمن يطلبها، فمن كان يريد العاجلة هذه الدنيا القصيرة المحدودة، المشحونة بالمتاعب والهموم، التي نمضي معظمها في الإعداد إلى أقلها يعطيه الله إياها، إن أسعد الناس فيها أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها . عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لا دَارَ لَهُ، وَمَالُ مَنْ لا مَالَ لَهُ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لا عَقْلَ لَهُ))

[مسند الإمام أحمد]

أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عن الدنيا، أبعدهم عنها، وأشقاهم فيها، أرغبهم فيها .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ)

من طلب الدنيا، وأصَرَّ عليها، فالله سبحانه وتعالى يعطيه إياها، ولكنها هينة عند الله عز وجل، لا شأن لها .

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي]

فلينظر ناظر بعقله أن الله أكرم محمداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا، فإن قال : أهانه، فقد كذب، وإن قال: أكرمه، فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا، ولو يعلم الملوك ما نحن عليه ـ كما قال أبو يزيد البسطامي رحمه الله ـ " لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف " .

فأحوال أهل الدنيا أحوال القلق والخوف والحرص، وأحوال أهل الآخرة أحوال الطمأنينة والرضا والاستسلام والتفاؤل والثقة، إن شعور الرجل المؤمن بأن الله سبحانه وتعالى راضٍ عنه هذا شعور لا يعدله شعور آخر، وأن شعور الكافر بأن حياته سوف تنتهي، وأن الموت ينتظره إن هذا الشعور المقلق لا حدود لتعاسته، فلذلك ربنا عز وجل قال : أنتم مخيرون :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ)

أرزاق الدنيا بقدَر وتفاوت :

وهناك حكمة، يعطي من الدنيا بالقدر الذي يشاء، ويعطي هذا القدر الذي يشاء لمن يشاء من طالبي الدنيا، ومعنى ذلك أن من طلبها بإصرار أعطاه الله إياها! ومن كان طلبه إياها ليس معه إصرار، فربما أخَّرَهَا عنه فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْمِي صَفِيَّهُ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا يَحْمِي أَحَدُكُم مَرِيْضَهُ مِنَ الطَعَامِ))

وقال :

((إِنَّ اللَّهَ يَحْمِي عَبْدَهُ المُؤْمِنِ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا يَحْمِي الرَاعِي الشَفْيقُ غَنَمَهُ مِنْ مراتع الهَلَكَة))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن حذيفة بن اليمان]

والحقيقة الأولى: أن الإنسان مخير، وأنك إذا اخترت اختياراً غير صحيح لا بد من تحمل تبعة اختيارك.

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا)

طالب الدنيا مذموم في الآخرة :

مذموماً من قِبَل نفسه، ومذموماً من قِبل الخلق، ومن قِبل الحق، أما مدحوراً: أي: هذا الذي يساق إلى الإعدام، هل هو مخير؟ فلو أنه بكى هل يعفى عنه؟ لو أنه توسل أو رجا، أو أعلن ندامته، مدحوراً، قصراً .

(يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا)

كنت مخيراً، فلما اخترت العاجلة أصبحت الآن مسيراً .

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا

طالب الآخرة يسعى لها بشروطها وقوانينها :

علامة الإرادة الصادقة السعي الذي يتوافق مع شروطها .

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

لها سعي خاص، لا بد من أن تحوط الآخرة من كل جوانبها، لا بد من أن تتخذ جميع الأسباب، وأن تمتلك موجبات الرحمة، وتسعى للآخرة وفق الشروط التي وضعها الله عز وجل، لا وفق شروط تخترعها أنت، وسعى لها .

لو ربنا عز وجل قال: وسعى لها، أي: سعياً مقبولاً، لكن :

(وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

المطلوب، سعيها المحدد والمقنن .

(فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا)

من قبل أنفسهم، ومن قبل الخلق، ومن قبل الحق .

(كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ)

كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاء وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ

الإنسان المختار يتحمّل تبعة اختياره :

جميع البشر على وجه الأرض، الله سبحانه وتعالى يمدهم بما يختارون، فهم إذاً يتحملون تبعة اختيارهم، يمدهم بما يختارون .

حينما تقف على إشارة المرور، والإشارة حمراء اللون، فأنت مخير أن تمشي، أو لا تمشي، فإذا اخترت أن تخالف القانون عندئذ تفقد اختيارك، فلا بد من أن تساق لتحمل تبعة هذه المخالفة، والأمر واضح تماماً .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ)

أصر عليها وطلبها، هنا تأتي الحكمة، نعطي بالقدر الذي نشاء ولمن نشاء، نعطي من نشاء بالقدر الذي نشاء .

(ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا)

لا محيد عن أن يصلاها، وأن يتلظى بنارها، مذموماً يلعن نفسه، ويلعنه اللاعنون، ويلعنه الملائكة .

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا)

من آثر الدنيا خسرها وخسر الآخرة :

واللهِ ما من قولٍ ترك في نفسي أثراً كهذا القول! من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً! لأن الله عز وجل يقول :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

آثر الدنيا، وحصّلَ من أموالها ما يشاء، وحصّلَ من مراتبها ما يشاء، وحصّلَ من وسائل القوة فيها ما يشاء، لأنه أعرض عن الله عز وجل، فإنه يعيش حياة شقية، شقاءً نفسياً، إن القلق والخوف، والحزن والهلع، والترقب والاضطراب، والقسوة والضياع، هذه الصفات كلها يعيشها، بينما المؤمن: ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة النحل)

ما قولكم ؟ اختاروا الآخرة تأتِكم الدنيا، وهي راغمة والآخرة، وهي مسعدة، اختاروا الدنيا تخسروا الدنيا والآخرة، من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، هل من شعور أكثر إسعاداً للنفس من أن تشعر أن الذي خلق السماوات والأرض، ومن بيده ملكوت كل شيء، ومن بيده كل شيء، ومن إليه يرجع الأمر كله، ومن بيده كل خصومك، ومن بيده حياتك وموتك راضٍ عنك؟ ما هذا الشعور؟ لذلك قال بعضهم: إن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال لكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين .

ليس في الإسلام حرمان ، ولكن لكل شهوة طريق مشروع :

يا أيها الإخوة الأكارم، ملاحظة أتمنى عليكم أن تقفوا على دقائقها: ليس في الإسلام حرمان، كل الشهوات التي أودعها الله فيك جعل لها قنوات شريفة ونظيفة، وصحيحة وعلية، وكريمة وعزيزة، فالشهوة التي يمكن أن توصلك إلى النار يمكن أن تمارسها بطريق مشروع .

مثل صغير: هذا الوقود السائل إذا كان في مستودعه، والمستودع محكم، وسار في المواسير الصحيحة إلى المحرك، ثم الموزع، ثم إلى غرف الانفجار، وانفجر في المكان الصحيح، فولّد هذا الانفجار حركة متتالية، تنقلك من دمشق إلى أحد المصايف، هذا هو الوقود السائل، قوة دافعة في خدمتك، فإذا خرج من خطوطه، وصُبّ فوق المحرك، وجاءته شرارة أحرق المركبة كلها ! فهذه شهوة .

وإذا سلكت الطريق الذي رُسِمَ لَهَا فهي قوة دافعة، وإذا سلكت طريقاً آخر غير صحيح فهي قوة مدمرة، فحب المال، وحب النساء، وحب العلو في الأرض، هذه الشهوات التي أودعها الله فينا، إذا مارستها وفق الشرع الحكيم سعدت بها، إنها خُلِقَتْ في نفسك لتسعد بها، ولترقى بها، فإذا كسبت المال من طريق مشروع، وأنفقته وفق الوجه الصحيح سعدت بكسب المال، وسعدت بإنفاقه، وإذا اخترت زوجة مؤمنة، وابتعدت عن خضراء الدمن، نجحت :

((إياكم وخضراء الدمن، فقيل : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء))

[رواه الدارقطني في الأفراد من حديث أبي سعيد الخدري]

أردت من الزوجة أن تكون مؤمنة، من تزوج المرأة لجمالها أذله الله ! ومن تزوجها لمالها أفقره الله ! ومن تزوجها لنسبها زاده الله دناءة ! فعليك بذات الدين تربت يداك .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ، لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ))

[صحيح البخاري]

لو اخترت زوجة مؤمنة لسَعِدتَ بها، وسَعِدَت بك، وأنشأت أسرة صالحة هي صدقة جارية من بعدك

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثٍ، صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ))

[مسلم]

فالولد الصالح صدقة جارية، وكل هذا عن طريق هذه الشهوة التي أودعها الله فينا، فلو أن الإنسان سلك إلى تحقيقها، وإروائها طريقاً نهى الله عنه شقي في الدنيا، وشقي في الآخرة، فلولا الشهوات لما ارتقينا إلى رب الأرض والسماوات، ولكن ينبغي أن نسلك الطريق الصحيح، قال تعالى :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأنبياء)

البطولة أن تعرف الحقيقة قبل فوات الأوان :

اسأل يا أخي، تخاف على عينك فتذهب إلى مئات الأطباء، وتنتظر عشرات الساعات، وتدفع المبالغ الكثيرة، وتقول: أخاف على عيني، ألا تخاف على نفسك؟ ألا تخاف على هذه الجوهرة التي أودعها الله فيك؟ ألا تخاف أن يأتي ملك الموت، وأنت لست مستعداً لهذا اللقاء؟ ألا تخاف أن تكتشف الحقيقة الخطيرة بعد فوات الأوان؟ بعد الموت ؟

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ(90)آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة يونس)

هذه ليست بطولة، كفار الأرض جميعاً سيعرفون الحقيقة عند موتهم .

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق : 22)

هذه ليست بطولة، البطولة أن تعرف الحقيقة قبل فوات الأوان، وأن تعرف الحقيقة لتستفيد من هذه المعرفة، فإذا عرفت لماذا أنت هنا على وجه الأرض، وأين كنت، وإلى أين المصير، وما المهمة التي جئت من أجلها، عرفت كل شيء! " ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء " .

(كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ)

انظر إلى الناس جميعاً، كل إنسان بنفسه طلب، والله سبحانه وتعالى يحققه له، وآخر إلى كسب المال، وهذا يسعى إلى العلو في الأرض، هذا يسعى إلى تحقيق كل الرغبات، وآخر إلى الانغماس في الشهوات، وآخر للإيقاع بين الناس، والمؤمن يسعى لمعرفة الواحد الديان.

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

(سورة الليل)

كل منهما يسير في طريق، وهنيئاً لمن كان يمشي في الطريق الصحيح، في الطريق الذي أراده الله، والذي رسمه الله لنا

(كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ)

الأشياء كلها معروضة أمامك، اختر، هذا يختار الأحجار الكريمة، حجر بمئتي ألف ليرة، وهذا يختار صخرة كبيرة تسحقه، دمره، وهذا يختار شيئاً ثميناً يسعد به، وهذا يختار شيئاً يدمره .

(كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)

قال تعالى :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب)

(وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)

عن أحد، أي مخلوق له عند الله حق! أن يعطيه ما يريد، لكن الله جلّ وعلا لا يتعامل بالتمني، يتعامل بالسعي، فرق بين التمني والسعي، التمني أن تتمنى شيئاً ولا تسعى له، ولكن الإرادة الحرة الصادقة تقترن بالعمل . ثم يقول الله عز وجل :

(انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ

الناس في الدنيا متفاوتون :

الآن في الدنيا مكانة، هل من يعمل في تنظيف المستشفى كمكانة رئيس المستشفى؟ هل يتساوى الراتبان؟ الجندي كقائد الجيش؟ الخفير كالوزير؟ وهل الممرض كالطبيب؟ وهل الفقير كالغني؟ هذه الدنيا أمامكم .

(كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا(20)انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

الصحة درجات، والشكل درجات، والقوة درجات، والمكانة الاجتماعية درجات، والذكاء درجات، والدخل درجات ... فدرجات البشر في الأرض بعدد أبناء البشر !

(كُلًّا انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

يقول لك: هذا البيت أربعمائة وثمانون متراً، في أرقى أحياء دمشق ثمنه سبة وثلاثون مليوناً، فهل هو مثل بيت غرفة واحدة لا ترى الشمس؟ وهل هذا بيت، وهذا بيت؟ هذا الشيء تحت سمعنا وبصرنا، فالله عز وجل يريد من هذه الآية شيء آخر !

(كُلًّا انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

التفضيل الدنيوي ينتهي بالموت :

هذا التفضيل مؤقت، الفقير يموت، والغني يموت، والقوي يموت، والضعيف يموت ، والذي يحمل أعلى الشهادات يموت، والذي لا يقرأ، ولا يكتب يموت، ومع أن هناك فروقاً شاسعة، ودرجات كثيرة في العلم والقوة، والمال والجمال، والمكانة، وكل شيء في الأرض مُقسَّم إلى درجات .

(كُلًّا انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

في الدنيا، هكذا تقتضي الحكمة، أن يكون الناس درجات، لكن هذه الدرجات مؤقتة، وقد يكون الفقير عند الله عز وجل أعظم من أعلى مرتبة في الأرض .

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، ذِي طِمْرَيْنِ، لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ))

[سنن الترمذي]

قد يكون هذا الفقير، وقد يكون هذا العليل، وقد يكون خامل الذكر أعظم عند الله وأرقى مكانة، وأحظى رتبة من علي القدر، ومن غني المال، ومن ذائع الصيت .

هناك فكرة دقيقة جداً: يقول الله عز وجل :

(كُلًّا انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

هناك تفضيل في الصحة، وفي المال، وفي الجمال، وفي الذكاء، وفي القوة، وفي المكانة، وفي كل شيء، الحياة مراتب، لكن هذه المراتب الدنيوية مؤقتة تنتهي بالموت! فقبر الغني كقبر الفقير تحت الأرض، وهل قبر الغني مكيّف تحت الأرض؟ هل يوجد بلاط أو رخام؟ أو ثريا؟ لا يوجد شيء، قبر الغني كقبر الفقير .

أحد أكبر أغنياء بعض بلدان الخليج أوصى ذويه أنه إذا مات أن يسيروا بجنازته في كل شوارع المدينة! شارعاً شارعاً، وأوصى أن تخرج يده من الكفن، هكذا عارية ليشعر الناس أنه ذهب إلى الآخرة، وليس معه شيء! كله تركته في الدنيا المصيبة في الموت مصيبتان : الأولى أنك تخسر مالك كله، والثانية: أنك تحاسب على مالك كله، من أين اكتسبته؟ وفيمَ أنفقته؟

فأول نقطة في الآية: أن هذه الدنيا المراتب، هذا يسكن في بيت صغير، وهذا في بيت كبير، وهذا دخله لا يكاد يغطي نفقاته، وهذا عنده أموال لا تأكلها النيران، وهذا لا يستطيع أن يفك أسيراً، وهذا يستطيع أن يغير اتجاهاً، فيوجد قوي وضعيف، غني وفقير، صحيح ومريض، المشكلة الأولى أن هذه المراتب مؤقتة، يأتي الموت فيضع حداً لها .

النقطة الثانية: أن هذه المراتب شكلية، قد يكون الفقير أعلى عند الله من الغني، وقد يكون الضعيف المستضعف أحظى مرتبة من القوي، وقد يكون خامل الذكر أعلى شأناً عند الله من الذي تألق نجمه في السماء .

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)

(سورة الواقعة)

هذه مراتب الدنيا، أما المشكلة :

(وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)

مراتب الآخرة أبدية :

هنا المشكلة، مراتب الآخرة إلى الأبد! ومراتب الدنيا إلى الموت، إنها تنتهي بالموت، اذهبوا إلى المقابر، أحياناً تجدون على الشاهدة إشارة إلى أن هذا كان طبيباً ! وأن هذا كان شاعراً! وأن هذا كان عميد الأدب في القطر! وأن هذا كان من كبار القوم مثلاً ... كل واحد له ترتيب، فالموت يضع حداً لهذه المراتب في الدنيا، وهذه المراتب شكلية، وقد تكون مكانتك على نقيض مرتبتك! لو أنك في دائرة حكومية آذن مستقيم، لا تأكل مالاً حراماً، وتغض بصرك عن محارم الله، وتؤدي وظيفتك بإخلاص وصدق وأمانة، وربما كان هذا المستخدم أعلى مرتبة عند الله من كل الموجودين في الدائرة! بما فيهم أعلى من فيها، لكن مراتب الآخرة مراتب أبدية، إنها من وضع الله عز وجل، ولكن أهل الدنيا اصطلحوا على أن الغني معظَّم، والفقير مهان، فالناس الضائعون الضالُّون الغافلون يرفعون الغني، ولا يكترثون بالفقير، هذه قيم الأرض، وهذه مقاييس البشر، فلا قيمة لها عند خالق البشر، لكن مراتب الآخرة مراتب من خلق الله عز وجل، أنت في الجنة، وفي هذه المرتبة، بحسب عملك في الدنيا، وهذا الذي كان في الدنيا يملأ الدنيا، كان نجماً متألقاً في العلوم أو الفنون، فإذا هو في أسفل السافلين! فمراتب الآخرة مراتب حقيقية وأبدية، فالبطولة أن تكون لك في الآخرة مرتبة عليّة، والبطولة أن يكون لك عند الله مقعد صدق عند مليك مقتدر، البطولة أن تشعر أن رب البشر راض عنك .

فليتك تحلو والحياة مـريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني و بينك عامر و بيني وبين العالمين خراب

***

ابحث عن مراتب الآخرة :

أيها الإخوة الأكارم، هذه البطولة، أن تكون ذا حظ عند الله عز وجل، وأن يكون الله راضياً عنك، وأن تكون وفق الشرع، وأن تكون حبيب الحق، هذه هي البطولة، فكلما رأيت في الدنيا بيتاً فخماً لا تقل: ليتني أسكنه!

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(79)وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ(80)فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

(سورة القصص)

فلذلك على الإنسان أن يبحث عن مرتبة عند الله، ولا يكترث بمرتبته عند الناس .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ

((أَنَّهُ رَكِبَ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا غُلامُ، إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَلْتَسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ))

[الترمذي، ومسند الإمام أحمد]

ولا أنسى قول أحد التابعين، وأظنه الحسن البصري، حينما كان عند أحد ولاة يزيد بن عبد الملك، جاءه من يزيد توجيه، هذا الوالي .. قال: ماذا أفعل؟ أنا في حيرة من أمري، فقال الحسن البصري: " اعلم أن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله " .

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

(سورة الرعد : الآية 11)

(انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)

لا تبحث عن مكانة علية عند الناس ! فإن الناس لا يقدِّمون ولا يؤخِّرون، فابحث عن مكانةٍ عند الله .

(لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا)

الشرك سبب للعذاب النفسي ، والتوحيد راحة وطمأنينة :

يا الله، أحد أكبر أسباب العذاب النفسي أن تجعل مع الله إلهاً آخر !

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

فإذا شئت أن تعذّب نفسك، وأن تحس بالقهر، والحقد، والضياع، والشك، واليأس والسوداوية .. فادع مع الله إلهاً آخر، واعتقد أن زيداً من الناس يملك شيئاً من أمرك ! فإذا اعتقدت أن زيداً من الناس، أو أن كائناً من كان من الناس، يستطيع أن ينفعك، أو أن يضرك، أو أن يرفعك، أو أن يخفضك، فهذا هو الشرك بعينه .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة هود)

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

(سورة الزخرف)

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : من الآية 10)

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال : من الآية 17)

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ)

(سورة غافر : من الآية 20)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف)

هذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، نهاية العلم التوحيد .

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد)

كلمة التوحيد : لا إله إلا الله .

(لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ)

إذا أطعت مخلوقاً، وعصيت الخالق فقد جعلت مع الله إلهاً آخر، وقد أشركت، فلو قلت : الله أكبر في الصلاة، فأنت لم تقل: الله أكبر، ولو قلتها ألف مرة! لأنك رأيت أن غضب فلان أكبر من غضب الله ! لذلك أطعته، وعصيت الله ! فإذا أطعت مخلوقاً، وعصيت الخالق فقد رأيت هذا المخلوق أكبر من الخالق، فكلمتك في الصلاة: الله أكبر، لا معنى لها .

(لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا)

المشرك مذموم مخذول :

مذموماً من قِبَلِ نفسك، ومن قِبَلِ الخلق، ومن قِبَلِ الحق، مخذولاً لا نصير لك، لذلك :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(2)وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

(سورة الطلاق)

وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته، إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه، وما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً !

(لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا(22)وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا)

وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

معنى : قضى :

كلمة (قضى) معناها أنه أمر، وألزم، وأوجب، وهذا القضاء ليس قضاء حُكمًا، بل هو قضاء أمر،

(وَقَضَى رَبُّكَ)

ربك هو الذي يربيك، أقرب اسم من أسماء الله تعالى إلى الإنسان كلمة الرّب،

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)

العبادة لا تكون إلا لله وحده :

لو أن الله عز وجل قال: قضى ربك أن تعبده، أمرك أن تعبده، هذا أمر لعبادته، ولكن هذا الأمر فيه قصر العبادة عليه .

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)

لو أن الله عز وجل قال : وقضى ربك أن تعبده، لكنت مأموراً بعبادته، لكن الله عز وجل يقول لك :

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)

إذاً لا معبود بحق إلا الله .

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ)

(سورة الفاتحة : 5)

لو أن الله عز وجل قال: نعبد إياك، ليس فيها قصر .

شيء آخر، العبادة طاعة طوعية، تسبقها معرفة يقينية، تنتهي بسعادة أبدية، تعريف العبادة :العبادة الاستسلام لأمر الله في المنشط والمكره، وفي إقبال الدنيا وإدبارها، وفي صغائر الأمور وفي أكبرها .

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)

فحوى رسالات الأنبياء جميعاً .

(مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

(سورة السجدة)

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

الربط بين عبودية الله والإحسان للولدين :

روعة هذه الآية: أن الله جمع توحيد الربوبية بالإحسان إلى الوالدين، ما هذا الأمر الذي أمرنا به، والذي رفعه الله إلى مستوى توحيد عبوديته؟ برّ الوالدين .

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

وما من عمل أعظم أو أجلّ بعد عبادة الله عز وجل من البر للوالدين !

من مظاهر عبودية الله وجود الوالدين :

وشيء آخر، أول مظهر من مظاهر تربية الله لك أنه خلقك من والدين، يعطفان عليك، ويحسنان إليك، ويجوعان لتشبع، ويعريان لتكتسي، ويقلقان لتنام، وحينما ترى ابناً مدللاً، يحبه والداه، ويغدقان عليه كل الإكرام، فاعلم علم اليقين أن هذا الإكرام فمن عند الواحد الديان! ولولا أنه أودع في قلب الأب هذه الرحمة، لولا أنه أودع في قلب الأم هذه الرحمة، من يربي ولده؟ كيف أن الأب يسعى طوال النهار، ويتحمل المشاق والأخطار أحياناً من أجل أن يأتي برزق أولاده؟ ومن أجل أن يطعمهم، وأن يكسوهم، وأن يرزقهم، من أجل ماذا؟ فلذلك فإن ربنا عز وجل رفع برّ الوالدين إلى مرتبة توحيد الربوبية .

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

الفائدة من مجيء الباء في قوله : وَبِالْوَالِدَيْنِ

علماء اللغة قالوا : فعل (أحسن) يتعدى بـ (إلى) ، تقول : أحسنت إليه، لكن هنا في الآية تعدى هذا الفعل بالباء على خلاف القاعدة، ما الحكمة من تعدية هذا الفعل بالباء؟

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

العلماء قالوا: أحسن بهما، لم يقل الله عز وجل: أحسن إليهما، بل قال: أحسن بهما، لأن الباء تفيد الإلصاق، تقول: أمسكت بيده، إذاً: الإحسان للوالدين، لا يقبل من الابن إلا إذا باشره بنفسه، مثل أن ترسل الصانع بالمحل التجاري إلى أبيك مع بعض الفاكهة، قل له: خذ هذه الفاكهة من ابنك، هذا خلاف لتوجيه الله عز وجل، يجب أن تمارس الإحسان إليهما بنفسك، تقول للسائق: خذ أبي نزهة، لا، ليس هذا إحسان إليهما، الإحسان إليهما أن تكون إلى جانبهما، وأن تكون لاصقاً بهما، وأن تباشر الخدمة بنفسك، هذا معنى :

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

لأن معاجم اللغة تعدي فعل أحسن بـ (إلى)، لكن الله سبحانه وتعالى وضع الباء مكان إلى لماذا؟ من أجل أن يُفْهم أن الإحسان إلى الوالدين يجب أن يباشر من قِبَل الابن مباشرة .

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

اقتران شكر الله بشكر الوالدين :

وكما أن الله عز وجل قرن الإحسان بالوالدين بتوحيد عبادته، قرن شكر الله بشكرهما! قال تعالى :

(أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)

(سورة لقمان)

ما من مخلوقين على وجه الأرض يستحقان الشكر بعد الله عز وجل من الوالدين .

(أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)

وليس لزوجتك .

روى الإمام البخاري رضي الله عنه في صحيحه عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ، قَالَ: ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))

[صحيح البخاري]

بر الوالدين مقدم على الجهاد في سبيل الله ! وهو بعد الصلاة .

مِن برِّ الوالدين عدم التعرض لسبِّهما :

شيء آخر، من بر الوالدين أن لا يتعرض الولد لسبِّهما، كيف ذلك؟ هذا مستحيل، ففي صحيح البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِي اللَّه عَنْهمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ، أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ : وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ ؟ قَالَ : يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ))

[صحيح البخاري]

إذا أطلق رجل لسانه في سبّ الناس، فأغلب الظن أن الناس سيسبون والديه، وإذا سبّ الناس والديه وكان هو السبب فكأنه في الحقيقة هو الذي سبّ والديه، ولذلك أي شاب يجب أن يعامل الناس معاملة يثنون على والده ما هذا الوالد الذي ربَّاك؟ بارك الله فيه، عامل الناس معاملة تجعلهم يلهجون بالثناء على والدك، إذا كنت باراً به، أما الذي يعامل الناس معاملة يلعنون بهذه المعاملة أباه، فقد لعن هو أباه، كأنه هو لعن أباه .

مِن برِّ الوالدين موافقتهما في أغراضهما :

وشيء آخر، من بر الوالدين موافقتهما في أغراضهما، الأب له حاجة فإذا لبَّيته، فهذا من البر، إلا أن هذه الحاجة، لها شرطان: أولاً: أن تكون في غير معصية الله عز وجل، وأن تكون مباحة، وأن تكون في استطاعتك، وعقوق الوالدين مخالفتهما في أغراضهما، الجائزة، العلماء قالوا: إذا أمر الأب أو الأم وجب على الابن تنفيذ الأمر ما لم يكن فيه معصية، أو ما لم يكن فوق المستطاع، إذا كان الشيء مباحاً أصبح بأمر الأب والأم مندوباً، وإذا كان مندوباً أصبح بأمر الأب والأم آخذاً في الندب .

وشيء آخر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ؟ قَالَ: أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أَبُوكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ، أَدْنَاكَ))

[صحيح مسلم]

فالعلماء استنبطوا من هذا الحديث أن ثلاثة أرباع البر للأم، والربع للأب .

هناك حديث آخر يجعل توازناً بين بر الأب والأم، عَنْ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ :

((كَانَتْ تَحْتِي امْرَأَةٌ كَانَ عُمَرُ يَكْرَهُهَا، فَقَالَ : طَلِّقْهَا، فَأَبَيْتُ، فَأَتَى عُمَرُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : أَطِعْ أَبَاكَ))

(مسند أحمد)

كِلاهُمَا في البرِّ سيّان، الحقيقة المهمة التي ينبغي أن تعرفوها، أن بر الوالدين واجب عليك، ولو كانا كافرين أو مشركين! فكيف إذا كانا مسلمين؟ لقوله تعالى :

(لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ)

(سورة الممتحنة)

فاليوم إذا لم يكن أبو الرجل وفق اتجاهه الدقيق تجده يذم والده، هذا أب؟ فأنت بإحسانك وتهذيبك وبلطفك، لعل الله عز وجل يجعل قلب أبيك يميل إلى اتجاهك، أما أن تنتقده علانية أمام أمك وأخواتك، وتنتقده علانية، وتريده أن يخضع لك، فهذا مستحيل، لغة واحدة يمكن أن تعامل بها أباك : وهو الإحسان، ولا شيء إلا الإحسان، بالإحسان قد تأخذ بيده إلى الجنة بالإحسان فقط، أما بالنقد والتعريض والإشارة والتلميح والتشهير فهذا ليس من الدين في شيء، ومن يفعل ذلك فقد ارتكب حماقة ومخالفة لأوامر دينه .

مِن برِّ الوالدين استئذانهما للجهاد :

من بر الوالدين أن تستأذنهما في الجهاد، ولا يصح جهادك إلا إذا استأذنتهما، فما هذه المكانة ؟
عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَجُلا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ :

((إِنِّي جِئْتُ أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ، وَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَوَيَّ يَبْكِيَانِ، قَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا))

[سنن النسائي]

من بر الوالدين: أن يصل الإنسان أهل ودِّ أبيه بعد أن يولي، عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ مَالِكِ بْنِ رَبِيعَةَ السَّاعِدِيِّ قَالَ :

((بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ أَبَرُّهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟ قَالَ: نَعَمْ، الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا، وَالاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لا تُوصَلُ إِلا بِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا))

[سنن أبي داود]

كل رجل من الإخوة الحاضرين إذا كان والده موجوداً فهذه فرصة ذهبية، ليستغل حياته في خدمته، وفي الإحسان إليه، وفي طلب مرضاته من غير معصية، وإن كان قد توفي فليصل أهل ودِّ أبيه، وليعمل من الصالحات عملاً من أجل أن تكون أعماله كلها في صحيفة أبيه، ومن أجل أن يكون لأبيه صدقة جارية .

وشيء آخر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ، ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الْكِبَرَ فَلَمْ يُدْخِلاهُ الْجَنَّةَ))

[سنن الترمذي]

فبر الوالدين قد يستحق بهما الرجل دخول الجنة! لكن الله عز وجل يقول :

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا)

إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا

طبعاً الأب الشاب، هناك آباء لا يزالون في سن الشباب أو الكهولة يتمتعون بصحة جيدة، ومكانة علية، ومال وفير، هم يقدمون كل الإحسان إلى أولادهم، المشكلة أعمق من ذلك :

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا)

تجاوز عمر الأب ثمانين عاماً، وتراجعت قواه الجسمية والعقلية، وصار يعيد القصة مئات المرات، وصار ذا طبيعة فضولية، يبتغي أن يعرف كل شيء، وأن يحشر أنفه في كل شيء، وصار يكثر من النقد، وصار له ثقل في البيت :

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا)

بلغ سناً كبيرةً، وهو عندك في البيت لأن الذي يأتي عند أبيه في الأسبوع مرة ليقبِّل يده ويسأله رضاه، قضية سهلة جداً، أن يكون لك بيت مستقل، يسير وفق ما تريد، وأبوك عند أخيك الأصغر، أو الأكبر تذهب إلى بيت أخيك في الأسبوع مرة لتقدم واجب بر الوالدين، وتأتيه بهدية صغيرة، تقبل يديه، وتسأله عن صحته، ماذا فعلت ؟ لكن الأب إذا كان في البيت، وكان له طلبات كثيرة، وانتقادات كثيرة، وكان له طباع لا ترضاها، فمع طباعه التي لا ترضاها، ومع طلباته الكثيرة، ومع إلحاحه الشديد، ومع تدخلاته في شأن غيره، ومع انتقاده الذي لا يحتمل، في هذه الحالة الصعبة :

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ)

إيّاكم من الأفّ وما فوقها :

هنا البطولة، أقل شيء أن يخرج نَفَسُك بصوت! لا أعتقد أن هناك أقلّ من هذه الأف، لا يوجد تعبير عن الضجر كأن يخرج النَفَس بصوت، تقول : أشهد أن لا إله إلا الله، هذه ليست شهادة، هذه ضجر، وكلمة أف أقل من الشهادة، نَفَس عادي، الزفير مع صوت، أف بمعنى الضجر، وجدته قد بلل ثيابه،

وقبل ساعة نظفته، وألبسته ثياباً جديدة، لم يمض ساعة قال العلماء: إذا وضعت ثوبك على أنفك فهذه بمستوى أف! رائحة كريهة، هذه من الكبيرة، وكنت منزعجاً منها فهي مثل أف تماماً !

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ)

يبتعد عن والده مترين، ثم يُسمِعهُ قوله: الله يخفف عنه، قد أسمعته إياها، لا حول ولا قوة إلا بالله، هذه أصعب من أف، أسمعته كلمة الله يخفف عنه، شيء لا يحتمل، متى سيموت لنتخلص منه ؟

أعرف رجلاً خدم أمه تسع سنوات، إلى أن ضجر استدعى، إخوته، وقال : هذه أمي وأمكم، خذوها عني، فأخذوها عنه، وماتت في اليوم الثاني ! فقد ضيّع تسع سنوات من الخدمة الشاقة .

وأعرف رجلاً كان يعنى بامرأة قعيدة متقدمة في السن، فانتقل إلى حي بعيد، فصار انتقاله إلى مكان بيت المرأة التي يرعاها أمراً فوق طاقته، هو متقدم في السن، من حي بعيد إلى حي آخر، يركب الحافلات كل يوم، أشفق عليه أهله، دعوه إلى أن يترك خدمتها إلى جهة أخرى، فلم يرضَ، مسنة كبيرة، فلما رأوه يشقي نفسه، قالوا: يا أخي، آت بها إلى هنا، وأرحنا من هذا الأمر! فأقنعها، وجاء بها إلى بيته لتكون الرعاية أكثر، وفي اليوم الثاني ماتت! كسب الأجر .

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا)

لا أعتقد امرأة وهي تنظف ابنها فعلت هذا أبداً، كانت تتمنى حياته، أما الابن إذا خدم أمه في أعماقه فيتمنى أن يخفف الله عنها، وشتّان بين هذا العمل، وهذا العمل، فربنا عز وجل جاء بالحالة الصعبة، أصعب حالة، التقدم في السن، تراجع في الملكات، وعدم انضباط بالأجهزة، وهي في البيت، والزوجة تنتقد إلى متى سنتحمل، هذه ليست أمك فقط بل وأم إخوتك أيضاً، عليك أن تقوم بالدور بينكم .

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ)

أمر خالق الكون يقول لك: إياك أن تقول لهما: أف، ولا تنهرهما، هذه أفظع، فأنت منهي عن أن تقول لهما: أف، فالنهي عن أن تقول أكبر من أف من باب أولى .

(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا)

وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا

من مدلول القول الكريم مناداتهما بلفظ الأبوة والأمومة :

قال العلماء: من القول الكريم ألا تناديهما باسميهما! ولا بكنيتيهما، دخلت مع رجل كبير بالسن إلى عند ابنه، وهو يحتل منصب مرموق، والأب يرتدي لباساً جيداً، وبملكاته الكاملة، فيبدو أن الابن خجل بأبيه

أمام الحاضرين فقال له: أبا فلان اجلس هنا! سبحان الله! فأنت منهي عن أن تقول لأبيك: أبا فلان، يا أبي أهلاً وسهلاً بالوالد الكريم .

(وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا)

وأنت منهي عن أن تسمهما باسميهما! أو بكنيتيهما، كلمة يا أبتِ، يا أبتاه .

من القول الكريم الاسترضاء :

هناك تفسير آخر : القول الكريم كالعبد المذنب الذي يخاطب سيده الفظ الغليظ، كيف أن يريد أن يسترضيه، وينتقي أجمل العبارات، وينتقي أجمل عبارة، يقول له : سيدي، لا أعرف ذلك، ما فعلت هذا عن قصد .

(وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا(23)وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)

الدعاء لهما بالرحمة بعد موتهما :

آخر ملاحظة : تدعو لهما بعد الموت أن يكونا في الجنة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (04-13): تفسير الآيات 25 – 31
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-07-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة الإسراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا(23)وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا(24)رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ)

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ

هل أنتم في وضع يبتغي مرضاة الله عز وجل عن طريق بر الوالدين؟ أو أنكم ترغبون بعقوقهما حالتكم النفسية رغبتكم نيتكم طموحكم مكشوف عند الله عز وجل .

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ)

لا أحد يستطيع أن يخدع الله تعالى :

قد تستطيع أن تخدع معظم الناس لبعض الوقت، وقد تستطيع أن تخدع بعض الناس لبعض الوقت، أما أن تستطيع أن تخدع كل الناس بطول الوقت فهذا من المستحيلات .

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة)

فالإنسان مكشوف، لا يستطيع أن يخدع الله عز وجل، ولا أن يخدع نفسه، لذلك قل ما شئت .

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ)

وضح نياتك بالشكل الذي تريد .

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ)

قل: أنا أريد الإصلاح، قل أي شيء تحبه ! أعلن أي هدف بيِّن أية نية .

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ)

علاقتك مع من يعلم في نفسك :

المعنى أن علاقتك مع الله عز وجل، فإن كنت تنطوي على نفس طاهرة طيبة، راغبة في مرضاة الله عز وجل، راغباً في تنفيذ أمره فلك، وإن كنت على خلاف ذلك فعليك .

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ)

أي : إذا بلغ الإنسان هذه المرتبة انقطعت علائقه مع الناس، لا يعلق على رضاهم أملاً، ولا على غضبهم خوفاً، لأن الله عز وجل بيده كل شيء . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ :

((كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ: يَا غُلامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ . قَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ))

[سنن الترمذي]

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[مسند الإمام أحمد]

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ)

(سورة القيامة)

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ)

سيدنا الصدِّيق رضي الله عنه مدحه أحد الأصحاب، فتوجه إلى الله عز وجل، وقال : << اللهم إنك أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون >> .

إن كان معك قطعة من الذهب، وظنها الناس معدناً رخيصاً فأنت الرابح، ولو ظنها جميع الناس معدناً رخيصاً، ولو أنك تملك قطعة من المعدن الرخيص، وأوهمت الناس جميعاً أنها معدن ثمين، فأنت الخاسر، العبرة :

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ(88)إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء)

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا)

إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا

معنى : صالحين

ما معنى صالح؟ إنسان صالح، أي: عمله صالح، ونيته صالحة وقوله صالح، واعتقاده صالح، اعتقاده صحيح، ونيته طيبة، وعمله صحيح، وقوله صحيح، إذاً هو صالح، صالح لماذا ؟ صالح لعطائنا، صالح للجنة التي عرضها السماوات والأرض، وكل هذا مشتق من الصلاح، صلحت عقيدته فصلح لسانه، وصلح عمله، وصلحت نيته، فقد أصبح صالحاً لعطاء الله .

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا)

معنى : الأوّابين :

الأوَّابين جمع أوَّاب، والأوَّاب على وزن فعَّال، صيغة مبالغة لاسم الفاعل، أي : كثير الأوبة إلى الله، فكلما زلت قدمه رجع بالتوبة والاستغفار والتضرع إلى الله، وكلما غفل عن ذكر الله ذكر الله، وكلما زلّت قدمه تاب من هذه الزلّة، وكلما ارتكب مخالفة بادر إلى مَحْوِها بعملٍ صالح، وهؤلاء الأوابون كثيرو الأوبة إلى الله عز وجل .

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا)

الآية السابقة :

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

عبادة الله ثم الإحسان إلى الوالدين :

أول شيء أنت مكلف بفعله في الدنيا أن تعبد الله وحده، إذ لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، وأول إنسانين على وجه الأرض يستحقان أن تحسن إليهما بعد عبادة الله عز وجل الوالدان .

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

لأن الوالدين أول مظهرين من مظاهر ربوبية الله سبحانه وتعالى، كيف وأن الله ربٌّ لكَ ؟ سخر لك أباك وأمك، يعطفان عليك، ويحببان عليك، ويتعبان من أجل أن تستريح، ويسهران لتنام، ويجوعان لتشبع يقلقان لتطمئن، فالأم والأب أول مظهرين من مظاهر الربوبية، لذلك أول إنسانين يستحقان الإحسان البالغ الوالدان، رفعا إلى مرتبة عبادةِ الله عز وجل .

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

العطف يقتضي التجانس :

خطر في بالي مثال: هل تقول: اشتريت بيتاً وملعقة؟ العطف يقتضي التجانس والتناسب، تقول: اشتريت بيتاً ودكاناً، أو بيتاً وسيارةً، أو أرضاً وبيتاً، وتقول: اشتريت ملعقة وسكيناً، فهذا العطف يقتضي التجانس .

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

أعظم الأعمال بعد عبادة الله عز وجل الإحسان إلى الوالدين، أو الإحسان بالوالدين، الباء للإلصاق، هذه شرحناها في الدرس الماضي، ولكنني عدت إليها لأبيِّن العلاقة فيما بينها، وبين الآية التالية :

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ)

إعطاء الناس حقوقهم ، القريب منهم والبعيد :

هل فقط الأب والأم؟ والجد والجدة، والعم والعمة، والخال والخالة، بنات الأخ وبنات الأخت، أبناء الأخ، أبناء الأخت، الابن وابن الابن .

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ)

هؤلاء يلوذون بك، من لهم سواك؟ إذا أحب الله عبداً جعل حوائج الناس إليه ! لا تضجر، ولا تقلق، ولا تتبرم، وإذا كثر الذين يطرقون بابك، فلا تتأفف، وإذا جاء أخوك أو أختك يطلبان منك حاجة، فإنك مظنة العطاء، وإن الله يحبك، وإذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك .

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ هَذَا الْخَيْرَ خَزَائِنُ، وَلِتِلْكَ الْخَزَائِنِ مَفَاتِيحُ، فَطُوبَى لِعَبْدٍ جَعَلَهُ اللَّهُ مِفْتَاحًا لِلْخَيْرِ، مِغْلاقًا لِلشَّرِّ، وَوَيْلٌ لِعَبْدٍ جَعَلَهُ اللَّهُ مِفْتَاحًا لِلشَّرِّ، مِغْلاقًا لِلْخَيْرِ))

[سنن ابن ماجة]

فلذلك :

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ)

تفقَّد أقرباءك، وتفقَّد رحمك، ومن يلوذ بك، فالأقربون أولى بالمعروف، الأقربون نسباً، و الأقربون إيماناً، و الأقربون فقراً، و الأقربون إليك نسباً أولى بالمعروف، و الأقربون إلى الإيمان أولى بالمعروف، و الأقربون إلى الفقر أولى بالمعروف، هذه قاعدة مطلقة، الأقربون أولى بالمعروف .

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ)

من علامات تفسّخ المجتمعات الحديثة انقطاع الصلة بين الأقارب، ومن علامات الصحة الاجتماعية في المجتمعات التي يغلب عليها الإيمان هذا التواصل الاجتماعي .

سمعت عن امرأة متقدمة في السن تملك أموالا طائلة ! فجأة أصيبت بمرض عضال، أفاقت في أحد الأيام فإذا هي في مأوى العجزة، ولها أولاد كثر ! شباب وشابات وأصهار، ما كان منها إلا أن استدعت مدير الأيتام، وفرغت له كل ممتلكاتها ! هناك تواصل في المجتمعات التي يغلب عليها الإيمان والعمل الطيب، فالأم لها مكانة كبيرة، قدمت وحقّ لها أن تأخذ، وأعطت وجاء الوقت الذي يجب أن تأخذ، والأب كذلك، سنّة الله في خلقه، يكون الأب شاباً، وكله عطاء لأولاده، فتتقدم به السن، ويضعف، ويترك عمله، فيصير له الحق أن يأخذ من أولاده، هذه دورة طبيعية، خذ وأعط، فالأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، والذين يعيشون عالة على المجتمع، يعيشون على مآسيه، ويأخذون ولا يعطون، والمؤمنون يأخذون ويعطون، والعظماء يعطون ولا يأخذون، يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ، والذين هم في أسفل السلم الاجتماعي يأخذون ولا يعطون، ونحن نأخذ ونعطي .

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ)

له حق عليك .

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ)

(سورة المعارج)

هذه هي الزكاة .

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

(سورة الذاريات)

وهذه هي الصدقة، لو أنك دفعت زكاة مالك، ورأيت إنساناً محتاجاً بائساً فقيراً، ومسكيناً قريباً، وأنت أخوه في الإنسانية، وله حق عليك، فكيف إذا كان قريباً ؟ لذلك قالوا : القرابة الجار المسلم، القريب له عليك ثلاثة حقوق : حق الأخوّة في الله،" مسلم "، وحق الجوار، وحق القرابة .

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ)

له حق عندك، والمسكين ! المسكين هو الفقير البائس، بعضهم قال : الفقير والمسكين إن اجتمعا تفرقا، وإن افترقا اجتمعا ! إذا ذكر الله المسكين انصرفت هذه الكلمة إلى الفقير وإلى المسكين، وإذا ذكر الفقير انصرفت الكلمة إلى الفقير والمسكين، أما إذا ذكر الفقير والمسكين فالفقير له معنى، والمسكين له معنى، فالفقير الذي لا يجد حاجته .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاس تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنِ الْمِسْكِينُ الَّذِي لا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلا يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ))

[صحيح البخاري]

يسكن في بيت، وقد يكون هذا البيت ملكه، وله دخل، وقد لا يكفي هذا الدخل، ظهر مرض مفاجئ يحتاج إلى عملية جراحية، بعضهم يقول : هذا عنده بيت ملك، أيبيع البيت من أجل أن يجري هذه العملية ؟ فالفقير هو الذي لا يجد حاجته، والمسكين هو المعدم، الذي لا يجد شيئاً لا حاجته، ولا أقلّ من حاجته، إذا ذكر الله المسكين وحده انصرف إلى الفقير والمسكين، وإذا ذكر الله الفقير وحده انصرف إلى الفقير والمسكين، فهاتان الكلمتان إذا اجتمعتا تفرقتا، وإذا تفرقتا اجتمعتا .

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ)

ابن السبيل له حقٌّ عليك :

ابن السبيل إنسان مكتفٍ، وقد يكون غنياً، ولكن حل به فقر طارئ، كان في سفرٍ، فأخذت منه أمواله نشلاً، ضاعت منه محفظة يحمل فيها أمواله، ووثائقه الرسمية، فهذا صار فقراً طارئاً .

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً)

وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً

التبذير يشبه إلقاء البذار في الأرض، يمسك الفلاح قبضة من البذار فيلقيها هكذا، إلقاء عشوائياً، وكذلك الذي ينفق المال من غير اجتهاد، ومن غير حكمة وتبصر واعتدال ينفقه كيفما كان، هذا اسمه تبذير، وبعضهم فرَّق بين الإسراف والتبذير.

بين الإسراف والتبذير :

بعض العلماء قال : الإسراف أن تنفق في المباحات نفقة فوق الحد المعقول، جلبت إلى البيت ألواناً من الفاكهة كثيرة، فسد بعضها، وألقي في القمامة، فهذا إسراف ! والعلماء قالوا: لا إسراف في الخير، ولا خير في الإسراف، إذا قرأت القرآن ساعة فجيد، وساعتين فأفضل، ثلاثاً فأفضل، وإذا أنفقت مئة فعملك أفضل، ومئتين فأفضل، إذ لا إسراف في الخير، ولا خير في الإسراف، وبعضهم قال: لا إسراف في النور، فإذا أراد الإنسان أن تكون الغرفة إضاءتها جيدة، فلا يعد هذا مسرفاً، وأحياناً تدخل إلى غرفة

إضاءتها أقلّ من الحد المعقول، فتشعر بانقباض، وقد تشعر بآلام في العينين، وقد تعسر عليك القراءة، وهذا اسمه تقتير! فالعلماء قالوا: لا إسراف في النور، ولا خير في الإسراف، ولا إسراف في الخير .
الإسراف كله ينصرف إلى المباحات، لكن الذي يلقي ماله في معصية الله فهذا هو المبدّر .

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ)

وكيف يلقي الشيطان في نفس الإنسان حب المعصية؟ يدفعه إلى المعصية، ويوسوس له بها، وكذلك هذا المبذر، إنه بإنفاقه المال في معصية الله عز وجل كأنه قد تجاوز مرحلة وسوسة الشيطان، فكان أخاً للشيطان .

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ)

المبذّر أخٌ للشيطان :

أي : الذي يشهد به الشيطان من إلقاء الوسوسة كي تعصي الله، جاء المبذر، وأنفق ماله في معصية الله إنفاقاً سريعاً، إذاً هذا المبذر كان من إخوان الشياطين .

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً)

يبدو أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يعاقب من عصاه يعاقبه عقوبة من جنس الذنب، فالمبذر في أغلب الظن يعاقب بذهاب ماله، وأن يذيقه الله ألم الفقر والحرمان، ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((يا عائشة أكرمي مجاورة نعم الله، فإن النعمة إذا نفرت، قلما تعود))

[ورد في الأثر]

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً)

وبعضهم قال : الشيطان اسم لجنس الشياطين، وبعضهم قال : هو إبليس بالذات، وهو أول الشياطين خلقاً .

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً{27} وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا)

إمَّا أصلها (إن وما):

(وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ)

الإعراض يكون بمنع الحقوق :

عنهم من؟ عن ذوي القربى والمساكين .

(وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ)

المعنى الأول : سبب الإعراض ضيق ذات اليد :

أي : لا تعطيهم، تعرض عن إعطائهم، إما لأنك فقير تبتغي رحمة الله، ربنا عز وجل كنّى عن الفقر بأجمل كناية في القرآن !

(وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ)

لضيق ذات يدك، لأنك لا تملك هذا العطاء، لا تملك حاجتهم،

(ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا)

أنت ترجو مثلهم رحمة الله، هذا المعنى الأول، إما تعرض عنهم لضيق ذات يدك، لأنك لا تجد ما تعطي .

المعنى الثاني : سبب الإعراض لحكمة ومصلحة :

أو لأن الحكمة تقتضي ذلك، قد يطلب منك القريب مالاً ليفسق به، أو ليفعل به المنكرات، أو ليرتكب به المعاصي، فالحكمة تقتضي ألاّ تعطيه هذا المال، أو قد يكون من السفهاء، وقد قال الله تعالى :

(وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً)

(سورة النساء)

ليس لك أن تعطي مالك لسفيه، السفيه الذي ينفق المال في معصية الله، ينفق المال إسرافاً وتبذيراً، هذا القريب الذي ينفق المال في معصية الله إذا أردت أن تعينه شفقة على أولاده وأهل بيته فأعطِه مواد عينية، اشتر له بعض الأغذية، واشتر لأولاده بعض الألبسة، وقدم له مساعدات يستفيد أهله منها، لأن الله عز وجل ينهانا عن أن نعطي السفهاء أموالنا .

(وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا)

لضيق ذات يدك، أو لحكمة ترتئيها .

حسنُ معاملة الضعفاء والمساكين بالقول الحسن :

(فقُل لَّهُمْ قوْلاً مَّيْسُوراً)

لا تكن قاسياً في ردك .

({وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)

(سورة الضحى)

لو صدق السائل لهلك المسؤول .

(فقُل لَّهُمْ قوْلاً مَّيْسُوراً)

(وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)

(سورة الضحى)

العلماء فسَّروا هذا القول: ادعوا لهم، وبعدهم قال: عِدْهُم عِدَةٌ طيبة، إن شاء الله في وقت آخر إذا مكنني الله عز وجل أعطيك هذا الطلب، إما أن تَعِدَهُم بالعطاء في وقت لا حق، وإما أن تدعو لهم، وهذا هو القول الميسور .

(فقُل لَّهُمْ قوْلاً مَّيْسُوراً)

فالغيظ والشدة والقسوة لا تجديان أبداً، والله سبحانه وتعالى ينهانا عنها، عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ))

[متفق عليه، واللفظ لمسلم]

وعَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ))

[مسلم]

والقسوة غير مرغوب بها، لا من قبل الحق، ولا من قبل الخَلْق .

(فقُل لَّهُمْ قوْلاً مَّيْسُوراً)

أنت تقول له: أنت كذَّاب، أنت محتال، لا يوجد عقل .

(فقُل لَّهُمْ قوْلاً مَّيْسُوراً)

ادعُ له بالتوفيق، أعطاك الله من سؤلك، وفقك الله لما تحب، لا أجد ما أعطيك، اعذرني .

(فقُل لَّهُمْ قوْلاً مَّيْسُوراً{28} وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ)

وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ

الكناية عن القبض والشح :

أن تكون اليد مغلولة إلى العنق فهذه كناية عن القبض، أي عن البخل، أي عن الشح، قال تعالى :

(وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة الحشر)

الشح مرض خطير :

فالشح إذاً هنا مرض، ويحتاج صاحبه إلى معالجة، والبخيل مريض، لأنه يعيش فقيراً ليموت غنياً، والشحيح جعل المال الذي هو في الأصل وسيلة فجعله غاية ! يقول سيدنا أبو ذر : << حبذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي >>

المال جعل للإنسان وسيلة لقضاء حوائجه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْه، ثُمَ قَتَّرَ عَلَى عِيَالِه))

[القضاعي في مسند الشهاب عن عائشة]

والنبي عليه الصلاة والسلام نفى أن يكون من المسلمين من وسّع الله عليه، ثم قتَّر على عياله، الفضيلة دائماً بين حالتين متطرفتين .

(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ)

وهناك رجل لشدة بخله نشب خلاف بينه وبين أهله فتركهم، وسكن في غرفة على سطح أحد الأبنية الكثيرة التي يملكها! وكان يمضي وقته في طعام خشن جداً توفيراً للدراهم، وفي أحد الأيام كان مستقبلاً سيارةً من البحص رجعت فدهسته، وترك ثلاثمئة مليون ليرة! عادى أهله، وكرهوه، وسكن وحده، وعاش حياة خشنة لا تحتمل، من أجل أن يموت غنياً شحيحاً مريضاً، هذا يحتاج إلى معالجة .

(وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْه، ثُمَ قَتَّرَ عَلَى عِيَالِه))

[القضاعي في مسند الشهاب عن عائشة]

(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ)

سبحان الله! الشحيح يقتر، ويقتر فيضطر في وقت ما أن يدفع نفقة تعادل كل التقتير، الذي قتره وزيادة! جمع ماله بالقروش، ويدفعهم بمئات الألوف دفعة واحدة مضطراً، فلذلك الإنسان يكون كريماً،

لأن الكريم يحبه الله، كما رُوي : " أحب ثلاثاً، وحبي لثلاث أشد، أحب الطائعين، وحبي للشاب الطائع أشد، وأحب الكرماء، وحبي للفقير الكريم أشد، أحب المتواضعين، وحبي للغني المتواضع أشد، وأبغض ثلاثاً، وبغضي لثلاث أشد، أبغض العصاة، وبغضي للشيخ العاصي أشد، وأبغض البخلاء، وبغضي للغني البخيل أشد، وأبغض المتكبرين، وبغضي للفقير المتكبر أشد " .

الشحيح نوعان :

لكن بعض الذين يوسمون بالشح على نوعين: بعضهم ينفق الأموال الطائلة بلا حساب على شهواته، وعلى أولاده، وعلى لذته وعلى مباهجه ... فيقول : كلفتني هذه السفرة في العيد إلى اليونان أربعمئة ألف ليرة ! فتدخل جمعية إلى دكانه فيعطيها عشر ليرات !! أربعمئة ألف في أربعة أيام بالعيد قضيتها في أثينا، وعشر ليرات للجمعية ؟ من صفات المنافقين أنهم إذا أنفقوا المال أنفقوه إسرافاً وتبذيراً، وإذا أمْسَكوه أمسكوه شحاً وتقتيراً، فهؤلاء يبالغون في ترفيه أنفسهم، أما إذا دعوا إلى عمل صالح يمتنعون، وقد يتأخر الصانع عنده ساعة، يحسم عليه ثمن الأجرة، يقول له: داومك ثماني ساعات، وقد تأخرت ساعة، فيقسو عليه، ويقوم بطريقة يطرده طرداً من دون أي تعويض، فإذا ذهب لقضاء نزهة، أو لقضاء إجازة أنفق من المبالغ ما لا يحصى، فهؤلاء أشحّة في فعل الخير، ومسرفون على أنفسهم في الملذات، وهناك صنف آخر ـ والعياذ بالله ـ يعيش شقياً محروماً، ويموت غنياً، يتنعم الورثة بهذا المال .
ولذلك مما يروى: أن روح الميت حينما يوضع الميت في نعشه ترفرف فوق النعش تقول : يا أهلي يا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حله، وفي غير حله، فالهناء لكم، والتبعة علي .
ولذلك يقف ربنا عز وجل يوم القيامة العبد بين يديه ويقول له: يا عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ فيقول هذا العبد : يا رب، لم أنفق منه شيئاً على أحد مخافة الفقر على أولادي من بعدي، فيقول الله عز وجل: ألم تعلم بأني أنا الرزاق ذو القوة المتين، إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم .
حدثني أخ أثق بكلامه عن رجل ترك أموالاً لا تعد ولا تحصى، وترك أولاداً لم يُنَشِّئهُم على طاعة الله عز وجل، في أقل من سنتين خسروا كل هذه الثروات بشكل لا يصدق ! باعوا الأراضي والمحلات والمعمل، واحتال عليهم رجل بمئات الملايين، اشترى منهم بضاعة شحنوها له، وقد أعطاهم شيكات مزورة، ثم غاب عن الأنظار، فخسروا أموالهم كلها ! إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم .

يقول لعبد آخر: يا عبدي، أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ يقول هذا العبد: يا رب، أنفقته على كل محتاج ومسكين، لثقتي بأنك أنت خيرٌ حافظاً، وأنت أرحم الراحمين، فيقول الله عز وجل: عبدي أنا الحافظ لأولادك من بعدك، اطمئن، وفعلاً يموت الرجل فتجد أولاده في أعلى مقام، وفي بحبوحة، وصحة جيدة، فزواجهم موفق، وأولادهم أبرار، وكلهم يسكنون في بيوت جيدة، وسمعتهم طيبة، وقد يكون أبوهم فقيراً، ولكنه صالح، وهذا رجل تأتيه ذرية شقية من بعده تذوق الحرمان والبؤس والشقاء .

(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ)

وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ

إياكم ومجاوزة الحدّ في الإنفاق :

حدَّثني بعض الأشخاص القادمين من بعض الدول العربية التي هي في بحبوحة أن الطعام الذي يلقى في القمامة أضعاف الطعام الذي يؤكل، فاللحم والرز المطبوخ بالسمن، وكل شيء زاد على الوجبة اليومية في القمامة، هؤلاء يدفعون الثمن غالياً، والله عز وجل قال :

((يا عائشة، أكرمي مجاورة نعم الله، فإن النعمة إذا نفرت قلّ ما تعود))

[ورد في الأثر]

(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ)

إنفاق بغير حساب، وبشكل طبيعي، وغير طبيعي، بشكل معقول، وغير معقول، إسراف ألوان منوعة من الطعام، بعضها يفسد، بعضها يلقى في القمامة، وألبسة كثيرة جداً، وأحذية لا تعد في البيت، ويلبس الحذاء مرة ويلقى، وأكثر هذا في النساء، هذا هو الإسراف بعينه .

(وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ)

ما الذي يحصل؟ تعودت على مصروف مرتفع جداً، وعلى مستوى معاشي مرتفع جداً، فلسبب أو لآخر لو انخفض دخلك ماذا تفعل ؟

قال عليه الصلاة والسلام :

((اخشوشنوا، وتمعددوا فإن النعم لا تدوم))

[الطبراني عن ابن أبي حدرد، والسيوطي في الجامع الصغير]

فمن الحمق بالرجل أن يسرف إسرافاً، فلو جاءه خاطب لابنته ، شاب صالح مؤمن، ولكن دخله محدود، لقد عود ابنته الإسراف في النفقة، فهذه البنت لا يمكن أن تعيش مع هذا الزوج أبداً، تفسد الحياة، ولن تستقيم بينهما عوّد نفسك، لذلك :

((اخشوشنوا، وتمعددوا فإن النعم لا تدوم))

هذا أمر نبوي .

(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى{3} إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

لذلك المؤمن المطبق لسنة النبي عليه الصلاة والسلام لو جاءت شدة فإنه يحتملها؟ لأنه قد عوَّد نفسه على الخشونة، عوِّد من هم معك على أن يكون الطعام نفيساً في يوم، وخشناً في يوم آخر، على أن يكون مع الطعام فاكهة في يوم، ومن دون فاكهة في يوم آخر، عود نفسك هذا وهذا، فلو جاءك شاب مؤمن يبتغي الزواج من ابنتك عاشت معه حياة سعيدة، أما الإسراف والتبذير، والإنفاق العشوائي غير المدروس، ليس من صفات المؤمن، الوضع دقيق جداً .

(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً)

نتيجة الشح والإسراف : فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً

هذه في البلاغة اسمها لف ونشر، لو أنك جعلت يدك مغلولة إلى عنقك لكنت ملوماً من قِبَل الأهل، إذ دائماً البخيل أهله يتمنون موته، وينتظرونه بفارغ الصبر ! وإذا جاء الطبيب، وبشرهم بأن الحالة عرضية يتألمون، كيف الحالة عرضية؟ لا حول ولا قوة إلا بالله! يتمنون أن تكون الحالة خطيرة حتى يرتاحوا منه، فتقعد ملوماً من قِبل زوجتك أو أولادك، وإذا بسطها كل البسط تقعد محسورا، لا تمتلك شيئاً .

(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً)

فتقعد ملوماً، في الحالة الأولى، في البخل، ومحسوراً في الحالة الثانية، في الإسراف، تتحسر، ليس عندك شيء، فالإنسان هكذا .

وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً

قال الله عز وجل :

(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة : 269)

هناك كتاب أُلّف في هذه الآية! يثبت مؤلف الكتاب أن الحكمة أثمن شيء في الحياة! بالحكمة يغتني الفقير، وبالحمق يفتقر الغني، وبالحكمة تعيش مع الزوجة السيئة وتسعد بها، وبالحمق تفسد الطيبة،

وبالحكمة تجعل أعداءك أصدقاء، وبالحمق تجعل أصدقاءك أعداء.

(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

ولذلك قال العلماء: الكرامات على نوعين: كرامات تجري وفق العادات، وهي العلم والحكمة، وكرامات تجري بخرق العادات، ولها بحث آخر تحدثنا عنه في درس العقيدة، ولذلك من كرامة الله لك ومن إكرامه أن يجعلك عالماً وحكيماً .

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة القصص)

فالأنبياء هذا عطاؤهم .

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا(29)إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا

الآية لها معنيان متعاكسان :

المعنى الأول :

المعنى الأول : أن الله عز وجل سنته في خلقه أنه يعطي بحكمة، ويمنع بحكمة .

المعنى الثاني :

وإذا رأيت أن الله عز وجل أعطى فأدهش، وحاسب ففتش، لا تفعل كما يفعل الله عز وجل، هو رب العالمين، وأنت مأمور بالاعتدال، أما ربنا عز وجل فلحكمة بالغة إذا أعطى أدهش، فقد يعطي عطاءاً مذهلاً، وقد يسلب الإنسان كل شيء، أنت عبد، وهو رب، هو يفعل ما يشاء لحكمة يراها، لا تفعل كما يفعل، فإما أن تفهم هذه الآية على أن الله سبحانه وتعالى يعطي بحكمة، ويقبض بحكمة، أو أنه إذا أعطى فأدهش، أو حاسب ففتش، لا تفعل أنت ذلك، لأن هذا من شأن الله وحده! وليس من شأنك أنت .

(وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا(29)إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

قال الشاعر :

لو كانت الأرزاق تجري مع الحجى هلكن إذاً من جـهلهن البهائم

***

فالله عز وجل هو الرزاق، قد يهب الغبي رزقاً وفيراً، وقد يمنع الفهيم الذكي الحاجات الأساسية .

(إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا(30)وَلَا)

الله أعلم بما يصلح للعبد من الفقر أو الغنى :

إن من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر، فإذا أغنيته أفسدت عليه دينه، يريد السفر فوراً إلى أوروبة، ويريد الزواج من امرأة ثانية، وإن من عبادي من لا يصلح له إلا الغنى، فإذا أفقرته أفسدت عليه دينه .

(إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

يعرف عباده .

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا)

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا

من أعمال الجاهلية الأولى : قتل الأولاد خشية الفقر :

هذا الإنسان كما جاء في بعض الأحاديث بنيان الله، وملعون من هدم بنيان الله، أي : أن تقتل النفس لأي سبب، وهنا السبب خشية الفقر، خشية إملاق، لا يجوز أن تقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، لذلك كان العرب في سنوات الشح وسنوات القحط يقتلون أولادهم خشية الفقر، طبعاً قد ينصرف ذهنكم إلى الوأد، هذه الآية لا علاقة لها بالوأد، فالوأد قتل البنات على التخصيص خشية العار لا الفقر .

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ{8} بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ)

(سورة التكوير)

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ{58} يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة النحل)

معنى آخر من معاني قتل الأولاد :

لكن بعضهم فسر أن الذي تأتيه بنت، ويطلق لها العنان تذهب إلى حيث تشاء، وتصادق من تشاء، وتفعل ما تشاء، فتفسد! وقال بعض العلماء: هذا عند الله أشد من وأدها! لأنك لو وأدتها دخلت الجنة، ولكنك إذا أفسدتها أدخلتها النار، ولكنها لن تدخل النار قبل أن تدخلك قبلها، تقول: يا رب، لا أدخل النار قبل أن أُدْخِلَ أبي قبلي، لأنه هو الذي شجعني، ودفعني إلى هذه المعاصي، فالذي يفسد ابنته، ولا يهتم بأخلاقها، ويرخي لها الحبل، ولا يحاسبها، ولا يدقق في تصرفاتها إلى أن تفسد، عندئذٍ هو عند بعض العلماء أشد من وأدها !

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ)

لا أعتقد أن هناك إنساناً واحداً في المليون يقتل ابنه خشية الفقر، لكن هذا الذي يلقي ابنه في المفاسد من أجل المال، أليس الإفساد أشد من القتل ؟

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ)

(سورة البقرة : 191)

فهذا الذي يزوج ابنته لرجل غني فقط، دون التدقيق في دينه، أليس هذا العمل إفسادًا لهذه الفتاة عن طريق تزويجها لرجل فاسق؟ وهذا أشد عند الله من قتلها، والقرآن حمَّال أوجه، فاحملوه على كل وجوهه، من قتل ابنه خشية الفقر، فهذا عمل عظيم عند الله، لكنه من دفع ابنته إلى زوج فاجر فاسق فهو عند الله أشد! لأنه فتنها عن دينها، ومتى فتنها عن دينها فقد ضيَّع آخرتها، وعندئذ تحتج عند الله عز وجل على أبيها، ولا تدخل النار قبل أن تدخله النار قبلها !

بَيْنَ القتلِ للفقر والقتل خشية الفقر :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ)

هناك آية أخرى :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ)

(سورة الأنعام : 151)

خشية الإملاق لفقر متوقع، لكن من إملاق لفقر حاضر، دقة القرآن عجيبة .

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ)

المولود معه رزقه :

لأنه في خشية الإملاق خائف على رزقه، سوف يأتيك رزقه مع رزقك .

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)

بين نرزقهم وإياكم، وبين نرزقكم وإياهم بون شاسع، بين خشية إملاق، وبين من إملاق فرق كبير :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا)

ما هو الخطأ ؟

عرَّف العلماء الخطأ بأنه من أراد عملاً لا تحسن نيته، ولا يحسن فعله، فهذا الخطأ الشامل، عمل عملاً لا تحسن نيته عند الله، ولا عند الناس، فهذا هو الخطأ، وهناك أشخاص يعملون عملاً بنية طيبة، ثم ينحرف العمل عن غير قصد منهم، فإذا هو عمل مؤذ، نقول : هذا العمل صحت نيته، وساء فعله ! وهناك أناس ينوون الشر، فإذا شرهم يقلبه الله إلى خير، نقول : هذا العمل حسن فعله، وساءت نيته، من عمل عملاً حسنت فيه نيته وفعله فهذا هو العمل الصواب، ومن عمل عملاً حسنت فيه نيته، وساء فعله فهذا هو الخطأ غير المقصود، ومن عمل عملاً ساءت فيه نيته وساء فعله، فهذا هو الخطأ بعينه .

(إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (05-13): تفسير الآيات 32 – 39
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-07-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، وردت آية النهي عن الزنى بين آيتي النهي عن القتل !

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ)

(سورة الإسراء: 31)

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)

(سورة الإسراء: 33)

جاءت بينهما آية النهي عن الزنى.

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32))

(سورة الإسراء: 32)

فبعض العلماء استنبط من أن تكون آية النهي عن الزنى بين آيتي النهي عن القتل أن الزنى نوعٌ من أنواع القتل، ولكن هذا القتل قتلٌ معنوي، وليس قتلاً مادياً، فهذه المرأة التي تقع في الزنى كأنك قتلتها فأخرجتها من إنسانيتها، وأبعدتها عن مهمتها المقدسة، وعن الوظيفة العليا التي خلقت من أجلها، وعن أن تقوم بدورها الطبيعي الإنساني.

بدل أن تكون أمّا، زوجةً مخلصة لزوجٍ وفي، وبدل أن تكون أماً لأولادٍ مهذبين، وبدل أن تكون جدةً يشع منها الخير والعطف والحنان، جعلتها مومساً، ساقطة، بلا معيل، وجعلتها حين يزوي جمالها في الحضيض.

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32))

فالقتل نوعان: قتل النفس قتلاً مادياً، وقتلها قتلاً معنوياً، ولذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ)

(سورة البقرة: 191)

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

ليس النهي في هذه الآية عن ارتكاب الزنى ! ولكن النهي عن الاقتراب من الزنى، فأي شيء يقربك إلى الزنى أنت منهي عنه بنص هذه الآية، فالنظر إلى النساء خطوة أولى نحو الزنى، والحديث معهن حديثاً فيه لين، كذلك خطوة إلى الزنا، ومجالسة أهل الزنى والاختلاط، وقراءة الأدب الرخيص، ومشاهدة الأشياء التي تسبب إثارة المشاعر، ومتابعة التمثيليات الفاضحة كلها خطوة إلى الزنا، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

لم ينهنا الله عز وجل عن الزنى فحسب ! بل نهانا عن أن نقترب منه، ويبدو أن الشيء الذي له قدرة على الجذب، المعصية التي لها القدرة على الجذب، نهانا الله سبحانه وتعالى عن أن نقترب منها، أو أمرنا أن نجتنبها، والاجتناب أن تبقي بينك وبينها هامش أمان، وهذا هو الاجتناب، لقوله تعالى:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة: 187)

وفي آية أخرى:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا)

(سورة البقرة: 229)

من الموازنة بين الآيتين الكريمتين يتضح أن بعض المعاصي يجب أن تبقي بينك وبينها هامش أمان ! وبعض المعاصي أنت منهي عن أن تقع فيها فقط من دون هامش، يبدو أن المعاصي التي تتصل بالشهوات الأساسية التي أودعها الله في الإنسان أُمِرنا أن نجتنب أسبابها، وأُمرنا أن لا نقترب منها، لذلك ربنا سبحانه وتعالى قال:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32))

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْعَيْنُ تَزْنِي، وَالْقَلْبُ يَزْنِي، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا الْقَلْبِ التَّمَنِّي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ مَا هُنَالِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ))

[أحمد في المسند]

وهناك الزنى المعروف، إذاً الجوارح تزني ! لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم، من تركها مخافتي أبدلته إيمانا يجد حلاوته في قلبه))

[أخرجه الطبراني عن ابن مسعود]

وعَنْ جَرِيرٍ قَالَ:

((سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ نَظْرَةِ الْفَجْأَةِ فَقَالَ: اصْرِفْ بَصَرَكَ))

(سنن أبي داود)

كل هذه الأحاديث إنما هي مستنبطة من هذه الآية:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32))

الاختلاط والنظر والمصافحة والحديث والمشاهدة، مشاهدة بعض البرامج الفاضحة، ومتابعة بعض الأعمال الفنية الرخيصة، وقراءة الأدب الرخيص، ومصاحبة الأراذل، مع أن الفقهاء اجتمعوا على أن هناك مجموعة كبيرة من البنود التي إذا فعلها الرجل المسلم جُرحت عدالته، ومن هذه البنود: صحبة

الأراذل، والأكل في الطريق، والمشي حافياً، والحديث عن النساء، وتطفيف بتمرة، وأكل لقمة من حرام، ومن أطلق لفرسه العنان، ومن قاد برذَوناً، ومن تنزه في الطريق، ومن علا صياحه في البيت، ومن لعب بالشطرنج، ومن بال في الطريق.... كل هذه الأعمال تجرح العدالة، أما الكذب والظلم والإخلاف فهذا يسقطها، من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته، إذاً هناك حكمة بالغة من هذا النهي:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

فلو أن الله عز وجل قال: ولاتزنوا لكانت كل هذه المقدمات مباحة، ولكن الله عز وجل يقول:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32))

الزنى طريق غير مشروع لإرواء هذه الشهوة، فما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها طريقاً مشروعاً، ومتنفساً طبيعياً، وقناة نظيفة، تماماً كما لو أن الوقود الذي في مستودع السيارة إذا سار في أنابيبه المحكمة، وانتقل إلى الموزع، فإلى غرفة الانفجار، فأنشأ هذا الوقود السائل حركة تعود علينا بالنفع العميم، فإذا خرج هذا الوقود عن مساره الطبيعي، وألقي فوق المحرك، وجاءته شرارة، أحرق السيارة، كذلك الشهوة سلاح ذو حدين، إما أن يكون قوة نافعة، وإما أن يكون قوة مدمرة تصور إنساناً استقام على أمر الله قبل زواجه، وغض بصره عن محارم الله، وعف، وصبر عن الحرام حتى جاءه الحلال، فأكرمه الله عز وجل بعد هذا الصبر، وهذه العفة، وهذا الورع، وتلك الاستقامة، وأكرمه الله بزوجة صالحة، إن نظر إليها سرته، وإن غاب عنها حفظته، وإن أمرها أطاعته، وأنجب أولاداً، وكان بيته بيتاً إسلامياً، ترفرف عليه المحبة والمودة، والعطف والإخلاص، والوفاء والطهر، إلى أن شدّ الأولاد في هذه الأجواء الصحيحة، تحسّ أن هذه الشهوة التي أودعها الله في الإنسان هي سبب كل هذه السعادة، لا رقي في الجنة من دون هذه الشهوات، لكن الشر يتأتّى من سوء استخدامها من خروج صاحبها عن مسار الشرع، لخروجه عن الطريق الصحيحة التي رسمها الله لنا، فلا تقربوا الزنى، الزنى محرم، والزواج حلال، الربا حرام، البيع حلال، والخمر حرام، مئات المشروبات حلال، المشروب الذي حرمه الله علينا يقابله أنواع منوعة من المشروبات التي أحلها الله لنا ! وهذا الطريق القذر في قضاء الشهوة حرمه الله علينا، بينما أباح الزواج، إنك مطمئن.

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32))

الحقيقة أنّ المعاصي كثيرة، ولكن الزنى خُصّ بهذا الوصف، إنه كان فاحشة لأنه من أقبح المعاصي ! إنه معصية له آثار خطيرة، آثار اجتماعية، وآثار شخصية، فيه فضيحة، فقد ينقلب الزنى إلى قتل،

وجرائم القتل التي مبعثها الزنى لا تعد ولا تحصى، بل إن عند ضباط التحقيق في المباحث الجنائية قاعدة: " فتش عن المرأة في كل جريمة "، وفي كل قضية فتش عن المرأة، إذاً:

(إنّهُ كَانَ فَاحِشَةً)

أشد الناس استهتاراً إذا أراد الزواج يبتغي من زوجته أن تكون عفيفة وشريفة، إذاً:

(إنّهُ كَانَ فَاحِشَةً)

وسبحان الله ! الأخبار المتعلقة بالزنى تسري كالنار في الهشيم ! تفوح بسرعة، تتناقلها الألسنة، فلذلك موضوع الزنى موضوع يسبب دماراً وتحطيماً، والنبي عليه الصلاة والسلام ذكَر عن طلاق المرأة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ، فَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَبِهَا عِوَجٌ، وَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا، وَكَسْرُهَا طَلاقُهَا))

(صحيح مسلم)

فالمؤمن قبل أن يطلّق يحسب ألف حساب، فلعل في هذا الطلاق تجنياً، ولعل فيه ظلماً، ولعل فيه تجاوزاً، لأنه إذا تجاوز حده فالله سبحانه وتعالى قد يرزقها خيراً منه، وقد يؤدبه بزوجة تقلب له ظهر المجن.

تروي الكتب القديمة أن زوجاً كان يجلس مع زوجته وقد طرق الباب، وإذا بالباب مسكين، فهمّت هذه الزوجة الصالحة الوفية التي ابتلاها الله مع هذا الزوج الشرس أن تعطيه بعضاً من الطعام الذي بين يديه، فما كان منه إلا أن وبّخها، وكاد يضربها، وقال: اطرديه، بعد أيام أو أشهر ساءت العلاقة بين الزوجين إلى أن حمله ذلك على طلاقها ! فلما طلقها رزقها الله زوجاً صالحاً عرف قيمتها، وعرف قدرها وحجمها الحقيقي، أما الزوج الأول فساق الله له زوجة أرته النجوم في الظهر كما يقولون ! وتروي هذه القصة أن هذا الزوج كان مع زوجته الصالحة، فإذا الباب يطرق، فلما ذهبت لتفتح الباب عادت مضطربة، قال لها: ما بك ؟ قالت: سائل يسأل، قال: أراك مضطربة، اضطربت، وتلعثمت، وقالت: أتدري من السائل ؟ قال: لا، قالت: إنه زوجي الأول ! فقال: أتدرين من أنا ؟ قالت: لا، قال: أنا السائل الأول ! وكسر المرأة طلاقها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ))

(صحيح البخاري)

قال تعالى:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32))

هذا الماء الذي أودعه الله فيك ليكون غلاماً أو فتاة لينفع الناس من بعدك سفحته في غير مكانه الطبيعي! إذا سفح الماء في غير مكانه الطبيعي فلو أن الحمل وقع لكان هذا المولود غير مرغوب فيه، وكثيراً ما يجد عمال التنظيفات في بعض البلدان المتقدمة ـ بمقياس العصر ـ تقدماً صناعياً الأطفال في حاويات القمامة ! أو في زوايا الحدائق، أو في أطراف المهاجع، وهذا الطفل الذي يأتي من حرام غير مرغوب فيه، لا يعرف له أب، وأمه تتمنى الخلاص منه ! أما إذا جاء الابن من طريق مشروع فإنه ضيف مرغوب فيه، وينتظره الأب والأم على أحر من الجمر، ويُعِدُّون له كل إكرام، ويأتي الناس جميعاً من كل حدب وصوت ليهنئوا بمجيء هذا المولود.

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32))

والنبي عليه الصلاة والسلام تحدّث عن آخر علامات الزمان، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ: خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنّ، لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِمِ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ))

(سنن ابن ماجه)

وهذا الشيء تحت سمعنا وبصرنا ، مرض الإيدز أكبر ما يقلق العالم الغربي، حتى إنه دخل في خطابات رؤساء الدول، ورؤساء الحكومات الموجهة إلى شعوبهم ! إنه العدو الأول كما قال بعضهم لهذا الشعب المنحل، هذا المرض أسبابه الفحش، والطريق غير المشروع في تحقيق هذه الشهوة التي أودعها الله في الإنسان، إذاً:

((لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِمِ الَّذِينَ مَضَوْا))

وما أكثر الأمراض التي تظهر بسبب الانحراف الخلقي، الله سبحانه وتعالى في آية كريمة حينما تحدث عن عباد الرحمن قال:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً (63))

(سورة الفرقان)

ثم تأتي الآية الكريمة:

(وَلَا يَزْنُونَ)

(سورة الفرقان: 68)

هذه (لا) ليست ناهية، إنما هي نافية، فالله سبحانه وتعالى ينفي عن المؤمن أن يكون زانياً.

(وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً (68))

(سورة الفرقان)

من يَزْنِ يُزْنَ به ولو بجداره   إن كنت يا هذا لبيباً فافهم

***

شيء آخر، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((مَا كَانَ اللَّه لِيُعَذِّبَ قَلْبَاً بِشَهْوَةٍ تَرَكَهَا صَاحِبُهَا فِي سَبِيلِ اللَّه))

[ذكره أبو نعيم في الحلية من قول أبي سليمان الداراني]

أي: إذا غضضت بصرك عن محارم الله ما كان الله ليعذبك في هذه الشهوة، يلقي في قلبك برداً وسلاماً، وطمأنينة وصفاءً.

الحقيقة لمّا يعف الشاب عن الحرام يكون قد هيأ لنفسه جواً يساعد على بناء مستقبله، فإذا حقق أهدافه لنيل شهادةٍ عاليةٍ، أو تحقيق عملٍ جيدٍ، أو دخلٍ جيدٍ، أتقن عملاً أو حرفةً، أو حصل على شهادةٍ، عندئذٍ إذا بحث عن الزواج كان له ميسراً، والله سبحانه وتعالى يوفقه إلى ذلك، ومن طلب الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه.

وأكثر شيئين يقع فيهما الإنسان في المعاصي، قضاء الشهوات، وكسب الأموال، لذلك تسعون بالمئة من المعاصي إما من طريق لذةٍ محرمةٍ اقتنصها الإنسان، أو من طريق درهمٍ حرامٍ كسبه، فلو تَرَفَّعَ المؤمن عن النظر إلى النساء، وعن الكسب الحرام لكان في حصنٍ وأي حصن.

لذلك ففي الإنسان نقطتا ضعفٍ كبيرتان، هما حب المال وحب الشهوات، فإذا استقام المؤمن، وحصّن نفسه من هاتين النقطتين، فقد كان محصناً، وكان في منأىً عن وساوس الشيطان.

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)

المعنى الأول: النفس هي النفس الإنسانية، والإنسان كما قال النبي الكريم بنيان الله، وملعون من هدم بنيان الله، هذا الإنسان مخلوق خلقه الله عز وجل وكرمه، وسخر الكون كله من أجله، أتقتله أنت ؟

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)

أي: ولا تقتلوا النفس الإنسانية التي حرم الله قتلها، ولا يزال المسلم بخير ما لم يسفك دماً ! وقد حرم الله قتل النفس الإنسانية لأنها مخلوق له، ولأن هذا المخلوق خلق ليعبده، خلقت لك ما في السماوات وما

في الأرض فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك لا تتساهل بما ضمنته لك عما افترضته عليك، فالإنسان بنيان الله، وملعون من هدم بنيان الله أو من عذبه.

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقّ)

معنى آخر: أن أيّ نفس خلقها الله عز وجل وحرم قتلها لا ينبغي لك أن تقتلها، فهناك حشرات مكانها الطبيعي تحت الأرض، إذا تتبعتها إلى مكامنها وبيوتها وقتلتها وقعت في الإثم ! وإذا خرجت عن حدودها فقد أصبحت مؤذية للإنسان فعندئذٍ تقتلها، أي: لا ينبغي أن تبحث عن وكر الحية من أجل أن تقتلها، فإذا خرجت فاقتلها، ولو كنت في الصلاة، الحية والعقرب يقتلان، ولو كنت في الصلاة، لأن الحية والعقرب خرجتا من مكانهما الصحيح، فليس كل حيوان يقتل، وهناك إنسان كلما وجد حشرة يقتلها، أو يدوسها، لا يجوز ، هذه نفس.

حدثتكم كيف أن الله سبحانه وتعالى ينتقم أشد الانتقام، ويبطش أشد البطش ممن يعتدي على حيوان حرم الله قتله.

وإنسان يقود سيارة أراد أن يتسلى رأى كلباً على يمين الطريق، وقد مدّ يديه فداسهما بعجلات سيارته ! وصار يضحك، كيف أنه قطع يدي هذا الكلب ! فلم يمض أسبوع حتى فقد يديه من الرسغين في المكان نفسه ! لقد أصاب العجلة خلل فاضطر أن يستبدلها، فرفع السيارة على الجهاز المعروف، وحل البراغي، وسحب العجلة، فإذا الجهاز الذي يرفع السيارة قد انحرف، ووقعت السيارة على العجلة، والعجلة بحدها الدقيق وقعت على يديه فقطعتهما ! في المكان نفسه.

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقّ)

المعنى الأول: الإنسان، الإنسان مكرم.

والمعنى الثاني: أيٌّ مخلوق.

(قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18))

(سورة النمل)

استنبط العلماء أن المؤمن لا يدوس نملة وهو يشعر أبداً.

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقّ)

القاتل يُقتَل، قال تعالى:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179))

(سورة البقرة)

حياة لكم، ما دام القاتل يُقتَل فالقاتل قبل أن يَقتُل يحسب حساب القَتْل، فلا يَقتُل، فإذا لم يَقتُل نجا بنفسه، ونجا خصمه، ونجا المجتمع.

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179))

فالقاتل يُقتَل بنص الشرع، والعرب كانت تقول: القتل أنفى للقتل، وما ذلك إلا بالحق، الإنسان يُقتَلُ من كفرٍ بعد إسلام، ومن زنىً بعد إحصان، ومِنْ قَوَدٍ بنفسٍ، وهناك بعض الأحاديث تبين أن الإنسان إذا زنى وهو محصن يرجم حتى القتل، وإذا قتل نفساً يجب أن يُقتَل، وإذا ارتد وبالغ في العدوان على دين الله عز وجل أيضاً يُقتَل.

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً)

السلطان الحجة، والولي هو القريب الذكر، وليس عند الفقهاء وليّة في القتل، ولا بد من وليّ، أقرب رجل ذكر لهذا المقتول هو الذي يجب أن يطالِبَ بدمه، هذا اسمه ولي المقتول.

(وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً)

جعلنا له حجة في أن يقتص من القاتل، وجعلنا له سلطة في أن يقتص من القاتل، ولكن عن طريق الحاكم، وهذا الحد لا يمكن أن يقام إلا عن طريق الحاكم، لئلا تقع الفوضى، فحد القتل محصور بالحاكم، إذ لو تُرِكَ الناس لبعضهم لعمّت الفوضى، ولذلك:

(وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ)

والعلماء فسروا الإسراف في القتل في اتجاهات ثلاثة: ألاّ تقتل غير القاتل، فهذه العادة الذميمة المنتشرة في الريف، وهي عادة الثأر، أن الذي يقتل منهم قتيلاً لا بد أن يقتلوا من قبيلة القاتل إنساناً، ولو أنه بعيد عن هذه الجريمة، أو لا علاقة له بهذه الجريمة، هذه جاهلية ما بعدها جاهلية، قال تعالى:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة فاطر: 18)

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9))

(سورة التكوير)

هذه جاهلية ما بعدها جاهلية، ولذلك فلا يسرف في القتل، ولا ينبغي أن تقتل إلا القاتل، إلا الذي لوث يديه ببناء الجريمة، أما أن تقتل غير القاتل فهذا إسراف، وهذا طغيان، وبغي، وعدوان.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِي أَيِّ شَيْءٍ قَتَلَ، وَلا يَدْرِي الْمَقْتُولُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ قُتِلَ))

(صحيح مسلم)

أحياناً توجد الفوضى، ولذلك:

(فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً (33))

المعنى الثاني لعدم الإسراف في القتل: ألا تقتل اثنين بواحد ! بل واحداً بواحد، القاتل نفسه، أما أن تقتل مجموعة كبيرة فلا، إلا إذا تواطئوا، وسيدنا عمر قال: **" والله لو أن أهل قرية تواطئوا جميعاً على قتل رجل مسلم لقتلتهم به جميعاً "**، إذا تواطئوا، استنبطوا هذا من قول ثمود الذين عقروا الناقة، قال:

(فَعَقَرُوهَا)

(سورة هود: 65)

فالذي عقرها واحد، لكن كل هؤلاء كانوا راضين، بل ودفعوا هذا الذي عقر الناقة، لذلك لو تواطأ جمعٌ غفير على قتل رجل لقتلوا به جميعاً، أما أن تقتل إنسانًا لا علاقة له بالموضوع فهذه جاهلية ما بعدها جاهلية، وهذه العادة مع الأسف متفشية تفشياً كبيراً في الأرياف ! هذه قضية خطيرة اسمها الأخذ بالثأر.

(فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً (33))

المعنى الثالث: ألاّ تمثل بالمقتول، فالنبي عليه الصلاة والسلام دعي إلى التمثيل ببعض قتلى بدر، فقال عليه الصلاة والسلام:

((لا أمثل بهم، فيمثل الله بي، ولو كنت نبياً))

التمثيل بالمقتول ليس من صفات المؤمن، والمؤمن منهياً عن أن يتخذ بعض البهائم غرضاً، يعني أن تضع دجاجة أمامك، وأن تتمرن على الرمي، فهذا من أشد الأشياء المحرمة، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا تَتَّخِذُوا شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا))

[مسلم]

فإذا كانت دجاجة أو عصفوراً أنت منهي عن أن تقتلها من أجل التدريب، فما قولك بهذا الإنسان المكرم؟ إذاً الإسراف في أن تقتل غير القاتل، والإسراف في أن تقتل أكثر من واحد بواحد، والإسراف أن تمثل بالمقتول.

(فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً (33))

الله سبحانه وتعالى أمر أولي الأمر أن يقيموا حدود الله لذلك قيل:

((إن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن))

[تفسير ابن كثير]

وقد نهي المسلم عن أن يسكن في بلد ليس فيه سلطان، فالسلطان يبث في نفوس الناس الأمان.

(فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً (33))

قال الإمام علي: **" سلطان غشوم خيرٌ من فتنة تدوم ".**

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ)

(سورة الأنعام: 152)

العدوان على الأقرباء.

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ)

(سورة الأنعام: 151)

والعدوان على كرامة النفس الإنسانية.

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

والعدوان على النفس الإنسانية بالقتل.

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ)

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ)

انتبهوا إلى ترتيب هذه الآيات، يجب أن تبقي بين مالك ومال اليتيم هامشاً، كن دقيقاً جداً، فهذا المال أنت محاسب عليه أشد الحساب، ولذلك بين العلماء أولاً: أن الوصي على مال اليتامى إن كان غنياً فيجب عليه أن يستعفف، ومعنى أن يستعفف ألاّ يأخذ على إدارة الأموال شيئاً، وإن كان فقيراً فليأخذ بالمعروف.

فَسّر العلماء المعروف أن تأخذ أجر الجهد أو الحاجة أيهما أقل، هناك يتيم دفع إليك ماله لتديره له، وأنت غني فاستعفف، وأنت فقير فخذ من ماله بالمعروف، ما هو المعروف ؟ المئة ألف ليرة ربحت في هذين الشهرين مثلاً عشرين ألف ليرة فرضاً، أجر المثل، لك نصف الربح، ولليتيم نصف الربح، فربحت عشرين ألفًا، لك عشرة آلاف، وله عشرة آلاف، وأنت يكفيك في هذين الشهرين سبعة آلاف، يجب أن تأخذ حاجتك لا أجر المثل، العشرة آلاف ربحت ألفاً في الشهرين، وأنت تحتاج إلى ثلاثة آلاف مصروفاً، فمن هذا الربح لن تنال إلا خمسمئة فقط، يجب أن تأخذ أجر المثل لا الحاجة، لأن أجر المثل أقلّ، يجب أن تأخذ حاجتك أو أجر المثل أيهما أقلّ، هذا رأي الفقهاء في معنى قوله تعالى:

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ)

أشد الشباب ثمانية عشر عاماً، وأشد الكهل أربعون.

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً)

(سورة الأحقاف: 15)

لذلك سن الأربعين من النُذُر التي ذكرها الله في القرآن الكريم.

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر: 37)

فسن الأربعين نذير، لأن الإنسان في هذا السن بلغ أشده، وبدأ الميزان يميل نحو النزول، بعد الأربعين أمراض، ضعف بصر، يلزمه نظارة، شاب شعره، التهاب في المعدة، بعد الأربعين الخط قد يستمر قليلاً، وبعدها يبدأ بالهبوط، فالأربعون أحد المعاني التي وجه المفسرون الآية، وموت الأقارب من

النذير، والنبي عليه الصلاة والسلام هو النذير، والقرآن الكريم هو النذير، والدعاة المخلصون هم النذر، والمصائب من النذير، والشيب هو النذير، حتى يبلغ أشده، أي: في الثمانية عشر، إذا بلغ اليتيم هذه السن، وآنسنا منه رشداً وحكمة وقدرة على إدارة أمواله دفعنا إليه أمواله، بعد أن نكون قد أخذنا منها بالمعروف، الحد الأدنى، احفظوه أجر المثل أو الجهد أيهما أقلّ، هذا لمن ؟ لمن كان فقيراً، أما لمن كان غنياً فيجب عليه أم يستعفف.

عَنْ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا، وَقَالَ: بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى))

(صحيح البخاري)

(وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (34))

عهدك مع الله، وعهدك مع النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعهدك مع الذي هداك إليه، وعهدك مع أخيك، وعقد البيع، وعقد الآجار، وأي عقدٍ توَقِّعُهُ مع أخيك المسلم فيما لا يتنافى مع كلام الله، وفيما لا يخالف شرع الله، هذا العهد أنت مأمور أن تفي به،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

[سورة المائدة: 1]

أما هنا فوردت:

(وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (34))

والله سبحانه وتعالى سيسألك عن هذا العهد لِم ضيعته ؟ لذلك الناس اليوم سريعاً ما ينقضون عهودهم ومواثيقهم لبارقةٍ مِنْ ربح جزيل، أو لمغنم يسير، أو لغرض ضئيل، ينقضون عهودهم ومواثيقهم، فالعرب كانت في أوج أخلاقها تقول: المنيّة ولا الدنيّة، والإنسان قبل أن ينقض عهده يحسب ألف حساب، أما الآن فلأتفه سبب باع البيت، وجاءه بعد أن وقع عقد البيع مشترٍ آخر دفع له خمسة آلاف فرقاً، فيأتي الشاري الأول، ويقول له: هذا البيت عليه كسوة خارجية، عليك ثمانية آلاف كسوة، أخي أنت لم تقل هذا الكلام، نسيت أن أقول لك، يستفزه، ثم يقول له المشتري: لا أريد هذه البيعة، من أجل خمسة آلاف.

والله أعرف أسرة جاءها خاطب أخلاقه عالية، ودينه جيد، وخطب ابنتهم، وعقد عقد القران، وسافر إلى بلد عربي، في غيبته جاءهم خاطب آخر أغنى من الأول، فنقضوا عهدهم مع الأول، فماذا فعل الثاني ؟ طلق ابنتهم، وماذا فعل الخطيب الثالث ؟ طلق ابنتهم، وهي الآن بعد الزواج الثالث مطلقة من الثلاثة، فلذلك:

(وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (34))

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلا قَالَ:

((لا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ، وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ))

(مسند الإمام أحمد)

لا يوجد عهد، لا يوجد دين، انعدمت الأمانة، انعدم الإيمان.

(وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (34))

أمر إلهي، وكل أمر يقتضي الوجوب.

(إِنّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (34) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ)

إن كانت البضاعة تباع كيلاً فاجعل هذا السائل عند الحد الصحيح أو بالميزان، فقد توضع الحاجة في كفة البضاعة بعنف، فإذا بالكفة ترجح فيأخذها سريعاً ويضعها، وهذا لا يجوز، وإذا كان بالمتر فعند لشراء القماش منحنٍ، وعند البيع القماش مشدود، يكاد يتمزق، هذا بيع غير صحيح، فهذا الذي يطفف، قال تعالى:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5))

(سورة المطففين)

فالإنسان بالوزن بالكيل بالمساحة بالعد يكون دقيقاً جداً، لأن في الدنيا القضية تحل، أما في الآخرة فلا تحل.

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ)

وعندما يكون ماء كثير مع البضاعة هذا الماء يزن، إذ تشتري اثنين كيلو من الجبن تجد بهما نصف كيلو ماء مصفاة، تسكب الماء، وتزنه فتجده كيلوًا ونصفاً.

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ)

تأخذ شيئاً غالياً فتجد الورقة في كفة الوزن، وفي الكفة الثانية لا يوجد غير الوزن، أما السلف الصالح فكانوا يضعون ورقة أخرى في الكفة الثانية، هذا هو الوزن الدقيق الذي لا يُأبَه له محاسب عليه عند الله عز وجل، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا وَزَنْتُمْ فَأَرْجِحُوا))

(سنن ابن ماجة)

تجد ميزان المؤمن دقيقًا، مروحة تدور في المحل، والبضاعة غالية جداً، توزن بالغرامات، أطفئ المروحة أولاً، ينتبه إلى المروحة أين جهتها، وحينما تصل إلى الكفة تجد أن هناك وزناً عندها يضع البضاعة بسرعة، وهذا احتيال.

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ)

كل شيء يوضع بالوزن والمساحة والعدد والكيل، إن كان فيه رطوبة فهذه الرطوبة لها وزن تحاسب عليها، إن لم تعط المشتري حقه سواء كان هذا الحق وزناً أو نوعاً أو تسليماً أو حجماً، فأنت محاسب.

(ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (35))

قصة قديمة، رجل أراد أن يشتري برتقالاً من بائع، فحينما وزن له البرتقال دفع لسان الميزان بإصبعه كي ترجح كفة البرتقال، كان ميزاناً يدوياً، فالشاري انتبه، فقال له: يا هذا، أنا غني عن برتقالة أو اثنتين، لكن هذا العمل لن يجلب لك الخير في حياتك، ما كان من هذا البائع إلا أن انفجر بالشكوى، والله لا أحَصِّل قوت يومي من هذا البيع، ومن هذه الطريقة في البيع، وتوجد دكان قريبة من هذا الدكان قال له: اذهب معي، خاطب صاحب الدكان، فقال له: إذا طلب منك هذا البائع شيئاً فأعطه ما يشاء، وسجله علي ! قال له: إذاً بِعْ بيعاً صحيحاً، وإذا نقصت الغلة عن الحد الذي تريد فخذ الفرق من هذا البائع، فهذا البائع بعد فترة أصبح لديه محل تجاري، وصار من تجار الفاكهة لاستقامة الوزن ! فإذا استقام وزن الإنسان فمعنى ذلك أن دينه استقام أيضاً، وإذا انحرف وزنه انحرف دينه، وهذا الميزان دين، ولا مجال فيه.

(ذَلِكَ خَيْرٌ)

لكم في الدنيا.

إذا وزنت بالقسطاس المستقيم فالقسطاس هو الميزان، وإذا وفيت الكيل، وإذا كلت ذلك فهو خير، الله يقول: خير، خالق الكون يقول:

(ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (35))

والتأويل: هي العاقبة، وإنني أعرف شخصاً زرته قبل عام، وأنا أعرف ابنه، وابنه صديقي، فقال لي: إن هذا الإنسان أجرى فحوصات دقيقة جداً وهو في سن التسعين، ولم يكن في كل هذه الفحوصات شيء غير صحيح، أو غير مثالي، والله هذه نعمة كبيرة، إنسان يجري فحص دم كاملا، وفحص بول كاملا، وتخطيط قلب، وتخطيط دماغ، والنتائج كلها إيجابية، وهو في التسعين، وقد بلغني أن هذا الرجل ما أكل درهماً حراماً في حياته، ولا عصى الله، يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً، هذه العين التي تغض عن محارم الله، الله سبحانه وتعالى يحفظها لك، وهذه اليد التي تستخدمها في فعل الخيرات، الله سبحانه وتعالى يحفظها لك، وهذه الأذن التي ما سمعت إلا الحق يحفظها الله لك سبحانه وتعالى، وهذا اللسان الذي ينطق بالحق يحفظه الله لك سبحانه وتعالى، وهذه الرجل التي سرت بها إلى المساجد، وإلى دروس العلم، وسرت بها إلى فعل الخيرات، يحفظها الله لك سبحانه وتعالى، من عاش تقياً، عاش قوياً، والدعاء الشريف أَنَّ ابْنَ عُمَرَ قَالَ: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلاءِ الدَّعَوَاتِ لأَصْحَابِهِ:

((اللّهُمّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنّتَكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدّنْيَا، وَمَتّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلا تَجْعَلِ الدّنْيَا أَكْبَرَ هَمّنَا، وَلا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلا تُسَلّطْ عَلَيْنَا مَنْ لا يَرْحَمُنَا))

(سنن الترمذي)

مَن منا لا يتمنى أن يعيش في خريف عمره حياة ملؤها السلامة والسرور والطمأنينة والعزة والكرامة، والشعور برضاء الله ؟ هذه أجمل حياة، سببها طاعة الله عز وجل، طاعة الله هي الثمن.

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنّ السّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (36))

والعلماء قالوا: لا تقل: سمعت ولم تسمع، ولا تقل: رأيت ولم ترَ، ولا تقل: أعتقد وأنت لا تعتقد،

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)

والعلم أي اليقين.

(كَلّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5))

(سورة التكاثر)

لا تَقْفُ، لا تشهد إلا بما رأيت، بين الحق والباطل أربع أصابع، بين أن تقول: سمعت، وبين أن تقول: رأيت، شتان بين أن تقول: سمعت، وبين أن تقول: رأيت، لكن بعض العلماء يقول:

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنّ السّمْعَ)

بدأ بالسمع، لأن أكثر المعاصي تتأتى عن طريق السماع، وأكثر الناس يروون كلاماً باطلاً عن بعضهم، والذين ينقلون مشاهدات لم يشاهدوها أقلّ من أولئك، والذين يقولون معتقدات لا يعتقدونها أقلّ من أولئك.

(السّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ)

الفؤاد هو القلب، والقلب مكانه العقل.

(لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا)

(سورة الحج: 46)

مكان العلم اليقيني مكان الإيمان، لا تدّعِ الإيمان وأنت لم تؤمن بعد، لا تقل: رأيت وأنت لم تر، ولا تقل: سمعت وأنت لم تسمع، بعضهم قال في تفسير هذه الآية:

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ)

أي: لا تعتقد شيئاً إلا بعد اليقين، ولا تقل شيئاً إلا بعد العلم، ولا تفعل شيئاً إلا بعد العلم، لذلك الفرق بين الطائش والجاهل، وضيق الأفق أنه يتسرع، يصدر حكماً خاطئاً.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6))

(سورة الحجرات)

عوّد نفسك الطريقة العلمية في تقصي الحقائق، تقول: فلان فعل كذا، فهل رأيته أنت بعينك ؟ لا، والله سمعت، من قال لك ؟ فلان، وهل أنت واثق من دينه ؟ أو واثق من صدقه ؟ يقول: والله لست متأكداً، وأين ستذهب، وأين تقول هذا الكلام ؟ أما شعار المؤمن:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6))

وهذه آية من الآيات الدقيقة الدالة على الروح الموضوعية في القرآن الكريم، حقيقة، ولذلك لدينا في الأخلاق قيمة خلقية، وفي البحث العلمي قيمة علمية، وفي حالة واحدة تلتقي قيمة خلقية مع قيمة علمية، وهذه الحالة هي الموضوعية، والموضوعية قيمة خلقية وقيمة علمية، فالعقل والخلق يلتقيان في الموضوعية، وإذا تحدثت عن مساوئ إنسان، ووفرت محاسنه، فأنت لم تكذب، لكن هذا كذب سلبي، اذكر ما له، وما عليه، أو اسكت، أما أن تكتفي بالسيئات، وتطمس الحسنات فالنبي عليه الصلاة والسام استعاذ من هذا الإنسان ! قال:

((اللهم إني أعوذ بك من جار سوء، إن رأى خيراً كتمه وإن رأى شراً أذاعه، اللهم إني أعوذ بك من إمام سوء إن أحسنت لم يقبل، وإن أسأت لم يغفر))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة]

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (36))

هذا ينطبق على شاهدي الزور، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ؟ ثَلاثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا، فَقَالَ: أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ))

(صحيح البخاري)

ودائماً المؤمن وقاف عند كتاب الله، لا يتسرع، ولا يصدر حكماً قبل البحث الصحيح، وهذه صفات الناجحين في الحياة، وكل إنسان نجح في الحياة فإن أحكامه صحيحة مبنية على بحث وتدقيق واستقصاء.

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً)

إن هذه الدنيا دار ابتلاء، لا دار استواء، ومنزل ترح، لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، وقد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي.

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً)

هذا الذي يفرح في الدنيا لا خلاق له عند الله.

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61))

(سورة الصافات)

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: 58)

افرح بمرضاة الله عز وجل، وافرح بطاعته، وافرح بعمل صالح قدره الله على يديك، وأما أن تفرح بالدنيا فلا قيمة لها عند الله.

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ)

إنك لن تخرق الأرض إذا مشيت بقدمك على الأرض، ولن تستطيع بقدمك أن تخرق الأرض.

(وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (37))

فلذلك تعود على كل هذه الآيات بدءاً من قوله تعالى:

(لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً (22) وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً (24) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً (25))

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (26) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (27) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً (28) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (29) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (30))

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً (31) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً (33) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (34))

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (35) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (36) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (37) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً (38))

وإذا أردت أن يحبك الله فابتعد عن هذا كله، لأن الله يكره هذه الأعمال.

(ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً (39))

أجمل ما في الآيات أنها بدأت:

(لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً (22))

وانتهت:

(وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً (39))

ملوم من قِبَل الخَلق والحق ونفسك، ومدحورا لا خيار لك في الدخول أو عدم الدخول.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (06-13): تفسير الآيات 40 – 52
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-08-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السادس من سورة الإسراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (40))

(أَفَأَصْفَاكُمْ)

هذه الهمزة للاستفهام الإنكاري، قد يقول لك قائل: أنت فعلت هذا ؟ تقول له: أنا فعلت هذا ؟ هذه الصيغة صيغة استفهام، لكن الاستفهام في علم البلاغة يخرج عن حقيقته إلى معانٍ كثيرة، منها الإنكار، والله سبحانه وتعالى حينما قال:

(أَفَأَصْفَاكُمْ)

أي: ينكر على المشركين هذه المقولة، أو هذا التوهم، أو هذا الاعتقاد.

(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً)

إن المشركين يزعمون أن الله سبحانه وتعالى اتخذ الملائكة بنات ! وهم لهم الذكور، فيزعمون لله ما يكرهون، أيعقل أن يكون الأمر كله لله، وأن يكون هو الواحد الأحد ؟ وأنه لا إله إلا الله ؟ وأن تختصوا أنتم بالبنين ؟ وتكرهون البنات ؟ وعلامة كره البنات في الجاهلية أنهم كانوا يئدون الفتاة وهي صغيرة ؟ وقد لا يقول الآن أحد مثل هذه المقولة: إن الملائكة بنات الله، وإن الذكور لنا، لكن الله عز وجل كثيراً في القرآن الكريم ما يذكر جزءًا ويريد به الكل، بمعنى أنك إذا نسبت شيئاً تكرهه إلى الله عز وجل فإن هذه المقولة مقولة عظيمة.

أيعقل أن تكون وأنت العبد الأدنى مترفعاً عن هذه الصفة، والله سبحانه وتعالى تصفه بها ؟ وأنت مترفع عن الظلم، وتنسب الظلم إلى الله عز وجل ؟ أنت تترفع عن هذه الصفة وتصفها لله عز وجل ؟ إذاً ليس المقصود أن تقول: الملائكة بنات الله، وأن الذكور لنا، قد لا تكون هذه الفكرة مطروحة في العصور المتأخرة، ولكن أي شيء لا ترضاه لنفسك لا ينبغي أن تفتري به على الله سبيلا، لا تقل: الله كذا وكذا من دون علم، كتب عليه الشقاء من الأزل، ولا بد من أن يشقى بلا ذنب، قد يطيعه المطيع، ويضعه في نار جهنم ! وهذا قول عظيم، فإذا قلت هذا القول، وكأنك بهذا نسبت الظلم إلى الله، فإن هذه المقولة لا ينبغي أن تقولها، لذلك قال الله تعالى:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (7))

(سورة الأنبياء)

لا تقل كلاماً لست متأكداً منه، تثبت من كل شيء تعزوه إلى الله عز وجل !

(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً)

أنتم أيها العباد أعطاكم الله البنين، وهم في الدرجة الأولى ! وهو أخذ البنات اللاتي لا تحبونهن ؟! أيعقل هذا ؟ قال الله تعالى:

(إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (40))

وكيف هذا القول العظيم ؟ إنك إذا وصفت الله عز وجل بوصف لا يليق به فقد جعلت هذا المستمع ينفر، أو يبتعد، أو يلتفت، أو لا يقبل، فقطعته عن مولاه ! أعظم جريمة تقترفها أن تبعد الناس عن الله عز وجل ! وأعظم عمل تفعله في الدنيا أن تقرب الناس من الله عز وجل ! يا رب إنك تعلم أني أحبك، وأحب من أحبك، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ عَنْ أَنَسٍ:

((قَالَ مَرّ رَجُلٌ بِالنَّبِيِّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وَعِنْدَ النَّبِيِّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ رَجُلٌ جَالِسٌ، فَقَالَ الرّجُلُ: وَاللّهِ يَا رَسُولَ اللّهِ إِنّي لأُحِبُّ هَذَا فِي اللّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ: أَخْبَرْتَهُ بِذَلِكَ ؟ قَالَ: لا، قَالَ: قُمْ فَأَخْبِرْهُ، تَثْبُتِ الْمَوَدّةُ بَيْنَكُمَا، فَقَامَ إِلَيْهِ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: إِنّي أُحِبُّكَ فِي اللّهِ، أَوْ قَالَ: أُحِبُّكَ لِلّهِ، فَقَالَ الرّجُلُ: أَحَبّكَ الّذِي أَحْبَبْتَنِي فِيهِ))

(مسند الإمام أحمد)

يا داود ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي.

يضلّ من يشاء، الله أضلّ فلاناً، أنت لست متأكداً من هذا المعنى، الله عز وجل إذا عُزيَ الضلال إليه فهو الضلال الجزائي، المبني على ضلال اختياري، والدليل قوله تعالى:

(فَلَمّا زَاغُوا أَزَاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: 5)

إذا قرأت القرآن وحدك من دون أن تسمع تفسيره من الذين آتاهم الله فهم الكتاب فهذا خطأ كبير ! قد تقول: يضل من يشاء، الله عز وجل جعل هذه الآية موجزة، قال:

(وَأَنّ اللّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52))

(سورة يوسف)

(إِنّ اللّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ (50))

(سورة القصص)

(وَاللّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (108))

(سورة المائدة)

والله بيّن وفصل في هؤلاء الذين لا يهديهم، لا يهدي فاسقاً، ولا ظالماً، ولا خائناً، ولا كذاباً.. فإذا قال الله عز وجل:

(فَإِنّ اللّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة فاطر: 8)

هذه آية مفصلة أخرى إذا قال الله عز وجل:

(وَاللّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (96))

(سورة الصافات)

هذه آية لها سياق معين، قال:

(قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95) وَاللّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (96))

(سورة الصافات)

خلقكم مع هذه الأصنام التي تنحتونها ! إذاً من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار ! وكان بعض أصحاب رسول الله إذا قالوا في القرآن قالوا: إن أصبنا فمن الله، وإن أخطأنا فمن أنفسنا، كلام الله:

(إِنّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (40))

كلمة يضل من يشاء مفصلة في آيات كثيرة، إذا أضل الله الإنسان فإنه يضله عن شركائه ! لا يضله عن ذاته، قد يتوهم الإنسان أن زيداً من الناس بيده مصيره، أو بيده رزقه، أو بيده خيره وشره، عندئذ يجعل الله سبحانه وتعالى هذا الإنسان الذي وضعت كل آمالك عليه يخيب ظنك، بمعنى أن الله قد أضلك عنه، إن الله عز وجل يضل عن شركائه، ولا يضله عن ذاته، هذا معنى قوله تعالى:

(فَإِنّ اللّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة فاطر: 8)

فإذا أخذت الآيات أخذاً سريعاً من دون تبصر أو فهم أو تعمق، وظننت أن الله خلقك ليضلك، فأنت مخطئ، لأنه خلقك ليرحمك:

(إِلّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: 119)

خلقهم ليرحمهم، علة الخلق:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنْسَ إِلّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات)

لعلة العبادة، والعبادة طاعة طوعية، تسبقها معرفة يقينية، وتنتهي بسعادة أبدية، علة الخلق بنص القرآن الكريم العبادة، أي: الإقبال الاستغراق، فلذلك لا يحق للإنسان أن يقول على الله قولاً عظيماً، فإذا عُزي الإضلال إلى الله فهذا هو الضلال الجزائي المبني على الضلال الاختياري.

آيات أخرى توضح ذلك:

(فَلَمّا زَاغُوا أَزَاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: 5)

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت: 17)

الإنسان مخير، لذلك ليس المقصود بهذه الآية:

(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (40))

ليس المقصود من هذه الآية هذا الكلام بالذات حصراً، حينما قال الله عز وجل:

(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ)

(سورة الإسراء: 23)

في اللغة معنى أف: أن يصدر منك نَفَسٌ بصوت مرتفع، وهو يعني التضجر، فهل المقصود بهذه الآية أن الله عز وجل نهاك عن كلمة أف فقط ؟ إذا ظننت أن الله عز وجل نهاك عن كلمة أف فقط فهذا هو المدلول اللغوي فقط، ولكن للآية حكماً شرعياً، والحكم الشرعي هو أن كل شيء يستاء منه الأم والأب، فلو أنك خبطت الباب بوجههما، أو شددت النظر إليهما، أو قسوت معهما في الكلام، فالحكم الشرعي لهذه الآية: أي شيء صغر أم كبر يؤدي إلى إساءة للأم والأب محرم بنص هذه الآية، مع أن الآية تقول:

(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ)

فهذا من علم الأصول، وليس المقصود أف، المقصود كل شيء، وكل قول، وكل عمل، وكل تصرف، وكل فعل يؤدي إلى الإساءة إلى الأم والأب، هذه الآية أيضاً لا أسمع، ولن أسمع في هذا العصر من يقول: إن الله عز وجل اصطفى له البنات، وأعطانا البنين ! وهذا قاله الكفار في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، ورد الله عليهم:

(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (40))

ولكن المقصود ألا تفتري على الله الكذب، لا تقل: إن الله كذا وكذا وأنت لا تعلم ذلك، ولا تنسب شيئاً إلى الله عز وجل وأنت تترفع عنه.

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياكَ إياك أنْ تبتلّ بالمـــاءِ

***

مستحيل ! لذلك فالله عز وجل قال:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148))

(سورة الأنعام)

إذاً أن تقول: الله خلقني هكذا، لا أصلي، هكذا يريد الله عز وجل، أن تعزو تقصيرك إلى الله عز وجل، فهذا افتراء على الله، إذاً هذه الآية تحتمل هذا المعنى الجزائي، هذا الخاص، الذي نصت عليه، وتحتمل أي معنى آخر يعزى إلى الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى منّزه عنه !

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (28))

(سورة الأعراف)

يقولون لك الآن: هذا الذي قدره الله علينا، لماذا تعصي الله ؟ هكذا، كقول العوام: **" طاسات معدودة في أماكن محدودة " ! " لا تعترض فتنطرد "**، هذا كلام جهل، أن تنسب المعصية وشرب الخمر وكل شيء إلى الله، ثم تقول: هذا قدره الله علي، أليس لك حيلة إطلاقاً أنت ؟ هذه دائرة الاختيار.

من حمل ذنبه على الله فقد فجر، ولو أن الله عز وجل أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب.

إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، فإذا قصرت في شيء، وجاءت النتائج غير مرضية تقول: هذا من فعل الله، هو من فعل الله، هذه كلمة حق أريد بها باطل، لكنك مقصر، وسوف تحاسب على تقصيرك، ما من شيء يقع إلا بأمر الله، ولكن أمر الله متعلق بشرعه، وشرعه نهاك عن هذا الأمر، فمادام هناك نهي فأنت مذنب، وسوف تحاسب، أما كلما قصرنا، وارتكبنا مخالفات تعزى إلى الله عز وجل ببساطة:

(إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (40))

أيعقل أن تتهم أباً حريصاً حرصاً بالغاً على أن يعلم ابنه، أنه منع ابنه بالقوة من المدرسة ؟ مستحيل، لا يعقل أن يوصف أب بذلك، ولا سيما إذا كان حريصاً على تعليم أولاده:

(وَلَقَدْ صَرّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذّكّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلّا نُفُوراً (41))

الآية:

(أَفَأَصْفَاكُمْ)

الله عز وجل يخاطب كفار قريش، الآية الثانية:

(وَلَقَدْ صَرّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذّكّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلّا نُفُوراً (41))

انتقلت صيغة التكلم من المخاطبة إلى الغيبة، قال علماء البلاغة: هذا اسمه التفات، ومعنى الالتفات أن هؤلاء المشركين ليسوا جديرين أن يخاطبوا، ولذلك تركهم الله عز وجل وأخبر عنهم.

(وَلَقَدْ صَرّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذّكّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلّا نُفُوراً (41))

فما معنى صَرّفنا ؟ صرف الشيء بمعنى قلبه، والله عز وجل نوّع في هذا القرآن الكريم ألوان الخطاب، فجعل التقرير، وجعل التصوير، وجعل القصة، وجعل المثل، وجعل الوعد والوعيد، وجعل الأمر والنهي، وجعل التخويف والتبشير، وجعل الإنذار، وجعل الأخبار وسرد الآيات، وتعداد النعم وتعداد النقم.. وألوان ملونة، تارة يأتي بالمثل، وتارة يأتي بقصة، وتارة يأتي بالوعد.

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة النور: 55)

تلوين الكتاب من أمر إلى نهي، إلى وعد وإلى وعيد، وتقرير وتصوير، ومثل وقصة، وخبر، وأمر ونهي، ومخاطبة وغيبة، وتكلم واستخدام ضمير متكلم، إلى استخدام ضمير غائب.. هذا التلوين والتنويع والتفصيل والإيجاز تارة، والفصل تارة والوصل تارة، فالألوان المنوعة من الأساليب الأدبية والبلاغية في كتاب الله ليذكروا.

أحياناً المعلم الحريص الرحيم الحكيم يتفنن بعرض الدرس كي يفهم الطالب، وكي ينجذب إلى الدرس، كي يتعلق به، كي يزداد حرصه على العلم.

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآَنِ)

صرفنا، هذا المعنى الأول.

أما المعنى الثاني للتصريف: أن هذا القرآن الكريم نزل منجماً، ولو أنه نزل دفعة واحدة لثقل عليه، نزل مع كل مناسبة وكل حادثة، وكل موعظة، فجاءت الآيات تباعاً بشكل لطيف، فالله عز وجل قال عن النحل، وعن بعض السكريات:

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً)

(سورة النحل: 67)

إشارة لطيفة بعيدة إلى أن هناك رزقاً حسناً، وهناك سفراً، فكأنه رزق غير حسن، تقول: هذا شراب لذيذ، غير هذا الشراب، يفهم من هذا أن الشراب الثاني دون الأول، ثم قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى)

(سورة النساء: 43)

ثم قال الله عز وجل:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

(سورة البقرة: 219)

إلى أن جاء قوله سبحانه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90))

(سورة المائدة)

جاء تحريمه تدريجياً رحمة ولطفاً وحكمة وعطفاً، لذلك:

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ)

تلوين، تأتي قصة يوسف، صفحات كثيرة من أجل أن تؤكد حقيقة واحدة.

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21))

(سورة يوسف)

هناك آيات أخرى:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد: 19)

آية تقريرية موجزة، وأحياناً تأتي صورة:

(فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ(45))

(سورة الحج)

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ)

(سورة البقرة: 261)

التنويع بين المثل والقصة، والتقرير، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، والخبر والإنشاء، والحظ والإسهاب، والنداء والتَرَجّي، والتمني.. هذا التلوين الشديد في أساليب عرض القرآن الكريم إنما هو رحمة منه، لعل قلوبنا تهفو إليه، من أجل أن نقرأه، وأن نطبقه، وأن نسعد به.

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا)

قال العلماء:

(لِيَذَّكَّرُوا)

بمعنى ليتدبروا، ومعنى التدبر أن تدرك معنى المعنى، لكل آية معنى ظاهري، وخلف هذا المعنى الظاهري معنى آخر أخفى ومقصود، كما قلت قبل قليل:

(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ)

المعنى الظاهري أنك منهي عن أن تقول لوالديك: أف، فإذا أخذنا الآية على ظاهرها فلنا الحق في الإساءة لوالدينا، لنا الحق أن نقذع لهما في الكلام، لكننا لم نقل كلمة أف ! هذا المعنى ظاهري، أما التدبر فأن تعرف ما وراء المعنى الظاهري، هناك معنى ظاهري، وهناك معنى عميق مقصود، وهذا معنى التذكر.

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99))

(سورة الحجر)

اليقين الموت، لم يقل الله عز وجل: حتى يأتي الموت، لا، هو الذي سيأتي إليك مفاجأة في ساعة لست مستعداً لها، وما من ميت يموت إلا وفي ذهنه آمال، وأعراض، ومشروعات، وطموحات، وخيالات، وتمنيات لا تنقضي في عشرين عاماً قادمة، جاء الموت، لا تقل: إنك مشغول، فلا يوجد ميت ذهب إلا وكان مشغولاً ! ولا يوجد إنسان توفي إلا وعليه قائمة أعمال، مات ولم تنته، ولذلك اشتغل بذكر الله، اعتزل ذكر الأغاني والغزل، ولا تنس ذكر الله.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

(سورة المائدة: 11)

محال أن تذكره، ولا يذيقك طعم القرب منه.

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآَنِ لِيَذَّكَّرُوا)

اقرأ القرآن، وتأمل في آياته، واسأل عنها، واحضر مجالس العلم، واسأل عن تفسيره، وتفهم الآيات، واعرف مدلولاتها، وأبعادها، ومؤداها وتطبيقها العملي.

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآَنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً (41))

لماذا ؟ لأن أهل الشرك، وأهل النفاق، وأهل الأهواء، هؤلاء شهواتهم غالية عليهم، هؤلاء اتخذوا إلههم هواهم، فإذا جاء القرآن على الرغم من وعده ووعيده، وصوره وتقريره، وتفصيله وإيجازه، وعلى الرغم من أمره ونهيه، كل هذا التلوين يزيدهم نفوراً، لأن القرآن في زعمهم سيحد من شهواتهم، وسيوقفهم عند هذا الحد، ومع أن الحقيقة الكبرى:

((مَا كَانَ اللّه لِيُعَذِّبَ قَلْبَاً بِشَهْوَةٍ تَرَكَهَا صَاحِبُهَا فِي سَبِيلِ اللّه))

[ذكره أبو نعيم في الحلية من قول أبي سليمان الداراني]

إذا التفت إلى الله غسل الله لك قلبك من السوى ! وهذه التعلقات، وهذه التمزقات والصراعات، وهذا التشعب والتشتت والتبعثر، وهذا التعدد، وهذه الازدواجية، وهذه الأغراض كلها أنت معافى منها، إذا عرفت الله عز وجل، تتوحد وجهتك، وتكتمل شخصيتك، يتحدد هدفك، وتختار لهذا الهدف الوسائل الناجحة الرائعة، وإن هذا كله يؤكد أنك إذا عرفته عرفت كل شيء، وإن فاتك، فاتك كل شيء، ابن آدم اطلبني تجدني، وإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك، فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء.

(وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً (41))

بمعنى أن أهل الشرك يتوهمون أن في التدين حداً لشهواتهم، لنأخذ موضوع النساء فقط، لو أنك استقمت على أمر الله، وغضضت البصر عن النساء اللاتي لا يحل لك أن تراهن، لأنعم الله عليك بالوفاق الزوجي، فالله عز وجل يلقي المودة والمحبة بينكما، ويوفق ويجمع بينكما على خير، ويخرج منكما الكثير الطيب، وتحفكما ملائكة الرحمن، فهذا البيت مقدّس مبارك، فيه وفاق ووئام ومحبة، فيه مؤاثرة

وتضحية، وهدوء وسكينة، فإذا كان الله بين الزوجين كان التوفيق حليفهما، وإذا كان الشيطان بينهما كان الشقاق والخصام والنكد والغضب، والحياة الخشنة الصعبة، لذلك:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

(سورة طه)

(وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً (17))

(سورة الجن)

إذا تناول أحدكم دواء، ولم يؤثر فيه يرفع الطبيب درجته، كلما قلّ تأثير الدواء رفع الطبيب مقدار الكمية الفعالة في الدواء !

(وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً (17))

لذلك فإذا بني الزواج على معصية الله عز وجل تولى الشيطان التفريق بين الزوجين، وإذا بني على طاعة الله عز وجل تولى الرحمن التوفيق بينهما، شيطان يتولى التفريق، قال عليه الصلاة والسلام:

((لَيسَ مِنّا مَنْ فَرّقَ))

[ورد في الأثر]

فإذا كان لإنسان دور التفريق فهو شيطان !

(إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً (35))

(سورة النساء)

وتوفيق الله للحكمين بين الزوجين منوط أن يريدا الإصلاح، فإذا أراد الحكمان الفراق لم يوَفّقا إلى الإصلاح.

(قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آَلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (42))

هذه الآية دقيقة جداً، العرب في الجاهلية كانت تعبد أصناماً من دون الله، وتزعم أن هذه الأصنام تقرّبها إلى الله زلفى، فالله سبحانه وتعالى يقول: هذه الآلهة التي تزعمون أنها تشاركني في الألوهية، وهذه الآلهة بزعمكم أنها تعبدني أيضاً، إذاً ليست آلهة، فلماذا أنتم أيها المشركون لا تعبدون الله عز وجل وحده دون أن تشركوا به ؟ هذا هو المعنى الأول.

(قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آَلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ)

وبالمناسبة كلمة: (لو)حرف امتناع لامتناع، العملية كلها فرضية، لو جئتني لأكرمتك، أنت لم تأت، وأنا لم أكرمك، فـ **(لو)**تُسَمّى حرف امتناع لامتناع، وتجتهدون في عبادتي بزعمكم أنها أقرب إلى الله منكم ! وأنتم تتخذونها وسيلة مقربة، فمادامت هذه الآلهة تعبد الله إذاً ليست آلهة، وهذا كلام متناقض، لأنها تبتغي هي إلى ذي العرش سبيلا، وذو العرش هو الله عز وجل، العلي الأعلى، تبتغي إليه سبيلا، إذاً هي تعبد مثلكم، إذاً هي ليست آلهة، وهذا هو المعنى الأول.

أما المعنى الثاني:

(قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آَلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (42))

لو كانوا فعلاً آلهة، لكانوا أرادوا أن يصلوا إلى ذي العرش ليحلوا محله، وينازعوه هذا العرش،

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)

(سورة الأنبياء: 22)

المَركب له رُبّان واحد، والطائرة لها رُبّان واحد، والثاني احتياط، أما الذي يقودها في الجو فشخص واحد، وفي الأرض واحد، فأي عمل، وأي دائرة، أو مدرسة، أو أي مجال للعمل لا بد له من قائد،

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)

هؤلاء الآلهة المزعومة، كلمة (لو)شيء افتراضي، لو أنها حقيقة آلهة لابتغت إلى ذي العرش سبيلا، أو لاتجهت إليه لتنازعه العرش، ولكان الخصام والقتال والمنازعة، والشيء الذي لا يعقل.

إذاً لا المعنى الأول، ولا المعنى الثاني وقع، العملية كلها افتراضية، لكنها مناقشة علمية لهؤلاء الذين يزعمون أن مع الله آلهة أخرى.

في الآية الماضية فاتني التعليق على فعل (صرّف)، لدينا في اللغة صرّف وصرَفَ، قطَعَ وقطّع، غَلَقَ وغلّق، كَثَرَ وكثّر، قطّع اللحم أي: قطعه قطعتين، أما قطّعها جعلها آلاف القطع، التشديد في الفعل الماضي يفيد التكثير، صرَفَ أي فيها أسلوبان، أما صرّف ففيها مئة أسلوب، فالفعل الثلاثي المضعف يفيد معنى التكثير والمبالغة، كسر الإناء قطعتين، أما كسّره سحقه تحت قدميه، كَسَرَ، وكسّر، وغلّقت الأبواب، غَلَق الباب، أما غلّقه أرتجه، وأحكم إغلاقه، فإذا استخدمت الفعل الماضي الثلاثي الذي عينه مشددة ففيه معنى المبالغة، ومعنى التكثير، ربنا قال: ولقد صرّفنا أي: أكثرنا من الأساليب البلاغية.

(قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آَلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (42) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً (43))

لذلك كلمة: (سبحان الله)تنزيه لذات الله عما لا يليق به، وكلما سمعت عن الله شيئاً لا يليق به فقل: سبحان الله، هو أعظم، وأرفع، وأجلّ، وأعظم من أن يكون كذلك، هذا هو التسبيح.

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً (43) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ)

وكأن السماوات عاقلة لأنها تسبّح، والعلماء لهم آراء متعددة في فهمها:

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ)

السماوات كلها، والأرض كلها،

(وَمَنْ فِيهِنَّ)

في السماوات والأرض، من الملائكة والإنس والجن،

(وَمَنْ فِيهِنّ)

المقصود بهن الملائكة والإنس والجن، السماوات السبع والأرضون السبع، ومن فيهن تسبح الله عز وجل، فيا أيها الإنسان، يا من خلق لك الكون من أجلك.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً)

(سورة البقرة: 29)

وخلق لكم ما في الأرض والسماوات والأرض، وسخر لكم ما في السماوات والأرض، الكون كله يسبح الله، وقد سخّر من أجلك.

وأنت أيها الإنسان المكرم، يا من سخّر لك الكون كيف تغفل عنه ؟ وأنت الغافل إلى متى ؟

أيا غافلاً تبدي الإساءة و الجهلا متى تشكر المولى على كل ما أولى

عليك أياديه الكرام و أنت لا تراها كأن العين عميـــاء أو حـولا

لأنت كمزكوم حوى المسك جيبـه و لكنه المحروم ما شمّه أصــلا

***

أتغفل عن ذكر الله ؟ وكل ما في الكون يسبحه ؟ لو أن رجلاً له أم وله عشرة إخوة، فكان يوم العيد تسعة إخوة له جاءوا أمهم مع الهدايا، ومع التعظيم والتبجيل والاحترام، وهو غائب عن هذا المكان، أيليق بك أيها الإنسان أن تكون الدابة أفضل عند الله منك ؟ وأن يكون الجماد أفضل عند الله منك ؟ وأن يكون النبات كذلك، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ، قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ))

(صحيح مسلم)

قال بعضهم: الحجر الأسود، يسلم عليّ وأسلم عليه، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَطَبَ يَسْتَنِدُ إِلَى جِذْعِ نَخْلَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا صُنِعَ الْمِنْبَرُ، وَاسْتَوَى عَلَيْهِ اضْطَرَبَتْ تِلْكَ السَّارِيَةُ كَحَنِينِ النَّاقَةِ، حَتَّى سَمِعَهَا أَهْلُ الْمَسْجِدِ، حَتَّى نَزَلَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاعْتَنَقَهَا فَسَكَتَتْ))

(النسائي)

جذع النخلة حنّ إليه، والحجر سلم عليه، وأنت لا تعرفه بعد.

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (69))

(سورة المؤمنون)

لذلك الإنسان موقفه يوم القيامة موقف الخزي والعار إذا كانت كل الخلائق تسبح الله لا تفتر عن تسبيحه، والإنسان الذي خلق الكون كله من أجله غافل عن الله عز وجل، لذلك:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175))

(سورة البقرة)

إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون علي مما ألقى، وإنه يعلم ما فيها من شدة العذاب، وتأتيه النار تلفح وجهه:

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواالْعَذَابَ)

(سورة النساء: 56)

(ذُقْ إِنّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49))

(سورة الدخان)

هذا ما تدعيه في الدنيا، ذق لفح جهنم، فلذلك:

(تُسَبّحُ لَهُ السّمَوَاتُ السّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنّ)

المعنى الأول: أن التسبيح حقيقي، وإن من شيء فضلاً عن الأرض وما فيها، والسماوات وما فيها، وإن من شيء، ما من شيء، إن حرف نفي، ومن لاستغراق كل شيء، لا يوجد شيء إلا يسبح الله هذا معنى، لكن ما من شيء أي: ما فاتك شيء واحد،

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلّا يُسَبّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

يسبحون بلغة لا تعرفونها، وبعض علماء التفسير قالوا: التسبيح هنا بأن صنعة هذا الشيء متقن، فإذا رأيتها تأملتها، وقلت: سبحان الله، هذا المعنى لا يفسر كل الآية، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، فلا بد أن هناك تسبيحاً حقيقياً لكل مخلوق خلقه الله عز وجل، ولكن مادية الإنسان وحجبه الكثيفة تحول بينه وبين أن يرى تسبيح من حوله، ولذلك عَنْ حَنْظَلَة قَالَ:

((كُنّا عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَوَعَظَنَا فَذَكّرَ النّارَ، قَالَ: ثُمّ جِئْتُ إِلَى الْبَيْتِ فَضَاحَكْتُ الصّبْيَانَ، وَلاعَبْتُ الْمَرْأَةَ، قَالَ: فَخَرَجْتُ فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا تَذْكُرُ فَلَقِينَا رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ نَافَقَ حَنْظَلَةُ، فَقَالَ: مَهْ، فَحَدّثْتُهُ بِالْحَدِيثِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا فَعَلَ، فَقَالَ: يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، وَلَوْ كَانَتْ تَكُونُ قُلُوبُكُمْ كَمَا تَكُونُ عِنْدَ الذّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ حَتّى تُسَلّمَ عَلَيْكُمْ فِي الطّرُقِ))

(صحيح مسلم)

كلما ارتقيت إلى الله عز وجل شفّت نفسك، فإذا شفت نفسك رأيت ما لا يراه الآخرون، وسمعت مالا يسمعون، ولذلك فهذه الحالة يسميها الصوفيون حالة الكشف، تنكشف لك الحقائق، ترى:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

***

ترى الله عز وجل، وترى عظمته في كل شيء،

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

(سورة الملك: 3)

أيّ شيء تقع عينك عليه تراه يسبح الله عز وجل:

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (44) وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً(45))

هذا القرآن الكريم لا يستطيع أن يصل إلى معانيه إلا من كان طاهر القلب من الشرك والنفاق، لأن الإنسان إذا تلبس بالمعصية كان القرآن في عمًى، كما قال الله عز وجل:

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً (82))

أي: عمىً عليهم.

قد يقرأ الإنسان المعرض القرآن فيفهمه فهماً معكوساً، وقد لا يتأثر به، فالقرآن يحتاج إلى نفس طاهرة مخلصة من كل شرك، ومن كل دنس، ومن كل معصية.

(وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً (45) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً(46))

الله عز وجل إذا رأى من العبد عبادة وإنابة وتوبة وإخلاصاً فتح قلبه لذكره، وشرح الله صدره للإسلام، أما إذا رأى في قلبه شهوة، وفي سلوكه نفاقاً، وفي عمله رياءً، وأن له مطالب أرضية، وأن الدنيا أكبر همه، ومبلغ علمه، كان بعيداً عن كتاب الله بعد الأرض عن السماء، فالأصل أن تكون طالب حق، وأن تكون صادقاً ومخلصاً وطاهراً، وعندئذٍ تتفتح مشاعرك، وينفتح قلبك لهذه المعاني التي أنزلها الله عز وجل.

فسبحان الله ! في كتاب الله معانٍ لا تنتهي، وكلما ازددت قرباً من الله عز وجل كُشفت لك المعاني، فقد تقرأ سورة، وتقول: والله كأنني أقرها أول مرة، وكأن الله عز وجل سمح لك هذه المرة أن يكشف لك عن بعض المعاني التي لم تكن مكشوفة لك من قبل.

(وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً (45))

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ)

(سورة هود: 28)

هذه الرحمة التي آتاها الله أنبياءه وأحبابه عميت على بعض الناس، ولذلك فالمؤمن في نفسه شعور بالغنى بأنه عرف الله عز وجل، فهل يرضيه من الدنيا كل شيء ؟ لكن أهل الدنيا لا ترضيهم إلا الدنيا، فإذا زالت عنهم أو نقصت أو قلت انهارت نفوسهم وتمزقوا.

(وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً (45) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً)

كأن على القلب سداً، قال تعالى:

(وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9))

(سورة يس)

والنبي عليه الصلاة والسلام كان مع صاحبه الصدّيق في غار حراء، وقعت عين بعض المشركين على سيدنا الصديق فقال: لقد رأوني، قال: يا أبا بكر ألم تسمع قوله تعالى:

(وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (198))

(سورة الأعراف)

(وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً)

(سورة يس: 9)

وفي السيرة النبوية قصص كثيرة، كيف خرج النبي يوم الهجرة من بيته، فالله جعل على عيونهم سداً لئلا يروه.

(وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً (46))

إذا عزوت إلى الله الأمور، فإذا قلت: لا إله إلا الله، ولا معز إلا الله، ولا مذل إلا الله، ولا معطي إلا الله، ولا مانع إلا الله، بيده الخلق والأمر، إليه يرجع الأمر كله، هو كل شيء،

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

***

إذا فعلت ذلك،

(وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً (46))

أما إذا أشركت، وقلت: زيد وعبيد، وفلان وعلان، وفلان بيده هذا، وفلان بيده هذا، وهذه تحل عند هذا، وهذه مفتاحها هذا، إذاً بدأ الشرك ينساب من شفتيك، وتجمع الناس حولك، وأصغوا إليك، وتعاطفوا معك، فإذا ذكرت الله وحده.

(وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً (46))

لذلك إذا أردت أن ينفض عنك من لا ترجو منه هدى فاذكر الله وحده، هذا الذي في قلبه شرك ونفاق لا يحتمل أن يذكر الله وحده.

(وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً (46) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً (47))

في ندواتهم وخلواتهم، ولقاءاتهم وفي سهراتهم، وفي نزهاتهم، إذا جاء ذكر المؤمنين وذكر النبي الكريم عليه الصلاة والسلام يقولون: هذا رجل مسحور.

(تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً (47))

تأتيه الشياطين، ويهذي، ويقول كلاماً غير معقول، قالوا: مجنون، وساحر، وشاعر، وكاهن، اتهموه بالكهانة والسحر والشعر.. والله سبحانه وتعالى برّأه.

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2))

(سورة القلم)

وأحياناً يكون للإنسان أقرباء من أهل الدنيا، رأوه مستقيماً ورعاً حريصاً على دينه يقول: هذه حرام، وهذه حرام، وهذه لا تجوز، وإني أخاف الله رب العالمين، فقد يسخرون منه، وقد ينعتونه ببعض النعوت، بالجمود، والقوقعة، والتزمت، وأنه لا يعرف الحياة، وأنه جاهل، فليفرح بهذه التهم، فهذه أوسمة شرف ! ولا تسمع لإرضائهم، فإرضاؤهم لا يجدي.

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ)

النبي الكريم عليه الصلاة والسلام دخل إلى مجالسهم، وتلا عليهم بعض الآيات من القرآن، فلما خرج تحاوروا، وتناقشوا، واختلفوا، واتهموه بأنه ساحر، وأنه مجنون، وأنه شاعر، وأنه كاهن:

(إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً (47))

هذا مسحور.

(انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (48))

حينما تناول أحد المشركين عظماً، وفتّته قال:

(قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78))

(سورة يس)

ويقول هذا بكل فلسفة، أمسك بالعظم وفتّته.

(قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79))

(سورة يس)

(انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (48) وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (49) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً (50) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ)

لو أنكم كالجبال تعادون إلى ما كنتم عليه.

(فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ)

بمعنى: يهزون رؤوسهم استهزاءً، وأحياناً تتكلم مع رجل فتعطيه حجة دامغة، أنت أفحمته، لكنه غير مقتنع داخلياً، مصرّ على شهوته، فماذا يفعل ؟ يهز رأسه استهزاءً.

(فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً (51) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً(52))

ولقد قال العلماء: حينما يُدعى الناس ليوم البعث والنشور يقال:

(وَآَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10))

(سورة يونس)

وحينما يبعثون على حمد الله، وحينما ينتهي الحساب على حمد الله، لأن الله سبحانه وتعالى يحمد على كل شيء.

(وَآَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10))

أيّ شيء ساقه الله لك في الدنيا حينما تكشف لك الحقيقة، ويكشف الغطاء تقول: الحمد لله، لا تملك إلا هذه الكلمة، لأن الله عز وجل حكمته ورحمته مطلقة، وعدله وكماله مطلق، ولذلك إذا انكشف لك الحق لا تملك إلا أن تقول: الحمد لله، إذا دخل إنسان غرفة عمليات، وبقي خمس ساعات، ثم رأى الحصاة الكبيرة التي انتزعت من كليته، والعملية نجحت رغم الآلام، ورغم المتاعب والمخدر، فلا يملك إلا أن يقول للطبيب: لك الشكر، فالإنسان يوم القيامة حينما يرى الحقيقة لا يملك إلا هذه الكلمة، ولو أن الله عز وجل ساقه إليها.

(وَآَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (07-13): تفسير الآيات 53 – 56
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-08-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة الإسراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً(53))

أولاً: الله سبحانه وتعالى أضاف العباد إلى ذاته، هذه إضافة تشريف، كأن تقول لرجل أمامك يعلم أن هذا ابنك: هذا ابني ! تريد من هذا أن تشرّف هذا الابن، هذا ابني، وأنا أبوه، الله سبحانه وتعالى أضاف العباد إليه في آيات كثيرة:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

(سورة الزمر: 53)

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الإسراء)

حيثما وردت كلمة (عباد)مضافة إلى الله عز وجل فهذه الإضافة إضافة تشريف ! فالله سبحانه وتعالى شرفنا حينما أضافنا إلى ذلك قال:

(وَقُلْ لِعِبَادِي)

هذا أمر بالنسخ الدقيق.

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

العلماء في تفسير هذه الآية قد ذهبوا مذاهب شتّى.

المعنى الأول: أي: قل لهم أن يقولوا كلمة التوحيد، ليقولوا الحق إذا تحدثوا، لا يتحدثوا بالباطل، لا تقل كلاماً ليس صحيحاً، لست مقتنعاً به، لا ينطبق على الحقيقة، لا ينطبق على الواقع، مختل لا يقف على قدميه، هذا الكلام غير الصحيح، الكلام الباطل، الكلام الذي لا جدوى منه، الكلام الذي لا تعتقد أنت صحته، تقوله لماذا ؟ إرضاءً لزيد أو عبيد ؟ وماذا ينفعك زيد أو عبيد ؟

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

إذا تكلمت في موضوع ما فتكلم الحقيقة، اذكر حكم الله عز وجل، لا تجار أهل الفساد، لا تمار أهل الباطل، لا تُمْلِ معهم، لا تداهنهم، لا تقل كما يقولون، وأنت غير مقتنع بقولهم.

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

الربا حرام، قلها ولا تخف، أي شيء حرّمه الله عز وجل اذكر أنه حرام، وأي شيء أحلّه الله عز وجل بيّن أنه حلال، وإذا اختلطت الأمور فوحّد، أرجع الأمور إلى الله عز وجل، اجعل الأفعال إلى الله عز وجل، بيّن معنى قوله تعالى:

(أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد: 19)

اعلم أنه لا مسير في الكون إلا الله، لا معطي إلا الله، لا مانع إلا الله، لا رافع إلا الله، لا خافض إلا الله، لا معزّ إلا الله، لا مذلّ إلا الله، قل التي هي أحسن، لو أن الناس تكلموا في البيوت، وفي النزهات، وفي السهرات، وفي الندوات تكلموا الحقيقة، تكلموا الذي هو أحسن، لتولدت قناعات عند الأبناء ! وعند بعضهم بعضاً، هذه القناعات لا تلبس أن تحملهم على الحق، على السير في طريق الخير.

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

الحسن أن تقول: إن الطبيب الفلاني هو الذي شفا ابني، أما الأحسن فأن تقول: إن الله سبحانه وتعالى هو الذي ألهم الطبيب ألهمه تشخيص الداء، وألهمه الدواء الناجع، فوفق الطبيب إلى معالجة ابني وشفائه؟ هذا هو الأحسن.

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

قال بعض علماء التفسير: الأحسن أن توحد، الأحسن أن تقول كلمة التوحيد، الأحسن ألا تشرك، ألا تعزو الأمور إلى أشخاص ليس بيدهم شيء، لا يملكون ضراً ولا نفعاً، ولا حياة ولا موتاً ولا نشوراً، ولا يدفعون عن أنفسهم ضراً، فكيف بمن يعتقد أنهم يدفعون عن غيرهم ؟

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

تكلم بالحق، لا تنطق بالباطل، لا تجامل ولا تمارِ، لا تتملق، ولا تقل كلاماً لست مقتنعاً به، لأنك إذا قلت كلاماً لست مقتنعاً به، وسمعه منك من يثق بك أدخلت الباطل إلى نفسه وأنت لا تشعر ! إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق ! لا تقل للفاسق: أنت إنسان مهذب، لطيف، مرن، ذكي، لو سمع الناس منك هذا الكلام، وأنت تماري رجلاً فاسقاً لصَدّقوا كلامك، ولاعتقدوا أنه على حق، وأنه قدوة حسنة، فقل التي هي أحسن إذا تحدثت في أي موضوع، لا تقل إلا الذي تقتنع به، أو فاسكت، أما أن تنطق بالباطل فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ))

(الترمذي)

النبي عليه الصلاة والسلام يعدّ سكوته سنّة، لأنه لا يمكن أن يقرّ على باطل ! فلو سكت لكان الفعل الذي فعله صحابيٌ أمامه، أو لكان القول الذي قاله رجلٌ أمامه حقاً، لأنه سكت، وسكوته إقرار، فإذا عَوّدت نفسك أن تقول التي هي أحسن في أي موضوع فهو أحسن.

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

هذا هو المعنى الأول.

المعنى الثاني: في المجادلة، في المناقشة لا تقل كلاماً قاسياً، ليس الهدف أن تنتصر على هذا الإنسان، الهدف أن تأخذ بيده، لا تجرحه، لا تحقره، لا تُسَفِّه رأيه، لا تستعلِ عليه، تواضع لمن تعلم، إذا ناقشت أو جادلت فلا تقل: هذا الكلام كذب، إنك بهذا جرحت خصمك وحطمته ! قل له: تعال يا أخي لنفكر معاً في هذا الذي قلته، لنبحث له عن برهان، عن دليل، أين الدليل ؟ ألا تعتقد معي أن هذه الفكرة أصوب من هذه ؟ جادلهم بالتي هي أحسن، إذا أمرت بالمعروف فليكن أمرك بمعروف.

المعنى الأول: قل كلمة التوحيد، ولا تخش في الله لومة لائم.

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب(39))

المعنى الثاني: إذا دعوت إلى الله، إذا جادلت أهل الكفر، جادلت أهل الشرك لا تجرحهم، ولا تحقرهم، ولا تسفههم، ولا تسبهم، فيسبّوا الله عدواً بغير حق ! إذا أردت أن تقنع الناس فاسلك معهم أي سبيل إلا المجادلة، إنها لا تأتي بخير.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَهُوَ بَاطِلٌ بُنِيَ لَهُ قَصْرٌ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ، بُنِيَ لَهُ فِي وَسَطِهَا، وَمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ بُنِيَ لَهُ فِي أَعْلاهَا))

(سنن ابن ماجه)

قل التي هي أحسن، الكلمة القاسية، الكلمة الجافية، الكلمة الجارحة، إنها توقع بين الناس، إنها تزيد خصمك تشنجاً، تزيده تمسكاً بباطله، تحمله على أن يعاديك، تحمله على أن يفكر في إيذائك، قل التي هي أحسن، الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم قال:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

(سورة النحل: 125)

وأحسن اسم تفضيل، لو أن هناك مئة جواب كلها حسنة ابحث عن الأحسن، لو أن هناك مئة جواب تنطوي كلها تحت عنوان جواب حسن، يجب أن تبحث عن الأحسن ! عن الكلمة المؤنسة، الكلمة اللطيفة، الكلمة التي لا تُفَرِّق، الكلمة التي تُجَمِّع، الكلمة التي تُقرِّب، الكلمة التي تُلَيِّن القلب، هكذا المؤمن، كان عليه الصلاة والسلام ليّن العريكة، يألف ويؤلف، لم يواجه أحدا بما يكره، كان إذا أراد

توجيه الناس صعد المنبر قائلاً: مالي أرى قوماً يفعلون كذا وكذا ؟ يكون الذي يريد أن يعظه واحداً، مالي أرى أناساً يفعلون كذا وكذا ؟ ما بال قوم يفعلون كذا وكذا ؟ لئلا يواجه الإنسان بما يكره، إذاً بالتي هي أحسن على وزن أفعل، وأفعل اسم تفضيل، واسم التفضيل يعني أن شيئين اشتركا في صفة واحدة، لكن الأول أكثر اتصافاً بهذه الصفة ! فقد تقول كلمة حسنة، وقد تقول كلمة أحسن، فالله عز وجل يأمرك بأن تقول التي هي أحسن.

كم من طلاق، وكم من تشريد أطفال، وكم من خراب أسرة سببها كلمة قاسية من الزوج، أو كلمة قاسية من الزوجة، وكم من شركة فيها الخير العليم، وفيها الرزق الوفير انفصمت لكلمة نابية قالها شريك لشريكه، وكم من مشروع كان يرجى له النجاح تراجع وتقهقر لكلمة قاسية قالها شريك مع شريك، وكم من شيء نعلق عليه الآمال تحطم بكلمة تفوّه بها إنسان بغير حق، لذلك:

كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقائه الشجعان

***

قبل أن تقول كلمة فكِّر كثيراً، ابحث عن الكلمة الأحسن،

(وَقُلْ لِعِبَادِي)

إن كنا عباده فنحن مأمورون بهذا الأمر، مأمورون أن نقول الكلمة الأحسن.

المعنى الثالث: أنه قل الكلمة الأحسن في أية علاقة مع الآخرين، إذا كنت تضبط أمراً تدير دائرة أو مدرسة أو معملاً، في علاقتك مع من هم دونك، مع من هم فوقك، قل الكلمة الأحسن، فقد يكون من يعمل معك مخلصاً، وقد يبذل كل جهده، فإذا سمع منك كلمة قاسية فقد حطمته، النبي عليه الصلاة والسلام كان يصلي بأصحابه سمع رجلاً يركض في المسجد ليلحق الركعة مع رسول الله وقد أحدث ضجيجاً وجلبة، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّهُ انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ رَاكِعٌ فَرَكَعَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الصَّفِّ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ:

((زَادَكَ اللَّهُ حِرْصًا وَلا تَعُدْ))

(صحيح البخاري)

انتقى له أجمل كلمة، عدّ هذا حرصاً منه على الصلاة،

((زَادَكَ اللَّهُ حِرْصًا وَلا تَعُدْ))

إذاً المعنى الأول: الأحسن كلمة التوحيد، والأحسن في المجادلة، والأحسن في أية علاقة، قال تعالى:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

(سورة الأنفال: 1)

لا يمكن أن تصلح ذات بينك، أي العلاقة فيما بينك وبين غيرك، أو العلاقة فيما بين اثنين إلا بالكلمة الأحسن، فلو كنت قاسياً، لو وبخت، لو قرّعت، لو حقرت، لو استهزأت، لو شمتّ، لو استعليت لجرحت.

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا، تَعْنِي قَصِيرَةً ؟ فَقَالَ: لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ قَالَتْ: وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا، فَقَالَ: مَا أُحِبُّ أَنِّي حَكَيْتُ إِنْسَانًا، وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا))

(سنن أبي داود)

قد يقول الأب لأحد أولاده أمام بقية الأولاد كلمة قاسية فيَتَعَقّد الابن، قد تصف الأم ابنتها بوصف فيه نقد لاذع تُعَقِّدَهَا، قل الكلمة الحسنة، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ، هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ: تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ))

(الترمذي)

فساد ذات البين، التَفَتُت تَفَتُت الأسرة، تفتت العائلة، تفتت الحي، تفتت القرية، تفتت المدينة، الكلمة القاسية، والنقد اللاذع، والاستهزاء والسخرية، والاستعلاء، والاحتقار، هذا كله يفتت المجتمع ! يصبح المجتمع أفراداً متفرقين، متعادين متباغضين متدابرين.

المعنى الرابع: قال تعالى:

(وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ)

(سورة الأنعام: 108)

إياك أن تناقش إنساناً بعيداً عن الدين، وتقسو عليه، لا يجد ملجأً إلا أن يسبّ دينك ! ويسبّ مقدساتك، عندئذٍ توقعه في حرج كبير، قل له الكلمة الحسنة، لا تجادل من لا خير منه.

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9))

(سورة الأعلى)

بعضهم قال:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

أن تأمر بالمعروف، وأن تنهى عن المنكر، أن تأمر بما أمر الله، وأن تنهى عما نهى عنه الله، هذا معنى قوله تعالى:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

بعضهم قال: هذا أمر موجه لخاصة المؤمنين ! كما في الحديث عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ قَالَ:

((صَلَّى بِنَا عَمَّارٌ صَلاةً، فَأَوْجَزَ فِيهَا ! فَأَنْكَرُوا ذَلِكَ، فَقَالَ: أَلَمْ أُتِمَّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: أَمَا إِنِّي قَدْ دَعَوْتُ فِيهِمَا بِدُعَاءٍ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو بِهِ، اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي، أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَكَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَالْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَمِنْ فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مَهْدِيِّينَ))

(مسند الإمام أحمد)

أن تسمو على الخصومات، أن ترد على الإساءة بالإحسان، أن ترد على التشهير بالصمت، أن ترد على النقد بالمدح، أن ترد على القطيعة بالوصل، أن ترد على الظلم بالإنصاف، هذه أخلاق الأنبياء ! لو قلدتهم، لو جعلتهم قدوة لك، أحبك عدوك قبل أن يحبك الصديق ! والفضل ما شهدت به الأعداء.

المعنى الأول: كلمة التوحيد.

المعنى الثاني: في المجادلة.

المعنى الثالث: في أية علاقة اجتماعية.

المعنى الرابع: في مجادلة خصوم الدين.

المعنى الخامس: في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

المعنى السادس: أمر موجه إلى خاصة المؤمنين.

هذه بعض المعاني المستفادة من قوله تعالى:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً(53))

ما وجدت تشبيهاً موضحاً لهذه الآية كالتشبيه التالي: لو أنك وضعت بينك وبين أخيك شيئاً متفجراً يأتي الشيطان فيشعل هذه المادة، فيحدث انفجارا فيحطم الطرفين، الشيطان.

(إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ)

متى يستطيع الشيطان أن ينزغ بينهم ؟ لأن أحدهم قال هذه الكلمة القاسية ! فكانت كشيء متفجر، لو أنك قلت لأخيك: إنك لا تفهم، إنك أحمق، إنك كذّاب، هذه الكلمات كأنها ألغام ! يأتي الشيطان فيشعلها، فإذا أشعلها تفجرت وحطمت الطرفين.

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ)

يفرق بينهم، يوقع بينهم العداوة والبغضاء، على مستوى البيت لو أنك كلما وجدت من زوجتك خطأً قسوت عليها في الكلام لكانت هذه القسوة لغماً يأتي الشيطان فيفجره، لذلك ربّ كلمة قاسية فرّقت بين

زوجين ! وإذا فرّقت بين زوجين ضيّعت الأولاد، وشرّدوا، وليس اليتيم من مات أبوه، بل اليتيم من لم يلقى من المجتمع العناية الكافية !

(إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ)

يتمنى الشيطان أن يفسد العلاقات بين الأخوين، والشريكين، والزوجين، وبين الأب وابنه، بين الأم وابنها، لذلك البعيد عن الله عز وجل بدفع من الشيطان ينطق بالكلمة القاسية الجافية، فيأتي الشيطان من الطرف الثاني ! انظر ماذا قال لك ابنك ! أهذا ابن ؟ فيطرده شر طرداً ! يلتجئ هذا الابن إلى رفقاء السوء، فتفسد أخلاقه، يقع في بعض الجرائم، قد يحكم عليه بالإعدام، أساس هذه المشكلات كلها أن الابن بوسوسة من الشيطان تفوّه بكلمة قاسية مع الأب، طرده الأب فتسلمه الأشرار، دلّوه على طريق الجريمة، اقترف جريمة، حُوكِم وأُعدِم أساسها كلمة قالها، لذلك عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ))

(مسند الإمام أحمد)

وفي حديث آخر عَنْ مُعَاذٍ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إِلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))

(مسند الإمام أحمد)

أربعة أخماس المعاصي ترتكب به: الغيبة، والنميمة، والكذب، والإفك، والبهتان، وقول الزور، وشهادة الزور، والإيقاع بين الناس، والاستخفاف بالناس، والاستعلاء عليهم، والسخرية منهم.

((وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إِلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))

فمن عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته.

من أساء الظن بأخيه فكأنما أساء الظن بربه.

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

ليقولوا كلمة التوحيد، وليحسنوا المجادلة، وليحسنوا القول في كل علاقة اجتماعية، وليحسنوا مجادلة أهل الكفر والفجور، وليأمروا بالمعروف، ولينهوا عن المنكر، وليرتفعوا فوق الضغينة، والحقد، والسباب، والشتائم، وردّ الصاع صاعين، هذا كله ليس من أخلاق المؤمن، سيدنا عمر رضي الله عن عمر كان يمشي في المسجد ليلاً، ويبدو أن المسجد كان مظلماً في الليل يروى أنه داس على أحد المصلين على طرف قدمه تألم هذا المصلي قال: أأعمى أنت ؟ قال: لا، فلما قيل لهذا الأمير العظيم أمير

المؤمنين كيف تسكت على هذا الكلام ؟ قال: سألني فأجبته ! أأعمى أنت ؟ قال: لا، وانتهى الأمر، بهذه الكلمة انطفأ الشر ! وهذا توجيه نبوي، إذا غضبت فاسكت، لأن أية كلمة تقولها وأنت غضبان ربما تؤذي بها كثيراً، ربما تفسد علاقات، ربما تسبب خراب أسرة، ربما تفسد بين شريكين، إذا غضبت فاسكت، إذا غضبت فتوضأ، إذا غضبت فاغتسل، إذا غضبت فاخرج من البيت، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَوْصِنِي قَالَ: لَا تَغْضَبْ، فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: لَا تَغْضَبْ))

(البخاري)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ))

(البخاري)

يغضب فيطلق ويقف على أبواب المفتين، جمع للمفتي، يستفتيهم: ما وضع زوجتي ؟ أتجوز لي ؟ أعلاقتي معها صحيحة ؟ كنت في غنى عن هذا لو أنك لم تغضب، لا تغضب، هكذا يقول عليه الصلاة والسلام

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً(53))

ليست عداوته خافية، ليست عداوته ظنية، عداوته مبينة، عدواً مبيناً.

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ)

(سورة الإسراء)

الرحمة نوعان: رحمة مادية، ورحمة معنوية، فالرحمة المادية أن تكون مرتاحاً في صحتك، الأجهزة على اختلاف أنواعها تعمل بانتظام، هذه رحمة ! أن تجوع، وتجد الطعام الذي يسدّ جوعتك، هذه رحمة، أن تجد الماء الذي يروي ظمأك، هذه رحمة، أن تجد المأوى الذي يؤويك، هذه رحمة، أن تجد الزوجة التي تسكن إليها، هذه رحمة، أن تجد الابن البّار، هذه رحمة، أن تجد زوج البنت الصغرى المخلصة المهذبة الديّنة، هذه رحمة، أن يكون جارك لطيفاً، هذه رحمة، هذه كلها رحمة، كل شيء ترتاح له رحمة، وأن يتجلى الله على قلبك هذه رحمة، وأن يقذف الله في قلبك النور، هذه رحمة، هناك رحمة مادية، وهناك رحمة معنوية، أو رحمة نفسية لا يعرفها إلا من ذاقها ! الرحمة المادية قد يشترك فيها الناس جميعاً، مؤمنهم وغير مؤمنهم، ولكن الرحمة الروحية هذه خاصة بالمؤمن، إن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من عبيده، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأتقيائه المؤمنين ! هذه الرحمة، يعطيها الله عز وجل، يعطيها مكافأة على استقامة الرجل، ويعطيها تشجيعاً له على أن يجلبه إلى طريق الإيمان، يعطيها استحقاقاً، أو تشجيعاً، والرحمة المادية قد يعطيها لأهل الكفر استدراجاً !

(قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (30))

(سورة إبراهيم)

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44))

(سورة الأنعام)

فهذه الرحمة الشيء الذي ترتاح له، صحتك، وزوجتك، وأولادك، وعملك، ودخلك، وبيتك، ومركبتك، إن بعثت في نفسك الراحة فهذه رحمة بشكل أو بآخر، لكنها رحمة مادية، قد تكون استدراجاً، وقد تكون تقديراً ومكافأةً، وقد تكون تشجيعاً وإكراماً، على كل هناك علم إلهي يحدد هذه الرحمة، والدليل قوله تعالى:

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ)

يرحمكم لعلمه بكم، لعلمه أن هذه الرحمة تناسبكم، لعلها تحملكم على التوبة، لعل هذه الرحمة تكون مكافأة لكم على حسن صنيعكم، لعلها استدراج، ولعلها مكافأة، ولعلها تشجيع، أما رحمة الله الروحية إذا تجلى على قلبك، وغمرك بأنواره، فهذه رحمة يختصّ بها المؤمنون من دون غيرهم، على كل ربكم أعلم بكم، لعلمه بكم يرحمكم، رحمة مادية أو تشجيعية أو تقديرية أو استدراجاً، أو رحمة روحية تنسون بها كل الدنيا !

لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف !

(إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ)

كل شيء يخالف طبيعة الجسم، أو طبيعة النفس، هو عذاب، لو أن جهازاً من أجهزتك تعطّل لكان عذاباً لا يطاق، فهناك الأمراض، وهناك الهموم، وهناك الأحزان، هناك المقلقات، هناك أمراض نفسية، وأمراض جسمية، وهناك ضيق ذات اليد، هناك نقص في الثمرات في الأولاد، هناك زواج سيئ، هناك زوجة مشاكسة، هناك ولد عاق، هناك بيت ضيق، هناك مركبة صعبة، أنواع العذاب لا تعد ولا تحصى، وكلها أدوية في صيدلية ربنا جلّ وعلى، أدوية ! كل أنواع العذاب المادي والمعنوي، الصغير والكبير، النفسي، هذه كلها أدوية.

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147))

(سورة الأنعام)

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ)

لعلمه بكم يرحمكم أو يعذبكم، إذاً رحمته وعذابه مبنيان على علم الله بكم، إن الرحمة تناسبكم، أو إن العذاب يردعكم، لذلك قال بعض العلماء: هناك مصيبة قصم، وهناك مصيبة ردع، وهناك مصيبة دفع، وهناك مصيبة رفع، وهناك مصيبة كسب، فإذا كان الإنسان ميؤوسا من صلاحه تأتيه مصيبة تقصمه، وتهلكه، وتسحقه، وانتهى الأمر ! لا خير فيه، لا خير يرجى منه، هذه مصيبة القصم، وإن كان هناك

معصية وعناد ومجاهرة وفجور تأتي مصيبة الردع، الرجل الشديد العتيد لا تقوى ركبتاه على حمله ! يبكي كالأطفال طبعاً عند الله أدوية المادة الفعالة فيها كثيفة جداً !

(فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً (17))

(سورة الجن)

هناك دواء ثمنه مئتان وخمسون ليرة، ودواء خمسمئة ليرة، دواء ألف ليرة، قال لي أحدهم: أخذ دواء درجته مليون ! يسلكه عذاباً صعداً، هذه مصيبة الردع، مرض خطير، كان يزني، جاء المرض الخطير فحمله على التوبة، هذه مصيبة الردع، أما مصيبة الدفع فهذه للمؤمنين.

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156))

(سورة البقرة)

إذا أحب الله عبده ابتلاه ! فإن صبر اجتباه، فإن شكر اقتناه، إذا أحب الله عبده عجّل له بالعقوبة ! إذا أحب الله عبده عاتبه في منامه ! هذه مصيبة الدفع، مؤمن مقصر يا رب، ارحمه، قال: يا عبدي كيف أرحمه مما أنا به أرحمه ؟ وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن، وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده، أو إقتارا في رزقه، أو مصيبة في ماله، أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه ! هذه مصيبة الدفع، مستقيم لكنه مقصر، يدفعه نحو الأمام، يخوفه، تلوح له مصيبة يلجأ إلى الله عز وجل ارتفع، هذه مصيبة الدفع، فإذا كان مستقيماً وذا همة عالية إذا جاءته مصيبة رفعت مرتبته عند الله عز وجل ! عَنْ سَعْدٍ قَالَ:

((قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً ؟ قَالَ: الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ، فَالْأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ))

(الترمذي)

أما الأنبياء عليهم صلوات الله فالمصائب التي تصيبهم من أجل كشف حقيقتهم في أنفسهم من الكمال الذي يسمو على كمال البشر، حيث إن هذا الكمال لا يظهر للناس إلا في ظروف صعبة، لذلك يذهب النبي عليه الصلاة والسلام مشياً على قدميه إلى الطائف، وكلمة مشياً على قدميه لا يعرفها إلا من زار الأماكن المقدسة، ورأى فيها شدة الحر، وماذا تعني كلمة مشياً على قدميه من مكة إلى الطائف ! ليصل إليها، وليردّه أهل الطائف شرّ ردّ، ليستخفوا برسالته، ليؤذوه، يأتي سيدنا جبريل يقول: يا محمد، أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك، لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين.

قالَ عَبْدُ اللّهِ:

((كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، فَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ))

(صحيح البخاري)

لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحد الله ! هذه مصيبة الكشف، وهناك مصيبة الرفع، وهناك مصيبة الدفع، وهناك مصيبة الردع، وهناك مصيبة القصم، لذلك الأدب الإسلامي هو: أنه إذا أصابتك مصيبة فاتهم نفسك قل: لعلي فعلت معصية، لعلي قصرت، لعلي أكلت مالاً حراماً، وإذا أصابت أخاك مصيبة فأحسن الظن به، قل هذه مصيبة ترقية، وهذه مصيبة رفع، وهذه مصيبة رفع درجاته عند الله سبحانه وتعالى، استعمل هذه القاعدة، إن ألمت بك مصيبة فاتهم نفسك، وإن ألمت المصيبة بأخيك فأحسن الظن به، إذاً:

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ)

رحمته وفق علمه بكم، علمه بما يناسبكم، وعذابه وفق علمه بما يناسبكم، إنه حكيم، ومعنى حكيم، أن الشيء الذي وقع لا بد من أن يقع، ولو لم يقع لكان نقصاً في كمال الله، ونقصاً في علمه، ونقصاً في رحمته، ونقصاً في حكمته، الشيء الذي وقع لا بد من أن يقع، لذلك إذا كشف الغطاء اخترتم الواقع، لذلك عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

(مسند الإمام أحمد)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((... احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

(مسلم)

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (54))

أنتم مخيرون:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (54))

لست مكلفاً أن تحملهم بالجبر والقهر على الإيمان، أنت منذر ومبشر ورسول وبلغ.. هم مخيرون،

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص: 56)

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة: 272)

إذاً أنتم مخيرون، الآية دقيقة جداً، أنتم مخيرون وفق اختياركم، والله يعلم اختياركم، ويعلم نواياكم، ويعلم وجهتكم، إذاً يرحمكم أو يعذبكم، لحكة بالغة هي من حكمة الله عز وجل، آية دقيقة جداً جمعت بعض العقائد:

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ)

أعلم اسم تفضيل، ليس في الأرض جهة تعلم حقيقة الإنسان كعلم الله عز وجل ! أعلم بكم.

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (54))

إن أنت إلا نذير، وما عليك إلا البلاغ المبين.

(وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ)

علم الله عز وجل لا يستطيع مخلوق أن يحيط به، هل يستطيع موظف بسيط في كلية الطب أن يعرف مستويات الأطباء ؟ وأيهم اكثر علماً ؟ وأيهم أكثر مهارة في الجراحة ؟ لا يستطيع هذا، فكيف يستطيع هذا الموظف البسيط أن يفرق بين أربعة جراحين في القلب في العالم ؟ وأيهما أكثر مهارة ؟ من يستطيع أن يقيم الصحابة إلا أن يكون فوقهم، لذلك نحن كوننا مؤمنين إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، لسنا جميعاً مؤهلين أن نميز بينهم، ولا أن نقيمهم، ولا أن نقول: هذا أفضل من هذا، هذا كلام مرفوض، نحن جميعاً دونهم، إذاً أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم، إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيبه، إذاً الله عز وجل قال:

(وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ)

هؤلاء الأنبياء الذين وصلوا جميعاً إلى مرتبة النبوة، وهذه المرتبة تعني عدم الانقطاع عن الله، والاتصال الدائم، نحن معاشر الأنبياء، تنام أعيننا، ولا تنام قلوبنا، ومع ذلك الله عز وجل فضل بعضهم على بعض، لعلمه غير المتناهي بهم، مثلاً الله سبحانه وتعالى خاطب بعض الأنبياء بأسمائهم !

(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى)

(سورة مريم: 7)

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ)

(سورة المائدة: 110)

أما نبينا عليه الصلاة والسلام فلم يخاطب إلا بـ: يا أيها النبي، ويا أيها الرسول، جاء اسمه في القرآن على صيغة الخبر:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ)

(سورة الفتح: 29)

أما الخطاب فلم يخاطب إلا بـ: يا أيها النبي، ويا أيها الرسول،

خفضت كل مقام بالإضافة إذ نوديت بالرفع مثل المفرد العلم

***

(وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً (55) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً (56))

هذه دعوة إلى التوحيد، هؤلاء الذين تدعون من دون الله، أصناماً كانوا، أو أشخاصاً، لا يستطيعون كشف الضر عنكم، ولا تحويله منكم إلى غيركم، وكفى بهذا ضعفاً وعبودية لله عز وجل

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (08-13): تفسير الآيات 56 – 65
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-09-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة الإسراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً (56))

الله سبحانه وتعالى يملك كشف الضر عن البشر وتحويله، لكن الذين يدعون من دونه لا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلَهُ ! إذاً ينبغي أن يكون الإله قادراً على أن يزيل الضر، ينبغي أن يكون الإله سميعاً بصيراً، بيده كل شيء، هذا هو مقام الألوهية، فإذا اتخذ الإنسان من دون الله أناساً عقد عليه آمالهم، وجعلهم قبلته، وأخلص لهم، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، يكون قد غامر، وقامر بسعادته في الدنيا والآخرة !

(قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً (56))

ربنا عز وجل قال متحدثاً على لسان سيدنا إبراهيم:

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80))

(سورة الشعراء)

هل من جهة على وجه الأرض تستطيع أن توقف نمو الخلايا العشوائي ؟ هل من جهة على وجه الأرض تستطيع أن تصل إلى القلب فتصلح الخلل ؟ الله على كل شيء قدير ! لذلك حينما يتجه الإنسان إلى غير الله يكون قد قامر بسعادته في الدنيا والآخرة، لأن هذا الذي يتجه إليه الإنسان ليس أهلاً أن تطيعه وتعصي الله، إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله !

(أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً (57))

هذه الآية دقيقة:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ)

بقي هؤلاء الذين يُدعَون من دون الله، هؤلاء الذين يُعبدون من دون الله، هؤلاء الذين اتخذوا آلهة من دون الله، كسيدنا عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وكسيدنا عزير:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ)

(سورة التوبة)

وكالملائكة التي تُعبد من دون الله، هؤلاء جميعاً الذين يُعبدون من دون الله أولئك الذين يدعون هم أنفسهم، سيدنا المسيح وعزير والملائكة هم أنفسهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة ! هم يعبدون الله، إن كنتم تعبدونهم على أنهم آلهة هم يعبدون الله، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه،

(يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ)

كلما اشتد قرب الإنسان من الله اشتد إقباله عليه، ابتغى إليه الوسيلة، أيهم أقرب من هؤلاء يبتغون إلى ربهم الوسيلة.

كلما اقترب الإنسان من الله ذاق من طعم القرب فزاد شوقه إلى الله عز وجل ! وابتغى إليه الوسيلة.

الوسيلة لها معانٍ واسعة، الوسيلة قد يتوسل الإنسان إلى الله بطاعته، فطاعة الله وسيلة، وقد يتوسل الإنسان إلى الله بالعمل الصالح، والعمل الصالح وسيلة، وقد يتوسل الإنسان إلى الله بحضور مجالس العلم، واتباع أهل الحق، فأهل الحق وسيلة، الوسيلة الشيء الذي يقربك من الهدف، فهؤلاء الذين يُدعَون من دون الله هم أنفسهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة، ربنا عز وجل قال:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

(سورة الكهف: 110)

العمل الصالح ثمن اللقاء، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ: قُلْتُ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْ لِي فِي الإِسْلامِ قَوْلا لا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ، بَعْدَكَ، قَالَ: قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ))

(مسند الإمام أحمد)

فالاستقامة طريق إلى الله عز وجل، خدمة الخلق طريق إلى الله عز وجل، الدعوة إلى الحق طريق إلى الله عز وجل، لزوم مجالس العلم طريق إلى الله عز وجل، برّ الوالدين طريق إلى الله عز وجل، الاستقامة في البيع والشراء طريق إلى الله عز وجل، الوقوف عند حدود الله طريق إلى الله عز وجل، نُصحُ المسلمين طريق إلى الله عز وجل، ما أكثر الطرق إلى الله عز وجل، ما أكثرها إنها أمامك مفتحة أبوابها، لذلك فالإنسان لا يعدم وسيلة يصل بها إلى الله عز وجل، وأن تضع اللقمة في فم زوجتك هي لك صدقة ! وأن تميط الأذى عن الطريق هو لك صدقة، وأن تلقى أخاك بوجه طلق هو لك صدقة، وأن تفرغ إناءك في دلو المستسقي هو لك صدقة، وأن تعين الأخرق (من لا يحسن الصنعة)هو لك صدقة، وأن ترشد الرجل الضّال إلى هدفه هو لك صدقة، وأن تقود كفيف البصر هو لك صدقة، وما أوسع أبواب الخير، وأبواب الخير كلها طرق إلى الله عز وجل، الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، فهؤلاء الذين تدعونهم من دون الله، هؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله، هؤلاء الذين اتخذتموهم

آلهة هم أنفسهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، كلما اقترب الإنسان من الله عز وجل يبتغي إلى الله الوسيلة بإلحاح أشد وبصدق أكبر.

في معنى آخر،

(أولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ)

أيْ: يتخذ أشد الوسائل فعالية، وأشد الوسائل تقريباً إلى الله عز وجل، إما أنه إليهم أقرب، أو أنه بمعنى أيها أقرب، على كل هؤلاء الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم، لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً، إنهم يبتغون من الله الرحمة، إنهم يرجون رحمة الله، ويخافون عذابه.

(أولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ)

أنت في دعاء الوتر تقول: نرجو رحمتك، ونخشى عذابك، الرحمة الشيء المريح، أن تنعم بصحة وافرة رحمة، وأن يكون عقلك ناضجاً هذه رحمة، وأن تملك قوت يومك هذه رحمة، وأن تستمتع بحواسك كلها هذه رحمة، وأن يكون لك زوجة ترضيك هذه رحمة، وأن يكون في البيت أولاد هذه رحمة، وأن يحبك الناس هذه رحمة،

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

(سورة طه: 39)

والله لو اطّلع الناس على سريرة الإنسان لأبَوا أن يُسَلِّمُوا عليه ! ولكن الله عز وجل من كرمه يبرز الجميل، ويستر القبيح ! يطّلع الناس على محاسنك، ويخفي عنهم مساوئك، لذلك هم يحبونك ! فلو كشف الله الستر ما سلّم عليك أحد !

والله لو علموا قبيح سريـرتي لأبى السلام علي من يلقانـي

ولأعرضوا عني وملّوا صحبتي و لأعرضوا عني وملوا صحبتي

***

إذاً:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

(سورة طه: 39)

هذه رحمة، يرجون رحمته، وهناك رحمة الإقبال، ورحمة التجلي، فلو أقبلت على الله عز وجل، وتجلى على قلبك فهذه رحمة من نوع آخر ! هذه الرحمة عبر عنها الله عز وجل بقوله:

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56))

(سورة الأعراف)

أحسن يرحمك الله عز وجل، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، سَمْحًا إِذَا اشْتَرَى، سَمْحًا إِذَا اقْتَضَى))

(ابن ماجة)

هذا العبد يتجلى الله عليه بالرحمة، رحم الله عبدًا عرف حدّه فوقف عنده، هذا الإنسان يتجلى الله عليه بالرحمة،

(وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ)

أي: عذاب الله عز وجل، فهو مُنَوَّعٌ جداً ! عذاب الله عز وجل قريب، نقطة من الدم لا تزيد على رأس دبوس لو تجمدت في بعض شرايين المخ لأصيب الإنسان بالشلل ! هناك مكان آخر لو حصل ذلك لأصيب بالعمى ! هناك مكان ثالث لأصيب بالصمم ! ومكان رابع لفقد ذاكرته ! لو توقفت الكليتان عن العمل أصبح الموت أحلى من الحياة ! لو توقف الكبد عن العمل، لو انقطع العمود الفقري إثر حادث يصاب الإنسان بالشلل طوال حياته،

(وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ)

لو فقَد الإنسان عقله نجد أقرب الناس إليه يسوقونه إلى المستشفى ! يتخلون عنه.

(وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ)

هذا الذي لا يخشى الله، لا يخاف الله ضعيف التفكير، محدود الأفق، غبي، أحمق ! لذلك **رأس الحكمة: مخافة الله.**

(إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً (57) وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (58))

الله سبحانه وتعالى هكذا جاء في علمه أن القيامة لن تقوم إلا بعد أن تكون الأرض قد خلت من الحياة، فكل هذه القرى، كل هذه المدن التي ترونها، هذه المدن العظيمة التي فيها ناطحات السحاب، فيها الجسور، فيها الأنفاق، فيها أنفاق تحت الأرض، وفيها أنفاق تحت البحر، وفيها جسور معلقة، وفيها أبنية شاهقة، هذه المدن الضخمة، هذه المدن التي يعتز أصحابها بها.

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ)

هذه (إن)تعني ما، حرف نفي، يعني ما من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة، أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطورا، فإن كانت هذه القرية تقيم شرع الله، وتقيم أمر الله، وهي محسنة فلا بد من أن تنتهي قبل يوم القيامة ! فكل من عليها فان، كل شيء هالك إلا وجهه، فالموت حق، لن تبقى قرية إلى الأبد، لا بد من أن تنتهي، فأما إن كان أهلها ظالمين، إن كانت فيها الفاحشة، إن ارتكبت فيها المعاصي فهذه المدينة سوف تعذب عذاباً شديداً ! إما أن تهلك، أو تدمر، وإما أن تعذب عذاباً شديداً.

(كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (58))

وليست أخبار الزلازل والفيضانات والبراكين عنا ببعيد ! مدينة في أميركا الشمالية قتل خمسة وثلاثين ألفًا في ساعات ! بركان ثار وأذاب الثلوج، والثلوج سببت الفيضانات ! ما بقي منها أحد، تحت سمعنا وبصرنا.

(إِنّ عَذَابَ رَبّكَ كَانَ مَحْذُوراً (57) وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (58))

(إِنّ بَطْشَ رَبّكَ لَشَدِيدٌ (12))

(سورة البروج)

الله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل..

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102))

(سورة هود: 102)

(يَا أَيُّهَا النّاسُ اتّقُوا رَبّكُمْ إِنّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنّ عَذَابَ اللّهِ شَدِيدٌ (2))

(سورة الحج)

لذلك هذه الآية تطبيقها العملي أن تأخذ الحيطة، أن تتوب إلى الله عز وجل، لأنك إذا تبت إلى الله عز وجل سوف تنجو من أي عذاب.

(سُبْحَانَكَ إِنّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجّيْنَاهُ مِنَ الْغَمّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

هكذا دعا سيدنا يونس عليه السلام:

(سُبْحَانَكَ إِنّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجّيْنَاهُ مِنَ الْغَمّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

حقّ على الله عز وجل أن ينجي المؤمن، الآية الكريمة تقول:

(نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

هنالك آيات أخرى تؤكد هذا المعنى.

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (58))

(سورة الإسراء)

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قَالُوا إِنّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوّمَةً عِنْدَ رَبّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36))

(سورة الذاريات)

واضحة كل الوضوح، لذلك إذا قال الله تعالى:

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (58))

(سورة الإسراء)

معنى ذلك أن تبادر إلى التوبة قبل فوات الأوان، من أجل أن تنجو من عذاب الله.

(وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ)

يعني أن كفار مكة اقترحوا على النبي عليه الصلاة والسلام أن يجعل جبل الصفا من الذهب، أو أن يزيح عنهم جبال مكة كي يزرعوا أرضها، طلبوا طلبات، فالله سبحانه وتعالى أجابهم:

(وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ)

التي تقترحونها على نبيكم:

(إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ)

وإليكم بعض الأمثلة:

(وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً)

(سورة الإسراء:59)

قوم ثمود طلبوا من نبيهم سيدنا صالح أن تخرج لهم ناقة من الجبل فاستجاب الله لهم، ولم يؤمنوا، وعقروا الناقة، فاستحقوا الهلاك.

لذلك إذا جاءت الآيات المصدقة، إذا جاءت المعجزات المصدقة لرسالة الأنبياء، ولم يؤمنوا بها فقد استحقوا الهلاك فوراً، فالله سبحانه وتعالى رحمة بأمة سيدنا محمد رحمةً بها لم يرسل لها الآيات، لو أرسل لها الآيات، وكذب بها قوم النبي عليه الصلاة والسلام لاستحقوا الهلاك، هلاك استئصال لا هلاك تأديب.

(وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً)

آية واضحة كالشمس، آية كأنها هي التي تبصر، تُبَّصِر الناس بوحدانية الله عز وجل، والآيات التي تؤكد وحدانية الله عز وجل، ووحدانية الألوهية، ووحدانية الربوبية، ووحدانية الخلق لا تعد ولا تحصى.

(فَظَلَمُوا بِهَا)

ظلموا أنفسهم حينما لم يؤمنوا بها، وظلموا أنفسهم حينما عقروها !

(فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (15))

(سورة الشمس)

(وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً (59))

التخويف باللغة المألوفة تعني أن الإنسان قد يخوّف إنساناً، ولا يفعل ما يقول، لكن التخويف في القرآن الكريم يعني التخويف بالمعنى اللغوي الدقيق، يعنى أن الله سبحانه وتعالى حينما تُدَمَّر القرى، حينما تأتي الفيضانات، حينما تأتي البراكين فتحرق المدن، حينما تأتي الزلازل فتصبح المدينة أثراً بعد عين، هذه الآيات من أجل أن يخاف الآخرون، من أجل أن يتوبوا، من أجل أن يتعظوا.

هذا مثلٌ بين أيدينا: لو أن الناس جميعاً ولدوا مرة واحدة، وماتوا مرة واحدة ما اتعظوا ! ولكن هذا الموت التدريجي من أجل أن يتعظ الأحياء بالأموات، قبل يومين كان معك، ملء السمع والبصر، يتكلم ويناقش، ويذهب ويعود، له بيت وله أولاد، وله مكانة اجتماعية، بعد يومين صار على خشبة الغسل جثة هامدة، لا حراك بها، بعد ساعتين تحت التراب، بعد أسبوع أصبح خبراً، فلان له وجود، له شخصيته، له رأيه، له أمره، له نهيه، له مكانته، له إدارته لأعماله، بعضهم يخافه، بعضهم يخشاه، فإذا مات صار خبراً.

(وَمَا نُرْسِلُ بِالْآَيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً (59) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ)

يا محمد عليه الصلاة والسلام.

(وَمَا نُرْسِلُ بِالْآَيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً (59) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ)

أي اطمئن، فالخلق كلهم بيد الرحمن، كن فيكون، زُل فيزول، لا تخف،

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(67))

(سورة المائدة)

عصمة النبي عليه الصلاة والسلام أنواع عديدة، هناك عصمة التبليغ، وهناك عصمة الفعل، وهناك عصمة من أن يقتل، لا تخف فلن يصلوا إليك، هذه الآية على شاكلة:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

ثم قال عزوجل:

(وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ)

هم في قبضته، يمد لهم ليمتحنهم، يمد لهم ليكشف نياتهم، وهو يعرفها، يكشفها لهم، يكشفها للآخرين.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2))

(سورة العنكبوت)

(وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ)

هؤلاء الله سبحانه وتعالى يمدهم، لكن لهم أجل لا ريب فيه، أي: لا تخف يا محمد، إن الله عز وجل ناصرك عليهم في الوقت المناسب.

(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاس)

أي: حينما عُرِجَ به إلى السماء، حينما أُسريَ به إلى بيت المقدس، وحينما عُرِجَ به إلى السماء أراه الله ملكوت السماوات والأرض، وأطلعه على ما كان وما سيكون، لذلك حينما عاد النبي عليه الصلاة والسلام من المعراج والإسراء إلى مكة قصّ على الناس ما رأى.

(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18))

(سورة النجم)

هذه الرؤيا التي رآها النبي عليه الصلاة والسلام وهو في السماوات، رأى يوم القيامة، وكيف أن أهل الجنة بالجنة يتنعمون، وكيف أن أهل النار بالنار يُعذّبون، رأى آكلي الربا ما مصيرهم، رأى الزُناة ما مصيرهم، رأى الذين يعقون آبائهم ما مصيرهم، أطلعه الله على كل شيء، أطلعه على مرتبته، أطلعه على مكانته، أطلعه على الأنبياء، أطلعه على كل شيء، كان الإسراء والمعراج إكراماً للنبي عليه الصلاة والسلام بعد محن شديدة ألمت به !

(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ)

ليس معنى الرؤيا هنا المنام، الرؤيا من رأى.

(لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18))

(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ)

أي: أريناكها.

(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاس)

بعض الناس ارتدوا على أدبارهم بعد أن سمعوا ما قصه النبي عليهم، واعتبروه هذياناً ومبالغة وتجاوزاً لحدود المعقول ! وبعض المؤمنين الصادقين فزادتهم هذه الرؤيا إيماناً وتصديقاً !

يا أبا بكر يزعم صاحبك أنه ذهب إلى بيت المقدس، وأنه عُرِجَ به إلى السماء، وأنه رأى كذا وكذا، فما زاد عن أن قال: **إن قال هذا فقد صدق** ! لذلك سميّ الصديق رضي الله عنه، فهؤلاء الناس حيال هذه الرؤيا انقسموا فريقين: فريق ارتد على أدباره، وفريق زادته هذه الرؤيا إيماناً، لكن هذه المعجزة التي خصّ بها النبي الكريم لم تكن تحت سمعهم وبصرهم، لو كانت كذلك، ولم يؤمنوا لاستحقوا الهلاك ! ولكن الله عز وجل سمّاها فتنة، أي وصلت لهم خبراً، قوم موسى رأوا البحر بأعينهم قد أصبح طريقاً يبساً ! قوم صالح رأوا الجبل قد خرجت منه الناقة بأعينهم ! لكن قوم النبي عليه الصلاة والسلام لم يروه بأعينهم وقد عُرِجَ به إلى السماء ! لو رأوه وكذبوه لاستحقوا الهلاك رحمة بهم، لذلك هذه المعجزة نُقِلت لهم خبراً، ولم تكن لهم رؤية عين.

(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاس)

افتتنوا بها، ومعنى افتتنوا بها أي: ظهروا على حقيقتهم.

أساساً هناك مواقف أخرى كغزوة الخندق، في الخندق قال بعض الدعاة: ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ! وقال بعض المؤمنين المتمكنين في إيمانهم:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23))

(سورة الأحزاب)

هذه فتنة، الفتنة الإنسان بها يكشف على حقيقته.

(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ)

في الآية تقديم وتأخير، وما جعلنا الرؤيا التي أريناك، والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس. والله سبحانه وتعالى حدّثهم عن شجرة الزقوم:

(إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (64) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (65))

(سورة الصافات)

فقال أبو جهل: النار تأكل الحجر، فكيف تنبت فيها الشجر ؟ إن هذا كذب ! والزقوم هو الزبد والتمر، فدعا بزبد وتمر، ودعا أصحابه وقال: تزقموا، أي: كلوا ! هذا الذي قاله محمد لا أصل له، فهذه الشجرة التي تحدث الله عنها في القرآن أيضاً كانت فتنة للناس، بعضهم صدّق، وبعضهم كذّب.

(وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً (60))

هؤلاء المتشبثون بشهواتهم لا يزدادون على آيات الله إلا تشبثاً وعصياناً وبعداً وعدواناً.

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ)

كان متكبراً، أبى أن يسجد للإنسان، لسيدنا آدم ! قال:

(قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (61))

أنا من نار، وهذا من طين، أأسجد له ؟ استنكف أن يسجد له ! قال الله تعالى على لسان إبليس:

(قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً (62))

هذا الذي كرمته عليّ، هذا الإنسان أنا سوف أحتويه، سوف أضلّه، وأغويه، سوف أجعله يعصيك، سوف أجعله يحب الدنيا، هذا الذي كرمت عليّ.

(قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً (62))

هذا الاستثناء للمؤمنين، هؤلاء لا أقوى عليهم، لا أستطيع أن أضلّهم، ليس بإمكاني أن أضل منهم إلا قليلا ! قال الله عز وجل:

(قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً (63))

اذهب ومن تبعك منهم، من تبعك هو مخير، هناك آية دقيقة جداً:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم)

إذاً الإنسان مخير، وإبليس والشياطين ليس لهم عليه سلطان أبداً، كل ما يملك إبليس أن يوسوس، وأنت مخير، إلا من اتبعك باختياره، قال:

(قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً (63))

اذهب فمن تبعك فهو على شاكلتك، من أطاعك فهو على شاكلتك، اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءاً موفوراً ! الإنسان مخير، وأنت توسوس له، والمَلَكُ يُلْهِمُهُ، فإن اتبعك مختاراً فهو على شاكلتك، ويستحق النار، وإن أبى، وأطاعني يستحق الجنة، واستفزز من استطعت منهم، الاستفزاز التحريض والإثارة، لو استفزني أثارني،

(وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ)

قال بعضهم: الصوت هنا الوسوسة، ولأنها وسوسة لا تعني شيئاً سميت صوتاً تحقيراً لها ! الإنسان يصّوت أي: يتكلم، أما إذا كان كلامًا لا معنى له فيقول: أوقفوا هذا الصوت، الصوت كلام مبهم، فتحقيراً لهذه الوسوسة قال الله عنها: **إنها صوت**.

هناك معنى آخر: هذا هو الغناء، الغناء ينبت النفاق،

(وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ)

الأغاني التي تثير الشهوات، وتصف العورات، وتغري بالزنى، هذه كلها من مزامير الشياطين.

(وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ)

جَنِّد كل جنودك، الراكبين والمشاة، جَنِّدْهُم لِيُضِلُّوا هذا الإنسان !

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ، وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ))

(مسلم)

كل الليل يقضونه في المشاكل والصراعات، وإذا جلس الإنسان إلى الطعام ولم يسمّ قال الشيطان لإخوانه: أصبتم العشاء، سنأكل معهم، فإذا دخل ولم يُسَلِّم، وإذا جلس إلى الطعام ولم يسمّ يقول الشيطان

لإخوانه: أصبتم المبيت والعشاء !

(وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ)

بعض المفسرين قال: هذه صورة من صور إيقاع الشيطان للإنسان، أنت إذا رأيت إنساناً متحصناً تصيح به إلى أن يخرج، فإذا خرج تحيط به من كل جانب، تحيط به بالفرسان والمشاة، من أجل أن تقضي عليه فكأنها معركة، الله عز وجل يصف لنا معركة، أولاً: يدعوهم، يوسوس لهم، ثم يوقعهم !

(وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ)

اجعل كسبهم حراماً، أو اجعلهم ينفقون هذه الأموال على المعاصي، واجعل أولادهم من أولاد الزنى، أو ليعلموا أولادهم على المعاصي، المعنيان كلاهما صحيح، وعدهم بالمال الوفير، الكافر يفكر بالدنيا، سأشتري هذا البيت، سأشتري هذه الدكان، سأشتري هذه المركبة، سأفعل كذا وكذا سأسافر.

(وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً (64))

إذاً الاستفزاز من قبل الشيطان بالصوت إما بالوسوسة، وإما بالغناء.

(وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ)

صورة تؤكد أو تبين كيف أن الإنسان يكون معتصماً في حصنه، فيأتي الشيطان فيناديه ويصيح به إلى أن يخرج، فإذا خرج حاصره، وقاتله، أو أن الشيطان يسخِّر كل ما يملك من طاقات وفتن ومن مصائب من أجل أن يوقع بهذا الإنسان، وإن إبليس طلاع رصاد وما هو من فخوخه بأوثق لصيده في الرجال من النساء، فالنساء حبائل الشيطان، وجُمِعَ الشرّ كله في بيت، ثم أرُتِج عليه فكان مفتاحه السكر، الخمر أمّ الخبائث ! والمشاركة في الأموال كسبها من طريق حرام، وإنفاقها في طريق حرام، والمشاركة في الأولاد أن يأتي الولد من حرام، أو أن يّوجه إلى المعاصي في وقت مبكر ! حتى ينشأ على المعصية.

الشيطان يعد الإنسان وعوداً كثيرة من هذه الدعوة: يعده بأن ينجو من عذاب الله، بعد أيام هذا الذي يرتكب كل المعاصي والموبقات ويموت وهو عاصٍ يعده الشيطان أن ينجو من عذاب الله !

اليهود ظنوا أنهم لن يبقوا في النار إلا أياماً معدودة، هذا من وعد الشيطان، وقد يعدهم بالدنيا يعدهم بزينتها، بزخرفها، بمُتعها ومباهجها، يجعلها لهم كبيرة جداً في أعينهم فينساقون إليها على حساب كرامتهم ومبادئهم، على حساب قيمهم، وعلى حساب دينهم، وعلى حساب مروءتهم، يقبلون عليها، فيأتي الموت ويُصْعَقُونَ عِنْدَه.

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83))

(سورة الزخرف)

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (45)

(سورة الطور)

والشيطان أيضاً يشمت بهم.

(إِنّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ)

(سورة إبراهيم)

(وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشّيْطَانُ إِلّا غُرُوراً (64))

وعود كاذبة لا أساس لها من الصحة، استمعوا أيها الإخوة إلى هذا التعقيب:

(إِنّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

إذا كنت من عباد الله لو اجتمعت الإنس كلها والجن على أن يحرفوك عن طريق الحق لا يستطيعون.

(إِنّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبّكَ وَكِيلاً (65))

من اعتصم بالله عز وجل، واستعاذ به، وأقبل عليه، واستقام على أمره لن تستطيع الجن ولو اجتمعوا، بل لن يستطيع شياطين الجن كلهم أن يخرجوه عن استقامته، لذلك:

(إِنّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبّكَ وَكِيلاً (65))

كن عبداً لله حتى يحميك الله من الشيطان.

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرّ النّفّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ(5))

(سورة الفلق)

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النّاسِ (1) مَلِكِ النّاسِ (2) إِلَهِ النّاسِ (3) مِنْ شَرّ الْوَسْوَاسِ الْخَنّاسِ (4) الّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النّاسِ (5) مِنَ الْجِنّةِ وَالنّاسِ(6))

(سورة الناس)

(وَإِمّا يَنْزَغَنّكَ مِنَ الشّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنّهُ هُوَ السّمِيعُ الْعَلِيمُ (36))

(سورة فصلت)

هذا توجيه الله عز وجل.

(إِنّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبّكَ وَكِيلاً (65))

الله سبحانه وتعالى يحميك، ويحفظك، ويقيك من وساوس الشيطان.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (09-13): تفسير الآيات 66 – 77
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-09-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع من سورة الإسراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (66))

كلمة (الرب)تعني المُمِدّ، الله سبحانه وتعالى تفضل علينا بنعمة الإيجاد، وتفضل علينا بنعمة الإمداد، وتفضل علينا بنعمة الإرشاد، فرب العالمين أي: الذي يمدهم بما يحتاجون، ومن كلمة (رب)اشتقت كلمة التربية، والتربية العناية والرعاية، والملاحظة والتقويم، والتصحيح والتسديد، والإمداد والإشراف، كل هذه المعاني مشتقة من التربية، إنك إذا ربيت نبتة تُقَلِمُهَا عند الحاجة، تمدها بالماء، بالسماد، تضعها في الشمس تارة، وفي الظل تارة أخرى، تسقيها، تعتني بها، تغير أصصِها، هذه هي التربية.

والذي يربي أولاده يعرف معنى التربية، هذه المعاني مبسطة يعرفها الجميع من خلال الممارسات اليومية، لكن الله سبحانه وتعالى رب العالمين، أنت قد تضيق ذرعاً بعدة أولاد تربيهم، لكن الله سبحانه وتعالى رب كل العوالم.

(رَبُّكُمُ)

أي: الذي خلقكم، والذي يتولى شؤونكم، والذي يمدكم بما تحتاجون هو الذي يزجي لكم الفلك.

أزجى: بمعنى دفع، والفلك: هي السفن.

أولاً: لن تقوم سفينة، أو تطفو على سطح الماء إلا بفضل الله عز وجل، لأن الله عز وجل خلق الماء بطريقة أن ذراته متماسكة، وهذا التماسك يقاوم كل جسم يغمس في الماء، إذاً كل جسم يغمس في الماء كأن قوة تدفعه نحو الأعلى، هذه الحقيقة كشفها بعض العلماء، وسمي قانون الدفع المائي باسمهم.

قوة الدفع نحو الأعلى، الإنسان إذا حمل وعاء من الماء، وغرسه في بحرة صغيرة، يحس أن ثلاثة أرباع وزنه قد تلاشى، في الماء قوة تدفع نحو الأعلى، هذه من فضل الله عز وجل، لولا هذا التماسك بين ذرات الماء، ولولا أن الأجسام المنغمسة في الماء تجد ما يدفعها نحو الأعلى لما كانت الفلك في البحر ! مبدأ السفن كله يصبح لاغياً لولا قانون أرخميدس.

(رَبُّكُمُ الَّذِي)

هو الذي جعل هذه القوة الدافعة نحو الأعلى، وهو الذي جعل الرياح تدفعها نحو أهدافكم، وحينما استبدل الشراع بالمحرك استخدم الناس الوقود، مَنْ خَلَقَ الوقود ؟

(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80))

(سورة يس)

بعض العلماء وجّه هذه الآية إلى البترول، أحدث نظريات البترول أنه في العصور المطيرة، وفي حقب الأشجار العملاقة، هذه الأشجار العملاقة، وهذه الحيوانات الضخمة دفنت في باطن الأرض فكان البترول.

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80))

لذلك إن تحركت السفينة بالرياح فبفضل الله عز وجل، إن تحركت بالوقود السائل فبفضل الله عز وجل، من أودع في هذا الوقود قوة الانفجار ؟

(رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ)

هذه العبارة في القرآن الكريم تَردُ كثيراً في معرض البحث عن الرزق، بل بشكل أدق في التجارة مع السفر، فالإنسان حينما يسافر، ويبتغي من سفره هذا أن يصيب تجارةً، أو أن يبيع بضاعةً، أو أن يشتري، أو أن يقايض، فهذا اسمه ابتغاء من فضل الله عز وجل، لذلك هذه الآية تعد أصلاً في إباحة السفر من أجل طلب الرزق، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (66))

تصور لو أن هذه البحار ليست موجودة ! لو أن اليابسة متصلة، بعيداً عن موضوع الطقس والرياح والأمطار، لسببٍ أو لآخر تصور لو أن البحار معدومة ! شق الطرق يجهد الميزانيات، جسر صغير أنشئ بين دولتين صغيرتين في البحرين كلف ألوف الملايين، لو لم يكن البحر، وأردنا أن نُعَبّدَ طريقاً إلى أمريكا، أو طريقًا إلى أوروبة، طريقًا إلى آسيا أو طريقاً إلى أستراليا، أو طريقًا إلى اليابان، هذا شيء فوق طاقة البشر، الله سبحانه وتعالى جعل البحر بين القارات هندسة اتصال، طريقًا من الماء، أحياناً تعترض شق الطرق عقبات كؤود، كالطرق الصاعدة، كالجبال، كالصخور، هذه كلها عقبات، لكن البحر ليس فيه أي عقبة، لا ارتفاع، ولا انخفاض، ولا وادٍ، ولا جبل... ماء مستوٍ، ما علينا إلا أن نبني السفن، فكأن البحر كله طريق واحد معبد، هذا من فضل الله عز وجل.

(رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (66))

رحمته في البحر، ورحمته فيما في البحر، من السمك والحليّ، ورحمته في البر وفي الصحراء، وفي الجبال، وفي الوديان، وفي الأغوار، وفي السهول وفي الأنهار، وفي البحيرات وفي الأطيار وفي

الأسماك، وفي الأزهار وفي النباتات، وفي المحاصيل، وفي الأشجار المثمرة، وفي خلقنا، وفي خلق أولادنا، وفي أسرنا، كل هذا من مظاهر رحمة الله عز وجل.

(وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ)

هذه الآية أيها الإخوة أصلٌ في أن الإنسان مفطور على الإيمان بالله، لو ركب مجموعة من الناس طائرة أو باخرة، وكان فيهم الملحد، وفيهم الكافر، وفيهم الزنديق، وفيهم المنكر الفاجر، وفيهم المستخف بالدين، إذا هبت عاصفة هوجاء، وأصبحت الأمواج كالجبال، دقق في وجوه هؤلاء جميعاً، على اختلاف نحلهم ودياناتهم، على اختلاف مللهم واتجاهاتهم، ومعتقداتهم وأهوائهم، وعلى اختلاف مشاربهم وعقائدهم وقيمهم، وعلى اختلاف انحرافاتهم، كلهم جميعاً بصوت واحد ينادون: يا اللّه، فالإنسان مؤمن بالفطرة، لكن الشهوات ومشاغل الدنيا والأطماع هذه كلها تطمس الفطرة، لكننا إذا واجهنا خطراً شديداً نعود إلى اللّه عز وجل، وهذا الذي أقوله ليس افتراضياً، بل إنه قد وقع.

طائرةٌ تُقِلُّ أناساً ينكرون وجود الله عز وجل، فلما مرت بغيمة مكهربة، وتبعها جيب هوائي، وبدا للركاب كأنها قد سقطت، ما الذي قد حصل ؟ كلهم ضجوا بالشكوى إلى الله عز وجل.

فالإنسان مؤمن بفطرته، لذلك: الإمام علي رضي الله عنه سُئل: متى كان الله ؟ فأجاب: **ومتى لم يكن حتى تسألوني: متى كان الله؟**

الإنسان أحياناً لِجهله، ولضيق أُفُقِه، ولعدم تبصره يتوهم أنه إذا كان في بيته، والبيت بناؤه جيد، وكان في أتم صحته، وكان عنده مال وفير، فهو في غنى عن رحمة الله عز وجل، هذا هو الجاهل، لكنه إذا ركب طائرة، أو ركب باخرة فأدرك أنه صار تحت رحمة الله، هذا الوهم وهذا الضلال، إنك في أشد ساعات يقينك بأنك مكين، إنك في أشد ساعات استغنائك عن الله مفتقر إلى الله عز وجل، فهذا الذي توهم أن الخطر كامن في البحر فقط، وأنه مادام في السفينة لا بد من قول: يا الله، أو أن الخطر كامن في الطائرة فقط، هذا ضال جاهل ضيق الأفق، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ)

الإنسان له أعوان، له أصحاب، له أناس يعتمد عليهم، له أناس يعلق آماله عليهم، له أصدقاء، له أقارب، له أصحاب من أولي الشأن، أو أولي القوة، هؤلاء وهو في الأرض، وهو في المدينة، وهو في بيته، يعتمد عليهم، يتكل عليهم، يعلق آماله عليهم، لكنه إذا ركب السفينة أو ركب الطائرة، وكان الوضع خطراً، طائرة أصيبت، دخلت في غيمة مكهربة، أو دخلت في صاعقة، في سماء بعض مدن أوربة كان من جراء هذا الدخول أن تحطم جهاز الرادار، وتحطم البللور الموجود أمام ربان الطائرة، وأصبح سقوط الطائرة قاب قوسين، وأصبح الخطر محققاً، ربان الطائرة أَمَرَ مُضيفاً أن يبلِّغ الركاب أن يشدوا الأحزمة، فإذا الركاب في هرج ومرج، هذا يبكي، وهذا ينادي، وهذا يلتجئ، وهذا يدعو، وهذا ينادي:

يا أهلي، يا ولدي، إلى أن رأى المضيف راكباً متماسكاً في أعصابه، هادئاً، فظن به أنه يستطيع أن يهدئ الركاب، فتوجّه إليه، وقد عقد الآمال عليه، فإذا هو مغمىً عليه، الإنسان ضعيف، هؤلاء يتوهمون أنهم في الطائرة تحت رحمة الله عز وجل، أما وهم في بيوتهم فمستغنون، ربنا عز وجل يلفت النظر فيقول:

(وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ)

تفضلوا، هذا الذي في الأرض تعتمد عليه، وتتكل عليه، وتعقد عليه الآمال، وأنت في الطائرة، وأنت على السفينة تفضل وادعُه ! يا فلان، أين أنت ؟ تعال إلي يا فلان، أنا مستجير بك يا فلان، ليس لي سواك يا فلان، أين فلان ؟ هل يسمعك فلان ؟ لو أنه سمعك هل بإمكانه أن ينقذك ؟

(ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ)

إذا كنت في خطرٍ محدق، الإنسان حينما يصاب بمرض، ويتوهمه عضالاً من يدعو ؟ هؤلاء الذين عصى الله من أجلهم إذا دعاهم هل ينقذونه ؟ لا شيء، ربنا عز وجل قال:

(ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ)

كل الشركاء ضلوا عنكم، أو أنتم ضللتم عنهم ! ضلوا عنكم فلم تجدوهم، وضللتم عنهم فلم تعبؤوا بهم.

(وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ)

أيها الإخوة الأكارم، هذه الصورة ليست مختصة في البحر، الإنسان أحياناً يمرض ابنه، يقول له الطبيب: التهاب سحايا خطر، أي: الموت بالمئة ثمانون، وهذا خَطِر، يبدأ يصلي، ويغض بصره خلال أسبوع، ويتصدق، ويأمر امرأته بالصلاة، فإذا زال الخطر ! عاد إلى ما كان عليه من معصية !!

هذه أخلاق التجار، أخلاق الانتهازيين، أخلاق الذين يتعاملون مع الله عز وجل بالمنفعة فقط.

(فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً (67))

الإنسان يراقب نفسه، هل يختلف دعاؤه في أيام الشدة عن الرخاء ؟ إذا كان لك حال مع الله عز وجل في الشدة، حال الالتجاء والإقبال والاستقامة، وحال آخر خارج الشدة، من الاسترخاء، وعدم الالتفات، والاستغناء، والتفلت والانحراف، إذا كان هذا الحال موجوداً فصاحبه يحتاج إلى جهد كبير.

(فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً (67))

الإنسان الذي لم يتعرف إلى الله عز وجل، طبيعة الكفر ناتجة من إدباره، من إعراضه، من حجابه، من غفلته، الغفلة والإعراض والمعصية هذا كله يسبب كفراً في الإنسان.

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً (67))

يعني: وكان الإنسان المنقطع عن الله عز وجل كفوراً، ربنا عز وجل يذكرنا:

(أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ)

هذا الذي يجلس في بيته، ما الذي يمنع أن يصيب البيت زلزالٌ، فإذا هو أنقاض بعد ساعة ؟ هذه المدن الضخمة التي أصابها زلزالٌ في ثوانٍ معدودة أصبحت ركاماً، أصبحت أثراً بعد عين، أصبحت خبراً.

أحدث زلزال وقع في كولومبيا، مدينة سكانها خمسة وثلاثون ألفاً، ثار بركانٌ فأذاب الثلوج، وبعدها ذاقت هذه المدينة الحمم البركانية مع السيول التي أغرقتها، فكان الضحايا جميع سكان المدينة، فهؤلاء في مدينة، في بناء فخم، في بناء قوي محكم، جدران سميكة، ومع ذلك انهار البناء، الإنسان تحت رحمة الله عز وجل في كل لحظةٍ، وفي كل بقعة، انتبهوا، واحفظوا هاتين الكلمتين: الإنسان في كل لحظة وفي كل بقعة تحت رحمة الله عز وجل.

مهندس عرسه بعد أيام، صعد إلى بناء ليشرف عليه، مدّ رأسه من النافذة، عاملٌ على السطح تفلتت من يده قطعة كبيرة من الإسمنت فوقعت فوق رأسه فدقته دقاً، وهذا ضمن المدينة، ضمن عمله، المعنى: أن احتمال الموت المفاجئ سهل جداً.

أحياناً الإنسان تصدمه دراجة، فإذا هو ملقىً جثة هامدة، أحياناً لسبب تافه جداً، مثل رجل أراد أن يحرك جهازاً ثُبت على الحائط بشكل مرتفع، استعان بكرسي وهو في أوج نشاطه، وأوج قوته، وأوج غناه، صعد على هذا الكرسي، انزلق الكرسي، ووقع فوقه، جُرِحَ في مقعدته، أخذ إلى المستشفى، بعد خمسة عشر يوماً صار تحت أطباق الثرى، توفي ! لسبب تافه جداً.

سمعت عن قصة إنسان، بعوضةٌ لدغته فانتفخ جبينه، ما هي إلا ساعات معدودات، قيل: صار في دمه فساد واختلاط، ما هي إلا ساعات معدودات حتى صار من أهل القبور.

فالإنسان ليس شرطاً أن يكون خوفه من البحر أو من الجو، لكن الخوف يجب أن تخاف الله عز وجل في كل مكان، وفي كل زمان، في كل لحظة، وفي كل بقعة.

(فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً (67) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ)

أحدهم يركب سيارته، يتنزه مع زوجته في جبل قاسيون، بعض البغال الشاردة اضطرب، فقفز إلى عرض الطريق فجاءت قدماه داخل السيارة، فقتلت السائق وزوجته، المعنى أنه من الممكن لسببٍ تافهٍ أن ينتهي أجلك.

اقرؤوا بعض الحوادث، هناك حوادث سير، هناك حوادث سيارات، هناك أسباب طفيفة جداً تنهي الإنسان ! فالإنسان المطمئن أبله ! كل إنسان مطمئن وهو يعصي الله أبله ! كل إنسان لا يبالي، يثق بقدراته الذاتية، يثق بماله، بصحته، بمكانته وعمره المديد، كأن يقول: أين أنا من الستين ؟ أنا مازلت صغيراً.

فكأن الستين حتمية، لكن الله عز وجل يقول:

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99))

(سورة الحجر)

الموت هو اليقين، اليقين لن تأتيه، ولكن هو سيأتيك، ولا تدري متى سيأتيك اليقين، قد يأتي في سن الشباب، وقد يأتي في سن الكهولة، وقد يأتي من طريق غير متوقع.

(أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ)

وأنتم في البر، وأنتم على اليابسة، وأنتم في بيوتكم المُشَيَّدَة، وأنتم في الأماكن الأشد تمكناً، وأنتم في مكان تطمئنون فيه.

(أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ)

وكما قال الشاعر:

لا تأمن الموت في طرفٍ و لا نفسٍ وإن تمنّعت بالحجاب والحرس
فما تزال سهام الموت نـــافذة في جنب مُدّرع منها و مُتّرس
أراك لست بوقافٍ و لا حذرٍ كالحا طب الخابط الأعواد في الغلس
ترجو النجاة و لم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليَبَسِ

****

(أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً)

الحاصب: رياحٌ عاتية محملة بالحصى، هذا أشد من الغرق، ربنا عز وجل قال:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: 65)

(مِنْ فَوْقِكُمْ)

هذه البراكين.

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

هذه الزلازل.

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

فأن يذوق الإنسان بأس أخيه قد يكون عليه أشد من الزلزال، وأشد من البركان.

(ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (68))

الإنسان أحياناً يوكل إنساناً ليتابع قضية، يوكل محامياً ليدافع عنه، يوكل طبيباً يعالجه، يوكل إنساناً يدير له أعماله، في ساعات الشدة،

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد: 11)

ثم قال تعالى:

(ثُمّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (68))

يتوكل في الدفاع عنكم أو في حفظكم، أو في إزاحة الخطر عن كاهلكم.

(ثُمّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (68))

حسناً، الآن لدينا حال آخر:

(أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى)

ركبت البحر، ورأيت الأهوال، وهبّت عاصفة هوجاء كالجبال، وشهْدَت أنه لا إله إلا الله، وعاهدت الله ألاّ تركب البحر في حياتك كلها، الله عز وجل قادر أن يغريك بركوب البحر مرة ثانية ! يغريك بطريقة أو بأخرى، يقال لك: رحلة في الصيف إلى قبرص جميلة جداً، الأسعار مغرية، النفقات محدودة، الأماكن جميلة مثلاً، أنت تستجيب لهذا الإغراء، وتركب البحر مرة ثانية، الله عز وجل قادر أن يرغّبَك بركوب البحر مرة ثانية.

(أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرّيح فَيُغْرِقَكُمْ)

لا أدري من أتيح له أن يرى البحر، وهو في هيجانه ؟ أشد الناقلات، أشد السفن جبروتاً، الناقلات التي تحمل مليون طن، يوجد الآن ناقلات بترول وسفن تجارية حمولتها مليون طن، هذه السفن إذا هبت الرياح في البحر، وأصبح الموج كالجبال لا تزيد على أن تكون ريشة في مهب الرياح، تنقلب هذه السفينة العملاقة إلى قارب نجاة صغير يتأرجح فوق الأمواج، بل تتلاعب به الأمواج.

(أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرّيح فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ)

قبل أسابيع قرأت مقالة عن أعمال تجري لاستخراج سفن كانت قد غرقت في العصور السالفة ! فمثلاً سفينة غرقت عام ألف وثمانمئة محملة بخمسة أطنان من الذهب مثلاً ! الآن هناك شركات تجول المحيطات لتبحث عن السفن التي غرقت في العهود السابقة، وهي محملة بالثروات المعدنية ! فقلت: سبحان الله ! سفينة وركابها وثرواتها هي في قاع المحيط الآن ! هذه (التيتانيك)أشهر باخرة غرقت عام ألف وتسعمئة واثني عشر ! قيل في نشرة صُنعها: إن القدر لا يستطيع إغراق هذه السفينة ! صنعت في عصر العلم، وفي عصر الجبروت، والغطرسة والعنجهية والاعتزاز بالعلم، والاستخفاف بقيم الدين ! قيل: إن القدر لا يستطيع إغراق هذه السفينة، لذلك لم يصنع لها قوارب نجاة ! انسجاماً مع هذه المقولة، هذه السفينة صنع لها جداران، بحيث لو أصيب الجدار الخارجي بعطب أغلقت أبواب عرضية فحصرت هذا العطب ! هناك جدار آخر سميك جداً، فُرشت بأفخر الأثاث، صنع لها ثريات من أرقى الأنواع، في أول رحلة لها من بريطانيا إلى بوسطن ! تروي الكتب أن نخبة ممتازة من أثرياء أوروبة مع زوجاتهم قد ركبوا في هذه السفينة، قُدّر أن ثمن الحلي الذي تلبسه النساء يقدر بألوف الملايين، وفي

السفينة كل ما تشتهيه النفس، مدينة عارمة، فيها المسابح، فيها المطاعم، فيها المقاصف، فيها المتنزهات، فيها النوادي الليلية، كل شيء فيها ! كما قالوا: والقدر لا يستطيع إغراقها، ارتطمت بجبل ثلجي، فأرسلت إشارات استغاثة بكل ما تملك السفن التي حولها، ظنت هذه إشارات احتفالات فلم تنجدها! وكان على ظهرها ما يزيد على ثلاثة آلاف راكب ! عندئذٍ قال أحد القساوسة: إن غرق هذه السفينة (التيتانيك) هي درس من السماء إلى الأرض ! وقبل أشهر فيما علمت استخرجوها، ووصلوا إليها ! هذه قصة رائعة، كيف أن الله عز وجل لقن هؤلاء المتغطرسين درساً لا ينسونه !

(أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً (69))

في شمال بريطانيا بنوا قاعدة استخراج نفط عائمة، مربع كبير كمدينة فيها كل شيء ! عائمة على سطح الماء، وقد قيل عنها وعن جبروتها وعظمتها وعن أنها من إنجاز البشر، قبل سنتين جاءت عاصفة فحطمتها ! في بحر الشمال، قاعدة لاستخراج النفط، هذا الذي يتحدى القدر يتحدى الإله، يقول: إن القدر لن يغرقها، عاصفة واحدة جعلتها أثراً بعد عين!

(فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ)

إذاً هنا الإغراق بما كفرتم، وكأن الإغراق جزاء موافق لهذا الكفر.

(ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً (69))

التبيع: المسؤولية، إذا سبب إنسان لإنسان ضرراً يدّعي عليه بأنه مسؤول، يمكن لأيّ ضرر يحصل لإنسان من آخر أن يدّعي عليه، فإذا غرقت سفينة بفعل عاصفة هوجاء من هو المسؤول ؟ من الذي سوف نحمّله هذه المسؤولية ؟ من أين نأخذ تعويضات هذا الغرق ؟ قال تعالى:

(ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً (69))

يقول لك: قضاء وقدر، يُطوى الملف إنسان ويختم بقولهم: والحادث وقع قضاءً وقدراً ! لا يوجد أي مسؤولية، لا أحد مسؤول، فربنا عز وجل قال:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11))

(سورة الرعد)

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

الإنسان مكرّم، هذه الآية لا تكفيها المجلدات، كرّمه بالعقل، كرّمه بأن وضع فيه استعدادات لعمارة الأرض ! سكن البيوت، ارتدى أفخر الثياب، ركب الطائرات، ركب السفن، غاص في أعماق البحار، وصل إلى القمر، اخترع الأجهزة والآلات، نقل الصوت، نقل الصورة، أعطاه فكراً هو أفضل ما في الكون، فالتكريم أودع فيه استعدادات عجيبة ! الحيوانات كلها هي على ما كانت عليه، هل رأيتم أن

صنفاً من الحيوان تطوّر ؟ سكن بيوتاً، عمل نظاماً خاصاً وحده، اخترع آلة ما ؟ الحيوان هوَ هو، أما الإنسان فمكرّم، أعطاه الله فكراً، فالتكريم بهذا العقل، والتكريم بهذا الكون.

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً)

(سورة الجاثية: 13)

التكريم بالتسخير، والتكريم بالعقل، والتكريم بهذا الشكل، لم يجعلنا نمشي على أربع، ونأكل بفمنا مباشرة، لم يجعلنا ننام في الطريق، بل أعطانا القدرة على أن ننشئ بيوتاً ! نظام الزوجية هو تكريم، الأولاد تكريم، أنواع النباتات تكريم، هذه الأزهار كم تقدّرون عدد نباتات الزينة فقط ؟ لا تعد ولا تحصى، فهي بالآلاف ! هناك كتاب في ثمانية عشر مجلداً، كل صفحة نوع من الزهر ! كل زهرة طباعها، وعاداتها، وكيف يعتنى بها، فيا ترى هذه الأزهار للأكل ؟ لا، للنظر ! أليس هذا تكريماً ؟ إذا دعيت إلى وليمة، ووضع على الماء باقة ورد، هل تظن أن هذه للأكل ؟ هذه للتكريم فقط، من أجل أن تستمتع بمنظرها، إذاً صاحب الدعوة كرّمك بهذه الباقة من الورد، إنها ليست طعاماً، فهي مجرد التكريم، فربنا عز وجل كرّم الإنسان كرّمه بالعقل، كرمه بحرية الاختيار، كرّمه بالإرادة، وبهذا الكون، كرّمه بأسرته، وجعل له من أنفسه زوجة يسكن إليها.

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

حملناهم في البر، فالإنسان صنع سفينة، صنع طائرة، ركب مركبة، ركب فرساً مثلاً، خلقت له خصّيصى.

(وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ)

جعلك تأكل الفاكهة، وتلقي قشرها إلى الحيوان ! تأكل البطيخ، والقشر للحيوان، كل فاكهة لبّها لك يا صاحب اللب، وقشرها للحيوان، أليس في هذا تكريماً ؟

(وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (70))

أنت مكرّم، ما قولك: إن كل شيء في الكون يسبح بحمده ! وهذا الذي كرّمه الله على بقية المخلوقات غافل عن ذكر الله ؟ !

(وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (70) يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (71))

الحياة، قال تعالى:

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4))

(سورة الليل)

هذا الذي دعا الناس إلى أكل الربا، الناس الذين أكلوا الربا يدعون، والذي دعاهم إلى الربا!

(يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ)

آكلو الربا يُدْعَوْنَ زمرة ! والسارقون، وشاربو الخمر، والذين اعتقدوا أن الآخرة باطل، والذين أنكروا وجود الله عز وجل، والذين انغمسوا في الملذات الرخيصة، والذين عرفوا الله عز وجل، والذين عمروا المساجد، والذين أقاموا الصلاة، والذين حفظوا القرآن، كل فئة، كل فرقة، كل شيعة، كل اتجاه، كل نمط، كل أصحاب معصية، كل السباقين في طاعة، كلٌ يأتون زمرة زمرةً.

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً)

(سورة الزمر: 71)

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً)

(سورة الزمر: 73)

هؤلاء زمر، وهؤلاء زمر،

(يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ)

هذا الذي أمّوا له، أو أمّهم، أو كان قدوة لهم، أو دفعهم، أو أغراهم، أو زيّن لهم، أو حثّهم، أو حضّهم.

(يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ)

أي كتاب أعماله بيمينه.

(فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (71))

عندما يأخذ الطالب جلاءه، وكله امتياز يقرؤه آلاف المرات ! كل ربع ساعة يتأمل ممتاز، جيد جداً جيد، نجح إلى الصف الثامن، هادئ، نظيف مثلاً، صدوق، أخلاقه رفيعة... هذه الكلمات الطيّبة، وهذه المآثر، وهذه الامتيازات، وهذا الثناء، وهذه الاستحسان... هذه كلها سوف تُسَجَل في صحيفته، فها هو ذا يقرؤها بفرح وسرور.

(فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (71) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (72))

من كان في الدنيا أعمى فهو في الآخرة أعمى أيضاً، ربنا عز وجل قال:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى(126))

(سورة طه)

(وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (72))

فالعمى عمى القلب الذي يصيب الإنسان في الدنيا يستمر معه إلى الآخرة !

شيء خطير أن هذا المرض العضال ملازم لصاحبه إلى الأبد،

(وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (72))

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (73))

الكفار أحياناً يساومون أهل الإيمان، يطلبون منهم التخلي عن بعض مبادئهم، أن يعدّلوا مبادئهم تعديلاً خفيفاً، لو أن أهل الإيمان قبلوا هذه المساومة، وقبلوا أن يعدِّلوا بعض مبادئهم، أو أن يتساهلوا قليلاً لانتهوا ! هذا الدين ليس فيه حل وسط، إما أن تأخذه كله، وإما أن تدعه كله.

أقرب مثل لذلك: لو أن بالوناً منفوخاً نفخاً شديداً فقلت: أنا سأثقبه ثقباً طفيفاً كي أخفف حجمه قليلاً، ما الذي يحصل ؟ سوف يتلاشى كلياً !

هذه الصخرة المكينة في قمة الجبل قد تقول: أنا سأزحزحها لأجعلها في منتصف المنحدر، إذا زحزحتها عن مكانها، واندفعت في المنحدر فلا بد من أن تصل إلى أعمق القاع ! بحكم طبيعة الحياة، بحكم أن كل خطوة تقود إلى أخرى، وكل تساهل يقود إلى تساهل أكبر، وكل تفريط يقود إلى تفريط أشد، وكل خطأ يقود إلى خطأ أكبر، وكل انحراف يقود إلى انحراف أكبر، الزاوية حينما نحرفها درجة واحدة هنا المسافة ميليمتر، لو مددنا خطّين هذا الميليمتر يصبح كيلو متر، كلما مددت الخطّين اتسع الانحراف، لذلك في موضوع الدين لا يوجد حل وسط، تتساهل بمعصية تحجب عن الله عز وجل، لو أنك سايرت صديقاً لك من أهل الدنيا، وعصيت الله في واحدة، هذه الواحدة لا بد من أن تقود إلى ثانية، وثالثة، ورابعة، ثم ينتهي بك المطاف إلى أنك ترى أن الدين شيء لا يتناسب مع هذا العصر ! تترك الصلاة، دعاك إلى سهرة مختلطة انتهى بك الأمر إلى إنكار الدين كله ! لذلك:

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9))

(سورة القلم)

لو أن رجلاً له صديق أو قريب لا يقبل المساومة، أخي، اذهب معنا إلى السهرة، ونحن إن شاء الله يوم الجمعة نأتي معك إلى المسجد ! لا، لا تأتوا معي، ولا آتي معكم ! هكذا يقولون: أنت سايرنا بواحدة، سهرة بريئة، ليس فيها شيء، الإنسان يطّلع، حديث: تعلم السحر ولا تعمل به ! من قال لك هذا الكلام ؟ يُغْرُونك أن تتزحزح عن مواقعك قيد أنملة، فإذا تزحزحت فلا بد من أن تصل إلى الهاوية، فربنا هكذا قال:

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)

يعني يغرونك أن تنحرف قليلاً، أن تسكت عن بعض الأفكار، أن تكف عن أن تعيب آلهتهم.

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (73))

طبعاً عندما يقبل الإنسان أن يتزحزح عن مكانته وعن بادئه، وعن عقيدته، وعن قيمه، يتخذونه خليلاً، شيء طبيعي، لكن من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى.

عَنْ عَلِيٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

(أحمد في مسنده)

(وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (73) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (74))

هذه هي العصمة، كِدْتَ تركن، أي لن تركن، فِعْلُ **(كاد)**من أعذب الأفعال، إذا ذكرته مثبتاً فمعناه النفي، وإذا نفيته فمعناه الإثبات ! مثلاً: كدت أقع، هل وقعت ؟ إذا قلت: كدت أقع، فيعني لن أقع، وإذا قلت: ما كدت أقع حتى قمت، معنى ذلك أني وقعت، فإذا نفي هذا الفعل فهو مثبت، وإذا أثبت فهو منفي.

(لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (74))

إذاً يا لطيف هذا القدوة إذا اخطأ له حساب مضاعف، سيدنا عمر كان إذا أراد إنفاذ أمر جمع أهله وخاصته وقال:**" إني قد أمرت الناس بكذا، ونهيتهم عن كذا، والناس كالطير، إن رأيتكم وقعتم وقعوا، وايم الله لا أوتين بواحد فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني ".**

(إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً (75))

أي: عذاباً مضاعفاً في الدنيا، وضعف الممات أي: عذاباً مضاعفاً في الآخرة، هذا القدوة، الأب إذا أخطأ له عذاب مضاعف ! المعلم الذي يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، الذي يتصدر توجيه الناس إذا أخطأ فله عذاب ضعف في الدنيا، وعذاب ضعف في الآخرة، كيف لا ؟ والنبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو فعل ذلك لا ستحق هذا العذاب ! إذاً لأذقناك يا محمد ضعف الحياة، وضعف الممات، عذاب مضاعف، هذا عذاب القدوة مضاعف، وثواب القدوة مضاعف !

(ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً (75) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلاً (76) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً (77))

لو أن الله عز وجل زوّد النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمعجزات رآها قومه، وكفروا بها استحقوا الهلاك، كما قلنا هذا في درس سابق، لذلك إذا كان الإنسان قدوة فليتق الله، لأن أكثر خطأ يأتي للناس أنهم يرون إنساناً له زي ديني، ويعصي الله ! يقتدون به، هل أنت أفهم من فلان ؟ أشد ورعاً منه ؟ هو يفعل هذا ! هذا الجاهل، أما الذكي فيقول: كله خلط،له موقفان، موقف معلن، موقف حقيقي، يتخذ الدين تجارة، يتخذه مطية لمآربه، فهذا الذي يعصي الله أو يتساهل، أو يتزحزح عن مواقعه المتينة من أجل الدنيا هذا له عذاب ضعف في الدنيا، وضعف في الآخرة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (10-13): تفسير الآيات 78 – 81
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-09-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس العاشر من سورة الإسراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً (79))

هذه الآيات وقف المفسرون من تفسيرها مواقف متباينة.

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ)

دلوك الشمس زوالها عن كبد السماء.

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ)

وكما هو معلوم لديكم أن دخول الوقت شرط من شروط الصلاة، فالصلاة لا تصح إلا إذا دخل الوقت، ولا تصح صلاة الظهر إلا إذا زالت الشمس عن كبد السماء، فـ:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ)

هذه اللام توقيفية، أي حين دلوك الشمس،

(إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ)

وغسق الليل هو ظلمة الليل، لذلك بعض الفقهاء قالوا في هذه الآية: جمعت فيها الصلوات الخمس، فصلاة الظهر والعصر لدلوك الشمس، تبدآن بعد زوال الشمس عن كبد السماء، وصلاة المغرب والعشاء تنطويان تحت قوله تعالى:

(إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ)

أي: صلاة الصبح، وسميت الصلاة في مواضع أخرى ركوعاً، وسميت سجوداً، وسميت في هذه الآية قرآناً، وهذا في البلاغة وارد أن نسمي الشيء ببعض أجزائه المهمة، فقراءة القرآن في الصلاة ركن من أركانها، فعلى هذا التفسير دخلت الصلوات الخمس في هذه الآية:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ)

صلاة الظهر والعصر،

(إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ)

صلاة المغرب والعشاء،

(وَقُرْآنَ الْفَجْرِ)

صلاة الصبح.

(إِنّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (78))

الحقيقة، وهناك تفسير آخر، أن الله عز وجل وضح أوقات الصلاة في آيات أخرى، والنبي عليه الصلاة والسلام بيّن هذه الأوقات بدقة بالغة، وبيّن ركعاتها، وركوعها، وسجودها، وشروطها، بالسِّنة الفعلية والقولية، لأنكم كما تعلمون السنة هي كل قول أو فعل أو إقرار.

((... صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي))

(متفق عليه عن مالك بن الحويرث)

عَنْ جَابِرٍ يَقُولُ:

((رَأَيْتُ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَرْمِي عَلَى رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النّحْرِ يَقُولُ لَنَا: خُذُوا مَنَاسِكَكُمْ...))

(أحمد)

فالسنة أنواع ثلاثة: نوع منها قولي، ونوع منها فعلي عملي، ونوع منها إقراري، فالصحابي الجليل إذا فعل شيئاً بحضرة النبي عليه الصلاة والسلام، وبقي النبي صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ صامتاً فهذا من السّنة، لأن النبي عليه الصلاة والسلام لا يسكت على خطأ، لماذا ؟ لأنه مشرّع، لو أنه سكت على خطأ لعدّ هذا الخطأ شرعاً، ولسمح باتباعه، وهذا في حق النبي صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مستحيل، لذلك إقراره أو أفعاله أو أقواله، فالصلوات الخمس بأوقاتها وأركانها، وشروطها وسننها، وكل تفصيلاتها وردت فيها سنّة فعلية وقولية، بينما هذه الآية تأمرنا بمطلق الصلاة، بمعنى الصلاة فرض قطعي الثبوت بحسب هذه الآية:

(أَقِمِ الصّلَاةَ)

ومن فهم من هذه الآية أن النبي عليه الصلاة والسلام مأمور بالصلاة فأمته مأمورة أيضاً بالتبعيّة، فالله سبحانه وتعالى قد أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين.

ويبدو أن الصلاة شطر الدين، إذا صحّ أن نضغط الدين إلى شطرين أو إلى ركنين، أو إلى شيئين أساسيين، هما الصلاة والإحسان إلى الخلق ! الاتصال بالحق، والإحسان إلى الخلق.

(وَأَوْصَانِي بِالصّلاةِ وَالزّكَاةِ مَا دُمْت حَيّاً (31))

(سورة مريم)

الصلاة صلة بالله عز وجل، لكن حينما تؤدى الصلاة أداءً شكليا، فحينما يسبق الصلاة تقصير أو حَيد عن الشرع، أو مخالفة لأوامر الله، أو عدوان على الآخرين، فإن العدوان والمعصية والمخالفة والتقصير، هذا كله يشكل حُجُباً كثيفة في أثناء الصلاة، لذلك أكثر الذين لا يستقيمون على أمر الله يملّون

من الصلاة ! يجدونها عبئاً ثقيلاً، لسان حالهم يقول: أرحنا بها ! على عكس ما كان عليه الصلاة والسلام، فعَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: **" قَالَ رَجُلٌ قَالَ: لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ، فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:**

((يَا بِلالُ، أَقِمِ الصَّلاةَ أَرِحْنَا بِهَا))

(سنن أبي داود)

ربنا عز وجل يقول:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ)

أقم، ولم يقل: صلِّ، ما الفرق بين أن يقول الله عز وجل: صلِّ، وبين أن يقول: أقم الصلاة ؟ الصلاة تحتاج إلى استقامة، شروط كثيرة لا بد من توافرها حتى تستطيع أن تصلي، قد نقول لطالب: أدِّ الامتحان، أيّ امتحان هذا ؟ إن دخول قاعة الامتحان أمر سهل، والإمساك بالقلم أمر سهل، ولكن أن تنجح أمر صعب، كلمة أدِّ الامتحان معنى ذلك أنك أمضيت عاماً بأكمله تدرس، فربنا عز وجل حينما يقول:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ)

يعني هل هيأت نفسك قبل الصلاة للصلاة ؟ هل أنت مستعد للصلاة ؟ هل بإمكانك أن تقف بين يدي الله عز وجل دون أن يحجبك الخجل ؟ دون أن يحجبك حاجب ؟ أقم الصلاة من معاني هذه الآية أن فكِّر بآيات الله حتى تعرفه، وإذا عرفته عندئذٍ تخشاه، وإذا خشيته تستقيم على أمره، وإذا استقمت على أمره تستطيع أن تقف بين يديه، وتحس عندئذٍ أن الصلاة شيء ثمين جداً.

خطر ببالي مثل يوضح الصلاة الجوفاء، والصلاة الصحيحة، لو دعيت إلى طعام، وجلست على مائدة وضع أمامك صحن وملعقة وكؤوس وأوانٍ ومنديل، وكل شيء وضع بالتمام والكمال إلا الطعام، لو دعيت إلى هذه الولائم مراراً، وتكراراً تملّ من هذه الدعوة، ومن حضور هذه المائدة، لا طعام عليها، الصحون موجودة، كل شيء على الطاولة صحيح إلا الطعام، لكنك إذا دعيت إلى طعام نفيس، وجاءت الدعوة ثانية، إنك تلبي بشوق وباهتمام، وبسرور، وتشعر بأن الذي دعاك قد امتن عليك ! شتان بين أن تصلي صلاة صحيحة فتخرج من الصلاة، وقد قبضت شيئاً ثميناً، الصلاة ميزان، فمن وفّى استوفى، وبين أن تصلي صلاة جوفاء سريعاً ما تملها، وتعرض عنها، لذلك جاء وصف المنافقين أنهم:

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً (142))

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ)

هناك تفسيرات تقول: لدلوك الشمس إلى غياب الشمس..

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ)

ربنا سبحانه وتعالى في سورة المزمل يقول:

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً(6))

(سورة المزمل)

ركعتان في جوف الليل خير من الدنيا وما فيها، لأن طبيعة الإنسان في الليل طبيعة صافية ! لا مشاغل، لا مواعيد، لا أولاد، لا متاعب لا ضجيج، فكل هذه العوائق والعلائق في صلاة الليل مختفية، ويبدو أن الإنسان إذا قام من نومه تكون نفسه أصفى ممّا لو ذهب إلى الصلاة من عمله ! لأن طبيعة العمل فيها متاعب، وفيها مشاحنة، فيها مشكلات، هذه المتاعب تسير معك إلى المسجد، لكن صلاة الليل تمتاز عن غيرها بأن الاتصال فيها محكم، وأن إقبال العبد على ربه مؤكد، وأن تلقي التجلي محكم، لذلك قال الله عز وجل في الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ))

(صحيح مسلم)

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (78))

الفقهاء أشاروا إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقرأ في صلاة الفجر ما يزيد على أربعين أو إلى ستين آية في كل ركعة ! هذا العدد لأنك أنت مرتاح، مستيقظ من النوم، قد أخذت قسطاً من الراحة، وأنت نشيط، وصلاة الفجر ركعتان، وجاء في بعض الأحاديث

((أن يا عبدي لا تعجز عن ركعتين قبل الشمس أكفك النهار كله !))

أنت طول النهار في حفظ الله ورعايته وتوفيقه، والله يدافع عنك، ويحميك من كل ورطة، ومن كل مشكلة، إذاً:

(وَقُرْآنَ الْفَجْرِ)

معظم العلماء على أن قرآن الفجر أي: صلاة الفجر، وربما سميت قرآن الفجر لأن قراءة القرآن يجب أن تغلب عليها ! فكأن الله عز وجل ينتظر من الذي يصلي الفجر أن يطيل في القراءة، لأنه أدعى إلى الخشوع، وأدعى إلى التعلم، وقد يتعلم الإنسان بعض ما في كتاب الله وهو يصلي ! وبعضهم قال: قرآن الفجر: هو القرآن الذي يتلى قبل صلاة الفجر، أو بعد صلاة الفجر، هذا القرآن جزء من العبادة، فمن أراد أن يتعرف إلى ما في القرآن فليلزم نفسه أن يقرأه كل يوم، لو أنه قرأه كل يوم جزءاً، أو نصف جزء، أو ربع جزء، أو عدة صفحات فإن هذا مع الاستمرار يجعله على صلة بكتاب الله، صلة مستمرة.

(إِنّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (78))

أي: مشهوداً من قِبَل الملائكة، والملائكة يشهدون لك يوم القيامة أنك قمت من الليل، وقرأت القرآن، وصليت بالقرآن، وتهجدت بالقرآن.

(وَمِنَ اللّيْلِ فَتَهَجّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ)

التهجد ترك الهجود، والهجود النوم، وهذه الصيغة صيغة سلبية، تقول: تأثمت أي: تركت هذا الشيء مخافة الإثم، تقول: تحرجت أي: تركت هذا الشيء مخافة الحرج، تهجدت أي: تركت النوم، فالتهجد أن تدع النوم لتصلي ! ومنها صلاة التهجد، وهي صلاة فيها استيقاظ بعد أن تأخذ قسط من النوم، فلو قال لصلاة التهجد تلك التي يصليها الإنسان قبل أن ينام، لا، هذه الصلاة التي يصليها بعد أن ينام، ينام ويستيقظ قبل صلاة الفجر، هذه صلاة التهجد.

(وَمِنَ اللّيْلِ فَتَهَجّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ)

هذه صلاة النافلة.

الحقيقة، لا تعصه في النهار يوقظك في الليل..

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأنبأني بأن العلم نـــور ونور الله لا يؤتاه عــاص

***

إذا ألزمت نفسك في النهار على طاعته، واتباع سنّة النبي صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وغض البصر، والتحرج من كلمة الإثم، من الغيبة، من النميمة، من الفحش، من البهتان، من الإفك، من كل إيذاء، من كل انحراف، من كل معصية، أغلب الظن أنك تستيقظ من دون منبه، وتستيقظ لتمضي أجمل ساعات العمر في مصلاك ! هؤلاء الذين عرفوا الله، وأحبوه ما ذاقوا طعماً أطيب من طعم القرب ! هؤلاء الذين استيقظوا من الليل، وتهجدوا لا شيء في الدنيا يعدل هذا التهجد.

(وَمِنَ اللّيْلِ فَتَهَجّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً (79))

بعض المفسرين قال: هذا الأمر خاص بالنبي عليه الصلاة والسلام، لقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْمُزّمّلُ (1) قُمِ اللّيْلَ إِلّا قَلِيلاً (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (4))

(سورة المزمل)

في آخر السورة:

(إِنّ رَبّكَ يَعْلَمُ أَنّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الّذِينَ مَعَكَ)

(سورة المزمل: 20)

فالعلماء بين أن تكون هذه الآيات خاصة بالنبي عليه الصلاة والسلام، وبين أن تكون عامة، على كلٍّ من أراد أن يذوق طعم القرب فليصلِّ صلاة الليل، صلاة الليل تحتاج إلى طاعة تامة في النهار، تحتاج إلى عمل صالح، تحتاج إلى بذل وعطاء، إلى تضحية وإيثار، عندئذٍ ترى أمتع شيء أن تقف على قدميك، وتقرأ القرآن في الليل، وتناجي ربك.

إن سيدنا عمر وفد إليه رسول من أذربيجان، هذا الرسول وصل المدينة في منتصف الليل، فكره أن يطرق باب أمير المؤمنين، فتوجّه إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي المسجد يبدو أن الظلام كان دامساً، وفي المسجد سمع صوت أنين وشوق إلى الله عز وجل، سمع صاحب هذا الصوت يقول: **يا رب، أنا واقف ببابك، مستمسك بحبالك، هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي، أم رددتها فأعزيها ؟** فقال هذا الرسول: من أنت يرحمك الله ؟ قال: أنا عمر بن الخطاب ! كره أن يطرق بابه ليلاً فإذا هو في المسجد، قال: يا أمير المؤمنين، ألا تنام الليل ؟ قال: **إني إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي، لذلك قالوا: من أمضى عمره بالنوم أتى يوم القيامة مفلساً ! إني إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي،** ويمكثان حتى يؤذن الفجر، ويصليان الفجر، ويأخذ عمر ضيفه إلى البيت، وفي البيت يقول للسيدة أم كلثوم: هذه كوكب إسلام، يقول: يا بنت رسول الله، ماذا عندك من طعام ؟ قالت: والله يا أمير المؤمنين ما عندنا إلا خبز وملح ! يقدم عمر إلى ضيفه هذا الطعام الخشن، ويأكلانه، ويحمدان الله عز وجل على هذه النعمة، ويقول عمر لضيفه: ما الذي أقدمك إلينا ؟ يقول: معي هدية من عاملك على أذربيجان، علبة فيها بعض الحلوى، قال سيدنا عمر: أو يأكل عندكم عامة الناس من هذا الطعام ؟ قال: لا، هذا طعام الخاصة، الطبقة الغنية، قال: أو أعطيت فقراء المدينة مثلما أعطيتني ؟ قال: لا، هذه لك وحدك.

ما كان من عمر إلا أن أمر الرسول أن يبلّغ الأمير هناك أن يأكل مما يأكل منه عامة المسلمين ! وأمره أن لا يعود إلى ذلك أبدا، وأمر الرسول أن يذهب بهذه الحلوى ليوزعها على فقراء المسلمين في مسجد رسول الله صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وقال قولته الشهيرة: **" حرام على بطن عمر أن يذوق حلوى لا يطعمها فقراء المسلمين ".**

طبعاً هذا الورع من صلاة الليل، في سورة المزمل:

(إِنّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (5) إِنّ نَاشِئَةَ اللّيْلِ هِيَ أَشَدّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6) إِنّ لَكَ فِي اَلنّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً (7))

(سورة المزمل)

إذا شحنت نفسك في الليل فاضت الأنوار في النهار، فاض العلم في النهار، فاض العمل الصالح، فاض الورع، فاض القول السديد، فاض الفكر الثاقب، المواقف الأخلاقية، والتفكير السليم، واتخاذ القرار

الصحيح، والرؤية الصحيحة، هذا كله من أفضال صلاة الليل ! لا تستخف بصلاة الليل، إنها مدرسة، مدرسة بكل ما في هذه الكلمة من معنى مدرسة، خرجت الصدّيقين، خرجت كبار المؤمنين، خرّجت العارفين بالله، أحد كبار العلماء العارفين رآه تلميذه في المنام قال يا سيدي: ما فعل الله بك ؟ قال: طاحت تلك الإشارات، وذهبت تلك العبارات، ولم يبقَ إلا ركيعات ركعناها في جوف الليل !

فاحفظ سورة يس، واقرأها بقيام الليل في ثماني ركعات، عند كل كلمة مبين تركع، فيها ثمانية مبينات، احفظ يس فهي قلب القرآن، واقرأها في جوف الليل.

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً (79))

والمقام المحمود: إما أن يكون خاصاً بالنبي عليه الصلاة والسلام، كما في حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِذَا سَمِعْتُمْ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ))

(مسلم)

هذا المقام المحمود.

وبعضهم قال: المقام المحمود هو الشفاعة العظمى، وعلى كلٍ المقام المحمود هو أعلى مرتبة نالها البشر، وهو لسيد البشر محمد عليه الصلاة والسلام.

وإذا أردنا أن نوسع الآية لتشمل المؤمنين، أنت بصلاة الليل وبتهجدك تنال عند الله مقاماً محموداً، كقوله تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55))

(سورة القمر)

وشتان بين من يحتل عند الله مقاماً محموداً، وبين من يحتل عند البشر مقاماً محموداً.

اجعل لربك كل عز ك يستــقر ويثـبت

فإذا اعتززت بمن يم ـوت فإن عزك ميت

***

وكلمة (محمود)هذا اسم مفعول، أي: إن صاحب هذا المقام ما وصله إلا لأنه محمود السيرة عند الخلق، وعند الحق، وعند نفسه، وهذا مقام النبي عليه الصلاة والسلام.

قد تحمد عند إنسان، وتذم عند إنسان آخر، قد تحمد عند نفسك، وتذم من قِبل الآخرين، قد يحمدك الناس، وليس لك عند الله مقام محمود، ولكن أن تجمع بين أن تكون محموداً عند الخلق وعند الحق، وعند نفسك فهذا من أعمال الأبطال، والنبي عليه الصلاة والسلام كان بطل الأبطال !

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ)

قبل أن نفسر هذه الآية أريد أن أبين علاقة هذه الآية بالآيات التي قبلها:

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (73) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (74) إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً (75) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلاً (76) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً (77))

(أَقِمِ الصَّلَاةَ)

ما علاقة هذه الآيات بهذه الآية ؟

قال بعض المفسرين: أي: إن الإنسان كلما واجه كيداً، أو واجه صعوبةً، أو لاح له شبح مصيبة، أو اغتمّ قلبه أو تضعضعت نفسه...

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ)

وهذه وصفة ربانية، كلما هالَكَ أمر فارجُهُ، كلما عرض لك خطر ثق به، كلما قال لك الطبيب كذا وكذا مما يضيق لك القلب ثق به، كلما أصبحت الحاجات نادرة وعسيرة المنال ثق به، كلما نالك أمر ثق به. لذلك:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ)

تأتي هذه الآية وصفة ربانية لكل إنسان أصابه هم وحزن، ربنا عز وجل في بعض الآيات يقول:

(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ)

(سورة الأنعام: 33)

أحياناً ربنا عز وجل يصف حالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما يرى الطرق مسدودة، والصد عن سبيل الله قوياً، حينما يرى المعارضة تشتد، وهناك من يكيد له من كل جانب، حينما يتخلى عنه الأصدقاء، ويضعف أمامه الأصحاب، وحينما تقوى شوكة العدو، عندئذٍ:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ)

هذه وصفة ربانية، حياة الإنسان محفوفة بالمخاطر، فكلما لاح له شبح خطر فليفزع إلى الصلاة، والله سبحانه وتعالى كفيل أن يريه ما في الصلاة من خير كبير.

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً(80))

هذه الآية مهمة جداً، الإنسان أحياناً يتزوج، وينوي بهذا الزواج أن يرضي الله عز وجل، دخل في الزواج مدخل صدق، فإذا وهو متزوج، تغريه زوجته أن يفعل كذا وكذا، وأن يدع كذا وكذا، وأن يكسب هذا المال الحرام، وأن يشتري لها كذا وكذا، وأن يرافقها إلى نزهة في مكان مختلط، وأن يذهب بها إلى بلاد بعيدة، بلاد الكفر والفسق والفجور، دخل في الزواج مدخل صدق، فخرج منه مع الكاذبين المنافقين، فالآية الكريمة:

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً(80))

قد يشارك الإنسان إنساناً يراه لطيفاً ذكياً مليئاً، يرى في هذه الشركة كل الخير، يدخل فيها مدخل صدق، فإذا بهذا الشريك له من المعاصي والمخالفات ما حمله على أن يفعل مثله ! إذا به يدخله في متاهات، يضع أمواله بالفائدة، يتاجر بما هو محرم، يغريه بالربح الكثير، خجل وسكت، دخل مدخل صدق، وخرج مخرج كذب، وفجور وفسق ونفاق، فالأمور بخواتمها، البطولة أن تنتهي الحياة وقد خرجت منها مخرج صدق، من السهل جداً أن تدخل مدخل صدق، ولكن البطولة أن تخرج منها مخرج صدق، لذلك أحد أصحاب رسول الله سأل سيدنا عمرو بن العاص: يا عمر ما بلغ من دهائك ؟ قال: والله ما دخلت مدخلاً إلا أحسنت الخروج منه، فقال: يا عمرو لست بداهية، أما أنا فوالله ما دخلت مدخلاً أحتاج أن أخرج منه، فالبطولة أن تدخل مدخل صدق في كل شيء، في الوظيفة، في الزواج، في التجارة، في الشركة، في هذه السفرة، النية مشروعة، خرجت من بلدك، وسافرت إلى هذا المكان بنية أن تحّصل شيئاً مباحاً، فإذا بالقدم قد تزلّ، وتقع في أكبر المعاصي ! فلذلك يكون الدعاء في كل حركة في السفر في الدخول إلى عند بعض الأشخاص في أي موقف يوجد مزالق وأخطار، هناك احتمال أن يقع الإنسان في المعصية، في أي مكان يمكن أن تزل القدم ادعُ بهذا الدعاء:

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً(80))

الإنسان يواجه مزالق كثيرة جداً في الحياة، إذا كان معتصماً بالله، مستمسكاً بحبل الله، ذاكراً لله، فأغلب الظن أن الله سبحانه وتعالى يحفظه من كل مكروه !

(رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ)

أيّ صدق معك، صدق في النيّة، وصدق في الفعل، وصدق في الاستقامة، وصدق في البذل، المدخل صدق، وهذه الكلمة جامعة مانعة، أنت مع الله صادق في أحوالك، وفي أفعالك، وفي وجهتك، وفي نياتك، وفي حركاتك، وفي سكناتك.

(وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ)

كن معي يا رب في هذا المكان، وفي هذا السفر، وفي هذا اللقاء، وفي هذه المقابلة، كن معي حتى لا تزل قدمي من أجل أن أخرج منها مخرج صدق.

(وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً(80))

أي: ألهمني حجتي، ألهمني أن اقف موقفاً صلباً، ألهمني ألاّ أقع تحت إغراء المال، وألاّ أقع تحت ضغط الآخرين، الإنسان بين الضغوط والإغراءات، الضغط مزلة قدم، والإغراء مزلة قدم، والإنسان واقع بينهما.

(وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً(80))

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا جعلتالأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه،

كن مع الله ترَ الله معك واترك الكل وحاذر سمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك ؟

***

كيف ما شاء فتكن في يده لك إن فرق أو إن جمع

***

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضا من أحبنا

و لذ بحمانا واحتمِ بجنـــابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

***

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً(80))

أحياناً الإنسان يدخل إلى بيته يدخل مدخل صدق، يحمل أغراضه ويدخل، ينشب خلاف فتسمعه زوجته كلمة قاسية، يرد عليها بكلمة أقسى، تقسو هي عليه إلى أن يحلف عليها بالطلاق يميناً، ويطردها من البيت، وعنده أولاد خمسة، هذا دخل مدخل صدق، لكنه لم يخرج من البيت مخرج صدق، فإذا دخل الإنسان بيته فعليه أن يسمي، ففي الحديث عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ، وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ))

(مسلم)

وهذه تصلح لركوب السيارة أيضاً، يركب أحدهم سيارته يا ترى هل هناك إنسان نائم يأتي أمامه ؟ قد يقع حادث مروّع، قد يفقد الإنسان أحد أعضائه، والخطأ ليس خطأه.

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً (80) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (81))

الحق هو الشيء الثابت المستمر، والباطل الشيء الطارئ غير المستمر، فالحائط الذي بني على غير الشاقول الحائط المائل لا بد من أن يقع، ويكون هذا الحائط باطلاً، أما الحائط الذي بني على الشاقول بني بالحق، أي: سوف يبقى، فالحق هو الشيء الثابت الهادف، والدليل أن الله عز وجل في آيتين من آيات كتاب الله وضح فيهما معنى الحق، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْنَا السّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً)

(سورة ص: 27)

الباطل هو الشيء الزائف، فالحق الشيء الثابت، وفي هناك آية ثانية:

(وَمَا خَلَقْنَا السّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16))

(سورة الأنبياء)

واللعب هو العمل الذي لا جدوى منه، فالحق إذاً خلاف اللعب، العمل الهادف، فتعريف الحق من خلال هاتين الآيتين هو الشيء الثابت الهادف، الباطل الشيء غير الثابت غير الهادف، لا جدوى منه ولا يثبت.

بعضهم قال: الباطل وجوده ليس ذاتياً، هناك أسباب خارجية تجعله يقف، فإذا زالت هذه الأسباب وقع ! أما الحق فوجوده ذاتي، كإنسان ضعيف الإمكانات قد نضعه في مكان رفيع، ولكن الذي وضعه دعمه، فهذا وجوده بالباطل، لكن لو أن الإنسان أهل لهذا المكان وعنده من العلم، والخبرة، والحكمة ما يجعله في مستوى هذا المكان نقول: هذا الإنسان مكانه بالحق، هذا الإنسان الذي وضعه في هذا المكان لو تخلى عنه فإن وجوده قائم ثابت ! فمن معاني الحق أن يكون الشيء ثابتاً وهادفاً، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (81))

بعضهم يقول: الإنسان مندوب له أن يقرأ هذه الآية حينما يزهق الباطل، مثلاً لو تمكن من إزالة منكر في البيت فليتلُ هذه الآية:

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (81))

لو أنه تمكن من فك شركة مع شريك مبطل يعمل بالربا، ويبيع المواد المحرمة، لو أنه فعل ذلك، ووقع عقد المخالصة يقول في نفسه:

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (81))

النبي الكريم حينما أمر أن تكسر أصنام الكعبة التي حولها تلا هذه الآية:

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (81))

فالباطل الشيء المتداعي الذي لا يملك أن يقف على قدميه وحده، الشيء الذي سيزول، والشيء الذي لا يستمر، الشيء الطارئ العارض غير الهادف، ليس هناك هدف عظيم من الباطل، الحق هو الشيء الثابت الهادف، فقالوا: للباطل جولة ثم يضمحل، والأمور لا تستقر إلا على الحق أبداً، وكل أمر مستقر فهو على الحق.

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (81))

هذه الصيغة صيغة الترابط الوجودي، الرابط الوجودي أن تقول: إن الطائرة تطير، فلو ألغي الطيران ألغيت الطائرة، فالترابط بين الطائرة وبين طيرانها ترابط وجودي، حيثما طارت فهي طائرة، فإن لم تطر لا تبقى طائرة ! إذاً:

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (81))

وكلمة (زهوقا)على وزن فعول، لم يقل: زاهقاً، اسم فاعل، هذه صيغة مبالغة لاسم الفاعل، يعني لابد من أن تزول الفكرة الباطلة، المعتقد الباطل لا بد من أن يزول، الشخص المبطل لا بد من أن يضمحل، أفكار، معتقدات، أعمال، انحرافات، أيّ شيء يوثق بأنه باطل لا بد من أن يزول، ولا يستقر الأمر إلا على الحق، فلذلك الباطل زاهق، إن عاجلاً أو آجلاً، والحق مستقر، والدليل حينما ينادي المنادي يوم القيامة:

(فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ)

(سورة الأعراف: 44)

هذا هو الحق ! أين دعوى الداعين ؟ أين دعوى الكاذبين ؟ أين تخرصات الكافرين ؟ كلها تلاشت.

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52))

(سورة يس)

فمن وقف مع المبطلين ـ إذا كان بشكل أو بآخر ـ فقد غامر، وقامر بسعادته، فلذلك:

(إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (81))

أما إذا كنت مع الحق فالعاقبة لك:

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55))

(سورة القمر: 54 – 55)

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزّةَ فَلِلّهِ الْعِزّةُ جَمِيعاً)

(سورة فاطر: 10)

إذا كنت مع الحق فأنت من حسن إلى أحسن، ومن خير إلى خير، ومن سعادة إلى سعادة، ومن توفيق إلى توفيق، وحينما يأتي الموت الذي لا بد منه تجد أنك قد نقلت من دار إلى دار، نقلت من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ! كما ينقل المولود من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا!

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ(27))

(سورة يس)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ:(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)))

(متفق عليه)

كن مع الحق ترَ أن الدنيا كلها معك، يكفي أن يكون الله معك، فإذا كان معك فمن عليك ؟ يكفي أن الله معك بالرعاية والحفظ والتوفيق والتسديد، وكلما تشتهي نفسك ! عبدي كن لي كما أريد، أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد، ولا تعلمني بما يصلحك، فإذا سلمتني فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تكن لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (11-13): تفسير الآيات 82 – 85
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-09-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر من سورة الإسراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً (82) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً (83) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً (84) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً(85))

(سورة الإسراء)

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)

شفاءٌ ورحمة، يا ترى هل القرآن الكريم يشفي الأمراض المادية ؟ أم أنه يشفي النفوس ؟ أو يشفي العقول ؟ علماء التفسير يرجحون أن العقل الجاهل يشفيه من الجهل، فيعرفه بالله عز وجل، أخطر شيء في الحياة الجهل، أعدى أعداء الإنسان هو الجهل، فإذا عرفت من أنت، وأين كنت، وأين المصير، ولماذا خلقت ؟ وما هو أجدى عملٍ تفعله على وجه الأرض ؟ وما هي مهمتك على سطح الأرض ؟ ولماذا تعمل الصالحات ؟ من أجل جنة عرضها الأرض والسماوات، إذا عرفت الحقيقة، وعرفت سر الوجود، شفي عقلك من داء الجهل !

الإنسان بلا علم كالبهيمة تماماً، الإنسان بلا علم إلى أن يكون حيواناً أقرب منه من أن يكون إنساناً، يأكل، ويشرب، وينام، ويعطي نفسه ما تشتهي، ويتكلم ما يحلو له، فيؤذي ويفرق، ويخرب البيوت، وهو لا يدري ماذا يفعل، يتمحور حول ذاته، يجر الأمور نحو مصلحته، يعيش على أنقاض الآخرين، يبني مجده على رفاتهم، يبني غناه على فقرهم، يبني سعادته على شقائهم، يبني حياته على موتهم، يبني أمنه على قلقهم، الإنسان من دون علم ومن دون هدى يدمر نفسه، ويدمر مجتمعه، يدمر ذاته، ويدمر الآخرين، لا تعنيه إلا ذاته، فلذلك ربنا عز وجل قال:

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)

شفاءٌ لهذا العقل، وشفاءٌ للنفس، أحياناً تصاب النفس بالقلق، تصاب بالخوف، تصاب بالشعور بالقهر أحياناً، إن هذه الأحاسيس المدمرة، هذه المشاعر المقلقة، وهذا الاختلال في توازن الإنسان، هذا كله سببه الجهل، يأتي القرآن فيطمئن، نضرب على هذا أمثلة كثيرة:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97))

(سورة النحل)

هذا نصٌ قرآني، هذا كلام رب العالمين، يجب أن يبدد هذا الكلامُ كلّ خوف، كل قلق، كل شعور بالمستقبل المظلم، يجب أن يبدد هذا القول وهو كلام رب العالمين كل شعور بالظلم، كل شعور بعدم الإنفاق، كل شعور بأن الحياة تحتاج إلى إنسان شرس، إلى إنسان قوي، لا.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97))

والدليل الواقع الذي أمامك، كن لله كما يريد يكن لك كما تريد، هل من مرض يصيب الإنسان يفوق الشعور بعدم الإنفاق ؟ الشعور بالقهر ؟ الشعور بالامتهان، الشعور بأن الحياة لا معنى لها، لا جدوى منها ؟ الحياة للقوي لا للضعيف، الحياة للغني لا للفقير، هذا الشعور الممل، شعور التفاوت، شعور القهر، شعور القلق هذا كله مبدّد في القرآن الكريم.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: 21)

انتهى الأمر، الله عز وجل يعجب ! أيعقل يا عبادي أن أعامل المسيء كالمحسن ؟ أن أعامل المؤمن كالكافر ؟ الكافر كالمؤمن ؟ أن أعامل الذي يعلم كالذي لا يعلم ؟ أن أعامل المحسن كالمسيء ؟ أن أعامل من عرفني كمن لا يعرفني ؟ أيعقل هذا ؟ إذا قرأت القرآن:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

الإنسان أحياناً لجهله بقواعد الحياة، لجهله بكتاب الله يستنبط حقائق مضحكة ! يقول: إن الإنسان مهما عمل من الصالحات، هذا لا يجدي إلا أن يكون مؤذياً للناس، يخرج بحكمةٍ خرقاء، استنبطها من الناس من تعامله مع الناس، ولو أنه قرأ كلام الله عز وجل:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

الإنسان قد يصادف شخصاً كافراً، بعيداً عن الله عز وجل، عاقّا لوالديه، يزداد قوةً وغنًى وشأناً ومكانة، فيصيبه اليأس، فيأتي قوله تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44))

(سورة الأنعام)

هذه الآية تضفي على قلبه الطمأنينة والسكينة، فالإنسان من دون قرآن يضيع، يقلق، يختل توازنه، أحياناً ييأس، يأتيه يأسٌ قاتل، هذا الذي ينتحر، لماذا انتحر ؟ يئس من العدالة في الأرض، يئس من الفرج، يئس من أن يكون له طريق إلى السعادة، فانتحر.

لو أنه قرأ كتاب الله عز وجل لشفيت نفسه من هذه الأمراض.

الذي أراه من خلال قراءتي لهذا الكتاب الكريم أنه ما من مرض نفسي، وما من حالةٍ نفسيةٍ صعبة، وما من شعورٍ مملّ، وما من تمزقٍ نفسي، إلا بسبب البعد عن هذا الكتاب، ولو أن الإنسان قرأ كلام الله بفهمٍ وتبصرٍ وتدبرٍ لزالت عنه كل أمراضه.

قد يقول قائل: العالم سيصاب بظاهرة اجتماعية اسمها التفجر السكاني، وسوف تقلّ المواد عن حاجة الناس، وسوف يأكل الناس بعضهم بعضاً، وسوف تصيب المجاعة معظم الدول المتخلفة، وسوف، وسوف... تجلس معه ساعة لا تستطيع أن تقف على قدميك، تحس أن الحياة قد انتهت، وأنه لا حياة للفقير، اقرأ قوله تعالى:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَكُمْ ثُمّ رَزَقَكُمْ)

(سورة الروم: 40)

فالرزق إذاً مُنْتهٍ أمره، لكن ربنا عز وجل أحياناً يجعل هناك بعض الضيق من أجل أن يمتحن العباد، يقول تعالى:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (11))

(سورة الأحزاب)

الذي يعرف يقول: لابد من أن يرزقني الله عز وجل.

يسعى، ويعمل، والله يرزقه، الله رب الجميع، رب العباد كلهم، رب السماء والأرض، يقول تعالى:

(وَفِي السّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبّ السّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنّهُ لَحَقّ مِثْلَ مَا أَنّكُمْ تَنْطِقُونَ(23))

(سورة الذاريات)

أحياناً يُعرض على الإنسان عمل صالح تحتاج إلى إنفاق مال فيمتنع خشية الفقر، يقول: دخلي محدود، لا أتمكن من الدفع، وأنا عندي أولاد، لو أنه قرأ كلام الله عز وجل، أنه ما من نفقةٍ ينفقها العبد في سبيل الله إلا عوضها الله عليه أضعافاً مضاعفة لم يمتنع عن ذلك.

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا)

(سورة الأنعام: 160)

(وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ (92))

(سورة آل عمران)

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ)

(سورة سبأ: 39)

كلام الله عز وجل، فمن أراد أن يشفي نفسه من كل الأمراض، من أمراض الهم والحزن، من أمراض القلق، من أمراض الشعور بعدم العدالة، من أمراض الحرمان، من أمراض التمزق، هذه الأمراض النفسية إذا قرأت القرآن شفيت نفسك.

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

(سورة البقرة)

كلام رب العالمين، فالإله يقول هذا الكلام لعباده جميعاً، في أي عقدٍ، في أي مصرٍ، في أي مكانٍ، في أي زمانٍ، في أي بيئةٍ، في أي ظرفٍ، في أي معطياتٍ،

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

يجب أن ينعدم الخوف من حياتك، ويجب أن ينعدم الحزن من حياتك، الثمن أن تتبع الهدى، اقرأ قوله تعالى:

(إِنّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسّهُ الشّرّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلّا الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

هؤلاء لا يفزعون عند المصائب، ولا يبخلون عند الرخاء، في الرخاء يعطون مما أعطاهم الله عز وجل، وفي الشدائد يصبرون على حكم الله عز وجل.

(إِنّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسّهُ الشّرّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلّا الْمُصَلِّينَ (22) الّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقّ مَعْلُومٌ (24) لِلسّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالّذِينَ يُصَدّقُونَ بِيَوْمِ الدّينِ (26) وَالّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنّ عَذَابَ رَبّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30))

(إِلّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَئِكَ فِي جَنّاتٍ مُكْرَمُونَ(35))

(سورة المعارج)

إلى آخر الآيات، فإذا كنت مصلياً لا تحس بالقلق، ولا تحس بالخَوَر، ولا الجبن، ولا الشعور بأنك دون الناس، ولا الشعور بأنك غير منصَف، هذا كله يبتعد عنك، هل من صحةٍ نفسيةٍ تفوق صحة المؤمن ؟ شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغنائه عن الناس.

(وَنُنَزّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ)

يشفي هذه النفس القّلِقة، يشفي هذه النفس الحائرة، يشفي هذه النفس التي سئمت الحياة، دقق في حياة أهل الدنيا، إذا بلغ كل أهدافه أصيب بمرض خطير اسمه السأم والضجر، عرف كل شيء، تزوج، وعرف طعم المال، وطعم الغنى، وعرف طعم الجاه، وسكن في بيت مريح، وأكل ما لذ وطاب، وسافر، وتنزّه، واصطاد، تراه في النهاية يمل كل شيء، ويسأم من كل شيء، لأنه ما عرف الله عز وجل، لذلك يشيخ أهل الفسق والفجور والعصيان في سن مبكرة، بينما المؤمن كل حياته شباب في شباب، لماذا ؟ لأن أهدافه كبيرة، كبيرة جداً، حياته كلها لا تكفي لتحقيق بعض أهدافه، لذلك ترى المؤمن في حيوية ونشاط وإقبال، واندفاع منقطع النظير، بسبب أنه يبحث عن الله عز وجل، يَهدف إرضاء الله عز وجل، يريد أن يهدي الناس جميعاً، يريد أن يسعد الناس جميعاً، يتمنى أن ينقلهم من الظلمات إلى النور، هدفه كبير، هدفه أكبر من حاجاته، رغبته في هداية الخلق تتجاوز مصالحه الذاتية، فالمؤمن لا يشيخ، ومن تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت.

أول شيء في هذه الآية أن كل من يعاني من مرض نفسي، وساوس، خوف، قلق، ضعف شخصية، شعور بالحرمان، شعور أن العدالة مفقودة، شعور أن الحياة للقوي فقط، أو للغني فقط، لأنه سواهم لا حياة لهم، هذا الشعور يسحق الإنسان سحقاً، إذا قرأ هذا القرآن:

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)

شفاء، طبعاً الشفاء يشفي العقل من داء الجهل، ويشفي النفس من داء القلق، يشفي العقل من أمراضه المتمثلة بالجهل، ويشفي الفكر من كل شعورٍ يقلب الحياة إلى جحيم، فالشرك يسبب للإنسان متاعب كبيرة جداً، فالإنسان من دون إيمان بالله عز وجل، من دون إيمانٍ بعدالته، وبأنه على كل شيء وكيل، من دون هذا الإيمان يجعل الناس لا ينام الليل، لأنه يخاف من كل شيء، كل إنسان قد يستطيع أن يوقع بك الأذى، إذا بعدت عن الله عز وجل، وبعدت عن هذا الكتاب، تشعر أن كل إنسان بإمكانه أن يصل إليك، بإمكانه أن يقلب حياتك جحيماً، بإمكانه أن يأخذ كل مالك، بإمكانه أن يفقدك أهلك وأولادك، بإمكانه أن يضعك في ظلمات في غياب السجن، لكن إذا عرفت الله عز وجل، وأنه بيده كل شيء، وأن الأمر كله إليه، وأنه إليه ترجع الأمور كلها، وأنه بيده ملكوت السماوات والأرض، وأنه ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، وأن الله عز وجل له الخلق والأمر، وهو يحكم لا معقب لحكمه، وهو لطيف لما يشاء، وأن الخير منه، والشر بتقديره من الإنسان كسباً، ومن الله فعلاً، إذا قرأ الإنسان القرآن، وعرف ما تنطوي عليه هذه الآيات انقلبت نفسه إلى نفسٍ هانئةٍ وادعةٍ مطمئنة واثقةٍ برضاء الله عز وجل، واثقةٍ من عدالته، واثقةٍ برحمته، تعرف أن هذه الحياة حياة قصيرة، طبيعتها الابتلاء طبيعتها الامتحان، وأن الحياة الحقيقية حياة الآخرة، وأن هذه الدنيا دار ابتلاء، وأن الآخرة دار عطاء، هذه الدنيا دار تكليف وأن الآخرة دار تشريف، إذا عرف هذه المعاني رضي بدخله، رضي بزوجته، رضي بأولاده،

رضي بكل شيء، لأنه يرى هذا كله بتخطيطٍ من عليمٍ حكيمٍ رحيمٍ محب، هذا كله مما توحي به هذه الآية.

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)

الشفاء واضح: النفس القلقة تشفى من قلقها، النفس المقهورة تشفى من قهرها، النفس التي تشعر بالظلم تشفى من هذا شعور، النفس القلقة على مستقبل أولادها تشفى من هذا القلق، النفس الحائرة تشفى، والعقل التائه يشفى، فهو شفاء للعقل وللنفس، ولا يمنع أن يكون الشفاء مطلقاً، بمعنى أنه ربما قرأ الإنسان كتاب الله عز وجل بنية الشفاء من مرضٍ ما لعل الله يكرمه بهذا الشفاء، وهذا أيضاً ممكن، المطلّق في القرآن على إطلاقه، قال:

(مَا هُوَ شِفَاءٌ)

فشفاء العقل، وشفاء النفس، وقد يقرأ القرآن بنية الشفاء من بعض الأمراض التي تصيب الإنسان، مع العلم أنه يجب أن يستشفي عند الطبيب أولاً، أخذاً بالأسباب، وبعدها يقرأ كتاب الله عز وجل، لعل الله عز وجل ينظر له بالشفاء المادي أيضاً.

أما الرحمة فالله سبحانه وتعالى يتجلى على قلب المؤمن تجلياً يجعل الحياة نعيماً، يجعل حياة المؤمن قطعة من الجنة، يجعل المؤمن في سعادة لا توصف، هذا كله تؤكده الآيات الأخرى.

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46))

(سورة الرحمن)

(لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

(سورة يونس: 64)

له البشرى، له الطمأنينة، له التجلي، فالشفاء والرحمة كأن تقول: التحلية والتخلية، التخلية أولاً، والتحلية ثانيا، أنت تنظف أولاً، ثم تفرش البيت ثانياً، تنظف الإناء، وتملؤه عطراً، أو شراباً لذيذاً، فالمرحلة الأولى مرحلة الشفاء مما سواه من الأغيار، من الشرك، من كل ما يقلق النفس، والمرحلة الثانية هي ملء هذه النفس بما لذ وطاب من قيم، ومن خلق كريم، ومن تجليات ظاهرة، و من تجلياتٍ تكسب الإنسان سعادة لا توصف، إذاً:

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً (82))

(سورة الإسراء)

الظالم ينتقد هذا الكلام، ويرى أن هذا كلام ليس مناسباً لهذا الزمان، نحن وصلنا إلى القمر، وهذا القرآن سيعيدنا إلى حياة الصحراء وحياة الجمل، هكذا يدعي بعضهم، وأن هذا القرآن يحتاج إلى تبويب وإلى تنظيم، وإلى تصنيف بحسب الموضوعات، وأن فيه أحكاماً لا تصلح لهذه الحياة، هي قسوة بالغة، كحد السرقة، وحد الخمر، وحد الزنى، هذا كله ممن يدعي الفهم والكياسة، قد يتهم هذا الكتابَ باتهامات

باطلة، اتهامات أعداء الدين، فيجعل بينه وبين كتاب الله حجاباً سميكاً، الأمر الذي يجعله ينطلق في الحياةِ بدافع نزواته وشهواته، فيقع في الحرام فيستحق عقوبة الديان، أن يقول: هذا الكتاب لا يصلح، إذاً افعل ما تشتهي، أطلق بصره، انتهى به الأمر إلى تطليق زوجته، وخراب بيته، وتشريد أولاده، أكل مالاً حراماً، ويقول: حلال.

فلما انكشف أمره حكم عليه بالإعدام، فأين المال هذا الذي يسير وفق نزوة نفسه، وفق ما يشتهي، وفق وسوسة الشيطان، وفق ما تمليه عليه غرائزه ومصالحه، هذا الذي يقول: هذا الكتاب لا يصلح، ماذا يصلح ؟ أن تفعل كما يفعل الناس.

عندئذٍ تأتي العقوبة الصارمة من الله عزّ وجل، خسر الدنيا والآخرة، إما أن تتقيد بهذا القرآن الكريم، وتسير فيه على بيّنة من أمرك، وإما أن تنطلق وفق ما يمليه الهوى، والمصلحة والنزوات.

إذاً لا بد من فعل السيئات، ولكل سيئة عقاب، يأتي العقاب تباعاً، إذاً وقعت في مشكلة كبيرة ! حينما أدرت ظهرك لهذا الكتاب، وانطلقت من شهوتك ونزوتك في حياتك اليومية، طبعاً وقعت في الحرام شئت أم أبيت ! والحرام له عقاب، وأحَلْتَ حياتك إلى جحيم.

لذلك ربنا عز وجل قال:

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا)

(سورة آل عمران: 103)

بعضهم قال: القرآن الكريم اعتصم به ! ما إن تمسكتم به فلن تضلوا أبدا ! فعَنْ مَالِك أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا، كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ))

(موطأ مالك)

القضية ليست قضية أن أنا أتبارك بالقرآن الكريم، بعض الناس يسمّونه تبارك، يقول لك: أخي اقرأه فيه بركة ! هذا الكلام ليس له معنى عند الناس، القرآن مجموعة قوانين دقيقة، حتمية الحدوث، تبدأ بالمقدمات تصل إلى للنتائج، أمرك بغَضّ البصر هذا قانون ! إذا فعلت هذا الأمر ضمنت الوفاق الزوجي إلى نهاية الحياة، وإذا خالفته انقلب البيت إلى جحيم، ماذا تباركت ؟ ما معنى تبرّكت به، وأنت تعصيه ؟ هذا الذي يعصي كلام الله عز وجل يعصي أمر الله عزّ وجل ؟ ما معنى لو قرأه تبركاً ؟ رُبَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه، البركة الحقيقية تأتيك من تطبيقه، إذا طبقته تحل عليك بركات الله عز وجل بالمعنى المادي، إذا طبقت أوامر الله في البيع والشراء أحبك الناس جميعاً، وأقبلوا عليك، وكثر المشترون، وربحت أرباحاً جيدة ! لأنك كنت مستقيماً، قال تعالى:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

(سورة هود: 112)

أمرك بالاستقامة، أمرك بالصدق، نهاك عن الخيانة، لو طبقت هذه الثلاثة الاستقامة والصدق، وابتعدت عن الخيانة والغش يثق الناس بك ! فدخل عليك مال وفير، عشت في بحبوحة، هذه بركة الله عز وجل، طبقت أحكامه فبارك الله لك بمالك، طبقته في أمر الزواج

(وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ)

(سورة البقرة: 221)

رزَقك المرأة صالحة التي إذا نظرت إليها أسرتك، وإن غبت عنها حفظتك، وإن أمرتها أطاعتك، طبقته في زواجك بحثت عن الدّينة، من تزوج المرأة لجمالها أذلّه الله، من تزوجها لحسبها زاده الله دناءة، من تزوجها لمالها أفقره الله، فعليك بذات الدين تَرِبَت يداك ! إذا اهتديت بهدي الكتاب في زواجك سعدت في زواجك، إذا اهتديت بالكتاب في أولادك، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً (74))

(سورة الفرقان)

همك أمر أولادك، أمر دينهم، أمر صلاحهم، أمر إيمانهم، أمر صلاتهم، وأمر صومهم، أمر معرفتهم بالله عز وجل، كان أولادك قرة عين لك، وسعدت بهم ! فهذه البركة، البركة أن تطبق أوامر الله، فإذا طبقتها حلّت عليك البركة، أما هذا الذي يعصي القرآن، يعصي أمر الله عز وجل ؟ يأكل مالاً حراماً، يفعل ما يشتهي، يبيح لنفسه كل المعاصي، إذا قرأ هذا الكلام، وكان عاصياً لمضمونه فأيّ بركة هذه ؟

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنْ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ))

(الترمذي)

الحياة دقيقة جداً، والله وضعنا المصحف في بيت فخم مخمل، وزيناه، وعلقناه بغرفة الضيوف، أو كان البيت كله آيات قرآنية نقول: الحمد لله، نحن مسلمون، ليس بذاك، بل نريد استقامة نحن، نريد بيتًا إسلاميًا، لا بيتًا فيه آيات قرآنية فقط ! ندخل محلاً تجاريًا فنقرأ

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (1))

(سورة الفتح)

المحل كله غش، وكذب، وأيمان كاذبة، فأين تطبيق آية:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)

هذه للبركة، ما هذا للبركة ؟ البركة لا معنى لها هنا، معنى البركة أن تطبق أمر الله عز وجل فتستحق الثواب في الدنيا والآخرة، هذه البركة، استقمت في البيع والشراء يتفضل عليك الله عزّ وجل بالدخل الوفير، غضضت بصرك عن محارم الله الآن تستحق أن تعيش حياة زوجية سعيدة ! أبداً افعل ما شئت البركة في كلام الله تعني تطبيقه ! إن طبقته حلّت عليك بركة الله عزّ وجل..

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً (82))

أعرض عن هذه الوصفة الطبية ! قال: هذا الكتاب لا يصدق، فانطلق في شهواته كما يشتهي، فحلّ عليه عقاب الله، فكأن هذا الكتاب بإعراضه عنه زاده وبالاً، وزاده شقاءً وهلاكاً، فالقرآن لا يقرؤه إنسان إلا زاد أو نقص، إما أنه يزداد إيماناً، وإما أنه يزداد بعداً عن الله عز وجل، وهذا البعد يستدعي الهلاك والشقاء في الدنيا والآخرة.

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً (83))

انظر لهذا النموذج الإنساني الذي لا يريده الله عز وجل، اللغز، إذا جاءتك الدنيا تزداد كبراً وإعراضاً وغطرسة واستعلاءً، كيف أنك من نطفة خُلقت، خرجت من عورة ! ودخلت في عورة ! ثم خرجت من عورة ! كيف أنك خُلقت من ماءٍ مهين تستحي به إذا كان على ثيابك ! كيف أنك كنت طفلاً صغيراً تحتاج إلى أب وأم يرعيانك ؟ كيف كل هذا؟

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78))

(سورة يس)

بعد أن بلغ الإنسان في الدنيا مرتبة في المال أو العلم أو الجاه أو القوة نسي أصله !

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ)

(سورة فصلت: 51)

إنسان حصل على شهادة عليا من دولة أجنبية، وعاد إلى بلده احتل منصباً رفيعاً، وله زوجة من ذلك البلد الأجنبي أتى بها من هناك، سكن في أرقى حي، وركب أفخم سيارة، وعاش حياة حديثة غربية قائمة على المتع والملذات، والانغماس في الشهوات، فجأة أصابه مرض في إحدى عينيه، فعمي في عين واحدة ! ما هي إلا أشهر عدة حتى فقد الثانية ! دخل عليه صديقه قال له: والله يا فلان، أتمنى أن أجلس على الرصيف، وأتسول، وأن يعيد الله إلي عينيّ !

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً (83))

البطل الذي يعرف الله في الرخاء، وأنت في أوج قوتك، وأنت في أوج شبابك، وأنت في أوج غناك، وأنت في أوج مكانتك الاجتماعية، هذه البطولة، لكن من السهل جداً أن تتعرف إليه في خريف العمر بعد أن تفرّق عنك الناس، وذهب مالك، وضعف بصرك، وانحنى ظهرك، وشاب شعرك، وأصبحت منزوياً في غرفتك لا أحد يعبأ بك، أصبحتَ تحفة، أصبحت في مكانة لا تستدعي إلا الشفقة، عندئذٍ تبدأ بالصلاة، الآن، الآن ؟ أين كنت في الشباب ؟ أين كنت يوم كنت تمشي في الطريق متبختراً، أين كنت ؟ لذلك عبدي اعرفني في الرخاء أعرفك في الشدة، هذا الذي عرف الله في شبابه يعرفه الله في

شيخوخته، والشيء المهم جداً أن الإنسان إذا عرف الله في شبابه متّعه الله بعقله، وسمعه وبصره وقوته ومكانته وغناه عن الناس ! الدعاء الشريف:

((اللهم اجعل خير عمرنا آخره، وخير أيامنا يوم نلقاك وأنت راض عنا))

(زوائد الهيثمي عن الحسن قريبًا من هذا اللفظ)

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً (83))

هذا الذي يتكبر، وهو في ساعة من ساعات القوة، أو ساعة من ساعات الغنى إنسان صغير عند الله عز وجل، لأنه جاهل، الإنسان تحت ألطاف الله عز وجل، من يدري أن الإنسان نقطة دم إذا تجمدت في بعض شرايين المخ يصاب بالعمى، أو بالشلل، أو بالصمم، أو يفقد ذاكرته أحياناً ! ما الإنسان ؟ إذا شعر أن هناك كتلة لا ينام الليل يذهب من طبيب إلى طبيب للتحليل، لأخذ عيّنة... كتلة قاسية، الإنسان تحت ألطاف الله عز وجل، هذا موضوع الورم الخبيث ليس له دواء حتى الآن ! ليس له سبب أساساً ! نمو خلايا عشوائية، انتهى كل شخص، بلغ أوج نشاطه في الحياة، وفي ساعات رخائه يأتي هذا المرض، فيحيل حياته إلى جحيم.

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً (83))

أتمنى على كل منكم، وهو في صحته، وهو في بحبوحة، وهو في أوج نشاطه أن يعرف الله في الرخاء، لأنه إذا عرفه بالرخاء عرفه بالشدة.

(وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً (83))

يْأس قاتل، مع أن الله عز وجل أمره كن فيكون، لو أن المرض وخيم العاقبة يأتي ذكر الله عز وجل فيزيل من هذا المرض فعاليته الضارة ! حلّلنا، ولم يظهر شيء ! ألست أنت من قال: إن الوضع خطير ؟ الله عز وجل بيده كل شيء.

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80))

(سورة الشعراء)

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً (84))

الإنسان له بنية، له نفسية، هذه النفسية ناتجة من إقباله أو إدباره، إذا كان مقبلاً فعنده نفسية طيبة، وهذه النفسية الطيبة تستدعي الشكر والعرفان، إذا دخل الإنسان إلى بيته الذي يأوي إليه، هناك زوجة معافاة من كل مرض الإنسان هذه نعمة كبرى الإنسان لو أن مرضاً خبيثاً عضالاً أصاب الزوجة شيء صعب، له أولاد، قال لي طبيب: دخلت بيتًا فوجدت فيه أربعة أولاد بُلْهٍ كلهم حجمهم كبير، وضعف في التفكير، وشراسة في الطباع، حتى إنه عالج الاثنين الإنسان وقامت معركة مع كل واحد، أربعة أولاد

بُلْهٍ ! والله هذه مصيبة كبيرة جداً، فإذا دخل الإنسان بيته، ووجد فيها أولاد أسوياء، وزوجة معافاة، وبيتًا يأوي إليه، صحته طيبة، هذه نعم، يجب أن تعرف الله فيها، لا أن تنسى هذه النعم.

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً (83) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)

هذا الذي عرف الله، فاقتبس منه الوفاء والشكر والعرفان اقتبس منه، أو استسقى من الله هذا الكمال شاكلته خيّرة، يعمل وفقها، وهذا الذي أعرض عن الله عزّ وجل أصبحت شاكلته أو بنيته جبلّته شريرة يعمل وفق اللؤم فهو لئيم، كلما أكرمته يزداد لؤماً، كلما أعطيته يزداد كبراً.

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً (84))

سيدنا عبد الله بن رواحة رضي الله عنه عُيّن قائداً ثالثاً للجيش رقم ثلاثة، أول قائد سيدنا زيد أخذ الراية، فقاتل بالراية حتى قتل، سيدنا جعفر رقم اثنين في مؤتة، أخذ الراية فقاتل بها حتى قتل، فلما جاء دور سيدنا عبد الله بن رواحة تردد ! قضية موت سريع، خاطب نفسه قال:

يا نفسي إن لا تُقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت
إن تفعلي فعلهما رضـيت وإن توليت فقد شقـيت

***

وأخذ الراية فقاتل بها حتى قتل، النبي عليه الصلاة والسلام وهو في المدينة حدّث أصحابه فقال:

((أخذ الراية أخوكم زيد فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى مقامه في الجنة، ثم أخذ الراية أخوكم جعفر فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى مقامه في الجنة))

وسكت النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، فقال أصحابه: يا رسول الله، ما فعل عبد الله ؟ قال:

((ثم أخذ الراية أخوكم عبد الله، فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى في مقامه ازورارا عن صاحبيه))

(القصة بلفظها وتمامها في السيرة النبوية لابن هشام، والحلية لأبي نعيم)

أيْ: هذا التردد جعل مقامه عند الله يهبط درجة ! إذا كان هذا التردد في بذل نفسه هذه شاكلته، فأين نحن من هذه القصة ؟ ماذا بذلت لله عز وجل ؟ ماذا فعلت ؟ هل استزدت لكل عمل صالح ؟ إذا دعيت إلى خير ماذا يكون موقفك ؟ نرجو الله عز وجل أن نكون في نظر الله عزّ وجل كما يحب ويرضى:

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)

سيدنا الإمام علي كرم الله وجهه يقول: " والله، والله مرتين لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز بيوم عاصف بريشتين، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين، أهون علي من طلب حاجة من لئيم لوفاء دين!".

أحياناً يقف الإنسان موقفاً لئيمًا من والدته، لو كشف له الغطاء، لو عاد إلى فطرته لذاب من الله خجلاً، هذه التي رَبّتك حين تزوجت استغنيت عنها ؟ رأيتها عَقَبة في حياتك ؟ أردت الخلاص منها، تمنيت موتها، أهكذا الوفاء ؟ الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، المشكلة أن الإنسان وهو في الدنيا يكون بين شهوات ومخدرات، فالأكل والشرب، واللقاء مع الناس، والرحلات والسهرات، والندوات والاجتماعات، والنزهات والحفلات والولائم... هذه كلها مخدرات وغفلة، فإذا انقطع عنها فجأة بمرض أصيب به أو لموت ألم به انكشفت حقيقته، وانكشفت له نفسه، وظهرت على حقيقتها، فإما أن تُسعده إلى الأبد، وإما أن يشقى بها إلى الأبد !

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)

اعملوا ما شئتم، يوم القيامة حينما ترى أن كل شيء خلقه الله من أجلك أن الكون كله سخر لك، وأنه ما من مخلوق إلا يسبح بحمده ويقدس له، وأنك كنت الغافل وحدك، وأنك أسأت إلى عباد الله، وقابلت الجميل بالإساءة، وقابلت الإحسان بالإساءة، وقابلت النعمة بالجحود، وقابلت الهدى بالضلال أولاً، والإضلال ثانياً، هذا موقف من يحتمله ؟ طبعاً جزاؤه النار التي تلفح وجوههم.

(كُلّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنّ اللّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً (56))

(سورة النساء)

هناك ارتباط بين الآيتين، هذا الذي لا يزيد الظالمين إلا خساراً، هؤلاء الظالمون الذين لا يزدادون مع تلاوة هذا القرآن إلا خسارا من شأنهم أنه إذا أنعم الله عليهم أعرضوا، واستكبروا، واستعلوا، وإذا مسهم الشر يئسوا ! هؤلاء الذين لا يزدادون عند تلاوته إلا خساراً، هذه شاكلتهم:

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)

كل واحد منا له نفس، سنسميها جِبِلّة، له طبيعة، له بنية، وفي علم النفس الحديث سمات عميقة يتحرك بموجبها، فهناك إنسان خيّر بالطبع، يتمنى خدمة الناس ؛ إنسان بإعراضه عن الله عز وجل، وانقطاعه عنه نفسه الشريرة، يتلذذ بالإساءة للآخرين ! بإيقاع الأذى بهم، بإيقاع الشر فيهم، فهذه الجبلة السيئة محصلة البعد عن الله عز وجل، هذه الشاكلة.

والجبلة الطيبة هي محصلة الإقبال على الله عز وجل، أنت بين حالتين إما أنك مقبل، فلك جبلة طيبة، لك شاكلة خيرة، لك نفس عزيزة كريمة معطاءة، وإما أنك مدبر ـ لا سمح الله ـ فلهذا الإنسان نفس شريرة، جبلة مؤذية، طبيعة أنانية، كما يقولون، حرص على الذات، واستهانة بالآخرين.

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً (84))

هذه الآية كأن الله يقول: افعلوا ما شئتم ! كل واحد منكم له شاكلة، له جبلة، هذه الجبلة محصلة إقباله أو إدباره، فإذا كان مدبراً ففي الشر يؤوس، وفي الخير منوع ! هكذا قال لله عز وجل:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85))

(سورة الإسراء)

فهناك أشياء فوق مدارك الإنسان، هذه الروح..

هذه التي نسميها سودة ـ الكبد ـ فهي لحم تُأكل، لكن في الواقع هي كبيرة، يقوم بخمسة آلاف وظيفة، تأخذ طحال شطيرة، إذا كان فيها روح فهذا الطحال يقوم بأخطر الوظائف، معمل لكريات الدم الحمراء، مقبرة للكريات، تحليل الكريات، وتأخذ المواد المعدنية الحديد وهيموغلوبين، وتبقي الفضلات ترسلها إلى مكان آخر ! معمل دم احتياط، مقبرة، مستودع للدم، أقرب شيء لنا أعضاؤنا، هذه الأعضاء كلها موجودة، الروح لها وظائف خطيرة جداً، العين مثلاً: إنسان ميت ما قيمة عينه ؟ قطعة لحم لا تؤكل ! لكن عين إنسان طيب يرى بها العالم، والألوان، ثمانمئة ألف لون أخضر يراها بالعين ! الشبكية فيها مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط ! جسم بلوري يقوم بأعظم وأدق عمل، وهو المطابقة ! شيء لا يصدق، حينما يأتي الخيال وراء المحرق فهذا الجسم نفسه يتحسس إذا جاء الخيال خلف المحرق، يرسل أمرًا للدماغ، الدماغ يأمر خلايا العضلات الهدبية المحيطة بهذا الجسم البلوري فتضيق أو تزيد من احتدابها إلى أن يقع على الشبكية، وإذا جاء الخيال قبل المحرق في جهاز آخر يعطي أوامر معاكسة من أجل أن يستطيل فيقع الخيال على الشبكية، العين بالروح هكذا تفعل ! من دون روح كتلة لحم لا طعم لها ! الكبد يقوم بأخطر وظيفة ! هناك خمس وظائف أساسية في الحياة، الإنسان بلا كبد يموت بعد ثلاث ساعات ! بعض العلماء قال: للكبد خمسمئة وظيفة ! وبعضهم قال: خمسة آلاف وظيفة ! بالروح، من دون الروح أصبحت بلا فائدة.

الكلية يمر فيها الدم في النهار خمس مرات ! يمشي الدم بالكلية مئة كيلو متر تقريباً كل يوم ! دم الإنسان يقطع في الكليتين مئة كيلو متر، إذا مات الإنسان أصبحت قطعة لحمة ! قبل قليل كان جهازاً خطيرًا جداً !

الدماغ، خذ دماغ إنسان طبيب، كل الطب موجود في هذا الدماغ ! كل معلوماته، كل خبراته، كل أنواع الأمراض، أعراض الأمراض، التشخيصات، الأدوية، كلها في هذه الذاكرة، بعدما يموت خذ نخاع الخروف، بالروح ماذا كان ؟ وبلا روح ماذا أصبح ؟ كتلة لحم، فهذه العين، الأنف، الأذن، اللسان، يمكن أن يلتقي في هذه الذاكرة علم الأولين والآخرين، بعدما يموت الإنسان لا يبقى شيء، فما هي الروح ؟ إذا أوقفنا إنساناً على ميزان وهو واقف على الميزان مات، هل يقل وزنه ؟ لا يقل غرامًا، أين

الروح ؟ ما طبيعة الروح ؟ عندما يتجلى ربنا عز وجل على الإنسان بالروح، يتحرك، انظر إلى الإنسان الحي تراه مؤنساً، إذا مات يخاف الناس من غرفته كلها ! يبقون شهرين أو ثلاثة وغرفة المتوفى يتجنبها أهله خوفاً ! يقولون لك: هنا مات، لكنه قبل ساعة كان أبًا لطيفًا، الأولاد يأنسون به، يتهافتون عليه، يقبلون عليه، يرون الجلوس معه مغنماً كبيراً، بعدما تمدد ميتاً أصبح مخيفاً موحشًا، يقولون: إكرامه ترحيله بسرعة، ما هذه الروح ؟ بالروح لك شأنك ملء السمع والبصر، لك مكانتك، توقيعك يقدر بملايين ! بعدما يموت أي توقيع هذا ؟ مات، وللورثة الكلام كله ! لما ربنا عز وجل يوقف هذا الإمداد كل أملاكك لم تعد لك ! ما هذه الروح ؟ مادام لك حركة، البيت لك، الأرض لك، المعمل لك، كل شيء لك، فإذا قطع الله عنك الإمداد أصبح كله لغيرك، ما هذه الروح ؟

موضوعنا طويل جداً، موضوع الذاكرة، موضوع الدماغ، موضوع العين، السمع، البصر، العضلات، هذه الحركة، الميت لا يتحرك، فإذا رأى أحدنا ميتاً يتحرك يمكن أن يجّن ! إذا كنت تسير في الطريق، ومرّت حافلة، قال له: لا يوجد محلات، اصعد على الظهر، وعلى الظهر تابوت، كان ينقل ميتًا في الذهاب، وفي العودة التابوت فارغ، صعد قبله راكب وجد نفسه مصابًا بالبرد، فجلس في التابوت، هذا الثاني وجد تابوتاً، فجلس عليه، فتحه، فتحرك الميت فوقع من الحافلة، ومات فوراً، لا يألف الإنسان ميتاً يتحرك ! إذاً موضوع الروح شيء عظيم جداً.

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85))

هل في أنحاء العالم اليوم، في كل الجامعات تفسير للروح ؟ ما هي الروح ؟ بالروح الإنسان ينمو ويكبر، يحس، يتألم، يفكر، يتكلم، ينتقل، يحكي، يشعر بالخوف.. أما إذا توقفت الروح فلا شيء، جثة هامدة، لحم ودم متفسخ، انتهى الأمر ! فربنا عز وجل ضرب لنا مثلاً أن هذا الشيء لا تعرفونه أنتم، ولا يمكن أن تعرفوه !

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85))

كل التقدم العلمي، أحياناً تجد كتاباً أجنبيًا، أربع صفحات مَراجع بالخط الصغير، تقريباً سبعمئة مرجع ! لعلم بسيط وفرعي، وليس علماً كبيراً، إذا كان لكل موضوع سبعمئة مرجع فهذا علم البشر الآن، وربنا عز وجل يقول:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85))

كلما ازداد الإنسان علماً ازداد علماً بجهله !

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85))

من علامة العالم التواضع ! ومن علامة الجاهل الكبر، الجاهل متكبر.

قل لمن يدعي في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

***

الإنسان يتخذ من هذه الآية دليلاً على وجود الله عز وجل، الميت والحي، الميت انتهى أمره، انظر للإنسان كيف يتحرك، ينتقل، مؤنس، محبب، لطيف، تفضِّل الجلوس معه، كيف أنه نظيف، ورائحته نظيفة.

هناك رجل اهتدى إلى الله عز وجل عن طريق صديق له من الأغنياء، رجل ضمن الأصول، وليس خلاف الأصول مات، أصبح هناك شبهة بموته، يا ترى مات موتاً طبيعياً ؟ أم أن إحدى زوجاته دسّت له السم ؟ قصة قديمة، فتحوا القبر بعد يومين هذا الذي شاهد الجثة كان سبب توبته هذا الرجل، يقول: إن كل رِجلٍ من جهة، البطن منفوخ، والدود عليه، رائحة نتنة، سبحان الله ! قبل أيام الحمام والنعيم، إذا نام إنسان على سريره، وكان فخماً جداً فلا ينس القبر، سيسحب من هذا السرير إلى القبر ! إذا دخل الحمام، ونظّف نفسه فلا ينسَ آخر غسل ! إذا ذهب من بيته واقفاً أفقياً فآخر خروج له يذهب مضطجعا ميتا ! إذا دخل المسجد فآخر دخول له ليصلى عليه، وليس ليصلي ! فعلى الإنسان أن يعرف المقام، حينما تغادر الروح الجسد، حينما يتوقف إمداد الله لهذا الإنسان، فالبطولة أن تكون قد عرفت الله في هذه الساعة، البطولة أن تعرف الله في الرخاء كي يعرفك في الشدة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (12-13): تفسير الآيات 88 – 96

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-10-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون: مع الدرس الثاني عشر من سورة الإسراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً(88))

(سورة الإسراء)

الله سبحانه وتعالى جعل هذا القرآن الكريم معجزة خالدة للنبي عليه الصلاة والسلام، بينما معجزات الأنبياء تنقضي بانقضاء عصرهم، معجزات الأنبياء السابقين تصبح أخباراً يصدقها المصدقون، أو يكذبها المكذبون، ولكن القرآن الكريم الذي جُعِل معجزة خالدة للنبي عليه الصلاة والسلام، هو بين أيدي كل المسلمين ! فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ)

في بعض الآيات:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ(33))

(سورة الرحمن)

في هذه الآية بدأ الله بالجن:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

أما في الآية التي نحن في تفسيرها:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ)

هل هناك حكمة من تقديم كلمة الإنس في هذه الآية، وتقديم كلمة الجن في تلك الآية ؟ العلماء قالوا: لأن الجن أقدر على النفوذ في أقطار السماوات والأرض، فبدأ الله بهم ! ولأن الإنس أقدر على صياغة الكلام فبدأ الله بهم ! فترتيب الكلمات في القرآن شيء يلفت النظر، مثلاً ربنا سبحانه وتعالى قال:

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ)

(سورة النور)

وفي آية أخرى:

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا)

(سورة المائدة)

في السرقة بدأ الله بالسارق، في الزنا بدأ بالزانية، لأن المرأة أقدر على إغراء الرجل إلى الزنا من الرجل ! بينما في السرقة الرجل أقدر على السرقة من المرأة ! ترتيب الكلمات في القرآن الكريم بحث دقيق جداً، في سبع عشرة آية قدم السمع على البصر!

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (78))

(سورة المؤمنون)

لأنه فعلاً يبدأ تكوّن السمع في الجنين، بينما البصر لا يبدأ إلا بعد الولادة ! إلا في آية واحدة:

(رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (12))

(سورة السجدة)

هذه الآية تشير إلى أن سرعة الضوء أشد من سرعة الصوت، أبصَرنا وسمعنا، ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانية ! أما السمع ثلاثمئة وثلاثون مترًا بالثانية ! في أكثر الآيات القرآنية ربنا عز وجل يبدأ ببذل المال قبل بذل النفس.

(وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15))

(سورة الحجرات)

لأن بذل المال أسهل، إلا في آية واحدة:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

(سورة التوبة: 111)

هذه الآية في معرض البيع القطعي، وفي البيع القطعي يقدم الأهم فالمهم، تكتب البيت ثم الدكان، فترتيب آيات القرآن الكريم فيها حكمة بالغة جداً، هنا:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ)

في آية خرق السماوات والأرض:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا)

وشتان بينهما، الإنس أقدر على صياغة الكلام، والجن أقدر على عبور السماوات والأرض:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ)

الحقيقة أنّ فضل كلام الله على كلام البشر، كفضل الله على خلقه، المخلوق ضعيف، عاجز، يخطئ أحياناً، يضل، لكن كلام الله عز وجل لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، إذا حصل اليقين بأن كل كلمة في هذا الكتاب مفتاح السعادة في الدنيا والآخرة عندئذٍ يتمسك الإنسان به ! ويرى مصداقيته، الإنسان دائماً يتمسك بالكلام بحسب شعوره بصدقه أو كذبه، أحياناً خبر صادق يهبط الأسعار مئة ألف لكل حاجة ! خبر في خمس كلمات ! لماذا تهبط الأسعار ؟ لثقة الناس أن هذا الكلام صحيح، إذا وثقت

من أن كلام الله عز وجل لا يأتيه الباطل من بين يديه الإنسان ولا من خلفه عندئذٍ يكون التمسك به تمسكاً منقطع النظير، حينما يقول الله عز وجل:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: 30)

أمر إلهي حينما يقول الله عز وجل:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21))

(سورة الجاثية)

يعجب الله عز وجل كيف يظن الإنسان الذي يجترح السيئات أنه سيسلم في الدنيا، أو أنه سيعامل كما يعامل المؤمن ! هذا شيء مستحيل.

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص: 61)

حينما تقرأ هذه الآية:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: 97)

يجب أن تشعر بطمأنينة ما بعدها طمأنينة، لأن خالق السماوات والأرض يعدك بهذه الحياة الطيبة، حينما تقرأ قوله تعالى:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123))

(سورة طه)

لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه، يجب أن تطمئن، إذاً هذا الكلام كلام الله رب العالمين، قطعي الثبوت، قطعي الدلالة، واقع لا محالة ! فضل كلام الله على كلام عبيده أو عباده كفضل الله على خلقه، فربنا عز وجل قال:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً(88))

لإحكامه، لنظام صياغته، لشموله لكل حاجات الإنسان، هناك أشياء القرآن تكلم عنها مهمة جداً، هناك أشياء سكت عنها رحمة بنا، فهذا القرآن الكريم مضامينه متعددة فيه مضمون تربوي، فيه مضمون صحي، مضمون اجتماعي، مضمون اقتصادي، مضمون من كل ما نحتاجه، في صياغة معجزة، لا ترقى إليها صياغة، وفيه مفتاح سعادتنا في الدنيا والآخرة، وأخبار الأمم السابقة، أخبار ما سيكون بعد

مضي الأيام، وفيه إشارات إلى الحياة الآخرة، وتوضيح وصور، لذلك الله عز وجل جعل هذا القرآن دستوراً لنا.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ)

(سورة الأنعام: 1)

مضمون الحمد خلق السماوات والأرض، آية ثانية:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (1))

(سورة الكهف: 1)

الكون في كفّة، وهذا الكتاب في كفة، هذا الكتاب هو المنهج، الله عز وجل خلق الكون وخلق الإنسان، وخلق له المنهج، لذلك قالوا: نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الإرشاد، العلماء بعضهم تحدث عن إعجاز القرآن الكريم فقالوا: هناك إعجاز، ومعنى الإعجاز أن البشر لا يستطيعون مجتمعين أن يأتوا بمثله.

شيء آخر، هناك إعجاز في نظم القرآن الكريم، في صياغته، هناك إعجاز في جزالة ألفاظه، هناك إعجاز في أسلوبه، هناك إعجاز في الإخبار عن الأمم السابقة،

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا)

(سورة الشورى: 52)

هناك إعجاز في وعده، وفيه وعد مطلق، ووعد مقيّد.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

فلا كفران لسعيه.

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

(سورة النور: 55)

هذا وعد مقيّد، وعد الله الذين آمنوا..

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآَمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

(سورة المائدة: 12)

في الوعد إعجاز، في الوعد المطلق، وفي الوعد المقيّد، وفي أخبار الأمم السابقة إعجاز، وفي تشريع الحلال والحرام إعجاز، وفي الحكم الكثيرة العالية المستوى إعجاز، وفي عدم الاختلاف وعدم التناقض إعجاز، وأول ما في القرآن من إعجاز أنك إذا طبّقته قطفت ثماره ! في اللحظة التي تطبق بعض آيات

القرآن الكريم تقطف ثمارها، إذاً إعجازه في مصداقيته، كيف تتأكد أن هذا الكلام كلام الله رب العالمين؟ أن الوعد الذي وعدك الله إياه إذا قمت بما عليك قطفت الثمار التي وعدت بها !

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً(88))

الإنس كلهم، والجن مجتمعين متكاتفين متعاونين متضامنين على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله، هناك آيات أخرى:

(قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38))

(سورة يونس)

لا القرآن بكامله، ولا عشر سور، ولا آية واحدة، ربنا عز وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة النساء: 29)

لا تأكلوا أموالكم، ولم يقل: لا تأكلوا أموال الناس، بل أموالكم ! مال أخيك هو مالك، يجب أن تحافظ عليه من التلف والضياع، فلأن تمتنع عن أكله بالباطل من باب أولى. شيء آخر،

(أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ)

إذا كانت الأموال متداولة بين أفراد الأمة كان الناس في بحبوحة، وفي يسر، فإذا أكلت الأموال بالباطل أصبحت الأموال متداولة بين فئة قليلة، هذا من كلمة أموالكم بينكم.

أما كلمة(تأكلوا) لأن المال ليس هدفاً بذاته، قيمته لا في ذاته، بل في غيره، إنه وسيلة، وأول أهداف كسب المال الأكل والشرب، ربنا عز وجل لم يقل: لا تغتصبوا، لم يقل: لا تظلموا، قال: لا تأكلوا إشارة إلى أن أول أهداف المال شراء الطعام.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

فكل مال من دون عوض فهو بالباطل، المال الحلال هو مال اكتسبته بعِوَض أو بخدمة،

(إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

النبي الكريم فهم من هذه الآية معاني دقيقة جداً، التجارة يجب أن تكون عن تراض، أن يكون المشتري راضياً فيما لو كُشِف الغطاء، هذا إعجاز ! كلمات محدودة بيّنت أصول كسب المال، وحكم التجارة الصحيحة، وكيف يكون الفقر من تداول المال بين الأيدي القليلة، وكيف يكون أكل مال الناس بالباطل، وكيف أن المال وسيلة، وليس هدفاً، وكيف أن الحياة الاجتماعية للمؤمنين كتلة واحدة، إذا أكلت مال أخيك فكأنما أكلت مالك، لأنك حينما أكلته بالباطل ضعّفته، وإذا ضعف أخوك ضعفت أنت معه، آية ثانية:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

(سورة هود: 6)

في القرآن إعجاز في صياغته:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ)

الدابة نكرة، والتنكير يفيد الشمول تقول: إنسان، أي: ستة آلاف مليون، إذا قلت: الإنسان العربي تقصد مئة مليون، التنكير يفيد الشمول، ربنا قال:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

أيّة دابة على وجه الأرض على الله رزقها، أما (من)فتفيد استغراق أفراد النوع، أي: الدواب على الله رزقها، أما ما(من دابة) كل نوع، كل فرد من كل نوع على حِدة تحديداً وتصنيفاً على الله رزقها، إذاً كلمة (دابة) النكرة أفادت الشمول، وكلمة (مِن) أفادت استغراق أفراد النوع، لو ربنا قال: الدواب على الله رزقها، ما كان في هذه الدقة من المعنى، لو قال: الدواب الله يرزقها لم نقل على الله رزقها يرزقها، أو لا يرزقها على وجه الإلزام، أما (على) فتفيد الإلزام.

(إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

لو قال: الدواب على الله رزقها، لا يوجد قصر، الله يرزقها، وغيره يرزقها ! ما من دابة إلا، النفي والاستثناء أفاد القصر، والتنكير أفاد الشمول، ومن أفادت استغراق أفراد النوع، وعلى تفيد الإلزام، معنى الإلزام مع القصر مع استغراق أفراد النوع مع الشمول، كل هذه المعاني في كلمات،

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

هذا إعجاز، لو أن في الوقت مُتَّسَعٌ لضربنا أمثلة كثيرة كيف أن صياغة القرآن لا يمكن أن تتغير ! نقل أيّ كلمة من مكان إلى آخر يختلف به المعنى اختلافاً كلياً !

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: 30)

(من)للتبعيض، لأن هناك نظر مباح إلى المرأة، إلى الزوجة، لك أن تنظر إليها، الزوجة أو المحارم ! هذه (من)، أن تغض بصرك عن الأجنبيات فقط، من أبصارهم.

شيء آخر،

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

جعلت آية غض البصر قبل آية حفظ الفرج تأكيداً إلى أن حفظ الفرج سببه غض البصر ! نظرة، فابتسامة، فموعد، فلقاء !

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

هناك ترتيب، من يصدق أن كلمة (اليوم) في القرآن الكريم وردت ثلاثمئة وخمساً وستين مرة، حصراً! وأن كلمة شهر وردت اثنتا عشرة مرة، بالضبط، ومن يصدق أن آيات النار تكافئ آيات الجنة بالعد والتمام ! وآيات الملائكة تكافئ آيات الشياطين ! وآيات الدنيا تكافئ آيات الآخرة ! هذا شيء فوق طاقة البشر ! على كل حال عندنا إعجاز بلاغي، وعندنا إعجاز رياضي، وعندنا إعجاز حسابي، وعندنا إعجاز تشريعي، وعندنا إعجاز يتعلق بالأحوال الشخصية، ربنا عز وجل قال:

(لَا تُخْرِجُوهُنّ مِنْ بُيُوتِهِنّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

(سورة الطلاق: 1)

بيوتهن، البيت ملكك، ثمنه ثلاثون مليونًا، ملكك، الله جعل البيت ملك المرأة ! ملكية اجتماعية، بمعنى أن الإنسان يؤكد شخصيته في عمله خارج البيت، لكن المرأة بحاجة ماسة إلى إرواء هذه الرغبة، تأكيد الذات، إدراج الأهمية، جعل البيت ملكاً لها ملك إدارة، أي: دع البيت للمرأة ترتبه كما تشاء، هذا معنى قوله عز وجل:

(لَا تُخْرِجُوهُنّ مِنْ بُيُوتِهِنّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

حينما نسب البيت إلى المرأة أي: نسب إليها نسبة إشراف وإدارة تأكيداً لشخصيتها،

(لَا تُخْرِجُوهُنّ مِنْ بُيُوتِهِنّ)

إشارة ثانية إلى أن الزواج لا ينجح إلا في بيت مستقل ! بيوتهن لها بيت خاص.

والمعنى الثالث: أن أيّ مشكلة مهما كانت كبيرة إذا بقيت المرأة في بيتها تصغر إلى أن تتلاشى ! وأصغر مشكلة إذا أخرجْتَها من بيتها تكبر ! أدق قانون في التعامل الزوجي ! لو أحصينا حالات الطلاق لوجدنا في كل مئة حالة طلاق سبعين حالة من الطلاق سببها أنه في ساعة الغضب أخرج الرجل امرأته إلى بيت أهلها ! تفاقم الأمر، جاءت مُغذّيات، جاء أطراف أخرى، تدخلوا في الأمر، أما لو أن المرأة بقيت في بيت الزوجية، أو أبقاها في بيت الزوجية لحُلّت هذه القضية بعد يومين، لذلك قال:

(لَا تُخْرِجُوهُنّ مِنْ بُيُوتِهِنّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

قد يشكو الرجل ضعف قوامته على المرأة، ربنا وضع قانونًا فقال:

(الرّجَالُ قوّامُونَ عَلَى النّسَاءِ بِمَا فَضّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

(سورة النساء: 34)

يجب أن تكون أعلى منها ثقافة، أعلى منها ورعاً، أعلى منها علماً، أعلى منها خلقاً، إن لم تكن أعلى منها لا تستطيع أن تقودها!

(بِمَا فَضّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

شرطان للقوامة: أن تكون أعلى منها، وأن تنفق عليها، عندئذٍ مركب الزوجية يسير، هذه أمثلة وشواهد على إعجاز القرآن، الإعجاز في التشريع، في البلاغة، في البيان، الإعجاز في ذكر أخبار الأمم السابقة، الإعجاز في ذكر ما سيكون ! والله لو أمضى الإنسان حياته كلها في الحديث عن إعجازه لا ينتهي ! كلام الله رب العالمين، الكون قرآن صامت ! والقرآن كون ناطق !

وبعضهم يضيف على ذلك أن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم قرآن يمشي ! قرآن صامت هو الكون، كون ناطق هو هذا الكتاب، أما إذا أردت أن ترى إنساناً تمثّل فيه القرآن تمثلاً صحيحاً فهو النبي الكريم!

عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: أَخْبِرِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ:

((كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ))

(مسند الإمام أحمد)

سيدنا عمر كان وقافاً عند كتاب الله ! وقاف..

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29))

(سورة المعارج)

انظر لهذا الأدب الرفيع، أحياناً تفتح كتاب فقه تخجل أحياناً، يوجد ذكر لبعض الحالات لا ترغب أن يقرأ الكتابَ ابنُك ! يقولون: لا حياء في الدين، لا، الدين كله حياء، والحياء من هذا الكتاب مأخوذ.

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31))

(سورة المعارج)

وراء ذلك ! كل أنواع الانحرافات اللاأخلاقية في الأرض منطوية تحت قوله تعالى:

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ)

يقول لك الله عز وجل:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

(سورة النحل)

يأتي شاب يعيش في سنة الستة وثمانين ركب سيارة فخمة، أو ركب طائرة، أو ركب باخرة سياحية.

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

هو يركب سيارة ثمنها مليون ! يقول الله لك:

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

هذه الكلمة غطّت كل المستقبل ! فإذا ركبت طائرة كبيرة نفاثة كأنها مدينة متنقلة.

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

وكيف أن الله عز وجل عزى خلق الطائرة إلى ذاته، لأن الفكرة من الله عز وجل هو الملهم، يقولون: الاختراع قفزة المجهول، إشراق الاختراع، وهو الذي خلق المواد التي صنعت منها الطائرة، وهو الذي خلق الوقود ! هناك آية عن الوقود السائل:

((الّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80))

(سورة يس)

أحدث نظرية في البترول تقول: إنه في العصور المطيرة غابات عملاقة طمرت في باطن الأرض، فكان منها البترول !

((الّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80))

الإنسان يعجب بأن شجراً أخضر لا يشعل سوف يكون شجراً يابسًا.

((الّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80))

فلذلك القرآن الكريم فيه إعجاز علمي، إعجاز تاريخي، إعجاز تشريعي، إعجاز بياني، إعجاز بلاغي، إعجاز حسابي، إعجاز رياضي، هو المعجزة التي.. لكن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا يحزن قارئ القرآن))

(ورد في الأثر)

عنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ قَالَ: **<< إِنّ قَارِئَ الْقُرْآنِ، وَالْمُتَعَلّمَ تُصَلّي عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ حَتّى يَخْتِمُوا السُّورَةَ، فَإِذَا أَقْرَأَ أَحَدُكُمُ السُّورَةَ فَلْيُؤَخّرْ مِنْهَا آيَتَيْنِ حَتّى يَخْتِمَهَا مِنْ آخِرِ النّهَارِ كَيْ مَا تُصَلّي الْمَلائِكَةُ عَلَى الْقَارِئِ، وَالْمُقْرِئِ مِنْ أَوّلِ النّهَارِ إِلَى آخِرِهِ >>.**

(الدارمي)

هذا الحديثُ وحدَه يكفي،

((لا يحزن قارئ القرآن))

(ورد في الأثر)

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((من جمع القرآن متّعه الله بعقله حتى يموت))

(السيوطي في الجامع الصغير، عن أنس، وهو حديث لا يصح)

يستحيل على مؤمن وعى القرآن أن يخرف في آخر عمره،

((من جمع القرآن متّعه الله بعقله حتى يموت !))

القرآن غنىً لا فقر بعده ! ولا غنىً دونه ! لو أنك أنفقت كل مالك من أجل أن تفهم هذا الكتاب كنت أنت الرابح ! ولو أنك حصّلت أموال الدنيا وفاتك فهم هذا الكتاب كنت أنت الخاسر ! لأن هذا الكتاب دليلك إلى الله عز وجل، فمثلاً لو أحضرت آلة معقدة جداً أو جهاز كمبيوتر لتحليل الدم ثمنه اثنا عشر

مليونًا، ويمكن أن تضع نقطة دم في الكمبيوتر وتكبس زرًا فيعطيك سبعة وعشرون تحليلاً فوراً، وهناك أجهزة هكذا حقاً، لكنها غالية الثمن ! وإذا كان عندك في اليوم مئتا تحليل، وكل تحليل خمسمئة ليرة، اعمل حسابك، هذا الكمبيوتر استوردته، ولم يرسل لك معه نشرة الاستعمال، أليست هذه النشرة التي لم ترسل معه أهم منه ؟ لو استعملته بلا نشرة لأعطبته، ولو لم تستعمله لجمدت ثمنه ! فمن أجل أن تستعمله لا بد من قراءة هذه النشرة، كيف أنه ثمين جداً، وثمنه مرتفع جداً، لا قيمة له إلا بهذه النشرة ! وكذلك الإنسان فيه غرائز، فيه حاجات، فيه ميول، له نفس، له قيم أمور معقدة جداً، لولا هذا الكتاب لكان كالبهيمة، أكَلَ ما شاء، من أي مصدر شاء، وقضى لذته بالطريقة التي تحلو له، فهلك وأهلك ! وشقي وأشقى، لذلك العلماء يقولون: الإنسان من دون علم بهيمة ! يسقط إلى مستوى الحيوان، وبالعلم يرقى إلى مستوى الإنسان، فهذا الكتاب:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً(88))

(سورة الإسراء)

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ)

(سورة الإسراء)

قال العلماء: قرآن الفجر القرآن الذي تقرأه في صلاة الفجر.

(إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (78))

(سورة الإسراء)

ركعتا الفجر خير لك من الدنيا وما فيها:

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً (7))

(سورة المزمل)

هذا الذي يحفظ كتاب الله لو تعلم كم هو سعيد بحفظ كتاب الله، كم هو موفق، كم هو يحقق الهدف من وجوده على وجه الأرض إذا حفظ كتاب الله وعمل به، إلا أن الذي لا يعمل بكتاب الله ينطبق عليه الأثر:

((رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (89))

معنى صرف قلّب، أمر ونهي، ووعد ووعيد، وقصة ومثل، وحكمة وخبر صادق، ووعد لاحق، وصورة من عالم الأزل.. تنويع دقيق جداً، تنويع في السورة الواحدة، لو جمعت القصص في فصل، والآيات الكونية في فصل لما وجدت في نفسك رغبة في قراءتها ! لكن ترتيب القرآن ترتيب نفسي، لا ترتيب موضوعي، بعضهم يقترح أن يصنف كتاب الله تصنيفاً موضوعياً، لو صنف القرآن تصنيفاً

موضوعياً لذهبت قوة تأثيره ! تقرأ السورة تأتي آية الوعيد تخاف، تأتي آية الوعد تتفاءل، تأتي الآية الكونية تستعظم الله عز وجل، تأتي قصة لقوم أهلكهم الله تعتبر، يأتي مشهد من مشاهد يوم القيامة تتفاءل، فهذه السورة تأخذ بيدك من الخوف إلى الرجاء إلى الثقة إلى التعظيم إلى التفاؤل، هذه الأحوال النفسية تتلو وترتقي من آية إلى آية.

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (89))

قال بعض العلماء: إن هذه الآية دليل قطعي على أن الإنسان مخيّر، يعني أبوا، كان بإمكانهم أن يستجيبوا فأبوا، إذاً هم مخيرون بين أن يستجيبوا وبين أن يأبوا، قل لي بربك: لو كنت صاحب محل تجاري، وعندك موظف، وقلت لهذا الموظف: تعال غداً باكراً، أمرته أن يأتي باكراً، أليس في إمكانه أن يأتي متأخراً ؟ لو لم يكن في إمكانه أن يأتي متأخراً لما أمرته أن يأتي باكراً، هو مخيّر، إذاً يقتضي الأمر أن المأمور مخيّر، ويقتضي النهي أن المنهي مخيّر، لو نهيته عن أن يخرج قبل أن يعلمك أليس في إمكانه أن يخرج قبل أن يعلمك ؟ طبعاً بإمكانه، فربنا قال:

(فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (89))

هم أبوا، كان بالإمكان أن يؤمنوا فأبوا.

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة)

لمجرد أنك تجري سباق دراجات ما، معنى ذلك أن الدراجات مقيدة أم مطلقة ؟ إذا ربّطها بحبال ثخينة، وأمرتها أن تستبق أيكون هذا معقولاً ؟ لا تستبق الدراجات إلا إذا كانت حرة طليقة، فالإنسان مسؤول عن أعماله.

سيدنا عمر جاءه رجل شارب للخمر قال: يا أمير المؤمنين إن الله قدّر عليّ ذلك ! قال: **ويحك أقيموا عليه الحد مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله ! قال له: إن قضاء الله عز وجل لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار ! أنت مخيّر.**

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)

(سورة الأنعام)

هذا كلام المشركين، إذاً هذه الآية دليل قطعي على أن الإنسان مخيّر.

(فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (89))

أبوا، كان بإمكانهم أن يستجيبوا فأبوا، هم مخيّرون.

(أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً (93))

(سورة الإسراء)

هذه الآية لها سبب نزول، وفي أغلب الأحيان يكون سبب النزول كاشفاً لخبايا الآية، فقد ورد في تفسير القرطبي في شرح هذه الآية أن رؤساء قريش مثل عتبة وشيبة وأبي سفيان وأبي جهل وعبد الله بن أمية وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة ذلك أنهم لما عجزوا عن معارضة القرآن، ولم يرضوا به معجزة اجتمعوا فيما ذكر ابن إسحاق وغيره بعد غروب الشمس عند الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فكلموه، وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك فأتهم، فجاءهم النبي عليه الصلاة والسلام، وهو يظن أنه قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بدوٌّ، لعلهم أرادوا أن يؤمنوا، وأن يسلموا، فرح بهذا اللقاء، وكان النبي الكريم حريصاً يحب رشدهم، ويَعِزُّ عليه عَنَتَهُم، حتى جلس إليهم فقالوا:

((يا مُحَمَد، إنّا قَدْ بُعِثْنَا إليكَ لِنُكَلِمَكَ، وَإنّا وَاللّهِ مَا نَعْلَمُ رَجُلاً مِنَ العَرَبِ أدْخَلَ عَلَى قَوْمَاً مَا أدْخَلْتَ عَلَى قَوْمِكَ لَقد شَتَمْتَ الآبَاءَ، وَعِبْتَ الدِّينَ، وَشَتَمْتَ الآلِهَة، وَسَفّهْتَ الأحْلام، وَفَرّقْتَ الجَمَاعَة، فَمَا بَقِيَ أمْرٌ قَبيحٌ إلا قد جِئْتَهُ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أو كَمَا قَالُوا، فَإن كُنْتَ إنَمَا جِئْتَ بِهَذَا الحَدِيثِ تَطْلُبُ بِهِ مَالاً جَمَعْنَا لَكَ مِن أمْوَالِنَا حَتَى تَكُونَ أكْثَرُنَا مَالاً، وَإنْ كُنْتَ إنَمَا تَطْلُبُ بِهِ الشَرَفَ فِينَا فَنَحْنُ نُسَوّدُك عَلَينَا، وَإنَمَا كُنْتَ إنَمَا تُرِيدُ مُلْكَاً مَلّكْنَاكَ عَلَينَا، وَإنْ كَانَ الذِي يَأتِيكَ رُئيَا مِنَ الجِنِ تَرَاهُ قَدْ غَلَبَ عَلَيْكَ فَرُبَمَا كَانَ ذَلِكَ بَذَلْنَا أمْوَالَنَا فِي طَلَبِ الطِبِ لَكَ، إذَا كَانَ بِكَ مَسٌ مِنَ الجِنِ نُعَالِجُكَ، إنْ كُنْتَ تُرِيد المَالَ جَعَلْنَاكَ أغْنَانَا، إنْ كُنْتَ تُرِيدُ الشَرَفَ لا نَقْطَعُ أمْرَاً دُونَكَ، إنْ كُنْتَ تُرِيد المُلْكَ مَلّكْنَاكَ عَلَينَا فقالَ عَلَيهِ الصَلاةُ وَالسَلام: مَا بِيَ كَمَا تَقُولُون، مَا جِئْتُكُمْ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ أطْلُبُ أمْوَالَكُمْ، وَلا الشَرَفَ فِيْكُمْ، وَلا المُلْكَ عَلَيكُمْ، وَلَكِنّ اللّهَ بَعَثَنِي إلَيْكُم رَسُوْلاً، وَأنْزَلَ عَلَيّ كِتَابَهُ، وَأمَرَنِي أنْ أكُونَ لَكُم بَشِيرَاً وَنَذِيرَاً، فَبَلّغْتُكُم رسَالاتِ رَبي، وَنَصَحْتُ لَكُمُ، فَإنْ تَقْبَلُوا مِنِّي مَا جِئْتُكُم بِهِ فَهُوَ حَظُكُمُ فِي الدُنيا وَالآخِرَة، وَإنْ تَرُدُوهُ عَلَيّ أصْبِر لأمْر اللّه حَتَى يَحْكُمَ اللّهُ بَينِيَ وَبَينِكُمُ))

هذا كان جواب النبي صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ.

قالُوا:

((يَا مُحَمَد إنْ كُنْتَ غَيرَ قَابِلٍ مِنّا شَيْئَاً مِمَا عَرَضْنَاهُ عَلَيكَ فَإنّكَ قَدْ عَلِمْتَ أنَهُ لَيسَ مِنَ النَاس أحَدٌ أضْيَقَ بَلَدَاً، وَلا أقَلُ مَاءً، وَلا أشَدّ عَيْشَاً مِنّا ـ كلها جبال مكة، جبال متضامنة كثيفة تضيق الأرض بأهلها جافة وقاحلة، لا نبات فيها ـ إنّكَ قَدْ عَلِمْتَ أنَهُ لَيْسَ مِنَ النَاسِ أحَدٌ أضْيَقُ بَلَدَاً، وَلا أقَلُ مَاءً،

وَلا أشَدُّ عَيشَاً مِنّا، فسَل لنَا رَبَكَ الذِي بَعَثكَ فلْيُسَيِّر هَذِهِ الجِبَالَ عَنّا أبْعَدَهَا الّتِي قدْ ضَاقتْ عَلَينَا، وَلْيَبْسِط لنَا بِلادَنَا، وَلِيَخْرِق لنَا فِيهَا أنهَاراً كَأنْهَار الشَام، وَلِيَبْعَثَ لنَا مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِنَا، وَلْيَكُنْ فِيمَن يَبْعَثُ لنَا قُصَيَ بنَ كِلاب فإنّهُ كَانَ شَيخُ صِدقٍ فنَسْألَهَم عَمّا تقُوْل أحَقٌ هُوَ أم بَاطِل ؟ فإنْ صَدّقُوكَ بِمَا سَألْنَاهُمُ صَدّقنَاك، وَعَرَفْنَا بِهِم مَنْزِلتَكَ، وَأنَهُ بَعَثكَ اللهُ لنَا رَسُوْلاً ، فقالَ لَهُم عَلِيهِ الصَلاةُ وَالسَلامُ: مَا بِهَذَا بُعِثتُ إلَيْكُمُ، إنَمَا جِئْتُكُم مِنَ اللّه تَعَالَى بِمَا بَعَثنِيَ اللّهُ فِيهِ، وَقد بَلّغْتُكُمُ مَا أرْسِلتُ بِهِ إلَيْكُمُ، فإن تَقْبَلُوْهُ فهُوَ حَظكُم فِي الدُنيَا وَالآخِرَة، وَإنْ تَرُدُوْهُ عَلَيَ أصْبِر لأمْر اللّهَ حَتَى يَحْكُمَ اللهَ بَينِي وَبَيْنَكُم.

قالُوا: فإذَا لَمْ تَفْعَلَ هَذَا لنَا فخُذْ لِنفْسِكَ، سَل رَبَكَ أنْ يَبْعَثَ مَعَكَ مَلَكاً يُصَدِقُكَ لِمَا تَقُوْلُ، وَيُرَاجِعَنَا عَنْكَ، وَاسألْهُ فلْيَجْعَلَ لكَ جِنَاناً وَقُصُوْراً وَكُنُوزاً مِنْ ذهَبٍ وَفِضّةٍ يُغْنِيكَ بِهَا عَمَا نَرَاكَ تَبْتَغِي فإنَكَ تَقُومُ بِالأسْوَاق ـ أنت رجل فقير وتلتمس المعاش كما نلتمسه ! ليس لك شأن عندنا، لو كان لك بيتاً فخماً حدائق غناء ذهب وفضة معارج صدقناك انك رسول، أما أنت فقير، من أجل أن نعرف منزلتك وفضلك من ربك إن كنت كما تزعم رسولاً !

فقَالَ عَلِيهِ الصَلاةُ وَالسَلامُ: مَا أنَا بِفَاعِل، وَلا أنَا بِالَذِي يَسْألُ رَبَهُ، وَمَا بُعِثتُ فِيكُم بِهَذَا، وَلَكِنّ اللّهَ بَعَثَنِي بَشِيراً وَنَذِيراً ! فإن لَمْ تقْبَلُوَا مِنِي مَا جِئْتُكُمُ بِهِ فَهُوَ حَظُكُمُ مِنَ الدُنيَا وَالآخِرَة، وَإنْ تَرُدُوهُ عَلَيَ أصْبِر لأمْر اللّهَ حَتَى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمُ ".

قالُوا: إذَاً فأسْقِط السَمَاءَ عَلَيْنَا كِسَفَاً ـ تهددنا بالله ؟ ليفعل بنا ما شاء، أسقط علينا السماء كسفا كما زعمت أن ربك يفعل ما يشاء ـ فإنّا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ إلا أنْ تَفْعَل !

فقَالَ النَبيُ عليه الصلاة والسلام لَهُمُ: ذَلِكَ إلَى اللّهِ عَزَ وَجَل إن شَاءَ فعَلَهُ، وَإنْ شَاءَ لَمْ يَفْعَلْه.

قالُوا: يَا مُحَمَد، أفمَا عَلِمَ رَبُكَ أنّا سَنَجْلِسُ إلَيْكَ ؟ وَنَسْألَكَ عَمَا سَألْنَاكَ عَنْهُ ؟ وَنَطْلُبُ مِنْكَ مَا نَطْلب ؟ فلِيَتَقدَمَ إلَيْكَ فيُعْلِمُكَ بِمَا تُرَاجِعُنَا فِيهِ، وَيُخْبِرُكَ بِمَا هُوَ صَانِعٌ فِي ذِلِكَ بِنَا ! إنّهُ قدْ بَلَغَنَا أنَهُ يُعَلِمُكَ رَجُلٌ مِنَ اليَمَامَة يُقَالُ لهُ الرَحْمَن، وَإنّا وَاللّهِ لا نُؤْمِنُ بِالرَحْمَن أبَدَاً، فقدْ أعْذَرْنَاكَ يَا مُحَمَد، وَإنّا وَاللّه لا نَتْرُكُكَ وَمَا بَلَغْتَ حَتَى نُهْلِكَكَ أوْ نَهْلَكَ، هذا آخر كلام.

وَقَالَ بَعْضُهُم: نَحْنُ نَعْبُدُ المَلائِكَة وَهِيَ بَنَاتُ اللّه، وَقَالَ قائِدَهُم: لَنْ نُؤمِنَ لكَ حَتَى تَأتِيَ بِاللّهِ وَبِالمَلائِكَة قبيلاً. أي نراهم بأعيننا.

فَلَمَا قالُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللّهَ صَلَى اللّهُ عَلِيهِ وَسَلَم قامَ عَنْهُمُ، وَقامَ مَعَهُ عَبْدُ اللّهِ بنُ أبِي أمَيَة، وَهُوَ ابْنُ عَمَتِهِ فقالَ لهُ: يَا مُحَمَد، عَرَضَ عَليكَ قوْمُكَ مَا عَرَضُوا فلَمَ تقْبَلَهُ مِنْهُمُ، ثُمّ سَألُوكَ لأنْفُسِهِم أمُوراً لِيَعْرِفُوا بِهَا مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ اللّه فلَم تفْعَل، ثُمَ سَألُوكَ أنْ تَأخُذَ لِنَفْسِكَ مَا يَعْرِفُونَ بِهِ فضْلَكَ فلَم تفْعَل، ثُمّ سَألُوكَ أنْ تُعَجِّلَ عَلَيهِم العَذَابَ فلَم تفْعَل، فوَ اللّه لا أوْمِنُ بِكَ أبَدَاً حَتَى تَتْخِذَ إلَى السَمَاءَ سُلَمَا، ثُمَ تَرْقى

فيهِ، وَأنَا أنْظُرُ إليكَ، حَتَى تَأْتِيهَا، وَتَأْتِيَ مَعَكَ بصَكٍ فِيهِ مِنَ المَلائِكَةِ يَشْهَدُونَ لَكَ أنَكَ نَبي، عِنْدَئِذٍ انْصَرَفَ النَبيُ عَلَيْهِ الصَلاةُ وَالسَلامُ إلى أهْلِهِ حَزيناً آسِفاً لِمَا فَاتَهُ مِمَا كَانَ يصنع بِهِ مِنْ إيمَانِ قَوْمِهِ))

(تفسير القرطبي)

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (88) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (89) وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً(92))

(أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً(93))

(سورة الإسراء)

أنا بشر، هذه فوق طاقتي، هذه ليست لي، هذه متروكة لمشيئة الله عز وجل،

(قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً (93) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً(94))

كأن الله عز وجل يعني هو فوق من أن يكون رسوله من بني البشر، ربنا عز وجل ردّ عليهم قال:

(قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً (95))

يجب أن يكون الرسول من طبيعة المرسل إليهم ! لو أن الرسول ملك عظيم، وأمرهم بغض البصر ماذا يقولون ؟ أنت ملك ونحن بشر، هذا أمر غير معقول، أما إذا كان الرسول من طينتهم بشراً فسلوكه حجة عليهم، سلوكه وانضباطه وطاعته لله عز وجل، بشريته حجة على من عصاه !

(قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً (95))

الملائكة رسولهم مَلك، والجن رسولهم جن، والإنس إنس، لا بد من أن يكون الرسول من طبيعة المرسل إليهم حتى تقوم الحجة،

آخر آية:

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (96))

الله عز وجل كيف يشهد ؟ سؤال دقيق جداً، من منكم سمع الله عز وجل يشهد له أن هذا القرآن كلامه؟ الحقيقة هذه الآية دقيقة جداً،

عندما قال ربنا عز وجل:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

(سورة طه)

هذه آية، كيف يشهد الله عز وجل لك ـ أيها الإنسان ـ أن هذه الآية من كلامه ؟ يشهد لك بأن الإنسان إذا أعرض عن ذكر الله عز وجل يعيش حياة شاقة صعبة شقيّة، هذه شهادة !

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (276))

(سورة البقرة)

كيف يشهد الله لعباده أن هذه الآية من كلامه ؟ محق المال الحرام شهادة الله عز وجل ! الحياة الطيبة التي يحياها المؤمن شهادة من الله عز وجل على صدق كتابه ! الحياة الضنك التي يعيشها الكافر شهادة من الله عز وجل على صدق كتابه ! أن تزيد الأموال إذا دفعت منها الصدقات !

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (276))

نماء المال على إثر الصدقة شهادة من الله عز وجل ! ومحق المال على إثر الربا شهادة، فالشهادة تحقق الوعد والوعيد هو الشهادة.

آلة ضخمة عليها زر تشغيل، كلمة التشغيل هذه صحيحة أم غير صحيحة ؟ اضغط الزر، فإذا عملت الآلة بكاملها فإنّ عمل الآلة شهادة على أن هذه الكلمة صحيحة ! إذا ضغط الزر، ولم تتحرك الآلة معنى هذا أن الزر خطأ ! فأكبر شهادة لله عز وجل على أن هذا القرآن كلامه أن وعده ووعيده واقع لا محالة في كل زمان ومكان.

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123))

(سورة طه)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

(سورة البقرة)

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63))

(سورة يونس)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإسراء 017 - الدرس (13-13): تفسير الآية 97 ، حتى آخر السورة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-10-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث عشر من سورة الإسراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّ اللّهَ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظّالِمُونَ إِلّا كُفُوراً (99) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً (100))

(سورة الإسراء)

(وَمَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ كُلّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً (97))

(سورة الإسراء)

الهدى وحده من عند الله عز وجل، من ترك الله، من أعرض عنه، لا يمكن أن يكون مهتدياً ! الهدى هو هدى الله، فمن لم يهتدِ بهدى الله فهو الضّال ! ماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ هذا المعنى مستنبط من قوله تعالى:

(وَمَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ كُلّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً (97))

الهدى كله من عند الله، ولا هدى من عند غير الله، لو اتسعت ثقافة الإنسان، لو قرأ آلاف الكتب، لو تعمق في نظرية ما، لا يسمى مهتدياً إلا إذا عرف الله عز وجل، إلا إذا طبق المنهج الذي أنزله الله عز وجل، المعنى دقيق:

(وَمَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ كُلّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً (97))

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

(سورة البقرة)

(فَإِمّا يَأْتِيَنّكُمْ مِنّي هُدًى فَمَنِ اتّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123))

(سورة طه)

الهدى كخط مستقيم، وبين نقطتين لا يمر إلا مستقيم واحد، فمن لم ينطبق خطّه على خط الحق فهو منحرف، قولاً واحداً.

والله سبحانه وتعالى إذا نسب الهدى إليه فهذا الهدى المبني على اختيار الإنسان، يختار الإنسان الهدى فيهديه الله عز وجل.

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (17))

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: 5)

علماء التوحيد قالوا: هناك الضلال الابتدائي، وهناك الضلال الجزائي، فإذا قال الله عز وجل:

(وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ)

فيعني هذا الضلال جزائي، حينما يختار الإنسان الضلال، وهو الضلال الابتدائي يستحق الضلال، وهو الضلال الجزائي.

إذا أعرض الإنسان عن دخول الجامعة فهو محروم من تلقي الدروس، محروم من إعطاء الرتب، محروم من المطالعة، محروم من استعارة الكتب، كل الميزات التي يتمتع بها طالب الجامعة، محروم منها، لأنه رفض دخول الجامعة ! فرفْض دخول الجامعة هو الضلال الابتدائي الاختياري، حرمانه من كل هذه الميزات هو الإضلال الجزائي، إذا نسب الضلال إلى الله عز وجل، إذا نسب الإضلال إلى الله عز وجل، فهذا هو الإضلال الجزائي، ولا بد من أن يسبقه ضلال ابتدائي اختياري.

وأوضحُ مثلٍ مثل الجامعة، إذا رفض الطالب دخول الجامعة باختياره حرم من كل ميزات الطالب الجامعي ! إذا رفض الإنسان هدى الله عز وجل، أعرض عن الحق، جعل القرآن وراءه ظهرياً، جعله مهملاً، عطّل أحكامه، رفض الدين كنظام للحياة، رفض القوانين الإلهية التي وردت في كتاب الله، لم يعبأ بتحذيرات الله، لم يتعلق بوعد الله، إذا رفض الهدى الإلهي جملة وتفصيلا عندئذٍ يضلّه الله ! بمعنى أنه يحرمه كل الميزات التي يستحقها الذي اختار الهدى ! فحيثما نسب الإضلال إلى الله عز وجل فهو الإضلال الجزائي الذي يسبقه ضلال اختياري ! هذا معنى قوله تعالى:

(وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ)

المعنى الثاني: أن الله عز وجل حينما يضلل يضل إنساناً هذا الإضلال وفق مجموعة من القوانين موضحة في آيات أخرى،

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (108))

(سورة المائدة)

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (264))

(سورة البقرة)

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52))

(سورة يوسف)

(وَاللّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258))

(سورة البقرة)

(وَاللّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (108))

(سورة المائدة)

(إِنّ اللّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّابٌ (28))

(سورة غافر)

فإذا عُزي الإضلال إلى الله فوفق مجموعة من القوانين مفصلة في آيات أخرى.

إذاً حينما تقرأ قوله تعالى:

(وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ)

يجب أن تعلم علم اليقين أن هذا الإضلال جزاءً دقيقاً عادلاً لاختيار مع الإصرار، وأن هذا الإضلال وفق مجموعة من القوانين موضحة في كتاب الله، وهناك بعض التفسيرات لإضلال الله عز وجل تليق بأسمائه الحسنى، إنه يُضل عن شركائه لا عن ذاته، كأن تخفي لابنك لعبة يلهو بها، والامتحان على الأبواب فأنت أضللت هذا الابن، أضللته عن ماذا ؟ عن شيء يؤذيه، عن شيء يضره ! فإما أن تفسر إضلال الله إضلالاً عن غيره عن شركائه، وإما أنه إضلال جزائي جاء جزاءً وفاقاً لضلال ابتدائي، وإما أن هذا الإضلال نوع من تطبيق لمجموعة قوانين موضحة في آيات أخرى، هذا معنى الإضلال إذا نسب إلى رب العزة !

(وَمَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ)

لا يوجد سوى هذه الحالة، إما أن تكون مهتدياً بهدي الله فأنت المهتدي، وما سوى ذلك فهو الضلال المبين، لو تعمقت في العلوم، لو تعمقت في الفلسفة، لو قرأت النظريات، لو سبرت أغوار المبادئ الوضعية، لو اطلعت، لو ناظرت، لو احتللت أعلى المراكز العلمية، مادمت لم تعرف الله عز وجل، ولم تسر على منهجه فهذا هو الضلال بعينه !

(وَمَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ)

الذي عنده معجم مفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وتقصى كلمة هدى ومشتقاتها يستنبط بحثاً دقيقاً جداً كنت قد عرضته في خطبتين سابقتين، كيف أن الهدى له موجبات، وكيف أن الهدى له موانع، وكيف أن الهدى له تعاريف، وكيف أن الهدى له قوانين، هناك بحث لطيف جداً يستنبط من تقصي كلمة الهدى في كتاب الله، لا مجال لإعادة هذا البحث ! أرجو الله أن يمكنني من إعادته في وقت آخر.

(وَمَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ)

في هذه الآية ظاهرة بلاغية:

(وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ)

(هو)ضمير لمفرد الغائب، ضمير منفصل يدل على الغائب المفرد المذكر، ومن يضلل: كان من المناسب أن يقال: ومن يضلل فلن تجد له، فلماذا جاء الهدى بضمير المفرد ؟ وجاء الإضلال بضمير الجمع ؟ هذه الظاهرة البلاغية فسّرها المفسّرون بأن طريق الحق واحدة لا يتعدد، يؤكد هذا قوله تعالى في سورة أخرى:

(وَأَنّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ (153))

(سورة الأنعام)

الاستقامة لها حد واحد، خط مستقيم بين نقطتين لا يمر من هاتين النقطتين إلا خط مطابق للأول، أما الانحراف فهناك مئات ألوف الخطوط المنحرفة والمنحنية والمنكسرة والخارجة عن هذا الخط، فالباطل متعدد، فالربا باطل، والزنا باطل، الانغماس في الملذات والكذب باطل، الغيبة والنميمة باطل، أما الاستقامة لها حد واحد.

تعريف آخر، الاستقامة لها حد واحد، أو تسمى استقامة قطعية، بمعنى أن هذا البرميل الذي أعددته للوقود السائل إما أن يكون محكماً، وإما أن يكون غير محكمٍ، فإن كان محكماً فله حالة واحدة، إذا وضعت فيه ألف لتر، وأغلقته إغلاقاً محكماً فلن تنقص هذه الكمية أبداً ! أما إذا كان غير محكم فلابد من تسرب الوقود السائل ! قد يكون فيه فتحة تفرغه في ساعة، في نصف ساعة، في دقيقة، في عشر ساعات، في شهر، الخلل متعدد متدرج كثير متنوع، أما الإحكام فحالة واحدة، أما الخلل فله عدة حالات.

(وَأَنّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ (153))

بهذا المعنى بالذات جاءت هذه الآية:

(وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ)

لأن فلانا اهتدى سار على هذا الطريق، اهتدى فلان آخر سار على الطريق نفسه، تطابق مئة في المئة؛ لا يوجد كذب، أو غش، أو استعلاء، أو تكبر، أو نميمة، أو إفساد، ولو جاء إنسان آخر استقام على أمر الله انطبق مع سلوك هذين الاثنين ! فالمؤمنون على كثرتهم يمثلهم نموذج واحد، لأن طريق الاستقامة واحد، لكن أهل الكفر والدنيا لهم مشارب شتّى، وانحرافات شتّى، الانحرافات أنواع، والنوع درجات، لذلك أهل الباطل متفرقون.

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

(سورة الحشر)

هذا بطلان في اقتناص الملذات، هذا في كسب المال، هذا في العدوان على الأعراض، هذا في العلوّ في الأرض، كل إنسان أغرته الدنيا من زاوية فانحرف من أجلها، وانحرافه درجات، هذا يسرق ليرة، هذا مئة ليرة، هذا ألف ليرة، هذا يقتل، هذا يضرب، فالانحراف والمعصية والشتات منوّع جداً، من هنا جاء قوله تعالى:

(وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ)

ومن يضلل لأن طرق الضلال كثيرة فلن تجد لهم ـ بالجمع ـ أولياء من دونه.

هذه الظاهرة البلاغية، كيف أن الضمير جاء مفرداً مع الهدى ؟ لأن للهدى طريقاً واحداً، وكيف أن الضمير جاء للجمع مع الضلال ؟ لأن طرق الضلال كثيرة جداً.

(وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً(97))

عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ))

(مسند الإمام أحمد)

يشيب المرء على ما شبّ عليه، ويموت المرء على ما شاب عليه، يبعث المرء على ما مات عليه. فمن تعلق بالدنيا، وأكل من مالها الحرام، وانغمس في شهواتها المنحرفة، واستمرأ هذه الحياة، وشبّ عليها ونشأ هذا يشيب على هذه الصفات، ويموت على هذه الصفات، ويحشر على هذه الصفات ! شيء خطير، من هنا استنبط النبي عليه الصلاة والسلام أنه من بلغ الأربعين، ولم يغلب خيره شرّه فليتجهز إلى النار ! من هنا جاء في بعض الآثار:

((يا عبدي كبرت سنك، وضعف بصرك، وشاب شعرك، وانحنى ظهرك، فاستحي مني فأنا أستحيي منك))

من هنا كان الشاب الذي نشأ في طاعة الله تهون عليه طاعة الله طوال حياته، من هنا كان الإنسان الذي نشأ في المعصية يصعب عليه أن يغير نمط حياته، أدمن لعب الطاولة طوال حياته، أصبحتْ جزءاً من بنيانه، أدمن النظر إلى النساء، أدمن المزاح الرخيص، أدمن سماع الأخبار السيئة، أدمن الاسترخاء والاستمتاع والكسل، هذا يصعب عليه أن يصبح إنساناً آخر، يتمتع بالجرأة والاستقامة والهمة العالية.

فلذلك الشباب الذي أطاع الله عز وجل يباهي الله به الملائكة ! إن الله يباهي الملائكة بالشاب المؤمن، يقول:

((انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي، ويا من بلغ سن الأربعين وهو على الصراط المستقيم هنيئاً له))

قال تعالى:

(إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً)

(سورة الأحقاف: 15)

أشار كتاب الله إلى أن أشد الإنسان سن الأربعين ! فإذا بلغه وهو على طاعة الله فهذه شهادة طيبة إلى أنه سيتابع الطريق إلى الدار الآخرة

(وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ)

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد: 11)

إذا رفع الله إنساناً فليس في الأرض كلها قوة تستطيع أن تخفضه ! وإذا أعطاه من يمنعه ؟ ثم من يعطيك إذا ما منعك ؟ إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ:

((يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ، بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ))

(الترمذي)

وانتهى الأمر، علاقتك مع الله وحده.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود: 123)

(بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83))

(سورة يس)

(وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ)

(سورة الإسراء)

كيف أنهم كانون ناظرين إلى الدنيا، مستغرقين فيها، تعنيهم ملذاتها، يعنيهم مالها، يعنيهم متاعها، هذه النظرة السفلية يحشرون عليها، بعض المعاني أنهم بنظرهم إلى الأرض وشهواتها يحشرون هكذا يوم القيامة ! وبعضهم يقول: يحشرون على الوجهة التي كانوا عليها ! هذا الذي اتجه بكليّته إلى النساء، يحشر يوم القيامة على هذه الحالة ! يرتدي ثوب الشهوة، وهذا الذي اتجه بكليّته إلى جمع المال الحرام،

يلبسه الله هذه الشهوة رداءً له يوم القيامة، من أسرّ سريرة ألبسه الله رداءها يوم القيامة ! هذه الميول الخبيثة، الانحرافات تصبح يوم القيامة ثياباً يرتديها الإنسان يفضح على رؤوس الأشهاد !

(وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً)

في الدنيا كانوا عمياً عن الحق، فحشروا عمياً يوم القيامة، وفي الدنيا كانوا بكماً لا ينطقون بالحق، ينطقون بالباطل، فحشروا يوم القيامة بُكماً، في الدنيا كانوا صماً عن سماع الحق، سمعوا الغناء، سمعوا الباطل، سمعوا الترّهات، سمعوا الأقاويل، سمعوا الكلام القذر، ولم يسمعوا الحق، أعرضوا عن مجالس العلم، توجهوا إلى مجالس اللهو، كانوا صماً عن سماع الحق، فحشروا يوم القيامة صماً، إذاً:

(وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ كُلّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً(97))

هذا عذاب النار حق، لهيب النار الذي يلفح الوجوه حق.

(كُلّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنّ اللّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً (56))

(سورة النساء)

قال بعض الكفار: إذا دخل الإنسان النار ما هي إلا دقائق حتى يحترق جلده ومع احتراق جلده تموت أعصاب الحس وينتهي الأمر لأنه دارس الطب ويعلم أن النهايات العصبية الحسية في الجلد، وغفل عن قوله تعالى:

(كُلّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنّ اللّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً (56))

الأعصاب متجددة من أجل أن يكون الألم متجدداً !

(كُلّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً (97) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا)

الآيات هنا آيات كونية، والآيات قرآنية، لأن الكون قرآن صامت، والقرآن كون ناطق ! فسواء أكفر الإنسان بآيات الله التي بثها في السماوات والأرض، أو كفر بآيات القرآن الكريم، فالنتيجة أن جزاءه جهنم خالداً فيها أبدا.

(ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً(98))

لم يصدق أن هذا الإنسان الذي فني، يقول بعض الناس: وهؤلاء الذين يحرقون بعد الموت بالهند، وهؤلاء الذين تحرق مركباتهم في الجو، أين هم ؟ كيف يجمعهم الله عز وجل؟

(ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً(98))

ردّ الله عليهم بقوله تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّ اللّهَ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظّالِمُونَ إِلّا كُفُوراً(99))

فخلق السماوات والأرض أليس دليلاً قاطعاً على قدرة الله غير المتناهية ؟ الذي خلق السماوات والأرض أيعجزه أن يعيد خلق الإنسان مرة ثانية ؟

(قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً(100))

(سورة الإسراء)

الإنسان قبل أن يعرف الله عز وجل قتور، شحيح، بخيل، يخشى أن ينفق، فينتهي المخزون الذي عنده، لكن الله عز وجل كما في الحديث القدسي عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

((يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلا مَنْ عَافَيْتُ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، وَمَنْ عَلِمَ أَنِّي أَقْدِرُ عَلَى الْمَغْفِرَةِ فَاسْتَغْفَرَنِي بِقُدْرَتِي غَفَرْتُ لَهُ، وَلا أُبَالِي، وَكُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، وَكُلُّكُمْ فَقِيرٌ إِلا مَنْ أَغْنَيْتُ، فَاسْأَلُونِي أُغْنِكُمْ، وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمُ اجْتَمَعُوا عَلَى أَشْقَى قَلْبٍ مِنْ قُلُوبِ عِبَادِي مَا نَقَصَ فِي مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي مَا زَادَ فِي مُلْكِي مِنْ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ، وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمُ اجْتَمَعُوا فَسَأَلَنِي كُلُّ سَائِلٍ مِنْهُمْ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيَّتُهُ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ سَائِلٍ مِنْهُمْ مَا سَأَلَ مَا نَقَصَنِي كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ بِشَفَةِ الْبَحْرِ فَغَمَسَ فِيهِ إِبْرَةً، ثُمَّ انْتَزَعَهَا كَذَلِكَ لا يَنْقُصُ مِنْ مُلْكِي، ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ، صَمَدٌ، عَطَائِي كَلامٌ، وَعَذَابِي كَلامٌ، إِذَا أَرَدْتُ شَيْئًا فَإِنَّمَا أَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ))

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ:

((يَا عَبْدِي، مَا عَبَدْتَنِي، وَرَجَوْتَنِي فَإِنِّي غَافِرٌ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ، وَيَا عَبْدِي، إِنْ لَقِيتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً مَا لَمْ تُشْرِكْ بِي لَقِيتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً، وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلا مَنْ أَنَا عَافَيْتُهُ فَذَكَرَ نَحْوَهُ إِلا أَنَّهُ قَالَ: ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ وَاجِدٌ مَاجِدٌ إِنَّمَا عَطَائِي كَلامٌ))

(مسند الإمام أحمد)

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً(100))

(سورة الإسراء: 100)

الحقيقة أن الشح والبخل من لوازم أهل الكفر !

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

يا محمد..

أحد زعماء القبائل رأى النبي الكريم عقب بعض المعارك، وإلى يمينه واد من الغنم، عَنْ أَنَسٍ

((أنّ رَجُلًا سَأَلَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَأَعْطَاهُ إِيّاهُ، فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ، أَسْلِمُوا، فَوَ اللّهِ إِنّ مُحَمّدًا لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ، فَقَالَ أَنَسٌ: إِنْ كَانَ الرّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلّا الدّنْيَا، فَمَا يُسْلِمُ حَتّى يَكُونَ الْإِسْلَامُ أَحَبّ إِلَيْهِ مِنْ الدّنْيَا، وَمَا عَلَيْهَا))

(مسلم)

الإنسان الكافر من خصائصه أو من سيئاته أنه شحيح وبخيل ! لكن المؤمن معطاء، والله سبحانه وتعالى قال له: أنفق بلالاً، ولا تخشَ من ذي العشر إقلالا ! أنفق عبدي، أنفق عليك، خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن، أفيُعيِنِي رغيف أسوقه لك كل حين ؟

(قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً(100))

عبدي لي عليك فريضة، ولك عليّ رزق ! فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك !

الإنسان أحياناً يمنع عطاءه لمن يخالف أمره، يعاقبه بالحرمان، أما الواحد الدّيان فيعطي، ويطعم، ويرزق، وينزّل من السماء ماءً، والقوم يعصونه، إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إليّ صاعد، أتحبب إليهم بنعمي، وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إليّ بالمعاصي، وهم أفقر شيء إليّ، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أُقنّطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً (101))

(سورة الإسراء)

علاقة هذه الآية بسياق الآيات أن كفار قريش:

(أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً (93))

(سورة الإسراء)

ربنا عز وجل ردّ على هؤلاء أن قوم موسى رأوا تسع آيات بينات، رأوا بأم أعينهم كيف أن العَصا انقلبت ثعباناً مبيناً، وكيف أن البحر صار طريقاً يبساً، والآيات ذكرت في صور أخرى: القمّل والنمل والضفادع واليد والعصا والبحر.. كل هذه الآيات وهي خرق للعادات، ويستحيل على بني البشر أن يفعلوها، ومع ذلك:

(وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً (101))

فرعون لم يؤمن، على الرغم من كل هذه الآيات ! قال لهم موسى:

(قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (102))

(سورة الإسراء)

هذه الآيات لا يستطيعها بشر ! و:

(إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً (101))

أيْ: هالكاً، فأراد فرعون أن يستفزهم من الأرض، ضايقهم شدد عليهم إلى أن حملهم على أن يتركوا أرض مصر، فلما تركوا أرض مصر تبعهم ليعيدهم إلى سلطانه !

(فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً (103))

(سورة الإسراء)

كان عقاباً عادلاً، انشق البحر لسيدنا موسى ومن معه، وقال أصحاب موسى:

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62))

(سورة الشعراء)

أصبح البحر طريقاً، تبعهم فرعون وجنوده، فلما خرج سيدنا موسى ومن معه أدرك فرعَونَ الغرقُ، عندئذٍ قال:

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس: 90)

قال تعالى:

(آَلْآَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91))

(سورة يونس: 91)

(وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً (104))

(سورة الإسراء)

وعد الآخرة المقصود به يوم القيامة، تأتون إلينا أنتم، ومن خاصمتم، ومن صادقتم، ومن وعدتم، ومن خدعتم، جئنا بكم لفيفاً، وحاسبناكم حساباً دقيقاً

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

(وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً (105))

(سورة الإسراء)

هذه الآية أيضاً لها معنى دقيق، مضمون هذا الكتاب حق، ومعنى حق: حقيقة ثابتة ذات هدف نبيل، لقوله تعالى:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً)

(سورة ص: 27)

الباطل هو الشيء الطارئ، الشيء الزائل، الحق هو الشيء الثابت.

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (38))

(سورة الدخان)

واللعب هو العمل العابث غير الهادف، فالحق إذاً هو الشيء الهادف، فمعنى كلمة الحق الشيء المستقر الثابت الهادف، مضمون هذا الكتاب حق كل ما جاء به مطابق للحق، وللحقيقة، وللواقع، وللمنطق، الوعد حق لا بد من أن يقع، والوعيد حق لا بد من أن يقع، والحقائق التي جاء بها القرآن حق، أي: صحيحة.

(وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ)

يعني إنما أُنْزِلَ على هذا النبي صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بالحق، حينما نسند هذه الوظيفة الراقية إلى هذا الإنسان نقول: أسندناها بالحق، لأنه أهل لها، هو في مستواها، هو كفء لها، فالقرآن مضمونه حق، وأنزل على النبي عليه الصلاة والسلام بالحق، حق في مضمونه، وفي أهلية من نزل عليه.

(وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً (105) وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ)

نزل منَجماً في ثلاثة وعشرين عاماً، بحسب المناسبات، كأن الله عز وجل ربىّ أصحاب النبي صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وكأنه بهذه التربية يريد تربية الأجيال من بعدهم.

(وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ)

يعني نزلناه منجماً:

(وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً (106) قُلْ آَمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا)

(سورة الإسراء)

إذا فكرت، وفكرت، وقلت: إن الشمس أكبر من الأرض، أنت ماذا فعلت ؟ ذكّرت شيئاً ثابتاً، إن ذكرت هذا أو لم تذكره فالحقيقة لا تتغير، الشمس أكبر من الأرض، اعترفتَ بهذا أم لم تعترف، ذكرت أم لم تذكر، إذا لم تؤمن أنت هل القرآن يصبح باطلاً ؟ لا، القرآن حق، كأن تقول: في الهواء قانون كشفه علماء الفيزياء ـ قانون السقوط ـ فإذا ركب رجل طائرة، وأراد أن يهبط منها بمظلة، إما أن تعترف بهذه القوانين، أو لا تعترف، إن اعترفت بهذه القوانين استخدمت المظلة، وتأدبت مع هذه القوانين، وهذه المظلة حجمها وقماشها وتركيبها متوافق مع قوانين الهواء، فإذا استعملت المظلة تكون قد اعترفت بهذه

القوانين، وبالتالي نجوت من الهلاك، وإذا استخففت بهذا القانون، ولم تعبأ بقانون السقوط وقلت: هذه المظلة لا حاجة لي بها، ونزلت متحدياً قوانين الهواء فقد أهلكت نفسك، فالحق حق، والباطل باطل.

(قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا)

سيان إن اعترفتم به هو حق، وإن لم تعترفوا به هو حق، اعترافكم به لا يزيده قوة، وإنكاركم له لا ينقص من مكانته.

(قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً(107))

(سورة الإسراء)

من هنا قال أصحاب رسول الله: أوتينا الإيمان قبل القرآن، لو أن الإنسان فكر في ملكوت السماوات والأرض لعرف أن لهذا الكون خالقاً عظيماً، رحيماً هو أرحم ما يكون، عليماً هو أعلم ما يكون، غنياً هو أغنى ما يكون، قديراً هو أقدر ما يكون، إذا تأملتم في ملكوت السماوات والأرض عرفتم الله، فإذا قرأتم آياته القرآنية خشعت قلوبهم، لذلك قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً(107))

(سورة الإسراء)

لو أن إنساناً عرف معملاً ضخماً زاره شخصياً، فإذا نظر إليه في دفتر أو في كُتيّب يأخذه الإعجاب، لأنه قد اطلع عليه بشكل حقيقي ميداني، فهذه الصورة تثير عنده كل إعجابه القديم.

(إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (108))

(سورة الإسراء)

لذلك استنبط الإمام الشافعي رضي الله عنه من هذه الآية أن الإنسان إذا سجد سجود التلاوة يسنّ أن يقرأ في السجود قوله:

(سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (108))

وربّما استنبط النبي الكريم أن الإنسان إذا صلّى وسجد يقول: سبحان ربي الأعلى، من هنا.

(وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً (109))

وهذا البكاء بكاء الخشية استنبط وهو أرقى أنواع البكاء، هناك بكاء لو بكاه الإنسان في الصلاة لفسدت صلاته، إذا بكى على شيء فاته من الدنيا، صلاته فاسدة ! أما إذا بكى خشوعاً فصلاته من أعلى درجة! لذلك اقرأ هذا القرآن، وابكِ، فإن لم تبكِ فتباكَ.

(قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

(سورة الإسراء)

(الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف: 180)

الرحيم، الكريم، اللطيف، الغني، القدير، حتى إذا قلت: الضار، قل: الضارّ النافع، يضر لينفع، المعطي المانع، يمنع ليعطي ! إن هذه الدنيا دار ابتلاء، دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، الضار النافع، المانع المعطي، القابض الباسط، يقبض ليبسط، ويضر لينفع، هذه مداواة ربنا عز وجل، يداوي، ويعالج الإنسان، فأسماؤه كلها حسنى، ولو كُشف الغطاء لاخترتم الواقع، والرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين.

كان أعرابي يطوف حول البيت، ويقول: يا رب، هل أنت راض عني ؟ كان وراءه الإمام الشافعي قال: **يا هذا، هل أنت راض عن الله حتى يرضى الله عنك** ؟ قال: أنا أرضى عن الله ! وكيف أرضى عنه، وأنا أتمنى رضاه ؟ قال: **يا هذا، إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله !**

هل نحن هكذا ؟ هل تستقبل المصيبة برحابة صدر ؟ هل تقول: الحمد لله رب العالمين ؟ لا بد من حكمة بالغة، هل أنت راض بقضاء الله وقدره ؟ هل أنت راض بما قسمه الله لك من مال من زوجة، من أولاد، من بيت ؟ هل أنت راض عن الله حتى يرضى الله عنك ؟ المؤمنون رضي الله عنهم ورضوا عنه !

وكلما قرأت قوله تعالى:

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5))

(سورة الضحى)

أنت في الدنيا، والدنيا دار تكليف، لا دار تشريف.

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5))

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

(سنن الترمذي)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِسَخْلَةٍ جَرْبَاءَ قَدْ أَخْرَجَهَا أَهْلُهَا، فَقَالَ: أَتَرَوْنَ هَذِهِ هَيِّنَةً عَلَى أَهْلِهَا ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا))

(أحمد)

وكذلك الدنيا هينة على الله عز وجل، يعطيها لمن يحب، ولمن لا يحب !

(قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (110) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً)

(سورة الإسراء)

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3))

(سورة الإخلاص)

لأنه الصمد، وجوده ليس مفتقراً إلى غيره ! ولا يحتاج إلى ولد يحقق وجوده، هو مستغنٍ عن أن يكون له زوجة أو ولد !

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3))

هو الفرد الصمد.

(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً (111))

(وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (26))

(سورة الكهف: 26)

إذا أردت العزة فلله العزة جميعاً.

اجعل لربك كل... .. عزك يستقر ويثبتُ

فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميتُ

***

والحمد لله رب العالمين

الفهرس